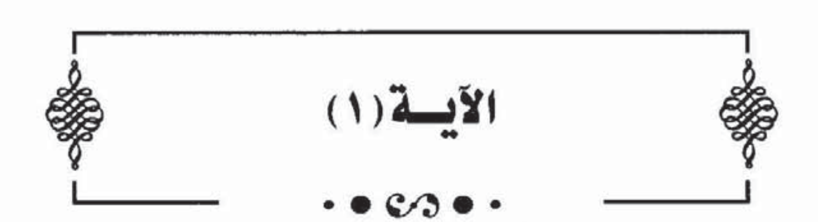
تفسير سورة النمل

تفسير القرآن الكريم



الآية (١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [هَذِهِ سُورةُ النَّمل، وسُمِّيَتْ به لِذِكْرِ النملِ فيها]، وتسميةُ السُّورِ يَكُونُ بأدنَى مناسبةٍ؛ ولِهَذَا البقرة سُمِّيَتْ سُورة البقرة لِذِكْرِ البقرة فيها، ولا يَمْتَنِعُ أَنْ تُسَمَّى سورةٌ بِعِدَّةِ أسماءَ لِعِدَّةِ مناسباتٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها مكِّيَّة، الصَّواب فِي المكِّيّ والمَدَنِيّ أن الفرقَ بينهما: ما نزل قبل الهجرةِ فَهُوَ مكّيّ، وما نزلَ بعدها فَهُوَ مدنيّ، وَقِيلَ: المكِّيُّ ما نزل بمكَّة، والمدنيّ ما نزل بالمَدِينَةِ، وَقِيلَ: المكيُّ ما فِيهِ ذِكر الأصول -أصول الإِسْلام أو الإِيمان- والمدنيّ ما فِيهِ ذِكْر الفُرُوع.

فعلى الأوَّل يَكُون المُعْتَبَر الزمَن، وَعَلَى الثاني المعتبَر المكان، وَعَلَى الثَّالث المعتبَر الموضوع، ولكِن الَّذِي عليه المحققون أن ما كَانَ بَعْد الهِجرةِ فَهُوَ مدنيّ، وما قبلها فَهُوَ مكّيّ، وقد ذَكروا فِي أصولِ التفسيرِ لذلكَ ضوابطَ يُرجَع إليها.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

أَمَّا البَسْمَلَةُ فقد تَقدَّم الكَلامُ عليها عدَّة مراتٍ، وبيَّنَّا أنَّ أحسنَ ما تُقَدَّر به: أنْ يَكُونَ فعلًا مناسبًا متأخِّرًا.

(أن يَكُون فِعلًا) لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العواملِ، وَهُوَ أيضًا أدلّ عَلَى الحُدُوث.

(متأخِّرًا) لفائدتينِ هما:

الأوَّل: التبرُّك بتقديمِ اسمِ اللهِ.

الثاني: إفادة الحصرِ، يَعْنِي: باسم الله لا باسمِ غيره.

(ومناسبًا) لِأَنَّهُ أخصُّ من العامِّ.

فـ(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) التَّقْدير: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرأُ، ويجوز أنْ تقدِّر: أقرأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ويجوزُ أن تقدِّر: قِراءتي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أو بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قِراءتي، لكِـنْ ما ذَكَرْنا أَوَّلًا هُوَ الأرجحُ. وأشار شيخ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى رُجحانه بقولِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ**»[1] فذكر فعلًا، ولم يقل: فليكنْ ذَبْحه، بل قَالَ: «**فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ**»[2].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿طسٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بذلك]. هَذَا ما سَلَكَه المُفَسِّر وجماعةٌ من أهلِ العلمِ، بأن هَذِهِ الحروفَ الهِجائيَّة الموجودة فِي أوائل بعضِ السُّوَر مَوْقِفنا مِنْهَا أن نَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلكَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»، حديث رقم (٥١٨١)؛ ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث رقم (١٩٦٠)، عن جندب بن سفيان البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣١).

وقد سبقَ فِي درسِ التَّفسيرِ أنَّ الراجحَ من ذلك: أن هَذِهِ الحروفَ هِجائيَّة، وَأَنَّهُ بِمُقْتَضَى كون الْقُرْآن بلسانٍ عربيٍّ يقتضي أَنَّهُ لا مَعنى لها، وذكَرنا أنَّ هَذَا قد رُوِيَ عن مُجاهِدٍ[1]، وأنها حروفٌ هجائيَّة ابْتَدَأَ اللهُ بها لَيْسَ لها معنًى، وَعَلَى هَذَا نَجْزِم بأَنَّه لا مَعْنَى لها ولكِنْ لها مَغْزى، وهوَ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن الَّذِي أعجزَ هَؤُلَاءِ الفُصَحَاءَ البُلَغَاء، إِنَّمَا هُوَ من هَذِهِ الحروف الهجائيَّة الَّتِي يَكُون مِنْهَا كلامهم، يعني ما أَتى بحروفٍ جديدةٍ؛ لِأَنَّهُ لو أتى بحروفٍ جديدةٍ سيَقُولُونَ: واللهِ هَذِهِ حروفٌ لا نعرِفها، فأَتى بنفس الحروف الَّتِي هم يَتكلَّمون بها.

ويؤيِّد ذلك أَنَّهُ ما من حروفٍ هجائيَّة إِلَّا ويأتي بعدها ذِكْر الْقُرْآن، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي سورتينِ أو شِبهِها، عَلَى أن هاتينِ السورتينِ مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢]، فيها ما يدلُّ على القرآنِ، كالإخبار في قولِهِ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:٢-٣]، وهَذَا من خصائصِ الوحيِ، وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت:٢]، فيها أيضًا إخبار عمَّن مضى فِي قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٣]... إِلَى آخرِه.

وأمَّا ما زَعمَه المتأخِّرُون الخالفونَ من أن هَذِهِ الحروفَ تدلّ عَلَى إعجازٍ من نوعِ العددِ والحُسْبَان، حَيْثُ زَعمُوا أن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة يوجد نظيرُها فِي السُّورَة المُفْتَتَحَةِ بها، ويَكُون مجموع هَذَا مُنْقَسِمًا عَلَى تسعةَ عشَرَ، ويزعُمون أنَّ هَذَا أكبر آيَة عَلَى أن الْقُرْآن كلام اللهِ. ويَحتجُّون لذلكَ بأَنَّ أَوَّل آيَة نزلتْ -على زَعْمِهم- هي: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وأنها مكوَّنة من تسعةَ عشَرَ حرفًا، وأن هَذَا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٠٨).

هُوَ معنى قوله تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، وأن التسعةَ عشرَ هِيَ هَذِهِ الحروف.

كُلّ هَذَا -والعياذُ باللهِ- كذِب، ولا يَنطبِق، وَهُوَ متناقِضٌ أيضًا وغير مُطَّرِد، لكِن هم فَرِحوا بِهَذَا الكمبيوتر الَّذِي أخرجَ لهم عددَ الحروفِ، وأنها بمجموعها تنقسم. ونحن نَقُول: لا يَمتنِع أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أراد هَذَا، ولَكِنَّنَا نَقُول: لا نَجْزِم بأنَّ الله أراد هَذَا؛ أوَّلًا: لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ذلكَ إعجازٌ.

والبَشَر قد يَصنَع خطبةً مثلًا أو كلامًا تتكون الحروف الموجودة فِيهِ وتَنقسِم عَلَى هَذَا العدد، أو عَلَى أيّ عددٍ شاء، وَلَيْسَ بِمُعْجِز.

ثُمَّ إن البَسْمَلَة ليستْ أوَّلَ ما نزلَ منَ الْقُرْآن، أوَّل ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، ثُمَّ إنَّ البَسملةَ أيضًا حروفها ليستْ كما قَالُوا: إِنَّهَا تسعةَ عشَرَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن إِنَّمَا نزلَ مَقروءًا، لا مَكتوبًا، وهي بحروفها باعتبار القراءةِ ليستْ كذلكَ، والكتابة كما هُوَ معلومٌ هِيَ صناعةٌ، وربما يُمْكِن أنَّ الكِتابةَ فِي عهد الرَّسُول ﷺ بل وَفِي عهد الخلفاءِ ليستْ عَلَى هَذَا الشكلِ.

فالْآنَ تُوجَد بعضُ اللُّغات يجعلون فيها الحركةَ حرفًا، ويجعلون الحرفَ حرفينِ، أو يَختصرون ويجعلون الحرفينِ حرفًا واحدًا.

فالحاصلُ: أن الْقُرْآن ما نزل مكتوبًا، وإنما نزلَ مقروءًا، ولا حُجَّة فِي ذلك.

إِذَنْ نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلك، هَذَا أحد الأقوالِ فِي المسألةِ.

والقَوْل الثاني: إِنَّهَا رموز لأَشْياء معيَّنة، مثل ما ذهب إليه هَؤُلَاءِ المتأخِّرون، أو مثل ما يَذْكُر بعضُهم أَنَّهَا إشارة إِلَى حروب وملاحمَ تكون فِي آخِرِ الزمان، وما أَشْبَهَهَا.

والثَّالث أن يُقال: إِنَّهُ لَيْسَ لها معنى.

وإذا أُورد علينا: كيف نَجزِم بذلك؟

فالجوابُ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن نزل بلغةِ العربِ، ولغةُ العربِ لا تجعل لهَذِهِ الحروفِ معنًى، لكِن إذا قُلْنَا بأنه لَيْسَ لها معنى فَإِنَّما لها مَغزى، يَظهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أن اللهَ أراد بها ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ آياتٌ منه ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر لِلْحَقِّ مِنَ الباطِل، عَطْف بزيادةِ صِفة، هُوَ ﴿هُدًى﴾ هادٍ مِنَ الضَّلَالَةِ].

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المشارُ إليه لاحِق وَلَيْسَ بسابقٍ، وهَذَا مِمَّا تعود فِيهِ الإشارةُ عَلَى متأخِّرٍ لفظًا ورُتْبَةً، وَهُوَ جائزٌ إذا دلَّ الدَّلِيل عليه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آياتٌ منه]، وإنها لجَأَ المُفَسِّر إِلَى قوله: [آياتٌ منه]؛ لأَنَّنا لو أخذنا بظاهِرِ الآيَةِ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكان فِي ذلك حَصرٌ للقرآنِ بهَذِهِ الآيَات، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَعْنِي: هَذَا الَّذِي نشير إليه، ومعلومٌ أنَّ هَذَا لَيْسَ آياتِ الْقُرْآن كلَّها، ولكِنَّه بعضٌ منها.

ويجوز أيضًا أن نجعلَ الآيَةَ عَلَى ظاهِرِها ولا حاجة إِلَى التأويلِ، ونَقُول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يشار إِلَى بعض الجنسِ بإشارة الجنسِ كلِّه، كما تقول مثلًا: هَذَا البشر، وتشير إِلَى رجل واحدٍ، أو هَذَا الْإِنْسَان وتشير إِلَى رجلٍ واحدٍ.

فالمَعْنى أنَّ الإشارة إِلَى بعضِ الجنسِ بالجنسِ كلِّه هَذَا سائغٌ، ولا يحتاج إِلَى تأويلٍ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عطف بزيادة صِفَة، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، عطف عَلَى (الْقُرْآن).

قال: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وإِنَّما وَصفَ هَذَا الْقُرْآن بالْقُرْآنِ والكتاب؛ لِأَنَّهُ مقروءٌ ومَكْتوبٌ. فَهُوَ مكتوبٌ فِي اللَّوْح المحفوظ، وَهُوَ مقروء بالأَلْسُن، وَهُوَ مكتوبٌ فِي المصاحِفِ أيضًا، فكتابته سابقةٌ ولاحقةٌ، وقراءته لاحقةٌ؛ لِأَنَّهَا بَعْد أنْ تَكَلَّمَ الله به ونزل به جِبريلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧-١٨].

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ الْقُرْآن هل هُوَ مصدر أو مُشْتَقّ؟

مصدر؛ لِأَنَّهُ مثل: الغُفران والشُّكران، فَهُوَ مَصْدَر: قرأ يقرأ، بمعنى: تلا. وَقِيلَ: إِنَّهُ بمعنى جَمَعَ؛ لِأَنَّ القافَ والراءَ تدلّ عَلَى الجمع، ومنه القَرْيَة؛ لِأَنَّهَا مُجْتَمع النَّاس.

وفي الحقيقة أن الْقُرْآن جامعٌ للوصفينِ، فَهُوَ مَتْلوٌّ وَهُوَ مجموع أيضًا.

وأما قوله: ﴿كِتَابٍ﴾ فهي فِعَال بمعنى مَفْعُول، أي: مَكْتوب. وفِعَال بمعنى مَفْعُول تأتي كثيرًا فِي اللُّغة العربيَّة مثل: بِناء بمعنى: مَبْنِيّ، وغِراس بمعنى: مَغْرُوس، وفِراش بمعنى: مَفْرُوش، وأمثلتها كثيرة. وسُمِّي كتابًا لِما أَشرنا إليه قبلُ.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ مِنَ الباطِلِ]، كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ فِعْلُها: (أبانَ)، وأبانَ يأتي لازمًا ويأتي متعدِّيًا، أي: يأتي بمعنى أظهرَ، ويأتي بمعنى بانَ، ولهَذَا تجد المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحيانًا يفسِّر مُبِين بمعنى: بَيِّن، وَعَلَى هَذَا التفسير تكون من اللازِمِ. ويُفَسِّرُهَا أحيانًا بمعنى: مُظهِر، فتكون من المتعدِّي.

كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، معنى (مبين) أي: بَيِّن، أي: فِي ضلالٍ بيّن، فهي من (أبان) اللازِم. وَأَمَّا مثل هَذِهِ الآيَة أن الْقُرْآن مُبين فَهُوَ بمعنى: مظهِر.

وهل يَستلزِم كونه مُظْهِرًا أن يَكُون هُوَ بيِّنًا؟

نعم يَستلزِم، أو نَقُول: إِنَّهُ من باب استعمـالِ المشترَك فِي مَعْنَيَيْه، والصَّحيح جوازه. وقد سبق هَذَا، فيجوز استعمال المشترك فِي معنييه، والمشترك هُوَ ما اتَّحَدَ لفظُه وتَعَدَّدَ معناه، وسُمِّي بذلك لِأَنَّ المعانيَ مُشْتَرِكة فِي لفظٍ واحدٍ.

والمشترَك الصَّحيحُ أَنَّهُ يجوز استعماله فِي معنييه بشرطينِ، وهما: أَلَّا يَقَعَ بينهما تعارُضٌ وأن يَكُون مُحْتَمِلًا لهما.

فإن كَانَ لا يَحتملهمـا فلا يمكن أن يُحمَلَ عليهما، وإن وقعَ بينهمـا تعارُضٌ فلا يُمْكِن، لَا بُدَّ أن يَكُون أحدُهما هُوَ المقصودَ.

فِي هَذِهِ الآيَة إذا قُلْنَا: إن مُبين من أبانَ اللازِم، ومن أبان المتعدِّي هل يجوز أو لا يجوز؟

يجوز، وإن كَانَ هَذَا مُشْتَرَكًا لَكِنَّهُ إذا استُعمل فِي مَعْنَيَيه فَإِنَّهُ مستعمَل عَلَى وجهٍ لا تعارُض فيه، فالْقُرْآنُ بَيِّن والْقُرْآن أيضًا مُظْهِر. وَعَلَى هَذَا التفسيرِ تكون دلالة (مُبين) عَلَى أن الْقُرْآن بَيِّن دلالةَ مطابَقَةٍ، يَعْنِي: إذا جَعَلْنَا (مبين) مستعملةً فِي المعنيين فالدلالة مطابقةٌ، لكِن لو قُلْنَا: إن (مبين) بمعنى: مُظهِر فدلالته عَلَى كونِه بَيِّنًا من بابِ دلالةِ الالتزامِ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ منَ الباطِل]، هل هُوَ عَلَى عُمُومه أو خَاصّ بما نزلَ به الْقُرْآن؟

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وَهُوَ عامٌّ فِي كُلّ شيءٍ، لكِن البَيَان قد يَكُونُ بَيَانًا للشيءِ عَلَى وجهِ التفصيلِ، وقد يَكُون

بَيَانا لأَسْبابِهِ وطُرُقِهِ وأنت امشِ فيها، فالْقُرْآن فِي الحقيقةِ تِبيَان لكلِّ شيءٍ، حَتَّى فِي غيرِ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة يُبيِّنها، لكِن ما يُبيِّن تفصيلَها؛ لِأَنَّ غير الأُمُور الشَّرْعِيَّة خاضع للزمانِ والمكانِ وأفهامِ النَّاسِ وقوَّتِهم، لَكِنَّهُ يذكر الأَسْبَاب والطرقَ، وأنت استعمِلْها فِي نفسِكَ.

وهَذَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَصِحُّ هَذَا القَوْلُ منكم ونحن لا نرَى فِي الْقُرْآن عدد ركعاتِ الصَّلَاة، ولا نرى فيها أَنَّها خمسُ صلواتٍ، ولا نرى أنصباءَ الزكاةِ، ولا مقاديرَ الواجبِ فيها، فما هُوَ الجواب؟

فالجواب أن نَقُول: يَكُون الْقُرْآن دالًّا عَلَى هَذَا ببيَان سببِه وطريقِه، فعندنا الْآنَ طريق العلمِ بهَذَا الشَّيْءِ هُوَ ما فسَّره الرَّسُول ﷺ وهَذَا بيَّنه الْقُرْآن، ولا يلزم أن يَكُون هَذَا الْقُرْآن لَا بُدَّ أن يذكر كُلّ التفاصيلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٨٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤].

وابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّة لعنِ النامصةِ والمُتَنَمِّصَةِ حَيْثُ جاءتْ إليه امرأةٌ فقالت: إنَّا لا نجد هَذَا فِي كتاب الله. فقال: بلى هُوَ فِي كتاب اللهِ. ثُمَّ تلا عليها قوله تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧][1].

فالحاصل: أن الْقُرْآنَ مُبِينٌ لكلِّ شيءٍ، لكِن البَيَان قد يَكُون تفصيليًّا، وهَذَا فِي بعض الأُمُور موجود، كما فِي المواريثِ مثلًا، وَفِي المطلَّقات، فتجد ما يَشِذُّ عن هَذَا إِلَّا مسائل قليلة جدًّا، ومع ذلك بيَانها موجودٌ عند التأمُّل.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب المتنمصات، حديث رقم (٥٥٩٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، حديث رقم (٢١٢٥).

فتَفْصيل الفرائضِ تفصيلٌ ما شذَّ عنه شَيْء إِلَّا مسألةٌ واحدَةٌ، وهي الجَدَّة، فهَذِهِ ليستْ مذكورةً فِي القُرْآن، لكِن جاءت بها السُّنَّة، وَأَمَّا ما عدا ذلك -حَتَّى المسائل الخلافيَّة، المُشَرَّكَة مثلًا، وكالعُمريتينِ- نجد أَنَّهَا موجودةٌ فِي القُرْآن، وكالجدِّ والإخوة نجد أَنَّها موجود بَيَانها فِي القُرْآن، لَكِنَّهُ يحتاج إِلَى تأمُّل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهِر للحقِّ من الباطل، عطف بزيادة صفةٍ، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، الصِّفة هي ﴿مُّبِينٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ آيَة لِما تَضَمَّنَهُ من الأخبارِ الصادقةِ والأحكامِ العادلةِ ... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرْآن مكتوبٌ سابقًا ولاحقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن القُرْآن مُبَيِّنٌ لكلِّ شيءٍ، وتوجد آيَة صريحةٌ فِي هَذَا الموضوع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: يُستفاد من هَذِهِ الآيَةِ -وإن كانتْ بعيدةً، ولكِنِّي سأبيِّنها- أن القُرْآن لا يخرج عن كونِهِ قرآنًا، وإن كُتِبَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، فَهُوَ كلام الله، سواء قُرِئَ أو كُتِب، وذلك مفهومٌ من قولِهِ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾، ولا يَكُون آيَة إِلَّا إذا كَانَ من كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •



الآيــة (٢)

• ● ◌ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:٢].

• ● ◌ ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ﴿ هُدًى ﴾]، قدَّرَ المُفَسِّر (هو) لِيُبيِّن لنا إعرابَ (هدى) فعلى تقديرِه يَكُون (هدى) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، التَّقْدير: (هو هُدًى).

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هادٍ مِنَ الضَّلالةِ]. ومعلوم أن هُدى مَصْدَر، وأن هادٍ اسمُ فاعلٍ، فيَكُون المُفَسِّر هنا فسَّر المصدرَ باسمِ الفاعلِ، وَفِي تفسيرِهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ الأَولى أن يُجْعَل المصدر عَلَى بابه؛ لسببينِ:

السَّبَب الأول: أن تحويل اسْم الفاعل إِلَى المصدر أبلغُ، فإنَّك إذا قلتَ: فلان عَدْلٌ، وفلان عادلٌ، أيُّهما أبلغ؟ عَدْلٌ أبلغُ، يَعْنِي كأنه مصدر العَدْل، لكِن (عادل) متَّصِف بالعدلِ الموجودِ فِي غيرِه، فلَا شَكَّ أن المصدر أبلغُ.

السَّبَب الثاني: أن جعله هدًى معناه: أن الْقُرْآن نفسه هُدًى يهتدِي به الْإِنْسَان، لَيْسَ هاديًا، بل هُوَ هُدًى يهتـدي به، فَهُوَ كالعَلَمِ الَّذِي يسير الْإِنْسَان وراءهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى غايته، مثلمـا سمَّاه الله تَعَالَى نُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النِّساء:١٧٤].

قوله: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بُشرى أيضًا بمعنى: بِشارة، وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدِّقين به بالجنَّة].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالجنة]، سَيَأْتي.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به]، لا يكفي هنا أن الإِيمان مجرَّد التَّصْديق، بل الإِيمان الموجود فِي الْقُرْآن لَا بُدَّ فِيهِ من قَبول وإذعانٍ مَعَ التَّصْديقِ، أَمَّا مجرَّد التَّصْديق فلا يَكفي، والدَّلِيل عَلَى أن مجرَّد التَّصْديق لا يكفي: أَنَّ أبا طالبٍ كَانَ مصدِّقًا لِمَا جاء به الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقول(١):

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

ويقول(٢):

وَلَقَدْ عَلِمْت بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فإِذَنْ: هُوَ ما قَبِلَ ولا أذعنَ فليس بمؤمنٍ.

فكلَّما وجدتَ الإِيمانَ فِي كتابِ اللهِ فالْمُراد به التَّصْديقُ المستلزِمُ للقبولِ والإذعانِ، فليس مجرَّد تصديق.

فإِذَنْ نَقُول: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به القَابِلِين له الْمُذْعِنين لأحكامِه، لَا بُدَّ من هَذَا.

وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُستفاد من ذلك: أَنَّهُ كلَّما كَمُلَ الإِيمان فِي العبدِ كمُل اهتداؤُه بالْقُرْآن؛ لِأَنَّ الشَّيْء إذا عُلِّق بوصفٍ زاد بزيادة ذلك الوصف ونَقَصَ بنقصِه. فالحُكْم إذا عُلِّق بوصفٍ فإن هَذَا الوصفَ يَزيدُ الحكمُ بزيادتِه ويَنْقُص

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

بِنُقْصَانِه، وهَذَا معلومٌ حَتَّى فِي المحسوسِ، تجد أن الشَّيْء المعلَّق بشيء يزيد بزيادتِه، ويَنْقُص بنُقصانِه، فنَقُول: كلَّما ازداد الْإِنْسَان إيمانًا ازداد اهتداءً بالْقُرْآن، ويدلك عَلَى هَذَا قول الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، ويدل أيضًا عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

وأيضًا ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البِشَارَة هِيَ الإخبارُ بما يَسُرُّ، وقد تُطْلَق عَلَى الإخبارِ بما يَسُوء، لكِن بقرينةٍ.

وهنا يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بُشرى بالجنَّة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا بُشرى بما هُوَ أعمُّ؛ بالجنَّة وبالعزَّة والكرامة وبالنصرِ، والدَّلِيل قوله تَعَالَى فِي سورة الصفِّ بعدما ذكر الجنة لِلْمُؤْمِنينَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ﴾ [الصف:١١-١٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، يَعْنِي: بَشِّرهم بما لهم فِي الجنَّة، وبَشِّرْهُم بما لهم فِي الدُّنْيا مِنَ النصرِ، وكلُّ إِنْسَانٍ بطبيعتِه البَشَرِيَّة يحبّ أنْ يَنتصِرَ عَلَى عدوِّه، ويحب أن يَكُون له العزُّ والكرامة، هَذَا لا يمكِن أن يَكُون إِلَّا بالإيمانِ، وكلَّما ازددنا إيمانًا ازددنا انتصارًا عَلَى عدوِّنا، وكلَّما تخاذَلْنَا فِي الإيمانِ خُذِلنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وإذا أردنا دليلًا عَلَى هَذَا فلننظُرْ إِلَى الَّذِينَ يُطَنْطِنُونَ بالقوميَّة العربيَّة، منذُ مَتى وهم يطنطنون بها؟

أظنُّه من أوَّل القرن، ومع ذلك لا يزدادونَ إِلَّا تأخُّرًا وضعفًا؛ لِأَنَّهَا ليست

عَلَى إيمانٍ، ولمّا ظهرتْ بادرة الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام والتضامُن الإِسْلاميّ ماذا حصل؟

حاولوا بكلِّ ما يَستطيعون أنْ يَقْضُوا عَلَى هَذَا، لَيْسَ من الدولِ الكافرةِ، بل حَتَّى من الدولِ المسلِمة العربيَّة، وصاروا يَقُولُونَ: إن هَذِهِ دعوة رجعيَّة.. إِلَى آخره.

فالحاصل: أننا الْآنَ إذا أردنا أن نرجعَ إِلَى العزَّة والكرامة والنصر فلا يَكُون ذلك إِلَّا بالإِيمانِ.

وقد يَقُول قائلٌ: كيف نَنتصر بالإيمانِ وحدهُ على من لديهم أسلحة فتّاكة متطورة لم نَصل بعدُ إلى امتلاكِ أمثالها؟

نقولُ إنَّ أسبابَ النَّصر هِي:

أولًا: إخلاصُ النِّيَّة لله، بأنْ ننْوِي بجهادِنا إعلاءَ كلِمَةِ اللهِ، وتثبيتَ شريعَتِه، وتحكيمَ كِتابه وسُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانِيًا: أن نلْتَزم بالصَّبر والتَّقوى، فإنَّ اللهَ مَع الصَّابرين، وإنَّ اللهَ مع المتَّقينَ، علَيْنا أنْ نصبر عَلَى الجهادِ، وأنْ نتقِيَ اللهَ تَعالى بامتِثَال أوامِره واجْتناب نواهِيه، فإنَّ مخالَفة أمْر اللهِ ورسولِه مِن أسْباب الخِذْلانِ، فهؤُلاءِ صَحابَةُ محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَع رسُولِ اللهِ ﷺ خالَف بعْضُهم في أمْر واحِدٍ مِن أوامِر رسُولِ اللهِ ﷺ فِي غزْوَة أُحُدٍ فكانَتِ الهزيمَةُ علَيْهم بعْدَ أنْ كانَ النَّصرُ لهم فِي أوَّل الأمْر، ولكِن بعْد ذَلك تدارَكَهُم عفْوُ اللهِ فعَفا اللهُ عنْهُم.

ثالِثًا: أنْ نعرف قدْرَ أنفُسِنا وأنَّ لا حوْلَ لَنا ولا قُوَّة إلَّا باللهِ، فلا يأخُذْنا العجبُ بقوَّتِنا وكثْرَتِنا فإنَّ الإعْجابَ بالنَّفْس والاعتِزاز بها مِن دُون اللهِ سبَبٌ للخِذْلان، ولقَد أُعْجِب الصَّحابَة بكَثْرتِهم في يَوْم حُنَيْنٍ فلَمْ تُغن عنْهُم شيْئًا ثُمَّ ولَّوْا مُدبِرينَ،

ولكِنَّ اللهَ أَنْزَل سَكِينته عَلى رسُولِه وعَلى المؤْمِنينَ وأَنْزَل جُنودًا مِن الملائِكَة فكانَتِ العاقِبَةُ للمُؤمِنين.

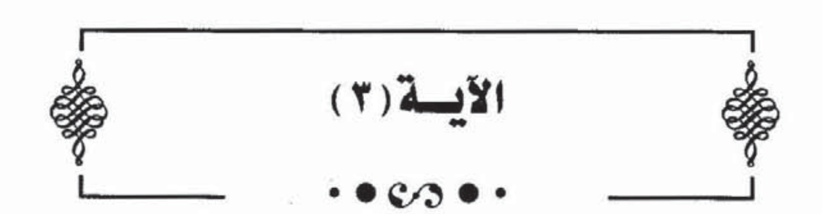
رابعًا: أن نُعِدَّ العُدَّة للأعْدَاء مستعمِلِين في كُلِّ وقتٍ وحالٍ ما يُناسِب مِن الأسلِحَة والقُوَّة لنرُدَّ على سِلاح العدُوِّ بالمثْل، فإذا تحقَّقتْ هَذه الأمُورُ الأَرْبعَةُ فإنَّ اللهَ تَعَالَى يقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن هُدًى للناس، والمُراد بالهداية هنا هدايةُ الإرشادِ، كُلّ النَّاس يَسْتَرْشِدُون به لو شاءوا، يعني أن الْقُرْآن لا نَقْصَ فِي دلالته، لكِن هداية التَّوفيق خاصَّة بالمُؤْمِنِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن بُشرى للمُؤْمِنِينَ، بشرى فِي الدُّنْيا بالنصرِ وَفِي الآخِرَة بالجنةِ وبما أُعِدَّ لهم منَ الثواب بالجنَّة، وبالعِزَّة وبالكَرامَةِ وبالنَّصْر.

• • ۞ • •



الآية (٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣].

•●○●•

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها عَلَى وَجْهِها]، أقام الشَّيْءَ: أَتَى به مُستقيمًا، ولا تكون الصَّلَاة مستقيمةً إِلَّا إذا أتى بها عَلَى وَجهها.

وإقامة الصَّلَاة نوعانِ: نوع لَا بُدَّ منه، وَهُوَ الإتيان بالأركانِ والواجباتِ والشروطِ، ونوع يَكُون عَلَى وجهِ الكمالِ، وَهُوَ الإتيان بالمُكَمِّلات من السُّنن وغيرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها عَلَى وَجهها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يعطون ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾...]، إِلَى آخِره.

قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هل المُراد الفريضة أو النافلةُ؟

نَقُول: عامٌّ؛ لِأَنَّهُ لا يجوز للإِنْسَانِ أن يأتيَ بالسنَّة مثلًا عَلَى وجهٍ يُنافي الكمالَ الواجبَ، لو قَالَ واحد: أنا سأتطوَّع، لكِن لن أقرأ الفاتحةَ، أليستْ سُنَّة. يجوز أو لا يجوز؟ لا يجوز، نَقُول: الْآنَ يَجِب عليك أن تقرأَ الفاتحة، لو قَالَ: لن أركعَ، لن أسجُدَ لا يمكِن هَذَا، فإذن فِي الآيَةِ الصَّلَاة إقامتها عامَّة فِي الواجب وَفِي التطوُّع.

وقوله: ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لم يبيِّن المَفْعُول الثاني لـ(يؤتون)، لَكِنَّهُ معلومٌ،

والتَّقْدير: (يؤتون الزكاة مُسْتَحِقَّها) وقد بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مستحِقَّ الزكاة فِي سورةِ بَرَاءَة ببيَان واضحٍ مفصَّلٍ.

وقوله: ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا حاجة إِلَى تعريفها عندكم لِأَنَّهَا معروفةٌ، وسُمِّيَتْ زكاةً لِأَنَّهَا تُزَكِّي الْإِنْسَان، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هَذَا ثناء عَلَى الْمُؤتِينَ للزكاة، والسُّورَة كما تقدَّم مكّيّة، فهل معنى ذلك أن الزكاة فُرضت بمَكَّة أو فِي الْمَدينَة؟

المعروف عند أهلِ العلمِ أَنَّهَا فُرضت فِي الْمَدينَة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا فُرضت بمكَّة، ولكِنَّ تقديرَ أنصبائها وبَيَان الأموال عَلَى وجه التفصيلِ كَانَ ذلك فِي الْمَدينَةِ، هَذَا هُوَ الصَّحيح، وَهُوَ الَّذِي به تَجتمع الأدلَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: تأخّر بَيَان أَنْصِبَة الزكاة إِلَى ما بعدَ الهجرةِ أَلَا يَكُونُ من بابِ تأخيرِ البيَان عن وقتِ الحاجةِ؟

فالجواب: لا، هَذَا من باب التطوُّر فِي التشريع، فبيَّن الزكاة وتركها موكولةً للإِنْسَان يختار ما يُخْرِج، فيُخْرِج ما شاءَ؛ لأجلِ أن تتعوَّد النفوس، ثُمَّ بَعْد ذلك يَفْرِض عليها الشَّيْءَ الَّذِي أراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهَذَا مِثْلُ غيرِه منَ الأَشْيَاء الَّتِي تطوَّرت: الصَّلَاة فُرِضَتْ ركعتينِ، ثُمَّ أُقِرَّت صلاةُ السفرِ وزِيد فِي صلاة الحَضَر[1].

والزكاة هَكَذَا فُرِضَت أَوَّلًا عَلَى اختيار الْإِنْسَان، ثُمَّ حُددت، والصِّيَام فُرض عَلَى سبيل التخيير ثُمَّ عُيِّن، والحجُّ هُوَ الَّذِي ما أعلمُ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ فُرض مرَّةً واحدةً،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٥).

ولكِن السَّبَب فِي ذلك أَنَّهُ أتى فِي السنة التَّاسعةِ أو العاشرةِ بعدَ أنِ استقرَّ الإيمان فِي القلوبِ، فلا حاجة إِلَى أن تُدَرَّج النفوس من مرحلة إِلَى مرحلة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف نَجْمَعُ بينَ حديثِ ابنِ عبَّاس: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ**»[1]، وبينَ حديثِ عائشةَ؟

قُلْنَا: أنا لا أَدري صِحَّة هَذَا الحديثِ، وَعَلَى فَرض صِحَّته وقد قالَه ابنُ عبَّاسٍ، فحديثُ عائشةَ أصحُّ، فحديثُ عائشةَ: «**أَوَّل مَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ**»[2] صَريح صحيحٌ، وَعَلَى هَذَا فالجمعُ أَنْ يُقالَ: فُرِضَتْ أربعًا ثُمَّ فُرضتْ ركعتينِ ثُمَّ قُسم إِلَى حَضَر وسفرٍ.

مسألة: هل يجوز التدريجُ فِي الأحكامِ لِمَن يُسْلم؟

الظَّاهر لي أَنَّهُ يجوزُ، وأن نأمرَه بالأهمّ فالأهم، مثلما أمر الرَّسُول ﷺ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ، مَعَ أنَّ الأحكام مستقرَّة. قَالَ: «**أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ**»[3] مَعَ أنَّ كُلّ هَذِهِ كانتْ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ، حديث رقم (٣٧٢٠)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النَّبِيّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حديث رقم (٦٩٣٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظ مسلم: لما بعث النَّبِيّ ﷺ معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**».

مفروضةً، وحتى الصوم والحجُّ أيضًا مفروض.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَعْلَمُونها بالاستدلالِ، وأُعيدَ (هم) لما فُصِلَ بينه وبين الخبر].

قوله: ﴿وَهُم﴾ مُبتدَأ و﴿يُوقِنُونَ﴾ خَبَره، و﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ متعلِّق بـ(يُوقِنون)، ولكِن كلمة ﴿هُمْ﴾ أُعيدتْ مرَّة ثانيةً، فهل هَذَا من بابِ التَّوْكيدِ ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني ﴿وَهُم﴾ همُ الَّذِينَ يوقنون دونَ غيرِهم، أو أَنَّهُ كما قَالَ المُفَسِّر: للفصلِ بينه وبين الخبرِ، والفاصلُ قوله: ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾؟

يَحتمل هَذَا وهَذَا، وقد يجوز أن يَكُونَ المُراد الجميع، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُم هم أهلُ الإيقانِ، حَيْثُ كرَّر الضَّمير مرتينِ، وكُرِّرَ أيضًا مرتينِ لِطُول الفصلِ بين الخبرِ وبين المبتدأِ بالفاصلِ.

ولكِن الإيقان يَقُول المُفَسِّر: [يعلمونها بالاستدلالِ]، إِنَّمَا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بالاستدلال؛ لِأَنَّ الْيَقين أخصُّ منَ العلمِ؛ إذ إن الْيَقين معناه: العِلم الَّذِي لا يَتطَرَّق إليه الاحتمالُ، فهُوَ أعلى درجاتِ العلمِ، وهَذَا إِنَّما يَكُون بالاستدلالِ، يعني بالأدلَّة المُبيِّنَةِ المقنِعة، فلهَذَا فسَّر المُفَسِّر الْيَقينَ بأنه: العِلم بالأَشْيَاء عن طريق الاستدلالِ.

وقوله: ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هل المُرادُ بالآخِرَة أَنَّهُ يُبعث النَّاس فقطْ؟

نَقُول: لا، فكُلّ ما أخبرَ الله تَعَالَى به ممَّا يَكُون فِي هَذَا اليوم أو أخبر به رسولُه فَإِنَّهُ داخلٌ فِي الآخِرَةِ، بل إن شيخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: إِنَّهُ يدخل فِي الإيمان باليوم الآخِر كُلّ ما أخبر به النَّبيّ ﷺ مما يَكُون بَعْد الموت[1].

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥).

فعلى هَذَا يَكُون المُراد بالآخِرَة: ما بعدَ الدُّنْيا، فتَشمَل عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمل كذلك الموازينَ فِي يوم القيامةِ والحوضَ المورودَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما ذُكِر.

وهل بَقِيَ شيءٌ منَ الإيمانِ؟ لِأَنَّهُ ذكر إقام الصَّلَاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخِرَة؟

وتقدَّم أن الإيمانَ باللهِ يَتضمَّن الإيمانَ بالرُّسُل ويَتَضَمَّنُ الإيمانَ بالكُتُبِ، ويَتَضَمَّنُ الإيمانَ بالملائكةِ، بل ويتضمَّن الإيمانَ باليومِ الآخِرِ، ويتضمَّن الإيمانَ بالقَدَر؛ لِأَنَّ الإيمان بالقدرِ من الإيمانِ بالله؛ لِأَنَّ القَدَر قَدَر الله.

نَقُول: بقِي الصِّيَام والحجُّ، وهما من أركانِ الإِسْلامِ، والجواب عَن ذلك: أن السُّورَة مكِّيّة، والصِّيَام والحجّ لم يُفرضا بمكَّة بالاتِّفاقِ، فالصِّيَام فُرض فِي السنة الثَّانِيَة، والحج فُرض فِي السنة التَّاسعة أو العاشرة عَلَى القَوْل الراجِحِ، وَعَلَى هَذَا فليس فِي الآيَة إشكالٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضل إقامة الصَّلَاة، وأنها من أوصاف المُؤْمِنِينَ، وفضل إيتاء الزكاة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن محلّ الثَّناء لِلْمُصَلِّين فِي إقامتِها والإتيان بها عَلَى الوجهِ الأكملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الصَّلَاة بالزكاة يَدُلّ عَلَى أهميتها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الزَّكاةَ فُرضت بمَكَّة.

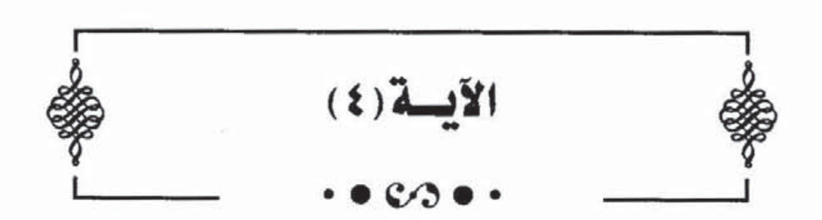
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَعْمال من الإيمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تضييع الصَّلَاة والبُخل بالزكاة ينافي الإِيمان؛ لِأَنَّ الله جعل من أوصاف المؤمنين إقامة الصَّلَاة وإيتاء الزكاة، فمَن لم يكن يقيم الصَّلَاة ولم يؤتِ الزكاة فَهُوَ ناقصُ الإيمانِ، وقد يَكُون معدومَ الإيمان بالكُلِّيَّة كما فِي ترك الصَّلَاة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اليوم الآخِر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الْإِنْسَان إذا آمَنَ بالشرائعِ الْمُنْزَلَة فَهُوَ كامل الإِيمـانِ، وإن لم يُدْرِكِ الفرائضَ المتأخِّرة، فالَّذِينَ ماتوا من الصحابة قبل فرضِ الصِّيَام إسلامهم كاملٌ، بل إن الرجل يمكنُ أن يؤمنَ ويموت قبل أنْ يصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويَكُون بذلك كاملَ الإِيمان. يعني إيمانه كامِل وإن كَانَ غيرُه الَّذِي أدركَ أكملَ منه، لَكِنَّهُ هُوَ بالنِّسْبَةِ إليه ما يقال: إيمانه ناقِص -أي أَنَّهُ ناقص نقصًا يُخِلّ به-.

• • ۞ • •



الآيــة (٤)

• • ☙ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل:٤].

• • ☙ • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ القَبِيحَةَ بتركيبِ الشَّهْوةِ حَتَّى رَأَوْها حَسَنَةً ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرون فيها لِقُبْحِها عِنْدَنَا].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها؛ لِأَنَّ مَن لم يُصَدِّقْ لا يُمْكِن أن يَقبَلَ أو يُذْعِنَ.

إِذَنْ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يشمل نفي التَّصْديقِ ونفيَ القبولِ ونفي الإذعانِ. والفَرْقُ بينَ القَبُول والإذعانِ مَعروفٌ، فمثلًا أَقْبَلُ أنَّ هَذَا الشَّيْءَ فُرِض، وأَعْتَقِدُه فرضًا، لكِنْ لا أَفْعَلُه، فالذي تَخَلَّف الإذعانُ.

وأمَّا عَدَمُ القَبولِ فهو أنْ يَرْفُضَ هَذَا ويقول: هَذَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ ولا نَعْتَرِف بأنَّه فَرْضٌ، وَأَمَّا التَّصْديقُ فَهُوَ الإنكارُ المطلَقُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين التَّصْديقِ والقَبُولِ؟

نَقُول: التَّصْديق: أَنَّهُ يُصَـدِّق بأنَّ هَذَا حقٌّ لَكِنَّهُ لا يَقبَـلُه، يَقُول: نعمْ، هَذَا الرجلُ جاءَ بالحقِّ، لكِن أنا لا أقبله. والقَبـول فِي الغالـبِ يَكُون فِي المعتـقَدات، والإذعان فِي الأَعْمالِ الظَّاهرةِ كأعمال الجوارِحِ.

وقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ هَذِهِ الجملةُ ﴿زَيَّنَّا﴾ خبرُ إنَّ، وتفيد أن العِلَّة فِي التزيينِ عدم الإيمانِ بالآخِرَةِ، وأن الله تَعَالَى لم يُزَيِّن لهم[1] هَذِهِ الأَعْمـال إِلَّا بسبب عدمِ إيمانِهِم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

ومن هنا نعرِف أن الَّذِي يزيَّن له سُوءُ عَمَلِه يَكُون ذلك دليلًا عَلَى نقصِ إيمانِه بالآخِرة؛ إذ لو كمُل إيمانُه بالآخِرَةِ لكانَ يعرف الحسن من السَّيِّئ، فيفعل الحسن ويَتَجَنَّب السَّيِّئ، ولكِن لضعفِ إيمانِه بالآخِرَة يحصُل له هَذَا الفِعْل القبيح ويراه حسنًا. ولا حاجة إِلَى أن نُعَدِّد أنواعًا من ذلك؛ لِأَنَّ الأنواع ممَّن زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه كثيرةٌ جدًّا، فبلَا شَكّ من العَمَل السيِّئ أَنَّهُ إذا نزل فِي أرضٍ أخذَ أربعةَ أحجارٍ ووضَعَ ثلاثةً للقِدْرِ وواحدًا يَعْبُده[2].

ولَا شَكَّ أنَّ من العَمَلِ السيِّئ المُزيَّن أن الْإِنْسَان يَتَّخِذُ تمرًا عَلَى صورة صَنَمٍ فيَعْبُده، فإذا جاع أكلَه.

ولَا شَكَّ أنَّ من سُوء العَمَلِ المزيَّن أنَّ الْإِنْسَان يأتي بابنتِهِ -وهي ثَمَرَة فُؤَادِهِ- ويَحفِر لها الحُفرة ويَغْمِسها وهي حيَّة. هَذَا لا يَكُون -والعياذُ بالله- ولا من السِّباع، ومعَ ذلك زُين لقومٍ من أهل الجاهليَّة هَذَا العَمَل؛ حَتَّى إِنَّهُم يَقُولُونَ: إِنَّهُ يقف عَلَى الحفرة لِيُلْقِيَها، وإذا همَّ أنْ يُلْقِيَها تَشَبَّثَتْ به وتقول: يا أبتِ يا أبتِ! فتستجير به وَهُوَ داؤها! نسألُ الله العافيةَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرون فيها]، هَذَا -والعياذُ بالله- من عدمِ الإيمانِ أنَّ الْإِنْسَان لا يوفَّق للهداية، تَجِدُه حائرًا؛ لِأَنَّهُ لم يؤمن.

---

(١) نهاية الشريط الأول.

(٢) انظر كتاب الأصنام لأبي المنذر الكلبي (ص:٣٣)، وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٠).

وأبرزُ مثالٍ لذلكَ: ما يَقَعُ من أهل الكَلامِ منَ الحَيرة؛ لِأَنَّهُم لم يؤمنوا بالله حقَّ الإيمان به، أنكروا صفاتِه وأنكروا ما جاء به كتابه وسنَّة رسوله، فصاروا مُتَحَيِّرين، ولهَذَا قَالَ بعض النَّاس: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَـلامِ[1]. والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّهُم -نسألُ اللهَ العافيةَ- ما آمنوا.

فكلُّ إِنْسَان يضعُف إيمانه فَإِنَّهُ يَتَرَتَّب عليه هَذَانِ الأَمْرانِ السيِّئانِ:

أولًا: تَزيينُ العَمَلِ السيِّئ فِي عينِه حَتَّى يمارسَه ولا يُنتزع منه.

والثاني: شَكُّه وحَيْرته وتردُّده.

بهَذَا نعرِف أَنَّهُ كلَّما قَوِيَ الإيمانُ بالآخِرَةِ عَرَفَ الْإِنْسَانُ القبيحَ ولم يَتَرَدَّدْ فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ نتيجة عملية حسابيَّة: إذا كَانَ هَذَا الوصف يقتضي هَذَا الوصف فعدمه يَقتضي عَدَمه، فهي مُعَادَلَةٌ بَيِّنَة جدًّا. فالَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَة ابتُلوا بهذينِ الأَمْرينِ، والَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ يَنتفي عنهم هَذَان الأَمْرانِ، نسألُ الله أن يَجْعَلَنَا من المُؤْمِنِينَ.

مسألة: ومن آمنَ بالآخِرَةِ من الصُّوفِيَّة؟

الصوفية لَيْسَ عندهم إيمانٌ حقيقةً، لو كَانَ عندهم إيمان حقيقةً ما زُيِّن لهم؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مِقياس، فكُلُّ إِنْسَانٍ يُزيَّن له سوءُ عَمَله فاعلمْ أَنَّهُ ناقصُ الإيمانِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ عندهم إيمان حقيقيّ فما الَّذِي يُخرِجهم عن طريق الرَّسُول ﷺ؟!

إِذَنْ: كلَّما ضَعُفَ الإيمان بالآخِرَة ازداد تزيينُ القبيحِ فِي عينِ الْإِنْسَان، وكلما ازدادَ إيمانه بالآخِرَةِ كَرِهَ القبائحَ، وهَذَا أمرٌ مُسَلَّم الآن.

---

(١) القول منسوب لأبي حامد الغزالي، انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُقُوبة مَن لم يُؤْمِن بالآخِرَةِ بِهَذِهِ العقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأَعْمالِ السيِّئة لا الحسنةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ كلَّما آمَنَ الْإِنْسَان بالآخِرَةِ اتَّضَحَ له الحقُّ؛ لِأَنَّ الإيمانَ بالآخِرَةِ يَستلزِم أن الْإِنْسَانَ يَرَى الحقَّ حقًّا ويرى الباطلَ باطلًا، فلا يزين له الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ؛ لِأَنَّهُم لَمّا لم يُوقِنوا بالآخِرَة مَعَ وُضُوحها اشتبهَ عليهم الحقُّ مَعَ وضوحِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عدمَ الإِيمانِ بالآخِرَةِ سببٌ للحَيْرة، لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَعَلَى هَذَا فالإِيمانُ بالآخِرَةِ سببٌ لِلْيقِينِ والنُّورِ، وهَذَا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والْإِنْسَان ما يُصاب بعدمِ الْيَقينِ إِلَّا بسببِ أعمالِه، ونقصِ إيمانِه، وكلَّما قَوِيَ الإِيمانُ فإنَّ معرفةَ الْإِنْسَان تزدادُ، حَتَّى فِي الأُمُورِ غير العلميَّة الشَّرْعِيَّة، فيعطيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِراسةً يَتبيَّن بها الأَشْيَاءَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجُوب الإِيمانِ باليومِ الآخِرِ، بدليلِ عقوبةِ مَن لم يؤمنْ به، فهَذِهِ العقوبةُ العظيمةُ تدلّ عَلَى وجوبِ الإِيمانِ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مذهَب أهلِ السنَّة والجماعةِ فِي الردّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ تزيينَ العَمَلِ لهم هُوَ سببُ ضَلالهم، فتُزَيَّن لهم الأَعْمالُ السيئة فيَعْمَلُونها، فَلِلَّهِ تَعَالَى تأثيرٌ فِي أفعالِهم، فكون الله تَعَالَى يقولُ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ فيَنْسُبُ تَزْيِينَ العَمَلِ إليه يَدُلّ عَلَى نَقيضِ قولِهم، وإلَّا فهم يؤمنون بالآخِرَة ويرون أَنَّهُم مسلِمونَ، لكِنَّهم لا يؤمنون بأنَّ الله تَعَالَى له تعلُّق بفعلِ العبدِ، فأفعال العبدِ عِندَهم لَيسَ لله فيها تعلُّق إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله: ﴿أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فِيهِ نِسبة الأفعال للعبدِ، ففيه ردٌّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّ الجبريَّة لا يَنْسُبُون العَمَلَ للإِنْسَانِ إِلَّا عَلَى سبيلِ المَجاز؛ إذ إِنَّهُم يَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَان مُجْبَرٌ عَلَى العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَةِ يَرَوْنَ أَنَّ أعمالهم حَسَنَة، ولهَذَا يُصِرُّونَ عليها، وقد قَالَ أبو سُفيان فِي أُحد: اعْلُ هُبَل.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونهم يرون أنَّ أعمالهم حسنة، ولهَذَا يُصِرُّون عليها ألَا يُشكِل عليه ما ذَكَرْناه من أَنَّهُم فِي حَيرة وقلقٍ؟

قُلْنَا: هم فِي حَيرة بالنِّسْبَة للإيمانِ بالآخِرَةِ، لكِن عندما يَستمِرُّون فِي هَذِهِ الأَعْمال يرونَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، فَهُمْ يَعْمَلُون المَعاصِيَ وتُزين لهم ويَرَوْنَ أَنَّهُ لا بأسَ بها، فالَّذِينَ يُرابون يَرَوْن أنَّ الرِّبا مصدرٌ اقتصاديٌّ، وَأَنَّهُ لا بأس به، والَّذِينَ يَلْعَبُونَ الشِّطْرَنْجَ يَقُولُونَ: هَذَا عَمَلٌ طيِّبٌ لِأَنَّهُ يُنمِّي الفِكر والعقل، ومثلهم أصحاب السَّرِقَات وغيرهم، المهمّ أن هَؤُلَاءِ متحيِّرون فِي أمرِهم كلِّه، حَتَّى فِي أمرِ الآخِرَةِ ما عندهم يَقِين، والواحد منهم يَزعُم أنَّ نتيجة هَذَا العَمَل السيِّئ بالنِّسْبَة لهُ حَسَنة، ولهَذَا زُيِّن لهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض أهل المَعاصِي يَعترِف أَنَّهُ عَلَى خطأٍ، لكِن يَقُول: الله غَفور رحيم؟

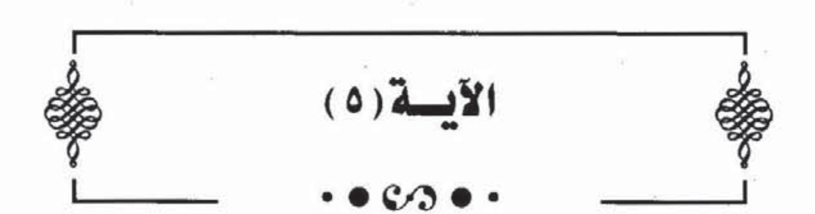
قُلْنَا: هَذَا مُزَيَّن له، وَهُوَ من الرجاءِ فِي غيرِ مَحلِّه، ومَن كَانَ يرجو اللهَ أنْ يَغفرَ له فِي غير محلِّه فهَذَا من سُوء العَمَلِ، فـ «**الْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»[1]

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

الْأَمَانِيَّ، والمعاصِي شامِلَةٌ الْكُفَّارَ وغيرَ الكفارِ، وكلُّ مَن عصَى اللهَ ففيه نقص بالإِيمان بالآخِرة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الرجل الَّذِي يَستحسِن القبائحَ يُمْكِن نَسْتَنْتِج أَنَّهُ ضعيف الإِيمانِ بالآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لو قَوِيَ إيمانُه بالآخِرَةِ ما حَسُنَ فِي نفسِهِ قبائح الأَعْمال، وهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عليه.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:٥].

•••

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أشدُّه فِي الدُّنْيا القَتْـل والأَسْر].

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المشارُ إليه الَّذِيـنَ لا يؤمنـون بالآخِـرَةِ، لَّما ذكر -والعياذ بالله- طريقهم وَأَنَّهُ زُين لهم سُوء أعمالِهم، ذَكَرَ جزاءَهم ومآلَهُم، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

قيَّده المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ بما يَكُون فِي الدُّنْيا مِنَ الأسرِ والقتلِ، ولكِنَّه لا يَنبغي أن يُقَيَّد به، بل يقال: إن هَذَا من سُوء العذابِ الَّذِي يَنالهم، وهم ينالونَ سوء العذابِ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ، ومن أجلِ ذلك لم يكنْ لهم نصيبٌ فِي الآخِرَةِ، بل قَالَ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ الأُولى مبتدأٌ، والثَّانِيَة توكيدٌ، ويجوز أن تكونَ ضَميرَ فَصلٍ، لكِن لَّما سبقَ لها نظير وهي كلمة ﴿هُمْ﴾ فالأحسن أن تكونَ توكيدًا، ونستفيدُ الحصرَ من تعريفِ المبتدأِ والخبرِ فِي قولِه: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. والأخسرُ اسمُ تفضيلٍ، مأخوذ من الخُسران وَهُوَ النقصُ. وحَصْرُ الأخسريَّة فيهم

دليل عَلَى أن هناك خسارةً لغيرِهم، لكِن هم الأخسرونَ.

والخسارة الَّتِي تكون لِغَيْرِهم هي أنَّ الفُسَّاق من المُؤْمِنينَ يُعذَّبُون بقَدْرِ ذنوبهم، وهَذِهِ خسارة؛ لِأَنَّهُ لم يكمل لهم النعيم فِي الآخِرَةِ، حَيْثُ عُذِّبوا عَلَى ما فعلوا من الذنوبِ، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ وَأَنَّهُ خسارة، ولكِن الأخسر هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخلَّدونَ فِي النَّار، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر: [لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّار المؤبَّدَةِ عَلَيْهِمْ]، فهم الأخسرونَ.

فعليه يَكُون النَّاس فِي الآخِرَةِ ينقسمونَ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: رابحونَ، وخاسرون، وأخسرون.

فالرابِحُ: الَّذِي مَنَّ اللهُ عليه فخرجَ منَ الدُّنيا وَهُوَ لا يَستحِقّ العقابَ فِي الآخِرَةِ، سواء كَانَ ذلك بتوبةٍ، أو بمصائبَ تُكَفِّر، أو بأعمالٍ صالحةٍ جليلةٍ جدًّا تَضْمَحِلّ معها الأَعْمالُ السيئة، مثل أهلِ بَدْر، قَالَ الله تَعَالَى لهم: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]، لو عَمِلوا مهما عَمِلوا مِنَ الذنوبِ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرها لهم بسببِ الحسنةِ العظيمةِ الَّتِي قاموا بها فِي غزوةِ بدرٍ.

وقد يَعْفُو الله أيضًا عن هَذَا الْإِنْسَان الَّذِي عَمِلَ سَيِّئًا فِي الدُّنيا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨]، فتكون حالُه فِي الآخِرة تامَّة.

الثاني: الخاسِر غيـر الأَخْسر، وَهُوَ الَّذِي أصابَ بعضَ الذنوبِ، ولم يُقَدَّر له

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، حديث رقم (٦٥٤٠)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم (٢٤٩٤)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الخَلاصُ منها، فعُوقِب عليها، فصاحب المَعاصِي مِنَ المُؤْمِنِينَ هُوَ فِي حُكْمِ الخاسرينَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ الأخسرَ.

الثَّالث: الأخسرُ، وهُوَ الَّذِي لا حَظَّ له فِي الآخِرَةِ، وما لَه فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ، وهمُ الكفَّارُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُم الأخسرونَ فِي الآخِرَةِ فقطْ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وهل يَلزم أن يَكُونوا همُ الأخسرينَ فِي الدُّنْيا؟

لا يَلزم، فلا يُفهم من الآيَة أَنَّهُم رابحون فِي الدُّنْيا، يُفهم من الآيَة أَنَّهُم فِي الدُّنْيا مسكوتٌ عنهم، قد يَربحون وقد يخسرون، وَعَلَى رأيِ المُفَسِّر لَيْسَ لهم حظٌّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: إن العذابَ معناه القتلُ والأَسْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات سُوء العذابِ لهَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، هَذَا الَّذِي اخترناه، وَهُوَ العموم، والمُفَسِّر يرى أَنَّهُ فِي الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُم ليس لهم حظٌّ فِي الآخِرة أبدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّاس فِي الآخِرَةِ ثلاثةُ أقسامٍ: أَخْسَرُون، وخاسرون، ورابحون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَنَوُّع العذابِ لِتَنَوُّع المَعاصِي؛ لِأَنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادسَةُ: إثبات الآخِرة لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابعَةُ: أنَّ مَن لم يؤمنْ بالآخِرَةِ فَهُوَ كافرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾،

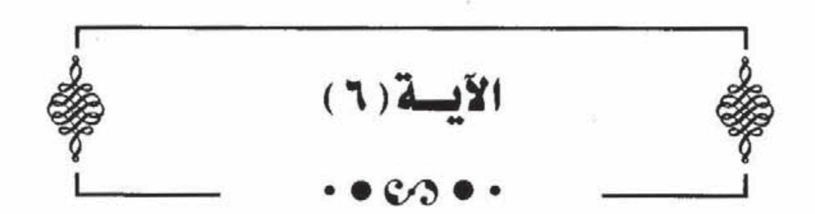
هَذَا إذا أَعَدْنا الآيَةَ عَلَى ما قبلُ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هَذَا خبرٌ بأنهم خاسرون فِي الآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل:٤]. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حصر الخسرانَ فِي هَؤُلَاءِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُم هم الأخسرونَ، وغيرهم ولو خَسِروا فليسوا بِهَذَا الوصفِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الردُّ عَلَى الخوارج والمُعْتَزِلَة؛ لأَنَّنا لو قُلْنَا: إن أهل الكَبائِر الَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ مخلَّدون فِي النَّار لاتَّصَفُوا بِهَذَا الوصفِ وكانوا من الأخسرينَ، مَعَ أنَّ الله إِنَّمَا حَصَرَ الأخسرَ فِي الَّذِينَ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ.

الفَائِدَةُ العاشرة: بلاغة الْقُرْآن الكريمِ، حَيْثُ إِنَّهُ يُبَيِّن أحوالَ الكَافِرِينَ للتحذير منها.

• • ۞ • •



الآية (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

• • • •

قوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ خِطَاب للنبيِّ ﷺ، وهَذَا الخطابُ مؤكَّد بـ(إن) ثُمَّ مؤكَّد بتأكيدٍ آخرَ، وَهُوَ قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ لِأَنَّ اللامَ هَذِهِ للتَّوكيدِ، ويقال: إِنَّهَا اللام المُزَحْلَقَة، والمُزَحْلَق يعني المؤخَّر. يَقُولُونَ: إن الأَصْل أن تكونَ فِي أوَّل الكَلام، ولكِن لَمَّا كَانَ فِي أول الكَلام مُؤَكِّد غيرها صار الأنسب أن تؤخَّر؛ لِئَلَّا يَجتمِع مؤكِّدان فِي مكانٍ واحدٍ، وإلا هِيَ تُسمَّى لام التَّوْكيد. ومحَلُّها فِي أوَّل الجملة، ولَكِنَّهَا زُحلقت من أجلِ أنَّ فِي أول الجملة مؤكِّدًا آخرَ.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُلقى عليك بِشِدَّة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فِي ذلك...]، إِلَى آخره.

﴿لَتُلَقَّى﴾ معنى التَّلقية: التلقينُ والإعطاءُ، لَقَّيْتُه كذا بمعنى لَقَّنتُه إيَّاه إذا كَانَ ذِكرًا، وأعطيته إيَّاه إذا كَانَ عَينًا، وهنا الْقُرْآن ذِكر لَيْس عينًا يُعطَى ولكِنَّه ذِكرٌ يُلَقَّنُ، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُلَقَّن الْقُرْآن، وَكَانَ إذا سَمِعَهُ مِن جِبريل فِي أوَّل الأَمْرِ يَتَعَجَّل ﷺ بقراءته، فنهاه الله عن ذلك[1]، قَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، حديث رقم (٤٦٤٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، حديث رقم (٤٤٨).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، هذا ضمان مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَجْمَعَهُ ويقرأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، أي: بَيَانه لفظًا، ومعنًى، وحُكْمًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ سبق معنى الْقُرْآن، وَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِن قَرَأَ بمعنى: تلا، ومن قرأ بمعنى: جَمَعَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُلْقَى عليك بِشِدَّة] من أين أخذ كلمةَ بشدَّةٍ من اللفظ؟ من قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ ولم يقلْ: تَلَقَّى أنت، فهو يُلقَّاه، فكأنه يشعر بالشدَّة، ولكِنه ما يَتبيَّن لي كثيرًا، ودلالة تلقى عليه فيها غُمُوض، إِنَّمَا لَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُول ﷺ يجد من تلقِّي الوحي شِدَّة.

وقوله: [﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند]، يعني أن ﴿لَّدُنْ﴾ بمعنى عند، ويقال فيها أيضًا: لدى، قَالَ تَعالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، لَدُنّا هي: لَدُنْ، ولَدَيَّ هي: لدى، فيقال هَذَا وهَذَا، ولكِن الْقُرْآن كما هُوَ معلومٌ تَوْقِيفِيّ، لا يُمْكِن أنْ نُبدِّل لفظًا بدلَ آخرَ، ولو كَانَ بمعناهُ.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ المُراد به اللهُ جَلَّ ذِكْرُه.

والحكيم تَقدَّمَ أَنَّهُ مشتقٌّ مِنَ الحُكْمِ والإِحْكَامِ الَّذِي بمعنى الإتقانِ، وَهُوَ الحِكْمَة.

والحكمُ الثابتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أو المُتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنْقَسِم إِلَى قسمينِ: حُكْم شَرْعِي، وحكم قَدَرِيّ.

فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ كثيرٌ فِي الْقُرْآن، كما فِي قولِه تَعَالَى فِي سُورة المُمْتَحِنَة لمَّا ذكر

أحكام النِّسَاءِ المهاجِراتِ قَالَ: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، والحُكْم القَدَرِي مثل قول أخي يُوسُف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، يعني يُقدِّر، لا يَنتظر حُكمًا شَرْعِيًّا، بل يَنْتَظِر حكمًا قَدَرِيًّا. والحكم الشَّرْعِيّ هل يمكن مخالفتُه؟ نعم يُمْكِن، فمِنَ النَّاسِ مَن يَقْبَلُه ومنَ النَّاسِ مَن لا يقبلُه. والحُكم القَدَرِي لا يُمْكِن مخالفته، إذن فَهُوَ واقعٌ لا مَحالةَ، فإذا حَكَمَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بشيءٍ قَدَرًا فَهُوَ واقعٌ لا محالةَ.

مسألة: الحُكْم الشَّرْعِيّ محبوبٌ لله أو مبغوضٌ إليه؟ محبوبٌ ومبغوضٌ، فإذا حَكَم بفعلِ الشَّيْءِ فَهُوَ محبوبٌ، وإنْ حَكَمَ بتركِه فَهُوَ مكروهٌ. فاللهُ تعَالَى حَكَمَ بتحريمِ الزِّنَا مثلًا وَهُوَ مكروهٌ له، وحَكَمَ بتحريمِ الشِّركِ وَهُوَ مكروهٌ له.

والحُكم الكونيُّ كذلك، فِيهِ محبوبٌ وفيه مكروهٌ لله، ولا يمكن أنْ نُعارِضَ ذلك فنَقُول: كيف يَقَع الحُكْمُ الكونيُّ وَهُوَ مكروهٌ له؟ إذن معناه أن الله يُجْبَرُ، يَعْنِي يفعل شيئًا وَهُوَ يَكْرَهُه، وهَذَا ما يَكُونُ إِلَّا فِي فاعلٍ يُجْبَر، فهل الله تَعَالَى يُجْبَر؟

نَقُول: لا، إذنْ كيف تقول: إن فِي الحُكْم الكونيّ ما هُوَ مكروهٌ لله؟

نَقُول: معناه هُوَ مكروهٌ من وجهٍ ومحبوبٌ من وجهٍ آخرَ، فَهُوَ من حَيْثُ ذَاتُه مكروه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كالمَعاصِي، فالله تَعَالَى يقدِّر المَعاصِيَ مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُها، لَكِنَّهُ محبوبٌ إليه من وجهٍ آخرَ، ويَكُون هَذَا الوجهُ أقوى منَ الوجهِ الآخرِ فيقع هَذَا الشَّيْءُ.

إِذَنْ: حَكيم مُشْتَقَّة مِنَ الحُكْمِ والإحكام، والحُكْم المتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنقسم إِلَى قسمينِ: كَوْنِيّ وشَرْعِيّ، ولكلٍّ مِنْهما حُكْم، فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ لا يَلزَم منه وُقوع المحكومِ به؛ لِأَنَّهُ قد يَقَع وقد لا يقعُ، والحكمُ الكونيُّ يَلزَم منه وقوعُ المحكومِ

به بكلِّ حالٍ. أَمَّا انقسامهما من حَيْثُ الكراهةُ والبُغْضُ للهِ فنَقُولُ: كلاهما محبوبٌ ومكروهٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالحكم الشَّرْعِيُّ منه محبوبٌ ومنه مكروهٌ، بمعنى المحكوم به، يعني مثلًا حَكَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتحريمِ الزِّنَا لِأَنَّ الزِّنَا مكروهٌ إليه، وحَكَمَ بوجوبِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الصَّلَاة محبوبةٌ إليه، وَأَمَّا نفسُ الحُكْمِ الَّذِي هُوَ فِعْلُه فهَذَا أمرٌ معروفٌ أَنَّهُ ما حَكَمَ بِهَذَا الشَّيْءِ إِلَّا وَهُوَ يحبُّ أن يَكُونَ كذلك؛ فيحب تركَ الزِّنَا ويحب فِعْلَ الصَّلَاة.

أَمَّا بالنِّسْبَةِ للإِحْكَام، فالإحكامُ بمعنى الإتقان، وهو الحِكْمة، أي تَنْزِيل الأَشْيَاء فِي مَنَازِلها ووَضْعها فِي مَوَاضِعها، فلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا إتقانٌ، واللهُ تَعَالَى متَّصِفٌ بالحِكْمَةِ البالغةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر:٥]، فهي وضعُ الأَشْيَاءِ فِي مواضعها.

وقد ذَكَرْنا فِي التَّوحيدِ ونُعيده الْآنَ للتذكيرِ؛ أنَّ الحِكْمَةَ تكونُ فِي صورةِ الشَّيْءِ، وَفِي غايتِه؛ فِي صورة الشَّيْءِ ووقوعِهِ عَلَى هَذَا النحو، وتكونُ أيضًا فِي غايةِ هَذَا الشَّيْء، وتكونُ الحِكْمَةُ فِي الأُمُور الشَّرْعِيَّة وَفِي الأُمُور الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الحُكْمين السابقينِ -الكونيّ والشرعيّ- كلاهما مُشتمِل عَلَى الحِكمةِ، فعلى هَذَا تكون الحِكْمَة فِي الأحكامِ الكونيَّة وَفِي الأحكام الشَّرْعِيَّة، وتكون صوريَّة، بمعنى أَنَّهُ عَلَى هَذِهِ الصورة المعينة حِكمة، وغائيَّة بمعنى ما ينتج منه من الغايات المحمودةِ.

عندما تَتَأَمَّل الشَّريعَة تَجِد أنَّ وَضْعَها عَلَى ما هِيَ عليه فِي غايةِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهَا كلَّها تَنْشُدُ المصالحَ وتَدْرَأُ المفاسدَ، هَذِهِ القاعدة الْعَامَّة فِي الشَّرِيعَة. إذن فهي عَلَى هَذَا الوجهِ أو بِهَذِهِ الصورةِ موافِقَةٌ للحِكمة.

ثم هناك الحِكْمَة الغائيَّة: فثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّـرِيعَة والتمسُّك بها هِيَ السعادةُ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَة، وهَذِهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا غاية محمودةٌ، وأن تشريعَ الأُمُورِ من أجلِ هَذِهِ الغايةِ حِكْمَةٌ.

كذلك نأتي إِلَى الأُمُور الْقَدَرِيَّة، نَقُول: الأُمُور الْقَدَرِيَّة أيضًا وَضْعُها عَلَى ما هِيَ عليه بهَذِهِ الصورةِ هُوَ حِكْمة، ثُمَّ الغاية مِنْهَا حِكْمَة أيضًا، ولكِن هَذِهِ الحِكْمَة فِي صورةِ الشَّيْءِ وَفِي غايةِ الشَّيْءِ شَرعًا أو قَدَرًا قد تكونُ معلومةً للعبادِ، وقد تكونُ مجهولةً. وفَرْضُنَا نحن فيما نَجْهَلُه من حُكْمِ هَذِهِ الأُمُورِ الإِيمانُ والتسليمُ، نحن نؤمنُ بأَنَّه ما من شيءٍ يَشْرَعُه الله وما من شيءٍ يَفْعَلُه الله إِلَّا وله حِكْمَةٌ، ويَجِبُ علينا أنْ نُؤْمِنَ بهَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا مقتضَى وصفِهِ بالحكيمِ، لَكِنَّنَا قد نفهم هَذَا الشَّيْء وقد لا نَفهمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ لا تُؤتى كُلَّ النَّاسِ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، لكِنْ عَلَيْنَا أنْ نُؤْمِنَ هَذَا الإِيمانَ، ونحن إذا آمنَّا هَذَا الإِيمـان فسوفَ نَسْتَسْلِمُ وسوفَ نَرضى بالشرعِ وبالقدرِ؛ لأَنَّنا نعلم أن هَذَا لحكمةٍ.

عندما نَتَأَمَّل الْآنَ أحوال الْمُسلِميـنَ وضَعْفَ دِينِهم وانصرافَهم عنِ الدِّينِ، لَا شَكَّ أن هَذَا يُهِمُّنا ويُحزِننا، ولكِنَّنَا إذا نَظَرْنا إليه من جهةٍ أخرى وجدنا أَنَّهُ مقدَّر من جهةِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أن يَكُونَ، فلهَذَا حِكْمَةٌ لَكِنَّنَا قد لا نَعْلَمُها نحنُ. وهَذَا يَجِب أن تَجْعَلَه جاريًا عَلَى جميعِ أحوالِكَ الخاصَّة والْعَامَّة، أنك تَتيَقَّن أنَّ هَذَا لِحكْمَةٍ، ولكِنَ تَيَقُّننا للحكمةِ لا يَمْنَعُنا من فعلِ الأَسْبَاب الشَّرْعِيَّة الَّتِي أُمرنا بها.

ومثالُ ذلك هَذَا المثال الَّذِي ذَكَرْنا؛ مسألة ضَعْف الْمُسلِمِينَ وانْصِرَافِهِم، هَذَا يُوجِب لنا أن نَتحرَّكَ أكثر للدعوةِ إِلَى الإِسْلامِ وبَيَان محاسنِهِ، والتحذيرِ من مخالفتِه،

وسُوءِ العاقبةِ للعُصَاةِ والفاسقينَ، وهَذَا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَتحَرَّكَ أهلُ الخير للدعوةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وبيَان الحقّ وبيَان العاقبةِ الحميدةِ لِمَن تَمَسَّكَ بدينِ اللهِ؛ لأجل أنْ يَكْثُرَ ثوابُهم ولأجلِ أنْ يَدْخُلَ النَّاس فِي دين اللهِ عنِ اقتناعٍ؛ لأني أتصوَّرُ أن النَّاس لو مثلًا وُجِدُوا عَلَى حالةٍ معيَّنةٍ فهم لا يُدْرِكُون هَذِهِ الحالة المعينة عَلَى حقيقتها؛ لِأَنَّهَا أمرٌ معتادٌ عندهم، وقد لا يفهمون ما يَنْتُجُ عنها من خيرٍ أو من شرٍّ، لكِن عندما يُوغِلون فِي الشرّ ويَنتَهُون إِلَى غايتِه، ثُمَّ يُبيَّنُ لهم الحقّ ويَرجعون إليه، يَكُون هَذَا أحسنَ حالًا منَ الحالِ الأُولى، وهم الَّذِينَ وجدوا آباءَهم عَلَى شيءٍ فَمَشَوا عليه؛ لِأَنَّهُم الْآنَ سوف يأتون عنِ اقتناعٍ وعن محبَّة لهَذَا الأَمْرِ الجديدِ الَّذِي بُيِّن لهم.

ولذلك الْآنَ -والحمدُ لله- هُنَاكَ بادرةٌ طيِّبة فِي جميعِ الأقطارِ الإِسْلاميَّة، وهي بادرةُ الرجوعِ إِلَى الإِسْلامِ عنِ اقتناعٍ، ولَا شَكَّ في ذلك، وهَذَا منَ الحِكْمَةِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُقَدِّر مثل هَذِهِ الأُمُورِ المكروهةِ فِي الدينِ لأجلِ أنْ تكونَ غايةً لِما هُوَ أحمدُ.

قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ العليم معناه المتَّصِف بالعِلْم، والعلمُ كما حدَّه أهلُ الأصولِ: هُوَ إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا مطابقًا. ولَا شَكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى له مِن هَذَا الوصفِ أَتَمُّه وأعلاهُ، فَهُوَ عليمٌ عِلمًا مُطْلَقًا، لم يُسْبَق بجهلٍ ولم يُلحَق بنسيانٍ، ولا يُحَدُّ بحدٍّ. وعلم المخلوق مسبوقٌ بالجهلِ وملحَقٌ بالنسيانِ ومحدودٌ أيضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، بِخِلافِ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهنا قُدِّمَ الحكيمُ عَلَى العليمِ، وأكثر ما يَرِد فِي الْقُرْآن تقديمُ العليمِ عَلَى الحكيمِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ من تقديمِ الحكيمِ هنا عَلَى العليمِ؟

نَقُول: الْقُرْآنُ مُشتمِلٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، والشَّرِيعَةُ فيها أوامرُ ونواهٍ، وإذا لم نَعْتَقِدْ أنَّ هَذِهِ الأوامرَ والنواهيَ مبنيَّة عَلَى الحِكْمَةِ فَإِنَّهُ يَضعُف انقيادُنا لها، فلهَذَا قدّم الحِكمةَ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ مِن قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد تَلَقِّي الْقُرْآنِ يَكُونُ العلمُ. لكِن هل هَذَا الموجود فِي الْقُرْآن موافِقٌ للحِكْمة؟

نعمْ هُوَ موافِقٌ فِي الواقعِ، ولذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أنْ يَشعرَ الْإِنْسَانُ قبلَ كُلِّ شيءٍ بأنَّ ما تَلَقَّاه الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِنَ الْقُرْآن هو حِكمةٌ.

نظير ذلكَ فِي سورةِ الذَّارِيَات قَالَ تَعَالَى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٩-٣٠]، ولم يَقُلِ: العليمُ الحكيمُ؛ لِأَنَّ ولادةَ العجوزِ أمرٌ خارجٌ عنِ العادةِ، وعن المألوفِ، فكيف تَلِد العجوز ولماذا؟! فقُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أن يشعرَ الْإِنْسَان قبل كُلّ شيءٍ أن هَذَا الأَمْرَ النادرَ الخارجَ عنِ العادةِ صادرٌ عن حكمةٍ وَلَيْسَ عن سَفَهٍ ولا عن صُدْفَةٍ.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ نَقُول في مثلها: قدّم اسمَ الحكيمِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى وصفِ اللهِ تَعَالَى بالحِكمة فِي هَذَا المقامِ؛ لِأَنَّ ما يُلَقَّاه الرَّسُول ﷺ من الْقُرْآن مُشْتَمِل عَلَى التشريعِ الَّذِي يَحتاج إِلَى بَيَان الحِكْمَةِ فيه، حَتَّى يَقتنع به المرء، فلذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ عَلَى العلمِ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ من كلمةِ (تُلقَّى)؛ إذ إِنَّهُ إذا لُقِّيَ الْقُرْآن فقد عَلِم، لذلك صار العلم فِي المرتبةِ الثَّانِيَةِ.

مسألة: ما هِيَ الحِكْمَةُ من جمع الحِكْمَةِ والعلمِ: حكيم وعليمٌ، ودائمًا فِي الْقُرْآنِ تجد أن الحكيم مقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، ويُقْرَن بالعزيزِ (عزيز حكيم) أيضًا، فما هِيَ الحِكْمَة من ذلك؟

الجواب البَيِّن أن نَقُول: إن الحِكْمَةَ قد تخفى عَلَى بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤها علينا هنا لا يَقتضي أَنَّهَا ليستْ معلومةً عند اللهِ، فكأنه جمعَ بينهما لِيَتبيَّنَ أن هَذِهِ الحِكْمَةَ معلومةٌ عندَ اللهِ، وإنْ خَفِيَتْ علينا، فَهُوَ حكيمٌ عليمٌ يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مواضِعِها، وإنْ خَفِيَ علينا ذلك. فلا نَقُول: إنَّهُ إذا شَرَعَ الله شيئًا أو قضى بشيءٍ فهَذَا لَيْسَ عن علمٍ؛ بل هُوَ عن علمٍ، حَتَّى لو فُرض أننا نحن لم نعلمْ حِكمته ووجهته، فهَذَا هُوَ وَجه الجمعِ فِي الْقُرْآنِ الكريمِ فِي آياتٍ كثيرةٍ بينَ العلمِ والحِكْمَةِ.

الخلاصة أن نَقُول: لَمَّا كانت الحِكْمَة تخفى عَلَى العبادِ قَرَنَها الله تَعَالَى بالعلمِ لِيَطْمَئِنَّ المرء إِلَى أن هَذِهِ الحِكْمَة معلومةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانتْ خافيةً علينا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التأكيد بـ(إن) و(اللام) عَلَى أن الْقُرْآن من عندِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن كلامُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ نزل من لدنه، والْقُرْآن صفة المتكلّم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دفاع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَن أهلِ ولايته؛ لِأَنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ دفاع من الله جَلَّ وَعَلَا عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات العلم والحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات نبوَّته ورسالته.

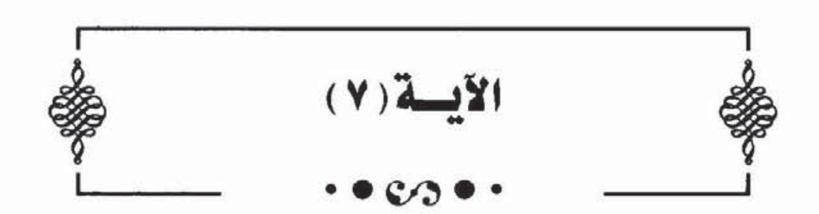
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مُراعاة المقام فِي التَّعبير يُعتبر من الفصَاحة، فغالب الآيَاتِ يقدّم العلم عَلَى الحِكْمَة، وأحيانًا تُقدَّم الحِكْمَة عَلَى العلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ حِكمة اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى العلمِ، والظَّاهر أن العلمَ سابِقٌ حَسَب ذِهن الإِنْسَان، فإن العلم يَسبق الحِكْمَةَ، كيف تدري هَذَا مناسب

أو غير مناسب؟ إذا علِمتَ أَنَّهُ مناسب ووضعتَه فِي محلّه، المهم أن حكمة الله تَعَالَى ما جاءتْ عَفْوًا، قد يفعل الواحدُ مِنَّا الشَّيْءَ ويَكُون هَذَا الشَّيْء فِي مَوْضِعِه، لَكِنَّهُ قد يَكُون جاء عفوًا، كما يَقُول النَّاس: (عميان طاحَ فِي خِرْقَةٍ) لكِن حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صادرةٌ عن علمٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إقناعُ النَّاسِ بما يَقضيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن قضاءٍ قَدَرِيّ، أو قضاءٍ شَرْعِي، وجهُ ذلكَ: أننا إذا علِمنا أَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّم ونَرْضَى ولا نَقُول: لِمَ وكيف؟ فإنْ علِمنا الحِكْمَةَ فهَذَا منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَزيدُ فِي طُمأنينةِ العبدِ، وإذا لم نَعْلَمْ فإنَّنا نَجْزِم أَنَّهُ لِحِكمةٍ.

• • ❁ • •



الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

•●〜●•

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ﴾]، وهَذِهِ طريقتُه، وهي أيضًا معروفةٌ عندَ النحْويِّين أنَّ ﴿إِذْ﴾ ظرف، والظرفُ لَا بُدَّ له من عاملٍ، وَهُوَ المتعلّق، فيقدِّرون: (اذْكُرْ) دائمًا فِي مثل هَذَا التركيبِ: اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾.

وموسى معروفٌ أَنَّهُ هُوَ ابنُ عِمران، لكِن ما هُوَ الجواب البيِّن.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إن موسى أخو مَرْيَمَ؟ لِأَنَّ هَذَا موسى بنُ عِمْرَانَ، وهي مَرْيَم بنتُ عِمرانَ، وموسى أخو هَارُون، واللهُ تَعَالَى يَقُول: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

نَقُول: إنهم يُسَمُّون بأسماءِ أنبيائِهم، والتاريخُ كما هُوَ معروف بينَ موسى ومَريَمَ بعيدٌ جدًّا، فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هُوَ أفضل أنبياء بني إسرائيلَ، ويقع بين أُولِي العَزْمِ فِي المرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أولي العزمِ منَ الرُّسُل -عليهم الصَّلَاة والسلام- أفضلهم النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ موسى، ثم عيسى ونوح؛ لا يجد الْإِنْسَان بينهما مفاضلةً؛ لِأَنَّ لكلِّ واحدٍ منهما مَزِيَّة ليستْ للآخَرِ، ولهَذَا لا نُرَجِّح واحدًا منهما عَلَى الآخَرِ، أَمَّا الأَوَّلون الثلاثة فالترجيحُ بينهم واضِحٌ.

وأَمَّا قوله تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣]، فالظَّاهر -والله أَعْلَمُ- أنَّ نوحًا قُدِّم هنا لِأَنَّ رسالتَه أوَّلُ الرسالاتِ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ أفضلُ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ أوَّلُ رسولٍ، والترجيح هنا لبَيَان الفضلِ، أَمَّا المفاضَلَةُ عَلَى سبيلِ المفاخَرَة فلا تجوز، ومثال ذلك قِصَّةُ اليهوديِّ مَعَ المسلمِ[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل مَريم كَانَ لها أخ اسمه هارون كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

فالجواب: بلى.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: إنَّ أُمَّها نَذَرَتْ ما فِي بطنها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

فالجواب: يجوز أن يَكُون أخًا من أبيها.

قوله[2]: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...﴾ إِلَى آخر القصةِ، وهَذَا من جُملةِ ما يُلقَّاه النَّبِيّ ﷺ من الْقُرْآن، وهي قَصَص الأَنْبِياء، وفائدة ذِكر هَذِهِ القصصِ ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي سورة يُوسُف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿عِبْرَةٌ﴾ نَعتبِر بها فِي أحكامها وَفِي عواقبها، ولهَذَا الصَّحيحُ أن ما ذُكِر فِي هَذا القَصَص

---

(١) نص الحديث عن أبي هريرة: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى العَالَمِينَ، فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ اليَهُودِيَّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ: «**لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ**».
أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣).

(٢) بداية الملف الثاني الوجه الثاني.

من الأحكام فَإِنَّهُ يجوز لنا أنْ نَتَّبِعَه وأنْ نَقْتَدِيَ به؛ لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

كذلك نَعتبِر بما جَرَى منَ العواقب للرسُل وأتباعهم، وما جَرَى من العواقب لمخالفيهم، ومعلومٌ أن عاقبةَ الأوَّلِينَ عاقبةٌ محمودةٌ، وعاقبةَ الآخِرين عاقبةٌ سيِّئة.

فمن جُملة القَصص الَّتِي كثُر ذِكْرُها فِي الْقُرْآن قِصَّة موسَى، ولا غَرْوَ أنْ تكْثُر فِي السورِ المَدَنِيَّة؛ لِأَنَّ المَدينةَ كَانَ بها طائفة منَ اليهودِ حَتَّى يَتبَيَّنَ أمرُهم، ولهَذَا فُصِّلَت أحوالهم كثيرًا فِي سورة البقرةِ، وَأَمَّا ذِكرُ قِصَّة موسى فِي السورِ المَكِّيَّة كهَذِهِ السُّورَة فإن فائدتها التوطِئَة والتمهيد للنبيِّ ﷺ حَتَّى يكُون عَلَى بَصيرةٍ من أمرِهِم.

وهَذَا التوجيه -وَهُوَ الاستعدادُ للمُسْتَقْبَلِ- سَلكَهُ النَّبيّ ﷺ أخذًا بتوجيهِ الْقُرْآنِ حينما قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»[1].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ وقد تكلَّمنا عَلَى موسى ﷺ وَأَنَّهُ موسى بنُ عِمْرَان وَأَنَّهُ أفضلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ زوجته عندَ مَسِيرِهِ مِن مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ]، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زَوْجته، أفلا يَحتمِل أن يَكُون زوجته وأُمّه وأباه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

نَقُول: لا؛ لِأَنَّهُ خرجَ من مِصْرَ وحيدًا، ثُمَّ الْتَقَى بالمرأتينِ، ثُمَّ اتصلَ بأبيهما، ثُمَّ زَوَّجَه عَلَى أن يَأْجُرَهُ ثمانيَ حِجَجٍ، وانتهتِ الحِجَج.

وبهَذِهِ المناسبةِ بعضُ النَّاس يَظُنُّون أنَّ صاحبَ مَدْيَنَ هُوَ شُعَيْبٌ النبيُّ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَيْسَ كذلكَ، فإن بينَه وبين موسى بُرْهَة منَ الزمنِ، وإنما صاحب مَدْيَن رجلٌ من أهلِ مَدْيَن، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ بِلَا شَكٍّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أبصرتُ من بعيدٍ ﴿نَارٗا﴾].

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ مَقُولُ القَوْلِ، ولهَذَا كُسِرَتْ (إنَّ)، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ءَانَسۡتُ﴾ أَبْصَرْتُ من بعيدٍ]، آنسَ بمعنى أبصرَ، وكونها من بعيدٍ لا يَدُلّ عليه اللفظُ فِي الحقيقةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أن يقالَ: إنَّ الإيناسَ لا يَدُلّ عَلَى القُرْب بسببِ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى الخَفَاء، والخَفَاءُ فِي النَّار لا يَكُونُ إِلَّا إذا كانتْ بعيدةً.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ السينِ للتنفيسِ، وقد ذَكَرْنَا فيما سبقَ أَنَّهَا إذا دخلتْ عَلَى الجملةِ -وهي طبعًا لا تدخُلُ إِلَّا عَلَى المضارِعِ- تفيد أمرينِ، هما: القُرب والتحقُّق.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا﴾: ما الفرقُ بينَ (آتيكُمْ) و(أُوتيكُم)؟ آتيكم، أي: أَجِيئُكم، وأُوتيكُم بمعنى: أُعْطِيكم، نُصَرِّفها فِي غير الآيَة: أتيتُ مضارعها: آتي، وآتيتُ مضارعها أُوتي.

فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿بِخَبَرٍ﴾ وَفِي آيَةٍ أُخرى قَالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه:١٠]، فهل بينهما فرقٌ، أو هما بمعنًى واحدٍ، وإن قُلْنَا بالفرق فما الجمعُ؟

الجواب: بينهما فرقٌ، والجمعُ: إذا قُلْنَا: إن (لعلَّ) للرجاءِ، فَهُوَ رجا أولًا ثُمَّ قوي وجَزَمَ به، وقال: ﴿بِخَبَرٍ﴾، هَكَذَا قَالَ بعضهم، لكِن يُمْكِن أنْ يَكُونا بمعنًى واحدٍ بدون اختلافٍ؛ لِأَنَّ (لعلَّ) تأتي للتوقُّع، وقد ذَكَرْنا فيما سَبَقَ فِي النحوِ أنَّ (لعلَّ) تكون للترجِّي والإشفاق والتعليل والتوقُّع، وإذا كانت للتوقُّع صار معناها التَّوْكيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حالِ الطريقِ، وَكَانَ قد ضَلَّها]، هَذَا واضحٌ، فالخبرُ الَّذِي يريد هو خبرُ مَن يَدُلُّه عَلَى الطريقِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قد ضلَّها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بالإضافةِ للبيَان وتركها[1]]، أي: ترك الإضافة، ففيها قراءتانِ: «أَوْ آتِيكُم بِشِهابِ قَبَسٍ» أو قراءة ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أَمَّا قراءة «بِشِهَابِ قَبَسٍ» فهي للبيَان كما قَالَ المُفَسِّر، والإضافة إذا كانت للبيَان فهي عَلَى تقدير (مِن) مثلما يقال: خاتَمُ حديدٍ، أي: خاتمٌ من حديدٍ، فهنا قوله: (شهابِ قَبَس)، أي: شهابٌ من قبس؛ لِأَنَّهَا بَيَانيَّة، وإذا جعلناها: (شِهابٍ قَبَسٍ) صارت قَبَس صِفَةَ لِشِهَاب، صفة مبيّنة أيضًا، فيَكُون الإضافةُ والقطعُ بمعنًى واحد.

في قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ هل (أو) هَذِهِ مانعة جمع أو مانعة خُلُوّ؟

والفرقُ بينهما أن مانعة الجمع معناها أَنَّهُ ما يَكُون إِلَّا أحد الأَمْرينِ؛ إِمَّا هَذَا أو هَذَا، ومانعة الخلوّ مَعناها ما يَخْلُو الأَمْرُ من واحدٍ منهما، أو منهما جميعًا، وهي تُشبِه قول النحْوِيِّين: إِنَّ (أو) تأتي للإباحةِ وللتخييرِ، قَالُوا: إذا كانت فِي سياقِ الطلبِ تقول: تزوَّجْ هندًا أو أُختها، فـ(أو) هنا للتخيير وليس للإباحة، وتقول: جالِسْ فلانًا أو فلانًا، وكُلْ خبزًا أو رُزًّا، فـ(أو) هَذِهِ للإباحةِ، والَّتي للإباحةِ لا تَمنَع الجمعَ، و(أو) الَّتِي للتخييرِ تَمنَع الجمعَ، وإذا كانت (أو) فِي خبر جمع فإنَّهم يُسَمُّونها مانعةَ خُلُوٍّ أو مانعة جَمع.

إِذَنْ: هِيَ مانعة خلوّ، بمعنى أَنَّهُ يمكن أنْ يَأْتِيَهم بالأَمْرينِ جميعًا: الدلالة، والشهاب القَبَس، وفُهِمَ من هَذَا الكَلامِ ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٩).

الليلةَ كانت باردةً، وما أحوجَ الضالَّ للطريقِ فِي ليلةٍ باردةٍ إِلَى نارٍ يَصطلي بها، وإلى أهل نار يُخبِرونه عن الطريقِ؛ لِأَنَّ النَّار معلومٌ أَنَّهَا ما تكون وحدَها، لَا بُدَّ أن عندها أحدًا يُخْبِر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: شُعلة نارٍ فِي رأس فَتيلة أو عُـود]. هَذَا الشهاب القَبَس، والقبس الَّذِي يُقتبس منه، وهَذِهِ تكون كما قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ شُعلة نار فِي رأسِ فَتيلة أو عودٍ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعلَّ هنا للتعليل، أي: لأجلِ أنْ تَصْطلوا بها، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والطاء بـدلٌ من تاءِ الافتعالِ]، فاصطلى أصلُه (اصتلى) بالتاء عَلَى وزن افْتَعَلَ، لكِن أُبدلتِ التاءُ طاءً لسببٍ صرفيّ.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ بالطاء بدل تاءِ الافتعالِ من صَلِي بالنَّار بكسرِ اللامِ وفتحها -صلَى- تَسْتَدْفِئون مِنَ البَرْدِ]، وما أحلى النَّارَ الَّتِي يَصطلي بها الْإِنْسَان فِي حالِ البردِ، ولهَذَا يَقُول المثل: (النَّار فاكهة الشتاء، والْمُكَذِّبُ يَصْطَلِي)، وهذا صحيحٌ ومشاهَدٌ.

ذهب موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبقِيَ أهلُه فِي هَذَا المكانِ، وذهب هُوَ وحدَه إِلَى النَّارِ لعلَّه يأتيهم بالخبرِ أو بالشِّهاب.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الحِكْمَة فِي كون موسى ﷺ أُري هَذِهِ النَّار فِي هَذَا المكان؟

فالجواب: لعلَّ من الحِكْمَةِ أنَّ ذلك المكان بالذاتِ فِي الوادي المقدَّس، فهَذَا الوادي مبارَك ومقدَّس، فصارَ ابتداء الوحيِ من ذاكَ المكانِ، وَأَنَّهُ كَانَ ﷺ بعيدًا منه، وموسى ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: حُسْن خُلُق موسى ﷺ وذلك لمكالمتِه لأهلِهِ ومراجعته إيَّاهم بما يهمّ الجميع. يعني أَنَّهُ لم يَذْهَبْ هُوَ بدونِ أنْ يقولَ لهم هَذَا القَوْلَ، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ يَتَرَاجَع معَهم فيما يُهِمُّهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي هَذَا دليل عَلَى أن الزوجةَ مِنَ الأهلِ، وهَذَا هُوَ القَوْل الصَّحيح. فعلى هَذَا آلُ النَّبِيّ ﷺ يدخل فيهم أزواجُه؛ لِأَنَّ الزوجةَ منَ الأهلِ.

وقدِ اختلفَ العُلَماءُ فيما إذ أوصَى الْإِنْسَان لأهلِهِ أو أوقفَ لأهلِهِ، هل يدخلُ الزوجاتُ فِي ذلكَ أمْ لا؟ والَّذِينَ يَقُولُونَ بعدمِ الدخولِ يَرُدُّون ذلك إِلَى العُرف، ويَقُولُونَ: إنَّ العُرْفَ عند النَّاسِ أنَّ الزوجاتِ لَيْسُوا مِنَ الأهلِ، وإنَّما الأهلُ القرابة.

وإذا كَانَ هَكَذَا فَإِنَّهُ يقال: الزوجاتُ مِنَ الأهلِ، فإذا أوقفَ الْإِنْسَان عَلَى أهلِ فلانٍ، أو أَوْصَى لهم، دخل فيهم الزوجاتُ بِمُقْتَضَى اللُّغةِ. ثُمَّ إنْ وُجِدَ عُرْفٌ مُضْطَرِدٌ ينافي ذلك رَجعنا فِيهِ إِلَى العرفِ؛ لأنَّ الصَّحيح أنَّ الأقوال تُردُّ معانيها إِلَى أعرافِ النَّاسِ وعاداتهم، فإذا لم يُوجَدْ عُرف رجعنا إِلَى الشرع أو اللُّغة، حَسَب ما يَكُون ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الأحوال البَشَرِيَّة تَطرَأُ حَتَّى عَلَى الأَنبياء عليهم الصَّلَاة والسلام، فإنَّ موسى فِي تلك الليلةِ كَانَ قد ضلَّ الطريقَ ولم يهتدِ إليه، وقد أصابَهُ البردُ هُوَ وأهله. والأَنبياء والرُّسُل لا يَختلفون عن غيرهم إِلَّا فِي الرسالةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت:٦]، فالأوَّل: المُماثَلَة فِي البشريَّة، والثاني: الاختصاص بالوحيِ.

فائدة: النبوَّة فوق معرفة الله والتعبُّد له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الْإِنْسَان لا يُلامُ عَلَى اتِّخاذِ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافِعة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وهَذِهِ الوقاية دافعةٌ رافعةٌ؛ رافعة للبردِ السابق، ودافعة للبـردِ اللاحِق. فاتخاذ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافعةِ لا يُلامُ عليه الْإِنْسَان، بل إِنَّهُ ربما يُؤْمَر به أمرَ إيجابٍ أو أمر استحبابٍ، حَسَبَ ما تَقتضيه الحالُ الَّتِي يريد أن يرفعها أو يَدْفَعَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قَبُول خبرِ الثقةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فالعَمَلُ بخبرِ الثقةِ هَذَا سائغٌ، وَأَمَّا مَن لَيْسَ بثقةٍ فقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

والنَّاس فِي هَذَا المقام ثلاثةُ أقسامٍ: قِسم يُوثَق به، وقسم لا يُوثَق به، وقسم مُحْتَمل. الَّذِي لا يوثق به لا يُقبَل، والموثوق به يُقبَل، والمجهول أو المحتمل يُتَوَقَّفُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَمْرُه.

والكَلام هنا عَلَى من يُوثَق به عامَّة أو خاصَّة، فقد يَكُون هَذَا الْإِنْسَان معلومَ الحالِ عندي فأثِق به، وَهُوَ عندَ النَّاسِ مجهولٌ يَتَوَقَّفُون فِي أمرِه، فالثِّقَة هُوَ الَّذِي تثِق به.

مسألة: لو أنَّ رجلًا نظرُه ضعيفٌ، أخبرَ أَنَّهُ رأى الهلالَ، والنَّاسُ الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ؟

لا يُقبل قولُه، ولو كَانَ عَدْلًا، ولهَذَا وقعَ عندَ بعضِ القُضاة فيما سبقَ أنْ تراءى النَّاس الهلالَ فقال شيخ منهم: إني رأيتُ الهلالَ، والنَّاس الَّذِينَ معه أَقوَى منه بَصَرًا

فقَالُوا: ما رأيناهُ. وهَذَا الشيخ فِي حدِّ دينه وأمانتِه موثوقٌ به، وأصـرَّ عَلَى أَنَّهُ رأى الهلال، فقال القاضي: ادْنُ منِّي. فدنا منه، فمَسَحَ حاجبَه، فقال له: انظُرْ، قَالَ: الْآنَ لا أراه. فإذا هِيَ شعرةٌ بَيضاء. وهَذَا من ذكاءِ القاضي؛ لِأَنَّهُ قَالَ: كيف أن النَّاس الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ وَهُوَ رآهُ؟! هَذَا لا يمكِن، وَهُوَ ثِقَةٌ وَلَيْسَ برجلٍ مشكـوك فِي خَبَره، لكِن قد يَهِمُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قوله: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا﴾ موسى ﷺ يخاطِب أهلَه، ففيه دليل عَلَى مخاطبة الواحدِ بلفظِ الجمعِ، وهَذِهِ فائدة لُغَوِيَّة.

• ● ۞ ● •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٨].

•••

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ﴾: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ الجملة فيها حذفٌ، والتَّقْدير: فذَهَبَ فلمَّا جاءها. ويُسمَّى هَذَا الإيجاز إيجازَ الحَذْفِ؛ لِأَنَّ الإيجازَ عندهم فِي البلاغةِ إِمَّا إيجاز قَصْرٍ وَإِمَّا إيجاز حَذْف، فإذا كانت الجملة القصيرةُ تشتمِل عَلَى معانٍ كثيرةٍ بدون حذفٍ يُسمَّى إيجاز قَصْرٍ، كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، هَذِهِ جملةٌ مُخْتَصَرَةٌ، لَكِنَّها تَتَضَمَّنُ معانيَ كثيرةً، يُسَمِّي علماءُ البيَان هَذَا إيجازَ قَصْر، وَهُوَ أن تكونَ الجملةُ قصيرةً لَكِنَّها مُتَضَمِّنة لمعانٍ كثيرةٍ، فإيجازُ الحذفِ مَعناه قِصَر الجملةِ لكِن الجملة نَفْسها لا تَتَضَمَّن معانيَ كثيرةً إِلَّا بتقديرِ أَشْيَاءَ محذوفةٍ. فقولُه هَذَا من إيجاز الحَذْفِ، وأمثلته فِي الْقُرْآن كثيرةٌ، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، فيها إيجاز حذفٍ، التَّقْدير: (فأفطرَ فعِدَّة من أيَّامٍ أُخرَ).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ﴾ أي: بأنْ ﴿بُورِكَ﴾ أي: بارك اللهُ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مُوسَى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة أو العكس].

﴿نُودِىَ﴾ المنادي هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الدَّلِيلُ: أَنَّهُ فِي آيَةٍ أُخرى صرَّح بذلك:

﴿وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، فالمنادي هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، والنداء لا يلزَم منه القُرب أو البُعد، وقد يَكُون الله ناداهُ من بَعيدٍ ثُمَّ قرَّبه نَجِيًّا، مثلَما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وقوله: [﴿أَنْ﴾ أي: بأن]، أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (أنْ) هنا مخفَّفة من الثقيلةِ، حينما قَدَّرَ (الباء)؛ لِأَنَّ تقديرَ الباءِ يَدُلّ عَلَى أنَّ ما بعدها مؤَوَّل بمصدرٍ، وهناك قولٌ آخرُ حيثُ يجعلـونَ (أنْ) هنا تفسيـريَّة، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، ويَقُولُونَ: إن ﴿نُودِىَ﴾ متضمِّن لمعنَى القَوْلِ دونَ حروفِهِ، و(أنْ) إذا سُبقت بما يَتَضَمَّنُ معنى القَوْل دون حروفِه فهي تفسيريَّة، ولكِن المَعْنى مِن حَيْثُ المَعْنى واحدٌ، إِنَّمَا الاختلاف فِي الإعرابِ.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولنا: إن (أن) تفسيـريَّة أَلَا يَدُلّ عَلَى أن المناداةَ بغيـرِ اللُّغةِ العربيَّة؟

فالجواب: لَّما سِيقتْ باللُّغةِ العربيَّة أَخذتْ حُكْمَ اللُّغة العربيَّة، والتفسير فِي الحقيقةِ لكلِّ الكَلامِ، يعني ترجمة الكَلام الَّذِي وقعَ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى فِي كُلِّ هَذِهِ الجمَل، وَلَيْسَ فقط فِي قولِه: (بُورِكَ).

قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي بارك الله ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾]، قدَّر هَذَا لِيُبَيِّن أن فاعلَ البركةِ هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ (بارك) يتعدَّى بنفسِه، يقال: بارك الله فلانًا، كما يقال: بارك اللهُ بفلانٍ، فَهُوَ يتعدَّى بنفسِه ويتعدَّى بحرف الجرِّ.

قوله: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾: ﴿مَن﴾ إعرابها بدونِ تقديرِ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمٌ موصولٌ فِي محلِّ رفع نائب فاعلٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة، أو العكس]: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الملائكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: موسى، واحتمال ثالث أن يَكُون ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ البلاد الَّتِي حول هَذِهِ النَّار؛ لِأَنَّ بلاد الشامِ مُبارَكَةٌ، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَهْله. كُلّ ذلك فِيهِ احتمالٌ.

قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فِيهِ إشكالٌ فِي الحقيقةِ؛ لِأَنَّ (في) للظرفيَّة، والنَّار ظرف، فهل موسى فِي النَّار؟ المُفَسِّر قدَّر لهَذَا فقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وبارك يَتَعَدَّى بنفسِه وبالحرفِ، ويُقَدَّر بَعْدَ (في) مكان]، يَعْنِي: (مَنْ فِي مكانِ النَّار)؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ فِي النَّار حقيقةً لاحترقَ ولكِن يُقدَّر (مكان).

فإذا قيل: ما الفائدةُ مِن قولِهِ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وحَذْف المَكان؟

قُلْنَا: الفائدة من ذلك -واللهُ أَعْلَمُ- شيئانِ:

الشَّيْء الأول: القُرْبُ التامُّ منها، والشَّيْء الثاني: أنّ شعاع النَّار قد وصلَ هَذَا القريب منها؛ لِأَنَّ النَّار كما هُوَ معروف لها شُعاعٌ، والإِنْسَان القريبُ مِنْهَا يَكُون فِي نفسِ الشعاعِ، فكأنَّه لِقُرْبِه ووصول شُعاع النَّار إليه صارَ كأنه فيها نفسها، وإلا فليسَ هُوَ فِي نفسِ الشعلة، هَذَا لا يمكِن، فهَذَا -واللهُ أَعْلَمُ- الحِكْمَة من كون الله جَلَّوَعَلَا قَالَ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

مسألة: كثيرٌ مِنَ المفسِّرين يُكْثِرُون حول هَذَا الموضوعِ ويَقُولُونَ: أرادَ أنْ يأخذَ مِنْهَا شيئًا فاتجهتْ إليه ثُمَّ انْقَلَبَتْ إِلَى نورٍ وهَكَذَا؟

الجواب: النَّار هنا نار حقيقيَّة، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وَأَمَّا قول مَن يَقُول: إِنَّهَا نورٌ، وإنَّما هِيَ نارٌ فِي اعتقادِ مُوسى فنَقُول له: ما لنا أن نَقُولَ إِلَّا ما قَالَ الله، والله تَعَالَى

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قدير، ثُمَّ هَذِهِ النَّار لا ندري ما وَقُودُها، ما لنا أن نتكلَّم والله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فكلُّ عِلم يأتينا عن هذه الأمم من غير الْقُرْآن أو صحيح السنَّة فليس بشيءٍ، غاية ما هنالك أن يَكُونَ من أقوالِ بني إسرائيلَ الَّتِي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولهَذَا القَصَص لا يجوز أن نتعدَّى فيها الْقُرْآن إِلَّا ما جاءتْ به السنَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، معناه: قطع أي خبر يأتي من غيرِ طريقِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ هناك أخبار صحيحة تأتي من غيرِ اللهِ لكان الله يعلمها، وهَؤُلَاءِ المخبِرون أيضًا يعلمونها، والله تَعَالَى حَصَرَ فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وهَذَا من أقوى طُرُق الحصرِ الَّذِي هُوَ النفيُ والإثباتُ، قال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهَذِهِ الآيَة تُبيِّن لنا أنَّ كُلّ ما يُقَال فِي هَذِهِ القصة، وكذلك فِي قِصَّة سُلَيْمان وداودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وغيرهما؛ أَنَّهَا مسائل إن كَانَ الشرع يُنافيها أو مَقام النبوَّة ينافيها فهي باطلة وكذِبٌ، كما فِي قِصَّة داودَ الَّتِي سَبقَتْ فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] إِلَى آخرِه، وإن كَانَ لا يكذبها فموقفنا مِنْهَا أن نَقُولَ: لا نُصدِّق ولا نُكذِّب، أَمَّا أن نفسِّر بها كلامَ اللهِ فلا يجوز.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من جملة ما نُودِيَ، ومعناه تنزيه اللهِ منَ السُّوء]، يَقصد معنى التسبيح، ومعلومٌ للجميعِ أنَّ ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم مصدر، وأن عاملَه محذوفٌ دائمًا، وَأَنَّهُ مُلازِمٌ للإضافةِ، كُلّ هَذَا شَيْء معلوم وأن معنى ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كُلّ نقصٍ وعيبٍ، لكِن هل الجملة هنا خَبَرِيَّة بمعنى الطلبِ أو خبريَّة عَلَى ظَاهِرِهَا؟

يقولُ بعضُ المفسِّرينَ: إِنَّهَا تَعجِيبٌ لموسى، بمعنى: اعْجَبْ وسَبِّح اللهَ تَعَالَى

عمَّا لا يليق به، وأن هَذَا الأَمْر الَّذِي رأيتَ والكَلامَ الَّذِي سمِعتَ ما هُوَ إِلَّا كلامُ ربِّ العالمينَ، فسبحانَ الله ربِّ العالمينَ.

فعلى هَذَا تكون الجملة الخبريَّة هنا من حَيْثُ المَعْنى طَلَبيَّةً، أي: سَبِّحِ اللهَ ربَّ العالمينَ عمَّا لا يَلِيقُ به، وإذا قُلْنا: إِنَّهَا عَلَى ظاهرها صارَ معناها ثناءً مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ المُكَلِّم المُنَادِي عَلَى نفسِه، فأيّ المعنيينِ أشملُ؟ الأوَّل: أي أنَّها طَلَبِيَّة؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّن إذا أُمِرَ بها موسى أن اللهَ أهلٌ لها، فهَذَا هُوَ الخَبَر، وتَتَضَمَّن الزيادة الثانيةَ، وهي تعجيبُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واعتقاده بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عن كُلِّ عَيبٍ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ما معنى الربِّ؟ المالِك المتَصرِّفُ، لَكِنَّها أيضًا مُتَضَمِّنة لمعنى أدَقَّ وَهُوَ التربيَة، فَهُوَ يُرَبِّي مَعَ كونه مُدَبِّرًا خالقًا مُتَصرِّفًا، و(العالمين): كُلّ مَن سِوَى الله فَهُوَ من العالمين، وسُمُّوا عالَمِينَ قيل: لِأَنَّهُم عَلَم عَلَى خالِقِهم ودليلٌ عليه؛ فإِنَّ كُلّ ما فِي الكونِ شاهدٌ بوَحْدَانِيَّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبما تقتضيه هَذِهِ الأكوانُ من معاني رُبُوبيتِه.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ معناها أَنَّهُ يربِّي عبادَه تَرْبِيَةً حِسِّيَّة ومَعْنَوِيَّة، فالتَّرْبِيَة الحِسِّيَّة نَضرب لها مثلًا بالإِنْسَان، كونه فِي الخِلْقَة يَتَطَوَّر من شيءٍ إِلَى شيءٍ عَقلًا وجِسمًا وفِكرًا، فهَذِهِ تربيَة، ولو فَرَضْنا أن هَذَا الطفلَ الصغيرَ عَقْلُه كالكبيرِ، فلا يمكن أن يعيشَ؛ لِأَنَّهُ لا يَتحمَّل الأَشْيَاء الَّتِي تُقابله، مثلًا لو تركته أُمُّه وذهبت عنه لا يَستقِرّ أبدًا، وبدأ يُدبِّر ويقول: افعلوا كذا وافعلوا كذا، وكذلك بالعكسِ لو كَانَ الكبير بعقلِ الصغيرِ ما استطاعَ أن يعملَ شيئًا، وهَكَذَا أيضًا الطعام يأتي إِلَى الْإِنْسَان شيئًا فشيئًا، فهَذَا من التربية الحسِّيَّة. وبالنِّسْبَة للتربية المعنويَّة فظاهرٌ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَبِّي عبادَهُ بالعلمِ النافع شيئًا فشيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِيَ﴾، والنداء لا يَلْزَمُ منه القُرْب أو البُعْـد، فقد يَكُون الله ناداه من بعيـدٍ ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجيًا كمـا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الفِعْل هنا مبنيٌّ للمجهولِ، لم يُبيِّن مَنِ المُنَادِي، فلا دليلَ فِيهِ عَلَى كلام الله، فما الجوابُ؟

أولًا: التصريح فِي آياتٍ أُخرى، **وثانيًا**: أيضًا قوله فِي سياق الكَلامِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كـلامَ اللهِ تَعَالَى بصوتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِيَ﴾ والنداء لا يَكُون إِلَّا بصوتٍ، ففيه ردٌّ عَلَى طائفتينِ تَقَدَّمَ قولهما: الأشاعرة وَالْكُلَّابِيَّة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن كلامَ الله تَعَالَى معنًى قائمٌ بنفسِهِ، وهَذَا القَوْل باطلٌ بأوجهٍ كثيرةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إيناس المُسْتَوْحِش، فيَنبغِي أن تقول له أو تفعلَ معه ما يُؤْنِسُهُ لِيَطْمَئِنَّ، ويَكُون قابلًا لما يُلْقَى إليه؛ لِأَنَّ المستوحِشَ لا يَقبل ما يُلقى إليه، بمعنى: أَنَّهُ لا يَتمكَّن من قبوله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فإنَّ إثباتَ البركةِ لِمن فِي النَّار ومن حولها يَزداد به طمأنينةً بلَا شَكٍّ، ولهَذَا أوَّل ما خاطبهُ الله فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى تنزيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّـا لا يَليق به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى عمومِ رُبُوبيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وهل معه ربٌّ آخَرُ؟

لو كَانَ معه ربٌّ آخـرُ لم يكنِ اللهُ تَعَالَى ربًّا للعالمينَ، بل ربًّا لبعضِ العالمينَ، واللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ربُّ العالمينَ.

وقد ذكر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يَكُونَ مَعَ الله إلهٌ آخرُ عَقْلًا، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ولم تَفْسُـدا، فدلَّ عَلَى امتناعِ تَعَـدُّدِ الآلهةِ، فامتناع فسادهما دلَّ عَلَى امتناع تَعَدُّدِ الآلهة. وقال تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، وهَذَا أمرٌ لم يَكُنْ.

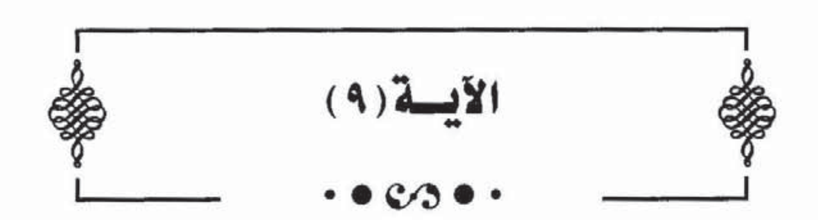
فإثبات وَحدانيَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي رُبُوبيَّته معلـوم، حَتَّى المشـركون فِي عهد الرَّسُول ﷺ كانوا يُقِرُّونَ بوَحْدَانِيَّته فِي الرُّبُوبِيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ثناءُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَى نفسِه، وأن ذلك من كماله؛ فَإِنَّهُ أثنى عَلَى نفسه بِقَـوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أثنى عَلَى نفسِهِ بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفي: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والإثبات: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومن هنا نعرِفُ أَنَّهُ لا يَتِمُّ كمـال الأوصاف إِلَّا بهذينِ الأَمْرينِ، وهما: النفي والإثبات؛ لِأَنَّ إثبات الكمـالات فقط لا يَدُلّ عَلَى نفي النقائصِ، ونفي النقائص فقطْ لا يَدُلّ عَلَى إثباتِ الكمالاتِ، وباجتماعهما يَحصُل الكمالُ المطلَق، ولهَذَا قَالُوا: لَا بُدَّ من تَخْلِيَةٍ وتَحْلِيَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن جميع الخلق مَرْبُوبُونَ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، يَتَصَرَّف فيهم بمُقتضى رُبُوبِيَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولهَذَا حُكْمُ الرُّبُوبِيَّة ما أحد يَستطيع أن يخالفَه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن أرض الشام مُبارَكة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.



الآية (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾]، هَذَا تفسير الضَّمير، وضَمير الشأن هُوَ ضَمير يَتَّصِل ويفَسَّر بالجملة الَّتِي بعده، فعلى هَذَا يَكُون ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ هَذَا الشأن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تفسيرًا لهَذَا الضَّمير.

أمَّا مِن حَيْثُ الإعرابُ فإنَّنا نَقُول: (إنَّ) حرف توكيد ينصِب الاسم ويرفع الخبر، والهاء اسمها و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبَر، والجملة فِي محلِّ رفع خبر إنَّ.

وقال بعض المفسِّرين: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ فرأَوْا أن الهاءَ ضَميرٌ حقيقـيٌّ للمتكلِّم، لا ضَمير شأن. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ يعني أنَّ الله قَالَ لموسى: إنَّ الَّذِي يُكَلِّمك أنا، وكلمة ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ لا يَتبَيَّن مِنْهَا مَن هو، ولهَذَا نُهِيَ الْإِنْسَان أن يَقُول إذا استأذنَ عندَ البابِ وَقِيلَ له: مَن؟ أن يَقُول: أنا[1].

إِذَنْ: (أنا) هنا مُبْهَمَةٌ، ثُمَّ بيَّن هَذَا الضَّمير بِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَعَلَى هَذَا تكون (إن) حرفَ توكيدٍ يَنْصِب المبتدأ ويرفعُ الخبَرَ، والهاء اسمها، وَلَيْسَ ضَمير

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب (إذا قَالَ: من ذا؟ قَالَ: أنا)، حديث رقم (٥٨٩٦)؛ صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب (كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل: من هذا)، حديث رقم (٢١٥٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

شأنٍ، و(أنا) خبـرها، وجملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تكون بَيَانا للضَميرِ، (الله) مبتدأ، و(العزيز) خبر، و(الحكيم) خبر ثانٍ، وهي بَيَان لـ(أنا)، وعلى الأوَّل يَرَوْنَ أن جملة ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ هِيَ الخبر، لكِن ما سَلكَه المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقربُ، وإنْ كَانَ الثاني مُحْتَمَلًا، يَعْنِي أنَّ الثانيَ يَستقيم لكِن الأوَّل أقوى: ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهَذَا الَّذِي قدَّره المُفَسِّر أحسنُ مِنَ الَّذِي قدَّره بعض المفسِّرين كالزَّمَخْشَرِيّ[1].

قال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ابتدأ بالأُلُوهِيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾، و(الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الاسمُ العلَم عَلَى اللهِ الَّذِي لا يُسمَّى به غيرُه، وجميع ما يأتي من أسماء اللهِ دائمًا تَجِدُه تبَعًا لهَذَا الاسمِ، ودائمًـا تُصَدَّر أسمـاء الله بكلمة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّهُ العلم الَّذِي لا يُسَمَّى به غيره، ثُمَّ تأتي الأسماء بَعْد ذلك تابعةً له.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه: القويّ الَّذِي لا يُغْلَب، بل هُوَ الغالِب، وَقِيلَ: إن العِزَّة تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ هي:

١- عِزَّة القَدر.

٢- عزة القَهر.

٣- عزة الامتناع.

وقَالُوا: إِنَّهَا مُشْتَقَّة مِنَ الْأَرْضِ العَزَاز، والْأَرْض العزاز يَعْنِي: الصُّلبة القويَّة، ونحن نُسَمِّيها باللُّغة العامِّيَّة: (عَزَا) فنَحذِف الزايَ الثَّانِيَةَ، فالعزيز معناه: هُوَ القوِيُّ الغالب الَّذِي لا يُغلَـب، فإذا قُلْنَا بهَـذِهِ الثلاثةِ أَتَينا بالمعاني الثلاثةِ؛ القهـر والقَدر والامتناع.

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٥٠).

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ الكَلامُ عليه، وإنما ذكر الله له ذلك لِيُشْعِرَهُ بأن مآله للعزّ، وأن ما سَيُوحَى إليه فَهُوَ حكمة؛ لِأَنَّ الصادرَ من العزيز يَكُون عَزِيزًا، ومن الحكيم يَكُون حكمةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن تعيينَ الشخصِ بالنداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمين والإيناس؛ لأنك إذا قلتَ: يا فلانُ طَمْأَنْتَهُ بِلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ يَقُول: هَذَا يَعرِفني، ما يَنالني بِسُوءٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

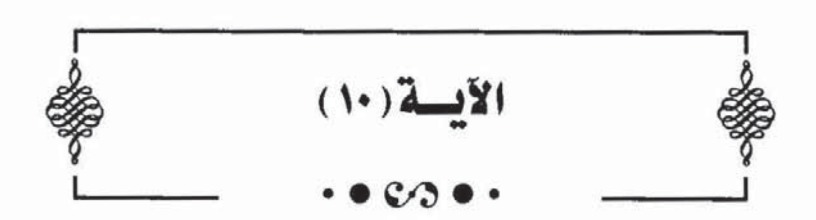
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات العزَّة والحِكْمَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لِمَن أرادَ تَعيينَ نفسِه أن يُبيِّن اسمه؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. لم يقلْ مثلًا: أنا مُكَلِّمُكَ، أنا، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بل بيَّن مَن الَّذِي يُكلِّمه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حَصْر الأُلُوهِيَّة فِي اللهِ؛ لِأَنَّ وصفَه بالعزَّة والحِكْمَة يَقتضي أن يَكُون هُوَ المألوهَ وحدَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحُكْم المطلَق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأَنَّنا ذَكَرْنا أن الحَكيم: ذو الحُكْم والحِكْمة.

• • ۞ • •



الآية (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

•●••●•

قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ما هِيَ العَصَا الَّتِي معه؟

عصا عاديَّة يَتوكَّأ عليها ويَهُشُّ بها عَلَى غنمه، فإضافتها إِلَى موسى ﷺ إضافة مملوكٍ إِلَى مالِكِهِ، وَلَيْسَ مخصوصًا إِلَى مَنِ اخْتَصَّ به، أي: أن هَذَا العَصَا لَيْسَ له اختصاص وَأَنَّهُ عصا من جوهر معيَّن أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هُوَ عصا عاديّ، وهَذِهِ العَصَا هِيَ الَّتِي ضَرَبَ بها الحجرَ ما تَغَيَّرَتْ، وهي الَّتِي أَلقاها أيضًا للسَّحَرَةِ فأبطلتْ سِحْرَهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هَذَا أيضًا من إيجازِ الحذفِ كما مرَّ دائمًا، والقَصَصْ يَكُون فيه إيجازُ حَذْف؛ لِأَنَّ المحذوفَ دائمًا يَكُون معلومًا منَ السياقِ، فيَكُون حَذْفُهُ سَهلًا ومُيَسَّرًا، وقد قَالَ ابن مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الأَلْفِيَّة قاعدةً من أفيد ما يَكُون، ذكرها فِي بابِ المبتدأ، وهي صالحةٌ لكلِّ شَيْء، قَالَ[1]:

وحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٨).

هَذِهِ فِي الحقيقة قاعدة: حذف ما يُعْلَم جائزٌ.

والإيجاز فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وألق عصاكَ فألقاها. فهَذِهِ جملة محذوفة وليستْ تفسيرًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ تفسيره: ضَعْ عصاك، ولو أخذنا الآية عَلَى ظاهرها لكانتِ العَصَا تَهْتَزّ وهي بيدِهِ قبلَ أنْ يُلْقِيَها، يعني لَمّا أمر أن يلقيَ عصاه اهتزتْ، فالآية لَا بُدَّ فيها من شيءٍ محذوفٍ: فألقاها فإذا هِيَ تَهْتَزّ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّك]، ولكِن تفسير الاهتزاز بمطلَق التحرُّك فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ الاهتزازَ أبلغُ مِنَ التحرُّك، كَأَنَّ الاهتزاز فِيهِ نوعٌ من الْقُوَّة والاضطرابِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حَيَّة خفيفة]، وَقِيلَ: حيَّة عظيمة، وَقِيلَ: الجانُّ: الذَّكر منَ الحَيَّات، وأيًّا كَانَ فإنَّ هَذِهِ العَصَا الَّتِي كانت بيده صارتْ حيَّةً تَهتزُّ وتتحرَّك وتَضْطَرِب مثل الجانّ، يَعْنِي الحيَّة العظيمة، والدَّلِيل عَلَى أن الْمُرادَ بالجانّ الحيَّة العظيمة: قوله تَعَالَى فِي سورة طه: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، والقِصَّة واحدة، فالجانّ من الأسماء المشترَكَة.

قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿وَلَّىٰ﴾ هَذِهِ جواب (لَمَّا)، ﴿مُدْبِرًا﴾ حال، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يَعْنِي: هاربًا، ولِهَذَا يَقُول: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يرجع]، وقد ولَّى خوفًا من هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا بطبيعةِ البشرِ أنَّ الْإِنْسَان إن ألقى عصاه وصارت حيَّةً تَسعى لَا بُدَّ أن يخافَ، لا سِيَّما وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما علِم أَنَّهُ سيُرْسَل وَأَنَّهُ رسول، إِنَّما كلَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإلى الْآنَ ما حَصَلَ شَيْء.

فالحاصل: أنَّ هَذِهِ طبيعة البشرِ، لَا بُدَّ أن يُوَلِّي، وَلَيْسَ فِي هَذَا نقصٌ للنبيّ ﷺ؛ لِأَنَّ الأُمُور البشريَّة تَعتَرِي الرسُلَ وغيرَهم، ولِهَذَا كَانَ الرَّسُول ﷺ يَنسى فِي أعظم

العبادات؛ فِي الصَّلَاة، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[1]، وَلَيْسَ فِي هَذَا أيّ قَدْحٍ للرسُلِ.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ هَذِهِ فيها أيضًا إيجازٌ بالحذفِ، ونحن نَقُول باختصار: جميع القَصَص ولا سِيَّما القَصَص الطويلة غالبًا يَكُون فيها إيجازُ حذفٍ، وأحيانًا تكون جملةً وأحيانًا تكون جملًا، وسيأتينا إن شاء الله فِي القَصَصِ الَّتِي فِي السُّورَة الَّتِي تلي هَذِهِ شيءٌ كثيرٌ من هَذَا.

قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ وناداه باسمِـهِ لِيُطَمْئِنَه؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي يناديـك وَهُوَ يَعْرِفك تَطْمَئِنّ إليه أكثر، لم يقلْ: يا هَذَا لا تَخَفْ أو يا مُوَلِّي لا تخفْ، بل قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لِأَنَّهُ معلوم أن الَّذِي يَعرِفك تطمئنُّ إليه أكثر، مثال ذلك لو رأيتَ مَن ظَنَنْتَه عدوًّا ثُمَّ هربتَ منه فقال: يا فلان، يا فلان، فإنك تطمئنُّ؛ لأنك تقول: هَذَا يَعرفني، ما يَنالني بِسُوءٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ منها]، والتقييد بـ(منها) الَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أن يأتيَ به هُوَ ظاهرُ السياقِ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أنَّ مُوسَى ﷺ إِنَّمَا هَرَبَ منها، فقال: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حيَّة وغيرها]، معلوم أن الَّذِي بِحَضْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يخافَ من شيءٍ؛ لِأَنَّهُ فِي كَنَفِ الله تَعَالَى وَفِي جِوَارِه، فلا يمكن أن يخافَ وَهُوَ عندَ اللهِ.

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حَيْثُ كان، حديث رقم (٣٩٢)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، حديث رقم (٥٧٢)، عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هَذَا أيضًا فِيهِ بِشَارَة لموسى ﷺ بأنه عند الله وَأَنَّهُ مِنَ المُرسَلِين، ومعلوم أَنَّهُ إذا بُشِّرَ بمثلِ هَذِهِ البشارةِ سوف يَزولُ عنه الخوفُ نهائيًّا، وسوف يَحُلّ مكان الخوفِ أَمْنٌ، ومكان الذُّعْر سرورٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: هَذِهِ الآيَة العظيمة دالَّة عَلَى كمالِ قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ بإلقاء العَصَا فألقاها، فبمُجَرَّد وُصُولها إِلَى الْأَرْض صارتْ حيَّة، وهَذَا فِي سورة طه ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، ﴿إِذَا﴾ فُجائيَّة تدل عَلَى مفاجأةِ الأَمْرِ ووقوعِه عَلَى وجهِ الفوريَّة. ففيها دليل واضح عَلَى كمال قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ إذا قَالَ للشيءِ: كنْ فَإِنَّهُ يَكُون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي آيَاتِ الرسُل، وأنها تناسب العَصْرَ، لِقَوْلِهِ: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ لأنّ هَذَا أشبه ما يَكُون بها تَطَوَّرَ تَطوُّرًا بالغًا عندهم فِي ذلك الوقت وَهُوَ السحر، فلو أن أحدًا أتى بعصا أمامَكَ ووضعها فِي الْأَرْض ثُمَّ رأيتَها حيَّة فإنك تقول: هَذَا سِحر. فلذلك أُوتي موسى ﷺ من الآيَات ما يَقضي عَلَى سِحرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مِنَ البلاغةِ الإيجاز بالحذفِ، ولا يُعَدُّ هَذَا قُصُورًا ولا تقصيرًا. قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هنا يوجد بلَا شَكّ محذوفٌ، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ لو أُخذ الكَلامُ عَلَى ظاهرِهِ لكانَ المَعْنى: لمَّا أُمِرَ بهَذَا اهتزَّتْ وهي فِي يدِه، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ العَصَا لم تكنْ مجرَّد حيوان يَتَحَرَّك، ولَكِنَّهَا أبلغُ من ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلوم أنَّ الجانَّ بنفسِه مروِّع، فالحيَّة بنفسها مروِّعة، فإذا كانت من عَظيمِ الحيَّات صارتْ أشدَّ وأبلغَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جواز أنْ يَعْتَرِيَ الأَنْبياء الخوفُ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾. وأن ذلك لا يُعَدّ نقصًا فيهم؛ لِأَنَّهُ مِن مُقْتَضَى الطبيعةِ البشريَّة، وهَذَا الَّذِي يَكُون من مُقتضى الطبيعة البشرية لا يُلام عليه أحد، فالأَنبياء يجُوعون، ويعطَشون، ويَبْرُدون، ويَمْرَضون، ويموتون أيضًا، قَالَ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الأَنْبياء مَعْصُومونَ مُطْلَقًا؟

قُلْنَا: لَا شَكَّ أن الأَنبياء لا يُعصَمون ممَّا لا يُخِلّ بالرسالةِ مِنَ الذُّنُوب؛ فالَّذِي لا يُخِلُّ بالرسالة والشَّرَف والمروءة لا يُعْصَمُون منه، لكِنهم يُعصَمون من الإقرارِ عليه، فلَا بُدَّ أن يُوَفَّقُوا للتوبة. وهَذَا هُوَ الفرق بينهم وبين غيرهم، وأظنُّ أَنّا ذكرناه فِي التوحيد وقلنا: إِنَّهُ يُفَـرَّق بينهم وبين غيرهم من وجهيـنِ -في مسألة الذنـوبِ والمَعاصِي-:

أولًا: أَنَّهُ لا يُمْكِن أن يَصْدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرسالةِ، مثل: الكَذِب والخِيَانة، ولا بالشَّرَف والمروءة: كالزِّنا وما أَشْبَهَهُ.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا وَقَعَ منهم ما يُمْكِن وُقُوعُه مِنَ المَعاصِي فإنهم لا يقرّونَ عليه، لَا بُدَّ أن يَحْصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَرْكَهم لهَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُم رُسُل قُدْوَة. ولو أقرُّوا عَلَى المَعاصِي لكانتِ المَعاصِي من شَـرَائِعِهم. وَأَمَّا القَوْلُ بالعِصْمة مُطْلَقًا فلا وجهَ له، فلا توجد عِصمةٌ مُطْلَقًا، بل الصَّواب أَنَّهُم يَحْصُل منهم ما يَحْصُل ولكِنَّهم لا يقرّون عليه.

فقوله تَعالَى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١]، هَذَا ممَّا يَدُلُّ عَلَى أن الأَمْرَ قد وقعَ مِنَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَكِنَّهُ غُفِرَ عنه، ما أقرَّ عليه، أَمَّا مسألةُ

ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فليستْ بمعصيةٍ، بل خِلاف الأَوْلى، ولهَذَا لامَهُ الله عليها، وأيضًا موسى ﷺ اعترف بأنه ظالمٌ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل:٤٤].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: موسى لَيْسَ بظالمٍ؛ لِأَنَّهُ يُدافِعُ عن قَوْمِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه تَسَلَّطُوا عَلَى قومه؟

قُلْنَا: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّهُ معهم فِي الْأَرْض، وهَذَا الرجل بالذاتِ بينَه وبين الثاني عهد، وهما يَتخاصمانِ فِي مسألةٍ خاصَّةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رَحْمَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَبِيِّه موسى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ فإن هَذَا من رحمةِ الله به؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وقد عَلِمَ أَنَّهُ ربُّ العالمينَ فلا يمكن أن يخافَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جواز توجيه الأحكامِ الشَّرْعِيَّة إِلَى الأُمُور الفِطْرِيَّة. يعني مثلًا أنت إذا قلت لإِنْسَانٍ: لا تَخَفْ. والخوف طبيعيٌّ فكيف يَدْفَعُه عنه؟ فهل يَتَوَجَّه الحكم إِلَى مثلِ هَذِهِ الأُمُورِ الطبيعيَّة؟

نَقُول: نعم يمكن؛ لِأَنَّ الخوفَ وإِنْ كَانَ أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لِأَنَّهُ يأتي الْإِنْسَان بغيرِ اختيارِه، لَكِنَّهُ يُمْكِنه معالجتُه بالمدافعةِ، ولهَذَا جاء رجلٌ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقَالَ: أَوْصِني، فقَالَ: «لَا تَغْضَبْ»[1]، والغَضَبُ من طبيعةِ الْإِنْسَان. لكِن معنى لا تَغْضَبْ: يعني حاوِلْ أن تُقَلِّلَ من غَضَبِكَ، وأن تكونَ دائمًا هادئًا، ثُمَّ إِنْ غَضِبْتَ فلا تُنَفِّذْ مُقْتَضَى هَذَا الغضبِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، حديث رقم (٥٧٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذَن: الأُمُورُ الطبيعيَّة البشريَّة الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الطبيعة البشريَّةِ يجوزُ أن يُوَجَّه الحُكْمُ إليها أمرًا أو نَهيًا، ويَكُون ذلك من باب مُدَافعَتِها قبلَ وُجودها، أو من باب تقليلِ آثارِها، فلا يقال: إن الْإِنْسَان أُمِرَ بها لا يستطيع، فأُمِرَ بعدمِ الغضبِ وَهُوَ لَا بُدَّ أن يَغْضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخوفِ وَهُوَ لَا بُدَّ أنْ يخافَ مما هُوَ مَخُوفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفي الآية أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ مَن كَانَ مَعَ الله تَعَالَى فَإِنَّهُ لا ينبغي أن يخافَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أي: عندي ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾. ولذلك كلَّما ذكر الْإِنْسَان ربَّه زالَ عنه الخوفُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، ففي ذكر الله تَعَالَى زَوَالُ الخوفِ والْقُوَّة والرغبةُ فِي تنفيذِ ما أَمَرَ الله تَعَالَى به، ولهَذَا أمر الله به فِي الجهادِ.

• • ۞ • •



الآيــة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

•●●•

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أتاه ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: تاب ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَقْبَلُ التوبةَ وأَغْفِر له].

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: سبحان الله العظيم! ما لِهَذِهِ الجملة وللكلام الَّذِي قيل ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؟

فنَقُول: إن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا قَالَ الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكر أَنَّهُ قد وقعَ مِنه خطيئةٌ، والخطيئةُ أَنَّهُ قتل نفسًا، وكأنه عندما يَتَذَكَّر هَذَا قد يَستبعِد فِي نفسه أن يَكُونَ من الرُّسُل، فقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ لِيُذَكِّرَهُ بما مَنَّ به عليه منَ التوبةِ، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، ﴿بَدَّلَ﴾ الْمُفَسِّر فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: أتى حُسْنًا؛ لِأَنَّ ظاهره فِي الحقيقةِ لا يَستقيم به المَعْنى: (بَدَّلَ حُسنًا بسوء) أيّها المأخوذ؟ فـ﴿بَدَّلَ﴾ تدل عَلَى أن هناك بَدَلًا ومُبْدَلًا منه، فإذا قلتَ: بدَّل حسنًا بسُوء؛ يصير الحُسْن مَدْفُوعًا والسوءُ مأخوذًا.

قولك: بدَّلْتُ ثَوْبي بثَوْبِك، فالمَأْخوذ هُو الأَخِير. فهنا ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ لو أخذنا بظاهرها فمعناه أَنَّهُ ترك حسنًا وأخذ سوءًا، ولهَذَا فسَّر الْمُفَسِّر قوله: ﴿بَدَّلَ﴾ بـ(أَتى).

والدَّلِيل عَلَى ذلك أَنَّهُ لو كَانَ المُراد بالتبديل ظاهر معناه: فما صح أن يعبر بِقَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، لو كَانَ كذلك لقال: بدَّل حسنًا بسوء، وما قَالَ: ﴿بَعْدَ﴾، فلما قَالَ: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ عُلِمَ أن بَدَّل هنا بمعنى استبدلَ، واستبدل بمعنى أخذ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١]، وأخذ مثلَما قَالَ المُفَسِّر بمعنى: أتى.

والمَعْنى من الآيَة الكَريمَة أَنَّ مَنْ أتى حُسنًا بَعْد سوءٍ فإن هَذَا الحسنَ ينفي السوءَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَعْنِي: أغفِر له.

جملة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما مُطابقتها للشرطِ؟ لِأَنَّ قوله: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ إعرابه: (من) اسْم شرط جازِم وليست اسمًا موصولًا مستثنى؛ لِأَنَّ الاستثناء هنا منقطع، و﴿ظَلَمَ﴾ فعل الشرط، وجملة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط.

أقول: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه ارتباط الجوابِ بالشرطِ؟

فالجواب: أنه لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذين الاسمين فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فَإِنَّهُ يريد مُقتضاهما، فمقتضى المغفرةِ أن يَغْفِرَ لهَذَا الَّذِي ظلم ثُمَّ بدَّل حسنًا بَعْد سوءٍ، ومُقتضى الرَّحْمَةِ أيضًا أن يرحمَه.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى فِي المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤]، يعني يَسْقُط عنهم الحدُّ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقتضى المغفرة والرَّحْمَة. فهنا مقتضى المغفرةِ والرَّحْمَةِ أَنَّ مَن ﴿بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يغفر له ويرحمه.

وهل يشمل الرُّسُل وغير الرُّسُل؟

ومِنْ ثَمَّ حَسُنَ أنْ يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَقُولَ معه أيضًا: إنَّ الاسثناء في ﴿ إِلَّا ﴾ هنا مُنقطِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَشمَل الرُّسُلَ وغيرَ الرُّسُلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولىٰ: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ أتى بعملٍ صالحٍ، فإن الله تَعَالَى يمحو العَمَلَ السيِّئَ بالعَمَلِ الصالحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

وقد تَقَدَّمَ مناسبة ذكر هَذِهِ الجملة: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فِي هَذَا المقام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثبات المغفِرَةِ والرَّحْمَة لله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّالثة: أن أخذَ الأحكامِ من مُقتَضى أسماء الله تَعَالَى وصفاته. فإن قوله: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أَغْفِر له، وهَذَا حُكْمٌ، وأخذ الأحكامِ من مُقْتَضَى الأسماء والصِّفَات هَذَا من أحسنِ ما يَكُون منْ الِاستدلال.

ذُكِرَ أنَّ رَجُلًا قرأَ عند أعرابيٍّ: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقالَ الأعرابيُّ وَهُوَ لم يقرأِ الْقُرْآن: أَعِدِ الآيَةَ، أخطأْتَ فيها. فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). قَالَ له: أَعِدِ الآيَةَ. فأعادها فِي الثَّالثة عَلَى الصَّواب، قَالَ: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، قَالَ: الآن، فَإِنَّهُ عزَّ وحكمَ فقَطَعَ، ولو غفرَ ورَحِمَ ما قطعَ[١]. وهَذَا صحيح.

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ١٧٦).

ويدلُّ عَلَى هَذَا الفَهْمِ قوله تَعَالَى فِي المُحَارِبِينَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤].

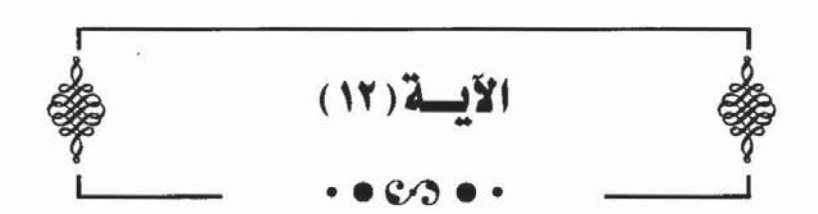
إِذَنْ: معناه إذا عَلِمنا أن الله غفور رحيم فإنه يُغفَر لهم ويُترَكون، ولهَذَا إذا تاب قاطِع الطريق قبل القُدْرة سقطَ عنه الحدُّ.

وهل يَلْحَقُ به غيرُه من ذوي الحدودِ أو لا؟

فِيهِ خلافٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إِلَى أن موسى ﷺ بُشِّرَ بالرسالة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآيــة (١٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل:١٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ هو طَوْق القَمِيص]. هَذَا تفسيرٌ لِلْجَيْب أَنَّهُ طوق القَمِيص.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ اليد فِي اللُّغة تُطلَق عَلَى الكفِّ فقطْ، ولا تشمل الذِّراع إِلَّا مُقيَّدَةً. والدَّليل عَلَى هَذَا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قَالَ فِي التيمُّم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النِّساء:٤٣]، صار خاصًّا بالكفيـنِ، ولَمَّا أراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذِّراعَ قَالَ فِي الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

إِذَنْ: الَّذِي أُمِـرَ أن يدخلَه موسى حَسَـب مقتضى اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ لَيْسَ اليد والذراع، بل الكفّ، والمُراد يُغَيِّبها فِي جيبه.

قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾: ﴿تَخْرُجْ﴾ مجْزُومة، مَعَ أَنَّهَا فعل مضارعٌ، ولم يَدْخُل عليها حرفٌ جازم، لَكِنَّها مجزومةٌ بجوابِ الطلبِ الَّذِي هُوَ (أَدْخِلْ). ومعروف أَنَّهُ إذا سَقَطَتِ (الفاء) وقُصِد الجزاء جُزِمَ، فهَذِهِ القاعدة. ففاء السَّبَبِيَّة إذا جاءت بعدَ الطلبِ نُصِبَ الفِعْل بها أو بـ(أن) مُضْمَرَة، فإذا سَقَطَتِ الفاءُ بعدَ الطلبِ وقُصِدَ الجزاءُ جَزَمْتَ، هَذِهِ قاعدةٌ معروفةٌ فِي النحوِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾]، يَعْنِي اليَدَ [خِلافَ لَوْنِها مِنَ الأُدْمَة ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾]، أخذ المُفَسِّر أنَّ لَوْنَها الأُدمة من قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّهَا لو كانتْ بيضاء من قبلُ لم يَقُلْ: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾. فلا بدَّ أَنَّهَا تغيرتْ من اللونِ الأولِ إِلَى اللونِ الثاني.

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من فاعل (تَخْرُج)، يعني حال كَوْنِها بيضاءَ.

وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هَذَا تَقييدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّ البيضاء قد يَكُون بياضها سوءًا مثل البَرَص، فَإِنَّهُ سُوءٌ؛ لِأَنَّهُ عَيْبٌ يَسُوءُ صاحِبَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

إِذَنْ: هو بَيَاض لَيْسَ كبياضِ البَرَص، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بَرَص لها شُعاعٌ يَغْشَى البصرَ آيَة].

أما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لها شُعاع، فهَذَا يحتاج إِلَى دليلٍ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما ذَكَرَ إِلَّا أَنَّهَا بيضاءُ، وكفَى بذلك آيَةً أن تدخلَ اليد عَلَى لون ثُمَّ تخرج بلونٍ آخرَ.

وأما زيادة الشُّعاع فإِنَّ الله تَعَالَى لم يذكرْه، ولَيْسَ لنا أن نتجاوزَ فِي هَذِهِ الأُمُور ما دلَّ عليه القُرْآن؛ لأنَّنا ذكرنا فيما سبق أن المسائل الخبريَّةَ لا مجالَ للرأيِ فيها، يُقْتَصَر فيها عَلَى ما جاءَ به الخبرُ، فنَقُول: هِيَ بيضاءُ وكَفَى بها آيَةً.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيَة ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾]، ﴿فِي﴾ للظرفيةِ. فتكون هَذِهِ الآيَة وكذلك آيَة العَصَا من جملةِ التِّسعِ، وليستْ زائدة عَلَى التِّسعِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ مُرسلًا بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾]، عَرَفَ موسى آيتينِ من هَذِهِ التسعِ وهي: العَصَا واليد، فآيتانِ معروفتانِ، لكِن بقي سبع

آياتٍ، وبقيَّة التسعِ قَالَ تَعالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، فهَذِهِ خمسٌ، وقال تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف:١٣٠]، فهَذِهِ هي الآيات التسعُ.

قوله تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، والطوفانُ: فيضان الماءِ، و(الْجَرَادَ) معروف، و(الْقُمَّلَ): الدودة الَّتِي تكون فِي الحبوبِ، و(الضَّفَادِعَ) معروفة، (وَالدَّم) معروف، وبعض العُلَماء يَقُول: إن الدم هَذَا الماء، إذا شَرِبُوه فإذا هُوَ دمٌ، وإذا سَلَّمَهُ القِبْطِيّ إِلَى الإسرائيليّ عاد ماءً.

ولكِن الشيخ عبدُ الرحمنِ السِّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ ذهب إلى غير هَذَا المذهَب، قَالَ: الطوفان: الفيضان، وهَذَا يُفسِد الزُّرُوعَ قبلَ خُرُوجِها، والجراد يأكل الزروعَ بعدَ خُرُوجِها؛ لِأَنَّ الزروعَ مِنْهَا شَيْء مَبْذورٌ فيفسده الماء؛ وشَيْء خارج يأكله الجرادُ، وشَيْء مدَّخَر يفسده القُمَّل، والماء تفسده الضفادع.

إِذَنْ: الْآنَ المأكولُ والمشروبُ فَسَدَ، وهَذَا المأكول والمشروب إذا أكله الْإِنْسَان أو شَرِبَهُ يَتَحَوَّل إِلَى دمٍ، فأُرْسِل عليهم الدمُ أيضًا وَهُوَ النزيف -الرُّعاف- فعلى هَذَا يَكُون هَؤُلَاءِ غذاؤهم فَسَدَ، وما حصل بالغذاء نزف أيضًا، وهَذَا فِي الحقيقةِ هُوَ المَعْنى السَّليم؛ فنَقُول: يحصل فساد الماء بالضَّفادعِ، فيصير الماء مُنْتِنًا بالضَّفادعِ فلا يستطيع الإِنْسَان أن يشرب، فرائحته خبِيثَةٌ ومنظره خبيثٌ.

فالحاصل: أن الصَّواب ما ذهب إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التفسير[1].

وقوله: ﴿ٱلسِّنِينَ﴾ معناه: الجَدْبُ والقَحْط، وَهُوَ عدم نزول المطر.

---

(١) انظر: تفسير السِّعدي (ص:٣٠١).

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ عَلم جنس لكل من مَلَك مِصر كافرًا، مثل كِسْرَى علم جِنس لكل مَن مَلَكَ الفُرْس كافرًا، وكذلك قَيْصَر لكُلّ من ملك الرُّوم كافرًا.

وقوله: ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ القوم: الأصحاب، وسُمِّيَ الأصحابُ قومًا؛ لِأَنَّ بهم قِوَام الْإِنْسَان، فالْإِنْسَان يعتز ويقوم بقومه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ هَذَا تعليلٌ للرسالةِ إليهم، يَعْنِي إِنَّما أرسلناكَ إِلَى هَؤُلَاءِ فِي تسعِ آياتٍ؛ لِأَنَّهُم ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ يعني خارجينَ عن الطاعة، والفِسْق يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ:

- فِسْق أكبر وهو: الخروج عن مُطْلَق الطاعة.
- فِسق أصغر وهو: الخروج عن الطاعة المطلَقة.

والفرق بين التعبيرينِ أن الطاعة المطلَقة هِيَ الشاملة لكل أفرادِ الطاعةِ، يعني أَنَّهُ يُطيع فِي كُلِّ أمرٍ، وَهُوَ الواقِعُ، فإذا قيل: هَذَا الرجلُ قد أطاعَ الله طاعةً مُطْلَقَة، فمعناه أَنَّهُ أطاع فِي كُلّ ما أُمِرَ به، فإذا فَسَقَ فقد خرج من الطاعةِ المطلَقةِ؛ لِأَنَّ الفرق بين مطلق الشَّيْءِ والشَّيْءِ المطلق أنَّ مُطْلَق الشَّيْء معناه وجودُ أيِّ جزءٍ منه، والشَّيْء المطلَق: الكامِل، ولهَذَا الفاسقُ عند أهلِ السنَّة والجماعةِ هل معه الإيمانُ المطلَقُ أو مطلق الإِيمانِ؟

معه مُطْلَق الإيمانِ، فإذا قيل: هَذَا الرجل فاسقٌ، فالمَعْنى: خارج عن مطلقِ الطاعةِ، ففِسْقُه أكبر، يعني معناه: ما يصدق فِي حقِّه ولا أقل طاعة، وهَذَا كافر.

فإذا قيل: هَذَا الفاسِقُ خارجٌ عنِ الطاعةِ المطلقةِ فمعناه: أَنَّهُ معَه طاعة لكِن الطاعة الكاملة لَيْسَت معه، ولذلكَ عندَهم أيضًا حَتَّى فِي الفقه يَقُولُونَ: هَذَا ماء

مطلَق، وهَذَا مطلَق ماء، قَالُوا: ما تغيَّر بالأَشْيَاء الطاهرة لَيْسَ بطَهور؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بماءٍ مُطلَقٍ وإنما مطلق ماء، والفرق بين التعبيرينِ معروفٌ عند الفقهاءِ وعند الأُصُولِيِّينَ وعند أهلِ الكَلامِ؛ أنَّ الفرقَ بين مُطْلَق الشَّيْء والشَّيْء المطلَق أنَّ الشَّيْء المطلق معناه: الكمال، ومطلق الشَّيْء معناه: الأَصْل.

وهنا في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ المقصود الفِسْقُ الأكبرُ؛ لِأَنَّهُم خارجونَ عن مطلَق الطاعة، فلَيْسَ عندهم طاعةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات آيَة من آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك أن يَدَه دخلتْ عَلَى طبيعتِها ثُمَّ خرجتْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ فِي لحظةٍ؛ لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾، وقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب لـ(أدخل)، فالمَعْنى أَنَّهُ بمجـرد الإدخال تخرج، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهَا بمجرد أنْ دخلتْ تخرج بِنَفْسِها، بل تخرج إذا أخرجها، فإذا أخرجها فإذا هِيَ بيضاء، وهَذَا من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتِ الأَنْبياء، حَيْثُ تكون مناسبةً للعصرِ الَّذِي بُعِثوا فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة تُشْبِه السحرَ، لَكِنَّها حقيقةٌ، والسحر خَيَال. فالسحر لا يمكنُ أنْ يَقْلِبَ اليدَ إِلَى بيضاءَ، أو المتحرِّك إِلَى ساكنٍ، أو الساكن إِلَى متحرِّك، فلا يمكن أن يقلبه حقيقةً، لكِن هَذِهِ الآيَة حقيقةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي الاحتراز فِي الكَـلامِ عندما يُوهِم الشَّيْء لأمرٍ يُحْتَرَزُ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فإن البيضاء قد تكون من سُـوء، ولكِنه احتـرز بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مبدأ الاحترازِ فِي الكَلامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن موسى ﷺ أعطاهُ الله تَعَالَى تسعَ آيَاتٍ؛ مِنْهَا آيتانِ سابقتانِ والباقية لاحقةٌ.

فما هَذِهِ التسعُ؟

هي: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والدم، والضفادع، والسِّنون، ونقصٌ من الثمراتِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يرسلْ نبيًّا إِلَّا بآيَة لتقومَ الحجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾.

وما هِيَ الحِكْمَة في أنَّ الله لم يرسلْ رسولًا إِلَّا بآيَةٍ؟

لِأَنَّهُ ما تقومُ الحُجَّة إِلَّا بهَذَا؛ إذ لو جاء رجل وقال: إِنَّهُ رسول من عند الله بدون آيَاتٍ ما صُدِّق، وإذا لم يُصدق فلا حُجَّة عَلَى الخلقِ به، فالأَشْيَاء لا تُثْبَت إِلَّا بدلائلها ولَا بُدَّ من بيِّناتٍ عَلَى الأَمْرِ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ هل يمكن أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى (معَ)؟

قُلْنَا: هَذَا غير صحيح، ﴿فِي﴾ للظرفية عَلَى بابها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: طُغيان فِرْعَوْنَ وقومه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ من الفصاحة والبلاغة قَرْن الحُكْم بتعليلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وتعليلُ هذا الحُكْم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وقد ذكرنا أن قرن الحُكْم بتعليله له ثلاثُ فوائدَ، فإذا ذكرت العِلَّة فلها ثلاث فوائد، وهَذَا الَّذِي نَعْرِفُه ويُمْكِنُ أن تكونَ أكثرَ:

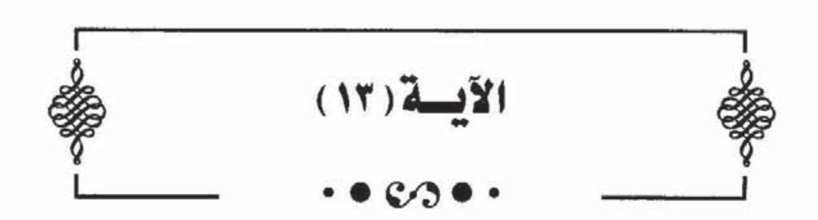
الأُولى: بَيَان حِكمة الله سبحانه فِي تشريعِهِ وقضائِهِ.

الثَّانِيَة: التعميم بعمومِ العلَّة.

الثَّالثة: أن المخاطَب يَزْدَادُ طُمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكْمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق عَلَى الكفرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ وقد ذَكَرْنا أن الفسقَ نوعانِ: فِسْق مطلَق ومطلَق فِسْق، فالفسق المطلَق هُوَ الكفرُ، ومطلَقُ الفسقِ هُوَ العِصيانُ من المُؤْمِنِينَ، يَعْنِي معه مُطْلَق فسق؛ إذ إن أصل الفسق هُوَ الخروج عن الطاعة، فإن كَانَ خروجًا كاملًا شاملًا فَهُوَ فسق مطلَقٌ، وإن كَانَ بعضَ خروجٍ فَهُوَ مُطْلَقُ فِسْقٍ.

• ● ۞ ● •



الآية (١٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣].

•••

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ الضَّمير يعود إِلَى فِرعونَ وقومِه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: العلامات الدالَّة عَلَى صدق موسى ﷺ برسالته وَعَلَى أحقيَّة ما دعا إليه؛ لِأَنَّ الآياتِ الَّتِي بعث الله بها موسى ﷺ تدلُّ عَلَى أمرينِ: عَلَى صِدْقِ موسى، وهَذَا تأييدٌ له، وَعَلَى صِحَّة ما جاء به، فهَذِهِ الآيَات تشمل الأَمْرينِ.

وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ فَسَّـرَهَا المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ: [مُضِيئَة وَاضِحَة]، وهنا كَلِمَة ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسمُ فاعلٍ، والفِعْل مِنْهَا أبصرَ.

فهل الآيَاتُ هِيَ الَّتِي فيها البَصَرُ أو مُبْصِرَة أي: جاعلة غيرها يُبْصِر بها، أَيُّهما أبلغُ؟

الثَّانِيَةُ أبلغُ، أي أَنَّهَا جَاعِلَة غيرها يُبْصِـر بها، يعني أَنَّهَا تُبْصِـرُ غَيْرَها، فهَذِهِ الآيَات هِيَ بنفسها ظاهرةٌ وواضحةٌ، وَالَّذِي يراها يُبْصِرُ بها. ولهَذَا نَقُولُ: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني أَنَّهَا باصرة بنفسها وموجِدَة للإبصارِ فِي غيرِها.

ولَمَّا ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ هَذِهِ الآيَات المبصرة كَانَ الجواب: ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي: ما جاءنا، ولم يقولوا: هَذِهِ، أي: الآيَات؛ لأجلِ أن يشملَ كُلّ شيءٍ؛ هَذَا الَّذِي جاءنا من

الآيَات وغير الآيَات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنٌ ظاهِرٌ]، فـ(مُبين) هنا عَلَى تفسيرِ المُفَسِّر مِن (أبانَ) اللازِم.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْرُ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ: كُلّ شَيْء صارَ خَفِيَّ السَّبَب، فما خَفِيَ سببُه ولَطُفَ يُسَمَّى سحرًا. ولهَذَا ذكرَ ابنُ كَثيرٍ أقسامَ السِّحر فِي تفسيرِهِ[1]، وذكر من جُملةِ السحرِ الساعاتِ الَّتِي تَطَوَّرَتْ إِلَى ما نراهُ الآنَ؛ لِأَنَّهَا فِي الحقيقةِ خَفِيَّة السَّبَب، فالآنَ هذه الساعاتُ ما الَّذِي يُحرِّك عَقارِبَها، أو أبلغ من هَذَا الساعات الإلكترونيَّة ما الَّذِي يجعل هَذَا المِسمارَ إذا غَمَزْتَه تحوَّل التاريخ إِلَى توقيتٍ آخرَ، أو أظهرَ لك تاريخ الشهر أو اليوم، فلو جاءت فِي غيرِ هَذَا الوقتِ لَتَعَجَّبَ النَّاسُ منها.

وهَذَا يُسمَّى سِحرًا لغةً، لكِنْ شرعًا لَيْس بِسِحْرٍ؛ لِأَنَّ السحرَ شَرْعًا هُوَ عبارةٌ عن عُقَدٍ وعَزائِمَ ورُقى تُؤثِّر فِي بَدَنِ المسحورِ أو عَقْلِه، ربما تُمْرِضُه وربما تُهْلِكه وربما تَخْبُلُهُ، فهَذَا هُوَ السحرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُ فِرعونَ وقومه: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾، ماذا يَقصِدون بهَذَا؛ السحرُ الحقيقيُّ الشَّرْعِيُّ أو السحرُ اللُّغَوِيُّ؟

قُلْنَا: المقصود الحقيقيُّ الشرعيُّ؛ لِأَنَّهُم قالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، والعياذ بالله، فهم قَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهَذَا الجواب لَيْسَ صادرًا من فِرعونَ فقطْ؛ بل جميع المكذِّبين للرسُلِ قالوا هَذَا، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة الذارياتِ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فكُلّ الرُّسُلِ السابقينَ يَقُول لهم أقوامُهم هَكَذَا،

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٩).

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ لا، ما تَوَاصَوْا به، لكِن الجامِع المشترك: الطُّغيان ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

و(أو) فِي قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ مانِعَـةُ خُلُوٍّ، يعني ربمـا أَنَّ بعضهم يَقُول: ساحِرٌ ومجنونٌ معًا.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُفْرُ الساحِرِ لِمُجَرَّدِ الضررِ اللاحِقِ بالمسحورِ أو يَتَعَلَّق بشيءٍ آخرَ؟

قُلْنَا: مُجَرَّد الضررِ لا يَقْتَضِي الكفرَ فِي الحقيقةِ، ولهَذَا لو داويتَ الْإِنْسَان بدواءٍ كسُمٍّ وشِبْهِهِ ما صار كفرًا، لكِن ما يقتـرب به من أحوالٍ شَيْطَانِيَّة واعتقاد أن هَذَا مؤثر بدونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا هُوَ الظاهِرُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أَعْتَقِدُ هَذَا، بل هَذَا شَيْء لطيفُ المأخَذِ خفيُّ السَّبَب؟ وأبطل هَذِهِ العِلَّة.

قُلْنَا: ظاهر الْقُرْآن الكفر، فالْقُرْآن يَدُلّ عَلَى الكفرِ ويَنتهي الإشكالُ، فالآيَةُ ظاهرها أن تَعَلُّم السحر نفسه كفر، فقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: يتعلم السحرَ، وَلَيْسَ المَعْنى فلا تَكْفُر بشيءٍ ثُمَّ تَتَعلَّم السحر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الحُجَّة قامتْ عَلَى فِرعونَ وقومه حَيْثُ جاءتهم الآيَةُ مُبْصِرَةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها الإبصارُ.

فهل هِيَ مُبْصِرَة بنفسِها -يعني باصرة- أو مُبْصِرة لِغَيْرِها؟

كلاهما، فهي مُبْصِرة بمعنى أَنَّهَا هِيَ باصرةٌ، وكذلك تُبْصِرُ غيرَها وتدلُّ عليه. وَفِي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيِّنَةٌ واضحةٌ تُوَضِّحُ الحقَّ، ولولا ذلك ما كانتْ آيَاتٍ.

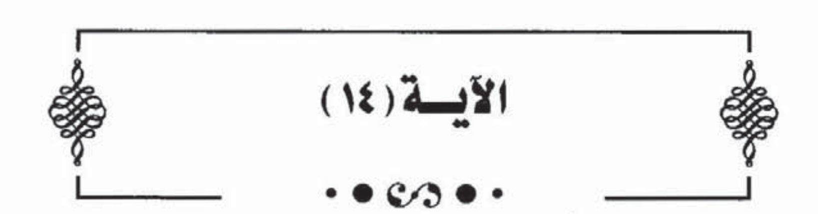
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم طُغيان فِرعون وقَومِهِ؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مبالغة صاحبِ الباطلِ بدعواهُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَعْنِي بَيِّنًا ظاهرًا ما فِيهِ إشكال، وهَكَذَا المدَّعِي يأتي بالكلماتِ الَّتِي تُشَبِّه عَلَى الخلق حَتَّى يَصِلَ إِلَى ما يريد مِنَ الباطلِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ هنا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ولم يَقُلْ: (هَذِهِ)، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾؟

فالجواب: من أجلِ أنْ يَشْمَلَ كُلّ ما جاء، حَتَّى يشمل موسى نفسه واتهامه بالسحر.

• • ۞ • •



الآية (١٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

قوله: ﴿جَحَدُواْ﴾ الضَّميرُ يعودُ عَلَى فِرعونَ وقَومه، والجَحْدُ: الإنكارُ، و(جحد) يَتَعَدَّى بنفسِهِ، ولكِنَّه قد يُضَمَّنُ معنى التكذيبِ فيَتَعَدَّى بـ(الباء)، ﴿وَجَحَدُواْ﴾ مكذِّبين بها. فهنا الجحد ضُمِّن معنى التكذيبِ، ولهَذَا تعدى بالباء. وذلك لِأَنَّ الجحدَ قد يَكُونُ تكذيبًا وقد يَكُونُ مراعاةً لمصلحةٍ مِنَ المصالِحِ.

والجَحْدُ أَسْبابُه مُتَعَدِّدَةٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ لَكَ قَائِلٌ: ماذا فعلت؟ فتجحد لمصلحةٍ تريدها، لا تَكذيبًا، ولكِنَّه هنا تكذيب، أي: جحدهم هَذَا تكذيب. والدَّلِيلُ: أَنَّهُ عُدِّي بالباءِ، وَالَّذِي يُعَدَّى بالباءِ هُوَ التكذيب، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: كذَّبوا بها جحدًا، فهم كذَّبوا ومع ذلك ما أظهروهُ.

ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمْ يُقِرُّوا بها]، ولم يُقِرُّوا بها معناه هُوَ التكذيب، والمُفَسِّر أتى بـ(لم يقروا) لأمرينِ:

الأَمْر الأول: لأجل أن يَسْلَم التعليق بالباءِ؛ لِأَنَّ (أقر) تتعدى بالباءِ.

والأَمْر الثاني -على رأيه-: لأجل أن لا يَتَضَمَّن ذلك إخفاءَها لِمَن طَلَبَها، فكَأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الجَحْدَ نفيَ الإقرارِ، ولكِنَّنا لا نُوَافِقُه عَلَى هَذَا التفسيرِ:

أولًا: أَنَّهُ فسَّرَ المُثْبَتَ بالمنفيِّ، وهَذَا قُصُور، (جحد) مُثبت، و(لم يقرّ): منفيّ.

ثانيًا: أَنَّهُ بتفسيرِهِ هَذَا يُفَوِّتُ معنًى دلَّتْ عليه الآيَةُ، وهو: كِتمانهم لهَذِهِ الآيَاتِ لو سُئِلوا عنها، يعني أَنَّهُ فوَّت معنًى وَهُوَ الجحود عند السؤالِ، فَهُوَ تكذيبٌ عند العرضِ، وجحود عند الطلب؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يُقِرُّ لَيْسَ مثلما إذا جحد وكتمَ عن غيرِهِ. فالصَّوابُ إبقاء الآيَةِ عَلَى ما هِيَ عليه، ويقالُ: إِنَّهُ عُدّيَ الجحدُ بالباءِ لِتَضْمِينِهِ معنى التكذيبِ، ويَكُون دالًّا عَلَى أمرينِ: عَلَى إخفائِها عندَ طلبِها، وَعَلَى التكذيبِ بها عند عَرْضِها.

ولا حاجة أَنْ نَقُولَ: إن الآيَةَ أبلغُ مما ذكر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، لكِنَّنَا نَقُول: إن تفسيرَ الْمُفَسِّر لها فِيهِ نظرٌ من وجهينِ كما تَقَدَّمَ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾]، فما الَّذِي أوجبَ له أَنْ يُقَدِّرَ (قدْ)؟

نَقُول: لِأَنَّ الجملةَ حالِيَّة، والجملةُ الحالِيَّة إذا كانتْ فعلًا ماضيًا يُقَدَّر فيها (قد) للتحقيقِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تيقَّنُوا أَنَّهَا منْ عندِ اللهِ]، ففسَّرَ استيقنَ بِتيَقَّن؛ إشارة إِلَى أَنَّ حرفي السين والتاء زائدانِ، ولكِن الأَولى أن يبقى السين والتاء عَلَى بابهما ولا يُحْكَم بِزِيَادَتِهما؛ لِأَنَّ الاستيقانَ أبلغُ مِنَ التيقُّنِ، ومنَ المعروفِ عندهم أَنَّهُم يَقُولُونَ: زيادة المبنى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى، فالاستيقانُ أبلغُ، فهمْ قدِ اسْتَيْقَنُوها استيقانًا كاملًا لَيْسَ عندهم فيها شكٌّ، ومعَ ذلكَ جَحَدُوا بها، فيَكُون هَذَا الجحدُ مَعَ الاستيقانِ أبلغَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إِلَى آخرِهِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقلْ: واسْتَيْقَنُوها. فإضافةُ الاستيقانِ إِلَى النفسِ أبلغُ، أي: أَنَّهُ يَقِينٌ بلغ نفوسهم حَتَّى تمكَّن منها، ومعَ ذلك -والعياذُ باللهِ- جَحَدُوا بها وأَنْكَرُوها.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تكبُّرًا عنِ الإيمـانِ بما جاء بما موسى]، ففَسَّرَ الكلمتينِ بكلمةٍ واحدةٍ وهي التكبُّرُ، ولكِن أيضًا لو نَظَرْنَا إِلَى الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَجَدْنَا أَنَّهَا أبلغُ مِمَّا فَسَّرَهَا به.

قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ الظُّلمُ فِي الأَصْلِ النقصُ، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، ومعنـى ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي: لم تَنْقُـص، فالأَصْلُ فِيهِ أَنَّهُ بمعنَـى النقصِ، وكلُّ مَن نَقَصَ حَقَّ غَيْـرِهِ فَهُوَ ظالمٌ. وإذا نقصَ الْإِنْسَانُ حقَّ نَفْسِه فَهُوَ ظالمٌ لها، وإذا نقصَ حقَّ غَيْـرِهِ فَهُوَ ظالمٌ له. وهنا هَؤُلَاءِ نَقَصُوا حقَّ مُوسَى ﷺ فهم ظالمونَ، وَنَقَصُوا حقَّ أَنْفُسِهِم حَيْثُ لم يقودوها إِلَى ما فِيهِ صَلَاحُها؛ فهم أيضًا ظالمونَ.

ثمَّ هَذَا الظُّلْم والنَّقْص ما الحامِلُ عليه؟

قَالَ: ﴿عُلُوًّا﴾ وهَذَا معنًى غيرُ الظُّلْمِ، يَعْنِي: تَرَفُّعًا عمَّـا جاء به موسى ﷺ، فلِسانُ حالِهِم يَقُول: مَنْ موسى هذا الَّذِي يأتِي إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي يقولُ لِقَوْمِهِ: أنا رَبُّكُمُ الأعلى، ثُمَّ يَقُول: أنا رسول إليك لَا بُدَّ أن تتبعني؟! فبِطَبِيعَةِ البَشَرِ الفاسقُ يَتَرَفَّعُ ويقول: أبدًا.

فلهَذَا جَحَدُوا ظُلْمًا لموسى وأنفسهم ﴿عُلُوًّا﴾ تَرَفُّعًا عن مُوسَى وعمَّا جاء به أيضًا، فهم -والعياذُ بالله- اتَّصَفُوا بالوصفينِ.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [راجع إِلَى الجَحْد]، هذا صحيح، فإذا اسْتَيْقَنُوا أنَّ موسى صادِقٌ فهذا لَيْسَ بظُلْمٍ ولكِنَّه حَقٌّ وعَدْلٌ وتَوَاضُع، لَكِنْ هُمْ مَا اسْتَيْقَنُوا، يَعْنِي: ما انقادوا لِهَذَا الاستيقانِ، إذن فَهُوَ راجِع إِلَى الجحدِ، يعني جحدوا بها ظلمًا وعلوًّا.

وفائدة الاعتراض بالجملة الحاليَّة ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بين المُتعلّق ومُتعَلَّقِه: المُبادَرةُ بالتشنيعِ عليهم، وبَيَان أَنَّهُم بَلَغُوا فِي هَذَا الوصف غايته، الَّذِي هُوَ وصف الظلمِ والعلوِّ؛ لِأَنَّ كَوْنَهم يَجحَدُونَ مَعَ الاستيقانِ أشدُّ وأعظمُ، فالجاحد مَعَ الشكِّ قد يُعذَر، لكِنْ مَعَ الاستيقانِ لا وجهَ له.

ثم ما إعراب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هل هِيَ مَفْعُـول لأجلِهِ؟ يعني من أجـلِ الظلمِ والعلوِّ، أو هِيَ مصدر بمعنى الحالِ، أي: ظالمين عالينَ؟

الأخيرُ أَولى؛ لِأَنَّ الظلمَ والعلوَّ إذا جعلناهما مَفْعُولا من أجلِه فَهُوَ سابقٌ عَلَى الجحدِ؛ إذ إنَّهُم ظَلَمُوا وعَلَوْا ثُمَّ جَحَدُوا، فعلى هَذَا نَقُول: إنّ ظلمًا وعلوًّا مصدرٌ بمعنى اسمِ الفاعلِ، أي: جحدوا بها حالَ كونهم ظالمينَ عالينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱنظُرْ﴾ يا مُحَمَّد...]، إِلَى آخِرِهِ.

قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ هل المُرادُ: نظرَ اعتبارٍ أو نظرَ إبصارٍ؟

المُراد: نَظَرُ اعتبارٍ؛ لِأَنَّ نَظَر الإبصارِ هنا مُتعَذِّرٌ لِسَبْقِ زَمَنِه، لَكِنَّهُ نظرُ اعتبارٍ. والخطاب عَلَى كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعود إِلَى رسول الله ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا مُحَمَّد، والخِطاب بالمفردِ فِي القُرْآن لا يختصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلَّا ما دلَّ عليه الدَّليل، وإِلَّا فَهُوَ عامٌّ، ويَكُون التَّقْدير: فانظرْ أيها المخاطَب، لَيْسَ يا مُحَمَّد؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ بينَ أيدي كُلِّ أحدٍ، فكُلّ واحد بين يديه الْقُرْآنُ.

أَمَّا ما دلَّ الدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ خَاص بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَاصّ به، مِثل قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، ومثل قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

ويدلُّ عَلَى أن الخطاب المفرد عامٌّ:

أولًا: ما ذكرناه من التعليل؛ أن الْقُرْآن بين أيدي النَّاس جميعًا.

ثانيًا: قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١]، فخَاطَب بالإفرادِ والجمعِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ الخطاب الموجَّه إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ موجَّه للأُمَّة ما لم يَدُلّ الدَّلِيل عَلَى اختصاصه به، مثل ما مَثَّلنا بالمثالين. وكذلك منه قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، فإنَّ هَذَا خَاصٌّ بالرَّسُول ﷺ، وهُوَ الَّذِي حَرَّمَ لكِن مَعَ ذلك الحُكْمُ عامٌّ.

إِذَنْ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ نَقُول: أيها المخاطَب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآية.

وهنا مسألتان:

أولًا: ﴿كَانَ﴾ تَرْفَعُ الاسمَ وتنصِبُ الخبر، هَذَا المعروفُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [النِّسَاء:٩٦]، وهنا ما نَرَى خبرًا لـ(كان) ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا كَانَ الفاعل مُؤَنَّثًا كَانَ الفِعْل مُؤَنَّثًا.

والجواب: ﴿كَانَ﴾ هنا ليستْ تامَّة، فالخبرُ مقدَّم وَهُوَ ﴿كَيْفَ﴾. مقدَّم وجوبًا لِأَنَّهُ اسْم اسْتِفْهام، والاسْتِفْهام له الصَّدارَةُ، فلا يمكن أن يأتي الاسْتِفْهامُ فِي وسط

الكَلام، بل لَا بُدَّ أن يَكُون متقدِّمًا.

و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ مؤنث مجازيٌّ لا حقيقيّ، والفرق بين المؤنَّث المجازي والحقيقيّ: ما كَانَ له فَرْج فَهُوَ مؤنَّث حقيقيّ، وما لم يكن له فَرْجٌ وإنما تأنيثه لفظيٌّ فَهُوَ مؤنَّث مجازيٌّ.

وقوله: ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ ما معنى العاقبة؟ العاقبة فِي الأَصْل: التأخُّر، ومنه العَقِبُ فِي القَدَمِ، وعَقِبُ القدم هو العُرْقُوب المؤخَّر، فالعاقبة معناها: الأَمْرُ المتأخِّر، يَعْنِي: انظر ماذا كَانَ من أمرهم فِي النهاية.

وقوله: ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الَّذِينَ صار شأنهم الإفساد. والمُرادُ بالإفسادِ هنا لَيْسَ إفساد العِمرانِ، فقد يَكُونُ العمرانُ فِي زمنِ فِرعونَ قد بَلَغَ غايتَه، لكِن المُراد بالإفسادِ الإفسادُ المعنويُّ؛ إفسادُ الأخلاقِ والعقائدِ، وربما يَتْبَعُه إفسادُ العمرانِ؛ كما قَالَ الله تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وكما قَالَ تَعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٢].

وبِهَذَا التقرير، وَهُوَ أن الأَصْلَ فِي الإفسادِ الموجودِ فِي الْقُرْآن هُوَ إفساد الأخلاقِ والعقائدِ، ويتبعه فساد الأَعْمالِ، وبِهَذَا نَعرِف خطأ ما يُطنطن به النَّاس الْآنَ من الرفاهية والطمأنينة والأمن ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وإذا أتوا إِلَى ذِكر الدين يَقُول: العقيدة السمحاء ولا يُذْكَرُ العَمَل.

ثُمَّ كلمة (السمحاء) أيضًا تدل عَلَى ضعفٍ فِي هَذِهِ العقيدة، فمعنى سمحاء: كُلّ شَيْء تَسْمَح به.

صحيح أَنَّهَا هِيَ الحَنيفيَّة السَّمحة لَا شَكَّ، لَكِنَّها لها أعمال ولها حَزْم، ولهَذَا التركيز عَلَى الترفيه البدنيّ والنعيم البدنيّ فِي نظري أَنَّهُ خطير؛ لِأَنَّهُ يبدأ كُلّ واحد يَنْشُدُ هذينِ الأَمْرينِ: يَقُول: أنا عندي عقيدة سليمة سَمْحَاء لَيِّنة، هَيِّنة، كُلّ شَيْء تَقْبَله، ويقول: أنا أنشد أيضًا رفاهيَةَ البدنِ والأمنَ ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ. لكِنِ استقامة الدِّين والسعي فِي إقامته بين النَّاس بالأَمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ والجهادِ فِي سبيلِ اللهِ هَذَا أمر لا يكاد يُذْكَر.

وفي الحقيقة أن الرفاهية إذا كانت للبدنِ وحدَه فهي فسادٌ، ولا يَدُومُ هَذَا أبدًا ولا يمكن أن يَدُومَ، عَلَى أنَّ الرفاهيَةَ المطلَقَة للبدنِ لَا بُدَّ أن تكونَ مصحوبةً بقلقٍ فِي القلبِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إِنَّما ضَمِنَ الحياةَ الطيِّبَةَ لِمَن ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ﴾ فقَرن بينَ العقيدةِ والعَمَل، وبَدأ بالعَمَل أيضًا ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. حياة طيبة فِي الدُّنْيا وأجر حَسَن فِي الآخِرَة.

هَذَا الَّذِي يَجِب أن يركَّـز عليه، أَمَّا الرفاهيَةُ المطلَقَةُ فإنها ضَـرَرٌ عظيمٌ عَلَى الْإِنْسَان، تُوجِبُ الغفلةَ عنِ اللهِ تَعَالَى، وانشغال الْإِنْسَان بطلبِ الرفاهيةِ الجسديَّة الزائلة.

يَقُول بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوكِ ما نحنُ فِيهِ لجَالَدُونا عليه بالسيوف[1]. قَالُوا: أَعْطُونا الَّذِي أنتم فِيهِ منَ النَّعيم والسرورِ وانشراح الصدر ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠-٣٧١)؛ والبيهقي في الزهد الأكبر (٨٠)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ٣٠٣).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ عَلَى قـوَّة الآيَات الَّتِي جاء بها موسـى ﷺ لم يَسْتَفِـدْ مِنْهَا هَؤُلَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ والآيات إذا قَوِيت لا يبقى مجالٌ للجحدِ، ولكِن -والعياذُ بالله- أَعْمَى اللهُ بصائِرَهُم فجَحَدُوا بها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ جَحْدَ هَـؤُلَاءِ المرسَل إليهم كَانَ عن عنادٍ، لا عن شُبهـةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، وهل هَذَا وقعَ لكفَّار قريشٍ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ نعم وَقَعَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، وَلَا شَـكَّ أنَّ هَـذَا واقـعٌ مِنَ الرؤساء والزعماء، لكِن عامَّة النَّاس قد لا يَكُون لديهم هَذَا الأَمْر، وإنَّمـا هم مقلِّدون، أَمَّا الزعماء والكبراء فلَا شَكَّ فِي هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: سوء أحوال آلِ فِرعونَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ولموسى، ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترَفُّعًا عنِ الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاتِّصـافَ بهذينِ الوصفيـنِ يَجعلُ الْإِنْسَان من الأُمَّـة الفِرعونيَّة، وهما: الظلم والعُلُوّ، وما من صفةٍ يَخرج بها العبـد عن سواءِ السبيـلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، ولِهَذَا أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أننا سنركب سَنَنَ مَن كَانَ قَبْلَنَا[1]، فما مِن خَصلةٍ يَخرج بها العبد عن سواءِ السبيلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، فالجحد بالحقِّ للفاعل فِيهِ إمام مثل فرعونَ وقومه، والحسد للإِنْسَانِ

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِيهِ إمامٌ مثل اليهودِ، والرياء للإِنْسَان فِيهِ إمام كالمنافقيـنَ، بل إِنَّهُ من المنافقيـن، وهَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ الترفُّع عنِ الحقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعُلُوًّا﴾ ولا فرقَ بين أن يَكُونَ ذلك عن حُسْنِ نيَّة أو لا، فهَذِهِ الطريقةُ مذمومةٌ ولو عن حُسْنِ نيَّةٍ، وقولنا: (ولو عن حُسن نية) لِيَدْخُلَ فِي ذلك بعضُ المقلِّدين الَّذِينَ إذا عُرِضَ عليهم الدَّلِيل من الكتاب والسنَّة قَالُوا: نحن نَتَّبِعُ فلانًا لِأَنَّهُ أعلمُ منك، هَذَا عن حسن نية فيمـا يبدو. وجه كونه عن حسن نِيَّة؛ لِأَنَّهُم يرون أن هَذَا الإمام الَّذِي اتبعوه أعلمُ منك ويَقُولُونَ: نحن جهَّال ولا نعرِف وَلَيْسَ لنا إِلَّا أنْ نُقَلِّدَ وهَذا الرجلُ أعلمُ منك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا الوصـفُ مذمومًا وفرعونيًّا؛ فإن عكسَه محمودٌ، والعكس هُوَ التواضُع للحقِّ وقَبُوله، هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ ممدوحٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إذا أثنى بالسوءِ عَلَى وصفٍ فإنَّ ضده يُثْنَى عليه بالحُسْن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أو يَجِب أن يتفكَّر ويتأمَّل فِي عواقـب مَن سبقَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وهل الْإِنْسَان ينظـر فِي عواقـب المفسدين أو فِي عواقب المفسدين والمصلحينَ؟

يَنْظُرُ فِي كِلَيْهِما.

إِذَنْ: ما فائدة الحِكْمَةُ من التخصيصِ هنا؟

نَقُول: لِأَنَّ المَقام مَقامُ تحذيرٍ، وإذا كَانَ المقام مقام ترغيبٍ فإنَّنا نَقُول للإِنْسَان: فانظرْ كيف كَانَ عاقبة المصلحينَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود:١١٦]،

فالمسألة تختلف، ففِي مقامِ الترهيبِ نُحيلُ الْإِنْسَان إِلَى عواقبِ المفسدينَ، وَفِي مقام الترغيبِ نحيله إِلَى عواقبِ المصلحينَ؛ لأجلِ أن يَحْذَر من أولئك ويرغب فِي هَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيها دليلٌ عَلَى فضيلة التأمُّل والتفكُّر فِي أخبارِ مَن مَضَى؛ وأن دراسة علم التاريخِ من الأَشْيَاء الَّتِي جاء بها الشرع، فإنَّنا لا يمكن أن ننظرَ كيف كَانَ عاقبتهم إِلَّا بدراسةِ أخبارِهم وتَتَبُّعِها، فعلمُ التاريخِ إذن من الأُمُور المقصودةِ. لكِن هل من الأُمُور المقصودة ذاتيًّا أو عرضيًّا؟

عرضيًّا، إِلَّا سِيرة النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخُلَفَائه الراشدينَ فإنها مِنَ الدينِ؛ لِأَنَّهَا كلها أحكام، بخلاف النظر فِي التاريخ لأجلِ الاعتبارِ فقطْ، فلكلٍّ مَقامٍ مقالٌ؛ لِأَنَّ النظر فِي التاريخ للاعتبار فقط قد يعتبر الْإِنْسَان بغيرِه فيستغني عنه، لكِن النظر فِي سيرةِ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّهَا أحكامٌ وفِقْهٌ، وهَذَا مقصودٌ لذاتِه، فلا يَستغني الْإِنْسَان بغيرِها عنها.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يَمْدَحُ هَذِهِ الأممَ ويُشِيدُ بقُوَّتِهم وإبداعهم ولا ينظر إِلَى عاقبتهم؟

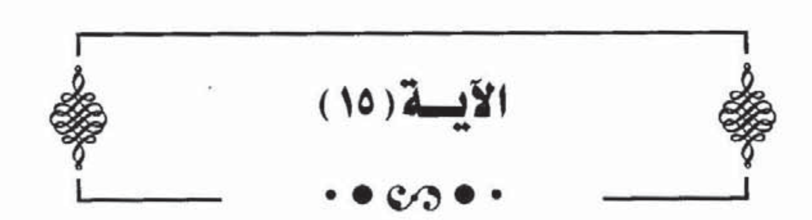
قُلْنَا: إذا كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَفَكَّر بِعمرانهم وقوتهم ومع ذلكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، فهَذَا لا بأسَ به، وَأَمَّا إذا كَانَ يريد أَنْ يَتَفَكَّر بقوَّتهم من أجل مَدْحِهِم والثَّناء عليهم فهَذَا لا يجوزُ، ولهَذَا ما أَمَرَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ ننظرَ إِلَى قُوَّتِهم إِلَّا بَعْد أَنْ أَمَرَنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى عاقبتهم. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يذهبون إِلَى دِيَارِ ثَمُودَ لِلتَّفَرُّج والتنزُّه هَؤُلَاءِ عُصَاةٌ، فالرَّسُول ﷺ يقُول: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، فلا يجوز أَنْ يذهبَ الْإِنْسَانُ فِي رحلةٍ مثلًا إِلَى ذلك المكان إِلَّا إذا كَانَ يدخل وَهُوَ باكٍ

«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»[1].

والحمدُ للهِ الْإِنْسَان فِي غنى عن هَذَا، فلَيْسَ بلازمٍ أنْ يذهبَ، لكِن مَعَ الأسفِ الْآنَ صارتْ آثارًا يُقْصَد مِنْهَا بَيَان قـوَّة هَؤُلَاءِ وإبداعهم وإحكامهم لأمورهم، ولا يَلتفتون إِلَى ما أحلَّ اللهُ بهم منَ العقوبةِ، والعياذُ باللهِ.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث رقم (٤٢٣)؛ ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إِلَّا أن تكونوا باكين، حديث رقم (٢٩٨٠)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان ما مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به عَلَى داود وسُلَيْمان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثناءُ اللهِ عَلَى نفسِه؛ لِأَنَّ كونَه يَتَمَدَّح بإيتاءِ داودَ وسُلَيْمان علمًا فهَذَا مِنَ الثَّناء، وهل هَذَا محمودٌ بالنِّسْبَةِ للخلقِ أنْ يَتَمَدَّحَ الْإِنْسَان بفضلِه؟

لَيْسَ هَذَا مِنَ المحمودِ، إِلَّا إذا كَانَ فِي ذلكَ مصلحةٌ للغيرِ، لَيْسَ لكَ أنتَ، أَمَّا اللهُ فيمتَدِح نفسهِ للثناءِ عَلَى نفسِهِ، لكِن أنتَ لا تفعل هَذَا، أَمَّا إذا كَانَ فِيهِ مصلحةٌ للغيرِ كإِنْسَانٍ مثلًا يذكر عن نفسِه شيئًا لأجلِ أن يُقتدَى به فِي الخيرِ؛ فهَذَا لا بأسَ به، أو لأجلِ أنْ يَنتفِعَ النَّاس بما عنده، فهَذَا أيضًا لا بأسَ به، فابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»[1] أو كما قَالَ.

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبيّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

والعُلَماءُ ما زالوا يَمْدَحُون كُتُبَهُم، فابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول[١]:

تُقَـرِّبُ الْأَقْصَـى بِلَفْظٍ مُـوجَزِ وَتَبْسُـطُ الْبَـذْلَ بِوَعْـدٍ مُنْجَـزِ

وَتَقْتَضِـي رِضًـا بِغَـيْرِ سُـخْطِ فَائِقَـةً أَلْفِيَّـةَ ابْـنِ مُعْطِـي

المهمُّ عَلَى كُلّ حالٍ: أن مثل هَذَا لَيْسَ لمصلحةِ الْإِنْسَانِ، فهَذَا لمصلحةِ غيرِه؛ لأجلِ أن يَنْتَفِعُوا من هَذَا المُؤَلّف مثلًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بعض المُؤَلِّفين أحيانًا يبالغُ؟

فالجواب: الكَلامُ عَلَى الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إسرافٌ، ولكِن الشَّيْء المعتدِل، مَعَ أَنَّهُ فِي الحقيقة الْإِنْسَان قد يُتَّهَم، ومهما كانت نِيَّته قد يُتَّهم، لكِن لا يضرُّ الْإِنْسَانَ إذا أصلحَ ما بينه وبين ربِّه، فلا يُهِمُّه النَّاس.

المهم أنَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ دليلًا عَلَى تَمَدُّحِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما تَفضَّل به عَلَى عِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلة داودَ وسُلَيْمان وأنهما أهلٌ لهَذِهِ النعمةِ؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فما من فضلٍ يُعطيه اللهُ العبدَ إِلَّا وَهُوَ فِي مكانِه؛ لِأَنَّ الله حكيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة العلمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، وهَذَا لَا شَكَّ فيه، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، لكِن يبقى النظرُ: ما هُوَ العلم الممدوح؟ هل هو هَذَا الَّذِي النَّاس الْآنَ فِيهِ فِي جدلٍ؟!

المُرادُ بالعلمِ الممدوحِ علمُ الشَّريعَة، أَمَّا ما سِوَى علمِ الشَّريعَة فَإِنَّهُ لا يُمدَح

(١) ألفية ابن مالك: البيتان الرابع والخامس.

إِلَّا حَيْثُ يُوصِل إِلَى أمرٍ محمودٍ، عكس ما عليه النَّاس اليومَ، كثيرٌ منَ النَّاسِ الجهَّال يمدحون العلمَ بغيرِ الشَّرِيعَةِ، وبعضُ النَّاس -والعياذُ باللهِ- يرَى أن علمَ الشَّرِيعَة تأخَّر، وأن علم الطبيعةِ تقدَّم، ولهَذَا يَمْتَدِح هَؤُلَاءِ العُلَماءَ بالصنائع وطبقاتِ الْأَرْضِ وغير ذلك؛ يَتَمَدَّح هَذَا بأنه أفضل العِلم أو هَذَا هُوَ العلمُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو إذا رأى من الصناعةِ الغربيَّة قَالَ: هذا هو العلم، ولا يوجد شكٌّ أنَّ هَذَا الْآنَ يُفضِّل هَذَا العصرَ عَلَى عصر الصحابةِ.

وهَذَا لَيْسَ هُوَ المقصودَ، فالمقصودُ بثناءِ اللهِ علمُ الشَّرِيعَة؛ لأن علم الشَّريعة هُوَ الَّذِي يَنْفَع الخلقَ، حتى إن علم الشريعة هو الذي يَدُلُّهم عَلَى هَذِهِ العلوم الَّتِي يَتَبَجَّحُونَ بها؛ لِأَنَّ الله يأمرُ بأن نسعى فِي الْأَرْض، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالحاصلُ: أنَّ العلمَ الَّذِي مَنَّ اللهُ به عَلَى داودَ وسُلَيْمَان وأثنى عليهما به هُوَ علمُ الشَّرِيعَة، وهَكَذَا جميعُ ما فِي النصوصِ مِن مَدْحِ العلمِ فهُوَ علمُ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحمَدُ لِذَاتِهِ، وما عداهُ فيُحمَد إذَا كَانَ مُوصِلًا إِلَى أمرٍ محمودٍ؛ وإلا فَإِنَّهُ إن أوصلَ إِلَى أمرٍ مذمومٍ كان مذمومًا، وإنْ أوصلَ إِلَى أمرٍ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ فهُوَ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: غيرُ المُسلِمينَ وَصَلوا إِلَى أعماق البحارِ وإلى الفضاءِ، مَعَ أَنَّهُم لم يَقْرَءُوا علمَ الرَّسُول ﷺ، ولا علمَ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم؟

فالجواب: هَذَا من الجهلِ، ولهَذَا عِلْمُهم هَذَا الْآنَ لَيْسَ محمودًا، إِلَّا إذا أوصلَ إِلَى أمرٍ محمودٍ، وإلا فهُوَ غيرُ محمودٍ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى أعماقِ البحارِ وإلى

آفاقِ الفضاءِ هم الَّذِينَ صَنَعُوا ما يدمِّر الخلقَ منَ القنابلِ والأسلحةِ، فهل هَذَا محمود؟!

ثم نَقُول: هَذِهِ العلومُ إذا كانت لا تنافي العلمَ الشرعيَّ فنحن نتمنى أن المُسلِمين أيضًا يصلون إِلَى هَذِهِ الأُمُورِ لِيَنْفَعُوا أنفسَهم وينفعوا الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة داود وسُلَيْمَان أيضًا من جهةِ اعترافهما بنعمةِ اللهِ وقيامِهِمَا بشكرِ نعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ لم يَقُولا: إننا أُوتِينا هَذَا عَلَى علمٍ منَّا، أو لأَنَّنا أذكياء أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشكر يَكُونُ بالقَوْلِ كما هُوَ أيضًا بالفِعْلِ، فيَكُون بالقَوْلِ وبالفِعْلِ، ويَكُون أيضًا بالعقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشكرُ له ثلاثةُ مَحَلَّاتٍ: القَلْب واللسانُ والجوارحُ، قَالَ الشاعر[1]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يدي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

والدَّلِيلُ عَلَى أن الشكرَ يَكُون فِي ثلاثةِ مواضعَ: فِي هَذِهِ الآيةِ الشكرُ باللسانِ، وقال النَّبِيّ ﷺ وقد قيل له: كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا -وَكَانَ يَقُومُ حَتَّى تَتَوَرَّم قَدَمَاهُ- وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، فَقَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[2] فجعل الفِعْل شكرًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال تَعَالَى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) نهاية الأرب (٣/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، حديث رقم (٤٥٥٧)؛ ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وأمَّا الاعترافُ بالنِّعَمِ بالقلبِ فَهُوَ مِنَ الشُّكْرِ، والدَّلِيلُ قولُهُ تعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، هَذَا الخبرُ يريدُ اللهُ مِنَّا أنْ نَعْتَقِدَهُ، ولهَذَا ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ نَسَبُوا نِعْمَتَهُ إِلَى أنفسهم، قَالَ عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨].

والمواضعُ الثلاثةُ للشكرِ قَلَّ مَن يقومُ بها، فبعضُ النَّاسِ مثلًا يَعتمِد عَلَى السَّبَب فِي جَلْبِ النعمةِ إليه وينسى المسبِّبَ، فعندما يعطيه إِنْسَانٌ حاجةً من الحاجاتِ تجد أَنَّهُ يقومُ فِي قلبِه من شكرِ هَذَا المعطي أكثر ممَّا يقوم بشكرِ اللهِ، تجده يُثْنِي أيضًا عَلَى هَذَا أكثرَ ما يثني عَلَى اللهِ، فتجده يقوم بخدمةِ هَذَا أكثر مما يقوم بخدمةِ اللهِ، مَعَ أن هَذَا الَّذِي وَصَلَتِ النعمةُ عَلَى يدِهِ ما هُوَ إِلَّا طريق لِوُصُولِها إليك فقط، وإلَّا فالذي جعلَ فِي قلبه أن يوصل هَذِهِ النعمة إليك هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَسَّرَ هَذَا.

فالحاصلُ: أنَّ النَّاسَ الْآنَ فأكثرُهم أو غالبهم يُخِلُّون فِي مَقامِ الشكرِ إمَّا بالقلب أو باللسان أو بالجوارحِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الْإِنْسَانَ يُشْرَعُ لـه إذا مَنَّ الله عليه بنعمةٍ أنْ يَحْمَدَهُ عليها، وقد وردَ فِي النصوصِ مثل ذلك، فعندما تنتهي من الأكلِ والشربِ تقول: الحمدُ للهِ[1]، وعندَما تَستَيْقِظُ تَحْمَدُ اللهَ[2]، وعندما تلبسُ ثَوبًا تحمدُ

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث رقم (٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، حديث رقم (٥٩٥٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١١)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله[1]، وهَكَذَا فمِنَ الأُمُورِ المشروعةِ حَمْدُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى النِّعَمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تواضُع داود وسُلَيْمان ومعرفتهما للحقيقةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما ذكرا التفضيلَ المطلَقَ عَلَى جميعِ المُؤْمِنِينَ، بل عَلَى كثيرٍ من عبادِهِ المُؤْمِنِينَ.

وهل يُستفاد من ذلك وصف الأَنْبِياء بالإِيمان، يَعْنِي: هل يُشْعِرِ قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما من المُؤْمِنِينَ؟

الظَّاهِرُ أَنَّهُ يُشْعِرُ بِهَذَا، يعني أننا شاركناهم فِي وصفِ الإِيمـانِ، و﴿فَضَّلَنَا﴾ اللهُ عَلَى كثيرٍ منهم.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضلُ الرسُلِ؛ لِأَنَّ قولَهما: ﴿كَثِيرٍ﴾ يَدُلّ عَلَى أنهما عَلِما ذلك؟

قُلْنَا: هَذَا فِيهِ إشكالٌ، وَهُوَ أَنَّنا لَيْسَ عندنا علمٌ أن الأَنْبِياء عَلِموا بأن مُحَمَّدًا ﷺ سَيُبْعَثُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، كلمـة (رسول) نَكِرَة لا تدلُّ عَلَى أن اللهَ عَيَّنَ مُحَمَّدًا ﷺ لهَؤُلَاءِ، وإن كَانَ قَالَ: إن الله أخذ عَلَى النبيِّين الميثاقَ لئِن بُعث مُحَمَّد، لكان هَذَا تفسيرًا منه، أَمَّا الآيَةُ فلا تدلّ عَلَى هَذَا، وقد يقال: إِنَّهُ يَدُلّ عليه لِأَنَّ داود ﷺ يقينًا اطلع عَلَى التوراةِ.

---

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب، خديث رقم (٤٠٢٣)، عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النَّبيِّ ﷺ، حديث رقم (٣٥٦٠)، سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوبًا جديدًا، حديث رقم (٣٥٥٧)، مسند أحمد (١/ ٤٤) (٣٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الْإِنْسَان إذا رأى أَنَّهُ أفضلُ من غيرِهِ بنعمةِ اللهِ عليه فإن هَذَا لا يُنافي التواضُعَ، يعني عندما تشعر أن الله أنعمَ عليكَ بالمالِ وفَضَّلَكَ عَلَى هَذَا، فهذا لا يعني أَنَّك تَرَفَّعْتَ وتَكَبَّرْتَ، بل إنك لا يمكنُ أن تدركَ نعمةَ اللهِ عليك حَتَّى تعرفَ ضِدَّها فِي غيرك، فإذا رأيتَ مثلًا إِنْسَانًا مبتلى فِي بدنه والله تَعَالَى قد عافاكَ، عرفتَ فضلَ نعمةِ اللهِ، تقول: الحمد لله الَّذِي عافاني ممَّا ابتلاهُ به وفضَّلني عليه، وعندما تَرَى جاهلًا وأنتَ قدْ منَّ اللهُ عليكَ بالعلمِ فإنك كذلك أيضًا ترى فضلَ نعمةِ اللهِ عليكَ بهَذَا العلم، ولا يُعَدّ هَذَا من بابِ الترفُّع والاستهانة بالغيرِ، ولهَذَا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد يتراءى للإِنْسَانِ أَنَّهُ إذا رأى فضلَه عَلَى غيرِه بمـا أنعمَ اللهُ عليه أن ذلك أمرٌ مذمومٌ، وَأَنَّهُ يتضمن الترفُّعَ والاستهانةَ بالغيرِ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ، لكِن هَذَا حَسَب نِيَّةِ الْإِنْسَان، فشعوره بعلوِّهِ بمـا فَضَّلَهُ اللهُ به عَلَى غيرِه قد يَكُون علوًّا وقد يَكُون ازدراءً، وقد ينظرُ إِلَى نعمةِ اللهِ عَلَى غيـرِه عَلَى وجـهِ الحِكْمَةِ، يَقُول: إن الله حكيمٌ، ولولا أن هَذَا أهلٌ ما أعطاهُ، ثُمَّ يَسعَى فِي تكميلِ الفضائلِ لينالَ ما نالَ، المهمُّ أن هَذِهِ المسألة ترجع إِلَى النيَّة.

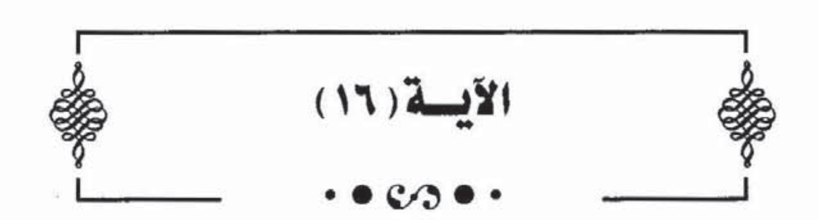
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: مشـروعيَّة التحدُّث بنعمةِ اللهِ، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الغيرِ، ولهَذَا جاء فِي الحديث عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[1]، فالإِنْسَانُ إذا تحدَّث بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخِرٍ بها فَإِنَّهُ لا بأسَ

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم (٣١٤٨)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، حديث رقم (٤٣٠٨)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ورواه مسلم بدون: «**ولا فخر**»، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، حديث رقم (٢٢٧٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بذلك، بل قد يَكُون هَذَا مشروعًا؛ لِأَنَّهُ ثناءٌ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بما أنعمَ به عليك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ علمِ اللهِ، وَجْهُه أَنَّهُ أعطَى علمًا، وفاقدُ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أَعْطَى هَؤُلَاءِ عِلمًا، ولا يُعْطِي العلمَ إِلَّا مَن كَانَ عالمًا، لِأَنَّهُ يُعَلِّمُهم بما يَعْلَمُ هو.

• ● ۞ ● •



الآيــة (١٦)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

• ● ∽ ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ سُلَيْمان متأخِّر عن داودَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ والإرثُ أنْ يَخْلُفَ الْإِنْسَانُ غيرَه فِي شيءٍ ما، عِلمًا كَانَ أو مالًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مشروعيَّة تحدُّث الْإِنْسَانِ بنِعْمَةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَذَا التحدُّث لا بأسَ أن يَكُون علنًا، يعني شَامِلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء للبعيدِ، فكأنَّ سُلَيْمان أعلنَ ذلك فِي جميعِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الطيرَ تَنطِق؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نُطْقَهَا مفهومٌ ومعلومٌ، ولكِن فيما بينها معلوم، ولغيرها مجهولٌ، إلَّا لمَن علَّمَهُ اللهُ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعطَى سُلَيْمان من كُلّ شيءٍ يَتِمُّ به المُلْكُ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وَهُوَ نظيرُ قولِه تَعَالَى عن مَلِكَةِ سَبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، أي: مما يَتِمُّ به المُلْك، هَذَا إذا قَيَّدْنا من كُلّ شَيْء يتمُّ به المُلك، فـ﴿مِن﴾ لبيَان الجنسِ، وإذا قُلْنَا: إن ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌّ لكلِّ شيءٍ فإن ﴿مِن﴾ تكون للتبعيضِ؛ لأنهما ما أُعْطُوا كُلَّ شيءٍ، بل بعضَ كُلّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ما يعطيه الله تَعَالَى العبدَ منَ العلومِ والفهمِ فَهُوَ من فضلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه؛ لِأَنَّهُ تمَدَّحَ بِقَوْلِهِ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

إِذَنْ: تعلُّم اللُّغةِ غيرِ العربيَّة هُوَ فِي الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ عَلَى العبدِ، لكِن إنِ استعملها مكانَ اللُّغةِ العَربيَّةِ فَإِنَّهُ مُخْطِئٌ، وَكَانَ عمر يَضرِب عَلَى ذلك[1]، وإنِ استعملها لمصلحةٍ دِينيةٍ فهَذَا له أجرٌ فِي ذلكَ، كما لوِ استعملها فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله وتَفهيم الخلقِ الَّذِينَ لا يَفهمون اللُّغةَ العَرِبيَّةَ، فهي وسيلةٌ.

المهمُّ أَنَّهُ لَا شَكَّ أن الْإِنْسَان الَّذِي يتعلم لغة غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه فِي هَذَا، ولكِن كونه محمودًا أو غير محمودٍ يَرجِع إِلَى ما يَتَوَصَّلُ به بهَذِهِ اللُّغةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ آيةٌ، وعليه فتعلُّم لغةِ الغيرِ لَيْسَ له ميزةٌ؟

قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، لكِن كونه يَتَمَدَّح أَنَّهُ عُلِّم هَذَا المَنْطِقَ هل هُوَ لأجلِ كونِه

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٣٣، رقم ٢٢٢٩).

آيَةً أو لِأَنَّهُ أمرٌ يَخفى عَلَى غيرِه؟ صحيح أَنَّهُ آية ويخفى عَلَى غيره.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المسألة ليستْ بذاك، المسألة الَّتِي تؤخَذ من هَـذِهِ الآيَة أنَّ الْإِنْسَان يُمْدَح إذا عَلِمَ لغةَ غيرِه زائدة، لكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ علم، وَأَنَّهُ إذا تُوُصِّلَ به إِلَى أمر مقصودٍ فَهُوَ محمود كما تقدَّم، وإن توصل به إِلَى أمر مذمومٍ فَهُوَ مذمومٌ.

فمثلًا إذا كَانَ الْإِنْسَان يَتَعَلَّم لغة غير العَربيَّة فيُحِلّها محَلّ العربيَّة ويبدأ يخاطِب غيرَه بهَذِهِ اللُّغةِ فلَا شَكَّ أَنَّهُ مذمومٌ ويُنهى عنه؛ لِأَنَّهُ يخالف الشرعَ من جهةٍ، ويخالف العقلَ من جهةٍ أخرى، فالأممُ الْآنَ تسعى بكل وسيلةٍ للحفاظِ عَلَى لغاتِها، بل إنَّها تسعى لإحياءِ لغاتها البائدةِ، مثلما يصنع اليهود الْآنَ يحاولون بشتَّى الوسائلِ أن يرجعَ قومُهم إِلَى اللُّغة العِبْرِيَّة، فكيف نُضَيِّع اللُّغةَ العربيَّة الَّتِي هِيَ لغة العالَم، لغة العالم شَرعًا -وليسَ قَدَرًا- ولِهَذَا يَجِب عَلَى جميعِ العالمِ أن يتعلمَ اللُّغةَ العَربِيَّةَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن باللُّغةِ العَربيَّةِ ولا يمكن فَهْمُه إِلَّا باللُّغة العربيَّة.

ولكِن نحن الْآنَ مَعَ الأسف نَرَى أن غير اللُّغة العَربِيَّةِ هِيَ العالميَّة، مثلما أننا نرى الْآنَ الشهورَ غير العَربِيَّة هِيَ العالمية؛ لأَنَّنا فِي الحقيقةِ ما عَرَفْنا قَدْرَ أنفسنا، وإِلَّا فالمسلمونَ هم العَالَمَ فِي الحقيقةِ، هم العالم فِي دِينهم، وَفِي كتابهم، وَفِي تاريخهم، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ لمَن؟ ﴿لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، وليس العرب وحدهم ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، متـى؟ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقد فَسَّرَهَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذِهِ الأشهرِ العَربِيَّة، لكِن[1]:

لَقَـدْ أَسْـمَعْتَ لَـوْ نَادَيْـتَ حَيًّـا   وَلَكِــنْ لَا حَيَــاةَ لِمَــنْ تُنَــادِي

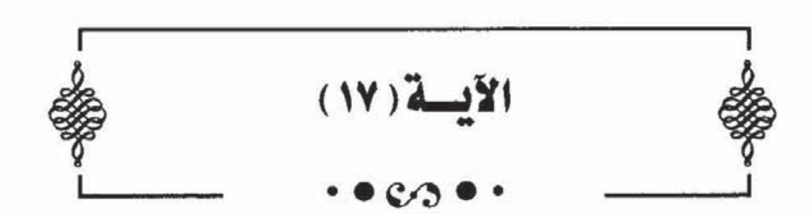
---

(١) الحماسة البصرية (٢/ ٣٠١).

فالحاصل: أنه مَعَ الأسفِ الشَّديدِ بعضُ النَّاسِ يَتَعَلَّم لغةَ هَؤُلَاءِ ويجعلها هِيَ لغةَ التخاطُبِ فيما بينهم، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ فِي الشرعِ والعقلِ.

ولو أن النَّاس نُقلوا من اللُّغةِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ العَربيَّةِ الفصحى فهَذَا طيِّب ومِن أحسن ما يَكُون؛ لِأَنَّهُ يُعِين عَلَى فهم الْقُرْآنِ والسنّة، لكِن إذا لم يمكِن فهَذَا تغييرٌ، أي: لهجة فقط، ولو تأمَّلْتَ ما عليه النَّاس الْآنَ من اللُّغة العامِّيَّة لوجدت أن كُلّ كلماتهم لها أصول فِي اللُّغة العَربِيَّةِ، لكِن هو اختلاف لَهَجات، فبودنا الحقيقة أن نرجع إِلَى اللُّغة العَربِيَّة الفصحى، ولكِن هَذَا يحتاج عملًا، فنحن نريد أن نَتَخَلَّى عن لُغَتِنا هَذِهِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ الفصحى، ويعجبني واحد من سيريلانكا فِي إحدى المؤسسات عندنا جاء مـرَّةً يتكلم معي ويتكلم باللُّغةِ الفصحى ولا يَلْحَنُ، هَـذَا العجيب، فالعجيب أَنَّهُ لا يلحن، هُوَ سيرلانكي أصلًا لَكِنَّهُ تعلم اللُّغة العَربِيَّة عَلَى اللُّغة الفصحى؛ لِأَنَّ القواميس باللُّغة الفصحى، وهو يكلمني باللُّغة الفُصْحَى تمامًا ولا لحنَ وهَذَا طيِّب.

• • ❁ • •



الآية (١٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧].

قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آتاه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُلْكًا لا يَنبغي لأحدٍ من بعدِه، حَتَّى إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا هَمَّ أنْ يَقبِضَ عَلَى الشيطانِ قَالَ: «ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥]»[1]. فمِن جُملة مُلْكِهِ هَذَا التنظيمُ العظيمُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ]، والجامِعُ: النُّقَباء والعُرَفَاء الَّذِينَ جَعَلَهُم يَجْمَعُون هَؤُلَاءِ الجنودَ، فَهُوَ قد نَظَّمَ مُلْكَه غايةَ التنظيمِ وجعلَ لكلِّ أُناسٍ قادةً وعُرَفاءَ يَجْمَعُونهم.

وقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ وهل يُحشَر معهم غيرهم؟

الجِنّ واضحٌ، والإنس مُكَلَّفون، والطيرُ غيرُ مُكَلَّفِينَ، وهي تطير.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، حديث رقم (٤٤٩)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة، حديث رقم (٥٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَقِينا فِي الحيواناتِ الأُخْرَى الماشية والزاحفةِ، هل تدخل فِي هَذَا من بابِ أَولى ونَقُول: إِنَّهُ إذا حُشِرَتِ الطيورُ الَّتِي لا يمكن السيطرةُ عليها فغيرها من باب أولى، أو نَقُول: إن سُلَيْمَـان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كَانَ يَستعمِل إِلَّا الطيور فقط؛ لِأَنَّهُ يستخدمها لمصالحه؟

هو مَحَلُّ إشكالٍ عندنا، فالآن نَقُول: سكتَ عن بقيَّة الحيوانات، فهل هِيَ داخلة فِي جُنُودِهِ أو لا؟ قد تقولُ: إنَّهَا داخلة من باب الأَولى، وقد نَقُول: ليست بداخلةٍ.

ما وجه قولنا: من باب الأولى؟

وجه قولنا أن نَقُول: إذا كَانَ الطيرُ وَهُوَ لا يمكن السيطرةُ عليه لِطَيَرَانِهِ يُحْشَر ويُجْمَع فغيرُه من باب أولى، وقد تقول: إِنَّهُ لَيْسَ بلازِمٍ؛ لِأَنَّهُ يمكن أن سُلَيْمان ﷺ لا يستخدم من الحيوانات سِوَى الطيرِ، وإذا لم يَسْتَخْدِمْ سواها فلا حاجةَ له فِي أن يجمعَ الباقيَ.

قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يُجْمَعُونَ ثُمَّ يُساقونَ]، وهَذَا أيضًا منَ التنظيمِ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُساقون يعني منظمينَ فِي جَمْعِهِمْ وسَيْرِهِمْ، فيُجمعونَ أولًا، وبعدَ أنْ يُجْمَعُوا يُوَزَّعُون فيُساقون عَلَى وجهٍ مُنَظَّمٍ. وهَـذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِـنَ التنظيمِ الَّذِي يحفظ عَلَى النَّاس الوقتَ والعَمَلَ؛ لِأَنَّ أكثرَ ما يُضَيِّعُ وقتَ الْإِنْسَانِ وعَمَلَه هُوَ عَدَمُ التنظيمِ.

ولِهَذَا أقول: إِنَّهُ يَنبغي أنْ يَكُونَ عندَنا تنظيمٌ لأعمالِنا اليوميَّة بِقَدْرِ المُستطاع، ولكِن لَيْسَ معنى ذلكَ أنْ نُصِرَّ عَلَى هَذِهِ الأَعْمالِ وإنْ وُجِد ما هُوَ أفضل فلا نفعله،

إِنَّمَا فقط يَكُون الْإِنْسَان مُرَتَّبًا مُنَظَّمًا لا يَدَع وَقْتَه فَوْضى، فيقرأ الْآنَ فِي هَذَا الكتاب سطرًا ثُمَّ يَدَعه لِيَقْرَأَ فِي الكتابِ الثاني ويدعه، أو يعمل هَذَا العَمَل ويبدأ به ثُمَّ يَتْرُكه، فيَنبغي أن يَكُونَ عِنْدَه تنظيمٌ، ومِنَ الْمُسْتَحْسَنِ أَنَّهُ كلَّما كَانَ الشَّيْء أهمّ يبدأ به أوَّلًا.

وكَانَ بعض النَّاس يَقُولُونَ: إِنَّهُ من جُملةِ تنظيمهم يجعل قراءة الجرائد والصحف إذا تغدَّى، ويَجعل قراءةَ الكتبِ الهامَّة الَّتِي تحتاج إِلَى تعبٍ بعدَ الغداءِ؛ لِأَنَّ قراءةَ الصحفِ قراءةٌ سَطحيَّةٌ مثل التحدُّث العادي، ولَيْسَ فيها تعبٌ. لكِن الكتب فيها تَعَمُّق فتحتاج إِلَى عملٍ، وهَذَا لا يناسبُ مَعَ وجودِ الشِّبَعِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد نَظَّمَ جُنُودَهُ ورَتَّبَهُم بحيث يُجمَعون عندَ الجمعِ ويُفرَّقون عند التفريقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُۥ﴾.

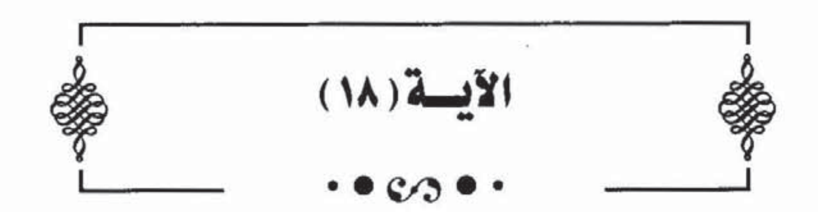
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الجنود الَّذِينَ يَسْتَصْحِبُهُمْ سُلَيْمَان ثلاثةُ أصنافٍ، وهم: الجِنُّ والإنسُ والطيرُ، أَمَّا الإنس فاستصحابُه لهم ظاهرٌ؛ لِأَنَّهُ منهم، وَأَمَّا الجنُّ فلاستخدامِهِمْ فيما لا يَقْدِرُ عليه الْإِنْسَانُ، وَأَمَّا الطيورُ فقال بعض العُلَماءِ: إِنَّهَا تَصْحَبُهُ لِتُظِلَّهُ، فتكون فوق رأسِهِ ظُلَّةً منَ الشَّمْسِ، وهَذَا قد يَكُون مقصودًا، وقد يَكُون أيضًا من مقصودِ استصحابِ الطيرِ أَنَّهَا تأتيه بالأخبارِ البعيدةِ كما فِي قِصَّة الهُدْهُد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمال التنظيم أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ الوَزْعَ معناه: الجَمْعُ والسَّوْق، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت:١٩]، يُجْمَعُون إليها ويُساقُون إليها. وهَذَا دليلٌ أيضًا عَلَى كمالِ تَنظيمِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جوازُ استعمالِ الساقَةِ فِي الجُنْد والجيشِ، بأن يَكُون لهم سائقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دليلًا، وقد كَانَ من هدي الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الساقَةِ فِي أُخريات القومِ[1]، مَعَ أَنَّهُ ﷺ رَئِيسهم وزعيمهم، لَكِنَّهُ يتأخَّر لأجلِ أنْ يُرْفِدَ من قَصَّر ويُعِين مَنِ احتاجَ، وللفوائد العظيمة الَّتِي تحصُل بهَذَا.

•●۞●•

(١) سنن أبي داود: كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، رقم (٢٦٣٩).



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

• • ● • •

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ هَذِهِ غايةٌ لِما سبقَ، وَهُوَ قوله: ﴿وَحُشِرَ﴾، وَعَلَى هَـذَا فيَكُونُ فِي الكَلام حَـذْفٌ تَقديرُه: وساروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾. فبعدَ أنْ جُمِـعَ الجنودُ وَوُزِّعُوا فَرُدَّ أولهم إِلَى آخرهم، ونُظِّموا، سَارُوا.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: ﴿أَتَوۡاْ﴾ أي: سُلَيْمان وجنوده، أي: مَرُّوا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر الكَلامِ أن هَذَا الوادي معروفٌ بهَذَا اللَّقَب، أي أَنَّهُ يُسَمَّى واديَ النملِ، ويَحْتَمِل، لَكِن خِلاف الظَّاهرِ أن يَكُونَ هَذَا الوادي واديًا فِيهِ نملٌ، يعني يَكُون التَّقْدير: حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادٍ فِيهِ نملٌ، وَلَيْسَ معروفًا بهَذَا اللَّقَب، أي بأنه: وادي النملِ، ولكِنِ الأَولى الأخذُ بظاهرِ اللفظِ؛ وَهُوَ أن يَكُونَ هَذَا الوادي معروفًا بكثرةِ نَمْلِهِ وَأَنَّهُ يُلَقب بهَذَا اللقبِ لِكَثْرَتِهِ.

والنَّمْلُ معروفٌ، وَهُوَ مِنَ الحيواناتِ الَّتِي نُهي عن قَتْلِها، كمـا فِي السُّنَن أن النَّبِيّ ﷺ نهى عن قتل أربعٍ منَ الدوابِّ، وذكرَ مِنْهَا النَّمْلَةَ[1]، وَفِي الصَّحيحِ أيضًا

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، حديث رقم (٥٢٦٧)؛ وابن ماجه، كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، حديث رقم (٣٢٢٤)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن أحدَ الأنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- قَرَصَتْهُ نملةٌ، فأمر بِقَرْيَةِ النملِ كُلِّها فأُحْرِقَتْ، فَعَاتَبَهُ اللهُ عَلَى ذلك وقال: هَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً(١).

وهَذَا النَّمْلُ من جملةِ المخلوقاتِ الَّتِي تَعْرِف ربَّها وتعرف ما يَنْفَعُها وما يَضُرُّها عَلَى حَسَب ما رُكِّبَ فيها من هدايةٍ، وقد قَالَ موسى ﷺ لِفِرْعَوْنَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي الخلقَ اللائقَ به، فكُلّ شيءٍ من الحيوان وغيرِه له خَلْق يَليق به أعطاهُ اللهُ، ثُمَّ هَدَى هَذَا الخلقَ أيضًا لما تَقُومُ به مصالحُه، فهَذَا النملُ من جُملةِ المخلوقاتِ الَّتِي أعطاها اللهُ تَعَالَى خَلْقَهَا وهداها.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وَهُوَ بالطائفِ أو بالشام]، خِلاف، ولا دليلَ لا عَلَى الطائفِ ولا عَلَى الشامِ، والأقرب أَنَّهُ بالشامِ -ومعَ ذَلِكَ لا نَجْزِمُ به- لِأَنَّ مَقَرّ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ فِي الشامِ، وتعيين المكانِ ليس منَ الأُمُورِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا فِي القصة؛ لِأَنَّ المقصودَ الاعتبارُ بما جَرَى فِي أيِّ مكانٍ كَانَ من الْأَرْض، وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نمله صِغار أو كبار]، أيضًا ما لنا ولهَذَا، بعضهم يَقُول: نمله كبار، والنَّمْلة كالذئب، يعني صار النمل حميرًا! وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بلِ النملُ هُوَ المعروفُ فِي لغةِ العربِ، وكل مَنْ فَسَّرَ شيئًا من الْقُرْآن بخلافِ ما تَقتضيه اللُّغةُ العربيّةُ فإِنَّهُ لَا بُدَّ له من دليلٍ، وإلا فيُرَدَّ عليه؛ لأنَّ مَعَنا أصلًا أصيلًا فِي تفسيرِ الْقُرْآن وَهُوَ قوله تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فمَن زَعَمَ أَنَّ شيئًا من الْقُرْآن عَلَى خلافِ هَذَا اللسانِ العربيّ المبينِ فعليه الدَّلِيلُ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل للأسير أن يقتل ويخدع الذين أسروه حتى ينجو من الكفرة؟، حديث رقم (٢٨٥٦)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم (٢٢٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: النَّمْلُ هُوَ النملُ المعـروفُ، وَأَمَّا القَـوْلُ بِأَنَّهم كِبَارٌ وأنهم كالذِّئاب فِي الكِبَرِ فهَذَا لا دليلَ عليه.

قولُه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هَذِهِ جـواب ﴿إِذَآ﴾: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ ... قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ قَـالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَلِكَة النَّمل وقـدْ رَأَتْ جُنْدَ سُلَيْمَـانَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾...]، إِلَى آخِرِهِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْدَ سُلَيْمَـان]، فهَذَا واضـحٌ، اللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا رأته أو أَحَسَّته، قد يَكُون إحساسًا بدون نظرٍ، وقد يَكُون نظرًا، إِنَّمَـا عَلَى كُلّ حال هِيَ أدركتْ قُرْبَه ووصول سُلَيْمان بجنوده إليهم.

وقوله تَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وظاهر كلام المفسِّر أَنَّهَا مُعَرَّفَة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [ملكة النمل]، وهَذَا يقتضي أن يَكُون التعبير: (قالت النَّمْلةُ) يعني النَّمْلة المعهودة وهي المِلكة، ولَمَّا لم يكنِ التعبيـرُ بِقَوْلِهِ: (قالـت النَّمْلة) دلَّ عَلَى أن القائِلَ لا يَتَعَيَّنُ أن يَكُونَ مَلِكَة النملِ، وإنما هِيَ نملةٌ منَ النملِ، وهَذَا لَيْسَ بغريب فَإِنَّهُ كما لو أقبل جُنْدٌ عَلَى طائفةٍ منَ النَّاس ورآه واحدٌ منهم فيَصيح بهم، ولا يَلْزَمُ أن يَكُون هَذَا الصائحُ هُوَ الأميرَ أو الملِكَ، ولهَذَا الصَّحيح إبقاء الْقُرْآن عَلَى ظاهرِهِ، وأنها نملة من هَذَا النملِ، ولا يلزم أن تكونَ الملكةَ؛ لِأَنَّ في مثل هَذِهِ الأحوال أَيُّ واحدٍ يشعرُ من الطائفةِ الموجودةِ بالخوفِ يَصيح به ويُنْذِر، أنا النذيرُ العُريانُ.

إِذَنِ: الصَّواب أن نَقُول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ من النملِ، ولا نُعَيِّنُها بأنها الملكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْد سُلَيْمان]، هل يَتَعَيَّن الإدراك بالرؤيةِ أو يجوز أيضًا بالإحساسِ والسمعِ؟

يمكن هَذَا، وحينئذٍ نسأل: هل للنمل أعينٌ؟

هَذِهِ تحتاج إِلَى دراسة علم الأحياءِ، وقد قرأتُ كلامًا يَقُول: إن النمل -بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إذا مَشَى فَإِنَّهُ يُفرزُ أَشْيَاء تمشي النملات الأُخْرَى عَلَى رائحتها، وهَذَا شَيْء أنا شاهدتُه بعيني، حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يوجد بِسَاط كبيرٌ وَكَانَ النملُ يَمشي ويأتي عَلَى زاوية ثُمَّ يَرجِع، يعني يمشي مستطيلًا ويأتي عَلَى الزاوية ثُمَّ يرجع، كُلّ النمل عَلَى هَذَا، يعني لا يذهب فِي طريقٍ مستقيمٍ مُخْتَصَر، فأنا تَعَجَّبْتُ كيف يعرف الطريقَ؟ لو كَانَ عَلَى ترابٍ لكانَ يبين أثر النمل ويَمشي بعضهم مَعَ بعض، لكِن هَذَا لَيْسَ عَلَى ترابٍ، ولكِن بَعْد أن قرأتُ هَذَا عنه عرفتُ أَنَّهُ إذا مشَى يَكُون له رائحةٌ وتمشي بقيَّة النمل عَلَى هَذِهِ الرائحةِ، وهَذَا من آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا معنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

عَلَى كُلّ حالٍ: الَّذِي يَلْزَمُنا من هَذِهِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ أن النَّمْلَةَ أدركتْ ذلك برؤيةٍ أو بغيرِها.

قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ انظُرْ هَذِهِ الجملة تضمنت نداءً وأمرًا وإرشادًا وتحذيرًا وتعذيرًا وغير ذلك مما يمكن أن نُدْرِكَهُ إن شاء الله بَعْد الكَلام بالتفصيلِ.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ هَذَا نداءٌ، وقد تَقَدَّمَ أن تصديرَ الجملةِ بالنداءِ الغرضُ مِنه التنبيهُ؛ فإذا قلتُ: (افعل) أو (يا فلان افعلْ) الأخيرة أعظمُ وأبلغُ، فهَذَا لتنبيهِهِ، ثُمَّ إن قولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ نداءٌ بعيدٌ مُصدَّر بِتنبيهٍ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: (يا نملُ) فقد يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ مشاهَد الإِنْسَان أَوَّلَ ما يُكَلِّمُك قد يَخْفَى عليك أَوَّلُ جملةٍ، لكِن إذا جاء بشيءٍ يُنَبِّه قبلَ الدخولِ فِي الموضوعِ المقصودِ

صار لا يفـوت السامعَ منَ المقصـودِ شيءٌ، هِيَ قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ ولم تقلْ: يا نملُ. ثُمَّ إن نداءَ البعيدِ أيضًا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا صَوَّتَتْ بصوتٍ سمِعه الكلُّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾.

وفي قولِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ هَذَا أمرٌ، والمُرادُ به الإرشادُ، قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وَفِيهِ تعيينِ المساكِنِ وهي الملاجِئ، وهَذَا مثل صفَّارات الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفَّرت صفَّارة الإنذارِ لا يَذْهَبون إِلَى السُّطُوح، ولكِن يذهبون إِلَى الملاجِئ، وهِيَ أيضًا أَرْشَدَتْهُم إِلَى ملاجئهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، ثُمَّ فِيهِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أن هَذِهِ المساكن كما أَنَّهَا أكنان يُكْتَنّ بها الْإِنْسَان فهي أيضًا حُصُون يَحْتَرِزُ بها الْإِنْسَان، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وفي قولها: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ الإضافةُ هنا عَلَى تقدير (اللام)، لا (من) ولا (في)؛ لِأَنَّ الإضافة تكونُ عَلَى تقدير (من) إذا كَانَ المضاف من جنس المضاف إليه كخاتَمِ حديدٍ، وبابِ خَشَبٍ.

وتكون عَلَى تقدير (في) إذا كَانَ المضاف إليه ظرفًا للمضاف؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، أي: مَكْرٌ فِي الليلِ.

وتكون عَلَى تقديرِ اللَّام، وهي الغالبُ والأكثرُ، وهنا عَلَى تقديرِ اللامِ، واللامُ المُقَدَّرَة فِي الإضافةِ هنا هل هِيَ للاختصاصِ أو لِلْمِلْكِ؟

بالنِّسْبَة لنا للاختصاص، لكِن بالنِّسْبَة لهنّ -أي: للنمل فيما بينهنّ- الظَّاهر أَنَّهَا للمِلك؛ لِأَنَّ كُلّ واحدةٍ منهنّ تَعْرِفُ بيتَها وَتَمْلِكُه.

قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ هَذَا التحذير إرشادٌ وتحذيرٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [يكْسِرَنَّكُمْ]، لَيْسَ المُرادُ بالكسرِ هنا أن يُكْسَر عضوٌ فقطْ،

المُراد بالكسر هنا الإهلاكُ عَلَى سبيل التحطيم، فالنَّمْلةُ إذا وَطئتها تَقطَّعَتْ وتمزَّقَتْ هَذَا هُوَ التكسُّر، وَلَيْسَ المَعْنى أن رِجلها تَنكسِر وتبقى معلَّقة بها، والجملة هَذِهِ كالتعليلِ للأمرِ فِي قولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، يعني كَأَنَّ قائلًا يَقُول: لماذا؟ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾، فالجملةُ تعليلٌ وتحذيرٌ، وهَذَا مِن بَلاغَتِها أيضًا، ما قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فقط، ولكِن عَيَّنَتِ المُحَذَّرَ منه وَهُوَ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ ثُمَّ أتتْ بِهَذِهِ الجملةِ الشديدةِ الوَقْعِ، لم تَقُلْ: لا يَطَأَنَّكُمْ، قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، فأيُّهما أشدُّ وقعًا؟

الأخيرةُ أشدُّ؛ لِأَنَّ الوطءَ قد يَلْزَمُ منه الكسرُ والإفلاتُ وقد لا يَلزَمُ، ثُمَّ الوطءُ هادئٌ بالنِّسْبَةِ لكلمةِ التحطيمِ.

وأيضًا قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ أشدُّ فِي الحَذَرِ وأبلغُ ممَّا لو قَالَ: (لَيُهْلِكَنَّكُمْ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥]، فالتحطيمُ أبلغُ.

وهل المقام يَقتضي أن تأتي بالعبارةِ الغليظةِ؟

نعم؛ لِأَنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وسرعة، فإذا لم تفعل النملات هَذَا بسرعةٍ فإنها ستتحطم.

وهنا قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ وقالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، والتعبير بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ بالميم هَذَا لا يَكُون إِلَّا للعاقلِ؛ لِأَنَّ الميم هَذِهِ لجماعة العقلاء، والواو أيضًا لجماعة العقلاء؛ لِأَنَّ غير العاقل يؤنَّث: ادخلنَ مساكنكنَّ، ولا يحطمنكنّ، ولَكِنَّهَا قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ تنزيلًا لهنَّ مَنْزِلَةَ العاقلِ، فخُوطِبُوا خِطاب العقلاءِ، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نزَّلَ النملَ مَنْزِلَةَ العقلاءِ فِي الخطابِ بِخِطَابِهِم].

أو يقال: هنَّ بالنِّسْبَةِ لبعضهنَّ عُقَلاءُ، يعني لما كَانَ هَذَا الخطابُ يُفهم ويُعمل به صارتْ كأنها تخاطبُ العقلاءَ، مثلما قُلْنَا: إن المساكنَ بالنِّسْبَةِ لهنّ مِلْك وبالنِّسْبَةِ لنا اختصاص.

وقوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وهَذَا التعبيرُ يَدُلّ عَلَى أنَّ عَظَمَة سُلَيْمان مُتَقَرِّرَةٌ عِنْدَهنَّ وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ما قالتْ: وجُنْدُه؛ لِأَنَّ الَّذِي فَهِمنا منَ الْقُرْآن أن معَه ثلاثةُ أصنافٍ من الجنودِ: الإنس والجنّ والطير كما سبقَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هَذَا اعتذار لسُلَيْمان وجنودِه، أَنَّهُم لن يَتَقَصَّدوا أن يَحْطِمُوكم، ولكِن بغيرِ شعورٍ منهم؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروفٌ أن هذا جيشٌ عظيمٌ واسعٌ وهذه نملٌ صغارٌ يُمْكِن أن يحطمها الجيشُ بدونِ أنْ يَشْعُرَ، ثُمَّ إنَّ الغالبَ أنَّ مثلَ هَذَا الجندِ الكثيرِ لا يستطيع أن يَتَوَقَّفَ إذا وجد جُحْرَ نَمْلٍ مثلًا، فهَذَا معنى قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هل هم يمشون بِغَيْرِ هُدًى؟

قُلْنَا: لا، يمشون بهدى، لكِن من المعروفِ أَنّنا إذا قارنّا بينَ هَذَا الجُنْدِ العظيم الواسع وبين صِغَرِ هَذا النمل فإنَّ الغالبَ أَنَّهُم لا يَشعرون بها.

فهَذِهِ الجُمَل البليغة العظيمة من هَذَا المخلوقِ الَّذِي لَيْسَ فِي أَعْيُنِ النَّاس شيئًا، وَهُوَ من أصغرِ المخلوقاتِ، فيها ما يَدُلّ عَلَى عَظَمَةِ الخالِقِ، وأن ما هُوَ أعظمُ من هَذِهِ المخلوقات -النمل- هُوَ أعظمُ مِنْهَا أيضًا فِي هَذِهِ الأُمُور؛ لِأَنَّ مَن أعطى الصغيرَ هَذَا الإعطاءَ وهداه هَذِهِ الهدايةَ فالكبيرُ أحوجُ للهدايةِ من ذلكَ، وعنده منَ العلمِ ما عنده.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من البلاغةِ الإيجاز بالحَذْفِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ قبلَ الشَّيْءِ المحذوفِ، والتَّقْدير: (فساروا حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادي النمل) لِأَنَّ (حَتَّى) للغاية فلا بد أن يَكُون هناك شَيْء محذوف قبلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى إضافةِ المكانِ إِلَى ساكنِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ كما يُقَال الْآنَ فِي الأحياءِ فِي البلد: هَذَا حيُّ بني فلانٍ، كما هُوَ معروف من قديم الزمان أن الأحياء تضاف إِلَى ساكنيها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هل نَقُول: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن النملَ إذا سكنَ أرضًا مَلَكَها بحيثُ لا يجوزُ إحياؤها ولا الاستمتاعُ بها، ففِي الآيَةِ يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فإذا قلت: (بيت فلان) هل لك حقٌّ أن تأتيَ إِلَى بيتِ فلانٍ وتسكنه؟

نَقُول: صحيح، فلو نظرنا إِلَى مطلَقِ اللفظِ لكان وادي النمل للنمل، ولكِن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فإذا كَانَ النمل يُؤْكَل أَكَلْنَاهُ، فكيف لا نأكل مساكنَهم، فبنو آدم هم أحقُّ بالْأَرْض من غيرهم، فإذا احتاج الْإِنْسَان مثلًا إِلَى عمارة هَذِهِ الْأَرْض، وكَانَ فيها نملٌ، فلا بأسَ أن يَعْمُرَها، ولو لزِم من ذلك أن يموت النمل؛ لِأَنَّ هَذَا الموت غير مقصود، وما كَانَ غير مقصود وإنما جاء ضرورة لتناول المباحِ فَإِنَّهُ لا يضرُّ، وهَذِهِ القاعدةُ معروفةٌ فِي الشرعِ، أن الشَّيْءَ الَّذِي يأتي ضرورةً لفعلٍ مباحٍ وَهُوَ غير مقصودٍ فَإِنَّهُ لا بأسَ به، وانظُرْ مثلًا إِلَى قتلِ النِّسَاء والذُّرِّيَّة فِي الحربِ فإنه لا يجوز، لكِن إذا لم نتوصلْ إِلَى قتل المقاتلينَ إِلَّا بالرمي بالمنجنيقِ والمدافعِ الْعَامَّة فَإِنَّهُ يجوز، ولو لزِم من ذلك قتل النِّسَاء والذريَّة؛ لِأَنَّ هَذَا غير مقصودٍ. كذلك أيضًا قطع نخيل العدوّ لا يجوزُ، ولكِن

إذا لم نتوصلْ إليهم إِلَّا بقطع نخيلهم جاز كما فعل النَّبِيّ ﷺ فِي بني النَّضِير.

فائدة: بيوت النمل تكون عميقة فِي الْأَرْض، ثُمَّ من عادة النملِ أيضًا أَنَّهُ لا يبني البيوت إِلَّا فِي مكانٍ مرتفعٍ، وغالبًا أن الجند لا يأتون الأماكن المرتفعة ما دام يجدون السهلَ.

فالحاصل أن نَقُول: إذا لزِم من إحياء الْأَرْض قتل النمل فَإِنَّهُ لَيْسَ به بأسٌ؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ مقصودًا، وإنما جاء ضرورةً لتناولِ أمرٍ مباحٍ لنا، بل كُلّ مؤذٍ، حَتَّى ابنُ آدمَ إذا آذاك وصالَ عليكَ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ تَقْتُله، وَهُوَ أعظم حُرْمَةً من الحيواناتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للحشراتِ نُطقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليل عَلَى أن قولها أيضًا مسموعٌ يَسْمَعُه بنو جنسها؛ لِأَنَّهُ لو لم يَكُونوا يسمعونها لم يكن فِي قَوْلِها فائدةٌ، فهم يسمعون قولها، وقد يُسْمِعُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفيه دليلٌ -استدلَّ الْعَامَّة بذلك- عَلَى أن كُلّ شيءٍ يَنطِق من قبلُ، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ولكِنَّ الله تَعَالَى قد يُسْمِع الخلقَ نُطْقَ بعضِ الحيواناتِ؛ إمَّا آيَة أو كرامة، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَمَّا العوامُّ فإنهم يَقُولُونَ: كُلّ شَيْء يتكلم، حَتَّى إن بعضهم يَقُول: الجصة تَتكَلَّم، والجصة هِيَ مَخْزَنُ التَّمر، والظَّاهر أَنَّهُ سارقٌ كَانَ فِي الجصةِ وتكلَّم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ردُّ كلامِ الْمُفَسِّر فِي قولِه: إن النَّمْلةَ مَلِكة النمل؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وَلَيْسَ بغريبٍ أن تكونَ نملةٌ من النملاتِ هِيَ الَّتِي قالت هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فصاحة هَذِهِ النَّمْلة ونُصْحها وذكاؤها؛ لِأَنَّ الكَلامَ الَّذِي قالتْه يَتَضَمَّن هَذَا كله، فهي من بلاغـتها استعملتْ فِي كُلّ مكانٍ ما يُناسِبُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ أتت بالياء لمناداة البعيـد؛ لِأَنَّ النمل لَيْسَ كله قريبًا مِنْهَا، بل بعضه بعيـد وبعضه قريبٌ، ومن كمالِ نُصْحها: إرشادها إِلَى المخابئِ والملاجِئِ؛ لِقَوْلِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

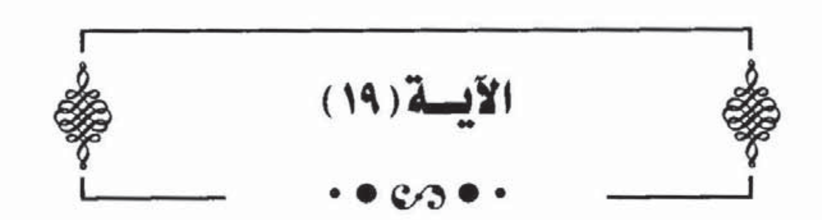
ومن كمـال ذكائها: أَنَّهَا استعملتِ العباراتِ المثيـرةَ المزعِجة، فِي قولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

وأيضًا من عَدلها أَنَّهَا قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

فتضمَّن هَذَا الكَلام أنواعًا كثيرة من البلاغةِ والفصاحةِ والنصحِ والتحذيرِ والتعذيرِ وغير ذلك مما مرَّ فِي الشرحِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فِي هَذَا أيضًا عَظَمَةُ مُلْكِ سُلَيْمان وجنوده؛ لِأَنَّ النَّمْلة عرَفَتْ ذلك وحذَّرتْ منه.

• • ۞ • •



الآيــة (١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سُلَيْمَان ابتداءً ﴿ضَاحِكًا﴾ انتهاءً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾]. يَقُولُونَ: إن الضحكَ ثلاثة أنواعٍ: ابتدائيٌّ ووَسَط وانتهائيّ، الابتدائي التبسُّم، والوسط الضَّحِك، والمنتهَى القَهْقَهَة، والقهقهة لا تليقُ بالإِنْسَان العاقلِ الرَّزين، والتبسُّم هُوَ أكثرُ ضَحِكِ الأَنْبِياء عليهم الصَّلَاة والسلامُ، والضَّحِك يَكُونُ منَ الأَنْبِياء أحيانًا، فهنا تَبسَّم ضاحكًا، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أنَّ سُلَيْمان ﷺ كَانَ له مرحلتانِ فِي هَذَا الضحِك: الأولى: التبسُّم، والثَّانِيَة: الضحِك، فابتدأ بالتبسُّم وانتهى بالضحِك.

ويَحتمل أن يَكُونَ معنى قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أَنَّهُ ضحك متبسمًا، يعني أَنَّهُ ما ظهر له صوتٌ ولكِنه تبسَّمَ تَبسُّمًا، واللهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدير تكون ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنة للنوعِ، يعني أن ضَحِكَه كَانَ تبسُّمًا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: في هذه المسألة لا يضرُّ لو كَانَ ابتدأ بالتبسم وأنهى بالضحك، والفرق بين التبسُّم والضحِك: أن التبسم ينفتح فيه الفم بدونِ صوتٍ، والضحِكُ

يَكُون بصوتٍ، لكِن بدونِ قهقهةٍ، والقهقهة هِيَ تكرار الصوتِ، (كَرْكَرَ) كما يَقُول الْعَامَّة.

قوله: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾: (مِن) بيَانيَّة، والبيَانية للتعليلِ، يعني بسببِ قولِها تَبَسَّمَ، هَذَا التبسُّمُ ما مصدرُه؟ هل تبسم من قولها، أمْ من تحذيرها، أم من اعتذارها، أم من إرشادها، أم من فصاحتها؟

من كُلّ ما يتضمنه هَذَا القَوْل؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقة محلّ عَجَب، أَنَّهَا تتكلم بهَذَا الكَلام البليغِ، وبهَذِهِ السرعةِ، فما ذهبت تُرتِّب وتأتي بالعناصر وتزيِّن، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ محلّ ضحِك، ثُمَّ هُوَ أيضًا محل ضحِك لَيْسَ من القَوْلِ فقطْ، بل من مغزى هَذَا القَوْل، ولهَذَا جعله من نعمة الله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، مغزى هَذَا القَوْل أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تعْتَرِف حَتَّى الحشرات بعظمته وعظمة جنودِهِ، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من نعمة الله عليه.

فهَذَا التبسُّمُ إذن مِنَ القَوْلِ من مضمونِهِ ودلالتِه وكذلك من مغزاه، وما يتضمنه من نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى سُلَيْمَان.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقد سمِعه من ثلاثة أميالٍ حملته إليه الريحُ، فحَبَسَ جُنْدَه حين أشرفَ عَلَى واديهم، حَتَّى دخلوا -أي: النمل- بيوتهم، وَكَانَ جُنْدَه ركبانًا ومشاةً فِي هَذَا السير].

يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد سمعه من ثلاثة أميال] من أين جاء بهَذَا؟ أخبار إسرائيليَّة بل إن الْقُرْآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨]، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم وصلوا إليه، غاية ما هنالك أَنَّهُم لما حُذِّر النمل بهَذَا التحذير دخل فِي المساكن، يعني لَيْسَ بينهم

وبين أن يطئوا هَذَا النمل إِلَّا دخول النمل مساكنهم، وهَذَا لا يقتضي أن يَكُون بينه وبينهم ثلاثة أميال، ولا دليل عَلَى ذلك، وإنما يقال: إِنَّهُ سمعه من قُرْب، وهل سمعه غيره من جنوده؟

الظَّاهر أَنَّهُم ما سمِعوه ولا عرفوه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، يَدُلّ عَلَى أن تعليم نطق الحيوانات خَاصّ بسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَيْسَ كما يزعم بعض الْعَامَّة، فبعض الْعَامَّة يَقُولُونَ: فِي أول الأَمْر كَانَ كُلّ شَيْء يتكلم، ويأتون بقصصٍ عَلَى هَذَا، وهَذَا لَيْسَ بصحيح، لَيْسَ هناك كلام معلوم إِلَّا فِي الأممِ فيما بينها، وَأَمَّا أن الإنس يَعلَمون كلام الجنّ أو مثلًا يعلمون كلام الحشراتِ فلا، إِلَّا بدليلٍ، إذا وجد دليل عن المعصومِ فهَذَا صحيحٌ، مثلما أَخبرَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الذئبِ الَّذِي تَكَلَّم[1]، وأخبرَ أيضًا عن البقرةِ الَّتِي رَكِبَها صاحبها وقالت له: إِنَّا لم نُخْلَقْ لهَذَا[2]، المهمُّ ما دلَّ عليه الدَّلِيل وجبَ علينا أن نَقْبَلَهُ، وإِلَّا فالأَصْلُ أن المخلوقَ يَتكَلَّم بلغتِه، وأن كُلّ جنس لا يَفهَم لغةَ جِنْسِه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾].

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾: (ربِّ) منادى حُذِفَت منه ياء النداءِ، وأصله: يا ربِّ، وحُذفت الياء المضاف إليها للتخفيف، وإلا فأصلها: (ربي) بالياءِ. ودائمًا يأتي الدعاءُ بحذفِ ياءِ النداءِ؛ ابتداءً بذكرِ اسمِ اللهِ وعنايةً بالمقصودِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم (٣٢٨٤)؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخريج السابق.

﴿رَبِّ﴾ يبتدئ به قبل كُلِّ شَيْء، وَكَأَنَّ الْإِنْسَان لشدَّة شَوْقه لربِّه أثناء دعائه ما يَبْدُرُ منه إِلَّا اسْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾: ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ من حَيْثُ الإعرابُ يقال: فعلُ أمرٍ، لكِن النحْويُّون رَحِمَهُمُ اللَّهُ تأدُّبًا مَعَ الله ما يَقُولُونَ: فعل أمرٍ؛ لأنك لا تأمر الله، فيُسمُّونه فعلَ دعاءٍ، فعندما نُعْرِب ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ نَقُول: (أَوْزِعْ) فعلُ دعاءٍ، لا نَقُول: فعل أمرٍ يُقصَد به الدعاء، هُوَ حقيقة فعل أمرٍ والمقصود به الدعاء، لكِن تأدُّبًا مَعَ اللهِ نَقُول: فعل دعاءٍ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾]، قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الحامِلُ لسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَقُول هَذَا الاعترافُ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخوف الغرورِ بالنفسِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت النَّمْلة تقول هَكَذَا خوفًا منه وجنوده وتَعْتَذِر لهم ويَفْهَم كلامها، فهَذَا قد يؤدِّي بالْإِنْسَان إِلَى الغرور وأن هَذَا الشَّيْء لذاته أو من ذاته، مثلما قَالَ قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، فلهَذَا سأل اللهَ فِي هَذَا المقام الَّذِي ربما يَحْصُل به الغرور للمرءِ، والْإِنْسَان بشرٌ، فسأَلَ اللهَ أن يُلْهِمَه شُكْرَ نِعْمَتِهِ الَّتِي أنعمَ عليه وَعَلَى والديْه وأن يعملَ صالحًا يرضاه.

وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَان إذا حصلَ له نعمةٌ أن يسأَلَ الله تَعَالَى أنْ يُلْهِمَه شُكْرَها؛ حَتَّى لا يَلْحَقَه الغرورُ بهَذِهِ النعمةِ الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، سواء كانت النعمةُ ماليَّةً أو جَسَدِيَّةً، مَعْنَوِيَّةً أمْ حِسِّيَّةً.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ مصدريَّة مَحَلُّها منَ الإعرابِ مَفْعُول ثانٍ لـ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ لِأَنَّ المَفْعُول الأوَّل الياء، والمَفْعُول الثاني ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني:

أَلْهِمْنِي شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أنعمتَ عليَّ وَعَلَى والديَّ.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النعمة: الإحسانُ الَّذِي يَنْعَمُ به الْمُحْسَنُ إليه، والنعمةُ كما هُوَ معروف تنقسمُ إِلَى قسمينِ: إمَّا حصول مَطْلُوب وَإِمَّا نجاة من مَرْهُوب، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دائمًا نِعَمه عَلَى عبدِه، والعبدُ دائرٌ بين هذينِ الصنفينِ منَ النعمةِ، فدائمًا يحصل له مطلوبه وينجو من مرهوبِه.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾]، قَدَّر (بها) لِأَنَّهُ من المعروفِ أن الجملة الَّتِي تكون صلةً للموصولِ لَا بُدَّ فيها من رابطٍ يعودُ عَلَى الموصولِ، أي: لَا بُدَّ فيها من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ، هنا ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فتحتاج جملة ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أن يَكُون فيها ضَميرٌ يعود عَلَى ﴿الَّتِي﴾ قدَّره الْمُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [بها]، ولنا معه مناقشة فِي هَذَا التَّقْدير، فتقدير الضَّمير لأجلِ أنْ يَكُونَ عائدًا عَلَى الموصولِ هَذَا واضحٌ ومُسلَّم، فهَذِهِ القاعدةُ النحْويَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣]، أي: (منه)، فهَذَا واضحٌ، وهَذَا كثير الكَلام فِي اللُّغة العربيَّة فِي الْقُرْآن والسنَّة وكلام النَّاس، أَنَّهُ لَا بُدَّ من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ لِيَرْبُط الجملة الصلة بموصولها. ولكِن لنا مناقشة مَعَ الْمُفَسِّر فِي تقدير العائدِ عَلَى هَذَا الوجهِ:

يَقُولُونَ: إن العائد ما يُحْذَف إذا كَانَ مجرورًا إِلَّا إذا جرّ الموصول بحرفٍ مشابهٍ للمحذوفِ لفظًا ومعنًى وتقديرًا، وهَذَا تَقَدَّمَ ونحن نقرأ فِي النحو فِي القَطْرِ[(١)]، وَأَنَّهُ إذا كَانَ مجرورًا يُشْتَرط أن يَكُون مجرورًا بالحرفِ الَّذِي جَرَّ الموصول، وَأَنَّهُ يَكُون متعلّقه واحدًا موافقًا فِي اللفظِ والتَّقْدير والمَعْنى، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قدر: [بها] مَعَ أَنَّهَا

(١) قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

غير موجودةٍ فِي الْقُرْآن: [﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها]، وَعَلَى هَذَا فالتَّقْدير السليمُ أن يقولَ: (أنعمتها عليَّ وَعَلَى والديّ)؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يُحذَف العائد المجرور إِلَّا إذا كَانَ الموصول مجرورًا بحرفِ الجرِّ الَّذِي جُرَّ به ذلك العائدُ.

وقوله: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أَمَّا ﴿عَلَىَّ﴾ فظاهرٌ أنَّ نعمةَ اللهِ عليك تحتاجُ إِلَى شكرٍ منك، لكِن نعمة الله عَلَى والديك ما وجهُ كَونها تحتاج إِلَى شكرٍ منك؟

لِأَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، لا سيَّما فِي مثل هَذِهِ القصةِ حَيْثُ إِنَّهُ ورِث من داودَ النبوَّة وخَلَفَهُ فيها، فنعمة الله عَلَى والديك هِيَ فِي الحقيقة نعمةٌ عليك، ولهَذَا قَالَ: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

وقوله: ﴿وَٰلِدَىَّ﴾ هل هُوَ جمعٌ أو مُثَنًّى؟

مُثَنًّى مضاف، ولذلك حُذِفَتِ النونُ منه، وأصله: (والدينِ لي) لكِن حُذِفَتِ النونُ من أجلِ الإضافةِ.

وقوله: ﴿وَٰلِدَىَّ﴾ مَنْ المُراد بالوالد؟ هُوَ الوالدُ الَّذِي أنتَ وَلَدُه لِصُلْبِه أو حَتَّى الجَدّ ومَنْ عَلَا؟

نَقُول: الحقيقةُ أنَّ كَلِمة (والد) أحيانًا يدخلُ فيها الجدُّ وإنْ علا، وأحيانًا تَتَعَيَّن للوالِدِ الأَدْنَى، وَالَّذِي يُعَيِّنُ ذلك هُوَ القرائنُ: القرائن اللفظيَّة أو القرائن الحَالِيَّة، فمثلًا: «**لَا يَجُوزُ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِد فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ**»[1]. مَنِ المُرادُ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب الرجوع في الهبة، حديث رقم (٣٥٣٩)؛ والنسائي، كتاب الهبة، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده، حديث رقم (٣٦٩٠)؛ والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، حديث رقم (١٢٩٨)؛ وابن ماجه، كتاب الهبات، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه، حديث رقم (٢٣٧٧)؛ وأحمد (٢/ ٢٧) (٤٨١٠)، عن ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

بالوالدِ؟ المباشِر، أي الوالد الأدنى، فالجَدُّ لا يَلْحَق به.

والوالِدُ فِي تحريمِ النكاحِ يَشمَل الأدنى والأعلى.

والوالد فِي الميـراثِ يَشمَل الأدنى والأعلى إنْ فُقِدَ الأدنى، والمُراد الذكـورُ والإناثُ، وَلَيْسَ المُراد الجَدّ الوالد الَّذِي هُوَ الذكَر عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ، بل حَتَّى الأنثى، مثلًا الأم: الوالدة فِي الميراث تَشْمَل الأعلى إن فُقِدَ الأدنى، فصارتْ كلمة (والد) تارَةً يُرادُ بها الأدنى، وتارَةً يُراد بها الأدنى والأعلى مجتمعينِ أو منفردينِ، وتارةً يُراد بها الأدنى والأعلى لا مجتمعين، وَالَّذِي يُعَيِّن ذلك هُوَ القرائنُ اللفظيَّة أو الحاليَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هناكَ فرقٌ بين قولنا: والِدَيَّ ووالِدِيَّ؟

إِذَا قُلْنَا: (والِدَيَّ) يعني الوالد والوالدة، وأما: (والِدِيَّ) فلا يُعَبَّر به ولو عبر الْإِنْسَان به: نَقُول: هَذَا تعبيره غير سليم، لكِن قولنا: (والِدِينَا) إذا كنا جماعة فواضح؛ لأنك إذا قلتَ: (والِدِينَا) ونحن اثنان يَكُون الوالِدِين أربعة، وإذا كنا ثلاثة يَكُونوا ستة وهَكَـذَا، ولذلك بعض الإخـوان الَّذِينَ يقرؤون فِي رمضان [اللهمَّ اغْفِرْ لنا ولوالِدَيْنَا].

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز؛ لأَنَّنا لسنا عيالَ رجلٍ واحدٍ، نعم لو كنا عيالَ رجلٍ واحـدٍ ونحنُ ستَّة فنَقُول: والِدَيْنَا؛ لِأَنَّ أبانا واحدٌ وأُمَّنا واحدةٌ، لكِن إذا صار بالمسجدِ ألفُ نَفَرٍ هل والدُ كُلِّ واحدٍ مِنَّا والد للثاني؟!

فنحن لسنا بإخوةٍ، ولهَذَا لا تَصِحُّ (والِدَيْنَا) إِلَّا عَلَى سبيلِ التجوُّزِ، أي: والِدَيْ كُلِّ واحدٍ مِنَّا. ولهَذَا التعبيرُ السليمُ فِي مثل هَذَا أن تقول: اغْفِرْ لنا ولوالِدِينَا. ونحن

الْآنَ نحللها من وجهةِ اللُّغةِ العربيَّة، فالصَّواب فِي هَذَا إذا كنا جماعة (والِدِينا)؛ لِأَنَّ (والِدَيْنَا) ما تكون إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز كما تَقَدَّمَ.

قال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ معطوفة عَلَى قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني: وأَلْهِمْني أنْ أعملَ صالحًا ترضاهُ، وهنا قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أَعْمَل عَمَلًا صالحًا، والعَمَلُ الصالحُ لا يَكُون إِلَّا إذا تَضَمَّنَ شرطينِ أساسيينِ هما: الإخلاصُ والمتابَعة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، والإخلاصُ واضحٌ فِي الأَنْبياء وغيرِهم، والمتابعةُ فِي غيرِ الأَنْبياء واضحةٌ أيضًا، وَفِي الأَنْبياء قد تكونُ غيرَ واضحةٍ عندَ البعضِ، لَكِنَّها واضحةٌ؛ لِأَنَّ النَّبيّ ﷺ يَتبع شريعةً تُوحَى إليه، وهُوَ قد لا يَتبع هَذِهِ الشَّرِيعَة لكِن كما تقدَّم أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- معصومونَ مِن الإقرارِ عَلَى المَعاصِي مُطْلَقًا، فإذنِ المتابَعَةُ موجودةٌ فِي الأَنْبياء أيضًا؛ لِأَنَّهَا متابَعةٌ للشرعِ الَّذِي أُوحِيَ إليهم.

هَذَا العَمَلُ الصالحُ ما جمعَ بينَ أمرينِ: الإخلاص والمتابعة، ففي فَقْدِ الإخلاصِ يَكُونُ الشِّرْكُ، وَفِي فَقْدِ المتابعةِ يَكُونُ الابتداعُ، فالعَمَلُ الَّذِي فِيهِ شِرك مردودٌ، قَالَ الله تَعَالَى فِي الحديث القُدُسِي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

حَتَّى الرياءُ نَوْعٌ منَ الشركِ، فإذا عمِلَ الْإِنْسَان العِبادَةَ وَهُوَ مُراءٍ فيها فَهُوَ مَعَ الإثمِ مردودٌ عليه عَمَلُه.

كذلك أيضًا فِي الابتداع؛ قَالَ النَّبيّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَدٌّ»[١]، وهَذَا أعمُّ مِنَ اللفظِ الثاني: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٢] إِلَّا إذا قُلْنَا: مَن أحدثَ فِي ذاتِه وصفاتِه، إذا قُلْنَا: من أحدث فِي أمرنا ما لَيْسَ منه سواء فِي نفسِ العَمَلِ أو فِي وصفِ العَمَلِ صار موافقًا للفظِ الآخَرِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: العَمَلُ إذا لم يكنْ خالِصًا فليسَ مقبولًا، وإذا لم يكنْ صوابًا، يعني عَلَى السنَّة، فليس مقبولًا وَلَيْسَ بصالحٍ أيضًا، بل هُوَ فاسدٌ.

قوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ الرضا بمعنى القبولِ وكلمة ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ بَعْد قولِه: ﴿صَٰلِحًا﴾ هل لها معنًى؛ لِأَنَّ كُلَّ صالحٍ فَهُوَ مَرْضِيّ، فهل تكون الجملةُ حينئذٍ صفةً كاشفةً مبيِّنةً أو صفةً مقيِّدة؟

الظَّاهرُ أَنَّهَا مُبَيِّنَة، يعني أَنَّ العَمَلَ الصالحَ مرضيٌّ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن العَمَلَ قد يَكُونُ صالحًا بظاهرِهِ، ولكِنَّه غير مرضيٍّ فِي مآلِهِ أو فيما صَحِبَهُ، فقد يَعْمَل الْإِنْسَان مخلصًا لله مُتَّبِعًا لرسولِ الله ﷺ لكِن يحصل منه إعجابٌ فِي عملِه، فهَذَا الإعجابُ يَمْنَع مِن رضا اللهِ به، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]، قد يَكُونُ عَمَلًا صالحًا فِي أوَّله وَفِي نهايتِه لا يرضاه اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فالرجلُ يَتَصَدَّقُ بالصدقةِ مُخْلِصًا للهِ تَعَالَى مُتَّبِعًا لرسولِ اللهِ ﷺ فيها لَكِنَّهُ يُتْبِعُها بِمَنٍّ وأذى، فحينَئِذٍ تَبْطُلُ

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٥٠)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصدقةُ، عَلَى هَذَا التَّقْدير يَكُون قوله: ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾ صفةً مُقَيِّدةً.

فأيُّ الأَمْرينِ يَحْسُنُ بنا أنْ نَسْلُكَ فِي هَذَا وغيرِه، فيما إذا جاءت صفة، هل الأَولى أن نجعلَ الصِّفةَ مبيِّنة، يعني مفسِّرة فقط، أو أن نجعلها مقيِّدة؟

الأَولى أن تكون مقيِّدةً؛ لِأَنَّ بالتقييـدِ زيادةَ معنًى، والتفسيـر ما يعدو شيئًا خارجًا عمَّـا سبق، فكلُّ صفةٍ تأتي فِي كـلام نحو هَذَا فالأَصْل أن تكون مقيِّـدة، ولا يمكنُ أن نلجأَ إِلَى كونها مفسِّرة لمجرَّدِ بَيَان الأَمْرِ إِلَّا عندَ الضَّرورةِ، وإذا تَعَذَّر أن تكون مُقَيِّدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هَذِهِ مبيِّنة ومفسِّرة وليستْ مقيّدةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ التبسُّمِ عندَ وجودِ سببِه وجواز الضحِك أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا﴾، وهَذَا من فِعل نبيٍّ، وفِعْلُ الأَنْبِياء حُجَّة، حَتَّى وإن كَانَ غير نبينا ﷺ، إِلَّا ما وَرَدَ شَرْعُنا بنَسْخِهِ، فهَذَا لا يُعْتبَـر، والدَّلِيل عَلَى أَنَّ فعل الأَنْبِياء حُجَّة قوله تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما كَانَ عليه سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من التواضُعِ لله تَعَالَى، حَيْثُ لم يَأْخُذْهُ الغرورُ بهَذَا المُلْكِ العظيمِ، حَتَّى قَالَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى الاعترافِ بنعمةِ اللهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الِافتخارِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان ذَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه، لَكِنَّهُ لا يَقصِد بذلك الافتخارَ والعلوَّ عَلَى غيره، وقد قَالَ الله تَعَالَى للرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١]، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ؛ لِأَنَّهَا حينئذٍ تَنْقَلِب إِلَى نِقمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سِيَّما نعمة الإِسْلام فإِنَّها من أكبرِ النِّعَم عَلَى الولد، فلو مات طفلٌ وأبواهُ كافرانِ لكانَ هَذَا الطفلُ فِي الدُّنْيا فِي حُكْمِ الكافِرِينَ، وَفِي الآخِرَةِ اللهُ أَعْلَمُ بحالِهِ، ولو مات طفلٌ بينَ أبوينِ مسلمينِ لكانَ هَذَا الطفلُ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَعَلَى هَذَا فنعمةُ اللهِ عَلَى الوالدينِ ولا سيما فِي الدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، وهَذَا هُوَ وجهُ قولِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ من العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، وهَذَا اعتراف، وأبلغ من أن يَقُول الْإِنْسَان: أَوْزِعْنِي أن أشكر النعمة فقط؛ لِأَنَّ قوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جِدًّا فِي خضوعِ هَذَا الْإِنْسَان بهَذِهِ النعمة العظيمة الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، فهَذِهِ فيها دليلٌ أَنَّهُ مِن العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها، حَتَّى ولو كَانَ آدميًّا، ومن الأشعار المعروفةِ عندهم[1]:

إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْـ ـلَ مِنَ النَّاسِ ذَوُوهُ

معنى ذَوُوه: أصحابُ الفضلِ، لا يَعرِف الفضلَ إِلَّا أصحابُ الفضلِ، أَمَّا مَن لَيْسَ بأهلِ فضلٍ فإنهم يُنْكِرون الفضلَ، بل إنك لو تَفَضَّلْتَ عليهم لَرَأَوْا أن هَذَا حقٌّ واجبٌ عليك وليس لك مِنَّة، وأعظمُ شَيْء فِي هَذَا مَن يَمُنُّ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أنعمَ اللهُ به عليه كما فِي قِصَّة الأعرابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

تنبيه: إِنَّ للهِ تَعَالَى عَلَى الكافرِ نعمةً، لكِن النعمة المطلقة لا تكون إِلَّا بالإِسْلامِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- كغَيْرِهم مُفْتَقِرُونَ إِلَى

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢١٧).

توفيقِ اللهِ، وأنهم بدون توفيقِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يسيرون سيرًا يرضي الله، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لا يَصِلُ إِلَى غايتِهِ ومقصوده إِلَّا برحمةِ اللهِ فِي كُلِّ شيءٍ؛ الجنَّة وغير الجنَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، يَعْنِي: إذا لم يَرْحَمْكَ اللهُ لنْ تنالَ شيئًا أبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ العَمَلَ غيرَ الصالحِ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، بل هُوَ دائرٌ بين أمرينِ: إمَّا الإثم، وَإمَّا السلامة فقطْ، فإن صدرَ عن علمٍ فَهُوَ إثمٌ، وإنْ صدرَ عن جهلٍ فالْإِنْسَانُ سالمٌ، ولكِن لا فائدةَ له فيه، كما لو صلَّى الْإِنْسَان مثلًا صلاةً باطلةً بِحَدَثٍ، فَإِنَّهُ إنْ تَعَمَّدَ ذلكَ كَانَ آثمًا، وإن كَانَ جاهلًا لم تُفِدْهُ فِي إبراءِ الذمَّة، ويُطالَب بإعادتها، أَمَّا الأجرُ فقد يُؤْجَر عليها من أجلِ النيَّةِ والعَمَلِ الَّذِي حَصَلَ والمشقَّة، ولكِن من حيث الفائدة لا يستفيد مِنْهَا فِي إبراءِ ذِمَّته ولا تَسْقُط عنه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الغايةَ الَّتِي يَسير إليها الأَنْبِياء ومَن تَبِعَهم هُوَ رضا الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ لِأَنَّ المقصودَ من عملِ الْإِنْسَانِ الوصولُ إِلَى رضا اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل إن رضا اللهِ غايةٌ فوقَ كُلِّ شيءٍ، قَالَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي امتداحِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧١-٧٢]، يعني أكبر من كُلِّ شَيْء، وإذا حل عَلَى الْإِنْسَان رضا الله فهَذَا غاية ما يريدُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ، يعني يَسألون اللهَ تَعَالَى بالوسيلةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني أولئك الَّذِينَ يدعوهم هَؤُلَاءِ المشركون ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء:٥٧]، وكل الخلق يسألون الله تَعَالَى ويتوسلون إليه بما هُوَ جائزٌ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز التوسُّل بصفات الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فِيهِ إشكال.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَقامُ النبوَّة أعلى من مقامِ الصلاحِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّساء:٦٩]، فكيف سأل الله أنْ يُدْخِلَه فِي عبادِهِ الصالحينَ مَعَ أَنَّهُ نبيٌّ أعلى مرتبةً من مرتبةِ الصلاحِ؟

قُلْنَا: الأقربُ أَنَّ المُراد بالصلاحِ هنا الصلاحُ المطلَقُ، والصلاح المطلَق هَذَا أعلى مرتبةً، وقد قَالَ يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقَالَ اللهُ تَعَالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فالمُراد هنا الصلاحُ المطلَقُ، لا الصلاحُ الَّذِي يُذكَر مَعَ المراتبِ، فإن مقام الصلاحِ مَعَ المراتبِ دونَ مَقام النبوَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن العِبادَة مَرْتَبَةٌ شَريفةٌ عظيمةٌ يَسْأَلُها حَتَّى الأَنْبياء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ ولهَذَا يذكر الله تَعَالَى نبيه مُحَمَّدًا ﷺ بوصف العُبُودِيَّة فِي أعلى مقاماته؛ عند إنزال الْقُرْآن، وعند الدفاع عنه.. ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وقد قَالَ الشاعر يُخَاطِب[1]:

لَا تَدْعُنِـــي إِلَّا بِيَـا عَبْــدَهَا فَإِنَّـــهُ أَشْـــرَفُ أَسْمَـــائي

هَذَا -أعوذ بالله- عاشِقٌ، لِنَفرِض أنَّ اسمَه مثلًا بكرٌ يَقُول: لا تَقُلْ: يا بكرُ، قُلْ: يا عبدَ لَيلى فَإِنَّهُ أشرف أسمائي. فالعُبُودِيَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا شَكَّ أَنَّهَا أشرفُ أوصافِ الْإِنْسَانِ أن يَكُون عبدًا لله، والْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يَكُونَ عبدًا، ولا بد أن يَتَّخِذَ إلهًا، حَتَّى الشيوعيون والملحدون لَا بُدَّ أن يَكُونوا عبيدًا ولهم آلهة، لو لم يكنْ لهم آلهةٌ إِلَّا أهواؤهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»[2]، وهَؤُلَاءِ بِلَا شَكٍّ يعبدون الدينارَ والدرهم، بل إنَّ هَؤُلَاءِ الملحدين لا يسعون إِلَّا لذلك.

إِذَنْ: لَا بُدَّ لكلِّ إِنْسَانٍ أن يَكُونَ عبدًا، فإن كَانَ عبدًا للهِ فقد تحرَّر من العُبُودِيَّة حقيقةً؛ لِأَنَّ عبدَ اللهِ حرٌّ، ما يَرَى أنه عبد لشيء فِي الدُّنْيا أو فِي المخلوقاتِ، لكِن يرى خالقه هُوَ سيِّده وإلهه وَأَنَّهُ عبد لهَذَا الخالق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن شُكْرَ النعمِ مِنَ النعمِ، وهَذِهِ فائدةٌ، وقد قَالَ الشاعر[3]:

إذا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ الله نعمةً عليَّ لـه فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمرُ

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، حديث رقم (٦٠٧١).

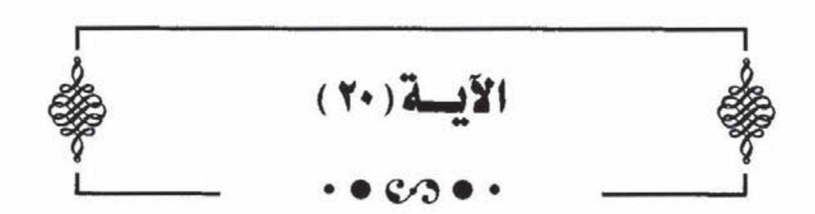
(٣) الصناعتين (ص:٢٣٢).

وهَذَا صحيح إذا وَفَّقَكَ الله للشكرِ فَهُوَ نعمةٌ يَجِب عليك أنك تشكر الله عَلَى هَذِهِ النعمةِ، فإذا شكرته صارتْ نعمةً ثانيةً توجب الشكرَ؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الْقَدَرِيَّة يَرَوْنَ أنَّ الْإِنْسَان مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، لا يَحتاجُ إِلَى مَعُونَةٍ منَ اللهِ ولا شَيْء، ولَا شَكَّ أن هَذَا قول باطلٌ؛ لِأَنَّ نِعَم هَذِهِ الآيَة تَرُدّ عليهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّهُ أضاف العَمَل إليه، فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنه يُمْكِن يعملَ غيرَ صالحٍ، فَهُوَ مختارٌ، ففيه ردٌّ عَلَى الطائفتينِ جميعًا؛ الْقَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة.

• • ۞ • •



الآية (٢٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل:٢٠].

•••

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾: ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ (أل) هَذِهِ للعهدِ أو لعمومِ الجنسِ؟

أقول: إنَّهَا للعهدِ؛ لِأَنَّهَا تعودُ عَلَى الطيرِ المذكورِ فِي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٧]، وَعَلَى هَذَا فيَكُونُ تَفَقُّدُهُ للطيرِ فِي نفسِ هَذِهِ المسيرةِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ لِيَرَى ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾ الَّذِي يرى الماءَ تحتَ الْأَرْضِ، ويَدُلُّ عليه بِنَقْرِهِ فيها، فتَسْتَخْرِجُه الشياطينُ لاحتياجِ سُلَيْمَان إليه للصلاةِ فلم يَرَهْ]، هَذَا مِن كِيسِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُول: تَفَقَّدَ الطيرَ لأجلِ أن يرى الهدهد لِيَرَى المَاء تحت الْأَرْض، وإذا رأى الأَنْهار تجري تحتَ الْأَرْض نقرَ بمنقارِه، يعني قَالَ: احفِروا هنا، ثُمَّ يأمر الشَّياطِين فتحفر هنا وكأنَّه جُيُولجيّ! من يَقُول هَذَا؟!

بل إنَّ تَفَقُّدَه الطيرَ لِأَنَّهُ كما سلفَ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منظِّمًا لجنودِه، فيَتَفَقَّد أين ذهب، ولِهَذَا ما قَالَ: تفقد الهدهدَ أو الهَدَاهِد، بل قَالَ: تَفَقَّدَ الطيرَ كلَّه؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروف أن الطيور تَسْبَحُ فِي الهواءِ، فقد يَشِذُّ مِنْهَا شيءٌ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تفقدها لأجلِ تكميلِ التنظيمِ.

ثم إنَّ دعواهم أنَّ الهدهدَ يرى الَّذِي تحت الْأَرْض؛ هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ادفِنْ حبًّا فِي الْأَرْض واجعلِ الهداهدَ تأتي إليه هل تراه أو لا تراه؟ لا تراه بالتأكيد، إذا لم ترَ الحبَّ القَريبَ كيف ترى المياهَ البعيدةَ.

المهم أن الهدهدَ مثلُ غيرِه يَنْحَجِبُ نورُ عينيه بالكثافةِ فلا يرى شيئًا.

ثم إن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَيْسَ بحاجةٍ إِلَى هَذَا، بل إن سُلَيْمان من هَذِهِ الناحيةِ كغيرِه منَ البشرِ، إن وجدَ ماءً انتفعَ به، وإن لم يجِدْ فإن الله تَعَالَى يُيَسِّر له الماء بأيِّ وسيلةٍ.

قوله: ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: ﴿مَا﴾ اسمُ اسْتِفْهامٍ، وهل الغَرَضُ منه الاستخبارُ أوْ الِاستنكارُ؟

قيل: الغرضُ الاستخبارُ، أي يسأل سؤالًا حقيقيًّا، يَقُول: أين الهدهد؟ وَقِيلَ: إنَّهُ استنكارٌ.

والظَّاهر أنَّهُ لا يَجْهَلُه؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الاسْتِفْهامِ الاستخبارُ. قَالَ بعضهم: وَفِي الآيَةِ قلبٌ، وإن التَّقْدير: (ما للهدهد لا أَراهُ) ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بل الآيَة عَلَى ترتيبها، فَهُوَ يسأل ويقول: لماذا لا أَرَى الهدهدَ؟ هل هناك مانعٌ مَنَعَنِي من رُؤْيَتِه، أو أَنَّهُ كَانَ غير موجودٍ؟ ولذلك أَضْرَبَ عنِ الأوَّلِ وقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، و﴿أَمْ﴾ هَذِهِ منقطعة و﴿أَمْ﴾ المنقطعة -كما تَقَدَّمَ- تكونُ بمعنى (بل) والهمزة، يَعْنِي: (بل أكانَ من الغائبينَ) وحينئذٍ أضربَ عن الكَلامِ الأوَّلِ وعرف أنَّه لا عِلَّة فِي بَصَرِه، وإنما العِلَّة غَيبة هَذَا الهدهدِ.

قَالَ المُفَسِّـر: [﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ فلم أَرَهُ لِغَيْبَتِه، فلَمَّـا تَحَقَّقَهَا قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾].



الآيـة (٢١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١].

•●◌●•

قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هَذِهِ الجملةُ مُؤَكَّدَة بثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ: وهي: اللامُ المُوطِّئَةُ لِلْقَسَمِ، والقَسَم قبلها مُقَدَّر، هَذَانِ اثنانِ، والثَّالثُ: النونُ.

قوله: ﴿عَذَابًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تعذيبًا]، إشارة إِلَى أن (عذابًا) اسْم مَصْدَر؛ لِأَنَّ عَذَّبَ مصدرها (تعذيب)، واسم المصدر منها: (عذاب). نظيرها: (كَلَّم) مَصْدَرُها (تكليم)، واسم المصدر مِنْهَا (كَلام)، و(سلَّم تسليمًا)، واسم المصدر (سلام).

قوله: [﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾]، ما هُوَ الشديد عَلَى رأيِ المُفَسِّر؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَتْفِ رِيشِهِ وذَنَبِهِ ورَمْيِهِ فِي الشَّمْسِ فلا يَمْتَنِع مِنَ الهَوَامِّ]، هَذَا شيءٌ عجيبٌ، فتقدير هَذَا التعذيب بهَذَا الشَّيْء عَلَى أيِّ دليل؟! وبعضهم يَقُول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَحْبِسُه مَعَ شيءٍ لَيْسَ من جِنْسِهِ، فأضع الهدهدَ مَعَ العَصَافيرِ، ويَقُولُونَ: من أشدِّ العذابِ عَلَى الحيوانِ أنْ يُحْشَرَ فِي غيرِ جِنْسِهِ، فلو وُضِعَ الآدميُّ مَعَ الجنِّ يتعذَّب، أو الجنّ مَعَ الآدميِّ يتعذبون. ولكِن هَذَا أيضًا لَيْسَ

بصحيحٍ؛ لأنَّنا نشاهد الْآنَ أن أَشْيَاء تُجْعَل مَعَ غير أجناسها ولا تتعذب، كأن يَكُون عند أحدهم مَوَاشٍ؛ بقر وغنم وإبل ومَعْز ويَكُونون دائمًا فِي حوش واحدٍ ولا يتعذبون.

فالصَّواب أن هَذَا التعذيبَ الَّذِي قاله سُلَيْمَان غيرُ معلومٍ لنا، إِنَّمَا هُوَ عذاب شديد، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يُبَيِّنْهُ ولكِن يكفي أن نعرفَ أَنَّهُ شديد، هَذِهِ واحدة.

الثَّانِيَة: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾: (أو) فِي قوله: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هَذِهِ للتنويعِ، يعني إمَّا هَذَا أو هَذَا، وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِقَطْعِ حُلْقُومِهِ]، هَذَا صحيحٌ؛ لِأَنَّ الذبحَ بقطعِ الحلقومِ والمَرِيء من عند الرقبةِ.

والثَّالثة: قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بنونٍ مُشَدَّدَةٍ مكسورةٍ أو مفتوحة، يليها نونٌ مكسورةٌ[1]]، ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ هَذِهِ واحدة أو «لَيَأْتِيَنَّنِي» والفرق بينهما أن نون الوِقاية إمَّا أن تُحْذَف وَإمَّا أن توجد، وَأَمَّا نون التَّوْكيد فموجودة، ونون التَّوْكيد هِيَ المشدَّدة، لكِنْ إنْ حذفتَ نونَ الوقايةِ كسرتَ نونَ التَّوْكيدِ: (يَأْتِيَنِّي)، وإن لم تحذف فإنها تبقى مفتوحةً: «يَأْتِيَنَّنِي».

وهَذَا أمر ثالثٌ، فتَوَعَّدَهُ سُلَيْمَان بواحد من أمرينِ إِلَّا إذا أتى بشيءٍ، أي: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ببرهانٍ بَيِّنٍ ظاهرٍ عَلَى عُذْرِهِ]، وكلمة (سلطان) تَرِدُ كثيرًا فِي الْقُرْآن، ومعناها العامُّ: هِيَ السُّلطة الَّتِي يَتَمَكَّنُ بها الْإِنْسَان من الوصولِ إِلَى غَرَضِه، فهَذَا معناها العامُّ، والسلطان تارَةً يَكُونُ المُرادُ به الدَّلِيل؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات:١٥٦]، وتارَةً يُرادُ به القُدْرَة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، وتارَةً يُرادُ به البيِّنة، مثل هَذِهِ الآيَة؛ قَالَ: ﴿لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ

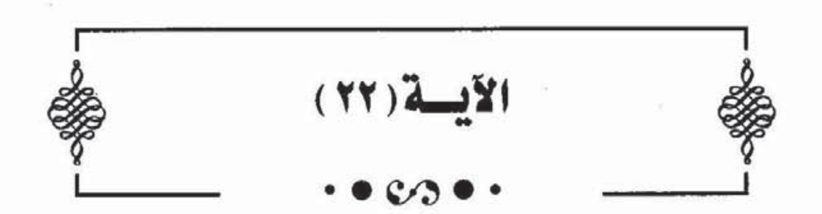
---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٤).

مُبِينٍ ﴾، يعني بيِّنة عَلَى عُذْره، والمَعْنى العامُّ للسلطانِ: السُّلْطةُ الَّتِي يَتَمَكَّنُ بها صاحِبُها مِنَ الوُصُولِ إِلَى غَرَضِهِ، سواء كَانَ ذلكَ دفاعًا عن نفسِه أو إثباتًا لأمرٍ.

وقوله: ﴿مُبِينٍ ﴾ فَسَّرَهَا المُفَسِّر ببيِّن، وَعَلَى قولِ المُفَسِّر لا تَصِحُّ بمعنى مُظْهِر، يعني لا تصح مُتَعَدِّيَة عَلَى رأيِ المُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا بأنها لازِمة، والصَّواب أَنَّهَا تَصِحُّ أيضًا مُتَعَدِّيَة، يَعْنِي: بسلطانٍ مُظْهِرٍ لِعُذْرِه، ونحن إذا فَسَّرْنَاها بِهَذَا نكون أخذنا بالتفسيرِ الَّذِي فَسَّرَهَا به المُفَسِّر وزيادة.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٢٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَمَكَثَ ﴾ بِضَمِّ الكافِ وفَتْحِها[1]]، مَكَث ومَكُث، والفاعل: الهدهدُ، ويَحتمِل أنْ يَكُونَ الفاعلُ سُلَيْمَـان، يعني: بَقِي [﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يَسِيرًا مِنَ الزمانِ وحَضَرَ لسُلَيْمان]، قوله: [وحضر لسُلَيْمان] ما الدَّلِيل عليه؟

لِأَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ غائبٌ فِي الأوَّل: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، والغائبُ ما يخاطَب إِلَّا إذا حَضَـرَ، ولكِنَّ قولَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُتَواضِعًا برفعِ رأسِـه وإرخاءِ ذَنَبِـه وجَنَاحَيْهِ]، هَذَا من الأُمُور الَّتِي لا نَدري عنها، كَأَنَّ الْمُفَسِّر كَانَ معه! ولا يمكن أن نَقُولَ هَذَا أبدًا، فلا يمكن أن نصفَ كيف جاء، إِنَّما يَكفينا أن نَقُولَ ما قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن، ونحن ذكرنا قاعدةً أَنَّ كُلّ ما سبقَ فَإِنَّهُ لا طريقَ لنا بالعلمِ به إِلَّا مِن طريقِ الوحيِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، فما لنا طريق إِلَّا الوحي؛ إِمَّا فِي الْقُرْآن أو فِي السنَّة الصَّحيحةِ.

قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: ﴿أَحَطتُ﴾ يعني يَتكَلَّم عن نفسِـهِ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٠).

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يخاطب سُلَيْمَـان، وَفِي الحقيقة أن هَذَا الهدهد قويّ، له ضُلُوع قويَّة جدًّا كما يَقُولُونَ، كيف يخاطب سُلَيْمان وله هَذَا المُلْك العظيم ويقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضًا ما قَالَ: بما لم تُحِيطوا به، ما جاء بصيغةِ التعظيمِ.

ونحن الْآنَ بَشَر ونخاطب بعض الأحيان المديرَ أو مَن فوقَه ونَقُول مثلًا: أنتم أو سيادتكم أو سعادتكم أو حضرتكم، ونضع مِيمًا أكبر من اللازم، مَعَ أننا مِثْلُهم بَشَرٌ، وكلُّ هَذِهِ فِي الحقيقة من الأُمُور الشَّكْلِيَّة الَّتِي لا تُنْبِئ عن شيءٍ ولا تَنبغي أيضًا، والصحابةُ لا يُخاطِبون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذَا الخطابِ، وَهُوَ أشرفُ عِندَهم من كُلّ بَشَرٍ، وكذلك الخلفاءُ الراشدونَ ما كانوا يُخَاطَبُون بمثلِ هَذَا.

ومن عجبٍ أن بعضَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخاطِبون بمثلِ هَذِهِ الألقابِ تجد قلوبهم تَغلِي عَلَى هَؤُلَاءِ المخاطَبيـنَ، فيَكُون هَذَا الخطابُ كأنه تَهَكُّمٌ بهم، وكان الأَولى أنْ يَتَخَاطَبَ النَّاسُ فيما بينهم خطابًا عاديًّا، فهَذَا الهدهد ما مقامُه مَعَ سُلَيْمان! جُنْدٌ من جُنْدِهِ الأضعفينَ، ومع ذلك يَقُول بهَذِهِ الصراحة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضا هُوَ الَّذِي بدأ بكلامِه، وبسرعةٍ، لكِن فِي الحقيقة أَنَّهُ فِيهِ نوعٌ من الأدبِ، ما قَالَ مثلًا: أنت جاهلٌ ولا تعرِف وأنا عرفتُ وبحثـتُ ووجدتُ شيئًا لا تـدري عنه، بل قَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، يعني لأجلِ أن يعرفَ سُلَيْمان قَدْرَه، وَأَنَّهُ لَيْسَ محيطًا بكلِّ شيءٍ، فهَذَا الهدهدُ صار أشدَّ إحاطةً منه، والإِنْسَان البشر ضعيفٌ فِي كُلّ شيءٍ، حَتَّى ما عِلمنا كيف نَقْبُرُ مَوْتَانا إِلَّا مِنَ الغُراب، وهَذَا مِمَّا يَدُلّ عَلَى أننا لَسْنَا بشيءٍ فِي الواقِعِ.

قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يُشْبِهُها قولُ إبراهيمَ لِأَبِيـهِ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، مـا قَالَ: يا أبـتِ إنك جاهلٌ، وهـذَا من اللَّطَافَة فِي الأسلوبِ.

قَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ والكلمة شديدةٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي اطَّلَعْتُ عَلَى ما لم تَطَّلِعْ عليه]، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٢-٢٣]، إِلَى أن قَالَ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، سُلَيْمَان قَبِلَ بعض الشَّيْء، والهدهد أَكَّدَ الخبرَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ومعَ ذلك قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذِهِ أيضًا صَدْمَةٌ عَلَى الهدهدِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ كَانَ مُتَيَقِّنًا ومعَ ذلك قيلَ له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لماذا قَالَ سُلَيمان هَذَا مَعَ أَنَّهُ يقولُ له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؟

لأن حقيقة الأَمْر أن كلامَ الهدهدِ فِي مَقامِ الدفاعِ عن نفسِه؛ لِأَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ بالعذابِ الشَّديدِ أو بالذبحِ أو بخبرٍ، أي: بسلطانٍ مبينٍ، فَهُوَ لَمَّا كَانَ فِي مقامِ الدفاعِ احتاجَ أنْ يَتَثَبَّت هَذَا بِبَيِّنَةٍ، وقد وقعَ مثلُ ذلك لعمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، استأذنَ عليه أبو موسى ثلاثَ مرَّاتٍ ثُمَّ انصرفَ، فلما عاتبَهُ فِي ذلك قَالَ: «هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ»[1]، قَالَ: لَتَأْتِيَنِّي بِبَيِّنَةٍ عَلَى ما تقولُ، مَعَ أَنَّ أبا مُوسَى صَحَابِيٌّ ثِقَةٌ لا يمكن أن يَتَقَوَّلَ عَلَى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكِنِ المَقام يَقتضي زيادةَ التثبُّتِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يَفْهَم منَ النصِّ ما لَيْسَ مرادًا، فلذلك طَلَبَ عمرُ من أبي موسى أنْ يأتيَ بشاهِدٍ.

هنا سُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعَ أن هَذَا الهدهدَ قد يَقَّنَ له الخبرَ يقولُ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثُمَّ أعطاهُ آيَةً وقَرينةً: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل:٢٨]، والقصَّة فِي الحقيقة عظيمةٌ جدًّا فيها فوائدُ كثيرةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ بالصرفِ وتَرْكِهِ[1]]، بالصرف (من سَبإٍ)، وتركه (مِن سَبأَ) جُرَّ بالفتحةِ لِأَنَّهُ اسْم لا يَنْصَرِف، و﴿مِن سَبَإٍ﴾ جُرَّ بالكسرةِ لِأَنَّهُ اسْم يَنصرفُ، فعَلَى أيِّ اعتبارٍ جَعَلْنَاهُ إمَّا مصروفًا أو عدمه؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قبيلة باليمنِ سُمِّيَتْ باسمِ جَدٍّ لهم باعتبارِهِ صُرِفَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: سُرعة رجوعِ الهدهدِ إِلَى سُلَيْمان، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أنَّ جنودَ سُلَيْمان يَهْتَمُّونَ بِشُؤونهم ولا يَتَأَخَّرون عن أعمالِهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن سُلَيْمان وإِنْ كَانَ قد أُعْطِيَ مُلكًا عظيمًا لم يُعْطَهُ أحدٌ فإِنَّهُ لا يُحيطُ بكلِّ شيءٍ، فَهُوَ عَلَى سَعَةِ مُلْكِهِ وقوَّته لا يحيط بكلِّ شيءٍ، فغيرُه من باب أولى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ضعفُ إدراكِ الْإِنْسَان مَهْمَا بلغَ مِنَ المُلْكِ ومن الْقُوَّة، ويدلُّ هَذَا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٢٨]؛ فإن هَذَا يُبيِّن ضعفَ الْإِنْسَان، فَهُوَ ضعيف فِي كُلّ شيءٍ؛ فِي القُوَى العقليَّة والقوى الجِسْمِيَّة وكلِّ ما يمكن أن يُوصَف بالْقُوَّة والضعفِ، فإنَّ حال الْإِنْسَان فِيهِ الضعفُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ أنْ يُخاطَب الرئيس بمثلِ هَذَا الخطابِ، فيقال مثلًا: عَلِمْتُ ما لم تعلمْ، أو فعلتُ ما لم تفعلْ، ومثله قول إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٠).

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للمتكلِّم أنْ يُؤَكِّدَ الخبـرَ للمخاطَب عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما فائدةُ تأكيدِه له وَهُوَ مَصْدَرُ الخبر؛ لِأَنَّ التأكيد إِنَّما يُفيد إذا جاءَ من طرفٍ آخرَ يَكُون شاهدًا للمخبِر، فأمَّا نفسُ المخبِر فكيف يقالُ: إن فِي تأكيدِه للخبرِ فائدة؟

فالجواب: أنَّ المقصودَ من ذلك زيادة طُمأنينة المُخْبَر؛ وله فائدةٌ، فإذا أخبركَ المخبِرُ بخبرٍ قد تقولُ له: هل أنتَ متأكِّدٌ؟ فيقول: نعم أو لا، فإذن تأكيد المُخْبِرِ لخبرِه لا يقال: إنَّهُ لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ هُوَ مصدرُ الخبرِ، بل نَقُول: فِيهِ فائدةٌ، وهي رفعُ توهُّم المُخْبِرِ فِي خَبَرِه، فيَرْفَع هَذَا التوهُّم ويَطْمَئِنّ المخاطَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن استعمـالَ ضَميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المعظَّم لَيْسَ بلازم، وَلَيْسَ من شأنِ خِطاب الأَنْبياء والسَّلَف أَنَّهُ عنـدما يَكُون الْإِنْسَان معظَّمـًا يَقُول: أتيتكم، جئتكم، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ كما هُوَ المعتاد الْآنَ عندنا.

فعندنا إذا كَانَ المخاطَب مُعَظَّمًا يقال: كما تريدون مثلًا سعادتكم أو سماحتكم أو سيادتكم أو فضيلتكم أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَيْسَ معتادًا بمَن سَبَقَ، وإنما يخاطب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، حَتَّى إن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يردُّ السلامَ عَلَى المُسَلِّم بِقَوْلِهِ: «عَلَيْكَ السَّلَامُ»[1]، فإذا سلم عليه أحد يَقُول: وعليك السلامُ، وإذا كانوا جماعة يقال: عليكم السلام، فمن عادة السلفِ أَنَّهُم يخاطبون أو يتكلمون مَعَ المخاطَب بما تَقْضِيهِ حالُه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، حديث رقم (٥٨٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل:٢٣].

•●෴●•

قوله: ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ الضَّميرُ فِي قوله: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾: ﴿هُمۡ﴾ ضَميرُ جمعٍ، ومرجِع الضَّميرِ مُفرَدٌ، لكِن لَمَّا كَانَ المُراد به القبيلة صَحَّ أن يعودَ الضَّميرُ إليه جمعًا، وقد سبقَ فِي الشرحِ قُلْنَا: إن فيها (سبأٍ وسبأً) باعتبار الجدِّ والقبيلةِ.

قوله: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: أي [هي مَلِكَة]، والغَرَضُ من تفسير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ بمَلِكَة خوفًا من أن يقالَ: إنَّهَا تملكهم ملك استرقاقٍ لا ملك تَصَرُّف.

والمَرْأَة هل يَصِحُّ أن تكون ملكةً؟

لا، ففي شَرْعِنا لا يجوزُ أن تُوَلَّى المَرْأَةُ عَلَى الرِّجال، فلا يمكن أن تكونَ ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرةً ولا يمكن أن تكون وزيرةً، ولا يمكن أن تكون قاضيةً، كُلّ هَذَا لا يجوزُ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ يقولُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن تُسَمَّى المَرْأَة أميرةً أو سيدةً؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النَّبِيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤١٦٣)، عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أميرة اسمٌ فقط، أي أَنَّهَا من عائلةِ الأُمراءِ فقط، وَأَمَّا إطلاق كلمة (سيدة) فكلمة سيدة صارتْ رخيصةً، فكل امرأةٍ تُسمَّى سيدةً، وهَذَا قد نَبَّهْنَا عليه فيما سبقَ وقُلْنَا: إن هَذَا مُتَلَقًّى من الغربِ الَّذِينَ يقدسون المَرْأَةَ وإن هَذَا ما يَنبغي، ولهَذَا حَتَّى بعض الكتَّاب تجدهم يَقُولُونَ: السيِّدة عائشة، السيدة خديجة، وهَذَا لا يَنبغي، بل يقال: المَرْأَةُ والأُنثى، وَأَمَّا السيدة فلا يَصِحُّ هَذَا الإطلاق، لاسيما وَأَنَّهُ متلقًّى من غير المُسلِمينَ.

قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِنَ المُقَوِّمات، كما قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أَمَّا وَصْفُ العَرْش الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر فلا دليلَ عليه[1].

من فوائد الآية الكريمة:

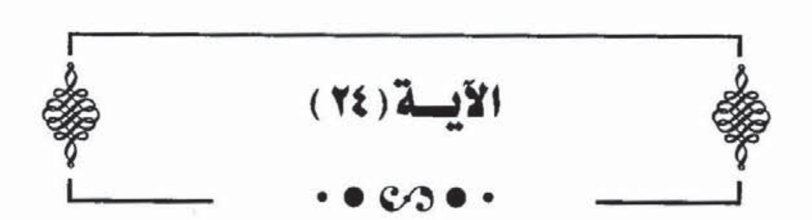
الْفَائِدَة الأُولَى: أن المَرْأَةَ لا تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: مَلِكة، بل قَالَ: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة مُلْكِ هَـذِهِ المَرْأَةِ، بل عَظَمَـة ملك هَـذِهِ المَرْأَة، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا ذاتُ أُبَّهَة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

• • ۞ • •

(١) قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ طوله ثمانون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، وارتفاعه ثلاثون ذراعًا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر والزمرد عليه سبعة أبواب على بيت باب مغلق].



الآيـة (٢٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

• ● ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ القومَ مُشْرِكُونَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الشَّمْسَ مَعبودةٌ من قديمِ الزمانِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ فِي زمنِ سُلَيْمَان، وما زالَ إِلَى الْآنَ يوجدُ مَن يَعْبُدُ الشَّمْسَ ومَن يعبد النَّارَ، ومن يعبد القمرَ، بل ومَن يعبدُ البقرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخلقَ مَفْطُورون عَلَى إنكارِ الشركِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مَعَ أنَ الهدهد لَيْسَ من العُقلاءِ، لكِن جميع الحيواناتِ بل والمخلوقات غير الحيوانات مَفْطُورة عَلَى توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المشركينَ شَرُّ البَرِيَّة كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت البهائم والجمادات تسبِّح اللهَ وتَعْرِف حقَّه، وبنو آدم هَؤُلَاءِ يشركون به، صاروا شرَّ الخَليقةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ والسَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَان يُذَمُّ عَلَى فِعْلِه أو يُمدَح عَلَى فعله؛ لِأَنَّ الهدهد ساقَ ذلك عَلَى سبيلِ الذمِّ، والغرضُ من ذِكر هَذِهِ الفائدة: الوصول إِلَى أَنَّ فعل الْإِنْسَان باختيارِهِ؛ إذ لو كَانَ مُجْبَرًا عليه لم يصِحّ أن يَكُون محَلًّا للذمِّ أو للمدحِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُجْبَر عَلَى العَمَلِ لا يُمْدَحُ عليه إن كَانَ خيرًا، ولا يُذَمّ عليه إن كَانَ سوءًا، ولكِنه هُوَ فِعْلُهُ.

ويتفرع عَلَى هَذِهِ الفائدة: إبطال قول الجبرية الذين يقولون: إن الْإِنْسَان مُجْبَر عَلَى عَمَلِه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ مجبرًا لم يكن أهلًا للثناءِ فِي الخير أو فِي الشرّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَعْمالَ السيِّئة من تزيينِ الشيطانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكيفَ يُجمَع بين هَذِهِ الآيَةِ وبين قولِهِ تَعَالَى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فأضافَ اللهُ التزيينَ إليه، وهنا أضافَهُ إِلَى الشيطانِ، وَفِي آيَةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، مبنيٌّ للمجهولِ؟

نَقُول: هَذِهِ لا تعارضُ الآياتِ الأُخْرَى، فيُضاف إِلَى الله تقديرًا، وإِلى الشيطان مباشرةً.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الأَعْمالَ السيِّئة تُزَيَّنُ للنَّاس فِي رمضان، وقد ثبتَ فِي الحديث: «أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُصَفَّدُ فِيهِ وتُغَلُّ»[1]، ومع ذلك نرى أن كثيرًا من الخَلقِ يُزَيَّن لهم سوءُ الأَعْمالِ فِي رمضانَ، فكيف الجمعُ؟

قُلْنَا: يَكُون هَذَا من تزيينِ النفسِ، فهي تُزَيِّنُ أيضًا سُوءَ الأَعْمالِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣١٠٣)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، حديث رقم (١٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن سبيلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحدٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وسُبُل الشرعِ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ولهَذَا قَالَ العُلَمَاءُ: الإِسْلامُ مِلَّة والكفرُ مِلَل، الكفر: يهودية، نَصرانيَّة، وَثَنِيَّة، مجُوسِيَّة... إِلَى آخِرِهِ، مِلَل لِأَنَّهَا سُبُل مُتَعَدِّدة، وَأَمَّا الحَقّ فسَبِيلُه واحدٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تقولونَ ذلكَ وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، فكيف الجمع؟

قُلْنَا: إذا قَيَّدْتَ فهي عَلَى حسَب ما قيّدت به، يعني يصحّ أن تقول: (سُبُل الخير)، ويَكُون المُراد بذلك الفروع الموصلة إِلَى الخيـر، فالإِسْلام كما أَنَّهُ كله سبيلٌ واحدةٌ فهُوَ كذلك -أيضًا- ذو شُعَب، وقد ثبتَ عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**»[1]، فَهُوَ ذو شُعَب، فهَذَا معنى قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

ثُمَّ إِنَّهُ مما يُزيل الإشكالَ أَنَّهَا أُضيفت إِلَى السلامِ، ولم يقل: (السبل)، فعُلِمَ أن المُرادَ بذلك فُروعُ الخيرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إذا زُيِّنَ للإِنْسَانِ سُوءُ عَمَلِه فصدَّ بذلك عنِ السبيلِ -والعياذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَإِنَّهُ لا يَهتدِي؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

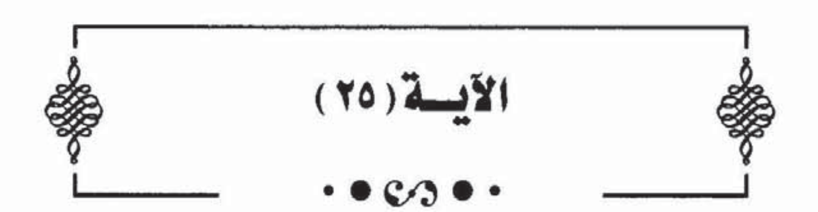
وهَذَا هُوَ البلاءُ أَنَّ الْإِنْسَان يرى القبيحَ حَسَنًا، فهَذَا لا يكادُ يُقْلِع، لكِن مَن كَانَ يرى القبيحَ قَبيحًا فَإِنَّهُ يمكنه أن يُقْلِع، ولذلك تجدون الْآنَ مثلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتعاملون بالحِيَل: الحيل الربويَّة وغير الربويَّة ومن المحرَّمات، لا يكادون يُقْلِعُون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان...، حديث رقم (٩)؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها وأدناها...، حديث رقم (٣٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عنها؛ لِأَنَّهُم يَـرَوْنَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، ولذلك لا يُقْلِعُـون، لكِنْ مَن فَعَلَ القبيـحَ وَهُوَ يَعْتَقِدُهُ قَبيـحًا، فَإِنَّهُ يُوشِـكُ أن يُقْلِـعَ عنه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَجِب أن يوصل قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ [النمل:٢٥]، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]؛ لِأَنَّهُ متعلّق به، والتَّقْدير: فهم لا يهتدون إِلَى أن يسجدوا.

• • ۞ • •



الآيـة (٢٥)

• ● ◌ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥].

• ● ◌ ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن يسجدوا له، فزِيدَتْ (لا) وأدغم فيها نون (أن)؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]، والجملة فِي محل مَفْعُول ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط إلى]، لِأَنَّ معنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]؛ لِأَن يعلم أهل الكتاب، فزيدتِ اللامُ توكيدًا، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ مثل الآيَة الَّتِي ذكرها شاهدًا لها من حيثُ زيادة (لا)، ويَرَى آخرونَ من المفسرين خلاف ما رآه الْمُفَسِّر ويَقُولُونَ: إن الجملة انتهت بِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، وإن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بمعنى: هلا يسجدوا، وَأَنَّهُ للتحضيضِ، ولكِن هَذَا التَّقْدير فِيهِ إشكال أيضًا، وَهُوَ حذف النون من الأفعال الخمسة بدون ناصب ولا جازم؛ لِأَنَّ ﴿أَلَّا﴾ لا تنصب ولا تجزم، وإذا قُلْنَا: إن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيض وهي لا تنصب ولا تَجْزِم، ونظرنا إِلَى ﴿يَسْجُدُوا﴾ وجدنا أن فيها حذف النون نصبًا أو جزمًا، وهنا لَيْسَ ناصبٌ ولا جازمٌ، فَهُوَ محل إشكال.

ولكِنَّ الجوابَ عن هَـذَا قد يَكُون سهلًا؛ لِأَنَّ حـذف نون الأفعال الخمسة

لغيرِ ناصبٍ ولا جازمٍ جائزٌ ووارد فِي اللُّغة العَربيَّة، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] لا تدخلوا (لا) نافية، لا تنصبُ ولا تجزِم، ومع ذلك حُذِفَتِ النونُ، ولم يقل: (لا تدخلونَ الجنَّة)، فالجواب عَن هَذَا أن يقال: إن نون الأفعال الخمسة قد تحذف بدون ناصب ولا جازم، لا سيما فِي مثل هَذَا التعبير ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ الدالّ عَلَى التحضيضِ، فإنَّ حذفَ النونِ هنا يُسَهِّلُه وجودُ هَذَا الحرفِ السابقِ للفعلِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إذا كانت عَلَى تقديرِ المُفَسِّر، فإن هَذِهِ الجملة بالنِّسْبَة لما قبلها كالمؤكِّدة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، هَذَا يَقتضِي أن لا يهتدوا إِلَى الحَقّ وإلى أنْ يسجدوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَأَمَّا عَلَى القَوْلِ الثاني أن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيضِ بمعنى (هلا) فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أَنَّ الهُدْهُد انتقدهم بهَذَا الفِعْل، وبيَّن أن الأَولى، بل الأوجب أن يَكُون السجود لله عَزَّوَجَلَّ، وتكون الجملة منفصِلة عما قبلها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل:٢٤]، مَعَ قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ ألا يقتضي أن مَناط الذمِّ كونهم لا يسجدون لله، وَلَيْسَ كونهم يشركون فِي السجودِ.

الجواب: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ يَجِب أن يُفردوا الله تَعَالَى بالسجودِ، فيَكُون مَناط الذمّ كونهم يخصصون الشَّمْس بالسجودِ، وكذلك أيضًا لو أشركوا بها مَعَ الله؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يزولَ الذنبُ إِلَّا إذا خُصِّصَ السجودُ لله وحدَه.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، حديث رقم (٥١٩٣)؛ والترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في إفشاء السلام، حديث رقم (٢٦٨٨)؛ وابن ماجه، كتاب المقدمة، باب في الإيمان، حديث رقم (٦٨)؛ وأحمد (٢/ ٤٧٧) (١٠١٨٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الآية قراءة ثانية: (أَلَا يا اسجدوا لله) وتكون (ألا) استفتاحية و(يا) حرف نداء، والنداء محذوف، والتَّقْدير: ألا يا قوم اسجدوا لله، أو تكون (يا) للتنبيه، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦]، وقوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النِّساء:٧٣]، فإن (يا) هَذِهِ إمَّا أن تكون للتنبيهِ؛ لِأَنَّهَا لا تدخلُ عَلَى الأفعالِ ولا عَلَى الحروفِ، وَإمَّا أن تكون للنداء والمنادى محذوف.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَصْدر بمعنى المخبوء مِنَ المطرِ والنباتِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بِأَلْسِنَتِهِم]، قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ الخَبْء بمعنى المخبوءِ؛ كما قَالَ المُفَسِّر، فَهُوَ مصدر بمعنى اسمِ المَفْعُول، والمصدرُ بمعنى اسم المَفْعُول واردٌ فِي اللُّغة العربيَّة كثيرًا، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦]، أي: محمولٍ؛ لِأَنَّ الحملَ فِعل المَرْأَة، وَأَمَّا المحمولُ فَهُوَ الجنينُ، وكذلك قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١] أي: مردود، ومنه أيضًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١]، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه وَلَيْسَ فِعْلَه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ المطرِ]، هَذَا باعتبارِ المخبوءِ فِي السَّمَاء، [والنبات]، هَذَا المخبوء فِي الْأَرْض، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ ما فِي هَذَا وما فِي هَذَا، [﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم].

ولم يُشِرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى القراءةِ الثَّانِيَةِ وهي سبعيَّة فِي قوله: «يخفون»

---

(١) سبق تخريجه.

و«يعلنون»[1]؛ فإن الَّذِي فِي المصحف قراءة عاصم: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يُخاطِب بذلك سُلَيْمَان، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا يُخْفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم]، تقييده بالألسنةِ فِيهِ نَظَرٌ، لو قَالَ: بِأَلْسِنَتِكُمْ وجَوَارِحكم؛ لِأَنَّ ما يُفْعَل بالجوارح معلَن كما أن ما يُنْطَق به باللسانِ مُعْلَن أيضًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وهَذَان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ والعلمُ بما يُبْطِنُ العبدُ وما يعلنه- لا يَكُونان لأحدٍ من المخلوقينَ، لا للشمسِ ولا لغيرِ الشَّمْسِ، وإنما ذلك خَاصّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهَذَا جَعَلَه الهدهدُ منَ الأَسْبَاب الَّتِي تَستلزِم أن تكونَ العِبادَةُ للهِ وحدَه؛ لِأَنَّهُ العَالِمُ بها.

ولا يمكن أن يُؤْتَى بوصفٍ يَستلزِم العِبادَةَ إِلَّا إذا كَانَ خاصًّا بالله؛ لِأَنَّهُ يؤتى بهَذَا الوصفِ استدلالًا عَلَى بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كَانَ مما يُمْكِن أن يَكُون للهِ لم يكنْ ذلكَ دليلًا عَلَى اختصاصِ اللهِ تَعَالَى بالعُبُودِيَّة، إذ قد يقولُ العابدُ للشيء: وهَذَا وصف أيضًا موجود فِي معبودي فأنا أعبده.

فالمهمّ أَنَّهُ لا يمكن أن تُقامَ الحُجَّة إِلَّا بدليلٍ خَاصّ بالمحتجِّ له، يعني أَنَّهُ لا يُمْكِن أن تُقِيمَ الحجَّةَ بأن العِبادَةَ للهِ وحدَه إِلَّا بوصفٍ خَاصٍّ بالله؛ لأنك لو احتججتَ بوصفٍ يَكُون لله ولغيره لكان العابدُ لغيرِ اللهِ يَقُول: وهَذَا الوصف أيضًا ممكن فِي معبودي فلا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ مما يختص به اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادةِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَستطيعُ ذلك إِلَّا الله، لا أحد يستطيعُ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

أنْ يُخرِج المخبوءَ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض إِلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا كَانَ كذلك فيجب أن تكون العِبادَة له وحدَه؛ لِأَنَّهُ الربُّ وحدَه، فيَكُون المعبود وحدَه كذلك.

الفَائِدَتان الثَّانِيَة والثَّالثة: سَعَـةُ عِلْم اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، واستدلَّ به الشَّافِعيُّ عَلَى ثُبُوتِ القَدَرِ، فثبوت علمِ اللهِ لأفعالِ العبدِ دليلٌ عَلَى تقديرِهِ لها.

ولهَذَا قَالَ الشَّافِعيّ فِي الْقَدَرِيَّة: «نَاظِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فإنْ أَقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أَنْكَرُوه كَفَروا»[1]. وهَذَا صحيحٌ؛ لأَنَّنا نَقُول: إذا كنتم تُقِرُّونَ بأن الله عالمٌ بأفعالِ الخلقِ، فهل وَقَعَتْ هَذِهِ الأفعالُ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ، أو عَلَى خلاف عِلمه؟

عَلَى حسَـبِ عِلمه؛ لأنكم تُقِرُّونَ أَنَّهُ يعلمها، إذن فقد وَقَعَتْ عَلَى حَسَـبِ عِلْمِهِ، فإذا كانت واقعة عَلَى حسبِ عِلْمِه، لَزِمَ أنْ تكونَ بتقديرِه، وإلَّا لكان يمكن أن تقعَ عَلَى خلافِ علمه، إذا كانت من تقديرِ العبدِ واستقلالِ العبدِ، فَإِنَّهُ لا يَلْزَمُ أنْ تقعَ عَلَى حَسَبِ عِلْمِه، وَأَمَّا إذا أنكروا العلمَ فإنهم يكفرون؛ لِأَنَّ إنكارَ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُفرٌ، وعندنا أيضًا حَتَّى إنكار تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفرٌ؛ لِأَنَّ الآيَاتِ والأحاديثَ صـريحة بأن الله تَعَالَى مُقدِّر لأفعالِ العبدِ، فإنكارها تكذيـبٌ للقرآنِ والسنَّةِ، وهَذَا هُوَ الكفرُ.

ولكِن الشَّافِعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُلْزِمَهم بأمرٍ مُتَّفَقٍ عليه، وَهُوَ أن إنكار علم الله كفرٌ، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، نَستفيد مِنْه بناءً عَلَى تقدير الشَّافِعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ إثبات تقديرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأفعال العبدِ.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٣٠٢)، جامع العلوم والحكم (ص:٢٧).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعة: تَحذيرُ العَبْدِ مِنَ المُخالفةِ عَلَنًا أو سِرًّا، كيف ذلك؟ لأنك إذا عَلِمتَ بِهَذَا الأَمْرِ، بأن الله يعلمُ ما تُخْفِي وما تُعْلِن، يَلْزَمُ مِن ذلكَ أن لا تُخَالِفَه، لا تقلْ: سأفعلُ هَذَا المحرَّم لِأَنَّ الله لا يَدْرِي، أو سأترك هَذَا الواجبَ لِأَنَّ الله لا يدري، بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلمُ، والْإِنْسَان لو عَلِمَ أن المعظَّم عندَه يعلم بأفعالِه، لَتَرَكَ ما لا يُرْضِيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أن أباك أو الرجلَ الَّذِي تحترمه يعلم بما تفعل، فهل تفعل ما يخالف رضاه؟ لا تفعل، لا سيما إذا كَانَ محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كَانَ كذلك فالربُّ من باب أَولى.

ولهَذَا ينبغي لكَ كلَّما دَعَتْكَ نفسُك إِلَى معصيةٍ، بل إِلَى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يَجِب عليك أن تتذكرَ هَذَا الأَمْرَ، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَم مخالفتَكَ، فيَلْزَم من هَذَا أن تَرْتَدِعَ، ولهَذَا جاء فِي الحديث وإن كَانَ فِيهِ نظرٌ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1]؛ لأنك إذا عَلِمْتَ هَذَا العلمَ أوجبَ لك الاستقامةَ والثباتَ عَلَى الأَمْرِ.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، فيها قِراءتان[2]: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ و«ما يخفون وما يعلنون»، أَمَّا عَلَى قراءة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ [النمل:٢٥]، عَلَى حَسَبِ تفسيرِ المُفَسِّر فالمناسبُ: ما يخفون وما يعلنون، وَأَمَّا إن كَانَ عَلَى قراءة الكِسائي: «أَلَا يا اسجدوا»، وهي قراءة سَبْعِيَّة[3]، فتناسب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّ اسجدوا فعلُ أمرٍ، وفعل الأَمْر للمُخاطَب، فيَقْتَضي أن الأفعال الَّتِي

---

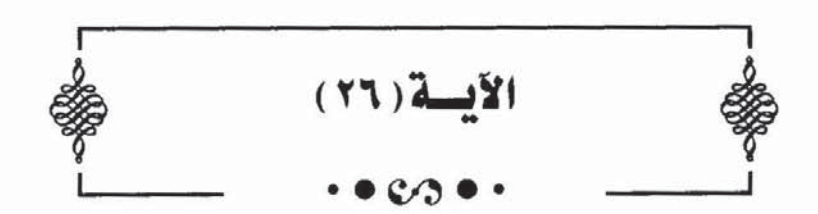
(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٧٩٦)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

(٣) المصدر السابق نفس الموضع، والسبعة في القراءات (ص:٤٨٠).

بعده تكون للمخاطَب أيضًا، يَعْنِي: ألا يا قوم اسجدوا، وَهُوَ هنا لا يخاطب سُلَيْمان؛ لِأَنَّ سُلَيْمَان يسجد لله، ولكِنه لقوَّةِ استحضارِهِ ما كانت عليه ملكة سبأ خاطبهم بِقَوْلِهِ: (أَلَا يا اسجدوا).

• ● ● •



الآية (٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ [النمل:٢٦].

• • ✿ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [استئناف جملة ثنائية مُشْتَمِل عَلَى عرشِ الرحمنِ فِي مقابلةِ عرش بِلْقِيس، وبينهما بَونٌ عظيمٌ].

يَقُول هَذَا الهدهد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهَذَا كلمة التَّوحيدِ، والمُفَسِّر يَقُول: إِنَّهَا جملةٌ استئنافيةٌ للثناءِ عَلَى اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بما لا يَكُونُ لغيرِه، فالأوَّل: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ هَذَا يَتَعَلَّق بتوحيدِ الرُّبُوبِيَّة، والثاني: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيدِ الأُلُوهِيَّة، أي: لا معبودَ بحقٍّ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ -إذ هناك معبودات سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بغير حقٍّ- فإذن أثنى عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصفة الرُّبُوبِيَّة وبصفة الأُلُوهِيَّة، وربما نَقُولُ أيضًا: وبصفةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ توحيد الرُّبُوبِيَّة مُسْتَلْزِم للأسماءِ والصِّفَاتِ؛ إذ إنَّ التصرُّف فِي الخلقِ والتدبير والعِلم كُلّ هَذَا من الصِّفَات.

قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: ﴿رَبُّ﴾ بمعنى صاحبِ العَرْش العظيمِ، أي: صاحبه، كما تقول: ربُّ الدابَّة، أي: صاحب الدابَّة، وقوله: ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ (أل) هَذِهِ للعهدِ الذِّهنيِّ، أي: العَرْش المعهود فِي أذهانِ الخَلْق العظيم، بخِلاف عرشِ بِلْقِيس، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وهنا قَالَ: ﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بـ(أل)،

والتعبير ظاهرٌ جدًّا فِي الفرقِ بينهما؛ لِأَنَّ (عرش) نكِرة و﴿ٱلْعَرْشِ﴾ معرفة، فدلَّ ذلك عَلَى أن هَذَا العَرْش عرشٌ عظيمٌ معلومٌ مفهومٌ فِي الأذهانِ، بخِلاف الأوَّل.

ويَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه قاله فِي مقابلةِ عَرْش بلقيس، نعم هَذَا صحيحٌ، فواضحٌ أَنَّهُ قَالَه لأجلِ أنْ يُبيِّن أن صاحبَ العَرْشِ العظيم هُوَ المستحِقّ لِأَنْ يَكُونَ مالكًا، وَأَمَّا هَذِهِ المَلِكَة فإنَّ لها عرشًا وَلَيْسَ لها العَرْش.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: إثبات عرشِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، والعَرْش هُوَ أعلى المخلوقاتِ، وَهُوَ غير الكرسيّ، وَلَيْسَ هُوَ المُلك كما قاله مُنْكِرو العلوّ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: المُراد بالعَرْش المُلك، فيَقُولُونَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أي: استولَى عَلَى الملك، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْس بصحيحٍ، والعَرْش معروفٌ عند العربِ، وَفِي اللُّغة العَربِيَّة: بأنه سَرير المَلِك الخاص به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثباتُ انفرادِ اللهِ تَعَالَى بالألُوهيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل:٢٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا النفيُ أو الحصرُ حقيقيّ أو إضافيّ؟

إِذَا قُلْنَا: حقيقيّ، فهَذَا يَلْزَمُ منه أن يَكُون الإله لَيْسَ بمعنى معبود، لزِم أن يَكُون الحصر إضافيًّا، إذ هناك معبود سِوَى الله وهي الأصنامُ، فيَصِير معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍّ إِلَّا اللهُ، وحينَئذٍ يَكُونُ الحَصْرُ إضافيًّا، وإنْ جَعَلْنَاهُ حَقِيقِيًّا فإنَّنا يُمْكِنُ أن نَقُولَ: إن المُرادَ بالإلهِ فِي قولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، الإلهُ المستحِقُّ، يَعْنِي: لا إلهَ مُسْتَحِقّ إِلَّا الله، ولكِن هَذَا التَّقْدير يعودُ عَلَى الأوَّل.

واعلَمْ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمَّى الأصنام آلهةً؛ سَمَّاها آلهة فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود:١٠١]، فأثبتَ أَنَّهَا آلهة، وَفِي آياتٍ أُخْرَى نفى أن تكون آلهةً فقال تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠]، والجمعُ بينهما ظاهرٌ؛ أنَّ إثباتَ كونها آلهةً باعتبار هَؤُلَاءِ العابدينَ؛ لِأَنَّهُم يَعتقِدون أَنَّهَا آلهة، ونفي أن تكون آلهة وإنما هِيَ أسماء باعتبار حقيقة الأَمْرِ أَنَّهَا ليستْ بآلهةٍ تَسْتَحِقّ أن تُعْبَد؛ ولهَذَا نُفي أن تكون آلهةً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَ لها الحَقّ فِي أن تُعْبَد.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الحصر الحقيقيّ والإضافيّ؟

قُلْنَا: مثال الحصر الحقيقيِّ والإضافيِّ إذا قُلْنَا: إن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، أي لا معبود بحق إِلَّا الله صار حصرًا إضافيًّا، باعتبار أن يَكُون بحق، أمَّا بحق وباطل فيوجد آلهة سِوَى الله، وحينَئذٍ يَكُون الحصرُ إضافيًّا، يَعْنِي بالإضافةِ إِلَى الإلهِ الحقّ، فإذا قُلْنَا: حقيقيٌّ فَهُوَ باعتبارِ الواقعِ أَنَّهُ لا يوجد إله إِلَّا الله، وأنّ هَذِهِ الآلهة هِيَ مجرد أسماء، فيَكُون الحصر حقيقيًّا، أي: باعتبار الحقيقة والواقع، ومؤداهما واحد؛ ولهَذَا أثبت الله الآلهةَ مرة ونفاها مرة أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثبات الرُّبُوبِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ﴾، ورب بمعنى: خالق أو بمعنى صاحب؟

بمعنى خالق، وَهُوَ أيضًا مختصٌّ به، إذ إن العَرْش لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه.

• • ۞ • •



الآية (٢٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧].

•●○●•

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ يقوله سُلَيْمَان، والسينُ -كما تقدَّم- تَدُلّ عَلَى التحقيقِ مَعَ التراخِي، ﴿سَنَنظُرُ﴾ معناه أنَّ نَظَرَنا هَذَا محقق لَكِنَّهُ سيَكُونُ له مُقَدِّمات، فهي تدلُّ عَلَى التأكيدِ.

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يَقْبَلْ كلامَه من أوَّل الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ أن يَكُونَ أتى بذلكَ دفاعًا عن نفسِهِ، ونظيرُ هَذَا ما سَلَكَهُ عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ حينَ استأذنَ ثلاثًا وانصرفَ ثُمَّ حَدَّثَه أن النَّبِيّ ﷺ أمر بذلكَ، فطلبَ منهم أنْ يَشْهَدُوا له، فالتُّهَم أو عَدَم الثِّقَة بالقَوْل لها أَسْباب، مِن جُمْلَتِها أنْ يَكُونَ المُخْبِر عَلَى هَذَا الوصفِ، يَتَضَمَّن إِخْبَارُه دفاعًا عن نفسِه، فهنا مهما كَانَ منَ الثقةِ تجدُ أَنَّكَ تَتَرَدَّد فِي قَبُولِ هَذَا الخَبَرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أَخْبَرْتَنَا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: منْ هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كَذَبْتَ فيه].

قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الأَوَّل صَريحٌ أَنَّهُ فِعل، وهنا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كذبتَ)؛ لِأَنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى الوصفِ الدائمِ، فَهُوَ أبلغ من قوله: [أم كذبتَ]؛ لِأَنَّ

[أَمْ كَذَبْتَ] فِعلٌ، والفِعْل قد يَكُونُ مرَّة لكِن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذَا وصفٌ يَدُلّ عَلَى استمرارِ الكذِبِ فيه، هَذَا ما قَرَّرَهُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعندي: أن فِي تعبير سُلَيْمان للهدهد لَبَاقَة؛ لِأَنَّ مُصارَحَتَه ومقابلته بِقَوْلِهِ: [أَمْ كَذَبْتَ] أَشَدُّ وقعًا من قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يعني أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أهونُ مِمَّا لو قَالَ: أم كذبت، فهي فِي الحقيقة من جِهَةٍ أشدّ، وهَذَا بالنظر إِلَى أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وصفٌ لازِمٌ، ومن جهة المخاطبةِ أهونُ من قولِه: أَمْ كَذَبْتَ، فهَذَا وجهُ الاختلافِ بين قولِه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقول الْمُفَسِّر: [أم كذبتَ]، وكلُّ قولٍ له وجهٌ، لا تعارضَ بينهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَحِقُّ لسُلَيْمَان أنْ يَصِفَ الهدهدَ بمجرَّدِ هَذَا الفِعْل وصفًا مُطْلَقًا بالكذِبِ؟

فالجواب: المُرادُ بالكاذبينَ الَّذِينَ مِن دَأْبِهِمُ الكذِبُ، فكون هَذَا من الكاذبينَ إمَّا أَنَّهُ من دأبِهِ الكذِب أو فِي جُمْلَتِهم، وقد يكذِب مرَّةً واحدةً، وسُلَيْمان أيضًا ما وَصَفَهُ؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ مقابل قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فلا يُعلم هل يَكُونُ مُتَّصِفًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ أو بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فما وَصَفَهُ، بل هُوَ مُتَرَدِّدٌ، يُنْظَر، لكِنْ لو ثَبَتَ الكذبُ فهل يَحِقُّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ؟

الجواب: لا يَحِقّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ المتَّصِفين بها دائمًا، ولكِن -كما تَقدَّمَ- هَذَا من بابِ التلطُّف فِي الخِطاب، فكونه من الكاذبينَ هَذَا أشدُّ إذا كَانَ وَصْفه الكَذِب، وكونه لم يُخاطِبْه وقال: أمْ كذبتَ يَكُون أهونَ، مثل قول إبراهيم ﷺ للضيوف: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]، لم يقل: أُنْكِرُكُم، لا أَعْرِفكم، بل قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وهَذَا من بابِ التلطُّفِ فِي التعبيرِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثم دَلَّهُمْ عَلَى الماءِ فَاسْتَخْرِجَ وَارْتَوَوْا وَتَوَضَّئُوا وَصَلَّوْا، ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمانُ كِتابًا صُورَتُه: مِن عَبْدِ اللهِ سُلَيْمان بنِ داودَ إِلَى بِلْقِيس مَلِكَةِ سَبَأ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، السلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أَمَّا بعدُ؛ فلا ﴿تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]. ثُمَّ طَبَعَه بالمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتمِه، ثُمَّ قَالَ للهُدْهُد: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾].

كُلّ هَـذَا مِنَ الحِكايات الَّتِي لا دليـلَ عليها فِي الْقُـرْآنِ، فكونه دَلَّهم عَلَى الماء فاستخرجوه وارْتَوَوْا وتوضئوا وصَلَّوْا أيضًا أين هَذَا فِي الْقُرْآن؟! لَكِنَّنَا نَقُول: هَذَا لا دليلَ عليه، ولا يجوزُ لنا أنْ نَعْتَقِدَهُ، ولا أن نُكَذِّبه، هَذَا إذا صحَّ عن بني إسرائيلَ؛ لأنه تُوجَد آفةٌ أيضًا وهي أَنَّهُ يوجد بيننا وبينَ بني إسرائيلَ طَريق مِمَّن رَوَاهُ عن بني إسـرائيل، فإذا صحَّ عن بني إسـرائيلَ وأنهم مِمَّا حَدَّثُوا به هَذِهِ الأُمَّة نَقول فيه: إِنَّهُ لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْء يُعارِضُ كِتَابَنا، ولا فِي كتابنا ما يُؤَيِّده، وإِلَّا لو كَانَ فِي كتابنا ما يؤيده قَبِلْنَاه، ولو كَانَ فِي كتابنا ما يُعارِضه رَدَدْنَاهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أَنَّهُ يَنبغي التثبُّت فِي الخبـر، لا سيمـا عند قيام الشُّبُهات، وما هِيَ الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قَالَ ذلكَ مُدافعةً، وإن كَانَ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، لكِن لَمَّا كَانَ هَذَا مَقامَ دفاعٍ، فَإِنَّهُ يَنبغي أن يَتَثَبَّتَ الإِنْسَانُ أكثرَ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

وهَذَا نظيرُ ما وقع لأميرِ المُؤْمِنِينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ مَعَ أَبي مُوسَى الأشعريِّ؛ حَيْثُ استأذن عليه ثلاثًا وانصرفَ، فلَمَّا عاتبَهُ بَعْد ذلكَ قَالَ: هَكَذَا أَمَرَنا رسولُ اللهِ

ﷺ. فقال: هاتِ مَن يَشْهَدُ لكَ. فشَهِد له مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ[1]، فمِثل هَذِهِ الحالِ وإنْ كَانَ الخبرُ مُتيقَّنًا لكِن لا مانعَ أنْ يَتَثَبَّتَ الْإِنْسَان فِي ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ لَبِقًا فِي تعبيرِه، حَتَّى لغيرِ الآدَمِيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ [النمل:٢٧]، فصارحَهُ هنا بلفظِ الصدقِ؛ لِأَنَّ الصدقَ صفةٌ محبوبةٌ محمودةٌ، وَفِي الكذِب ما قَالَ: (أنْ كذبتَ) بل قَالَ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، فتحاشَى أنْ يُصارِحَه بوصفِ الكذبِ، مَعَ ما فِي ذلكَ بالنِّسْبَةِ للقرآنِ الكريمِ، فِي مراعاةِ الفواصلِ فِي قولِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]؛ لِأَنَّ فِيهِ مراعاةً للفواصلِ.

وقول المُفَسِّر: إن هَذَا أبلغ من [أن كذبت] هَذَا له وجهٌ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، أي: من المتَّصفينَ بالكذِبِ دائمًا، يَعْنِي: ممَّن وَصْفُه الكذِبُ، وَلَيْسَ مَن كَذَبَ مرةً واحدةً كمَن كَانَ الكذِبُ وَصفًا له، فيكُون العدولُ هنا عن: [أنْ كذبتَ] له ناحيتانِ:

الناحية الأولى: أَنَّهُ ألطفُ منَ التصريحِ بالمخاطَبَةِ بالكذِبِ.

الناحية الأُخْرَى: هِيَ أشدُّ؛ حَيْثُ إِنَّهَا تدلُّ عَلَى اتِّصافِ المخاطَبِ بالكذبِ، لا أَنَّهُ وقع منه مرَّةً واحدةً، فالمُفَسِّر راعَى وجهًا وتركَ وجهًا آخرَ، والصَّوابُ أَنَّهُ مراعى فيها الوجهانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثة: فِي قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ جواز تعظيم الْإِنْسَانِ إذا كَانَ أهلًا لذلك، عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكُونَ سُلَيْمَانُ أرادَ أَنَّهُ يَنْظُرُ ذلك بمَن يستعين به من جنوده،

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

لا أَنَّهُ يريد أن يباشر هُوَ بنفسِهِ ذلك، فقوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ للجماعةِ، فهل هِيَ جماعةٌ حقيقةً أو من باب التعظيمِ؟

نَقُول: هَذَا فِيهِ احتمال: فإن كَانَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أراد تعظيمَ نفسِهِ، فَهُوَ أهلٌ لذلك؛ لِأَنَّهُ ملك ورسول، وإلا فَإِنَّهُ: يريد سننظر بجنودنا وأعواننا أصدقتَ أمْ كنتَ من الكاذبينَ، وإنْ كَانَ لا يريد أن يباشره بنفسه، فالملك والوزير والأمير ومن أشبههم إذا قَالُوا: سنفعل كذا، فإما أن يَكُون ذلك بأنفسهم ويَكُون ذلك تعظيمًا لأنفسهم، أو بواسطة الجنودِ والأعوانِ ويَكُون هَذَا مراعاةً للجميعِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُمَّ قَالَ لِلْهُدْهُدِ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا﴾ يقتضي أَنَّهُ صَدَّقَه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ صَدَّقَهُ فِي ذلك، ولهَـذَا كتب لهم، أو يقال: هَذَا من جملةِ الاختبارِ، يعني أَنَّهُ إذا كَانَ كاذبًا فسيقول: ما وجدتُ أحدًا، مثلًا، فيكُون هَذَا من جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ عَلَى قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؟ وقد يقال: إن فِي قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ تقديرًا: فنظرَ وتحَقَّقَ صِدْقَه فأعطاه الكتابَ، واللهُ أَعْلَمُ بما جَرَى؛ فإمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الكتابُ من جملة اختبارِهِ، مثلما لو أخبرك إِنْسَانٌ بخبرٍ تقولُ له مثلًا: اذهَبْ وائتِ لي مِنه ذِكرًا، أيضًا لو قَالَ مثلًا: تباع السلعةُ الفلانيَّة الْآنَ فِي السوقِ قلتَ له: خذِ اذهَبْ وائتِ لي مِنْهَا شيئًا، من أجلِ أَنْ أختبرَ هل هُوَ صحيحٌ أو لا، وإن كَانَ ظاهرُ فِعْلِي لَمَّا أَعْطَيْتُه الفلوسَ لِيَشْتَرِيَ أَنَّني صَدَّقْتُه، لكِنْ قد يَكُونُ هَذَا من وسائلِ الاختبارِ.

فالحاصل: إذا كَانَ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقَّقَ هَذَا الأَمْرَ ثُمَّ أرسلَ بالكتابِ

فالأَمْرُ ظاهرٌ، ولكِن لَيْسَ فِي الْقُرْآن ما يَدُلّ عَلَى ذلكَ، فنَقُول: إن إعطاءَهُ الكتابَ من جملةِ الوسائلِ الَّتِي تُبَيِّن صِدْقَهُ.

وقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ أشارَ إليه بالتعيينِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمَـان يكتب لهم ولغيرهم، ولكِنه عَيَّنَ الكتابَ الَّذِي كَتَبَهُ لهم.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بِلْقِيس وقَوْمِها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ انْصَـرِفْ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقِفْ قريبًا ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَرُدُّون مِنَ الجوابِ، فأَخَذَهُ وأتاها وحولها جُنْدُها وألقاهُ فِي حَجْرِها، فلَمَّا رَأَتْهُ ارْتَعَدَتْ وخَضَعَتْ خَوْفًا، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى ما فِيهِ، ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لأشرافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾].

ذهب به الهدهدُ فألقاهُ إليهم، أي: طَرَحَه بين أيديهم، وتولَّى عنهم كما أرشدَهُ سُلَيْمان، ولكِنَّ هَذَا التولِّيَ لَيْسَ بعيدًا، بدليل قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ فإن قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَدُلّ عَلَى أنَّ هَذَا التولِّيَ يكُون قريبًا منهم، وفيه من الفوائد ما يأتي إنْ شاء اللهُ. ثُمَّ أخذتِ الكتابَ وقَرَأَتْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

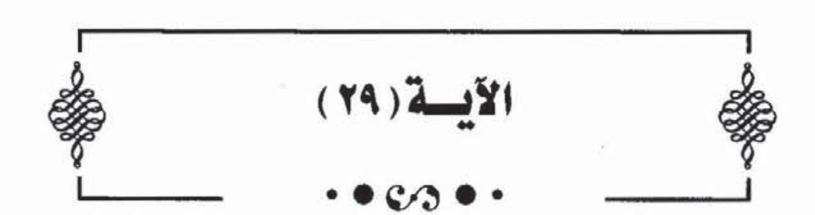
الفائدة الأولى: أن الحيوانات تَعْقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها منَ الأَمْرِ والنهيِ والاختبارِ والفحصِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱذْهَب﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿تَوَلَّ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَانْظُرْ﴾، كُلّ هَذِهِ أوامر للهدهد؛ ممَّا يَدُلّ عَلَى أن هَذِهِ الحيوانات تَعقِل، ولكِن لَيْسَ معنى قولنا: إنَّهَا تعقل أن تكون عاقلةً لكل أحـدٍ، صحيح أَنَّهَا تعقل عقلًا محدودًا بالنِّسْبَة لعامَّة النَّاس، ولهَذَا تُزجَر البهيمة فتنزجر وتدعوها فتُقْبِل، ولكِن لَيْسَ هَذَا كمثلِ تسخيرها لسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإن تسخيرها لسُلَيْمان أَنَّهَا تَنزِل منه مَنْزِلَةَ الْإِنْسَانِ العاقلِ الفاهِمِ، من كُلّ وجهٍ.

الفائدةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي تَحسُّس الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلكَ، وهَذَا ما يُسَمَّى بالمتابعةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، فَإِنَّهُ إذا تولى وجعل يَنْظُرُ لَا بُدَّ أن تُبيَّنَ له الأخبارُ؛ فلو أَنَّهُ ما تولى عنهم فألقاه وبقِيَ فقد لا يتكلمون بالأَشْيَاء الَّتِي يتكلمون بها إذا كَانَ حاضرًا لديهم، لكِن إذا تولَّى عنهم فحينئذٍ وجدوا لأنفسهم مجالًا للكلام حَسَب ما يريدون، وهَذَا من السياق.

فعندما تعمل عملًا فلا بد أن تَتَحسَّس الأخبارَ، فلا تباشر هَذَا العَمَل مباشرةً لِأَنَّهُ لا يأتِي عَلَى المطلوب، ولا تُعْرِض عنه إعراضًا كامِلًا لأنَّ معنى ذلك أنك ما تابعتَ ولا اهتممتَ بالأَمْرِ، فينبغي على الْإِنْسَان أنه كلَّما عَمِلَ عملًا أن يَكُون متابعًا له وأن يتحسَّس.

مثلًا افرض أنك أمرت أهلك بأمر، وأنت راعٍ عليهم، فلاحظه ولا تتركه، ولكِن لا تلاحظه وأنت حاضر مَعَ المباشرة؛ لِأَنَّهُم فِي هَذِهِ الحال سوف ينفذونه، لكِن تلاحظه وأنت بعيد حَتَّى يتبين لك هل نفذوا أم لم ينفذوا، فهَذِهِ من السَّياسَة الَّتِي ينبغي سُلُوكُها؛ لأجل أن يعرف الْإِنْسَان مدى تَقَبُّل الموجَّه إليه الأَمْر من عَدَمِه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، وهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ.

••۞••



الآية (٢٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لِأَشْرَافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾]، و﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ كما بَيَّن الْمُفَسِّر همُ الأشراف، وهنا نادتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ إشارة إِلَى عُلُوّ مَرْتبتِهِمْ فِي دَوْلَتِهِم؛ لِأَنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ما تكون إِلَّا للبعيدِ، ما قالتْ: يا مَلأُ، بل قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾.

ثم قَالَ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ]، (الملأُ إِني) [وتسهيل الثَّانيةِ بِقَلْبِها واوًا مكسورةً]، (يَا أَيُّها المَلأُ وِنِّي)؛ لِأَنَّهُ إذا جاءتِ الهمزةُ بعدَ الضمِّ جازَ أَنْ تُقْلَبَ واوًا فِي اللُّغةِ العَرِبيَّةِ، ومنه قولُ كَثيرٍ مِنَ المؤذِّنينَ: اللهُ وَكبر؛ لِأَنَّهُ يجوز: اللهُ أكبرُ ويجوزُ: اللهُ وَكْبر، فالهمزة إذا وقعتْ بَعْد ضمٍّ يجوزُ أن تُسَهَّل إِلَى واوٍ عَلَى حسَب الحال إن كَانَ يَقْتَضِي الكسرَ كُسِرَتْ أو يَقتضي الضمَّ ضُمَّت أو الفتح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ مَخْتُوم]، يعني فَسَّرَ الكريمَ بالمختومِ؛ لأنَّ خَتْمَه دليلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِه، فالكتبُ والرسائلُ المختومةُ يُعْتَنَى بها، وحتى الْآنَ إذا كَانَ الشَّيْء مهمًّا تَجِده يُخْتَم بالشَّمْع ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِئَلَّا يُزَوَّر، ولكِنَّ تفسيرَ الكريم بالمختومِ لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الختمَ دليلٌ عَلَى كَرَمِه، وَلَيْسَ هُوَ معنى كَرَمه، فالكريمُ معناه: المتضمِّن للمعاني العظيمةِ المُؤَثِّرة.

وفي قولها: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾ ما قالتْ: أَلْقَى الهدهدُ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّهُ مَرَّ ثُمَّ حَذَفه

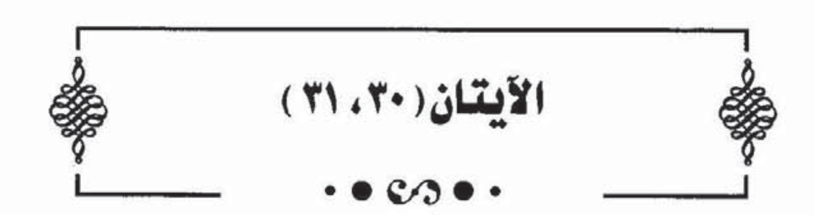
عليها، وَلَيْسَ معناهُ أَنَّهُ جاءَ ووقفَ بين يَدَيْها وأعطاها الكتابَ. ولربما يَكُون أبلغ فِي الهَيبة أَنَّهُ يعطيها الكتابَ وَهُوَ مارٌّ، بخلافِ ما لو وَقَعَ بين يَدَيها، فَإِنَّهُ لا يَكُون هَيْبة، عَلَى أَنَّهُ لو وَقَعَ بين يديها فمُقتضى كونه هدهدًا أن تُمْسِكَه، ولكِنه ألقاه إلقاءً.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ كرمَ كُلّ شيءٍ بِحَسَبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بَذْلُه بِسَخَاءٍ، والكرمُ أيضًا بالمالِ يُطْلَق عَلَى الجيِّد منه، كما قَالَ النَّبيّ ﷺ: «**وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»[1]، وكذلك أيضًا يُوصَف بالكرمِ ما يَتَضَمَّن الشَّيْء المهم؛ لِمَا فِي هَذَا الوصف فِي كتابِ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيتان (٣٠، ٣١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الكتاب ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ولم تَنْسُبه إِلَى أبيه؛ لِأَنَّهُ كَانَ معروفًا ومعلومًا عندهم أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسول أعطاه الله تَعَالَى منَ المُلك ما لم يُعْطِهِ غيرَه، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مَضْمُونه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾]، لَيْسَ فيه: (السلام عَلَى مَنِ اتبعَ الهدى)، ولا: (أَمَّا بعدُ) كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويمكن أن يَكُون من أخبار بني إسرائيلَ أو عَلَى العادةِ فِي الكتبِ، إِنَّما سُلَيْمَان أتى بأدنى ما يمكن فهمُه والمقصود منه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل سُلَيْمان ﷺ قَالَ: مِن سُلَيْمان إِلَى بِلْقِيسَ؟

لا، ما قَالَ ذلكَ، هَذَا خبرٌ مِنْهَا، هِيَ ليست تقرأ الكتاب حَتَّى تقول: من سُلَيْمان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ولهَذَا قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، ولكِن لعلها فَهِمَته إمَّا بالتوقيعِ أو بكتابةٍ عَلَى الظرفِ إنْ كَانَ هناك ظرف، وإلا صُلْب الكتاب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يبدأ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: من سُلَيْمان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بل سَيَبْدَأُ بالبسملةِ قبلُ، فلمَّا لم يَذْكُرِ اللهُ إِلَّا البسملةَ دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لم يأتِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، ولكِنه لَا بُدَّ أن يَكُون فِي الكتابِ ما يُشيرُ إِلَى ذلك، وإِلَّا لَمَا فَهِمَتْهُ.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ المقصودُ الخُضُوعُ لي، يَعْنِي: معناه: ذِلُّوا لي؛ لِأَنَّهُم ما كانوا يَعْلُون عليه حَتَّى يَقُول: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾.

وهل أرادَ أن يأتوا إليه أَذِلَّةً مسلمينَ لله أو مسلمين له، أي: مستسلمينَ؟

فيه احتمالٌ أَنَّهُ أراد أن يأتوا مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

ولكِن هل يَلْزَمُ من إتيانهم مستسلمينَ له أن يَكُونوا مسلمينَ لله؟

لا يَلْزَم، لكِن يلزم مِن كَوْنِهِم مسلمينَ للهِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا له وأن يَأْتُوا مُطِيعينَ غيرَ مخالفينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الأَولى أن يبدأ الكَاتِبُ باسمِهِ فيقول: من فلانٍ قبل أن يبدأ باسمِ المرسَلِ إليه أو المكتوب إليه.

وهل هَذَا من بابِ التعبُّد أو من باب العادةِ؟

الظَّاهرُ أَنَّهُ من بابِ العادةِ، ولكِن مَعَ ذلك العادة الَّتِي كَانَ عليها السلفُ أَولى منَ العادةِ الَّتِي اعتادها النَّاسُ اليومَ، فاعتادَ النَّاسُ اليومَ أَنَّهُم يَبْدَؤُونَ بالمكتوبِ إليه: إِلَى فلان بن فلان، ولكِن العادة الأُولى أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا قرأ الكتاب يَقْرَؤُه مِن أَوَّله، فإذا قرأ: من فلانٍ؛ عرف الْآنَ ما هَذَا الكتاب وما قيمة الكتاب قبل أن

يَقْرَأَهُ كُلَّه. ثُمَّ إن الترتيبَ الطبيعيَّ يَقتضي هَذَا؛ لِأَنَّ الكتابَ واردٌ (من) (إلى) فيَقْتَضِي أن يبدأَ بالواردِ منه قبلَ الواردِ إليه.

فإِذَنْ نَقُول: الأَولى أن يبدأَ الْإِنْسَانُ باسمِهِ إذا أرسلَ كتابًا إِلَى أحدٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السنَّة المُتَّبَعَة.

وهل يُؤخَذ من هَذَا الكتابِ أَنَّهُ لا يُحتاج إِلَى ذِكْر المكتوبِ إليه؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ ولم يقلْ: إِلَى مَلِكَةِ سَبَأٍ؟

نَقُول: إِنَّهُ إذا دلَّ الدَّلِيل عَلَى المكتوبِ إليه فلا حاجةَ إِلَى ذِكرِه، كما فِي قِصَّة سُلَيْمان، فهنا احتمالُ أنْ يصلَ الكتابُ إِلَى غيرِ المكتوبِ إليه بعيدٌ، والمقصود ببَيَان المكتوبِ إليه أن يَتَعَيَّنَ ويصل إليه، وهنا إذا جاء الكتاب عَلَى هَذَا الوجهِ فَإِنَّهُ يحصُل به أكبر تعيينٍ، فنَقُول: إِنَّهُ لا حاجة إِلَى ذِكره إذا كَانَ الأَمْر يحصُل بدونه، ولكِن مَعَ هَذَا ذِكره أَولى، لا سيما إذا كَانَ يَتَرَتَّب عليه شيءٌ فِي المستقبَلِ، فَإِنَّهُ إذا فَرَضْنَا أَنَّ صَاحِبَه الَّذِي أُرْسِلَ إليه عُلِمَ وأَخَذَه، لكِن فِي المستقبَلِ لا نَدري مَنِ الَّذِي وُجِّه له هَذَا الخطاب، فذِكْرُه بلَا شَكٍّ أَولى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استحباب البَداءةِ ببِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أولِ الرسائلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فِيهِ تقصيرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الكتاب الَّذِي كَتَبَه سُلَيْمان فِي غايةِ ما يَكُون من الإيجازِ، جملتانِ فقط: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، ولكِن بشرطِ أَلَّا يَكُونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كَانَ مخلًّا بالمقصودِ صارَ تقصيرًا.

الْفَائِدَةُ الرابِعةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يريد التملُّك والسيطرةَ، وإنما يريدُ بذلك الدخولَ فِي الإِسْلام؛ لِأَنَّ الهدهدَ لَمَّا أخبرهُ أَنَّهَا وقومها يسجدون للشمسِ من دون اللهِ فهَذَا كفرٌ، فلا بد أن يخرجوا منه إِلَى الإِسْلامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخامسةُ: وفيه أيضًا دليلٌ عَلَى قوة سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ لم يقلْ: وأَسْلِمُوا، بل قَالَ: (ائتوني مسلمين) فطلبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم عَلَى الإِسْلامِ.

وهل المُرادُ أنْ يأتوا جميعًا؟

لا، المُرادُ أعيانهم وأشرافهم؛ لِأَنَّ الأعيانَ والأشرافَ يقومون مَقامَ الْعَامَّةِ.

•• ۞ ••



الآية (٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

• • • •

في قِصَّة مَلِكَةِ سَبَأ عندما جاءها الكتابُ من سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالت لقومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل:٣٢]، المَلَأ بمعنى: الأشراف، وذلك بأن الملوكَ والرؤساءَ يَكُونُ جُلَسَاؤُهم دائمًا أشرافَ النَّاسِ، فوَجَّهَتْ إليهم الخطابَ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٣٨]، وسبق ذِكْر الفائدة فِي قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٢٩]، قولها: (يا ملأ) إظهارًا لعلوِّ شأنهم حَيْثُ نُودُوا بمناداةِ البعيدِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ [يوسف:٤٣]، بتحقيق الهمزتين]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ هَذَا تحقيق الهمزتينِ.

[وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا]، (يا أيها الملأ وفتوني)، وهَذَا مبنيٌّ عَلَى القاعدة اللُّغوية أَنَّهُ إذا ضُمَّ ما قبل الهمزةِ فَإِنَّهُ يجوزُ قَلْبُها واوًا.

وَقُلْنَا: إن من فائدة هَذِهِ اللُّغةِ تصحيح أذانِ كثيرٍ منَ النَّاسِ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي أذانهم: اللهُ وَكبر، بل حَتَّى الصلوات، فإن بعض النَّاس فِي تكبيرة الإحرام يَقُول: اللهُ وَكبر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾... أي: أشيروا عليّ ﴿فِىٓ

أَمْرِي ﴾]، واحد الأُمُور وَلَيْسَ واحد الأوامر؛ لِأَنَّ المُراد بالأَمْر هنا الشأنُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ قَاضِيَتَهُ ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تَحْضُرُون].

وهَـذَا من كمالِ ذَكائها أَنَّهَا أشارتِ المَلَأَ حَتَّى إذا نتجَ عن تَصَرُّفِها شيءٌ لا يُرضى يَكُونُ اللومُ عَلَى هَؤُلَاءِ الملأِ الَّذِينَ أشاروا، ولا يجعلون اللومَ عليها؛ ولهَذَا قالت: إنَّهَا ما تَقْطَع أمرًا حَتَّى يشهدوها، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: قاضية له، ﴿أَمْرًا﴾ هَذِهِ نكِرَة فِي سياقِ النفي، فتكون للعمومِ، لكِن المُراد بذلك الأَمْر المتعلّق بالدولةِ بلَا شَكّ، وَأَمَّا الأَمْرُ الخاصّ فإن لكلِّ إِنْسَانٍ التصرُّف فيه، وكذلك قول الله تَعَالَى للنبي ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، هَذَا الأَمْر من الأُمُورِ الْعَامَّة الَّتِي هِيَ للجميعِ، وَلَيْسَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا غيره مأمورًا أن يشاورَ النَّاس فِي كُلّ أمورِهِ، حَتَّى لو أراد أن يتغدى أو يتعشى ذهب يَقُول للناس: ماذا تقولون؟ لا، ولكِن المقصود الأُمُور الْعَامَّة الَّتِي يَشْتَرِك فيها النَّاس، فيؤمَر فيها بالتشاور.

وقولها: ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ هَذَا أبلغ ممَّا فسَّر به المفسِّر بالقضاء؛ لِأَنَّ القطعَ يَدُلّ عَلَى الإمرةِ والعزيمةِ والفِعْل، بخلافِ القضاءِ حيث يقضي الحُكْم فقطْ بدونِ أنْ يفعلَ.

وقولها: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فيها إشكالٌ لُغَوِيّ، وهي ثبوتُ النونِ مَعَ أن ﴿حَتَّىٰ﴾ ناصبة، فما هُوَ الجوابُ؟

النون هَـذِهِ للوقايةِ؛ ولذلك تجدها مكسورةً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، لو كانت نون الرفعِ لقالَ: (تَشْهَدُونَ)، وما أظـنُّ أَنَّهَا تُشْكِل عَلَى طالـبِ العلمِ؛ لِأَنَّهَا مكسورةٌ، ومثل هَذَا قوله تَعَالَى فِي سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فقوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ إذا وقفتَ عليها تُسَكّن النون

فيظن السامع أن النون هنا ثَبَتَت مَعَ وجودِ النهيِ، وهي مَعَ النهيِ تُحْذَف، ولكن النون هنا للوقايةِ؛ ولذلك إذا وصلتَ فقلْ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٥٩-٦٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: استحبابُ المشاورةِ فِي الأُمُورِ الْعَامَّة؛ لِقَوْلِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ فهي مَعَ أَنَّهَا مَلِكَة ولها تمامُ السُّلطة مَعَ ذلك لم تَسْتَغْنِ عن المشاورةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ المَرْأَةِ وأنها تريد أن تكونَ سياستها مبنيَّة عَلَى أن المسؤولية عَلَى الجميعِ؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وحينئذٍ لو حصلَ خلافُ المقصودِ لم يكنْ عليها لومٌ، ما دامتْ تُشْهِدُ هَؤُلَاءِ وتُبَيِّنُ لهم.

• • ۞ • •



الآيــة (٣٣)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:٣٣].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِدَّة فِي الحرب].

﴿أُو۟لُوا۟﴾ بمعنى: أصحاب، وهي -كما تَقدَّم- فِي النحوِ مُلْحَقَة بجمعِ المذكَّر السالِمِ، وهي مرفوعـةٌ بالواوِ نيابةً عن الضمَّة، أي: أصحاب قوَّة وبأس، والبأس بمعنى: الشـدَّة والصبـر، و﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِـدَّة فِي الحربِ، فكأنهم يُعَرِّضُون بالمشورةِ عليها بالقتالِ بأن تقاتلَ سُلَيْمان ويَقُولُونَ: نحن مستعِدُّون للقتالِ لأنَّنا أصحاب قوة وأصحاب بأس شـديدٍ، الْقُوَّة هنا هل المُرادُ بها الْقُوَّة الجسميَّة أو الْقُوَّة المادِّيَّة؟ كلاهما، فعندنا من قوةِ الجسمِ وعندنا من قوةِ العُدَّة ما نستطيع أن نقاتلَ به سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ هَـذَا منَ التأدُّب معها، مَعَ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي طلبـت منهم المشورة، ومع ذلك ردُّوا الأَمْر إليها: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، وهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا كانت أهلًا لِأَنْ يُسْنَدَ إليها الأَمْر، ويدلّ أيضًا عَلَى أَنَّهُم كانوا يعظِّمونها تعظيمًا بالغًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ نا نُطِعْكِ].

هل المُراد بالنظر هنا الانتظار أو المُرادُ التفكيرُ فِي الأَمْر؟

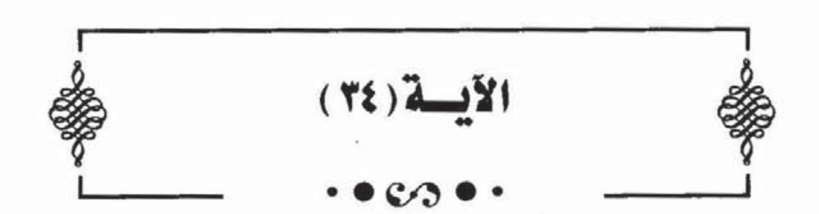
المُراد التفكير فِي الأَمْرِ، يَعْنِي: فكِّري فِي أَمْرِكِ: ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فتكون (ما) هنا اسْتِفْهاميَّة مُعَلِّقَةً عن عملِ الفِعْل؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الجملةُ اسْتِفْهاميَّة فإن الفِعْل وإن كَانَ ينصب مَفْعُولًا أو مَفْعُولينِ يَكُون مُعَلَّقًا عن العَمَلِ، وتكون الجملة فِي محلّ نصبٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مكانة المَرْأَةِ من قومها؛ لِأَنَّهَا بَعْد أن استشارتهم وأَبْدَوْا رأيَهم تَأَدَّبُوا معها وقَالُوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ إذا قَدَّمَ المستشارُ مَشُورَتَه لإِنْسَانٍ أكبرَ منه قَدْرًا أو فهمًا أو عِلمًا أنَّ له أن يَقُول مثل هَذَا تأدُّبًا، وصاحبه بالخيارِ؛ إن شاء أخذَ بمشورتِهِ وإنْ شاء لم يأْخُذْ.

• ● ۞ ● •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

• • ● • •

أجابت: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتخريب ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾]، يَعْنِي: بالأسر، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مرسلو الكتاب]، كأنها لا تريدُ القتالَ، تقول: لو قَاتَلْنَاهُمْ فإنَّ الغَلَبَة عليهم بعيدة، وستكون الغلبةُ لهم، وحينئذٍ يدخلونَ قُرانا، والملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها؛ لِأَنَّ عندهم من العُلُوّ والغَلَبَة والاستكبار ما يُوجِب أن يَفْتِكُوا بأهلِ البلدِ الَّتِي يَدْخُلُونَهَا، وَلَيْسَ المُراد هنا بالإفساد الإفساد المعنويّ، يَعْنِي: بإفساد الأخلاقِ مثلًا، المُرادُ ما أشارَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإفسادُ بالتخريبِ، وجاء دورُ الجُمْهُورِيِّينَ فإذا هُوَ أشدُّ وأعظمُ؛ لِأَنَّهُم أقلُّ حياءً مِنَ الملوكِ، ليسَ لهم أصل، فتجد الْإِنْسَانَ يُنْتَخَب وَهُوَ من الشارعِ، لَيْسَ من الملأ ولا من أشرافِ النَّاسِ، فغالبهم لَيْسَ عندهم دِين ولا مُرُوءَة، فيفسدون أكثرَ مِمَّا يُفْسِد هَؤُلَاءِ، كما هُوَ مشاهَد فِي تخريبِ الرُّوس وغيرهم فِي البلادِ الَّتِي يَدْخُلُونها.

قوله: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ بالأسرِ، يَأْسِرُونهم ويَسْتَرِقُّونَهم أو يَسْتَخْدِمُونَهم بدونِ أسرٍ ولا استرقاقٍ، وهَذَا من أبلغِ ما يَكُونُ مِنَ الذِّلَّة.

وقولها: ﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ سواء كانت هَذِهِ العِزَّة تعودُ إِلَى المُلك، أو تعود إِلَى الجاهِ والشرفِ، أو إِلَى العلمِ أحيانًا، فإنهم يُسَلَّطُونَ عَلَى الأَعِزَّة؛ لِأَنَّ لهم الكلمةَ فيما سبقَ، فهم الَّذِينَ دَبَّروا هَذِهِ الحروبَ ثُمَّ هُزِموا، فتكون رَحَى الحربِ عليهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هل هَذَا من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تصديقًا لقولِها، أو هُوَ من كلامِها تقريرًا له، وتكون فِي أوَّلِ الأَمْرِ ذكرتْ قاعدةً عامَّةً ثُمَّ أشارتْ إِلَى ما تَتَوَقَّعه من سُلَيْمان فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: كذلك يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلُوا بالكتابِ؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أَنَّهُ مِن كلامها، ويَكُون ذلك تقريرًا للقاعدةِ الَّتِي ذكرتها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا عامٌّ، ثُمَّ قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقريرًا لهَذِهِ القَاعِدةِ وتطبيقًا لها عَلَى حالِ سُلَيْمان وجنودِهِ.

أَمَّا إذا قُلْنَا بأنها من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فتكون الجملة مستأنفةً، أي: أن الله يُقَرِّر ما قالته، بأن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً.

وقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ كيف جاءت بصيغةِ الجمعِ، مَعَ أن الكتابَ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾؛ لِأَنَّهَا عرفتْ أن سُلَيْمان مَلِك، والملك لَا بُدَّ له من أتباعٍ وجنودٍ وأعوانٍ؛ ولهَذَا قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وإعراب: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ -وما أكثرَ ما تأتي فِي القُرْآن، نحو ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]- يَقُولُونَ: إن الكاف هنا بمعنى مثل، وإنها تقعُ فِي محلّ نصب مَفْعُولًا مطلقًا مضافًا إِلَى اسم الإشارةِ، أي: ومثلَ ذلك الفِعْل يفعلونَ. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الضربِ يَضرِب الله الأمثالَ، فالكافُ هنا اسم بمعنى مثل فِي محل نصب عَلَى أَنَّهَا مَفْعُول مطلق مضاف إِلَى اسمِ الإشارةِ، فيَكُون تقدير الآيةِ: ومثل ذلك الفِعْل الَّذِي ذكرت

يَفعلونَ، ومعلوم إذا قُلْنَا: إِنَّهَا مَفْعُول مطلَقٌ فإن المُشَارَ إليه يَكُون مصدرًا مناسبًا لسياقِ الآيَةِ، ففي قوله تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات:٣٤]، نَقُول: أي مثل ذلك الفِعْل نَفْعَل بالمجرمينَ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضربِ يضرب الله الأمثال، وَعَلَى هَذَا فقِسْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يجوز لِلْمُسْتَشِيرِ أنْ يخالفَ المستشارَ إذا لم يرَ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِي مشورتِه؛ لِأَنَّهُم لَمَّا ذَكَرُوا ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يُرِيدونَ قِتالَه وهي لا تراه خالَفَتْهُمْ، فإنها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ المَرْأَةِ أيضًا من جهةِ أَنَّهَا نظرتْ فِي العواقبِ؛ لِقَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهَكَذَا يَنبغي للعاقلِ ألا يحكُمَ عَلَى الأُمُورِ ببَوَادِرِها وظواهرِها، وإنما يُحْكَم عَلَى الأُمُورِ بعواقبها، فإنَّ الشَّيْءَ قد تكُون بوادره وظواهره مفيدةً فِي نظرِ الْإِنْسَان، ولكِن عندَ التأمُّل يَكُون الأَمْر بالعكسِ، لكِن هل الأَولى المبادرة أو التأني؟

فِي الأَصْل التأنِّي أَولى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا تأنَّى لا يَنْدَم، ما فعل شيئًا، لكِنْ إذا تَسرَّعَ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ عُرْضَةً لِلنَّدَمِ، وكم من كلمةٍ قَالَ الْإِنْسَان: لَيْتَنِي لم أَقُلْهَا، وكم من فعلٍ قَالَ: ليتني لم أفعلْه، ولكِن مَعَ هَـذَا ينبغي استعمالُ الحزمِ فِي الأُمُورِ، لا يتأنى تأنيًا يفيدُ المقصودَ ولا يتسرَّع تسرُّعًا يَحْصُلُ به الندمُ، وقد أنشدَ الشاعرُ بيتينِ فِي هَذَا المَعْنى فِي أَنَّهُ قد يَكُون التسرُّع أَولى وقد يَكُون التأنِّي أولى[1]:

---

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ٣٥٧).

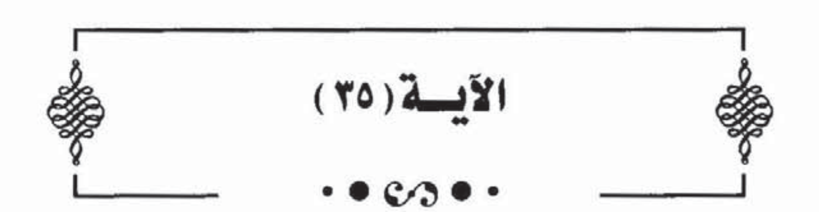
قَدْ يُدْرِكُ المُتَـأَنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَدْ يَكُـونُ مَـعَ المُسْـتَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وَرُبمَـا فَاتَ قَوْمًـا جُـلُّ أمْـرِهِمُ ... مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الـرَّأْيُ لَـوْ عَجِلُـوا

وهَـذَا صحيح وواقـعٌ، المهمُّ أننا نَقُول: إذا دار الأَمْرُ بيـن الإسـراعِ والتأنِّي ولم يَترَجَّحِ الإسراعُ عليه فالأَولى التأنِّي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَكُون الأَمْرُ بيدِهِ ما دامَ لم يُحْدِثْ شيئًا، لكِن إذا أحدثَ شيئًا فاتَهُ الأَمْرُ ولم يَتَمَكَّنْ مِنَ التخلُّصِ منه، وهَذَا يُؤخَذ منَ الآيَةِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، فهي نظرتْ فِي العواقبِ.

والنظرُ فِي العواقـبِ يَسْتَدْعِي إمَّا التسـرُّعَ وَإمَّا التأنِّيَ، قد يَكُون مثلًا يرى الْإِنْسَان أن الرأيَ أَنَّهُ إذا لم يُسْرِعْ فاتَ المقصودُ فيُسْرِع، أو إذا أسـرعَ حصلَ الخَلَلُ فيتأنَّى؛ فَهُوَ مأخوذٌ مِن قَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

• • ۞ • •



الآيــة (٣٥)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

• ● ● •

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ ذَكِيَّة، لَمَّا جاءها الكتابُ قالت: أريدُ أن أَمتحنَ هَذَا الرجلَ، سأُرْسِل إليه هَدِيَّة، فإنْ كَانَ رجلًا يريدُ الدُّنْيا كَفَتْهُ الهَدِيَّة وتركَ الحروبَ والقتالَ، وإنْ كَانَ رجلًا يريدُ أمرًا آخرَ فَإِنَّهُ سَيَرُدّ الهَدِيَّة، وهَذَا بلَا شَكّ اختبار ذكيّ، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ وطبعًا هِيَ -كما قُلْنَا قبل قليل- ما رَضِيَت ما أشار به الملأ؛ لِأَنَّ الملأَ أشاروا عليها بالحربِ والقتالِ، وذلك بإبداءِ ما عندهم منَ الْقُوَّة والبأسِ الشَّديدِ، ولَكِنَّهَا لم تُرِدْ ذلك، فأرادتْ أنْ تمتحنَ سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ ولم تقل: (إليه)؛ لِأَنَّهُ كما قُلْنَا ملك له جنودٌ وأعوانٌ وحواشٍ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: (ناظرة) ليستْ منْ الِانتظارِ، وإن كانت محتملةً أن تكون من الانتظارِ، أي: فمُنْتَظِرَة، ولَكِنَّهَا منَ النظرِ، يَعْنِي: أَنْظُرُ بَعْد إرسال الهديَّة: بم يرجع المُرسَلُون؟ والمرسَلون هم رُسُلها بالهَدِيَّة، وَفِي هَذَا إشارة إِلَى أن هَذِهِ الهَدِيَّة كبيرة وعظيمة؛ لِأَنَّهَا لم ترسلْ بها واحدًا وإنما أرسلتْ بها جماعةً، وأقلُّ الجمعِ ثلاثةٌ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: بأيِّ شيءٍ يَرجعون به، و﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ هل هِيَ متعلقة بـ(ناظرة) أو متعلقة بـ(يرجع)؟

(ما) هنا اسْتِفْهامِيةٌ وليسـتْ موصولةً؛ لِأَنَّ الموصولةَ تَبقى ألفها مَعَ حرف الجرِّ، والاسْتِفْهامية تُحْذَف؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]، لكِن في نحو قولكَ: (هُوَ مسؤولٌ عمَّـا قَالَ) تُثْبِت الألفَ، وكذا في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة:١٠٥]، فتبقى الألف، وفي قوله: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ تحذف الألف، فـ(ما) الاسْتِفْهامية إذا سَبَقَها حرف جرٍّ تُحذف ألفها؛ ولهَذَا نَقُول: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ الجارّ والمجرور متعلق بـ(يرجع) ولا يصلح أن يَكُونَ متعلقًا بـ(ناظرة) بناءً عَلَى القَاعِدةِ المشهورةِ عند النحْويين أن اسْم الاسْتِفْهام له الصَّدارَة، بل الاسْتِفْهام كله سواء كَانَ اسمًا أو حرفًا، له الصَّدارَةُ، وإذا كَانَ له الصَّدارَة لم يَعْمَلْ قبله فيه؛ لِأَنَّهُ لو عمِل ما قبله فِيهِ ما كَانَ له الصَّدارَة، ولكانت الصَّـدارَة للعاملِ الَّذِي قبلـه؛ وعليه فنَقُول: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ الجارُّ والمجرورُ متعلِّـق بـ(يرجع)، وتكون الجملة إذن مُعلِّـقة لـ(ناظرة) عن العَمَـل فهي فِي محل نصب.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من قَبُول الهديَّة أو ردِّها، إن كَانَ ملكًا قَبِلَها، أو نبيًّا لم يَقْبَلْها].

كون المُفَسِّر يُحيل قبولَ الهديَّة وعدمه عَلَى أَنَّهُ إن كَانَ ملكًا قَبِل، وإن كَانَ نبيًّا لم يقبلْ، هَذَا لا دليلَ عليه، ولكِن نَقُولُ: إنَّهُ إذا كَانَ يريد القتالَ فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّة، يَعْنِي: إذا كَانَ هَذَا الرجل عنده طمعٌ ماديّ فقط، فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ القتال لا يعلم هل تكون عاقبته له أمْ لا، والهَدِيَّة غَنيمة حاضرة، فيقبلها ويدع المشكوك فيه، وإذا كَانَ لا يريد الدُّنْيا، وإنما يريد أمرًا آخرَ، وَهُوَ الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام وكونهم يسلمون،

كمـا قَالَ فِي الأول: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، فَإِنَّهُ حينئذٍ لن يقبلَ الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يدعو إِلَى الله وإلى الإِسْلام لا يمكن أن يَقْبَلَ هديَّةً عَلَى حسابِ ما دعا إليه أبدًا. وَأَمَّا مسألة النبوَّة وعدمها فالله أَعْلَمُ بهَذَا، فلا نجزِم بما قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ، بل نَقُول: إنَّهَا تريد أن تَخْتَبِرَهُ، فإذا كَانَ يريد دنيا فالهديَّة تمنعه من قِتالها، وإذا كَانَ لا يريد دنيا وإنما يريد أن يسلِموا فالهَدِيَّة لا تمنعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأرسلتْ خَدَمًا ذكورًا وإناثًا]، الآن يبين المُفَسِّر الهديَّة، ثم قَالَ: [ألفًا بالسويَّةِ، وخمسمائة لَبِنَة من الذهب، وتاجًا مُكَلَّلًا بالجواهر، ومِسكًا وعنبرًا وغير ذلك مَعَ رسولٍ بكتاب].

التعيين هَذَا لا دليلَ عليه؛ ولهَذَا نَقُول: إنَّهَا هديةٌ كبيرةٌ بلَا شَكّ، ويدل عَلَى كِبَرِها أن الَّذِينَ أُرسلوا جماعة، أَمَّا تعيينها بهَذَا الأَمْرِ فهَذَا لا نَجْزِم به، فإن كَانَ واردًا عن بني إسرائيل فَإِنَّهُ منَ الأخبارِ الَّتِي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

وقد أسرعَ الهدهد إِلَى سُلَيْمان يخبره الخبر؛ لِأَنَّ سُلَيْمان قَالَ له: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، والظَّاهر أن الهدهد بَقِيَ حَتَّى استقرَّ أمرُهم عَلَى شيءٍ، وقد استقر عَلَى إرسالِ الهَدِيَّةِ، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأسرع الهدهدُ إِلَى سُلَيْمان يُخْبِرُه الخبـرَ، فأمر]، أي: سُلَيْمان، [أن تُضْرَب لَبِنات الذهب والفضة وأنْ تُبْسَط من مَوْضِعِه إِلَى تسعة فَرَاسِخ مَيدانًا، وأن يَبْنُوا حولَه حائطًا مُشْرِفًا مِنَ الذهَبِ والفِضَّة، وأنْ يُؤْتَى بأحسنِ دوابِّ البـرِّ والبحرِ مَعَ أولادِ الجنِّ عن يمينِ الميدانِ وشمالِهِ].

كل هَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي ذكرها المُفَسِّر لَيْسَ عليها دليلٌ، وهي منَ الغرائبِ أنْ

يطوفَ عَلَى المُفَسِّر وأنْ يأتيَ بها، عَلَى أَنَّهُ مُخْلِص، مَعَ العلمِ بأنه لَيْسَ فِي الآيَةِ دليلٌ عَلَى هَـذِهِ المسألَةِ إطلاقًا؛ أَنَّهُم يجعلون الذهبَ والفضةَ تُبسط من مكانِه إِلَى تسعةِ فراسخَ، أي سبعة وعشرون ميلًا؛ ثلاثة فِي تسعة، والميل كيلو ونصف.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَكاء هَذِهِ المَرْأَةِ وحِنكَتها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جـواز الاختبارِ والامتحانِ وأن ذلك لا يُعَدّ خديعـةً إذا أراد الْإِنْسَان أن يمتحنَ غيـرَه بشيءٍ منَ الأَشْيَاء؛ لِأَنَّهُ يريد أن يَستظهرَ به حاله، وهَذَا لا مانعَ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: العَمَل بالقرائنِ؛ لِأَنَّهَا أرادتْ أن توصل هَذِهِ الهَدِيَّةَ لتختبرَ مرادَ سُلَيْمَان هل يريد المالَ فقطْ فتكفيه هَذِهِ الهَدِيَّة، أو يريدهم أَنْ يُسلموا فلا تنفع فِيهِ هَذِهِ الهَدِيَّـة، ولا يكفّ عن طلبـه الأَوَّل، وَهُوَ قوله: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١]، ففيها إذن ثلاث فوائد. وهل ورد مثل ذلك؟

نعم، فِي قِصَّة سُلَيْمَان فِي المرأتينِ اللتينِ احتكمتا إليه فِي ابنِ إحداهما، خرجت امرأتان إِلَى خارج البلد ومع كُلّ واحدة ابن لها، فأكل الذئب ابن الكبرَى، فاحتكمتا إِلَى داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقضى بالابن الموجود للكبرى بناءً عَلَى أن الصغرى يمكنها أن تلدَ فيها بعدُ، ولكِن لما تحاكمتا إِلَى سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: لَيْسَ هَذَا الحكم، إنما الحكم أن نأتيَ بالسكّين ونشقّ الولد نصفينِ فيَكُون للكبيرةِ نصفه وللصغيرةِ نصفه، فالكبيرة وافقت عَلَى أَنَّهُ يشقّ نصفينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ولدًا لها، وتقول: مثلما تلِف ابني يتلَف ابنها، وَأَمَّا الصغيرة فقالت: لا يا نبيَّ الله. فعلم بذلك أن الولد للصغرى

فحكمَ به لها[1].

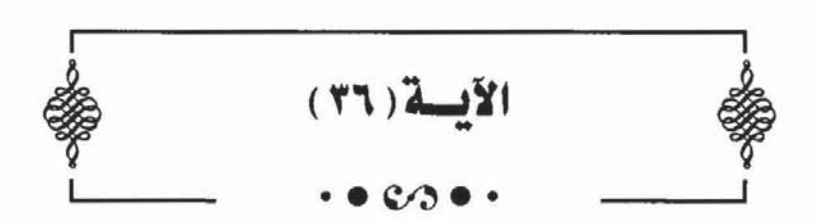
فهَذَا من باب استظهارِ الْحَقّ بالقرائنِ، ولا مانعَ من ذلك، وقد كَانَ القضاةُ يفعلونه، فهَذِهِ المسألةُ -وهي إرسالُ الهَدِيَّةِ إِلَى سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من هَذَا النوعِ لِيُسْتَظْهَرَ به حالُه فيعمل بالقرينة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِظَم هَذِهِ الهَدِيَّة كميَّةً وكيفيَّة، ولذلك احتاجت إِلَى أن تُرسل بها جماعة، فالهَدِيَّة كانت كبيرةً لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فقال: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولا يُرْسَل جماعة بهديةٍ إِلَّا وهي كبيرةٌ. وأيضًا ربما نَقُول: مَعَ كِبَرِها ثمينة؛ لأجل أن يدافع هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلُون عنها لو حاولَ أحدٌ أن يعتديَ عليها.

• ● ۞ ● •

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، حديث رقم (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم (١٧٢٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٣٦)

• • ❦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦].

• • ❦ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرَّسُول بالهَدِيَّةِ ومعه أتباعُه ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾]، بالنصب وجاء بمعنى: أتى [﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾].

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: [ومعَه أتباعُه] وكلام الْمَرْأَةِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا أرسلتْ جماعة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

وقوله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ يَدُلّ عَلَى أن الجائيَ واحدٌ، ولأنه لم يذكرِ الفاعل، وإذا لم يذكر الفاعل فَهُوَ مستتِر، ومعلوم أن (جاء) مفرد، ولو كَانَ الْمُراد الجماعة لقالَ: (فلما جاؤوا سُلَيْمان).

وقول سُلَيْمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المخاطَب جماعةٌ، فكيف نجمع بينَ هَذِهِ الأَشْيَاء؟

الجمع بين هَذِهِ الأَشْيَاء بسيطٌ جِدًّا، يَكُون هَؤُلَاءِ الجماعة لهم رئيس، وَالَّذِي خاطب سُلَيْمان وقدَّم الهديَّة هُوَ الرئيس، ومعه جماعتُه، فصار الَّذِي تقدَّم إِلَى سُلَيْمان بالهَدِيَّة واحدًا مَعَ جماعتِهِ؛ ولهَذَا قَالَ الْمُفَسِّر: [ومعه أتباعه].

قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ الياء هنا حُذفت للتخفيفِ، كما أَنَّهَا أيضًا حذفت

للتخفيف فِي قوله تَعَالَى فيما سبق: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، والاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للإنكار والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال وأنا عندي من المال ما لَيْسَ عندكم؛ ولهَذَا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوَّة والملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من الدُّنْيا]، وكذلك من المالِ؛ لِأَنَّ عند سُلَيْمان المال ما لَيْسَ عند هَذِهِ المَرْأَةِ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فالاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخ والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال -وهي هَذِهِ الهَدِيَّة- فما آتاني اللهُ منَ المالِ والمُلك والنبوَّة وغير ذلك من كُلّ ما آتاه الله خير مما آتاكم؟!

قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يَعْنِي أنني لا أفرح بهدية ولا تُهمّني الهَدِيَّة، ولكِنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بها وتفخرون بها، فهل المَعْنى: تَفرحون إذا أُهدي إليكم، أو تفرحون إذا أهديتم وتَرَوْنَ لكم فضلًا عَلَى المهدَى إليه؟

كله محتمِل، لكِن الظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ يريد الأول، بمعنى: أنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بالهَدِيَّة، وتقع منكم موقعًا بحيث تَفْتُرُ عَزِيمَتكم وتوجب أن تَعدِلوا عما أنتم عليه، أَمَّا أنا فلا تهمني الهَدِيَّة، والاحتمال الثاني أن يَكُون بإهدائكم إليَّ تفرحون، أي: تفخرون بها، ولكِن المَعْنى الأول أليق بالسياق.

وقوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أي: بالإهداء إليكم؛ لِأَنَّ هدية مصدر، فيجوز أن يُضاف إِلَى الفاعل، ويجوز أن يضاف إِلَى المَفْعُول.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ مِن المُسْتَحْسَنِ أنْ يتقدَّم الرئيس -رئيس الوفد أو القوم- بالكَلام أو الفِعْل إذا كَانَ مكلَّفًا بالفِعْل، المهم أن يَكُون المتقدم الرئيس؛ لِأَنَّ تقدم

الجميع دَفْعَة واحدة غيرُ لائق؛ لضياع المسؤولية، فلا بد أن يتقدم واحد، وكلما حُصِرَ الأَمْر كَانَ أقربَ إِلَى الفهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: توجيه الخطاب للجماعةِ، وإنْ كَانَ المتقدِّمُ رئيسهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليل عَلَى جوازِ الغِلظةِ فِي القَوْلِ إذا كانت المصلحة فيه؛ لِأَنَّ هَذَا الأسلوب من سُلَيْمَان ﷺ أسلوبٌ قويٌّ؛ إذ إننا قُلْنَا: إن الاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخِ والتعجيبِ، يَعْنِي أَنَّهُ يوبخهم عَلَى فِعْلِهِم ويتعجَّب مِن فعلهم كيف يمدُّونه بمال وَهُوَ ملك ومعروف ومشهور.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أن يتحدث بنعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكِن هل يتحدث بهَـذِهِ النعمة عَلَى سبيل الافتخارِ أو عَلَى سبيلِ الافتقارِ والاستصغارِ؟

نرى أَنَّهُ عَلَى حَسَبِ الحالِ، فمع العدوّ يجوز أن يتحدَّث بها افتخارًا، ولذلك تجوز الخُيَلَاء فِي الحـربِ[1]، مَعَ أَنَّ الخيلاء محـرَّمة ومنَ الكَبائِرِ[2]، لكِن فِي الحـرب لإغاظةِ العدوّ لا بأس بها.

فسُلَيْمَـان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تحدث هنا بنعمة اللهِ افتخارًا -فيمـا يظهر لي- عَلَى

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الخيلاء في الحرب، حديث رقم (٢٦٥٩)، سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، حديث رقم (٢٥٥٨)، مسند أحمد (٥/ ٤٤٦) (٢٣٨٠٣)، عن جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

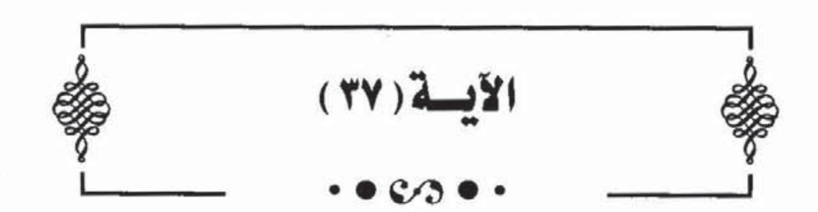
(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، حديث رقم (٥٤٥٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء...، حديث رقم (٢٠٨٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هَؤُلَاءِ القوم، وهَذَا لا بأس به إذا كَانَ أمام العدوّ، فأمَّا إذا كَانَ لإظهارِ النعمةِ فَإِنَّهُ لا يجوز إِلَّا عَلَى سبيـلِ الاستصغارِ والافتقارِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا عَلَى سبيل الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَانِ أن يصف غيرَه بما يبدو من حالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ إذ إن الفرحَ كما هُوَ معروف أمر باطنيٌّ؛ لِأَنَّ الَّذِي يفرح ما يُسمع لفرحه صوتٌ ولا يُرى له حركةٌ، ولكِن تظهر علاماته عَلَى ظاهرِ البدنِ، فلا بأسَ أنْ يَحْكُمَ الْإِنْسَانُ عَلَى غيرِهِ بالقرائنِ بما يَظْهَرُ من حالِهِ، وقد مرَّ كثيرٌ مثل هَذَا الأَمْرِ، فقد قَالَ الرجلُ الَّذِي جامعَ زوجتَهُ فِي نهارِ رمضانَ: «وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي»[1]، ومعَ هَذَا فإن هَذَا الرجل لم يَطُفْ بأبياتِ أهلِ المَدينَةِ ويُفَتِّشها حَتَّى يعرف أَنَّهُ لا يوجد أحد أفقر منه.

• • ❁ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، حديث رقم (١٨٣٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى فِيهِ وبيانها وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع، حديث رقم (١١١١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيـة (٣٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧].

•••

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ بما أتيتَ من الهديَّة].

الخطاب الْآنَ للرَّسُولِ، وهَذَا من تعديدِ الأساليبِ لفائدةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ حملوا الهديَّة هم الجماعةُ جميعًا، فناسبَ أنْ يُخَاطِبَهم جميعًا؛ لِأَنَّهُم حَمَلُوا هَذِهِ الهَدِيَّةَ، وهنا لَمَّا أرادَ أنْ يحملهم الإبلاغَ فإن تحميل الإبلاغِ للجماعةِ تَضِيع فِيهِ المسؤوليةُ، فحَمَّلَ الإبلاغَ رَئِيسَهم فقطْ؛ لأنك إذا وَصَّيْتَ جماعةً مثلًا لشخصٍ من النَّاسِ ضاعتِ المسؤوليةُ وصارَ كُلّ واحدٍ منهم يَتَّكِل عَلَى الآخَرِ فلا يحسن الإبلاغُ، لكِن إذا حَمَّلْتَها واحدًا فحينئذٍ يَتَحَمَّل ويؤدي؛ ولهَذَا حَمَّل الرئيسَ فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النمل:٣٧]، أي: إِلَى جماعتِكَ الَّذِينَ أرسلوكَ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بما أتيتَ مِنَ الهديَّة ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقةَ لَهُمْ بها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ من بَلَدِهِمْ سبأ، وسُمِّيَتْ باسمِ أبي قَبيلتهم، ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: إنْ لم يأتوني مسلمينَ].

هَكَذَا الْقُوَّة؛ لِأَنَّهُ لا يريدُ المالَ ولا يريد الدُّنْيا وإلا لَخَضَعَ وخَنَعَ لهَـذِهِ الهَدِيَّة الكبيرةِ الَّتِي أُرسل بها جماعةٌ، ولكِنَّه لا يريد ذلك، فخاطبهم بهَذِهِ العباراتِ القويَّة.

قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ اللام مُوطِّئَة لِلْقَسَمِ، والنون للتوكيد، فعلى هَذَا فالجملة مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القسم، واللام، والنون، ثُمَّ فيها منَ التعظيم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾، ولم يقل: (فلآتينهم)؛ لِأَنَّ هَذَا أبلغُ فِي الهَيبةِ، سواء أراد تعظيم نفسه، أو أراد بذلك آتيهم بجنودي.

وقوله: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فِيهِ استصغارُ هَؤُلَاءِ الجماعةِ الَّذِينَ أَرسَلُوا بِهَذِهِ الهديَّة، فاستصغرهم منَ الناحيةِ الماليَّة فِي قولِه: (ما آتاني اللهُ خيرٌ مما آتاكم)، ومن الناحيةِ العسكريَّة فِي قولِهِ: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بها؛ لِأَنَّ عنده من الجنودِ الجنّ والإنس، بل والطير أيضًا، فما لهم طاقة بِهَذَا الشَّيْء.

قوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً﴾ فنَحْتَلّ بلادهم ونُخرِجهم مِنْهَا أذلَّة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الفرق بين الأذِلَّة والصَّغار: الأذلة: الذُّل فِي النفسِ، والصَّغار: فِي البَدَنِ، يَعْنِي يكُون مُسْتَسْلِمًا ظاهرًا وباطنًا، مستسلمًا ظاهرًا بالصغارِ، ومستسلمًا باطنًا بالذلِّ، قَالَ الله تعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغار، والذلُّ هُوَ ذلُّ النفسِ والعياذ باللهِ، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنده من قوَّة العزيمةِ، وقوة السلطانِ ما استطاعَ أن يُعَبِّر بهَذَا التعبيرِ لهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْدَوْا له بِهَذِهِ الهديَّة.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ يَلِيق بسُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقابلَ جماعةً أَهْدَوْا إليه هديةً بهَذَا الأسلوبِ العنيفِ، لماذا لم يُجِبْ بأسلوبٍ لطيف؟

الجواب عن هذا: أَنَّـهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أنْ يُظْهِـرَ لهم قوَّته، وَأَنَّهُ لا يَهْتَـمّ بشأنِهم، ثُمَّ إن اختبارهم له مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، يَدُلُّ عَلَى شكٍّ فِي دعوتِه، هُوَ دعاهم إِلَى الإِسْلامِ، وهم شَكُّوا فِي ذلك بإرسالِ الهديَّة،

وظَنُّوا أَنَّهُ يريد دنيا، فيَكُون هم الَّذِينَ بدأوا بالإساءةِ إليه، حَيْثُ أرسلوا إليه هدية يختبرونه بها فكَانَ ردُّه بهَذَا مناسبًا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلما رجعَ إليها الرَّسُولُ بالهَدِيَّةِ، جعلتْ سَرِيرَها داخلَ سبعةِ أبوابٍ، داخلَ قصرِها، وقصرِها داخل سبعة قصورٍ، وأغلقتِ الأبوابَ، وجعلت عليها حَرَسًا، وتجَهَّزَتْ لِلْمَسيرِ إِلَى سُلَيْمَان لِتَنْظُرَ ما يأمرها به، فارتحلتْ باثني عشر ألف فيلٍ، مَعَ كُلّ فيلٍ ألوف كثيرةٌ، إِلَى أنْ قربتْ منه عَلَى قِيدِ فَرْسَخٍ شَعَرَ بها، قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾].

هذا غريبٌ، ما أدري من أين يأتي الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بهَذِهِ الحكاياتِ! وَأَمَّا الأفيالُ فلَعَلَّها كثيرة باليمنِ، ولهَذَا صاحبُ الفيلِ الَّذِي أرادَ أنْ يَهْدِمَ الكعبةَ جاء بالفيلِ.

فالاقتصارُ عَلَى القَصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآن هُوَ اللائِقُ بالمسلمِ، إِلَّا ما صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ وذلك لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فعِلْمُ هَذِهِ الأُمَمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاللائِقُ بنا أَلَّا نَتَجاوَزَ ما جاء به الْقُرْآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِظهارُ الْقُوَّة للأعداءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، فنفيُ الكَلامِ قوَّة، فهَذَا التهديدُ والوعيدُ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَظْهَرُ قوَّةٍ، فيَكُون داخلًا فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فإن قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نكِرَة تَشمَل كُلّ ما يُمْكِن من القوى، سواء كانت الْقُوَّة قوليَّة أو مادِّيَّة أو معنويَّة، المهمّ أن جميعَ القوى فِي معاملة الأعداء ينبغي للمرءِ أن يَسْتَعْمِلَها، حَتَّى

إِنَّهُ جاء فِي الحديث: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1] لكِن الخيانة -خيانة العدو- لا تجوز، فلا يجوز للإِنْسَانِ أَنْ يخون عَدُوَّه، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]، يَعْنِي: ولا تخُنهم، وكذلك إذا خانوا فقد نَقَضُوا العهدَ.

وهَذِهِ المسألة لها ثلاث حالات -أي أنَّ المعاهَدين لهم ثلاثُ حالاتٍ-: إمَّا أن يَسْتَقِيموا لنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، وَإِمَّا أن يَنْكُثوا العهد وحينئذٍ لا عهدَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٢]، وَإِمَّا أَلَّا يَنْقُضوا العهد وظاهِرُهُم الاستقامةُ، لكِن نخاف منهم الخيانةَ، فهنا نَنْبِذ العهدَ إليهم، ونُخبِرهم بأننا قد أبطلنا العهدَ، حَتَّى لو قَالُوا: سَنبقَى عَلَى العهد نَقُول: لا، نحن الْآنَ كلٌّ مِنَّا حرٌّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخيانة والخَديعة؟

الخيانة معناها: أنك تخْدَعه فِي مَقامِ الأمانِ، والخديعة تخْدَعُه فِي غيرِ مقامِ الأمانِ، كَأن تكونَ الحربُ قائمةً ثُمَّ تَضع كَميناً ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو تُظْهِر مثلًا أن عندك كثرةَ عددٍ، كَأن تجعل النَّاس مثلًا يتردَّدون مثلما فعل القَعْقَاع بنُ عَمْرٍو فِي حُرُوبِهِ مَعَ الفُرْسِ وغير ذلك، فأنت الْآنَ ما خُنْتَهم؛ لِأَنَّهُ ما بينك وبينهم عهدٌ، أَمَّا المحارِب فقَتْلُه لا يُعتبَر خيانةً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بيننا وبينهم عهد، ولهَذَا فِي قِصَّة كَعْب بنِ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، حديث رقم (٢٨٦٥)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، حديث رقم (١٧٤٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأَشْرَف قَالَ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ لِي بِكَعْبٍ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»(٢)، هل يفيد حصرَ الْقُوَّة فِي الرمي؟

الجواب: ما يَرِد عن الرَّسُول ﷺ وكذلك أيضًا ما يَرِد عن الصحابةِ فِي تفسيرِ بعضِ الآيَاتِ يَذْكُرُون الشَّيْءَ أحيانًا عَلَى سَبيلِ التمثيلِ، والْقُوَّة فِي ذلك الوقتِ هِيَ الرميُ، ولا تزالُ أيضًا، فإن الرميَ الْآنَ من أشدِّ ما يَكُونُ منَ الْقُوَّة، يعني هُوَ أعلى أنواعِ الْقُوَّة، سواء كَانَ الرميُ بالقوسِ فيما سبق، أو بالبُنْدُقِيَّة أو بالصَّوَارِيخِ، المهمُّ أنَّ الرميَ فِي كُلّ وقت تجد أَنَّهُ هُوَ ذِروةٌ فِي الْقُوَّة، وهَذَا لَيْسَ بحصرٍ، ولكِن الرَّسُول أراد أن يُبَيِّن غايةَ الْقُوَّة، فالْقُوَّة هِيَ الغايةُ فِي كُلّ وقتٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَثرة جنود سُلَيْمَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ المَلِكَة لها العَرْش العظيمُ وعندها القوم المُطيعون الذليلون لأوامرها، يَقُول: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾، ولم يُبَيِّن هذه الجنود، لَكِنَّهُ مَرَّ فِي أَوَّل القصة أن جنوده ثلاثةُ أصنافٍ: الجنّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يمكن أن يُسَلِّطها عليهم، إذا سلَّط الجنَّ فلا قِبَل لهم بالجنّ، وإنْ سلَّط الطيورَ تَنْقُب عيونهم أيضًا فلا قِبَل لهم بها.

فالحاصلُ: أنَّ الجنودَ الَّتِي لسُلَيْمَان لا يُمْكِن هَؤُلَاءِ أن يُقابِلوها لا كميَّة ولا كيفيَّة.

---

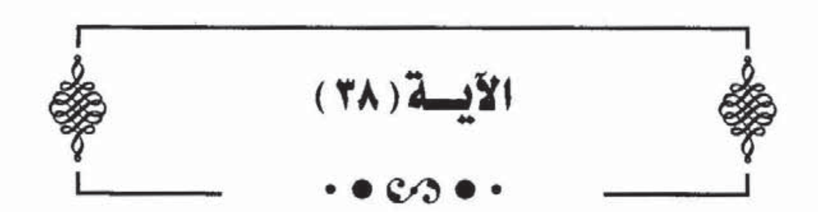
(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، حديث رقم (٣٨١١)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، حديث رقم (١٨٠١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم (١٩١٧)، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكافرَ لا حقَّ له فِي أرض الله، ولا فِي مال الله، حَتَّـى المال لا حقَّ له فيه، وجـه ذلك لو لم يكنِ الأَمْرُ هَكَـذَا لكانَ تهديده بهـذَا الأَمْـر محرَّمًا، إذ لو كَانَ لهم حقّ ما جاز له أن يفعلَ هَذَا ويُخْرِجهم منَ الْأَرْض.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة وأن الْإِنْسَان يفعل باختيارِه، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٣٨)

• • ∽ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨].

• • ∽ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ﴾ فِي الهمزتينِ ما تَقدَّم]، وتَقَدَّمَ تحقيقُ الهمزتينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ﴾ وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا: **(يا أيها الملأُ ويكم)**.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ منقادينَ طائعينَ، فلِي أَخْذُه قبل ذلكَ لا بعدَه]، قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ من أين عَرَفَ أَنَّهُم سيأتون مسلمينَ إليه؟ عرف ذلك من أَنَّهُم إذا سَمِعوا بما قَالَ الرَّسُول، وَهُوَ قوله: ارْجِعْ إليهم، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أن يَستسلموا وينقادوا، فَهُوَ أيضًا حَكَمَ بالقرائنِ، ويجوز أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَوْحَى إليه بذلك لِأَنَّهُ نبيّ، فالمسألة دائرة بين أن يَكُون حكَمَ بكونهم يأتون مسلمين بناءً عَلَى القرينة، ويحتمل أن يَكُون ذلك بوحيٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكِنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ نبَّه المفسِّر عَلَى أَنَّهُ إذا كَانَ العَرْش أُخِذَ قبل أن يأتوا مسلمينَ إليه فَهُوَ جائزٌ، وإذا كَانَ بَعْد ذلك فليس بجائزٍ، وَفِي هَذَا نظر؛ لِأَنَّهَا بمجرَّد ما تُفَارِقه مُسْلِمَةً تكون قد أحرزتْ مالَها، وقد حَمَتْهُ، فمالُها محترَم قبل أن تصلَ إِلَى سُلَيْمَان بمجرَّد إسلامها، وهي إذا غادرتْ ستأتي بلَا شَكٍّ مُسْتَسْلِمَةً، فَإِنَّهُ قَالَ لهم فِي أوَّل الأَمْرِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وَلَيْسَ غَرَضه

-واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا كَانَ قبلَ إسلامِهِم جاز له أَخْذُه، وإذا كَانَ بعدَه لم يَجُزْ.

ثم إنّ الظَّاهر أيضًا أن سُلَيْمَـان لا يريد تَمَلُّكَ هَذَا العَرْش، وإنما يريد إظهار قوَّته أمامها، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتيَ بِعَرْشِها قبل أن يَصِلُـوا إليه، ولا يريد أن يَتَمَلَّكه حَتَّـى يَرِد ما قَالَهُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك لَمَّا قَالَ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآيَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ الخِطاب إِلَى المبهَم إذا كَانَ يَتَعَيَّن بَعْد ذلك، يعني يجوز الخطاب إِلَى المبهم حُكمًا أو خبرًا قبل أن يَتعيَّن الحكم، لِقَوْلِهِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قَالَ: ائتني يا فلان. وهَذَا النوعُ مِنَ الخِطاب تترتب عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّة وخَبَرِيَّة.

فمنها مثلًا يجوز أَنَّهُ يَقُول: زوَّجتك إحدى ابنتيّ هاتين، ثُمَّ يختار إحداهما، مثلما فعل صاحب مَدْيَن مَعَ موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجوز أن يَقُول: بِعْتُكَ إحدى هاتينِ السِّلعتينِ بكذا فيختار إحداهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بعتك هَذَا بعشَرة نقدًا أو بعشرين نسيئةً، فيَختار أحد الثمنينِ، وليستْ هَذِهِ المسألةُ الأخيرةُ من بابِ بيعتينِ فِي بيعةٍ، خِلافًا لِمَن زَعَمَ ذلك، فإن هَذِهِ بيعة واحدة؛ لأنهما لم يَتَفَرَّقا إِلَّا عَلَى إحدى البيعتينِ، وأيضًا بيعتانِ فِي بيعةٍ سبق أَنَّهُ جاء فيها نصٌّ صحيحٌ صريحٌ فِي سنن أبي دَاود يَقتضي أن بيعتينِ فِي بيعةٍ هِيَ مسألةُ العِينَة؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»[1]، وهَذَا صـريحٌ أن

(١) سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب فيمن باع بيعتين في بيعة، حديث رقم (٣٤٦١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ذلك فِي مسألةِ العِينة، والعِينة أن يبيعَ الشَّيْءَ عليه بثمنٍ مؤجَّل ثُمَّ يَشتريه نفس البائع منه بأقلّ منه نقدًا، فهَذِهِ مسألة العِينة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يَرِد عَلَى هَذَا اشتراط التعيين بالنِّسْبَةِ للنِّكاح؟

قُلْنَا: العقد لا يَنتهي إِلَّا بالتعيينِ، فإذا قَالَ: قَبِلْتُ نِكاحَ فلانةَ حَصَلَ التعيينُ، ولا يَصِحُّ أن يَقُول: قَبِلْتُ نِكاحَ إحداهما، كما أن البيع أيضًا: بِعتك بعشرة نقدًا وبعشرين نسيئةً، يَقُول: قبلت بعشرين النسيئة أو قبلت بعشرة نقدًا، لَا بُدَّ من هَذَا؛ لِأَنَّ القبولَ يُعَيِّن، المهمّ الكَلام عَلَى الإيجابِ.

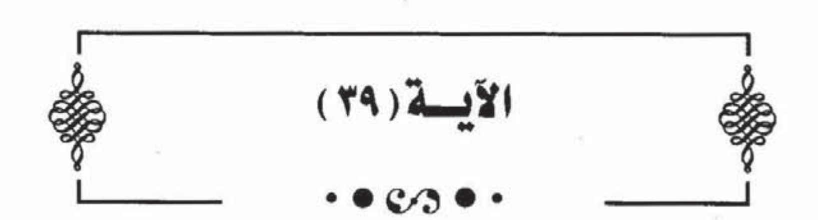
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أمامَ عدوِّه أن يُظْهِرَ العظمةَ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان أراد بإحضار هَذَا العَرْش إظهارَ عَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتِيَ بعرشها المحصَّن بلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ كما جرتِ العادةُ قُصُور الملوك لَا بُدَّ أن تكون محصَّنة وعليها حَرَس، لا سيما مثل العَرْش، وَأَمَّا زَعْمُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ إِنَّما أَتى به لِيَتَمَلَّكَهُ فلا دليلَ فِي الآية عَلَى ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِمَّا أَنَّهُ تَفَرَّسَ أو أُوحِيَ إليه بأن هَؤُلَاءِ القوم سوف يأتونه؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ردَّ الرَّسُول بالهَدِيَّة وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧]، ما جاءه الجوابُ، فطَلَبَ أن يُحْضَرَ عَرْشُها، ممَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ عِلم بأنها ستأتي وقومها، ولكِن من أين علم ذلك؟

قُلْنَا: إنَّهُ أَمَّا مِنْ وحي، وَإِمَّا من فراسة؛ لِأَنَّ مثل هَذِهِ العبارات الَّتِي تُرسَل: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ بهَذِهِ الْقُوَّة تقتضي أن العدوَّ يَخْنَعَ ويَخْضَعَ، إن كَانَ بفراسةٍ فَهُوَ دليل عَلَى جواز الحكم بالفراسة، وقد ذكرنا

عدة مراتٍ أَنَّهُ يجوز الحكم عَلَى الشَّيْء بمقتضى غَلَبَةِ الظنّ، بل يجوز أن يحلف عليه بمقتضى غلبة الظنِّ، والفِرَاسة تؤدي إِلَى غلبة الظنّ، ولكِن لَيْسَ مجرَّد الوهم يُجَوِّز أن تحكمَ بالظنِّ، بل لَا بُدَّ للفراسةِ من قرائنَ تدل عليها؛ إمَّا قرائن سابقة وَإمَّا قرائن مقارِنة، وَأَمَّا أن تحكمَ بشيءٍ لَيْسَ فِيهِ قرينةٌ فهَذَا حكمٌ بالظنِّ.

• ● ۞ ● •



الآية (٣٩)

﴿قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩].

• • ∞ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ هُوَ القويُّ الشديدُ]، العِفريت القويُّ الشديد، ولا زال هَذَا المَعْنى إِلَى الْآنَ موجودًا، إذا قُلْنَا: فلانٌ عِفريتٌ، يعني قويًّا شديدًا أو نَقُول أيضًا أبلغ من هَذَا.

قوله: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾: (آتي) اسم فاعل من (أَتى) فهو (آتٍ)، ومنه قولهم: (كل آتٍ قريبٌ)، وهنا يَصِحُّ أن يَكُون التَّقْدير: أنا آتٍ إليك به قبل أن تقومَ من مقامِك، لكِنِ الأقرب أَنَّهَا فعل، يُقَرِّبُهُ أن الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأفعال والكاف معمول ضَمير مَفْعُول به.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ الَّذِي تجلس فِيهِ للقَضاء، وَهُوَ منَ الغَداةِ إِلَى نِصفِ النَّهارِ]، هَذَا من الأُمُورِ الَّتِي لا دليلَ عليها، ولكِنّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ المُراد ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ بسرعةٍ، وهَذَا أسلوبٌ معروفٌ: أنا آتي به قبلَ أن تقومَ، إِلَى الْآنَ موجود هَذَا الأسلوب، فالمَعْنى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ بسرعة، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي: عَلَى هَذَا العَرْش ﴿لَقَوِيٌّ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي عَلَى حَمْلِهِ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: عَلَى ما فِيهِ من الجواهر وغيرها]، انظر لما قَالَ: ﴿آتِيكَ بِهِ﴾

هَذَا إحضارُه، ولكِن يحتاج إِلَى تأكيدٍ لهَذَا الأَمْر، أي تأكيد كونه يُحْضِره قبل أن يقوم من مقامه، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾، ولستُ بضعيفٍ، بل سوف أُحْضِره بهَذِهِ السرعة، وأيضًا ﴿أَمِينٌ﴾ أي: لا أَخُون فِيهِ شيئًا، لا عَلَى نفس العَرْش ولا عَلَى نفس ما فِيهِ من الجواهرِ وغيرها.

وهَذَان الوصفان يَحتاجُ إليهما كُلّ عاملٍ، كما قَالَ الله تَعَالَى عن بنتِ صاحبِ مَدين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وهَـذَانِ الوصفانِ مطلوبانِ فِي كُلّ عملٍ؛ لِأَنَّهُ إذا فاتتِ الْقُوَّة لم يَحْصُلِ العَمَلُ، من أجلِ العجزِ، وإذا وُجدت الْقُوَّة ولكِن فاتت الأمانة فَإِنَّهُ أيضًا يتخلفُ العَمَلُ بسبب الخيانةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال سُلَيْمان: أُريد أسرع من ذلك]، قَالَ هَذَا سُلَيْمان، لكِن هَذَا لا دليلَ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تسخير الجنّ لسُلَيْمان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ هُوَ أوّل مَن تكلَّم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: قوّة الجنّ؛ لِأَنَّهُ سوف يأتي بهَذَا العَرْش العظيم يحمله من سبأ من اليمنِ إِلَى الشام، وأيضًا فِيه دليل عَلَى سُرعتهم، وهي من أوصاف الْقُوَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهَذِهِ سرعة فائقة وعَظيمة، ومعلومٌ أَنَّهُم عندهم سرعة عظيمة؛ بدليلِ أَنَّهُم يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ منَ السَّماءِ، ولا يصل إِلَى السَّماء إِلَّا كَانَ مَن عنده سرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَصِفَ نفسَه بما اتَّصف به من صفات

الكمالِ ترغيبًا أو ترهيبًا، بشرطِ أنْ يَكُونَ ذلك حقيقةً، فوَصْفُ الْإِنْسَان نفسَه بما يتَّصف به نَقُول: إنَّهُ مباح، هَذَا الأَصْلُ، والمباح كما هُوَ معروف تَعْتَرِيه الأحكام الخمسة؛ فقد يَكُون واجبًا أحيانًا، وقد يَكُون محرَّمًا، ولا يمكن أن يَكُون مطلوبًا بكلِّ حالٍ؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ سيِّءٍ، ولا أَنَّهُ مذموم بكل حال؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ حسنٍ أو عَلَى سبيلِ الجوازِ، لكِن إذا اقتضتِ الحالُ البَيَان فقد يَكُون مطلوبًا إمَّا وجوبًا وَإمَّا استحبابًا، فقد يَكُون من باب التحدُّث بنعمة الله فيَكُون مطلوبًا، وقد يَكُون من أجلِ أن يمنع من لَيْسَ بأهلٍ من مباشرةِ هَذَا العَمَلِ، فحينئذٍ يَجِب أن يبيِّن نفسه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وهَذَا ترغيبٌ، وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ترهيبٌ، فيجوزُ هَذَا وهَذَا، لكِن بشرطِ أن يَكُون متَّصِفًا به حقيقةً، أَمَّا دَعْوى فلا، ومثل هَذَا ما جاء فِي الحديثِ: «مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[1].

فالْإِنْسَانُ الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَه بما لَيْسَ فيها هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مزوِّر، مزور بالخبر ومزور بالصِّفة، هُوَ أخبرَ عن نفسِهِ بما لَيْسَ فيها، فالخبر كذب وثُبُوت هَذَا الوصف للنفسِ مثلًا كذبٌ، فلذلك قَالَ: «كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»، ومِثل هَذَا أيضًا قولُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لو أعلمُ أنَّ أحدًا أعلمُ منِّي بكتابِ الله تَبْلُغُهُ الإبلُ لَرَحَلْتُ إليه، أو كما قال[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة، حديث رقم (٤٩٢١)؛ ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط، حديث رقم (٢١٣٠)، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أن مدارَ العَمَلِ عَلَى هذينِ الوصفينِ، وهما: الْقُوَّة والأمانة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لِأَنَّ مَن لَيْسَ بقويٍّ لا يُتْقِن العَمَلَ؛ لضعفِهِ، ومن لَيْسَ بأمينٍ لا يُتْقِن العَمَلَ أيضًا لخيانتِهِ، فقد يَكُون الْإِنْسَان قويًّا ويستطيعُ أن يعمل هَذَا العَمَل بكلِّ سهولةٍ ولكِنه لَيْسَ بأمينٍ، فلا يثق الْإِنْسَان به، ثُمَّ إن العَمَلَ لو أَنَّهُ أتقنَهُ يبقى الْإِنْسَان شاكًّا يَقُول: يمكن أَنَّهُ يقدِر أن يفعلَ أحسنَ من هَذَا لَكِنَّهُ ما فعلَ لِأَنَّهُ خائنٌ.

وكذلك أيضًا لو كَانَ الْإِنْسَان أمينًا لَكِنَّهُ عاجزٌ فَإِنَّهُ لن يُتْقِن العَمَلَ لِعَجْزِهِ، لكِن أَيُّهم أشدُّ لومًا؟

الخائنُ أشدُّ، ومَن لَيْسَ بقويٍّ أيضًا عندَه نوعُ خيانةٍ؛ لِأَنَّ كونه يدخل فِي العَمَلِ وَهُوَ لَيْسَ بقادرٍ عليه أو لَيْسَ بقويٍّ عليه فهَذَا لَا شَكَّ أيضًا أَنَّهُ خطأ وخيانةٌ، ولهَذَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لأبي ذَرٍّ: «إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَتَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[1].

فالْإِنْسَانُ الضعيفُ لا يجوز أنْ يتدخَّل فِي شيءٍ يَعْرِف أَنَّهُ لا يستطعُ إتقانَه، لا سِيَّما إذا كَانَ يوجد فِي النَّاس مَن يُحْسِنُه، فهَذِهِ تُعْتَبَرُ خيانةً لنفسِه ولغيرِه؛ خيانة لنفسه؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقةِ جَشَّمَهَا مرقًى صَعْبًا يريد أن يظهرَ ضَعفهُ أمامَ النَّاسِ، وخيانة لغيره حَيْثُ تَقَبَّلَ أعمالهم وَهُوَ لا يُحْسِنُها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا اجتمع عندنا أربعةُ أشخاصٍ أحدهم: قويّ أمين، والثاني: قويّ غير أمين، والثَّالث: أمين غير قويّ، والرَّابع: ضعيف خائِنٌ؟

---

(١) رواه مسلم، الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم (١٨٢٦)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قُلْنَا: القويُّ الأمين مقدَّم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، والخائن الضعيف مؤخَّر بلَا شَكٍّ، هَذَان طرفانِ معلومانِ.

أما القوي الخائن والضعيف الأمين فالصَّحيح أنه يَجِب أن ننظرَ أيُّهما أولَى مراعاةً، فإذا كَانَ فِي عملٍ الْقُوَّة فِيهِ أظهرُ فهنا يُقدَّم القويُّ؛ لِأَنَّ القوي وإن كَانَ عنده خيانة فربما تَحْمِله قوته عَلَى إتقانِ العَمَلِ؛ لأجل أن يَشْتَهِرَ بهَذِهِ الْقُوَّة مثلًا، أَمَّا إذا كانت المسألة لا تحتاج إِلَى عملٍ وقوة لَكِنَّها تَتَطَلَّبُ الأمانة فهنا يُقدَّم الأمين، وهَذَا واضح إذا كَانَ فِي عملينِ:

أحدهما: يظهر فِيهِ قصد الأمانة.

والثاني: يظهر فِيهِ قصد الْقُوَّة.

كالأمير مثلًا، الأمير يظهر فِيهِ قَصْد الْقُوَّة، يعني قوة الأمير، وإنْ كَانَ غيرَ أمينٍ، فهو أنفعُ للمجتمعِ من أميرٍ ضعيفٍ أمين، والقاضي بالعكسِ؛ فالأمانةُ فِي حقِّه أظهر؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ أمينًا -وإن كَانَ ضعيفًا؛ لِأَنَّ الَّذِي سَيُنَفِّذ لَيْسَ القاضي، خصوصًا فِي عصرنا، فالْآنَ التنفيذ لجهة الإمارة، فالقاضي يَحْكُمُ فقط- فإذا كَانَ أمينًا فهنا قصد الأمانة فِي القضاءِ أظهرُ من قصد الْقُوَّة، وَعَلَى هَذَا فَقِسْ.

ولكِن إذا كَانَ العَمَلُ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْقُوَّة والأمانةُ فهَذَا مَحَلُّ نظرٍ، ولا يمكن أن نَحْكُمَ بِحُكْمٍ عامٍّ، بل إننا نَنْظُرُ فِي القضيةِ المعيَّنة، وإذا تشاحَّ اثنانِ فِي عملٍ يَتَطَلَّب الْقُوَّة والأمانة معًا ولا يظهر فِيهِ فضل أحدهما عَلَى الآخر، فحينئذٍ لا أستطيعُ أن أحكمَ هنا حكمًا عامًّا، بل إِنَّما يُنْظَرَ فِي كُلّ مسألةٍ بخصوصها، ويُنظَر للقرائنِ وينظر أيضًا للأشخاصِ، ومَن تَظهَر فِيهِ الْقُوَّة أكثر من ظهور الأمانة فِي الثاني، أو الأمانة فِي هَذَا أكثر من ظهور الْقُوَّة فِي الثاني.

وعَلَى كُلِّ حالٍ: هَذِهِ المسألة لا نَحْكُمُ فيها بحُكْمٍ عامٍّ، بل نحكم فيها بالقضيَّة المعيَّنة، ونَقُول: يُقدَّم هَذَا عَلَى هَذَا عندما تحصل القضية المعيَّنة.

فالحاصل إِذَنْ: أقسام النَّاس باعتبارِ العَمَلِ أو باعتبارِ القيامِ بالعَمَلِ أربعةٌ: قويّ أمين، وضعيف خائن، وقوي خائن، وضعيف أمين.

ومعلوم -كما تقدَّم- أنَّ الأوَّل يُقدَّم عَلَى كُلّ حالٍ، والثاني يؤخَّر عَلَى كُلّ حال، والثَّالث والرَّابع بينهما تزاحُم، فيُنظَر إِلَى ما كَانَ يَستدعي الْقُوَّة أكثر فيُقدَّم فِيهِ القوي، وما كَانَ يستدعي الأمانة أكثر يُقدَّم فِيهِ الأمين، وما احتمل أمرينِ يُنظَر فِيهِ إِلَى القضية المعينة حَتَّى نستطيع أن نقدِّم هَذَا عَلَى هَذَا... إِلَى آخره.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّب شؤون حياته، وأن له مجلسًا خاصًّا معروفًا معيَّنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُقدَّرٌ بمدَّة معلومة، وإِلَّا لم يكن لذلك فائدة؛ لِأَنَّ قيامه من مقامِه إذا لم يكن معلومًا فهلْ يُدْرَى متى ينتهي؟! قد يبقى يومًا كاملًا فِي مكانِهِ وقد لا يبقى إِلَّا دقيقةً واحدةً، فلولا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّب أوقاته حَتَّى أصبحتْ معلومةً للناس ما قَالَ مثل هَذَا الكَلام.

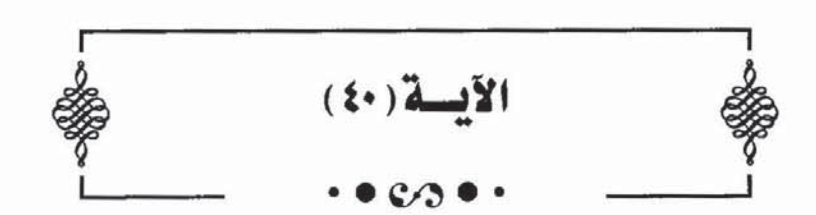
وأمَّا تقديره بما قاله المفسِّر: من الغداة إِلَى نصفِ النَّهارِ، فهَذَا لا نَدري، اللهُ أَعْلَمُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: يؤخَذ منه أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قد رتَّب أوقاته حَتَّى صارتْ معلومةً، وهَذَا لا سيما بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ المُرادِ -الَّذِي يريده النَّاسُ- أَمْرٌ مِنْ أهمِّ الأُمُور، أَنَّهُ يرتِّب أموره حَتَّى إن الإِنْسَان الَّذِي يريده فِي حاجة يعلم أَنَّهُ فِي هَذِهِ الساعةِ يجده، وَفِي الساعة الأُخْرَى لا يجده فيستريح، مثلًا يرتِّب لنفسِه جلسةً فِي بيتِه

أو فِي مكانٍ للناس عَلَى سبيل العمومِ، إمَّا بين العشاءين أو بَعْد العصر أو الضحى، المهم شَيْء يعرفه النَّاس، فيرتب لنفسِهِ مثلًا عملًا معينًا يعرفه النَّاس، حَتَّى يأتي إليه من أراده فِي هَذَا العَمَل.

المهمُّ يُستفاد من ذلك أن سُلَيْمَانَ قد رتَّب أعمالَه فِي وقتِه، والثاني أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ خُصوصًا المُرَادَ من أميرٍ وقاضٍ وعالمٍ ووجيهٍ وغيره؛ أَنْ يَجْعَلَ له أوقاتًا محدَّدة حَتَّى إن النَّاس يشعرون بأن هذا الرجل رجل منظَّم، ويشعرون بأن الْإِنْسَان الفوضويّ إن شاء جلس وإن شاء قام أَنَّهُ لَيْسَ بمنظَّم فلا يعتبرونه شيئًا.

• • ۞ • •



الآيــة (٤٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُنْزَل، وَهُوَ آصَفُ بنُ برخيا، كَانَ صِدِّيقًا يعلَم اسمَ اللهِ الأعظم الَّذِي إذا دعا به أُجِيبَ]، قولُ المُفَسِّـر: [إذا دعا به]، المعروف أن اسْم الله الأعظم: الَّذِي إذا دُعي به أجاب، لكِن يَحتمِل أَنَّهُ قول المُفَسِّر: [إذا دعا به]، أي: هَذَا الرجل الَّذِي عنده علم من الكتابِ، يعني أن هَذَا الرجل قد جرّب وعرف أَنَّهُ إذا دعا الله تَعَالَى بهَذَا الاسم أجابه، فيَكُون هنا أنسب أن يقالَ: إذا دعا به أجاب؛ لِأَنَّ هَذَا الرجلَ الَّذِي عنده علم من الكتابِ يعلم أو قد جرَّب أَنَّهُ إذا دعا بهَذَا الاسم أجاب.

وهَذَا أيضًا لَيْسَ بلازمٍ أن يَكُون هَذَا الْإِنْسَان الَّذِي عنده علم من الكتاب يريد أن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى باسمِهِ الأعظمِ، وإنما نَقُول: هَذَا الرجل أعطاه الله تَعَالَى علمًا من الكتاب المنزل، ولَا شَكَّ أن الْإِنْسَان العالمَ يعرف الأدوات والصيغ الَّتِي تكون أقربَ إِلَى الإجابةِ سواء باسمِ اللهِ الأعظمِ أمْ بغيره.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذا نظرتَ به إِلَى

شيءٍ]، الله أكبر! أيُّهما أسرع؟

الثاني أسرع؛ لِأَنَّهُ كلَمْح البَصَر، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ أي: يَرْجِع ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: نَظَرُك، فأنت مثلًا إذا نظرتَ أمامك ثُمَّ حَرَّكْتَ طَرْفَك فإن هذا يَكُون بسرعةٍ فائقةٍ، وتأمل -سبحان الله العظيم- سيأتي به من اليمن إِلَى الشام بهَذِهِ السرعةِ العظيمةِ؛ لِأَنَّهُ يأتي بأمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا أجاب الداعيَ لا يحتاج إِلَى مدَّةٍ ولا إِلَى مُهْلَةٍ، ولكِن مَعَ ذلك يُقَدِّرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأُمُور بأَسْبابها، قد يدعو الْإِنْسَان لمريضٍ أن يشفيَه الله تَعَالَى، ولكِن هل يُشفى كلمحٍ بالبصر؟

لا، له أَسْبابٌ تُقَدَّر، لكِن الأَسْبَاب تَنعقِد فورًا إذا أرادَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يُجيبَ، مَعَ أن الله قادر عَلَى أن يُبرِئ هَذَا المريضَ فِي لحظة، مثلما كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يؤتَى أحيانًا بالمريضِ فيدعو له فيشفى فِي لحظةٍ، وقد جيء إليه بعليِّ بنِ أبي طالبٍ فِي خَيبَرَ وَهُوَ يشتكي عينه فبَصَقَ فيها ودعا فبرأَتْ، كَأَنْ لم يكنْ بها وجعٌ فِي الحالِ[1]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على كلِّ شَيْءٍ قدير، ولكِن تأَخُّر الشَّيْء لا يدل على أنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بقادرٍ عَلَى إبرائِه حالًا، ولكِنه يَدُلّ عَلَى أن الله حكيمٌ يُقَدِّرُ الأُمُورَ بأَسْبابها، حَتَّى خلق السَّماوَات والْأَرْض فِي ستةِ أيامٍ ذَكَرْنا فيما سبق أَنَّهُ لفائدتين:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٣٩٧٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أولًا: ما اشتهر عندَ أهلِ العلمِ من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلها فِي ستة أيامٍ ليُعَلِّمَ العبادَ التأنِّيَ فِي الأُمُورِ، وأن المهمَّ إحكام الأَمْر لا التعجيل فيه.

وشَيْء آخر: أن خلقَ هَذِهِ الأَشْيَاء يحتاج إِلَى أَسْبابٍ ومكوِّناتٍ تتفاعل وتنتهي إِلَى الكمال، فلهَذَا صارت فِي ستة أيام.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال له: انظُرْ إِلَى السَّماء، فنظر إليها، ثُمَّ رَدَّ بِطَرْفِهِ فوجده موضوعًا بين يديه، ففي نظره إِلَى السَّماء دعا آصَفُ بالاسمِ الأعظمِ أن يأتيَ اللهُ به، فحصلَ بأن جَرَى تحت الْأَرْض حَتَّى نبعَ تحتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمان]، الله أكبـرُ! هَذِهِ القِصص غرائبُ! أولًا هل هَذَا الَّذِي عنـده علم من الكتاب قَالَ لسُلَيْمان: انظر إِلَى السَّماء؟! لا دليل عَلَى هَذَا، وَلَيْسَ هناك حاجة إِلَى أن يَقُول له: انظرْ إِلَى السَّماء، فقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأيّ نظرٍ أدرتَ طرْفك إليه.

ثانيًا: يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ جرى تحت الْأَرْض حَتَّى نبع تحت الكرسيّ، فيجوز أَنَّهُ جاء من تحت الْأَرْض، ويجوز أَنَّهُ جاء من فوق الْأَرْض، أو جاء من محلٍّ عالٍ جدًّا ونزل، كُلّ هَذَا لا ينبـغي الجزمُ به، بل يقال: إن الله عَلَى كُلّ شيءٍ قدير، المهمّ أن العَرْش حَضَرَ فِي لحظةٍ قبلَ أنْ يَرْتَدَّ إليه طرْفُه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا]، هَذِهِ أشكلتْ عَلَى النحْويِّين؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّ من قواعدهم: إذا كَانَ الظرف أو الجارّ لمجرور مُتَعَلَّقُهُ عامًّا فَإِنَّهُ يجب حَذْفُه، مثلًا تقول: زيد فِي البيـت، لا يجوز أن تقول: زيد كائنٌ فِي البيت، بل يَجِب حذف (كائن)؛ لِأَنَّهُ عام، أَمَّا إذا كَانَ خاصًّا مثل: زيد محبوس فِي البيت، فيجب ذِكْرُه؛ لِأَنَّ (محبوس) لو حُذفت ما دلَّ عليها دليل، بخلاف: زيد فِي البيت؛ فَإِنَّهُ بمجرد النطق به يتبين للمُخَاطَب أن المَعْنى كائن فِيهِ أو موجود فيه،

فهم يَقُولُونَ: إذا كَانَ الجارّ والمجرور أو الظرف متعلقه عامًّا وجب حذفه، وهنا (مستقرًّا) عامٌّ، فإذا قلت: (زيد فِي البيت) أي مُسْتَقِرّ فِي البيت، يعني كائنًا فيه، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول[1]:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ

لكِن قَالُوا: إن الاستقرار هنا لَيْسَ الاستقرارَ العامَّ حَتَّى يَجِب حَذْفُه، بل هُوَ استقرارٌ خَاصّ غيرَ مُطلقِ الوجود، فلمَّا كَانَ استقرارًا خاصًّا غير مطلَقِ الوجود صار كالمَعْنى الخاصّ، ولذلك ذُكِرَ، قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾، لاحِظْ لو قَالَ: «فلمّا رآه عنده» لا تدلُّ عَلَى المَعْنى فِي كلمة (مُسْتَقِرًّا)، صحيح أن معنى: لما رآه عنده، أي: لما رآه كائنًا عنده، لكِن لا تدلّ عَلَى أن هَذِهِ الكَيْنُونة كانتْ باستقرارٍ وثباتٍ، وأيضًا ربما يُفْهَم من قوله: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ ما أشار إليه العِفريت فِي الأوّل وَهُوَ الْقُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّهُ بالْقُوَّة والأمانة يأتِي العَـرْش عَلَى ما هُوَ عليه لا يَتكَسَّـر، فالْإِنْسَان الضعيف مثلًا ربما عند حَمْلِه وَهُوَ ضعيف يسقط من يده، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فيتكسّر، أو إذا لم يكن أمينًا لا يُهِمّه أن يضربه جبل أو شجر أو مَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، أو هُوَ نفسه يتسلّط عليه.

فالحاصل: أن هَذَا الاستقرارَ له معنًى خَاصّ غير الاستقرار العامّ، فلذلك ذُكر.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا عندَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سُلَيْمان رأى العَرْش مستقرًّا، والاستقرارُ هنا أمر زائدٌ عَلَى مجرَّد الكينونة، ولو كَانَ الْمُراد بالاستقرارِ هنا مجرَّد

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧، الابتداء)، ط. دار التعاون.

الكينونةِ لكان ذِكْرُهُ غيرَ بليغٍ، ولهَذَا فسَّر المُفَسِّر الاستقرارَ هنا بالسكونِ، يعني كأنَّ له أزمانًا وَهُوَ فِي هَذَا المكانِ، كما إذا أتيتَ بشيءٍ ووضعتَه بمكانٍ وتريد أن تركّبه وتُعدِّله وتُزيِّنه، لا سيما العَرْش الَّذِي له قوائمُ فِي العادةِ، فهَذَا العَرْش ثابتٌ كأن له سنينَ، وهَذَا من كمال القدرة أيضًا.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾: ﴿مِن﴾ هَذِهِ لبيَان الجنسِ أو للتبعيضِ؛ لأنا إذا قَصَدْنا بالفضلِ الجنسَ فهي لبيَان الجنسِ، وإذا قصدنا بالفضلِ هَذَا الشَّيْءَ المعيَّن فهي للتبعيضِ.

عَلَى كُلّ حالٍ: هِيَ صالحةٌ لهَذَا ولهَذَا.

وقوله: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾ الفضل هُوَ العطاءُ الزائدُ، وفضلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى العبدِ لا يُعَدّ ولا يُحصى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ومن فضل الله عَلَى عبدِهِ أن يُحْسِن إليه ثُمَّ يَعُدُّ إحسان العبدِ إحسانًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، نَقُول: ما جزاءُ المحسنينَ الَّذِينَ أحسنوا عملهم إِلَّا أن يحسنَ إليهم، وإحسانهم أو عملهم إحسانٌ منَ الله، ولكِن هَذَا من باب تمام الفضلِ منَ الله عَلَى عبادِهِ أن يَعُدَّ إحسانَ عملِهِم -وَهُوَ منه- إحسانًا منهم، كأنهم هم المتفضِّلون به، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ اللهمَّ لك الحمد.

وقوله: ﴿رَبِّي﴾ الرُّبُوبِيَّة هنا خاصّة، ولهَذَا أضافها إِلَى نفسه فقال: ﴿رَبِّي﴾ وقد مرّ علينا أن الرُّبُوبِيَّة عامّة وخاصّة، وأن العُبُودِيَّة كذلك عامّة وخاصّة، وأنّ الخاصّة فيها ما هُوَ أخصُّ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فربوبيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى وهارون غير رُبُوبِيَّة الله

لعبادِهِ الصالحينَ الآخَرينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ لِيَخْتَبِرَنِي]، اللام للتعليل [﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بتحقيق الهمزتينِ وإبدالِ الثَّانِيَةِ ألفًا وتسهيلها، وإدخال ألف بين المسهَّلة والأُخْرَى وتركه]، بتحقيق الهمزتين: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾، إبدال الثَّانِيَة ألفًا (آشكر)، تسهيلها ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ اجعل الهمزة مسهلة بين الألف وبين الهمزة، وإدخال ألف بين المسهلة والأُخْرَى وتركها، يعني معناه: إذا قرأتَ بالتسهيلِ فلها صورتانِ:

الصورة الأولى: إدخال ألف (أااشكر) اجعل بَعْد الألف همزة مسهلة.

الصورة الثَّانِيَة: بدون ألف، يعني أن التسهيل يجوز فِيهِ المد قبل التسهيل وعدم المد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ للنعمة]، فبماذا يَكُون الشكر؟

يَكُون الشكرُ بالثَّناء عَلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النعمة بذاتها، وكذلك الاعتراف بالقلب بأنها مَحْضُ فضلٍ منَ اللهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لك بها مِنَّةٌ عَلَى ربِّك، والثَّالث القيام بما تَقْتَضِيه هَذِهِ النعمة من واجبٍ، وهَذَا الشكر الخاصّ لَيْسَ الشكرَ العامَّ؛ لِأَنَّ الشكرَ يَكُونُ عامًّا بحيثُ يُوصَف الْإِنْسَان بأنه من الشاكرينَ عَلَى الإطلاق، ويَكُون خاصًّا بحيث يُوصَف بأنه من الشاكرينَ عَلَى هَذِهِ النعمة فقطْ.

مثال ذلك: رجل آتاه الله مالًا، فالشكر الخاصّ عَلَى هَذَا المال أن يتحدث بِهَذَا المال عَلَى أَنَّهُ من فضلِ الله ونعمته، وأن يعتـرفَ بقلبه أَنَّهُ فضلٌ من الله، لا يَقُول: أُوتِيتُهُ عَلَى علم عندي.

والثَّالث أن يقوم بواجـب هَذَا المال من دفع زكاتِه وما يترتَّب عليه بسبب

هَذَا المال، لكِن قد يَكُون الْإِنْسَان مثلًا من جهة أخرى يَعصي اللهَ وفَرَّط فِي الصَّلَاة أو مُفَرّط فِي الصِّيَام، فهَذَا لا نَصِفُه بأنه شاكر عَلَى الإطلاق، لَكِنَّهُ قائمٌ بِشُكْرِ النعمةِ المعيَّنة.

إِذَنِ: الشكرُ نوعانِ: شُكْرٌ مُطْلَقٌ وشكر خـاصٌّ، فالشكر الخـاصّ أن يقومَ بشكرِ النعمةِ المعيَّنة بما تَقْتَضِيهِ، والشكر العامّ أن يَكُون قائمًا بطاعة المُنْعِمِ مُطْلَقًا فِي جميع الأحوال، وأنت لو تأمَّلتَ هَذَا وجدته موجودًا فِي عامَّة الأوصاف المحمودة والمذمومة أيضًا، فالتوبة قد يُوصَف الْإِنْسَان بأنه تائبٌ توبةً خاصَّةً مقيَّدة من ذنب معيَّن، وقد يُوصَف بأنه منَ التائبين عَلَى سبيل الإطلاق.

قول سُلَيْمان ﷺ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ عَلَى أيِّ وجهٍ نَحْمِله؟

إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى العموم، فمعناه أَنَّنا رَمَيْنا سُلَيْمان ﷺ بأنه لَيْسَ بشاكرٍ لنعمةِ اللهِ فِي غير هَذَا، وإذا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى الخصوص، يعني عَلَى هَذِهِ النعمة المعيَّنة، فَهُوَ أَولى، ولهَذَا قَالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾ يختبرني به ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ الله عليه ﴿أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ فالظَّاهر أَنَّهَا هنا عَلَى سبيل الخصوصِ، يعني: عَلَى هَذِهِ النعمة، أَمَّا النِّعم الأُخْرَى فنحن نؤمنُ بأن سُلَيْمان قد قام بشكرها؛ لِأَنَّهُ ﷺ كما تقدَّم فِي قِصَّة النَّمْلة قَالَ مثل هَذَا الكَلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ [النمل:١٩]، فالذي نَعتقد، وَهُوَ أقربُ من حالِ سُلَيْمان، أَنَّهُ قد شكرَ نعمةَ اللهِ عَلَى النعمِ الأُخْرَى، فقال: ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ عَلَى هَذِهِ النعمةِ ولم يقلْ: أَأُتِمّ الشكرَ. وقوله: ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ فعل مطلَق.

فالحاصل: أن الَّذِي يظهر لنا أَنَّهَا عَلَى هَـذِهِ النعمةِ، ليبلوني هل أشكرها أم

أكفرها؛ لِأَنَّ كُلّ نعمةٍ تحتاج إِلَى شكر خاصّ، والشكر العامُّ معروفٌ؛ يَقُول الْإِنْسَان: أشكرُ اللهَ.

ويُضْمِر فِي قلبه أَنَّهُ شاكرٌ لله عَلَى جميع النعمِ، لكِن عند نعمة معيَّنة تحتاج هِيَ أيضًا إِلَى شكر خاصّ، فالشكر عَلَى المالِ لَيْسَ كالشكرِ عَلَى غيره، مثلًا إِنْسَان عنده قوَّة وقُدْرة عَلَى الرميِ والجهادِ فشكرُ هَذِهِ النعمةَ أنْ يَسْتَعْمِلَها فِي الجهاد، يعني يجاهد.

عنده قدرة عَلَى بَيَان الْحَقّ بما أعطاه الله تَعَالَى من العلمِ والفهمِ شُكْرُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النعمةِ أنْ يُبيِّنَ هَذَا الأَمْرَ.

فتجد أن الشكر يَختلف إذا اعتبرنا كُلّ نعمةٍ بِحَسَبِها؛ لِأَنَّ الأَمْر يختلف، نَقُول: شكر هَذَا غير شكر هَذَا، لكِن الشكر المطلَق أنْ نَعْتَقِدَ بأن جميعَ الفضائلِ والإنعاماتِ كلّها منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهَذا يَشترك فيه جميعُ النَّاسِ.

والمُراد بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وقد تقدَّم أن الشكرَ والتوبةَ والكفرَ والإيمانَ كُلّ هَذِهِ تَتبعَّض وتكمل: مُطْلَق شَيْء وشَيْء مُطْلَق.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَقُول سُلَيْمان: أم أكفر. والكفر كلمة نابيةٌ تَنْفُرُ مِنْهَا النفس، فلماذا لم يقل: (أأشكر أم لا أشكر) مَعَ أن المَعْنى واحد، لكِن هَذِهِ أهونُ؟

قُلْنَا: لأجلِ رَدْعِ نفسِه عن المخالفةِ وعدم القيام بالشكر، حَتَّى يُبيّن لنفسه أَنَّهُ إذا لم يشكرْ فمعناه هُوَ الكفر، فلكلِّ مَقامٍ مقال، فقد تخاطب إِنْسَانًا ترى أَنَّهُ لم يشكرْ نعمة الله عليه فتَخْشَى إذا قلتَ: أنت كافر بالنعمة أن ينفرَ منك ويزداد نفورًا حَتَّى من النعمة.

وإذا قلت: أنت لم تشكرْ تمامَ الشكرِ أو حقَّ الشكرِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وجدت أَنَّهُ أهون، والأساليب تؤثِّر.

يقال: إن مَلِكًا منَ الملوكِ رأى رؤيا فأَفْزَعَتْهُ؛ فقال: عليَّ بالعابرينَ. فأحضروا له العابرينَ، فقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سَقَطَتْ، فما ترونَ؟ فقام كَبيرُهم فقال: أرى أنَّ أَهْلَكَ سَيَمُوتون. فانزعجَ الملِكُ؛ فقال: أَوْجِعُوه ضربًا. فأوجعوه ضربًا، فقال: اتركوه، ثُمَّ دعا بمعبِّرين آخرينَ وقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سقطتْ. فقام كبيرهم وقال: الملِكُ أطول أهلِهِ عُمُرًا. ففَرِح. مَعَ أن المَعْنى واحد؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ إذا ماتوا صار هُوَ أطولَهم عمرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمان ﷺ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ هل يجوز للإِنْسَان العاديّ أن يَقُول ذلك؟

فالجواب: يجوز للإِنْسَان العادي أن يَقُول: إن الله ما أعطاني هَذَا الشَّيْء إِلَّا لأجلِ أنْ أشكرَ أو أكفرَ، فالإِنْسَان العادي يجوز أن يَقُول هَذَا؛ لأَنَّنا لو قُلْنَا بغيرِ هَذَا صار هَذَا خاصًّا بمثل مقامِ سُلَيْمان وَلَيْسَ كذلكَ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فضل الله عَلَى العِبَادِ مِن أَجْلِ ظُهُورِ أَثَرِ نعمتِه عَلَى العبادِ، فما وجه قولهم: «وهو الخالق وإن لم يوجدِ المخلوقُ»؟

فالجواب: قَصْدُهم أن الله جَلَّوَعَلَا خالقٌ بمعنى أن هَذِهِ الصِّفة صفة له قبل أن يوجدَ المخلوقُ، كما أن الله تَعَالَى متَّصِف بالكَلام مَعَ أَنَّهُ يتكلم بمشيئته، فَهُوَ متَّصف بالخلق مَعَ أَنَّهُ يخلق بمشيئته.

فالحاصل: أن التعبير له دخل فِي قبول الحَقّ والنفور منه، وقد تقدمتْ قِصَّة

إبراهيم ﷺ حَيْثُ قَالَ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، ما قَالَ: أنت جاهل ولا تدري ولا تعرف ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، وهَذَا فضل الله يُؤْتِيهِ مَن يشاء، وبعضُ النَّاسِ يَهَبُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُدْرَةً عَلَى التعبيرِ حَتَّى إن العبارات تكون بيدِه كالعجينِ، يُلان له القَوْل فِي كُلّ ما يريد، فتجده يستطيع حَتَّى لو أراد أن يُخْرِجَ لسانه كلمة لا يريدها بسرعة يجد بدلها، وبعض النَّاس لا يستطيع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَهَبُ فَضْلَهُ مَن يشاءُ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شُكْرِهِ ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضالِ عَلَى مَن يَكْفُرُها]، يعني مَن كفر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾: غنيٌّ عن شُكْرِه صَحِيـح، أو غني مُطلقًا، ومِن جملة ما هُوَ غنيٌّ عنه شُكْرُ هَذَا الإِنْسَانِ عَلَى نعمةِ اللهِ، فإن الله تَعَالَى ما أنعمَ عَلَى العبادِ لحاجتِهِ إِلَى أن يَشْكُرُوهُ، بل لِفَضْلِهِ عليهم وظهورِ آثارِ أوصافه، وظهور صفاته العظيمة ما يَكُون إِلَّا بأفعالِهِ الَّتِي من جُمْلتها النعم أو النِّقَم أيضًا، لِتَظْهَرَ بذلكَ صفاتُ الانتقامِ والغضبِ.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أَنَّهُ قد يُبْقِي النعمةَ عَلَى مَن كَفَـرَها تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراجًا، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ يَهَبُ فضلَه مَن يشاء، قد يُبْقِي اللهُ النعمةَ عَلَى الكافرِ بها استدراجًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقد يُبْقِي الله تَعَالَى النعمَ مَعَ الكفرِ تَرْبِيَةً، بحَيْثُ إِنَّ الإِنْسَان يفتحُ الله عليه التأمُّل فيخجل من الله عَزَّوَجَلَّ أن يَكُون هُوَ يبادرُ الله تَعَالَى بالمَعاصِي، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُدِرُّ عليه النعمَ، فيَرْتَدِع، وهَذَا هُوَ ظاهر قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ الكرم فِي مقابل الكفر

لا يَكُون إِلَّا حَيْثُ يَكُون ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافرِ بها، وإِلَّا ما ظهر آثار الكرمِ، بل ظهر آثار الحِكْمَةِ، لو قَالَ: حكيم صار هَذَا يشمل من تدرّج الله به حَتَّى أهلكه، لكِن كريم: ما يَتِمّ الكرم للكافر بالنعمة إِلَّا حَيْثُ كَانَ إبقاء النعمة عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جنودَ اللهِ تَعَالَى وهم الملائكةُ، أَقْوَى من الجنّ؛ لِأَنَّ ذاك قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهَذَا قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فأيُّهما أسرعُ؟

الأخير بلَا شَكّ، ولا سواء؛ لِأَنَّ الَّذِي عنده علمٌ منَ الكتابِ عالمٌ ولا وسيلة له إِلَّا بالدعاءِ، والظَّاهر أَنَّهُ رجلٌ وَلَيْسَ من الجنّ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفصولة عن قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والأَصْل أن الكَلام مَعَ الإنسِ، ولأن كُلّ قائل لَيْسَ من البشرِ لَا بُدَّ أن ينوّه عنه؛ لِأَنَّ الأَصْل أن البشرَ هم الَّذِينَ يتخاطبون، وهم الَّذِينَ يتفاهمون، فإذا كَانَ من غيرهم نوّه عنه مثلما نوّه عن الجنِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ كون هَذَا العَرْش العظيم يأتي من اليَمَنِ إِلَى الشام فِي لحظةٍ، لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قُدرة الله الَّتِي لا يتصوّر الْإِنْسَان كيف تكون، الْآنَ هل يمكن أن نتصوّر كيف يجيء بهَذَا العَرْش مِنَ اليمن إِلَى الشام قبل أن يرتدّ للإِنْسَان طرْفه، لو كَانَ يطير طيرانًا أشدّ من الدُّخَان ما يتصور أَنَّهُ يأتي بهَذِهِ السرعةِ، ولا نتصور أن الْأَرْض طويت طيًّا حَتَّى التقى هَذَا بهَذَا أيضًا، فقُدْرَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمْكِن للإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَوَّرَهَا، فتأتي فوق التصوّر، وهَكَذَا جميعُ صفاتِ اللهِ، قَالَ تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، بقوله: (كُنْ) فيصير جميع الخلائق كلهم عَلَى ظهر الْأَرْض، مَن يتصور هَذَا؟! لا تستطيع أن

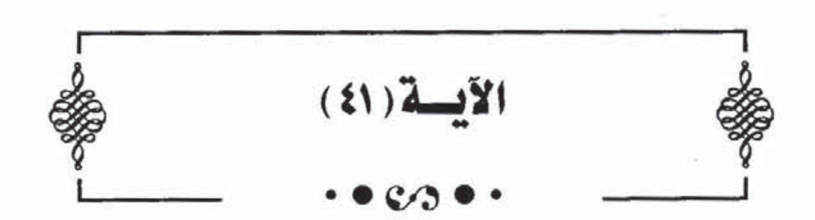
تتصوره، يعني أن الْإِنْسَان لا يتصور أن الْأَرْض تتفتح وتتشقق بـ(كن)، فالمهمّ أن هَذَا نموذج من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي عجز العقل مهما بلغ عن إدراكِ كُنْهِ قُدرةِ الله، وكذلك بقية صفاتِه، فأنتَ أيُّها الْإِنْسَان عِلْمُكَ محدودٌ، وطاقتك محدودةٌ، ولا يمكنُ أن تتجاوزَ أكثرَ ممَّا تشاهِد أو ممَّا أَطْلَعَكَ اللهُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى سُلَيْمان، حَيْثُ سَخَّر له أهلَ العلمِ والجنّ؛ الجنّ فِي أوَّل الأَمْر وصاحب العلم بَعْد ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: هل قوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ مبالغةٌ أو حقيقةٌ؟

نَقُول: حقيقةٌ، وإلا لقُلْنَا: إنَّهُ يجوز المبالغةُ فِي الأُمُورِ، ولكِن عَلَى كُلّ حالٍ المبالغةُ فِي الأُمُورِ قد وردتْ فِي غير هَذَا النصّ؛ أنَّ الْإِنْسَان يبالغُ وإنْ كَانَ لَيْسَ مقصودًا عَلَى سبيلِ الحقيقةِ، وقد جاء ذلك فِي الْقُرْآن وَفِي السنَّة أيضًا؛ المبالغة فِي الأُمُور.

• • ۞ • •



﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١].

• • ••• • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غَيِّـروه إِلَى حالٍ تُنْكِره إذا رأَتْه]، والتنكيرُ يحصُل بتغييرِ أَدْنَى صفةٍ من صفاتِه، فإذا كانتْ قوائمُه طويلةً يمكن أن يقصر القوائم فيكُون تنكيرًا، إذا كَانَ لون إحدى عواضده مثلًا أحمر فيمكن أن نجعله أخضرَ، يعني سواء هَذَا التنكير بالأجزاءِ أو باللونِ أو بالفرشِ الظَّاهرُ أن هَذَا داخلٌ فِي التنكيرِ. وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿نَكِّرُوا۟﴾ فعلُ أمرٍ، ﴿نَنظُرْ﴾ مجزوم عَلَى أَنَّهُ جواب الأَمْر.

قوله: ﴿نَكِّرُوا۟﴾ انظر العظمةَ، قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿نَكِّرُوا۟﴾ ولم يوجِّهِ الخطابَ إِلَى شخصٍ معيَّن، وهو ما يَدُلّ عَلَى أن كُلّ جنوده فِي طاعتِه؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ يَخشَى أن أحدًا من الجنودِ يَتَمَرَّد لكان يوجِّه الخطاب إِلَى شخصٍ معيَّن لأجل أن يُحرِجَه فلا يستطيع أن يقولَ: لا، وهَكَذَا عظمـةُ السلطانِ تكون بمثـل هَذَا، فعندما يَقُول السلطان أو الأمير: القهوة يا ولد، فكُلّ الحاضرين يَفْزَعُون: قهوة قهوة، وتأتيه بسرعة. ففي قوله: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ نَقُول: هَذَا خطابُ عظَمَةٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إمَّا أَنَّهُ يقصد نفسه ويَكُون تعظيمًـا، أو مَعَ جنوده وحاشيته ينظرون جميعًا ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهَذَا كله أيضًا من أساليبِ الاختبارِ الَّذِي يَخْتَبِرُ به سُلَيْمَـان هَذِهِ المَرْأَةَ كمـا اخْتبَرَهَا أيضًا فيما يأتي فِي مسألةِ الصَّرْح.

وأمّا قول المُفَسِّر وغيره: إن رِجلها رِجل حِمار، فهَذَا من الإسرائيليات المكذوبةِ، فَقَدَمُها كَقَدَمِ غَيْرِها.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَعْرِفَةِ ما يُغَيّـر عليهم، قصدَ بذلكَ اختبارَ عَقْلِـها لَمّا قيل له: إن فِيهِ شيئًا، فَغَيَّـرُوهُ بزيادةٍ أو نقصٍ أو غير ذلك].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَزَوَّجها سُلَيْمان؟

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هِيَ جَديرة بأن تُزَوَّج؛ لِأَنَّهَا أسلمتْ وكانتْ ذكيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التحدُّث بنعمةِ اللهِ تَعَالَى بإضافة النعمة إليه، لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ وهَذَا هُوَ الواجب شرعًا والمقتضَى عَقلًا؛ لِأَنَّ إضافة النعم إِنَّما تكون إِلَى مُسْدِيها ومُولِيها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: إثبات التعليل لأحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونيَّة كما ثبت ذلك فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّة، يُؤْخَذ من اللام لِأَنَّهَا للتعليلِ، ففيه دليلٌ عَلَى تعليلِ أحكامِ اللهِ الكونيَّة، كما أنَّ أحكامَه الشَّرْعِيَّة كذلك مُعَلَّلَة، ويَتَفَرَّع عَلَى هَذِهِ الفائدة: الردّ عَلَى الجَهْمِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ فعلَ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ مُعَلَّلًا، إِنَّما يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فعلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختبار المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمرِه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ

ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوزُ اختبارُه وإِنْ كَانَ المُخْتَبِرُ يَعْلَمُ مآلَهُ، هل يمكن أن نأخذَ هَذِهِ الفائدةَ أو نَقُول: إن هَذَا خَاصّ بما يتعلق باللهِ؟

نَقُول: أَمَّا بالنِّسْبَةِ للهِ فهَذَا أمر واقع، لكِن بالنِّسْبَة للإِنْسَانِ فقد تختبر الْإِنْسَان وأنت تعرِف مآلَه، هَذَا يُنظر فِيهِ إِلَى المصلحةِ، قد يَكُون محرَّمًا كما لو أردتَ أن تُظْهِرَ ضعفَه أمامَ النَّاسِ وتُخْجِلَه، وقد يَكُون واجبًا كما لو كَانَ إِنْسَانًا داعيةً إِلَى ضلالةٍ وأردتَ أنْ تَخْتَبِرَهُ لِيَتَبيَّنَ أمرُه للناسِ، وأنت تعرف أَنَّهُ لَيْسَ عنده جواب لما اختبرتَهُ به، لكِن تريد أن تُظْهِرَ للناسِ أمرَه، فَهُوَ بالنِّسْبَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممدوحٌ كلُّه؛ لِأَنَّ الله يعلم المآلَ، لكِن بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ فاختباره عمّا يعلم مآله عَلَى حسَب المصلحة والفائدة.

وفي هَذَا إشكال أَنَّهُ حَيْثُ قد يقال: أليس الله تَعَالَى يعلم بما يَؤُول إليه الأَمْرُ؟

فالجواب: بلى.

إِذَنْ: ما فائدةُ الاختبارِ وَهُوَ يعلم؟

لِيَتَرَتَّبَ الجزاءُ عَلَى ظاهرِ الحالِ؛ لِأَنَّ الله لو جازى الْإِنْسَان عَلَى ما يعلم من حالِهِ قبل أن يَبْلُوَهُ لكانَ ذلك ظُلْمًا في ظاهرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تبَيَّنَ الأَمْرُ، فيكُون هنا الفائدة عظيمة؛ وهي ظهور أثر هَذَا الشَّيْء للناس، وَأَنَّهُ لَيْسَ بظُلْمٍ منَ اللهِ تَعَالَى إذا خالف، وظهور أيضًا نعمة الله عَلَى العبد العاملِ إذا أطاع حَيْثُ يشكر الله سعيَه.

فالحاصل: أن الابتلاءَ بمثل هَـذِهِ الأُمُور نَقُول: فائدته أن يجريَ الجزاء عَلَى ظاهرِ الحالِ، لا عَلَى علمِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقد يُؤْخَذ منه أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ أحكمُ الحاكمينَ لا يحكم بمجرَّد العلمِ حَتَّى تظهر الآثار، فالقاضي من باب أولى.

ولهَذَا ذكر أهل العلم أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ**»(١).

هَذِهِ الفائدة قد يقال: إِنَّهَا تُؤْخَذ، وقد يقال: إن هَذَا توسُّع فِي الاستدلالِ وإن هَذِهِ الفائدة لا تُؤْخَذ من هَذِهِ الآيَة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أَنْ يُخاطِبَ نفسَه بما تَقْتَضِيهِ الحالُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فإِنَّنا ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ هَذِهِ العبارة شديدةٌ من أجلِ أنْ يَرْدَعَ نفسَه عن ممارسةِ كفرِ النعمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الْإِنْسَان الَّذِي يشكرُ اللهَ لَيْسَ يُسْدِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفعًا، أو يَدْفَع عنه ضررًا، وإنما هُوَ إذا شكر فَإِنَّما يشكر لنفسِهِ، فالمصلحةُ لنفسِه وليستْ لله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الشاكرَ يُثاب؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يقلْ: (عن نفسه)، فدلَّ ذلك عَلَى أن للشاكرِ ثوابًا يُجازَى به، وَهُوَ كذلك.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن العاملَ عَمَلُه له، وَلَيْسَ لغيرِه، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أَنَّهَا ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنًا، حديث رقم (٦٥٦٦)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣)، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لِنَفْسِهِۦ﴾، إِلَّا أَنَّهُ قد يُؤْخَذُ منه مُقَاصَّةً، كما جاء فِي الحديث الصَّحيح[١] فِي المفلِسِ الَّذِي يأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ وقد ظَلَمَ هَذَا وأخذَ مالَ هَذَا، فيأخذ هَذَا من حسناتِهِ، وهَذَا من حسناتِه، وإِلَّا فثوابك لك، ما يُمْكِن أن أحدًا يعتدي عليه أبدًا أو يأخذه، فَهُوَ مدَّخر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والصدقةُ عن الميِّت من عملك؛ لأنك أنت الَّذِي اخترتَ أنْ يتحوَّلَ إِلَى هَذَا الميت ولكِن لا يؤخَذ منك، وَأَمَّا إذا أردتَه أنت فهَذَا من عملِكَ؛ لِأَنَّ عَمَلَكَ قد تريده لنفسك أو لغيرِكَ، وهَذَا أيضًا مقيَّد بما جاءتْ به السنَّة.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ ما قَالَ: ومَن كفرَ فَإِنَّما يَكْفُرُ عَلَى نفسِهِ كما قَالَ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ رحمة الله تَعَالَى سبقتْ غَضَبَه، وإِلَّا فالحقيقة أنَّ مَن كفرَ فعلى نفسِه، مثلما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، لكِن أحيانًا يَكُونُ السياقُ يَقتضِي خلافَ ذلك، فهنا يَقُول: ﴿مَن كَفَرَ﴾ فَإِنَّهُ لا يضرُّ اللهَ شيئًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى غنيٌّ عنه وعن شُكْرِهِ، وَهُوَ مَعَ ذلك كريم، قد يجود عَلَى الكافرِ بالإمهالِ لعلَّه يشكر، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لِأَنَّهُ أضاف الشكرَ إِلَى نفسِه، وَلَيْسَ فِي الآيَة ردٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ هَذَا من فعل اللهِ، فالعطاءُ من فضلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ لا يتحدَّث عن عَمَلِهِ، لم يَقُلْ: إنَّ عملي منَ اللهِ، بل قَالَ: هَذَا العطاءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

•••

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَف به ذكاؤُه وفِطْنَتُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقد سبقَ أن المُراد بتَنْكِيرِهِ تغييرُه، والعِلَّة فِي ذلك قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ أتعرِف أمْ تكون من الَّذِينَ لا يعرفون، وكيف تعرف أو لا تعرف؟

لِأَنَّهُ لو بَقِيَ العَرْش عَلَى ما هُوَ عليه لعَرَفَتْهُ، ولو غُيِّرَ نهائيًّا لكان لها العُذْر فِي أَلَّا تَعْرِفَه، ولكِنه إذا غُيِّرت صِفَتُه وبقِي أصلُه حينئذٍ يُعْرَف به ذكاؤها هل تعرفه، والمقام فِي الحقيقة هنا مقام مُدْهِش، لَيْسَ مقامًا عاديًّا طبيعيًّا؛ لِأَنَّهَا هِيَ سوفَ تَستبعد أن يُؤتَى بعرشها وَهُوَ محفوظ فِي مكانه ومحروسٌ ثُمَّ يُؤتى به إِلَى سُلَيْمان، ثُمَّ أيضًا لعلَّها حسَب الطبيعةِ والعادةِ تَستبعِد جدًّا أن يَسبقَها العَرْش، مَعَ أن الظَّاهرَ أَنَّهَا أتتْ إِلَى سُلَيْمان بأسرعَ ما يمكنُ منَ السيرِ.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا التنكيرُ سوفَ يَدُلّ عَلَى دهائِها وعقلها، والأَمْر سيأتِي بَيَانه إن شاء الله قريبًا.

وقوله تَعَالَى: ﴿أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ مثل قولِه للهدهد: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، ما قَالَ: أم لا تهتدي، بل قَالَ: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا الامتحانِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أَنَّهَا إذا كانتْ تعرِفُ عرشها مَعَ تغييرِه فكيف لا تعرِف أن الَّذِي يَستحِقُّ العِبادَة هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّهَا هِيَ وقومها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ كما مرَّ، فإذا كانتْ هِيَ تعرف عرشها مَعَ تنكيرِهِ فَإِنَّهُ

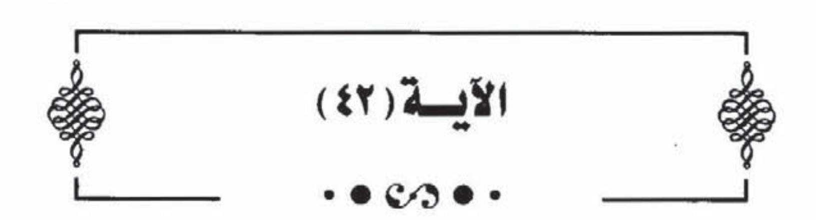
لَا شَكَّ أنَّ مَعْرِفَتها بأنَّ الله تَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادة من باب أَولى، فهَذَا وجهٌ من أوجهِ الاختبارِ فِي هَذِهِ القصّةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تصرُّف سُلَيْمان فِي عرش ملكةِ سبأ جائز؟

فالجواب: يجوز للمصلحةِ، أي لمصلحةِ الغيرِ؛ لِأَنَّ هَذَا التصرُّف لمصلحتها هي، وقد يقال: إن سُلَيْمان ﷺ تَصَرَّفَ فِيهِ بناءً عَلَى أَنَّهَا لم تُظْهِرْ إسلامَها بعدُ، وأنها إِلَى الْآنَ وهي فِي حربٍ، فلم يَسْتَقِرَّ الأَمْر بَعْد وإِلَى الْآنَ ما عَلِمَ ولا تحقّق، مَعَ أَنَّهُ يقولُ: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، لكِن قد يَكُونون مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

وَعَلَى كُلّ حالٍ: لا يُحْكَم عليها إِلَّا بَعْد أن تُظهِر إسلامها.

• • ۞ • •



الآية (٤٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢].

•• ✿ ••

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: أَمِثْلُ هَذَا عرشك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فعَرَفَتْه].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يَعْنِي: إِلَى سُلَيْمَان ونظرتْ إِلَى العَرْش قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ والقائل إمَّا سُلَيْمَان أو أحدُ جُنُودِهِ، ولم يُبَيَّنْ؛ لِأَنَّ المقصودَ معنى هَذَا القَوْل دون قائله.

وقوله: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ الاسْتِفْهام هنا عَلَى حقيقتِه، والمُراد به الاستخبار، والهاء للتنبيه، والكاف حرف جرٍّ، حالتْ بين هاء التنبيه واسم الإشارةِ، مَعَ أن هاء التنبيهِ تَقْتَرِنُ باسمِ الإشارةِ، لكِن الكاف تَحُول بينها وبينَ اسمِ الإشارةِ لمباشرةِ حرفِ الجرِّ للمجرور، ولكِن أيضًا هُوَ خَاصّ بالكافِ، لو أنَّك أتيتَ بحرفِ جرٍّ سِوَى كافٍ ما جازَ أنْ تَفْصِلَ بينه وبينَ اسمِ الإشارةِ، لو قلت مثلًا: (أهلذا) حضرتَ؟ لا يصحُّ، يعني ما يُفصَل بيـن اسمِ الإشارةِ وبيـنَ هاءِ التنبيـهِ بأيِّ حرفٍ من حروفِ الجـرِّ إِلَّا بالكاف فقط.

إِذَنْ نَقُول: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ الجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّمٌ، وعرشك مبتدأ مؤخَّر،

وتقديم الخبر هنا جائز وليس بواجبٍ؛ لأجل الاسْتِفْهامِ؛ لِأَنَّ له الصَّدارَةَ.

وهنا ما قَالُوا: أهَذَا عرشك؟ بَلْ قَالُوا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ يعني هل عَرْشُكِ مثل هَذَا؟ هِيَ أجابت بمثل ما سُئِلَتْ عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ و(كأنَّ) للتشبيهِ، ولم تقل: إِنَّهُ هُوَ، ولم تنفِ السَّبَب لأَنَّهُ مشابِهٌ لعرشها من حَيْثُ الأَصْلُ، ومخالِف له من حَيْثُ الصِّفةُ؛ لِأَنَّهُ غُيِّرَ، وهَذَا أيضًا من ذكائها أَنَّهَا لَمَّا وقع فِي نفسها أَنَّهُ عرشها لكِن تغيَّرَتْ صِفته قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والجوابُ مطابِقٌ للسؤالِ، والمُفَسِّر سَلَكَ فِي هَذَا مَسْلَكًا غريبًا؛ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فعَرَفَته وشَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهُوا عليها، إِذْ لم يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكِ؟ ولو قيل: هَذَا لقالتْ: نعمْ]، قوله: شَبَّهَتْ عليهم، أي: لَبَّسَت عليهم، وَلَيْسَ المُرادُ التشبيه، وجوابها مطابِق للسؤالِ ومطابِقٌ لِمُقْتَضَى الحالِ، أَمَّا مطابقته للسؤالِ فلأنه قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ يعني أهو مثل هَذَا؟ فكَانَ الجواب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وَأَمَّا مطابقته لمقتضى الحال فلأن المَرْأَةَ رأتْ أَنَّ العَرْش قد غُيِّر، فلم تَجْزِمْ بِنَفْيِهِ ولم تَجْزِمْ بإثباتِه، فإن نُظِر إِلَى أصلِ العَرْش فَهُوَ هو، وإن نُظِرَ إِلَى صِفَتِهِ فليسَ إِيَّاه، لذلك كَانَ جوابها جيدًا جدًّا، وَلَيْسَ فِيهِ تشبيه كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو قَالُوا: أهَذَا عَرْشُكِ، لا ندري هل تقول: نعم أو تقول: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾؟

وجَزْمُ المُفَسِّر بأنها تقول: نعم، لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ المَرْأَة ذكيَّة جدًّا، والإِنْسَان إذا حصلَ له مثل هَذِهِ الحالِ فإنه لا يَجْزِم بأن ما شاهده هُوَ ما كَانَ يعرفه من قبل، بل إنَّ مُقْتَضَى الحزمِ والتحرُّز أن يقولَ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، هَذَا مُقْتَضَى الحزمِ، لا سيما مَعَ القرائنِ الَّتِي تُبْعِدُ أَنْ يَكُونَ إِيَّاه كما فِي هَذِهِ القصةِ، فَإِنَّهُ عرش مَحُوط مَحْرُوس من مكانٍ بعيدٍ، فيَبْعُد أن يَمْثُلَ أمامها فِي هَذِهِ الحالِ.

المهمُّ الْآنَ أننا نأخذ من جوابها هَذَا ذكاءها من وجهينِ:

أولًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ للسؤال.

وثانيًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ لمقتضَى الحالِ؛ إذ الجزمُ بهَذَا تسرُّع، ونفيه تباطُؤٌ أيضًا لاحتمالِ أنْ يَكُونَ إيَّاه.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قال سُلَيْمان لَمَّا رأى لها معرفةً وعِلمًا: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾]، ووجهُ ارتباطِ هَذِهِ الجملةِ بما سبقَ أن سُلَيْمان أرادَ أنْ يَتَحَدَّثَ بما أنعمَ اللهُ به عليه منَ العلمِ، والعلمُ يشمـلُ العلمَ الشَّرْعِيَّ ويشمـلُ العلمَ بقواعدِ المُلْكِ ومُثَبِّتَاته، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يَعْنِي: كَأَنَّ الملأ من قومه لَمَّا رأَوْا ما رأوا من ذكائها ومعرفتها وتحرُّزها وتثبُّتها رأوا أمرًا عظيمًا، فأراد سُلَيْمان ﷺ أن يُذَكِّرَهُمْ بما هُوَ أعظمُ من ذلك، وَهُوَ ما آتاهم الله تَعَالَى منَ العلمِ السابقِ والإِسْلامِ ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ويرى بعـضُ المفسِّـرين أن قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من قول المَـرْأَة وأن المسألةَ متَّصِلة، ويَكُون قوله: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل هَذِهِ القضـية، أي أننا عندنا علم من قبلِ هذه القضيةِ، فلا تعجبوا من عِلْمِنَا بهَذَا فإنَّ لنا عِلمًا سابقًا، ولكِن هَذَا الاحتمال وإن ذُكِرَ بعيدٌ، والصَّوابُ أنَّ هَذَا من قول سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتحدث فِيهِ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه وَعَلَى قومه السابقة لمعرفة هَذِهِ المَرْأَة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن قولـه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ يَـدُلّ عَلَى أن قائـل: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ هُوَ سُلَيْمان ﷺ لا أحد جنوده؟

فالجواب: مُحْتَمَل، لكِن لا يَتَعَيَّـن من قوله: ﴿وَأُوتِينَا﴾؛ لِأَنَّهُ قد يقوله أحـد جنوده، ثُمَّ يتكلم سُلَيْمَـان بَعْد ذلك بعدَما تَحْصُل هَذِهِ المشاهدةُ، فيقول: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

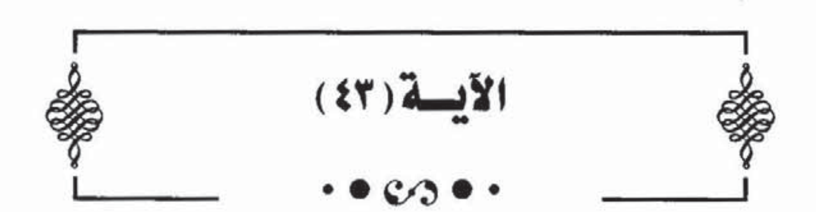
الْفَائِدَة الأُولَى: التَّوْرِيَة فِي الكَلام، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ الْإِنْسَانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ، فإن قولهم: ﴿أَهَكَذَا﴾ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّ حقيقةَ الأَمْرِ أن العَرْش الَّذِي بين أيديهم هُوَ عرشها، فكَانَ مُقتضى الاسْتِفْهام أَنْ يَقُولُوا: (أَهَذَا عرشُكِ؟) لكِن أَتَوْا بصيغة التورية لإبعاد الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ كونها عرشها قد تتسرَّع وتقول: لا؛ لِأَنَّهَا تَسْتَبْعِد أن يَكُونَ العَرْش قد حَضَرَ فِي هَذِهِ المدَّة وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ، فقيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الجوابَ يَنبغي أنْ يَكُونَ مطابِقًا للسؤالِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ بالتشبيه ولم تقلْ: هو.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذكاءُ هَذِهِ المَرْأَةِ باحترازِها ممَّا يُخْشَى أَنْ يَكُونَ خَطَأً؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: لا، فقد يَكُون هو، ولو قالتْ: نعم، فقد يَكُون غيره، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فاختارتْ هَذَا للسببينِ اللَّذَيْنِ ذكرناهما فِي التفسير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن يَتَحَدَّثَ بنعمةِ اللهِ تَعَالَى عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ لِأَنَّ الصَّحيحَ أَنَّ هَذِهِ الجملةَ من كلامِ سُلَيْمان، وإن كَانَ بَعْضُهُم ذكرَ احتمالًا أَنَّهُ من كلامها، لكِن الصَّحيح أَنَّهُ من كلامِ سُلَيْمَان، ولا يمكن أن يقالَ: إنَّ القائل هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا لا يَصِفُ نفسَه بأنه مسلمٌ، ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ ولم يقل: وآتَيْنَا.

• • ۞ • •



الآيــة (٤٣)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل:٤٣].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَصَدَّهَا﴾ عن عبادةِ اللهِ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾]، إذن ﴿مَا﴾ فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إعرابها فاعل، يَعْنِي: صَدَّها الَّذِي كانت تعبد من دون اللهِ، ويَحتمِلُ أن تكونَ ما مصدريَّةً، أي: وصَدَّها كونها تَعْبُدُ من دون اللهِ، لَكِنَّهُ وإن كَانَ سائغًا لغةً لَكِنَّهُ لَيْسَ له مَحَلّ هنا، فـ﴿مَا﴾ هَذِهِ اسْم موصول.

وَقِيلَ: إن ﴿وَصَدَّهَا﴾ الفاعل يعود عَلَى سُلَيْمان، أي أن سُلَيْمان مَنَعها ما كانت تعبدُ من دونِ اللهِ، أي: منعها عمَّا كانتْ تعبدُ من دونِ اللهِ بسببِ ما رأتْ من المُلك العظيم الَّذِي لِسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكِن الأوَّل أَوْلَى بالسياق أنَّ (ما) فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعل، لكِن نحن لا بأسَ أن نذكرَ الاحتمالَ؛ لِأَنَّهُ ربمـا عند التأمُّل يَظهَر أن هَذَا الاحتمال صحيحٌ.

وقوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ الَّذِي كانتْ تعبـدُ من دونِ اللهِ هو الشَّمْسُ، والعائدُ عَلَى ﴿مَا﴾ الموصولةِ محذوفٌ، والتَّقْديـر: (ما كانت تعبدُهُ من دونِ اللهِ)، و(صَدَّ) بمعنى صَرَفَ، ومناسبةُ قولِه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا سَبَقَ أَنَّهُ يُقال: إِنَّهُ كالجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر وَهُوَ إذا كانت هَذِهِ المَرْأة بهَذَا الذكاء وهَذِهِ المعرفة فلماذا لم تَعْبُدِ اللهَ، مَعَ ظهور أنَّ العِبادَةَ لله وحدَه؟

فبيَّنَ أن الَّذِي صدَّها عن عبادةِ اللهِ أَنَّهَا اشتغلتْ من أوَّل أمرها بعبادة غيرِ اللهِ؛ لِأَنَّهَا كانت من قوم كَافِرِينَ، فنشأتْ فِي بيئةٍ كافرةٍ واشتغلتْ بعبادةِ المخلوقِ عن عبادةِ الخالقِ، وقد أخبرَ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

فَكَأن هَذِهِ المَرْأَةَ مَعَ كونها ذكيَّةً وفاهمةً وعندها احترازٌ وتحفُّظٌ، كأنها مَعَ ذلك إِنَّمَا عَدَلَتْ عن عبادةِ اللهِ مَعَ ظُهُورِها ووُضُوحِها لسببِ انشغالها بالباطلِ، والنفس لَا بُدَّ أن تكونَ مشغولةً إمَّا بالحقِّ وَإِمَّا بالباطلِ، ولا بد أن تكون كاسبةً، إمَّا كاسبة حرامًا أو حلالًا، إن أخذتْ ما لا حقَّ لها فِيهِ فهي كاسبةٌ حرامًا، وإنْ أخذتْ ما لها حقٌّ فهي كاسبةٌ حلالًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ يعني بيئتها منذُ نَشَأَتْ وهم كافرونَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعبدون الشَّمْسَ، فلهَذَا اشتغلتْ بعبادةِ غيرِ الله عن عبادة الله. وسيأتِي إن شاء الله ما فِي هَذِهِ الجملةِ من الفوائدِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يشغلَ نفسَه، أو لَا بُدَّ أن تكون النفس مشغولة إمَّا بحقٍّ وَإِمَّا بباطلٍ، فهَذِهِ المَرْأَة انشغلتْ بالباطلِ عن الحقِّ، وقد قيل من الحِكَم: (إنْ لم تَشْغَلْ نفسَكَ بالحقِّ شَغَلَتْكَ بالباطِلِ). وَقِيلَ أيضًا: (الوقت كالسيفِ، إنْ لم تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ)، وهَذَا صحيح. وَفِي الحديث الصَّحيح أن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّكُمْ**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣١٩)؛ ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كُلّ مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَّامٌ»[1]. فلا بدَّ للإِنْسَانِ أَنْ يهمّ ويَعْمَل، لكِن إمَّا بخيرٍ أو بغيرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن البيئة لها تأثيرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، فهَؤُلَاءِ القوم أَثَّرُوا عليها فصارتْ كافرةً تعبد مَعَ الله غيرَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من مُصاحبةِ الأشرارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ حَتَّى لو كانوا من أقاربِك فلا ينبغي أن تصاحبَهم، وإذا كَانَ لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهِمْ حقَّهم الَّذِي لهم، ولكِن لا تكن مخالِطًا لهم ومصاحِبًا لهم؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ فيما يُرْوَى عنه، وَهُوَ حديث حسنٌ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[2]. وهَذَا شيءٌ واقعٌ، يَشْهَدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ.

مسألة: هل البيئة تُعتبَر عُذرًا للإِنْسَانِ؟

البيئة لا تعتبـر عذرًا؛ لِأَنَّ الواجبَ عَلَى الْإِنْسَان أن يفارقَ هَذِهِ البيئةَ، ولهَذَا وجبتِ الهجرةُ عَلَى مَنِ استطاع أن يهاجرَ، ولكِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا يَقُول: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[3] فإنه يُخبِـرُ، والخبـرُ لا يَلْزَم منه الجوازُ، فقد قَالَ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[4] وهَذَا خبرٌ، فهل معناه أَنَّهُ يجوز أن نفعلَ؟! وقَالَ:

---

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٥١٠): حديث كلكم حارث وكلكم همام، ذكره الحريري في صدر مقاماته وجعل معوله فيها ويقرب منه: «أصدق الأسماء حارث وهمام».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم (٤٨٣٣)؛ والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، حديث رقم (٢٣٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٣٠٣) (٨٠١٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

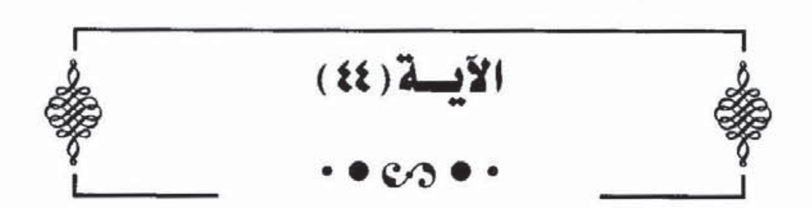
(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وَاللهِ لَيُـتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَقُومَ الظَّعِينَةُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ»[1]. فهل معنى ذلك أَنَّهُ يجوز للمرأةِ أن تسافرَ بدونِ محْرَمٍ؟ لا. فما أخبر به النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما يقع لا يَلْزَم منه الجواز.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤١٦)، عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٤٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

•••

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قِيلَ لَهَا﴾ أيضًا ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾]، والقائل كما قُلْنَا: مُبهَم؛ إمَّا سُلَيْمان أو غيره، وهَذَا الصرح يَقُول المُفَسِّر: [هو سطحٌ من زُجاج أبيض شفَّاف، تحته ماء عَذْبٌ جارٍ، فِيهِ سمك اصْطَنَعَهُ سُلَيْمان لمّا قيل له: إن ساقَيْها وقَدَمَيْها كقَدَمَي الحِمارِ]، أَمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه سطح من زجاج أبيض؛ فهَذَا صحيحٌ أنه سطح من زجاج أبيض، والأَصْل فِي الصرحِ أَنَّهُ البناء العالي كما قَالَ فرعون لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦]، لَكِنَّهُ يطلق عَلَى السطح وإن لم يكنْ عاليًا، وهَذَا عبارة عن سطح من زجاج وتحته ماء، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه جارٍ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الآيَةِ ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ جارٍ، لكِن أخذ كونه جاريًا من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ لأَنَّ اللُّجَّة هِيَ أمواجُ البحرِ المتردِّدة؛ لِأَنَّ كُلّ شَيْء متردد يُسمَّى لجّة، ومنه: اللَّجَّة: تردد الأصوات وارتفاعها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه سمك]، لَيْسَ بشرطٍ أن يَكُون فِيهِ سمك؛ لِأَنَّ اللجة قد يَكُون فيها سمك وقد لا يَكُون، وقد يَكُون فيها سمك بعيدٌ لا يُرى.

وكذلك أيضًا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ماء عَذْبٌ، لا يوجد دليل عَلَى أَنَّهُ عذب ولا أَنَّهُ مالِح، فلا ندري. المهمُّ أَنَّهُ ماء، بدليل ما يأتي، والماء العَذْبُ يَبقَى فِيهِ السمكُ ما شاء الله، اللهمَّ إِلَّا إذا كانت هناك أسماك خاصَّة بالماء المالِحِ، لا ندري.

المهم عَلَى كُلّ حالٍ: كُلّ هَذَا لا داعيَ له، حَتَّى لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَيْسَ تحته ماء، وإن هَذَا الزجاج يعطي كأنه ماء بسبب مثلًا أضلاع فِيهِ أو شَيْء آخر، لو قيل بهَذَا لم يكنْ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ ما يَتَعَيَّن أن يَكُون تحته ماء، لكِن نحن إن تنازلنا وقُلْنَا: إن قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: زجاجًا شفّافًا، وكانت تظنه بحرًا.

وأما قوله: [لَمَّا قيل له: إن ساقيها وقدميها كقَدَمَي الحِمار]، يَقُولُونَ: إن الجنّ لَمّا أنَّ سُلَيْمان أَعْجَبَتْه هَذِهِ المَرْأَةُ همّ أنْ يَتَزَوَّجها فحَسَدُوها عَلَى ذلك، فقالوا له: إن قدميها وساقيها قدما دابَّة وساقا دابة، وجعلوها أيضًا حِمارًا لِأَنَّهُ أقبح، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنما المقصود من هَذَا الصرحِ اختبارُ المَرْأَةِ أيضًا؛ لِأَنَّهُ لما قيل: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ هِيَ فِي الحقيقة إذا كانت تَحْسَبُه لُجَّة، فإذا كانتْ جبانةً لا تدخل أصلًا، وإذا كانت مُغَفَّلَةً دخلتْ وثيابها نازِلة، وإذا كانت حازِمة وشجاعة دخلت ورفعتْ عن ساقيها. ثُمَّ هِيَ أيضًا من ذكائها أَنَّهَا تعلمُ أَنَّهَا ما أُكرمت وَقِيلَ لها: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ وهي سَتُدْخَل فِي بحرٍ لجيٍّ يُغْرِقها، فعَلِمَتْ أن هَذَا البحرَ أن غايةَ ما فِيهِ أن يصل إِلَى رُكْبَتِها أو نحو ذلك، وَأَنَّهُ لا يمكن أن يَكُونَ بحرًا لُجِّيًّا عَميقًا؛ لِأَنَّهَا قيل لها عَلَى سبيلِ الإكرام: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، فالمهمُّ أن هَذَا أيضًا اختبارٌ ثانٍ لذكائها وحَزْمها وشجاعتها. وَأَمَّا أن رجلها رِجل حمارٍ فهَذَا كذِب بلَا شَكّ، والأَصْل فيها أَنَّهَا امرأةٌ مثل بنات آدمَ لَيْسَ فيها شيءٌ من هَذَا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ منَ الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾]، وهَذَا

لَا شَكَّ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى حَزمها وقوّتها وشجاعتها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الغريب إذا حصل له مثل هَذَا الأَمْر قد يتوقف ويقول: ما أدري، أَخْشَى أَنْ يَخْدَعُوني فأقع فِي هَذَا وأموت، لَكِنَّها قويَّة وحازمة أيضًا، أقدمتْ عَلَى الدخولِ لكِن مَعَ الاحترازِ عن الأذيَّة؛ حَيْثُ رفعت عن ساقيها.

والرفع عن الساقين قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: يُؤخَذ منه جواز إظهار المَرْأَة لساقيها؟

فَنَحْنُ نَقُول: أولًا لا يؤخذ منه ذلك؛ لِأَنَّهُ هنا فعلته للحاجة، وكشف المَرْأَة ساقيها للحاجة لا بأس به، حَتَّى فِي شريعتنا إذا احتاجت المَرْأَة إِلَى كشف ساقيها فِي مثل هَذِهِ الحالِ فلا حرج فيه؛ لِأَنَّ ما حُرِّم تَحْرِيمَ الوسائل تبيحه الحاجات، كما هُوَ مُقَرَّر فِي علمِ الأصولِ.

ولهَذَا يجوز النظرُ إِلَى العورة لأدنى حاجة، حَتَّى إِنَّهُم قَالُوا: يجوز أن يحلق عانة مَن لا يُحْسِن حلق عانتِه، وهَذَا بالضَّرورَة سوف يَكشِف العانة لتحلقَ.

فالحاصل: إن كانت شريعة سُلَيْمان تُبيح مثل ذلك فلا دلالة فيه، وإذا كانت لا تُبيحه فَإِنَّهُ أيضًا لا يخالف شريعتنا؛ لِأَنَّ الحاجة هنا تدعو إليه.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وَكَانَ سُلَيْمَان عَلَى سريره فِي صدر الصرح فرَأَى ساقيها وقَدَميها حِسانًا]، اطمأنَّ الْآنَ الرجلُ! ولَكِنَّهَا لَيْسَ كما قَالَ المُفَسِّر، لَيْسَ الغرض من هَذَا أن يَتبَيَّنَ لسُلَيْمان هل رجلها رجل حمار أو رجل آدميَّة، لا، الغرضُ أن يَعْرِف بهَذَا ذكاءَها وفِطْنتها وشجاعتها، وكلّ ما تدلُّ عليه هَذِهِ الصورةُ من معنى يعود إِلَى المَرْأَة فَإِنَّهُ يريده سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زُجاج]،

هَذِهِ الجملة أيضًا تفيد أَنَّهُ قُصِدَ به مَعَ اختبارها وامتحانها إظهارُ عظمةِ مُلك سُلَيْمان، مثلما قُصِدَ بإحضارِ العَرْش هَذَا المقصد ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فتبين بذلك أمران:

أحدهما: عظمة مُلك سُلَيْمان، حَيْثُ إن الزجاج يُصنَع له حَتَّى يَكُون كالبحرِ اللُّجِّيِّ.

وثانيًا: الإشارة إِلَى أن هَذِهِ المَرْأَة وإن كانت ذكيَّة وعاقلةً وحازمةً فإنها يَخْفَى عليها الأَمْرُ؛ لِأَنَّهَا حَسِبَتْ أن هَذَا الزجاجَ لُجَّة منَ الماءِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، ففيه نوعٌ من إظهارِ ضَعْفِها أيضًا، حَيْثُ إِنَّها ظَنَّت الأَمْر عَلَى خلافِ ما هُوَ عليه، وسيأتي إن شاء الله تَعَالَى فِي فوائد الآيات.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ حينئذٍ عرفتْ مكانَتَها وعرفتْ مكانةَ سُلَيْمان، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ودعاها إِلَى الإِسْلام]، لَيْسَ فِي الآيةِ ما يَدُلّ عليه، بل إن الظَّاهر أَنَّهَا بما شاهدتْ ألجأها ما شاهدته إِلَى أنْ تُسلِمَ؛ لِأَنَّهَا شاهدتْ أمورًا منها: إتيان عرشها، ومنها: هَذَا الصرحُ العظيمُ الممرَّد مِنَ القوارير، ومنها أيضًا: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخْبَرَهَا بعظمتِه وقُوَّتِه، حَيْثُ إنَّ هَذَا الصرح الممرَّد من القوارير وَلَيْسَ ماءً.

حينئذٍ اعترفتْ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعبادة غيرك]، وعبادة غيرِ اللهِ من أعظمِ الظلم، قَالَ الله تَعَالَى عن لقمان حين قَالَ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ لِأَنَّ أعظم الظلم أن تَتَسَلَّط عَلَى مَن حقّه أبين وأوضح، ولا أبين وأوضح من حق الله عَلَى العبادِ، لهَذَا كَانَ الشرك أظلم الظلمِ.

فعندما تخاصم إِنْسَانًا وأنت تعرف أن الحَقّ له لا لك تُعَدُّ ظالمًا، وعندما يشتبه عليك الأَمْر بحيث ترجح ثمانين فِي المِئَة أَنَّهُ له، وعشرين فِي المِئَة أَنَّهُ لك، يَكُون هَذَا الظلم أخف من الأول، وعندما يَكُون خمسين فِي المِئَة لك وخمسين فِي المِئَة له يَكُون أخف من الثاني، وعندما ترجح ثلاثين فِي المِئَة له وسبعين لك يَكُون أخف وهَكَذَا.

فالمهم: أن الظلم يَكُون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحَقّ وبَيَانه، وأظهر الحقوق وأبينها عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيَكُون أظلم الظلم الإشراك مَعَ الله؛ أن تشركَ مَعَ اللهِ أحدًا، ولهَذَا تقول: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾.

إِذَنِ: النفس عندك أمانة، يَجِب عليك أن تسعى لها بما فِيهِ خيرُها، فأنت يَجِب أن تسعى لنفسك بما هُوَ خيرٌ لها، فإن تجرَّأتَ عَلَى ما لَيْسَ لك فقد ظلمتَ نفسَكَ، أو فرَّطت فيما يَجِب عليك، فقد ظلمتَ نفسَك، وإذا كنت لا تستطيع أن تَتَصَرَّفَ فِي بَدَنِكَ بما تريد فكيف تستطيعُ أن تتصرَّف فِي فِعلك بما تريد.

فلو أن إِنْسَانًا قَالَ لشخصٍ: أنا سأعطيك إصبعي اقْطَعْه وضَعْهُ فِي يدِكَ الَّتِي نَقَصَ مِنْهَا إصبعٌ، فلا يجوز، فهَذَا حرام، ولو قَالَ: سَأَقْلَعُ عيني لك وضعها فِي عينك الَّتِي لا تَرَى فلا يجوز، ولو كَانَ لضرورةٍ، أَمَّا الدم فَإِنَّهُ يجوزُ التبرُّع به لِأَنَّهُ مَنفعة، أَمَّا الكُلَى فلا يجوز؛ لِأَنَّهُ ضررٌ عليك، ولا تفكِّر أن الله جَلَّ وَعَلَا يخلُق شيئًا عَبَثًا، وثانيًا لا يمكن أن يَكُون عمل كُلْيَةٍ واحدةٍ كعمل كُليتينِ، وثالثًا: لا يُؤْمَن أنْ يَلْحَقَ الكُلْيَةَ الَّتِي بَقِيَتْ عَطَبٌ، المهمُّ أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا لا يمكن فِي جِسْمٍ مَآلُهُ إِلَى الفناءِ، فكيف يَكُون ذلك فِي الأفعالِ الَّتِي عليها مَدارُ سعادةِ العبدِ، فلا يجوزُ أن تتصرفَ فِي أفعالِكَ بما يعود عَلَى نفسِكَ بالضررِ، فإنْ فعلتَ فأنتَ ظالمٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ كائنة ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾]، أفاد

المُفَسِّـر بتقدير كائنة أنَّ الظـرفَ فِي قوله: ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ فِي موضـع الحالِ، يعني أسلمتُ حالةَ كوني ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ للهِ ربِّ العالمينَ، وهنا تعتبـر مسلمة، فإذا قَالَ الرجل: أسلمتُ، ولو لم يَقُلْ: أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ فقدْ أسلمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، فإذا عبَّر الْإِنْسَان عن العَمَلِ بما يَدُلّ عليه من فعلٍ حُكِمَ عليه به، ولهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ لإِنْسَانٍ: حلفتُ عليك أن تفعل كذا، صار يمينًا، لو لم يقلْ: واللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو قال: حلفتُ لا أفعل كذا، صار يمينًا، وإن لم يقل: بالله؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الفِعْل، فإذا قَالَ: أسلمتُ، صار إسلامًا، وإنْ لم يقلْ: أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأن مُحَمَّدًا رسول الله.

إِذَنْ: قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فِيهِ أَنَّهَا أسلمـتْ إسلامًا كاملًا، حَيْثُ أقرَّت بألوهيَّة الله فِي قولها: ﴿لِلَّهِ﴾ وبربوبيَّتِهِ الْعَامَّة فِي قولها: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر: [وأراد تَزَوُّجَهَا فكَرِهَ شعرَ ساقيها، فعَمِلَتْ له الشياطينُ النُّورَةَ فأزالته]، الحقيقة أن هَذِهِ مشكلة! بقِينا فِي الشعر وجاءتنا هَذِهِ البليَّة! يَقُول: [فعَمِلَت له الشياطين النُّورة]، والنورة تزيل الشعرَ، ويقال: إن أوَّل مَن عُمِلت له النُّورة ساقُ بِلْقِيس بأمرِ سُلَيْمان حَيْثُ إن الشياطين عمِلتها له. وكل هَذَا كذِب ويجب أن يُنَزَّه كلام الله عن مثلِ هَذِهِ الأَشْيَاء.

وموقفنا مَعَ مثل هَؤُلَاءِ العُلَماءِ أن نسألَ اللهَ لهم العفوَ وأن اللهَ يسامحهم؛ لِأَنَّ كونهم يَضَعون فِي كـلام الله مثل هَذِهِ الأُمُور، فهَـذَا من الأَشْيَاء الَّتِي يَتَنَقَّـصُ بها الْإِنْسَان كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأكثرُ ما وردتْ هَذِهِ كما قَالَ ابنُ كثيرٍ فِي هَذَا الموضع عن رجلينِ، وهما كَعْبُ الأحبارِ ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، فإنهما أدخلا كثيرًا من الإسرائيليات

فِي كلامِ اللهِ وغيره مما ينقُلونه؛ فنسأل الله أن يعفو عنهما.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأزالته فتزوجها وأحبَّها وأقرَّها عَلَى مُلْكِها، وَكَانَ يزورها فِي كُلّ شهرٍ مرَّةً ويقيم عندها ثلاثةَ أيامٍ]، فَكَانَ كالمتزوِّج بالثيِّب [وانقضى مُلْكُها بانقضاء مُلْك سُلَيْمان، رُوِيَ أَنَّهُ مَلَكَ وَهُوَ ابن ثلاثَ عشْرةَ سنة، وماتَ وَهُوَ ابن ثلاثٍ وخمسينَ سنةً، فسبحانَ مَن لا انقضاءَ لِدَوَامِ مُلْكِهِ].

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنْتَقَد بأن الأَشْيَاء المهمَّة يختصرها، حَتَّى فِي بعض الأحيان يَكُون تفسيره كالرُّمُوز، ثُمَّ يأتي بِهَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي لَيْسَ لها أصل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة مُلْك سُلَيْمان، وتَسخيرُ اللهِ له، ففي ذلك الوقتِ حَسَب عِلْمنا لَيْسَ هناك أفرانٌ تصهر الزجاج ليفعل به الْإِنْسَان كما يشاء، ولكِن لَا شَكَّ أن الزجاج موجود، قد يَكُون مستخرَجًا من البحرِ؛ تَستخرجه الشياطين، وقد يَكُون هناك أيضًا مصاهر وأفران حسب حالهم، ولهَذَا قَالَ الله عن الشياطين: إنهم ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَجِفَانٍ﴾ هِيَ جمع جَفْنَةٍ، وهي الصَّحْفَة، والجوابي جمعُ جابيَةٍ، وهي البِرْكَةُ الكبيرة، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ يعني لا تُنْقَل لِكِبَرِها وعِظَمِها.

فالحاصل أننا نَقُول: إن هَذَا فِيهِ دليلٌ عَلَى عظمةِ مُلْك سُلَيْمان، حَيْثُ سُخِّرَ له الجنُّ والإنسُ يَعْمَلُون له ما يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز اختبارِ المرءِ كما سبقَ، وهَذِهِ القصةُ فيها عدةُ اختباراتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾؛ لِيَرَى هل تهابُ فلا تدخُل، أو تغامر فتدخل بدون تحرُّزٍ،

أم ماذا تصنع، فالمَرْأة بذكائها دخلتْ ولكِن مَعَ التحفُّظ والاحتـراز، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: رفعتْ ثوبها حَتَّى بان الساقانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المَرْأة من قديم الزمانِ شِيمَتها التستُّر؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ دليل عَلَى أن الأَصْلَ أَنَّهَا مستورةٌ، وَهُـوَ كذلك، بخـلاف الرجلِ فإِنَّ «**أُزْرَة المُسْلِمِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ**»[1]. الْآنَ أصبح الأَمْرُ بالعكسِ عندَ كثيرٍ من المُسلِمينَ مَعَ الأسفِ، فأصبحَ الرِّجال ثِيَابهم مُسْبَلَةً، والنِّسَاء ثيابهنّ قَصيرةً، وهَذَا خلافُ الفِطرةِ الَّتِي فَطَرَ الله عليها الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الرؤيةَ قد تُكَذّب، وأن ما يدرك بالحواسّ لَيْسَ عَلَى الأَمْر الواقعِ مائةً بالمِئَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ فإِنَّ هَذَا كمـا هُوَ الواقع صَرْحٌ مُمَرَّد من قواريرَ، وتنظر إليه نظر العين ومع ذلك تَحْسَـبُه لُجَّة، فدلَّ هَذَا عَلَى أن ما يُدْرَك بالحواسّ قد يقعُ فِيهِ الخطأُ، قد يَرَى الْإِنْسَان الشَّيْءَ المتحرِّكَ ساكنًا، والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً، بل قد يَتَخَيَّل له فِي بَصَرِه شيئًا وَلَيْسَ له حقيقةٌ.

وكذلك بالنِّسْبَةِ للسمع، وبهَذَا نَعْلَمُ أنَّ الشهاداتِ ورواياتِ الأخبارِ وغيرها كلها يُمْكِن أنْ يقعَ فيها الخطأُ، وليستْ معصومةً مائةً بالمِئَةِ، ولكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ كلّما تَوَارَدَتِ الأخبارُ وتكاثَرَتْ فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أنَّ الأَمْرَ متأكّد، ولكِن نفي احتمال الخطأ مهما بلغَ الرائي أو السامع من الْقُوَّة والأمانة فإن الخطأ عُرْضَةٌ فيمـا رأى أو فيما سَمِعَ، بل فِي المَلْمَسِ، فقد تَلْمَس الشَّيْءَ فتَظُنّه لَيِّنًا أو أملسَ وبالعكسِ، فالرجل الفلّاح يَلْمَس الشَّيْء الخشِن فيظنّه أملسَ، والناعمُ يَلْمَس الخشِنَ البسيط جدًّا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في قدر موضع الإزار، رقم (٤٠٩٣)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب موضع الإزار أين هو، رقم (٣٥٧٣).

فيجده كالشوكِ.

فالحاصل: أن المسألةَ حَتَّى فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّة الخطأ يمكن أن يقع، فما بالُكَ بالأُمُورِ العقليَّة؟ من باب أَولى وأعظم، وبه نعرِف ضعف الْإِنْسَان وَأَنَّهُ بحاجةٍ ماسَّة إِلَى عِلْمِ الشرعِ والوحيِ، فمهما بلغ فإنه بحاجةٍ إِلَى هَذَا الأَمْرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: جعل الحواسّ من القَطْعِيَّات كما هُوَ عند المناطِقَةِ يَكُون عَلَى هَذَا خطأً؟

فالجواب: لا شكَّ فِي هَذَا، لكِن باعتبارِ الفكرِ وباعتبارِ العقلِ صحيح، إِنَّمَا الوهم قد يقع فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي تأكيد الكَلام فِي موضعِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ما قَالَ: هَذَا صَرْحٌ، قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ﴾ و(إنَّ) للتوكيد، والتَّوْكيد هنا فِي مَحلِّه؛ لِأَنَّهَا وإنْ لم تكُنْ منكِرةً لكِنَّ حالَهَا حالُ المُنْكِرِ، حَيْثُ ظنَّته لُجَّة وكشفتْ عن ساقيها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد يَهَبُ المرءَ ما يُوجِب له أن يُسْلِمَ، بل قد يُيَسِّر له الأَسْبَاب الَّتِي تُوجِب إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ لِقَوْلِها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ حَسَب القصة ما وجدنا أَنَّهَا دُعِيَت وأُكِّد عليها وبُيِّنَ لها الخطأ إِلَّا فِي قوله فِي أول القصة: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، لكِن لما شاهدتْ ما شاهدتْ من عظمةِ مُلك سُلَيْمَان وقوّته، عرفتْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أن تُسْلِم، وهي تتذكر كتابَه الَّذِي قَالَ فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإمَّا أن تسلم وَإمَّا أن يقضي عليها، ولَكِنَّهَا أسلمتْ.

فهَكَذَا إذا يسّر الله تَعَالَى للعبدِ ما به الهداية فإن الأَمْرَ يَكُونُ عليه يسيرًا، وإذا لم يَتيَسَّرْ له أصبحَ كُلّ مانع يَمْنَعُه منْ الِاهتداء وإنْ لم يكنْ مانعًا قويًّا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَرْأَةَ آمنتْ بسُلَيْمَان، لم تُسْلِمْ إسلامًا مُطْلَقًا، يعني ما قالتْ: إني أسلمتُ للهِ فقطْ، بل صَرَّحَتْ بأنها تابعةٌ لسُلَيْمان، يعني ما آمنتْ بنبيٍّ آخرَ أو بشريعةٍ أُخرى، آمنتْ بشريعةِ سُلَيْمان فكانت من قَوْمِه، مَعَ أَنَّهَا كانتْ فِي سبأ فِي اليمنِ وسُلَيْمَان فِي الشام؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهَا آمنتْ به؛ لِأَنَّ ﴿مَعَ﴾ للمصاحبةِ، فكانت من أصحابِهِ المُؤْمِنِينَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن المَعاصِيَ ظلمٌ للنفسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾، وسبقَ وجهُ ذلكَ وأنَّ الْإِنْسَان مؤتمَن عَلَى نفسِهِ؛ مؤتمن عَلَى نفسه من حَيْثُ السلوكُ والسيرُ، ومؤتمن عَلَى نفسه من حَيْثُ التصرفُ فِي مالِه، ومؤتمَنٌ عَلَى نفسِهِ من حَيْثُ التصرُّفُ فِي بدنِهِ، ولهَذَا نُهِيَ عن إضاعةِ المالِ[1]، ونُهِيَ عن قتلِ النفسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وَأُمِرَ بالدواءِ: «تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِالحَرَامِ»[2]، وأُمِر بالأكل وبالشـرب وباللباس وبالوقاية من الحرّ والوقاية من البرد، كُلّ هَذَا من أجل حِفْظ النفسِ الَّتِي هِيَ أمانة عندكَ، فالْإِنْسَان لَيْسَ حُرًّا يَتَصَرَّف كما يشاءُ فِي بدنه أو كما يشاء فِي سلوكه أو كما يشاء فِي مالِه، لا، هُوَ مُقَيَّد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، حديث رقم (٢٢٧٧)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، حديث رقم (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، حديث رقم (٣٨٧٤)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي بعض الآيَاتِ يُنْسَب الظُّلْمُ للنفسِ، وهنا نُسِبَ إِلَى الفاعِلِ؟

فالإجابة: لأنَّ الْإِنْسَانَ فِيهِ نفسانِ، وَقِيلَ: ثلاثةُ أنفسٍ؛ أَمَّارة ومُطْمَئِنَّة ولوَّامة، والصَّوابُ أنَّ اللوَّامة من صفاتِ الاثنتينِ، فالنفسُ إمَّا أمَّارة، وهي الَّتِي تأمرُ بالشرِّ وتَنْهَى عنِ الخيرِ، وَإمَّا مُطْمَئِنَّة، وهي الَّتِي تأمر بالخيرِ، وقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ الَّتِي تقوله النفسُ المطمئنَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عُمُومِ رُبُوبِيَّة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا أحدَ له الرُّبُوبِيَّة الْعَامَّة الشاملة سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، فالْإِنْسَان قد يَكُونُ ربًّا لبيتِه وقد يَكُون ربًّا لدابَّتِه، وقد يَكُون ربًّا لمملوكِهِ كما فِي الحديث الصَّحيح: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ**»[1].

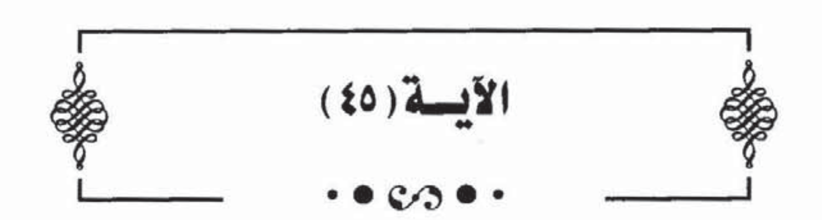
وتقدَّم لنا فِي التفسيرِ أن ما ذكره الْمُفَسِّر من هَذِهِ الإسرائيلياتِ أَنَّهُ لا يَجِب التَّصْديقُ بها، بل ما كَانَ مِنْهَا مخالفًا للقرآنِ أو لا يليق بحالِ النَّبِيّ فَإِنَّهُ يجبُ تكذيبُه، وما كَانَ مِنْهَا لَيْسَ مخالفًا ولا منافيًا لما يليقُ بالنَّبِيّ فَإِنَّهُ لا يصدَّق ولا يكذَّب، ولا ينبغي أن يُحْكَى فِي التفسيرِ؛ فإِنَّهُ إذا حُكِيَ فِي التفسيرِ معناه أَنَّهُ صُدِّقَ حَيْثُ جُعِلَ تفسيرًا لكلامِ اللهِ.

فائدة: القطعُ باسمها الظَّاهر منَ الأَشْيَاء الَّتِي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، لكِن لاشتهارها فلا مانعَ.

• • ۞ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، حديث رقم (٤٤٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٤٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥].

•• ❦ ••

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ هَـذِهِ الجملةُ فيها ثلاثةُ مؤكِّـدات: القَسَم واللام وقد، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مَفْعُول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، و﴿صَٰلِحًا﴾ عطف بَيَان له وَلَيْس بدلًا؛ لِأَنَّ كونَه عَطْفُ بَيَان أوضحُ؛ إذ إِنَّهُ يُبيِّن المُبْهَم فِي قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ثمود هَذِهِ قبيلة موجودة فِي مكانٍ يُسمَّى الْآنَ مدائنَ صَالِح، ويسمَّى الحِجْر، ويُسمَّى ديارَ ثَمُود، هَذِهِ القبيلةُ يَسَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لها من أَسْبابِ العمران فِي السهلِ والجبلِ ما بَرَزَتْ به عَلَى غيرِها، كما قَالَ لهم نبيُّهم مذكِّرًا لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، أرسلَ الله إليهم صالحًا وأتاهم بآيَةٍ عجيبةٍ، وهي ناقةٌ لها شِـرْبٌ وللقومِ شِـرب، يعني أن هَذِهِ البئر الَّتِي تشرب مِنْهَا الناقة وهي أوسع الآبار وأغزرها ماءً، أُذن لهم أن يشربوا مِنْهَا يومًا، وأُمِروا بأنْ يَدَعُوها يومًا للناقةِ تَشرب منها، وتذهب فِي اليوم الثاني للرعي، وَفِي اليومِ الَّذِي تشرب منه، قيل: إنَّهُم يأتون إليها، ومَن سقاها دلوًا أعطته دلوًا منَ اللَّبَن، وهَذَا من الأُمُور الإسـرائيليَّة الَّتِي لا تُصـدَّق ولا تكذَّب، لكِنَّهم مَعَ هَذِهِ النعمـةِ العظيمةِ فِي هَذِهِ الناقةِ كَفَروها والعياذُ باللهِ، قَالَ تَعالَى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، عَقَرَ هَذِهِ الناقة وكَفَروا بهَذِهِ النعمةِ العظيمةِ.

يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلةِ]، لماذا قَالَ: من القبيلة؟ احترازًا من الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أخًا لهم إِلَّا نفرًا يسيرًا آمنوا معه.

ثم قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ﴾ أي بأن ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾]، أفادنا الْمُفَسِّـر أَنَّ (أنْ) هـنا مصدريَّة، ولكِن يجوز فيها وجهٌ آخرُ أن تكون تفسيريَّة؛ لِأَنَّ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ يتضمن: أوحينا، والوحي فِيهِ معنى القَوْلِ دونَ حُرُوفِه، وهَذَا هُوَ دلالة (أنِ) التفسيرية، أن يَسْبِقَها فعلٌ فِيهِ معنى القَوْلِ دون حروفِه.

إِذَا قُلْنَا: إِنَّهَا تفسيريَّة ما صحّ أن نقدِّر الباء، أي: (بأن) بل نقدِّر (أن) بمعنى (أي) أي اعبدوا الله، يَعْنِي: أوحينا إليه أي اعبدوا الله.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدوه]، وهَذَا مأخوذ من تفسيـر ابن عبَّاس فيما أَظُنُّ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، قَالَ: لِيُوَحِّدُون.

فجعل العِبادَةَ هِيَ التوحيدَ، ولكِن الصَّحيح أن العِبادَةَ التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة؛ لِأَنَّ هَذِهِ المادة: العين والباء والدال تدل عَلَى الذلّ، ومنه قولهم: طريق معبَّد أي مذلَّل لسالكيه، فعبادة الله معناها الذلُّ له بالطاعةِ، ومنه، بل من أعظم ذلك تَوْحِيدُه، فالصَّوابُ أن الْمُراد بالعِبادَة التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة.

قال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرف عطفٍ، و(إذا) فُجائيَّة، يعني فمـا الَّذِي حصل بَعْد إرسالِه، إذا المفاجأة بالتفرُّق.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي الدين، فريق مؤمنون من حين إرسالِه إليهم، وفريق كافرون].

انقسم قومه إِلَى قسمينِ: قسم آمنوا به وقسم آخر كفروا به، والَّذِينَ آمنوا به هم

المستضعفُونَ، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ما قَالَ: أَتُؤْمِنُونَ به ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ فماذا قَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]، يعني لسنا نعلمُ فقط، بل نعلم ونؤمِن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]، ما قَالُوا: إنا به كافرون بالذي آمنتم به؛ لإظهار المضادَّة لهم والمعاندة، يعني ما دام آمنتم به وأنتم الضعفاء فنحن ضِدّكم دائمًا ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهَذَا أبلغ ما يَكُون -والعياذُ بالله- من المضادَّة والمحادَّة والاستكبارِ أيضًا، كأنهم يَقُولُونَ: الَّذِي تؤمنون به نحن نكفرُ به، هَؤُلَاءِ الفريق آمنوا وفريق كفروا.

قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني يجري بينهم خِصام، وهَذَا الخصام الَّذِي جرى بين قومِ صالحٍ جرى أيضًا فِي قوم الرَّسُول ﷺ وكل النَّاس قاوموه ولا بد، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، فلَا بُدَّ من هَذَا، ولا يُمْكِن أنْ يَتَمَحَّصَ الحقّ إِلَّا بظهورِ العدوِّ؛ لِأَنَّ العدوَّ يُورِدُ، والوحي يُجيب، حَتَّى يَتَمَحَّصَ الحَقُّ بيِّنًا ظاهرًا، حَتَّى فِي الأُمُور الواقعية، وحَتَّى فِي الانتصارِ وَفِي الخِذلان يَحْصُل هَذَا أيضًا، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذكر من فوائدِ الخِذلان فِي أُحُد ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، فلا يَتبيَّن الحَقّ تمامًا إِلَّا بظهورِ عدوٍّ له يناقضه ويعاديه حَتَّى يَظْهَرَ الحَقّ عَلَى الباطل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَجِب أحيانًا تأكيدُ الأخبارِ المهمَّة ليَكُونَ المخاطَبُ عَلَى يقينٍ منها، ولا تَقُل: أنا لستُ ملزومًا ولا يُهِمُّنِي صَدَّق أم كذَّب، بل إِنَّ مُقْتَضَى النُّصح أن

تؤكِّد ما يَنْبَغِي تأكيده للمخاطَبِ، وجه ذلك: أن اللهَ ذكرَ أَنَّهُ أرسلَ إِلَى ثمودَ أخاهم صالحًا وأكَّد هَذَا الخبرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرسُل السابقينَ رِسالتهم خاصَّة وليسـتْ عامَّةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ما قَالَ: إِلَى النَّاس جميعًا، بل قَالَ: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهَذَا ثبتَ به الحديثُ عن النَّبيِّ ﷺ فِي قولِهِ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَصِحُّ إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبِيَّة بين المسلمِ والكافرِ، فلا يقال: إذا انتفتِ الأخوَّة الإِيمانية انتفت الأخوَّة النَّسَبِيَّة، بل إذا انتفى أحدهما يبقى الآخرُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِي أُرسلـتْ به الرُّسُلُ هُوَ ما خُلِقَ له البشـرُ، بل الجنّ والإنس، وَهُوَ عبادةُ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والعِبادةُ سَبَقَ مَعناها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انقسام النَّاس إِلَى فريقينِ فِي مواجهةِ الرُّسُلِ: مؤمن وكافر، وهَذَا لتحقيقِ الحِكْمَة الابتدائيَّة والغائيَّة فِي خلق الله، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، لو كانوا كلهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ منهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ، هَذِهِ حِكْمَةٌ ابتدائيَّة بالخلقِ منذُ خُلِقوا، أيضًا لتتمَّ الحِكْمَة الغائيَّة، فالحِكْمَة الغائية أن الله تَعَالَى خلقَ جنَّةً ونارًا، وخلق لكلٍّ منهما أهلًا، فلو كَانَ النَّاس كلُّهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ لخلقِ النَّار فائدة، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النَّبيِّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، حديث رقم (٤٢٧)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، هَذَا ابتداءً، ثانيًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، هَذَا الغاية؛ إذ لو لم يكنْ مؤمنٌ وكافرٌ فلا تتمُّ كلمةُ الله بملءِ جهنَّم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقوعُ الخِصام بين المُؤْمِنِينَ والكَافِرِينَ، وَأَنَّهُ أمر لَا بُدَّ منه[1]، حَتَّى إِنَّهُ ربما يصل هَذَا الخصام إِلَى الصدام المسلَّح، وهَذَا واضح؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وقال تَعَالَى فِي هَذِهِ الأُمَّة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]، فالخصامُ لَا بُدَّ منه مَعَ أعداءِ الرُّسُلِ وأولياءِ الرُّسُلِ، وربما يصل ذلك إِلَى اصطدامِ مسلَّح والقتال وهَذَا أمرٌ مُشاهَدٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلّ متصدٍّ للدعوةِ إِلَى اللهِ فلا بد أن يجدَ خُصومًا؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الدَّعْوَة فِي ابتدائها مَعَ مَن جاء بها وَهُوَ الرَّسُول ﷺ تُلاقِي ذلكَ، فما بالُك بانتهائها، وقوله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، قد نتوسع فِي معناه ونَقُول: لكل نبيٍّ لا لشخص النبي، ولكِن لدعوة النبي، بدليل أن النَّبِيّ قبل أن يُبْعَث لم يكن له عدوٌّ، والرَّسُول ﷺ كَانَ يُسمَّى الأمينَ عند قريشٍ قبلَ أن يُبعَث، وكانوا يقدِّرونه ويعظِّمونه ويحبونه، وبعد أن بُعث وصار نبيًّا قامت الحرب بينهم وبينه.

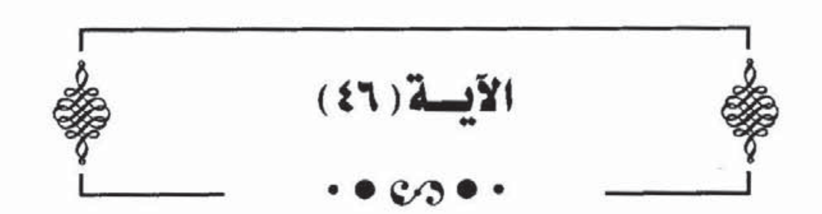
إِذَنْ: يمكن أن نَقُول: إن قول الله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ [الفرقان:٣١]، أي: من حَيْثُ الدَّعْوَةُ، وَعَلَى هَذَا فما بَقِيَتْ هَذِهِ الدَّعْوَة سوف يَكُون لها عدوٌّ من المجرمينَ.

---

(١) تنتهي المادة الصوتية للملف الثامن الوجه الثاني هنا، وما يتبع ذلك حتى نهاية الْفائدة الْخامسة من فوائد الآية (٤٦) لم أجده في المادة الصوتية التالية. وهو في المطبوع من عندهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِي هَذِهِ الآيَة أعظمَ تأييد للداعي إِلَى الله، حَيْثُ وصف الله خصومَه بالإجرامِ، فما دام الداعي معتقدًا وواثقًا من نفسِه أَنَّهُ عَلَى بصيرة فَلْيَبْشِر بالتأييد ولو بالعاقبة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُصْلِح عمل المجرمين.

• • ۞ • •



الآيــة (٤٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ للمكذبين: ﴿يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذابِ قبلَ الرَّحْمَةِ؛ حَيْثُ قلتم: إن كَانَ ما أتيتنا به حقًّا فأْتِنا بالعذابِ].

قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ والتعجُّب، يعني أَنَّهُ يُوَبِّخُهم وينكر عليهم هَذَا الأَمْرَ ويتعجب من حالِهم؛ لِأَنَّ حال العاقلِ أن يستعجلَ بالحسنةِ قبلَ السيئـةِ، لا أن يستعجلَ بالسيئـةِ قبلَ الحسنةِ، لكِن السفيه -والعياذ بالله- سفيهٌ، مثلما قالت قريشٌ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقّ فاهْدِنا إليه، قَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقّ فاهدنا إليه، قَالُوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾، وهَذَا -نسأل الله العافية- فِي غايةِ ما يَكُونُ مِنْ الاستكبار والاستهتارِ، هَؤُلَاءِ يستعجلون بالسيئـةِ قبلَ الحسنةِ ويَقُولُونَ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وهَـذَا التحدِّي من أعداء الرُّسُلِ للرسلِ يَدُلّ عَلَى تماديهم فِي العنادِ وأنهم غيرُ مُؤْمِنِينَ،

ولكِن هَذَا الأَمْر لا يُجابُون إليه، وإن كَانَ فِي ذلك نصرٌ للرَّسُول لكِنهم لا يجابون إِلَى ذلك؛ لِأَنَّهُم إذا أُجِيبوا إليه صار معناه أَنَّهُم يجابون عَلَى اقتراحاتهم، مثلما قالوا لما قيلَ لهم عن البعث؛ قَالُوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، فيقال لهم: الرُّسُلُ ما قالوا لكم: إنكم تُبْعَثُون الآنَ، تُبْعَثُون يومَ القيامةِ، لو قَالُوا: تُبْعَثُونَ الآن، كنا نَقُول: نعم ائتُوا بآبائهم، لكِنهم قَالُوا: تُبْعَثون يوم القيامة وانتظروا يوم القيامة وستجدون آباءكم.

يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن صالحٍ: ﴿لَوْلَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مِنَ الشركِ]، ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى (هلا) وهَذَا من معاني ﴿لَوْلَا﴾ أن تكون للتحضيضِ، ولها معانٍ أخرى أيضًا، ويقال فيها: حرف امتناع لوجودٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج:٤٠]، امتنع تهديم الصوامع لدفعِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ.

ما الَّذِي يُعَيِّنُ هَذَا المَعْنى من هَذَا المَعْنى؟

يُعَيِّنُه السياقُ، وبهَذَا وبكثيرٍ من أمثالِهِ يَتَبَيَّنُ أن الكلمات لَيْسَ لها معنى ذاتيّ، بمعنى أَنَّهَا خُلِقَتْ له، وإنما هِيَ قوالبُ وثيابٌ للمعنى الَّذِي يَدُلّ عليه السياقُ، فأيّ ثوبٍ تُرَكِّبه لمعنًى يَدُلّ عليه السياقُ فَهُوَ هو، وبهَذَا التقرير أيضًا يتبين أَنَّ ما ذهبَ إليه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَنَّهُ لا مجازَ فِي اللُّغة العَربيَّة أَنَّهُ أمر صحيحٌ[1]، وأن كُلّ كلمة استُعملت فِي مَقامها فهي حقيقة فيه، وكون أَنَّهُ مثلًا ما تعرف بهَذَا اللفظ إِلَّا لذاك المَعْنى الَّذِي لم تُسْتَعْمَل فِيهِ ما يَدُلّ عَلَى أن ذاك هُوَ معناها الذاتيّ؛ لأَنَّنا نَقُول: لَيْسَ للكلمات معنى ذاتيّ، واللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) انظر: الحقيقة والمجاز ضمن مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٠١-٤٩٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكار عَلَى مَنِ استعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ، والاستعجال عَلَى نوعينِ: أحدهما: استعجالٌ بالقَوْلِ، بأَنْ يَقُولُوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال:٣٢]، واستعجال بالفِعْلِ والحال؛ بأن يسلكوا مسلكًا يَكُون به العذابُ، وذلك بالمَعاصِي؛ فإن المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلَا شَكّ.

فالَّذِينَ يَعصون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معناه أَنَّهُم استعجلوا عذابهم، حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ أخبر بأن المَعاصِيَ سببٌ للعقوبةِ والعذابِ، فإذا صار الْإِنْسَان يمارس هَذِهِ المَعاصِيَ فَإِنَّهُ يَقُول بلسانِ حالِه: أين العذابُ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى رتَّب العذاب عليها، ففاعلها يَقُول: هاتِ؛ لِأَنَّ فاعل السَّبَب يُريد وقوع المسبَّب.

وَعَلَى هَذَا فإذا رأيت الأمَّةَ عَلَى معصيةِ الله وإن لم تقلْ: أين عذاب الله وأين ما وعدتم به؟ فإنها فِي الحقيقة تَستعجلُ عذابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالاستعجال يَكُون بقال الْإِنْسَانِ وحالِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نُصْح الرُّسُلِ لِأُمَمِهم؛ لِأَنَّ إنكار صالحٍ عَلَى قومِه لأنه يريد منهم أن يَستقيموا عَلَى أمرِ اللهِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الاستغفارَ سببٌ لرفع العقوبةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ وَهُوَ كذلك؛ فإن الاستغفار سببٌ لرفعِ العقوبةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الاستغفار سببٌ لِجَلْبِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ أمرٌ فوقَ دَفْعِ العقوبة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقد قَالَ نوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢]، وهَذِهِ رحمةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نتيجة الاستغفار.

إِذَنْ: فالاستغفارُ سببٌ لاندفاعِ النِّقَمِ وجلبِ النعمِ، والاستغفار هُوَ طلب المغفرة. والمغفرة سَتْر للذنبِ مَعَ التجاوزِ، وطبعًا طالب المغفرةِ يَستلزم طَلَبُه للمغفرةِ إذا كَانَ حقيقة أنْ يُقْلِعَ عنِ الذنبِ؛ لِأَنَّهُ كيف يَقُول: أستغفرُ اللهَ من الربا وَهُوَ يقع فِي الربا، لا يَصلُح هَذَا، فطالب الشَّيْء لَا بُدَّ أن يسعى بأَسْبابِهِ، إذا قلت: اللهمَّ ارْزُقْنِي ولدًا صالحًا وقلت: لن أتزوجَ، إذا كَانَ الله مقدِّرًا لي ولدًا صالحًا سيأتي، فهذا لا يصلح، فلا ينفع أن تستغفرَ اللهَ وأنتْ لم تفعلْ أَسْبابَ المغفرةِ، فلا بدَّ من فعل أَسْبابِ المغفرةِ بالإقلاع عن المعصيةِ ثُمَّ طلب أن يغفر الله لك.

وإذا كَانَ الاستغفارُ سببًا لجلبِ الرَّحْمَةِ فَإِنَّهُ من أَسْبابِ الفتحِ عَلَى المرء بالعلم؛ أن اللهَ يَفْتَح عليه عِلمًا لم يكنْ يَعْلَمُه من قبلُ، يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء:١٠٥-١٠٦]، وَكَانَ بعضُ أهلِ العلمِ إذا سئل عن مسألةٍ قدَّم بين يديْ إجابتِه الاستغفارَ، فقال: أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ الله، حَتَّى يُفْتَحَ له، وهَذَا ظاهر؛ لِأَنَّ الذنوبَ تَحُولُ بين المرء وبين العلمِ، وبين المرءِ وبين الفَهْمِ، فإذا غُفِرَت زال هَذَا الحجابُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، الأوَّل باختيارهم وَهُوَ التحريف، والثاني بغير اختيارِهم، وَهُوَ النِّسيانُ.

فالمَعاصِي سببٌ للحِرمانِ من العلمِ والفهمِ، والاستغفار رفع للمعاصي

وآثارِها، فيقتضي العلم والفهم، ومناسبته منَ الآيةِ الَّتِي سُقناها من آية النِّسَاءِ واضحةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:١٠٥-١٠٦]، فتعقيب الحكمِ بين النَّاس بالاستغفارِ دليلٌ عَلَى أن الاستغفارَ من أدوات الحكم بالحق، وَكَانَ رسول الله ﷺ يُكْثِر الاستغفارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ الله ويتوب إليه فِي اليوم أكثرَ من سبعينَ مرَّةً[1]، ويُحفَظ له فِي المجلسِ الواحدِ أكثر من مائةِ مرةٍ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[2] فكانت أَسْباب المغفرة فِي حقِّه أكثر من غيره.

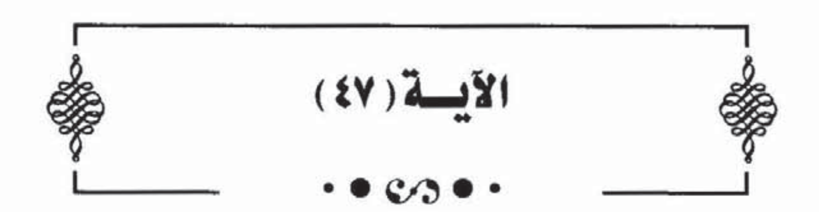
ومن أَسْباب المغفرة أن يستغفرَ بلسانه، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعلم أن الأَشْيَاء بأَسْبابها، عَلِمَ أن اللهَ غفر له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخَّر، فجعل يُكْثِر من أَسْباب المغفرةِ بالاستغفارِ بلسانِه، وكذلك أيضًا بفعل أَسْبابِ المغفرةِ بأفعالِه، وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَانِ إذا منّ اللهُ عليه بشيءٍ أن يُحقّق ذلك الشَّيْء بفعلِ الأَسْبَاب ولا يتَّكِل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحِكْمَة لله تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالرَّحْمَة لها سبب، وكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْرِنُ أفعالَه بأَسْبابها يَدُلّ عَلَى كمالِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ من يفعل أفعالًا عَنْجَهِيَّة لَيْسَ لها أَسْباب فهَذَا سفيه، لكِن عليه أن يربط الأفعال بأَسْبابها.

•••

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النَّبِيّ ﷺ فِي اليوم والليلة، حديث رقم (٥٩٤٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، حديث رقم (٢٠)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فِي العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



الآية (٤٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧].

لَمَّا حَثَّهم عَلَى الاستغفارِ وبيَّن لهم نتائجَه الطيِّبة كَانَ جوابهم: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ -أعوذ بالله- فهَذَا الجوابُ يعني أنك ما أتيتَ لنا بفائدةٍ، بل صِرت شؤمًا علينا، أنت وأتباعك، وهَذَا حال الَّذِينَ يتطيرون بأهل الخيرِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد يَفتِنُ النَّاسَ، فقد يقع مثلًا فِي مجيء الخيرِ أو معه بعضُ الآفاتِ أو بعض الأَشْيَاء المكروهةِ لدى النَّاس؛ ليَكُونَ ذلك فتنةً وابتلاءً، ربما مثلًا يَحُلّ رجلٌ من أهل العلمِ والعِبادَةِ فِي بيتٍ ثُمَّ يحترق هَذَا البيت؛ ابتلاءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وامتحانًا، فأهل الشَّرّ يَفرَحون ويَفْرَهُونَ، يَقُولُونَ: انظُرْ أَسْباب الطَّوْع، احترقَ البيتُ لما جاء هَذَا الرَّجل.

والله تَعَالَى قد يَفتِن النَّاسَ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بمجيء صالحٍ ومعصيةِ قومِه عاقبهم الله تَعَالَى بالقَحْطِ والجَدْبِ وغَورِ المياهِ، فقَالُوا: أنت يا صالح ومن معَك ما جئتمونا بخيرٍ، ما جئتمونا إِلَّا بالقحطِ والجدبِ وغور المياهِ، فتطيروا به، وقَالُوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ:

[أصله: (تَطَيَّرْنَا) أُدْغِمَتِ التاءُ فِي الطاءِ]، وهَذَا الإدغام عَلَى غير خلافِ القَاعِدةِ، إذ إن الإدغام بين الساكنِ والمتحرِّك، وهَذَا بين متحركينِ، فَأُدْغِمَت التاء فِي الطاء، ولَمَّا أُدغمت التاء فِي الطاء صار الحرف الأول منهما ساكنًا، ويلاحظ أيضًا أَنَّهُ بَعْد الإدغام قُلِبَتِ التاءُ طاءً، والساكن لا يمكن الابتداء به فاجتُلبتِ الهمزةُ لتسهيلِ النطقِ به، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واجتلبت همزة الوصلِ]، لتسهيل النطقِ بالساكنِ.

ومعنى ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تَشَاءَمْنَا]، من الشؤمِ، والشؤم معناه: توقُّع الشَّرّ من مُشَاهَدٍ أو مسموعٍ أو زمن أو حال، ولهَذَا قَالُوا: إن التطيُّر مأخوذٌ من الطيرِ، وكانوا فِي الجاهلية يَتشاءمون بالطيورِ، وعندهم قواعد لهَذَا التشاؤمِ، فيَبعثونها؛ فإذا ذهبت يمينًا يتفاءلون أو يسارًا يتشاءمون، أو أمامًا أظن يعيدونها مرة ثانية، وخلفًا يتشاءمون أكثر، فلذلك سُمِّي هَذَا التشاؤم تطيّرًا، مأخوذ من الطير؛ لِأَنَّ غالب تشاؤم العرب بها، فهم يَقُولُونَ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا، وَكَانَ مجيئك شُؤمًا علينا أنت وأتباعك.

إِذَنْ: ما هُوَ التطيُّر؟

هُوَ التشاؤم بمرئيٍّ أو مسموعٍ أو زمان أو مكان أو حال التشاؤم، بمرئيٍّ: كَأَنْ يرى الْإِنْسَان شيئًا فيتشاءم، افرض أَنَّهُ مثلًا أرادَ أن يسافرَ فقابله إِنْسَانٌ هو يَكْرَهه، قَالَ: إذن رَجَعنا. أو هَمَّ أن يسافر فلما خرج سمِع رجلًا يَقُول: مات فلان بن فلان، قَالَ: إذن رجعنا. فهَذَا تشاؤُمٌ بمسموعٍ. أو زمان: يتشاءم بيومٍ من الأيام؛ بيوم الأربعاءِ، يوم الخميس، أو شهر من الشهور؛ كشهر شوال، وكان العرب يتشاءمون بشهر شوال فِي الزواجات، يَقُولُونَ: الَّذِي يتزوَّج فِي شهر شوال ما يوفَّق، لكِن

عائشة أبطلتْ ذلك بالواقعِ، قالت: «إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزَوَّجَهَا فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِهَا فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّكُنَّ كَانَتْ أَحْظَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

إِذَنْ: ينبغي إن أردنا أن نعملَ بالتشاؤمِ أو التفاؤلِ أن نتفاءل بشهر شوال، ولكِن مَعَ ذلك لا نتفاءل بالزمانِ ولا نتطير به، فالخيرُ والشرُّ بيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومنهم من يتشاءم بالمكانِ؛ فتجده مثلًا يريد أن يجلسَ فِي هَذَا المكان ثُمَّ تَبُطُّه شوكةٌ، يَقُول: إذن قُمنا، هَذَا لا يمكن أن نجلسَ فيه. أو يتشاءم بالحالِ؛ حال الشخصِ مثلًا، فالتشاؤم بالحالِ أيضًا هَذَا تطيُّـر، ولا يجوز، فقد يعمل مثلًا الْإِنْسَان عملًا فيعاكسه فِي أوَّل أمرِهِ، أو مثلًا يَهُمُّ أن يفعلَ شيئًا غدًا وإذا كَانَ الغد إذا هُوَ معه بعضُ التعبِ والعجز، فيتشاءم ويَعْدِل بسببِ هَذِهِ الأحوالِ الَّتِي تعرِض له، فنَقُول: كُلّ هَذَا لا يجوزُ، أنت إذا عزمتَ فتوكَّل عَلَى اللهِ، «**اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[2]، فالإِنْسَانُ مِثْلَمَا قَالَ القُرْطُبِيُّ -وكذلك غيرُه من أهل العلمِ-: الَّذِي يُعَلِّق تصرفاته بمثلِ هَذِهِ الأُمُورِ فَهُوَ من أجهلِ النَّاسِ حقيقةً، ثُمَّ إِنَّهُ ما يمكِن أن يمشيَ له حال إذا كَانَ ينظر إِلَى هَذِهِ الأَشْيَاء.

ولكِن يلاحظ أن الفألَ الَّذِي يُعين عَلَى فعلِ الخيـرِ لا يدخل فِي هَذَا الأَمْـرِ، فكَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعجِبُه الفأل ولكِنه يَكْرَهُ الطِّيَرَةَ[3]؛ لِأَنَّ الطيرةَ فيها

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه، حديث رقم (١٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١١/ ٦٢٣) (٧٠٤٥) مسند عبد الله بن عمرو.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، حديث رقم (٥٤٢٤)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعلُّق الْإِنْسَان بغير اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بمثلِ هَذِهِ الأُمُور، وفيها أيضًا مَنْعٌ للإِنْسَانِ عما يريده من الخيرِ، لكِن التفاؤل فِيهِ التشجيعُ عَلَى الخيرِ. لمّا جاء سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[1]، لكِن لَا بُدَّ أن يَكُون التفاؤل يتعلق بشيءٍ يتعلق به، وَأَمَّا مجرَّد أن يرى واحدًا فِي السوقِ اسمه يزيد أو اسمه صالح أو اسمه راشد، فلا، لَيْسَ هَذَا، لكِن الشَّيْء الَّذِي لي معَه معاملة فأنا قد أتفاءل، وسُهيل بن عمرو له معاملةٌ مَعَ الرَّسُول ﷺ فتفاءل، وهَذَا يَكُون من بابِ فتحِ الأُمُورِ باليسرِ.

فالحاصل: أن التفاؤلَ غيرُ التشاؤمِ، والفرق بينهما أن التشاؤمَ من فِعلك، والشؤم من فعل غَيْرِك، وهَذَا واضح أن الله جَلَّوَعَلَا قد يجعل فِي هَذَا الشَّيْء خيرًا وبركةً للإِنْسَانِ، وَفِي هَذَا الشَّيْء شُؤمًا وبلاءً.

واعلمْ أن التشاؤم غير الشؤم، فإن الشؤم قد يَكُون فِي بعضِ الأَشْيَاء مثلما أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَكُون فِي المَرْأَةِ ويَكُون فِي الدارِ ويَكُون فِي الدابّة، وهَذَا شَيْء مشاهَد، أن الْإِنْسَان قد ينزِل بعض الدُّور وَهُوَ لا يتشاءم لكِن يَكُون فيها شؤم، تكون دائمًا خرابًا مثلًا، ودائمًا تحتاج إِلَى أعمالٍ وتتعبه، فإذا ارتحل عنها ارتاح ووجد ما يريد، كذلك بعض السيارات -وإن كَانَ أغلب النَّاس لَيْسَ عندهم دوابّ- في بعض الأحيان الْإِنْسَان يشتري سيارة ويكدها وتتعبه كُلّ يوم يخرب مِنْهَا شَيْء ثُمَّ يبيعها ويشتري سيارةً ثانيةً ويرتاح لها، ومثلها أيضًا في بعض الأحيان يشتري الْإِنْسَان قلمًا -حتى فِي الأَشْيَاء الصغيرة- فيبدأ كُلّ يوم يتعبه؛ يَجِفّ المِدَاد، وتَجِد

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

الريشةَ أيضًا لا تستقيم معه، ومرة يضيع منه فيُتعبه، ويشتري قلمًا آخرَ ويبقى عنده مدَّة، لكِن هَذَا لَيْسَ تشاؤمًا ولكِنه شؤم.

كذلك فِي بعض النِّسَاء، فيتزوج الْإِنْسَان امرأة وتتعبه ليلًا ونهارًا، فِي حوائجه الْعَامَّة والخاصَّة ومع أهله وأقاربه، ويتزوج أخرى فتكون راحةً نفسيةً وقُرَّة عَيْن.

فالحاصل: أن هَذِهِ الأَشْيَاء أمرها واقع، ولكِن الرَّسُول ما قَالَ: (التشاؤم) قَالَ: (الشؤم)، وفرق بين هَذَا وبين هَذَا، فمعنى ذلك أن هَذِهِ الأَشْيَاء يجد النَّاس فيها أحيانًا بركةً وراحةً، وأحيانًا يجدون فيها قَلَقًا وتَعَبًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرَّسُول ﷺ قَالَ: «**الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ...**» وذَكَرَها[1]، وقال: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2]، فامتدحَ حالها مَعَ الشخصِ، فهل معقود فِي نواصيها الخير مُطْلَقًا أو فِي حال الجهاد؟

فالإجابة: فِي حالِ الجهادِ؛ لِأَنَّ الخيلَ قد تكون وِزرًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَكَرَ بعدها مثالًا فِي الَّذِي يربطها بالجهادِ فِي سبيل الله أَنَّهَا لا تستبين ولا تعلو شَرَفًا ولا تأتي رَوْضَةً ولا تشرب ماءً إِلَّا كان له أَجْرٌ[3]، فالسَّبَب يَقتضي ذلكَ، وإن كانتِ العبرةُ بعمومِ اللفظِ، لكِن ما دام أن السَّبَب صالحٌ لإحالةِ الحكمِ عليه فيجب أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم (٤٨٠٦)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢٦٩٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٨٧٣)، عن عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، حديث رقم (٢٢٤٢)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، حديث رقم (٩٨٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُقَيَّد به، مثل قول الرَّسُول ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[١]، وهَذَا اللفظ عامٌّ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ نفسه يصوم فِي السفرِ، إذن يُخَصَّص بالسَّبَب الَّذِي وَرَدَ فِيهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ إذا كَانَ الصِّيَام يؤدِّي إِلَى مثل هَذِهِ الحال فليس من البرِّ، وأيضًا الخيل قد تكون وِزْرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل للأسماء تأثيرٌ في مُسَمَّيَاتِها؟

فالإجابة: ليس لها تأثيرٌ إِلَّا إن كَانَ ذلك من طريقِ الوحيِ، والواقعُ يَشْهَدُ بأنه لا حقيقة لذلك، فتجد هَذَا اسمه عبد الله وَهُوَ عبدٌ للشيطان، وتجد هَذَا اسمه شرورة وتجده من أخيرِ النَّاسِ، إِلَّا شيئًا يَكُونُ بطريقِ الوحيِ؛ كابن أبي طَلْحة سمَّاه الرَّسُول ﷺ عبد الله[٢]، ولما دعا له بالبركة باركَ اللهُ له حَتَّى كَانَ من أولادِهِ تسعة أو سبعة يَحْفَظُونَ الْقُرْآن، لكِن يَنبغي أن يُراعَى فِي الأسماءِ ما أرشدَ إليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأحبُّ الأسماءِ إِلَى اللهِ عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ[٣]، فعبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ أفضلُ من صالحٍ ومن راشدٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن يسميَ الْإِنْسَانُ اسمًا ليتفاءلَ به؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النَّبِيِّ ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، حديث رقم (١٨٤٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كَانَ سفره مرحلتين فأكثر...، حديث رقم (١١١٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد، لمن لم يعق عنه، وتحنيكه، رقم (٥٤٧٠)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، رقم (٢١٤٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم (٢١٣٢)، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإجابة: لا أدري كون الْإِنْسَان يُسمِّي اسمًا ليتفاءلَ به، والرَّسُول ﷺ قَالَ: «لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا نَجَاحًا»[1]، وأيضًا كونك إذا سَمَّيْتَ باسماء رجالٍ صالحينَ يَكُون مثلهم هَذَا أبعد وأبعد إِلَّا إذا كَانَ عَلَى سبيل المحبَّة لهم، مثلما يفعل بعض النَّاس الْآنَ فيُسمّون بأسماء الزعماء الَّذِينَ يحبّون، وأيضًا لا يَكُونون مثلهم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ هَذَا جوابُ الرُّسُلِ، وهَذَا الجواب تجدونه أيضًا قد أجابَ به بنو إسرائيلَ مُوسَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [الأعراف:١٣١]، وكذلك أصحابُ القريةِ الثلاثة تَطَيَّروا بالرسُلِ الَّذِينَ أُرسلوا إليهم.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا جوابُ أهلِ الشرِّ، أَنَّهم يجعلون الأَسْبَاب الَّتِي هِيَ من أفعالِهم ونتيجةً لأفعالهم يجعلونها بأَسْبابِ هَؤُلَاءِ المصلِحين. والحقيقة أَنَّهَا وقعتْ جزاءً عَلَى أفعالِ الكفَّار.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تَشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ قُحِطوا المطرَ وجَاعوا]، قُحِطوا بمعنى مُنِعوا المطرَ وجاعوا، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ﴾ شُؤْمُكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أتاكم به ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾].

قوله: ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: وَلَيْسَ منا، ﴿طَـٰٓئِرُكُمْ﴾ بمعنى شُؤْمِكم، والْمُرادُ ما أصابكم مما تَشَاءَمْتُم به -وَهُوَ القَحْطُ والجوع- عند الله وَلَيْسَ منِّي أنا، وإذا كَانَ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهَذَا من أبلغِ الجوابِ، إذا كَانَ عند الله فإن اللهَ تَعَالَى

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث رقم (٢١٣٦)، عن سمرة بن جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حكيمٌ، ما يُنْزِلُ هَذَا الشَّيْءَ إِلَّا فِي مَنْـزِلَتِهِ وبأَسْبابِهِ الَّتِي يُسْتَـحَقُّ بها، فكأنه يَقُول: ما دام عند الله فالله تَعَالَى حكيمٌ، ما أنزل هَذَا الشؤمَ إِلَّا فِي مَوْطِنِهِ ومَوْضِعِهِ.

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ هَذَا الإضـرابُ لَيْـسَ لإبطالِ الأوَّل، ولكِنـه للانتقالِ، فهو إضرابٌ انتقاليٌّ، وكما هُوَ معروفٌ أن الإضرابَ يَكُون عَلَى نوعينِ: إضراب إبطاليّ يَكُونُ الحكمُ لمَا بعدَ (بل) ويُبْطِل ما قبلَها، والثاني: إضرابٌ انتقاليّ، مثل هَذِهِ الآيَةِ، ومثل قوله تَعَالَى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، انتقالٌ من شيءٍ إِلَى شيءٍ. هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لِأَنَّهُ عند الله يَفْتِنُهُم بما حصل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. ووجه الفتنة:

أولًا: أَنَّهُم نَسبوا هَذَا إِلَى صالح ومن معه، وهَذِهِ فتنة عظيمة ضلَّ بها هَؤُلَاءِ.

ثانيًا: أَنَّهُ أصابَهم مَعَ مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّـوا أو ادَّعوا أن أَسْباب ذلك صالحٌ ومن معَه، ففُتِنُوا بذلكَ فابتعدوا عنِ الحقِّ.

ومثلما تقدَّم قبل قليلٍ بالتمثيلِ بأن يحدثَ مكروهٌ عندَ وجودِ رجلٍ صالحٍ فيُنْسَب هَذَا المكروهُ إِلَى هَذَا الرجلِ الصالحِ، ومجيءِ هَذَا الرجلِ الصالحِ، فيَكُون فِي ذلك فتنة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيمٌ يَفْتِن الْإِنْسَانَ ويَختبره بأنواعِ المفاتنِ، تارَةً بالمصائبِ، وتارَةً بالنِّعَمِ، وتارَةً بالأُمُور الَّتِي تُوجِب الاشتباهَ لِيَمْتَحِنَهُ بذلك، ولهَذَا الدُّنْيا كلها محِنَةٌ، ما دام الْإِنْسَان دائرًا بينَ أمرينِ: إمَّا شرّ وَإِمَّا خير، وكُلّ حياتِكَ هَكَذَا شرّ أو خير، وكلاهما يَقُول الله فيه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

إِذَنْ: معناه انْتَبِـهْ يا أيها الْإِنْسَـان، انتبَهْ فالفضـلُ: لِيَبْلُوَنِي أأشكر أم أكفر، والمصائبُ: لِيَبْلُوَنِي أأصبر أم أَجْزَع، والشُّبُهات العلمية الَّتِي تَرِد عَلَى قلب الْإِنْسَان لِيَبْلُوَه هل يَثْبُتُ أو يَزِيغ، والمسائل كلها فِي الحقيقةِ فتنةٌ واختبارٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

ولهَذَا يَجِب عَلَى العاقلِ أن يَكُون حَذِرًا دائمًا، ولستُ أدعو فِي قولي هَذَا إِلَى سوء الظن باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكِني أدعو إِلَى النظرِ فِي الأُمُورِ ليَكُونَ تَصَرُّفنا عَلَى وجهٍ سليمٍ.

ولكِن مَعَ ذلك أقول: إِنَّهُ إذا تجاوز الْإِنْسَان هَـذِهِ الفتنةَ حصـلَ له الثباتُ والاستقرارُ؛ لِأَنَّهُ يطمئنّ قلبُه ويرسُخ فِي هَذِهِ الأُمُورِ ولا يَزيغ بإذن الله بَعْد ذلك، لكِن قد يُفْتَن المرء، فلْينظُرْ، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُفتنون بالخيرِ والشرّ، ووجهُ الفتنةِ فِي هَؤُلَاءِ: البلاء الَّذِي أصابهم بسببِ دعوةِ صالحٍ إِلَى عبادةِ اللهِ فكَفَرُوا فعُوقِبُوا، فهَـذِهِ من الفتـنِ؛ لِأَنَّهُم قالوا: أنت سَبَبُها، وَفِي الحقيـقة أن أَسْبابها هم أنفسهم، ففُتِنُوا بذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَسْلَكِ المكذِّبين للرسلِ؛ أَنَّهُم يسلكون مسالِكَ التشبيهِ والتمويهِ؛ لِقَوْلِهِم حين أُصيبوا بالجدبِ والقَحْط: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مَعَ أن هَذَا الأَمْر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ بأَسْبابِ النبيِّ، وهَكَذَا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهون ويُلبِّسون عَلَى النَّاس بمثل هَذِهِ الأُمُور.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ المصائب الَّتِي تُصيب الْإِنْسَان إِنَّمَا هِيَ من اللهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، ولا ينافي هَذَا قولَه تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، ولا قولَه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١]؛ لِأَنَّ نِسبة هَذِهِ الأُمُورِ إِلَى اللهِ نسبة خَلْقٍ وإيجادٍ، ونسبتها إِلَى المخلوق نسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إِلَى النَّاس إضافةَ الشَّيْءِ إِلَى سببِهِ، وتُضاف إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إضافة المخلوق إِلَى خالقِه، وَعَلَى هَذَا يزول إشكالُ كثيرٍ منَ الآياتِ الَّتِي ظاهرها التعارُض فِي هَذَا البابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ من الحِكْمَةِ أن يُرَدَّ الباطلُ بالحقِّ بدون سكوتٍ؛ لِقَوْلِهِ فِي جوابهم: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي أن يَكُونَ الردُّ من جنسِ الإيرادِ، فهنا تَطَيَّروا بصالح ومن معَه، فبيَّن أن طِيَرَتَهُم وشُؤْمَهم بسببِ أعمالهم، ولذا قَالَ: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ فاللفظُ مثل اللفظ، فينبغي أن يَكُون الجوابُ مثلَ الإيرادِ، ويَتَحَرّى المجيب حَتَّى اللفظ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ ينبغي لمن ردَّ عَلَى غيره أو أبطلَ قولَه أن يأتيَ بأمرٍ لا جدالَ فيه؛ لِأَنَّ صالحًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لو قَالَ: هَذَا الجَدْب لَيْسَ منِّي وأنا ما أتيتُ بسببِه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لكان هَذَا فِيهِ مجال للأخذِ والردّ، ولكِن يَنبغي أن يختارَ المجيبُ الجوابَ الَّذِي لا كلامَ بعدَه.

ونظيرُ هَذَا مُحاجَّة إبراهيمَ للذي حاجَّه فِي الله ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، لم يقلْ: لا، أنت لستَ تُحْيِي وتميت، ولكِنك تقتُل مَن لا يَستحِقّ القتلَ وترفَع القتلَ عمَّنِ استحقَّه، وهَذَا لَيْسَ بإحياءٍ ولا إماتةٍ، مَعَ أَنَّ هَذَا هُوَ الحقيقة، لكِن هَذَا يَكُون فِيهِ جدَلٌ؛ إِنَّما أتى بأمرٍ لا جدالَ فِيهِ ولا يُمْكِنُه أَنْ يُجادِلَ، ولهَذَا بُهِتَ الَّذِي كفر.

وهَكَذَا يَنبغي للإِنْسَان فِي مُحاجّة مَن حاجّه أن يختار الأجوبةَ الَّتِي لا تؤدِّي إِلَى النزاعِ والجدالِ؛ لِأَنَّهُ إذا أدَّت إِلَى النزاع والجدال فقد يَتَغلَّب الباطلُ عَلَى الحَقّ بسبب طولِ الجدال واللفّ والدَّورانِ، لكِن يُؤتَى بشيءٍ لا جدالَ فيه، وهَذَا من آدابِ المناظرةِ حَتَّى عند الَّذِينَ يَتكلَّمُونَ بهَذِهِ الأُمُورِ، فيَرونَ أن من آدابِ المناظرةِ الأخذ بما لا يُمْكِن الجدلُ فيه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَعَالَى قد يُحْدِث منَ الأُمُورِ ما يَكُون سببًا لافتتان بعض النَّاس؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا جاء صالح جاء الجَدْب، وهَذَا فِي الحقيقة فتنةٌ لبعضِ النَّاسِ؛ إذ يَقُول بعض النَّاس مثلًا: إن هَذَا من أَسْباب هَذِهِ الرسالةِ، فيَكُون سببًا للفتنةِ، لولا عصمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهَذَا دائمًا يَكُون فِي أفعالِ اللهِ تَعَالَى الْقَدرِيَّة والشَّرْعِيَّة، فِي الشَّرْعِيَّة: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]، حرَّم الله الصيد عَلَى المحرِمين، فبعث الله إِلَى الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَيدًا تناله أيديهم ورِماحهم يُمْسِكه بيده بدون تعبٍ وبرُمحِه بدون أن يحتاج إِلَى قوسٍ ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فخافوه بالغيب.

وافتتن الله تَعَالَى قومَ موسى بالحيتانِ تأتيهم يومَ سَبْتِهِم شُرَّعًا مَعَ تحريم الصيد عليهم، ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم، ولكِنهم لم يَصْبِروا وخادعوا فتحايَلُوا، وصاروا يَضَعُون الشباكَ للحيتانِ فِي يوم الجُمُعة فتأتي الحيتان فتقع فِيها يوم السبتِ، فإذا كَانَ يوم الأحدِ جاءوا وأخذوها، وقَالُوا: نحن ما صِدنا يوم السبتِ، فقلبهم الله تَعَالَى قِرَدَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

فالحاصل أقول: إن الله تَعَالَى قد يَفتِنُ الْإِنْسَان بالفتنِ الشَّرْعِيَّة والْقَدرِيَّة لأجلِ أن يعلمَ مَن يخافه بالغيب، ومن يصبر ومن لا يصبر.

أحيانًا أيضًا يُبْتلى المرءُ بالمصائبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، ومنَ النَّاس مَن يعبد الله تَعَالَى عَلَى أساسٍ لَيسَ عَلَى حرفٍ، فإن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به، وشكرَ عليه، وإن أصابَتْهُ فِتنةٌ صَبرَ حَتَّى يَجْتَازَهَا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن الجدبَ والقحطَ هُوَ آيَةٌ وَلَيْس فتنةً؟

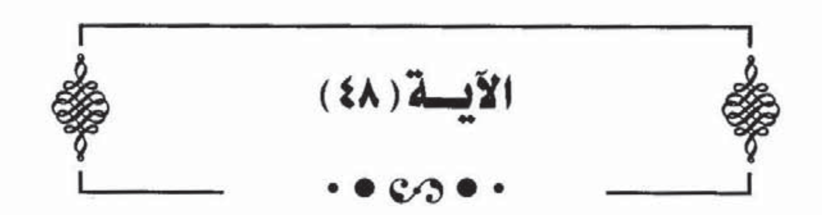
فالجواب: هَذِهِ فتنةٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّن أن السَّبَب ليسَ الرسالة، وَهُوَ ما جاء بها لتشهد عَلَى رسالته، أُجيبوا بها لِأَنَّهُم كذَّبوا، مثلما أُجيبتْ قريشٌ بدعاء النَّبِيّ ﷺ بسنين كسنين يُوسُف[1].

وهو ما قَالَ لهم: إن آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقَحْطِ، وحتى لو قَالَ: إنَّ آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقحطِ وحَصَلَ فَهُوَ آيَة.

•• ۞ ••

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النَّبِيّ ﷺ: «**اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، حديث رقم (٩٦١)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم (٦٧٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٤٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

•••

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينة ثَمُود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: رِجال]، المُفَسِّـر قَالَ: أيْ رجال، والرهطُ صحيحٌ هم الرِّجال، لكِنهم قَالُوا: إن الرهطَ ما بينَ الثلاثةِ إِلَى العشَرةِ، وبعضهم قَالَ: ما بينَ السبعةِ إِلَى العشَرةِ، فعلى هَذَا ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ يَكُون تسعة فِي تسعة؛ بواحد وثمانين، والمُفَسِّـر فَسَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرهطَ بالرِّجال لا بمعناها الخاصّ؛ لأجل أن تستقيمَ الإضافةُ؛ إِذِ الشَّيْء لا يُضاف إِلَى نفسه إِلَّا عَلَى تأويلٍ.

وقال بعضهم: إِنَّهُ لا حاجة إِلَى هَذَا التأويل؛ لِأَنَّ الإضافةَ هنا بَيَانيَّة، أي أنَّ ﴿رَهْطٍ﴾ تفسير لـ(تسعة)، كأنه قَالَ: (تِسعةٌ رَهْطٌ).

والمَعْنى عَلَى كُلّ حال: هُوَ أن هَذِهِ المَدينَة -مدينة صالح أو مدينة ثمود- كَانَ فيها رجال تسعة، والتسعة هَذِهِ كانت مجالًا للتفاؤلِ والتشاؤم، فالبعض يتشاءم من العددِ تسعة، يَقُول: لِأَنَّ تسعة جاءت بالإفسادِ فِي الْأَرْض ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والبعض يتفاءل بها، والرافضة يتشاءمون بالعشرةِ ويتفاءلون بالتسعةِ، معَ أنَّ المُبَشَّرِينَ بالجنَّة عَشَرة، لكِن هم يُخْرِجُون عليَّ بنَ أبي طالـبٍ منهم، فهم

يتشاءمون بالعشرة، وعَدُوُّهم من العددِ العشرة، وصديقهم التسعة؛ لِأَنَّهم يَقُولُونَ: هم آل البيت الَّذِين وضع عليهم الرَّسُول الكساء، فقال لهم شيخ الإِسْلام: يَجِب إذا كنتم تتفاءلون أو تتشاءمون بالعدد أنكم تتشاءمون بالتسعة؛ لِأَنَّها هِيَ الَّتِي قَالَ الله فيها: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، أَمَّا العشرة فإن الغالبَ أَنَّهَا خير: عشر ذي الحجَّة، وعشر رَمَضَان، والعشرة المبشرون بالجَنَّة، وأمثلة كثيرة لا تَحْضُرني الآن[1].

وأنا أقول: إن كلام شيخ الإِسْلام هَذَا للتنزُّل مَعَ الخصمِ، وإِلَّا هُوَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتفاءل لا بهَذَا ولا بهَذَا، فالعدد عدد، لَيْسَ فِيهِ أثرٌ لشيءٍ.

قوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمَعاصِي، وكلما ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الفساد فِي الْأَرْض فالمُراد به المعصية: الشرك فما دونه؛ لِأَنَّهُ لَا شَكَّ أن عمل المَعاصِي نفسه فساد، ثُمَّ هُوَ سببٌ للفسادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فالمَعاصِي هِيَ نفسها فسادٌ، وهي سببٌ للفسادِ أيضًا، فلذلك كلَّما ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفسادَ فِي الْأَرْض فالمُرادُ به المَعاصِي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمَعاصِي، مِنْهَا قَرْضُهُمُ الدَّنانيرَ والدَّراهِمَ]، أي يُقَطِّعونها ويخرِّبونها ويَقُصُّون من الدراهمِ والدنانيرِ، لكِن هَـٰذِهِ إسـرائيليات لا دليلَ عليها، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ أكبـر المَعاصِي، صحيح أَنَّهُ غِشّ، لَكِنَّهُ

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٤٠، ٤/ ١٣٩، ٧/ ٤١٧).

لَيْسَ أكبر المَعاصِي.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أهمُّ شيءٍ أَنَّهُم أنكروا الرسالةَ وكفَروا بالخالِقِ، فهَذِهِ من أعظمِ المَعاصِي الَّتِي يُفْسِدُونَ بها فِي الْأَرْض.

قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ يُفْسِدون ولا يُصْلِحون، معناه أنَّ فَسَادَهم هَذَا -والعياذُ باللهِ- شاملٌ، لَيْسَ فِيهِ صلاحٌ أبدًا، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من قولِهِ: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، وفيه فائدة عظيمةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ قد يَجتمِع الصلاحُ والفسادُ فِي آنٍ واحدٍ، كما أن الْإِنْسَان يَكُون مؤمنًا ويَكُون فاسقًا، ويَكُون فِيهِ إيمانٌ وفيه كفرٌ، وفِيهِ فسوقٌ وطاعةٌ، وفِيهِ فسادٌ وصلاحٌ، فالأُمُورُ إمَّا خيرٌ مَحْضٌ وصلاحٌ مَحْضٌ، وَإمَّا شرٌّ محض وفساد محض، وَإمَّا خليطٌ من الأَمْرينِ. وهَؤُلَاءِ القومُ يُفسِدون ولا يُصلِحون، والعياذُ باللهِ، فما يصلحون بالطاعة أبدًا، وهَذَا دليل عَلَى أَنَّهُم لَيْسَ فيهم خير محض، ولَيْسَ فيهم خير أبدًا، لا قليل ولا كثير، لكِن فيهم أُناس خيِّرون، وهم الَّذِينَ آمنوا بصالحٍ واتبعوه، لكِن هَؤُلَاءِ الرهط التسعة يفسدون ولا يصلحون، دائمًا لَيْسَ لهم هَمّ إِلَّا الفساد فِي الْأَرْض بالمَعاصِي، وإلقاء الفِتَن بين النَّاسِ، ومحاولة قتل المُصْلِحِين، ولهَذَا قَالُوا: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل:٤٩]، إِلَى آخرِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: التشاؤُمُ هل يُعْتَبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ؟

فالإجابة: التشاؤمُ شِركٌ أصغرُ، ما لم يعتقد أَنَّهُ مؤثِّر بنفسِهِ فيَكُون أكبرَ، وأظننا ذكرنا هَذِهِ القاعدة: كُلّ مَن أثبتَ سببًا غيرَ شرعيٍّ أو قَدَرِيّ -يعني لا يقتضيه الشرعُ ولا القدرُ- فَهُوَ مُشرِكٌ، لَكِنَّهُ شرك أصغر، لا يؤدِّي إِلَى الأكبرِ، فأمَّا ما اقتضاه الشرع أو اقتضاه القدرُ: فما اقتضاه الشرع بأن يعلم من طريقِ الشرعِ أن هَذَا سبب لهَذَا، كقراءةِ الفاتحةِ عَلَى المريضِ سبب للشفاءِ شَرعًا، يعني جاء بها الشرعُ، والتجارب

الَّتِي تُجرَى عَلَى بعضِ النباتاتِ وبعض الأدوية فيُعرَف تأثيرها، فهَذَا سَبَبٌ قَدَرِيّ جاء به القدرُ، لكِن لَا بُدَّ أنْ يعتقدَ أن النافعَ هُوَ اللهُ وأن هَذَا من أَسْبابِ النفعِ، لكِن لوِ اعتقدَ أَنَّهُ ينفع بنفسِهِ وَلَيْسَ سببًا محضًا صارَ متَّخِذًا مَعَ اللهِ إلهًا. المهمُّ أن الأَشْيَاء الَّتِي لم يَدُلَّ عليها الشرعُ ولا القدرُ هَذِهِ لا يجوزُ أنْ نُثْبِتَ أَنَّهَا أَسْباب، مثل: إِنْسَان علَّق خيطًا برقبتِه، قَالَ: هَذَا لدفعِ العينِ، فالذي يعلق هَذَا الخيطَ لا يصابُ بالعينِ، فهَذَا لَيْسَ بسببٍ، ولَيْسَ بصحيحٍ، فأين الشرع الَّذِي دلَّ عليه وأين القدرُ الَّذِي دلَّ عليه؟! وكم من إِنْسَانٍ يُصاب بالعينِ وعليه هَذَا الخيطُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقنين القوانين الوضعيَّة يُعتبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ، وهل يدخل فِي مسألة الأَسْبَاب؟

فالإجابة: التقنين لا يدخل فِي هَذِهِ المسألةِ، وهي مسألة الأَسْبَاب الَّتِي أشرنا إليها، نحن نتكلمُ عنِ الأَسْبَاب، فمن جعل سببًا لمسببات معينة بدون شرع ولا قدر فَهُوَ مشركٌ.

وأمّا مسألة التشريعِ فليستْ داخلةً فِي مسألةِ الأَسْبَاب الَّتِي أشرنا إليها، هَذِهِ من جهةٍ أخرى، فالتشريعُ حُكْم بغير ما أنزلَ اللهُ، أي: إِنْسَان يَشْرَع ما لم يَشْرَعْهُ الله، ويعتقد أن الله لم يشرعْه وَأَنَّهُ أصلح ممَّا شرعَ اللهُ، فَهُوَ كافرٌ كفرًا مُخْرِجًا منَ المِلَّة، سواء حكم به أم لم يحكمْ أم تركَ النَّاس يحكمون به، ولهَذَا يَجِب أن نفرِّق بين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ تشريعًا، وبين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فِعلًا، فالَّذِي يحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ فِعلًا لا تَشريعًا هَذَا قد يكفر وقد يفسق وقد يظلم، وَالَّذِي يحكم بغير ما أنزلَ اللهُ تَشريعًا، بمعنى أَنَّهُ يجعله هُوَ الشرعَ؛ شرع مُبَدَّل بدل شرع مُنْزَل، هُوَ يرى أن هَذَا الشرع المبدل أصلح للعالمِ من الشرعِ المنزلِ، فهَذَا كافر، ولا ينقسم فعله

إِلَى ظلمٍ وفسقٍ وكفرٍ، بل هُوَ كفرٌ محض.

فالحكَّام الْآنَ الَّذِينَ يُقَنِّنُونَ للناس قوانينَ ويَقُولُونَ: يَجِب أن تمشوا عليها لِأَنَّهَا أصلحُ لكم مما سبقَ، فهَؤُلَاءِ كفارٌ، حَتَّى وإن لم تَنْزِلْ بهم نازلةٌ واحدةٌ فيحكموا بهَذِهِ القوانين، فهم كفار، مثال ذلك إِنْسَان رئيس دولة شَرَع نظامًا ويَعْرِفُ أن هَذَا النظامَ مخالِفٌ للشرعِ، لكِن يعتقد أَنَّهُ أفضلُ منَ الشرعِ وأصلحُ للخلقِ، وهُوَ ما حَكَمَ به لكِن سَنَّه وتركَ النَّاس يحكمون به، نَقُول: هَذَا كافرٌ كفرًا مخرِجًا عنِ المِلَّة، ويجب الخروجُ عليه، إِلَّا إذا كَانَ متأوِّلًا، فقد يَكُون متأولًا، قد يَقُول: لا، هَذَا لا يخالف الشرعَ؛ وذلك لِأَنَّ عندنا بعض العُلَماء -الله يهدينا وإياهم- يفتحون للحكام أبوابًا، حَتَّى إنَّهُم يموِّهون عليهم ويَقُولُونَ: مسائل الدُّنْيا ما للشرع فيها دخل؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يَقُول: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ**»[1] فِي مسألة التلقيح، فيموِّهون عَلَى الحكامِ، يَقُولُونَ مثلًا: تجوز البنوكُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ من النظام الاقتصاديّ الحديث، لَيْسَ للشرع فِيهِ دخل، وتجوز صناديق التنميات وَلَيْسَ فيها شَيْء؛ لِأَنَّ هَذِهِ من الأُمُور الاقتصادية الَّتِي يُرجَع فيها إِلَى ما يقتضيه العصر، لَيْسَ للشرع فيها نظر، وغالب الحكام قد يجهلونَ هَذَا الأَمْر فيظنون أنَّ هَذَا صحيح، فيلتبس عليهم.

لكِنْ إذا علمنا وفَهَّمْناهم وبَيَّنَّا لهم الحَقّ وقُلْنَا: إن معنى قوله: «**أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ**» أي: فيما يتعلق بالعَمَل والصناعة، فالصانع يعرف كيف يصنع القِدْرَ، لكِن قد لا يعرفه الرَّسُول ﷺ، والحَرَّاث يعرف كيف يَبْذُرُ، لكِن الرَّسُول قد لا يعلم ذلك، لكِن أحكام شؤون دنيانا الأعلم بها الشرعُ، ففرق بين الأفعالِ وبينَ الأحكامِ،

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣)، عن عائشة وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أنا الْآنَ مثـلًا أعرف أن هَذَا الشَّيْء محرَّم من الصناعة أو من الزراعة أو مَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، لكِن هل أعرف كيف أصنعه؟ وأعرِف أن صناعةَ السياراتِ من الأُمُورِ الطيِّبة المطلوبة؛ لِما فيها من المصلحةِ، لكِن هل أعرِف كيف أصنعُ السيَّارة؟ أقول للكافر المشرك الملحِد الشيوعيّ الخبيث: أنت أعلم بشؤون دنياك، لَكِنَّهُ لَيْسَ أعلم منّي بحكم هَذَا الشَّيْءِ، وهَذَا واضحٌ، فقول الرَّسُول: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ**» يعني أنتم أعرفُ هل هَذَا التلقيحُ يَنْـفَع أو لا يَنْـفَع؛ لأَنَّكم مجرِّبون وفاهِمون، لكِن أنا أُعطيكم حُكْمًا شرعيًّا بأنَّ كُلّ ما كَانَ صالحًا للخلقِ ولأجلِ مَصْلَحَة الخلقِ فَهُوَ منَ الأُمُورِ المطلوبةِ شرعًا؛ لِأَنَّ أصل الشرائعِ ما نَزَلَتْ إِلَّا لإصلاحِ الخَلْقِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما وردَ عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي وسائل الطب يُشْكِل عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ طبيبًا؟

فالجواب: نعم لَكِنَّهُ بالوحي يُدْرِك هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ هُوَ إِمَّا أن يَكُون أدركه بالتجاربِ، فإذا أدركه بالتجاربِ وأخبرَ به عُلِمَ، وَإِمَّا أن يَكُونَ قد أدركه بالوحيِ، فمثلًا ذِكره أنَّ الشفاء فِي ثلاثٍ[1]، والعَسَل معروف بالوحي: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، وهناكَ الكَيّ والحِجَامة، فيَحْتَمِل عندي أنا وعند غيري أَنَّهُ تلقَّى ذلك من الوحيِ، ونحن لا نعلم بهَذَا، ويَحتمِل أَنَّهُ عَلِمَه من التجاربِ وثبَت عندَه، ومع ذلك أيضًا نَقُولُ: ما دامَ الرَّسُول ﷺ أَثْبَتَهُ فإنَّنا نُثبته؛ لِأَنَّهُ ثبت بقولِ الرَّسُول وكذلك التجارِب تَشْهَد له.

فالتَّلْقِيح وغيرُه مثل صناعة الأبوابِ والبناياتِ، وهَذِهِ الأَشْيَاء قد لا يَعْلَمُها

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنْ كَانَ قدْ مَارَسَها، ولهَذَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو كَانَ عنده فِي مكَّة نَخْلٌ ومارسَ هَـذَا الشَّيْءَ أو مارسه أهل مكَّة وعَلِموا به لَدَرَى عنه الرَّسُولُ، لَكِنَّهُ أَتَى للمدينةِ أوَّل ما أتى وقال: واللهِ أنا ما أظنُّ أنَّ هَذَا التلقيحَ يَنْفَعُ شيئًا[1]، ولم يقلْ: لا تُلَقِّحوا، لكِن الصحابة لِتَعَبِهِم مِنَ التلقيحِ لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلامَ فرِحوا وقَالُوا: إذنْ لا نُلَقِّح وتركوا التلقيحَ.

فما أخبر به الرَّسُولُ قد يَكُونُ بالممارسةِ وقد يَكُونُ بغيرِ الممارسةِ، مثلًا: **«الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»**[2] هل هَذَا وحيٌ أو لا؟

هَذِهِ بالذات قد تكون وحيًا؛ لِأَنَّهَا خَفِيَّة، لكِن مسألة الحِجامة ومسألة الكَيّ هَذَا أمرٌ معلومٌ ومعروفٌ عندَ النَّاسِ، فقد يُغَلِّبُ الْإِنْسَان أن الرَّسُول ﷺ عَلِمَ ذلك بالتجارِب، وقد يقولُ الْإِنْسَان: هَذَا وحيٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ أوحاه إليه.

والمعلوم بالتجارب قطعيّ إذا حَكَمَ به الرَّسُولُ، مَعَ أن الرَّسُول يَقُول: **«إِنْ كَانَ الشِّفَاءُ فِي شَيْءٍ فَفِي ثَلَاثٍ»** فما جزَمَ؛ لِأَنَّهُ قد لا يَشفَى الْإِنْسَان بهَذِهِ الثلاث.

وكلامه الأوَّل فِي التلقيحِ لَيْسَ عن تَجارِبَ، ولهَذَا أخلفَ الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عنده وَحْيٌ ولا تَجارِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِذَن: الرَّسُول قالها رأيًا، هُوَ قَالَ: أَرَى أنَّ ذلك لا يَنْفَع شيئًا، لكِن مِثْلَما تقدَّم: أنَّ الصحابة لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلام فرِحوا به، قَالُوا: إذن كُفِينا المُؤْنَةَ؛ ما دام هَذَا ظنّ النَّبِيّ ﷺ، وتَرَكُوه وفَسَدَ النخلُ.

---

(١) سبق تخريجه بلفظ: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، حديث رقم (٥٣٨١)؛ ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، حديث رقم (٢٠٤٩)، عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد يُشْكِل عَلَى بعض النَّاس فيقولونَ: كما أَنَّهُ لَيْسَ مُؤَبَّرًا فَهُوَ لَيْسَ أيضًا طبيبًا؟

فالإجابة: ليس بصحيح، نَقُولُ: الرَّسُول ﷺ ما جَزَمَ بأنه يفيدُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ لكلِّ مؤمنٍ، ويستطيع أَنْ يُدَافِعَ لمن أوردَ شُبهة فِي هَذَا الأَمْر فيقول: النَّبيّ ﷺ ما جَزَمَ، ولو جزمَ النَّبيّ ﷺ بهَذَا الأَمْرِ فَإِنَّما جزمَ به عَلَى سبيلِ الظنّ، والإِنْسَان قد يَجْزِم بالشَّيْءِ عَلَى سبيلِ الظنِّ، وقد أقرَّ النَّبيّ ﷺ مَن جَزَمَ.. بل قد أقسمَ عَلَى سبيلِ الظنّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الأطبّاء العَصْرِيُّون يعملون بالكيِّ، فهل يُرَدّ الحديثُ بِسَبَبِ ما ظَهَرَ من أنواعِ التقدُّم فِي الطبِّ أو لا؟

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيح، أولًا: هم الْآنَ يؤمنون بالكيِّ، لكِن تَخْتَلِف الوسيلة الآن، فالكيُّ بالكهرباء ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَذَا معروف لهم، ومُسْتَعْمَل ويؤمنون به. وكما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» لَيْسَ المُرادُ بالرمي بالقوس الآن، الرمي بالآلة الموجـودة، والكي أيضًا بالآلة الموجـودة. وهم أيضًا الْآنَ فِي بعض الأَشْيَاء يَلْجَئُون إِلَى الطبِّ العربيّ، وأذكر أنهم دائمًا يَنْصَحُون المريضَ بذاتِ الجَنْبِ ويَقُولُونَ: اذهَبْ تَطَبَّب طِبًّا عربيًّا، ويُكْوَى ويُشْفَى بإذن الله.

وهم فِي الحقيقـة قد يُنْكِرون الوسيلةَ أو الآلةَ الَّتِي حَصَلَ بها الكَيّ، أو فِعْل بعض الَّذِينَ يكوون بالحديدِ، ففِعل بعض الَّذِينَ يكوون فظيع والعياذُ بالله، أنا أذكُرُ أنّ بعضَ النِّسَاءِ يُؤتَى إليها بالطفلِ وتَعْمَل له فِي رأسه ثمانين كَيَّة، وكذا فِي ظَهْره كُلّ خرزة مِنَ الظَّهر عليها خَمْس. فالأطباء يَقُولُونَ بهَذَا الشَّيْءِ ويُنْكِرونه لِئَلَّا يَحْصُل مثل هَذِهِ الحالاتِ.

والرَّسُول ﷺ لما ذكر هَذِهِ الأَشْيَاء فلَيْسَ معناه أن هَذِهِ حتمًا هِيَ الَّتِي تَنْفَع، بل قد يقوم مَقامها ما هُوَ أولى منها، ونَهْيُ النَّبيّ ﷺ عن الكَيِّ لَيْسَ للتحريم[1]، والنَّبيّ ﷺ نَفْسُه فَعَلَ وكَوَى سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فِيهِ مَبْدَأ العَصَابات، ولا يزالُ مَوْجودًا إِلَى الآنَ، فإن هَؤُلَاءِ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وما زالَ الأَمْر إِلَى يومنا هَذَا وإلى ما بَعْد والله أَعْلَمُ وَأَنَّهُ سَيَبْقَى؛ لِأَنَّ أهل الشَّرّ لهم طُرُق يَتَفَنَّنُون بها فِي فرضِ شَرِّهِم عَلَى غيرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يمكن أنْ يَجْتَمِعَ الفساد والصلاح، يعني أن الفساد والصلاح قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولولا أَنَّهُ يمكن اجْتِمَاعُهما لم يكنْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدة؛ لِأَنَّهُ يَكُون عدم الصلاح مفهومًا من إثباتِ الفسادِ، لو لم يُمْكِنِ اجْتِمَاعُهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكفر والإيمان قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِأَنَّ الإيمان صلاحٌ والكفرَ فسادٌ، وكذلك أيضًا الفُسُوق والطاعة يمكن أن يَجْتَمِعَا، وخالف فِي ذلك طوائفُ منَ النَّاسِ: المُعْتَزِلَة والخوارِجُ والمُرْجِئَة، فالمرجئة قَالُوا: لا يمكن، فالْإِنْسَان إذا كَانَ مؤمنًا كُلّ أحوالِهِ صالحةٌ ولا يُعَذَّب بذنبٍ ولا يُلام عليه، والخوارج والمُعْتَزِلَة

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، حديث رقم (٢٢٠٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بالعكسِ قَالُوا: لا يمكن أنْ يَجْتَمِعَ كفرٌ وإيمـانٌ، وفُسُوق وطاعة، بل مَن أتى ما يُوجِب الفِسْق صار كافرًا، ومَن أتى ما يُوجِب الكفرَ صارَ كافرًا عَلَى رأيِ الخوارِجِ، أو خارجًا من الإيمـان بين منزلةِ الإيمـانِ والكفرِ عَلَى رأي المعتزلة، ولَا شَكَّ أن النصوصَ والواقعَ والعقلَ يَدُلّ عَلَى خلافِ ما قالوا؛ لِأَنَّ اجتمـاعَ هَذَا وهَذَا أمرٌ موجودٌ مَعْلُوم، فالعاصي نَقُول: إنَّهُ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، فلا نُطْلِق عليه الإيمـان المُطْلَق، حَتَّى لو كَانَ عنده إيمـانٌ عشرة فِي المِئَة، لَا بُدَّ أن يَكُونَ ناقصَ الإيمـانِ، أو نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِقٌ بكبيرتِهِ، مثلًا لوِ اغتابَ الإِنْسَان رجلًا من النَّاسِ، فهَذِهِ كبيرةٌ منَ الكَبائِرِ تَنْقُصُ الإيمانَ، وَهُوَ يُصَلِّي ويصوم ويزكِّي ويَحُجّ ويتطوع بسائر التطوُّعاتِ، لا نعطيه وصفَ الإيمانِ المطلَق، بل نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِق بِكَبيرتِهِ أو مؤمن ناقصُ الإيمانِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس قوله تَعَالَى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ مثل قول الصحابيّ: فأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ ونُهِينَا عَنِ الكَلَامِ[1]، بمعنى أَنَّ الوَصْفَ يَتَحَقَّق بواحدٍ منهما؟

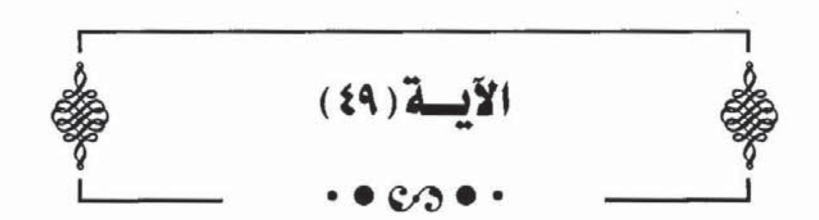
فالجواب: لا؛ لِأَنَّ السكوتَ والكَلامَ متناقِضانِ، أَمَّا الصلاحُ والفسادُ فمُتَضَادَّانِ يُمْكِن أنْ يَجْتَمِعَا، فيَكُونُ فِي الشَّيْءِ مَصْلَحة ومَفْسَدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، أَمَّا هَذَا فإمَّا سكوتٌ أو كلام، فهما متناقضان، يعني لا يمكن أن يوجدَ أَحَدُهما إِلَّا بِفَقْدِ الآخرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٩).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المَعاصِيَ من أَسْبابِ الفسادِ فِي الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾، وهَـؤُلَاءِ الجمـاعةُ ليسـوا يَهْـدِمُون البيوتَ ولا يُغْرِقُون الزُّرُوعَ ولا يُحْرِقون المتاجِرَ، لَكِنَّهم يفعلون ما يَكُون سببًا للفسادِ؛ الفساد المَعْنَوِيّ، وَهُوَ فساد الأخلاقِ والسلوكِ، والفساد الحِسِّي؛ لِأَنَّ الفساد الحِسِّيّ يَتْبَع الفسادَ المعنويَّ.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٤٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٩].

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي: هَؤُلَاءِ التسعة، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ﴾ أي: قَالَ بَعْضُهم لبعضٍ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أي: احْلِفُوا ﴿بِٱللَّهِ﴾]، يعني طَلَبَ بعضهم مِن بعضٍ أنْ يَتَعَاهَدوا عَلَى هَذَا الأَمْرِ ويتحالفوا عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ومعنى البياتِ إنزالُ العقوبةِ به ليلًا، فهنا حَلَفوا -والعياذُ باللهِ- وهَذَا الحَلِف الفاجِر عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ اللامُ فِي قولِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ واقعةٌ فِي جوابِ القَسَمِ، والنون للتَّوكيدِ، فهم أكَّدوا هَذَا الفِعْل باليمينِ واللامِ والنونِ.

يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بالنونِ والتاءِ وضَمّ التاءِ الثَّانِيَةِ]، إذا جعلناها بالتاء لَزِمَ ضَمُّ الثَّانِيَة: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، وأَمَّا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ فإنَّ التاءَ تَبْقَى مفتوحةً[1].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: مَن آمنَ به أَيْ نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا]، هَذَا تفسيرُ البياتِ، والْمُرادُ بالأهلِ أتباعُهُ كما قَالَ الْمُفَسِّر، ولكِن قد يُنازَع فِي هَذَا ويُقال: إن الْمُرادَ به أهلُه الخاصُّون، يعني أهل بَيْتِه؛ لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ يَكُونونَ فِي الغالبِ معه فِي الليلِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ الْإِنْسَانَ فِي الليلِ لا يَكُونُ معه فِي بيتِهِ إِلَّا أهله الخاصُّون به.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

ثُمَّ بَعْد ذلك، أي بَعْد أنْ نُبيِّته ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنون والتاءِ وضَمّ اللامِ الثَّانِيَةِ]، أي: وضمِّ اللامِ الثَّانِيَةِ إذا كانتْ بالتاءِ: (لَتَقُولُنَّ)، أَمَّا عَلَى قراءةِ النونِ فهي بالفتح: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

يعني: ثُمَّ بعدَ أنْ نُبيِّـتَه ونقتله إذا قامَ وَلِيُّه بالأخذِ بِثأْرِهِ نَقُول ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِوَلِيِّ دَمِه].

ووليُّ الدمِ عندنا فِي الشَّرِيعَة الإِسْلاميَّة هم الوَرَثَة بفرضٍ أو تعصيبٍ، وَقِيلَ: بل همُ العصبةُ؛ لِأَنَّهُم الَّذِينَ يؤدُّون العقلَ عنه، وَأَمَّا ذَوُو الفَرْض فلَيْسُوا مِن أولياءِ الدمِ، والصَّوابُ العمومُ؛ أنَّ أولياءَ الدمِ همُ الورثةُ بفرضٍ أو تعصيبٍ، حَتَّى الزوجة والأمّ هما مِن أولياءِ الدمِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا شَهِدْنَا﴾ حَضَـرْنَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِـها]: (مُهْلَك ومَهْلَك) ولم يَتَعَـرَّضِ المُفَسِّـر للقراءةِ الثَّالثةِ وهي (مَهْلِك)، فالقراءات فيها ثلاث: فتح الميم وكسر اللام (مَهْلِك)، فتح الميم واللام (مَهْلَك)، ضمّ الميم وفتح اللام (مُهْلَك)، وهاتانِ الأخيرتانِ هما اللتانِ ذكرهما المُفَسِّر: (مُهْلَك أهله ومَهْلَك أهله)، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إهلاكهم أو هلاكهم]، عَلَى القراءتيـن: (مُهْلَك) أي إهـلاك؛ لِأَنَّ (مُهْلَك) مـن (أَهْلَكَ) الرُّبَاعِيّ، و(مَهْلَك) مـن هَلَكَ الثلاثيّ، ولذلك نَقُول: إذا كَانَ الفِعْل ثلاثيًّا فإن المصدر المِيميّ منه عَلَى وزن مَفْعَل: هلك مَهْلَك، قام مَقَـام. وإذا كَانَ رُباعيًّا فإن المصـدرَ الميميّ منه عَلَى وزن اسْـم المَفْعُول، فتقول: مُهْلَك من أَهْلَكَ، وتقول: مُقَام من أقام، وتقول: قام فينا مَقَامَ فلان، مثلما قَالَ أبو حيَّان فِي ذِكْر ابنِ تَيْمِيَّة[1]:

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (١/ ٢٤٧).

قامَ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي نَصْرِ شِـرْعَتِنَا مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَـرُ

قامَ مَقامًا، لكِن عندما تقول: (أقامَ) تقول: أَقَامَ فِي هَذَا المكان مُقَامَ فُلانٍ بضمِّ الميمِ، لا تقل: مَقام، وهَذِهِ قاعدة معروفةٌ فِي النحوِ؛ أنَّ المصدرَ الميميَّ إذا كَانَ مـن رُباعيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ اسمِ المَفْعُـول، وإذا كَانَ مـن ثلاثيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ مَفْعَل أو مَفْعِل مثل مَهْلِك.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلا نَدْري مَن قَتَلَهم]، وهَذَا الإنكارُ كَـذِبٌ وليـس بصحيح، فما داموا هم الَّذِينَ قتلوه فقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ هَذَا كَذِب، لكِن فِيهِ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: ما شهِدنا بل فَعَلنا، والشاهِد لم يَفْعَل، ولهَذَا قَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وجملةُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هـل هِيَ من جملـة قولهم الَّذِي يدافعـون به عن أنفسهم أو هِيَ تقريرٌ لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، يعني أنهم لم يقولوه للدفاع عن أنفسـهم؟ يعني هل قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من جملـة ما يَقُولُونَه للوليّ ليؤكِّدوا النفيَ؟ ما شَهِدنا وإننا لم نَكْذِب عليكم، إننا لَصَادِقُون أننا ما شَهِدنا، هَذَا وجهٌ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَقُول بعضهم لبعض: واطمئنوا أيُّها الإخوة؛ فإنَّنا صادقون بأننا لم نَشْهَدْ؟

يَحْتَمِل هَذَا وهَذَا، إِنَّما المفسِّرون ذكروا احتمالينِ: أحدهما أن يقولوه فِي جملة دِفَاعِهِم عن أنفسهم لوليّ صالح، وعلى هذا فتكون جملة ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تقريرًا لقولهم: ما شَهِدنا مَهْلِكَ أَهْله، والتَّقْدير: ما شهِدنا وإنا صادقونَ فلن نُخبِرَكم بشيءٍ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ونحن إذا قُلْنَا هَذَا فإنَّنا صادقون لأنَّنا ما شَهِدنا المَهْلِك، ولَكِنَّنا أَهْلَكْنَا بأنفسنا، لسنا شهودًا بل فاعلون؛

لِأَنَّ الفاعل غيرُ الشاهدِ، وهَذَا المسألةُ تَوْرِيَة كما تقدَّم، وإِلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ مَن فعلَ فقد شَهِدَ، بل أبلغ، لكِن يُهَوِّن بعضهم الأَمْرَ عَلَى بعضهم حَتَّى لا يَكُون فِي أنفسِهِم شيءٌ، لكِن لتهوينِ الأَمْر عَلَى بعضهم يلقِّن بعضهم بعضًا.

والحاصل: أن هَؤُلَاءِ -والعياذ بالله- أرادوا هَذَا الفِعْل المنكَرَ وَهُوَ مَكْر؛ لِأَنَّهُ إتيانٌ لصالحٍ وأهلِهِ من حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، فإن الليلَ مَوْضِع السكونِ والهدوء، وإذا أحد اعْتَدَى عَلَى أحدٍ صار ذلكَ غَدْرًا ومَكْرًا، ولهَذَا حَتَّى فِي حربِ الْكُفَّار اختلفَ العُلَماءُ هل يجوزُ تَبْييت الْكُفَّارِ أو لا يجوز؟

فمِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَ التبييتَ وقال: لا يمكِن أن نقتلَ الْكُفَّار وهم غارُّونَ نائمون، ومنهم مَن أجازَ ذلكَ، والمسألةُ تَحتاج إِلَى تحرير بَحْث فِي هَذَا.

والحاصل: أن هَذَا منَ الغَدْر والمكْر أن يأتيَ هَؤُلَاءِ إِلَى صالحٍ وأهلِهِ فِي الليلِ فيُبَيِّتُوهم، ولهَذَا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ [النمل:٥٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ مِنَ الحَزْم -والحزمُ قد يَكُونُ فِي الخيرِ وَقد يَكُونُ فِي الشرِّ- أنْ تَجْتَمِعَ الطائفةُ وتَتَعاقَد وتتعاهَد عَلَى مِنهاجها الَّذِي تَسير عليه وتَتَّفِق عَلَى عهدٍ يَرْبِط بَعْضَها ببعضٍ لِيَكُونَ التنفيذُ واحدًا، ولئلَّا تَتَفَرَّقَ وتَخْتَلِف؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ ما ذهب كُلّ واحدٍ مَذْهَبًا، فاجْتَمَعُوا فِي أَوَّل الأَمْرِ عَلَى تدبير الخُطَّة ثُمَّ عَلَى تَنفيذِها، وهَذَا المَسْلَكُ لا زالَ يُسْلَك حَتَّى الآنَ. وتعرفون أنَّ الصحيفةَ الَّتِي اجتمعتْ قُرَيْشٌ فيها عَلَى مقاطعة بني هاشمٍ لم تُنْقَض برجلٍ واحدٍ، بل ذهب هَذَا الرجلُ الَّذِي أرادَ نَقْضَها إِلَى فلانٍ وفلانٍ وصارَ يُجَمِّعُ النَّاسَ حولَه حَتَّى اجتمعوا عَلَى نقضها وغلبوا فِي تنفيذ فِكرتهم.

فالحاصل: أن هَذِهِ المسائلَ ينبغي للإِنْسَانِ إذا أرادَ أن يَهِمَّ بأمرٍ ويمشي عَلَى منهاجٍ أَنَّهُ يجعل معه أقوامًا يساعدونه ويتعاقدُ معهم ويتعاهَد، فإن كَانَ فِي خيرٍ فخيرٌ، وإن كَانَ فِي شرٍّ فالله يَتَوَلَّاهُم، وهنا ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ عَلَى شرٍّ من أعظمِ الشرورِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى مبدأ الاغتيالاتِ؛ بمعنى أن الاغتيالَ موجودٌ حَتَّى فِي الزمنِ السابقِ، هَذَا المقصودُ، وَلَيْسَ معنى هَذَا أن هَذَا المبدأ مُباح، بل المُراد أن هَذَا موجودٌ ولا زالَ موجودًا، فغالبُ الأُمُورِ من خيرٍ أو شرٍّ تَجِدُ لها أصلًا فِي الأممِ السابقين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ لِأَنَّ التبييتَ اغتيالٌ، إذ إن الاغتيال معناه هُوَ القتل عَلَى غِرَّة.

ولِهَذَا كَانَ الصَّحيحُ من أقوالِ أهلِ العلمِ أن الغِيلَة لَيْسَ فيها خِيَار لأولياء الدمِ، وَأَنَّهُ يَجِب قتلُ المُغتالِ بكلِّ حالٍ، حَتَّى لو عَفَوْا، وهَذَا مَذْهَبُ مالِكٍ واختيار شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة[1]؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِن التحرُّز منه، وَهُوَ فسادٌ فِي الْأَرْض، ولا يُعارِض هَذَا قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ**»[2]؛ لِأَنَّ قوله: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ**» هَذَا منَ الحقوقِ الخاصَّة، وَأَمَّا مسألة الاغتيال فإنها من الحقوقِ الْعَامَّةِ، حيث يأتي للإِنْسَانِ فِي مَأْمَنِهِ ويَقْتُلُه! ففِعل القاتل الَّذِي فِيهِ التخييرُ أَنَّهُ يأتيه ولو لم يوجدْ عندَه أحدٌ لكِن المهمّ أن المقتولَ يُمْكِن أَنْ يَتَحَرَّز منه بالفرارِ أو بالمدافعةِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فيحصل القتل، أَمَّا أن يأتيه وَهُوَ نائمٌ مثلًا أو يأتيه فِي بيته وَهُوَ غافلٌ، فهَذَا لا يُمكِن التحرُّز منه؛ لِأَنَّهُ إذا جاءه وَهُوَ يعلمُ به فيُمْكِنه أن يَتَحَرَّز

---

(١) انظر: بلغة السالك (٤/ ١٦١)؛ زاد المعاد (٤/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب من قتل له قتيل فَهُوَ بخير النظرين، حديث رقم (٦٤٨٦)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالفرارِ، ويتحرَّز بالمُدافعةِ، ويَتَحَرَّز بالصِّياح لِمَن حَوْلَه، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ قَوْلنا: إِنَّهُ عَلَى خُفْيَة أَنَّهُ لا يوجدُ عندَه أحدٌ؛ لِأَنَّ الغالبَ أَنَّهُ لا يُقْتَل إِلَّا إذا كَانَ لا يوجد عنده أحد، لكِن الكَلام عَلَى غِرَّة منَ المقتولِ، هَذَا هُوَ قَتْل الغِيلة.

فهَؤُلَاءِ الجماعة تَقَاسَمُوا عَلَى هَذِهِ الفِعْلة القَبِيحَة المُشِينة، ولكِنهم لم يحصُلْ لهم تنفيذُ ما أرادوا؛ لِأَنَّهُم مَكَرُوا، ومكرَ اللهُ، واللهُ خيرُ الماكرينَ.

هل يجوزُ سلوكُ مبدأِ الاغتيالاتِ مَعَ الأعداءِ؟

إنْ كَانوا يَسْلُكُونه معنا سلكِناه معهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ دليل عَلَى إنكارِ المدَّعي، وهَذَا شَيْء واضح، أَمَّا الفاعل للسيئة فلا يُهِمُّه أن يُنْكِر فِعْلَه، يَعْنِي: مَن قتلَ يهون عليه أن يُنْكِرَ القتلَ؛ لِأَنَّ القتلَ أعظمُ من إنكارِه، فلهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ البيِّنَة عَلَى المدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا أن هَذَا القَوْل يُبَرِّئهم ما صحَّ أن يَتَّفِقُوا عَلَى اتِّخاذِهِ حُجَّةً؛ يَقْتُلُونه ويَقُولُونَ: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، فاتَّفَقُوا عَلَى هَـذَا، دلَّ هَـذَا عَلَى أنَّ الإنكار يُبَرَّأُ به المُدَّعَى عليه، ووَجْهُه: أَنَّهُ لولا أن ذلك يُبَرِّئُهم لم يَنْفَعْهُم الاتفاقُ عليه؛ لِأَنَّهُ لو قَالُوا: ما شهِدنا مَهْلِكَهُم سيُقال: أنتم القاتلونَ، فهَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ البيِّنة عَلَى المدَّعي واليمين عَلَى مَن أنكرَ.

فإذا ادَّعَى شخصٌ أن هَذَا الرجلَ قتلَ والدَه، نَقُول له: هاتِ بيِّنَةً، فإذا لم يأتِ

ببينةٍ فَإِنَّهُ لا يَثْبُتُ له الحقُّ؛ لِأَنَّ البيِّنة عَلَى المُدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ. ولكِن هل هَذَا عَلَى إطلاقه؟

المشهورُ مِنَ المَذْهَبِ أَنَّهُ عَلَى إطلاقِه، وَأَنَّهُ لو كَانَ المُدَّعَى عليه القتلُ مِن أفجرِ النَّاسِ والمقتولُ من أطيبِ النَّاسِ، وكذلك المُدَّعِي فَإِنَّهُ لا يُؤْخَذ بِقَوْلِهِ؛ لِعُمُومِ قولِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»[1].

واختارَ شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هَذَا يُؤْخَذُ بِقَوْلِهِ، ولكِن تُجْرَى فِيهِ القَسامةُ إذا كَانَ هَذَا الرجلُ معروفًا بالفسوقِ، والمقتول معروفًا بالصدقِ والاستقامةِ، وكذلك أولياؤه، قَالَ: فإن هَذه قَرِينَة تُغَلِّبُ عَلَى الظنِّ صِدْقَ المُدَّعِي، وَعَلَى هَذَا فتُجْرَى فِيهِ القَسَامَةُ. وما قاله الشيخُ فليسَ ببعيدٍ.

الأَمْر الثاني بالعكسِ؛ لو أنَّ شخصًا قتلَ إِنسَانًا وقال: نعمْ أنا قتلتُ ولكِن الرجل صالَ عليَّ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ، فماذا أصنع؟

المَذْهَب: لا يُقْبَل قَوْلُه ويُقْتَل؛ فلو أنَّ إِنْسَانًا أَدَّعِي عليه أَنَّهُ قاتلُ فلانٍ، قَالَ: نعمْ أنا الَّذِي قَتَلْتُه لكِنَّني قتلتُه دِفاعًا عن نفسي؛ لِأَنَّ الرجل يريد أن يَقْتُلَنِي. نَقُول له: هاتِ بيِّنةً أَنَّهُ صالَ عليك وإلا قتلناك. قَالَ: لا يُمكِن أن يَكُونَ عندي بيِّنَةٌ؛ لِأَنَّهُ ما صالَ عليَّ أمامَ النَّاسِ، لو يَدْرِي أن حوله أحدًا ما صالَ.

نَقُول: إذن نَقْتُلك ويوم القيامةِ تَخْتَصِمُون عند الله. هَذَا هُوَ المذهَب، واختارَ الشيخُ هنا أَنَّهُ يُقْبَل قولُ المعروفِ بالصدقِ، فإذا كَانَ هَذَا القاتلُ الذي يَقُول: أنا قتلتُه دفاعًا مُسْتَقِيمًا، والمقتولُ معروفٌ بالفجورِ والاعتداءِ عَلَى الخلقِ، فَإِنَّهُ يُقْبَل قولُه ولكِن يَحْلِف تأكيدًا لقوله.

---

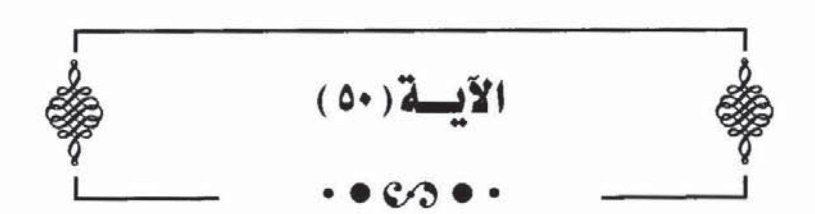
(١) رواه الدارقطني (٣/ ١١٠، رقم ٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٢، رقم ٢٠٩٩٠).

وما قاله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ الصَّحيحُ، ولا يمكن العَمَلُ إِلَّا به، أم كوننا نَقُول: نقتلك وتجد حسابك عند الله! هَذَا فِيهِ نظرٌ، حَتَّى لو وُجدتْ قرينةٌ تدلُّ عَلَى صِدْقِ الرجلِ غير مسألة حال هَذَا وحال هَذَا. يعني مثلًا لو وُجِدَ فِي بيتِه، فلو وُجِد المقتولُ فِي بيتِ القاتلِ، وقال: أنا قتلتُه عمدًا بدونِ شُبهةٍ لَكِنَّهُ ادَّعى أَنَّهُ صالَ، وقال: جاء إليَّ ودخلَ البيتَ لِيَقْتُلَنِي أو سينتهك حُرْمَةَ أهلي، فوجدتُ أَنَّهُ لا يَندفِع إِلَّا بالقتلِ، نَقُول: ولو كان؛ لِأَنَّهُ يجوزُ أَنَّهُ استضافه ويتدرَّج به ويقول: تَفَضَّل عندنا؛ لأجلِ أن يقتلَه.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ مشكلةٌ، ولا يستقيمُ الحالُ إِلَّا عَلَى ما قالَه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الحاصل: أن قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المُنْكِر مقبولُ القَوْلِ ما لم يأتِ المُدَّعِي ببيِّنَةٍ.

• • ۞ • •



الآية (٥٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿وَمَكَرُواْ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿مَكْرًا﴾]، و﴿مَكْرًا﴾ مُنْكر أحيانًا، يَكُون من فائدةِ التنكيرِ التعظيمُ، أي: مَكَرُوا مكرًا عظيمًا، والمكرُ فسَّره بعضهم بأنه التوصُّل بالأَسْبَاب الخفيَّة إِلَى الإيقاعِ بالخَصْمِ؛ لِأَنَّ الأَسْبَاب الظَّاهرة لا تُسمَّى مكرًا وإنما هِيَ أَسْباب خفيَّة.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مقابلةِ ذلك: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: مكرًا أعظمَ من مكرِهم، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي جازَيْناهم بتعجيلِ عُقُوبَتِهِمْ]، ففسَّر المكر بالمجازاةِ، والصَّحيحُ أن المكرَ أخصُّ منَ المجازةِ؛ لِأَنَّهَا مجازاةٌ منْ حَيْثُ مأمنُ الْمُجَازَى، لكِن أراد الْمُفَسِّر أنْ يدفعَ بذلك صفةَ المكرِ عنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففسَّره بالمجازاةِ، والصَّواب عند أهلِ السنَّة والجماعة أنَّ المكرَ لا يجوزُ أن يُحَرَّف إِلَى معنى المجازة المطلَقة، وَأَنَّهُ لا يَمْتَنِع وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به فِي مَحَلِّه، فالمكرُ فِي مَحَلِّه يُعْتَبَرُ مَدْحًا، وَفِي غيرِ مَحَلِّهِ يُعْتَبَر ذَمًّا، والمكرُ بهَؤُلَاءِ الماكرينَ يُعْتَبَر مَدْحًا عظيمًا، ولهَذَا الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ الَّذِي عليه أهلُ السنَّة والجماعة أنَّ اللهَ تَعَالَى يُوصَف بالمَكْرِ، لا عَلَى الإطلاقِ، فلا يقالُ: إن اللهَ ماكرٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الإطلاق يَتَضَمَّن صِفة الذمّ، وإنما

يقال: ماكرٌ بمَن يَمْكُرُ به، أو بمَن يَسْتَحِقّ المكرَ، وحينَئِذٍ يَكُونُ صفةَ مدحٍ.

والصِّفَات تنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدها: صفاتٌ حُسْنَى بكلِّ حالٍ، فهَذِهِ ثابتةٌ للهِ عَلَى وجهِ الإطلاقِ، كالسمعِ والبصرِ والعلمِ والحياةِ والقُدْرة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والثَّانِيَة: صفاتُ نقصٍ عَلَى كُلّ حالٍ، أو صفـاتُ سَوْءٍ عَلَى كُلّ حالٍ، فهَـذِهِ يُنَزَّهُ اللهُ عنها عَلَى كُلّ حالٍ، مثل الظُّلم واللُّغُوب والجَهْل والعَمَى والموت والمرض والولادة والوزير والشَّريك والجُوع والعَطَش، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذِهِ يُنَزَّه الله عنها بكلّ حالٍ.

والثَّالثة: صفات ذات وجهينِ، تكون مدحًا فِي حالٍ وتكونُ ذمًّا فِي حالٍ، فهَذِهِ لا يُوصَـف الله بها عَلَى الإطـلاقِ ولا تُنْفَى عنه عَلَى الإطلاقِ، مثل: المَكْر والخِداع والاستهزاء والسُّخْرِيَة وأمثالها، هَذِهِ لا يُوصَف الله بها عَلَى كُلّ حالٍ، ولا تُنفى عنه بكلِّ حالٍ، بل يُوصَف بها حَيْثُ تكون كمالًا، وتُنفَى عنه حَيْثُ تكون نقصًا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، وقال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ﴾ [البقرة:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء:١٤٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠].

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني هم لا يشعرون بعاقبةِ مكرِهم، وهل يَتِمُّ لهم ما أرادوا أم لا؟ ولا يشعرون كيف يمكر الله بهم، فهم لا يشعرون لا بهَذَا ولا بهَذَا، لا بنتيجةِ مَكْرِهم ولا بمكرِ اللهِ بهم؛ لِأَنَّهُم -والعياذُ بالله- متمـادُونَ فِي الضلالةِ، والغالبُ أن الَّذِي يتمادى فِي الضلالةِ يَعْمَى فلا يُبْصِـر، ويُصَمّ فلا يسمع، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، والجملـةُ فِي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ محَلُّـها من

الإعرابِ حالٌ منَ الواوِ فِي ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أو منَ الضَّميرِ المحذوفِ فِي قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يعني بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

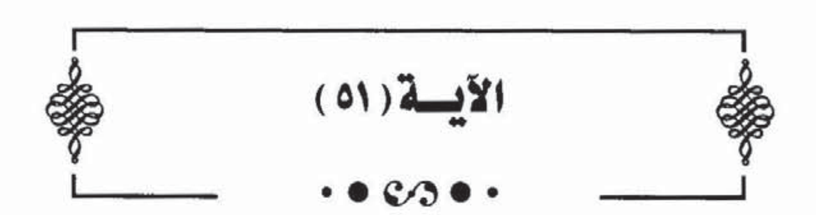
الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أعظمُ مَكرًا ممَّن يَمكُرون به وبرسلِه، فهَؤُلَاءِ أرادوا المكرَ برسولِه ولكِن الله تَعَالَى مكرَ بهم بما هُوَ أعظمُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وصفُ اللهِ تَعَالَى بالمكرِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى سبيلِ الإطلاقِ، بل عَلَى سبيلِ التقييدِ، فيقال مثلًا: هُوَ ماكرٌ بأعدائِهِ أو بمَن يَستحِقّ المكرَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ممَّا يجعل المكرَ صفةَ كمالٍ؛ لِأَنَّ المكرَ لَيْسَ بصفةِ كمالٍ عَلَى الإطلاقِ ولا بصفةِ نقصٍ عَلَى الإطلاقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمْكُرُ بالعبدِ فلا يَشْعُر بمكرِه، ومن مكرِ اللهِ بالعبدِ وَهُوَ لا يَشْعُرُ: استدراجُه إيَّاه بالنِّعم، حَيْثُ يُسْدِي إليه النعمَ وَهُوَ يبارزُ الله تَعَالَى بالعصيانِ، ومن مكرِه به تلبيسُه عليه فِي الحُكم، فيُلَبِّس عليه الحكم حَتَّى يَظُنّ الباطلَ حقًّا فيتمادى فيه، وهَذَا من الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ»[1]، فالْإِنْسَانُ قد يَكُون لديه شُبْهَة أو شَهْوة؛ شبهة لا يَعْرِف الحقَّ، أو شهوة لا يريد الحقّ ويريد غيرَه.

•• ۞ ••

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠١)، وقال العراقي في التخريج: «لم أقف لأوله على أصل».



الآية (٥١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥١].

•••

﴿فَانظُرْ﴾ الخِطَاب للنبيِّ ﷺ أوَّلًا، أو لِمَن يَصِحُّ خِطَابُه، يعني ﴿فَانظُرْ﴾ أيُّها المخاطَب أو ﴿فَانظُرْ﴾ يا مُحَمَّدُ، وَهُوَ رأسُ هَذِهِ الأُمَّة وقائدها وإمامها، فيَكُون خِطَابه خِطابًا للأمَّة أيضًا.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ هَـذِهِ اسمُ اسْتِفْـهامٍ مُعَلِّقَةٌ لـ(انْظُر) عن العَمَلِ، ولهَذَا نَقُولُ: إنَّ مَحَلَّها النصبُ خبر كَانَ مُقَدَّمًا، وجملة كَانَ واسمها وخبرها فِي محلّ نصب مَفْعُول لـ(انْظُرْ).

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ العاقبة ما يَعْقُـبُ الشَّيْءَ، يعني انْظُر ماذا يَعْقُبُ مكـرَهم مِنَ الأَمْـرِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أهلكناهم]، وفيها قراءتانِ[1]: فتحُ الهمزة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وكسرها «إِنَّا دَمَّرْنَاهُم»، أَمَّا كسرها فهي كقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [القمر:٣٠-٣١]، فتكونُ عَلَى قراءةِ الكسرِ مستأنفةً لبَيَان هَذِهِ العاقبةِ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ كَأن الذهنَ الآنَ يَتَشَوَّف إِلَى هَذِهِ العاقبةِ، وجيء بالجملةِ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

الاستئنافيَّةِ بَيانا لها ﴿إِنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أَمَّا عَلَى قراءةِ الفتحِ فهي بَيان للعاقبةِ، بَدَل مِنْهَا: فانظُرْ كيف كَانَ عاقبة مَكْرِهم أَنَّنا دَمَّرْنَاهم، أو أَنَّهَا عَلَى خبر مبتدأ محذوف التَّقْدير: هِيَ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكناهم]، و﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ منَ التدمير، وَهُوَ أبلغُ منَ الإهلاكِ؛ لِأَنَّ التدميرَ يُوحِي بغِلَظِ هَذَا الإهلاكِ وعَظَمَتِه، وَهُوَ كذلك، فإنَّ قومَ صالحٍ أُخِذُوا -والعياذُ بالله- بأمرينِ: بصيحةٍ ورجفةٍ، صِيحَ بهم وارْتَجَفَتْ بهمُ الْأَرْضُ، حَتَّى انهدم عليهم بناؤُهم وتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهم فِي أجوافِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، مثل هشيم الحظائرِ إذا جفَّ تَهَشَّمَ والعياذُ باللهِ، فهَذا الهلاكُ العظيمُ نتيجة لهَذَا العصيانِ والتمرُّد والمَكْر الَّذِي أرادوه بالنَّبِيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ مَعَ أَنَّ القومَ لم يُشارِكوا فِي هَذِهِ الجريمةِ، ولكِن هَذَا شُؤْمُ المَعاصِي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا عاقبَ بها أحدًا شَمِلَ الجميعَ، مَعَ أَنَّ قومَهم مُسْتَحِقُّونَ للعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم كانوا كفَّارًا مكذِّبين، لكِن تعجيل العقوبةِ مقرونٌ بهَذَا السَّبَب، وَهُوَ مَكْرُ هَؤُلَاءِ بصالحٍ، وقد لا يَكُونُ القومُ مُسْتَحِقِّين له، ولكِن شَمِلَهم -والعياذُ بالله- عُقُوبَة هَؤُلَاءِ، وقد ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آياتٍ أُخْرَى مُفَصَّلَةً أَنَّ نَبِيَّهم صالحًا قَالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، فتَمَتَّعُوا وبَقُوا ثلاثةَ أيامٍ ثُمَّ بَعْد ذلك أَخَذَهُمُ اللهُ تعَالَى بهَذِهِ الصيحةِ والرَّجْفَة.

وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ محَلُّها من الإعراب توكيد لِقَوْلِهِ: ﴿قَوْمَهُمْ﴾ يعني ما بقي منهم أحدٌ إِلَّا من كَانَ مؤمنًا بصالحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيحةِ جِبريلَ أو بِرَمْيِ الملائكةِ بحجارةٍ يَرَوْنَها ولا يَرَوْنَهم].

أما قوله: [بصيحةِ جبريل]، فهَذَا قد يَكُون مقبولًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهَذِهِ الصيحةُ إمَّا منَ اللهِ أو من جبريلَ أو من غيرِهِ من الملائكةِ، المهمُّ أَنَّهُم أُهلكوا بصيحةٍ.

وأمَّا قوله: [أي برمي الملائكة بحجارة]، فهَذَا لا أعلمُ له وجهًا، ولكِنه قيل: إنَّهُم لما جاءوا إِلَى صالحٍ بالليلِ أمرَ الله تَعَالَى الملائكةَ أنْ تَحْرُسَه، فلمَّا جاءوا فإذا الملائكة تحرسه، فجعلت الملائكة ترميهم بالحجارةِ، وهَذَا لا أصلَ له، وإذا لم يكن هَذَا عن معصومٍ فَإِنَّهُ غير مقبولٍ، وَهُوَ أيضًا غيرُ لائقٍ أن تكون الملائكةُ يرمونَ بالحجارةِ كأنهم من البَشَرِ، ولَكِنَّنَا نَقُول: الَّذِي دمَّر الله به هَؤُلَاءِ وقومَهم هُوَ الصَّيْحَة والرَّجْفَة، كما جاء ذلك فِي الْقُرْآنِ، ولا نَتَعَدَّى الْقُرْآن فِي هَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول فِي سورةِ إبراهيمَ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فما دامَت هَذِهِ الأُمُورُ مِن معلوماتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّنا لا نتجاوزُ ما قَالَ اللهُ فيها إِلَّا ما وَرَدَ عن النَّبِيِّ ﷺ بسندٍ مقبولٍ.

ذكر بعضُ العُلَماءِ أَنَّهُم لما خَرَجوا أُصيبوا بمطرٍ وأنهم قَالُوا: لِنَلْجَأْ إِلَى غارٍ من هَذَا المطر، فلمَّا لجأوا إليه انطبقَ عليهم هَـذَا الغارُ وهَلَكوا، وَأَمَّا قومهم فجعلوا يطلبونهم ويبحثونَ عنهم فلم يَجِدُوهُم، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بيوتهم، فخرج عليهم صالحٌ فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، وقَالُوا: إن هَـذَا هُوَ الَّذِي مَكَرُوا به المَكْر؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ القوم دخلوا إِلَى الغارِ يريدون الأمنَ، ولكِن كَانَ فِي هَذَا الغار حَتْفُهم، وقد يَكُون الَّذِي حالَ بينهم وبين هَذَا إمَّا أَنَّهُم قُذف فِي قلوبهم الرعبُ

أو أَنَّهُم جاءوا فلم يَتوَصَّلوا إِلَى بيتِه بأن كَانَ مُغْلَقًا مُحكَمًا أو غير ذلك منَ الأَسْبَاب.

المهمُّ أن هَذَا مطويٌّ ذِكْرُه وأنهم ما نَفَّذُوا ما أرادوا، وهَذِهِ القصةُ أيضًا عَلَى هَذَا الوجهِ ما رأيتُها ثابتةً بالإسنادِ عن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلهَذَا الأَولى أن يقال: إن الله تَعَالَى مكرَ بهم فدَمَّرَهُم وقومَهم، وَلَيْسَ منَ المهمِّ أنْ نعرِف كيف دُمِّروا، المهمُّ أنْ نعرِفَ أَنَّهُم دُمروا عن آخِرِهِمْ بسبب ما أرادوه بالنَّبِيّ ﷺ، وبسبب تكذيبِهِمْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلَى الاعتبارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ والنظرُ يَكُونُ بالقلبِ ويُسَمَّى نظرَ البَصِيرةِ، ويَكُونُ بالعينِ ويُسَمَّى نظرَ البصرِ، وكلاهما أمر مطلوبٌ إذا أدَّى إِلَى مطلوبٍ، وَأَمَّا إذا لم يؤدِّ إِلَى مطلوبٍ بل أدى إِلَى العكسِ مثل أن يعتبرَ ويتبصر ثُمَّ يتخذ من هَذَا النظرِ وسيلةً إِلَى الطعنِ فِي حكمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو إِلَى وصف الله تَعَالَى بالظلمِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مما يقع من بعض الملحدينَ، فإن هَذَا ضرره كبيرٌ والعياذُ باللهِ، لكِن الصَّواب مَن نَظَرَ لِيَعْتَبِرَ، ومَن نظرَ بعينِ العقلِ والعدلِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ من الأَمْرينِ: عقلٌ وعدلٌ، فبانتفاءِ العقلِ لا تحصل للإِنْسَان المعرِفةُ، وبانتفاءِ العدلِ يَظْلِم.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: فِي هَذِهِ الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن ينظرَ ويتأمَّل فِي الأُمُورِ، لا سيما فِي أمور المكذِّبين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي فِي مَقَامِ التحذيرِ استعمالُ أغلظِ الألفاظِ وأشدّها تأثيرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾، ولم يقل: أهلكِناهم، فإنَّ التدمير أعظمُ وَقعًا فِي النفسِ، والنفس تَنْفِر منه أكثرَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن العقوباتِ إِنَّمَا تأتي بأَسْبابِ المرءِ، حَيْثُ جعل هَذَا التدمير عاقبةَ مَكرِهم، وهَذَا يَدُلّ عليه أيضًا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي خصوصِ أهلِ الكتابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥-٦٦]، من فوقهم منَ الثِّمارِ الطويلةِ، ومن تحت أَرْجُلِهم منَ الزُّرُوعِ الَّتِي تحتَ الْأَرْض.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن العقوبةَ تَعُمّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكِن كما قَالَ رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ»[1]، فالعقوبةُ قد تعمُّ ولكِن يُبعَث النَّاس عَلَى أعمالهم، وهَذَا مشاهَدٌ، سواء كانت العقوبةُ منَ اللهِ، يعني من فعلِ اللهِ، أو من فعلِ العبادِ، فيُسَلِّط الله تَعَالَى بعضَ عبادِهِ عَلَى بعضٍ، فيدمِّر هَذَا المتسلِّط عَلَى الصالحِ والطالحِ، ولكِن يُبعث النَّاس يومَ القيامةِ عَلَى أعمالِهم ونيّاتهم، أو ينزل الله تَعَالَى كارثةً من عنده كالفيضاناتِ والرياحِ وغيرها فتدمِّر الصالحَ والطالحَ، ويوم القيامة يُبعَثون عَلَى نيّاتهم.

وإنما كَانَ كذلك -والحِكْمَة عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لأجلِ أنْ يَستقيمَ النَّاسُ عَلَى أمرِ اللهِ؛ لأنّي أنا إذا علِمت أن المصيبةَ ستعمّ سأسعى فِي إزالةِ السيِّئة الموجِبة للعقوبةِ،

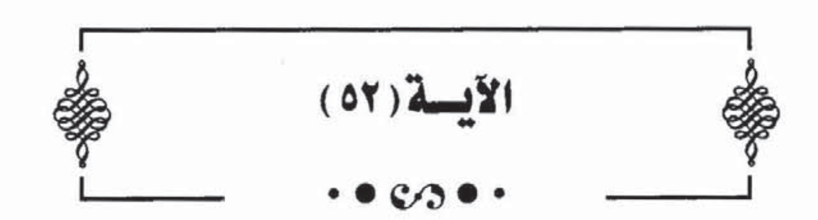
---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا، حديث رقم (٦٦٩١)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لكِن لو أَنَّنا علِمنا أن العقوبةَ تخصّ العاملَ ما استقامَ الأَمْرُ بالمعروفِ ولا النهيُ عن المنكَرِ، ولذلك يَجِب أن يَكُونَ خوفُ الْإِنْسَانِ من معاصي غيرِه كخوفِهِ من معاصي نفسِهِ؛ لِأَنَّ العقوبةَ واحدةٌ إذا نزلتْ عمَّتْ، بل إن المَعاصِي -سبحان الله- كالدُّخَان يُصْرَعُ مَن شَمَّهُ وإنْ لم يكنْ فِي بيتِهِ، ولذلك معاصي النَّاس اليومَ أثَّرت حَتَّى في أهلِ الخيرِ البعيدينَ منهم، يعني أهل الخير لو سألتهم وقلت: هل تجدون فِي قلوبكم ما كنتم تجدونه قبلَ سنواتٍ من الإنابةِ إِلَى اللهِ والخشوعِ والخضوعِ ومحبّة الخير؛ لو سألتهم لأجابوا: لا. دعنا من النَّاس الَّذِينَ ماتوا قبل ثلاثينَ سنةً أو أكثر، فهَؤُلَاءِ معلومٌ أَنَّهُم سلِموا من هَذِهِ الفتنةِ، لكِن حَتَّى الموجودون الْآنَ قلوبهم قبلَ نحو ثلاثين سنة أصلح بكثيرٍ منَ اليومِ، مَعَ أنّ حالَهم هِيَ هي، فتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي مَسْجِدِهِ إمامًا ولم يَلْتَفِتْ للدُّنيا ولم يَشْتَغِلْ بها، وتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي أهله لا يَلْتَفِت إِلَى أحد غيرهم، ومع ذلك تأثَّرت القلوب؛ لِأَنَّ المَعاصِيَ مفاسدُ مهما كانتْ، ولكِن مَعَ هَذَا قد يأتي الله تَعَالَى ببركانٍ عظيمٍ يُفَتِّت هَذِهِ الأَشْيَاء، ويُقَيِّض الله تَعَالَى للأُمَّة الإِسْلاميَّـة طائفةً منصورةً ظاهرةً، فتبـدّل كُلّ هَذَا الأَمْر، ولهَذَا لَا بُدَّ من عمـلٍ، فالركودُ لا يَنْفَع، والركود لَيْسَ فِيهِ سلامة أبدًا، فلَا بُدَّ من العَمَلِ، ولكِن عَلَى هدى مستقيم وبحكمةٍ بالغةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يضرُّ الدعاةَ إِلَى اللهِ الْآنَ واحدٌ من أمرينِ: إمَّا جهلٌ أو سَفَه، يعني إمَّا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم علمٌ بَيِّن راسخٌ، فتجدهم يحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُوجبون ما لم يُوجِبْه اللهُ، مثلما يَصْدُر من بعض الإخوانِ الَّذِينَ يَتَشَدَّدُونَ فِي الأُمُورِ، ويحرِّمون ما أحلَّ الله أو يُوجِبُون ما لم يُوجِبْه اللهُ، وهَذِهِ مفسدةٌ عظيمةٌ، أو يَكُون عندهم سَفَهٌ، يعني لَيْسَ عندهم حِكمة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، فيَكُون عندهم تَسَرُّعٌ وعُنْـفٌ أو تباطـؤٌ فِي غيـرِ مَوْضِعِه، ففي الأَوَّل يَحْصُل ردُّ فعلٍ عنيـف من

المدعوّين، وَفِي الثاني يحصل تمادٍ من المدعوين يفوِّت الفُرصةَ عَلَى الداعينَ، فلا بد منَ العلمِ والحِكْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

••۞••



الآيــة (٥٢)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

• • ❁ • •

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ لما قَالَ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل:٥١]، فهَذَا عامٌّ مُبْهَمٌ، وهنا نَصَّ عَلَى شيءٍ معيَّن؛ وهو أنَّ بيوتَهم خاويةٌ، ومعنى خاوية إمَّا خالية وَإمَّا مُتَهَدِّمة مدمَّرة.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: خالية، ونَصْبُهُ عَلَى الحالِ، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ].

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ المشار إليه معلومٌ ومحسوسٌ؛ لِأَنَّ بيوتَ ثمودَ موجودةٌ الْآنَ ومشاهَدة، لَكِنَّها كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿خَاوِيَةً﴾، بمعنى أَنَّهَا خالية عَلَى رأيِ المُفَسِّر، وَقِيلَ: ﴿خَاوِيَةً﴾ متهدِّمة كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، أي: مُتَهَدِّمة، وهَذَا المَعْنى أبلغ، يعني تفسير الخاوي بالمتهدِّم الَّذِي لَيْسَ بقائمٍ أَوْلَى وأشدّ؛ لِأَنَّ البيوتَ قد تخلو مَعَ العمار، ولكِن إذا خَوِيَتْ بمعنى دُمِّرَتْ وانهدمتْ فهي خالية، فإذن يَلْزَم من دَمارها خُلُوّها، ولا يَلْزَم من خُلُوّها دَمارها، والواقع أَنَّهَا دُمِّرَتْ لِأَنَّ هَذِهِ الرَّجفة العظيمةَ لَا بُدَّ أنْ تُدمِّرَهُمْ.

ثمَّ إنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: [نَصْبُهُ عَلَى الحال] نصب (خاوية) عَلَى الحال، حال من البيوت: بيوتهم حال كونها خاويةً.

لكِن أين العامل فِي الحال؛ لِأَنَّ العامل لَا بُدَّ من أن يَكُون إمَّا فعلًا أو اسمًا بمعنى الفِعْل؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والعامل فيها معنى الإشارة]، لِأَنَّ (تلك) بمعنى أسير، فاسم الإشارة متضمِّن لحرفٍ معنويّ وفعل، أي: أسير إذا بيوت خاوية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بظلمهم]، الباء للسببيَّة و(ما) مصدريّة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَوَّلَ الفِعْل إِلَى مصدر، إشارة إِلَى أن (ما) مَصْدَرِيَّة، أي: تحول ما بعدها إِلَى مصدر، أي: بسبب ظُلْمِهِم، لا أننا ظالمون لهم، بل هم الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم.

ثم فسَّر المُفَسِّر هَذَا الظلمَ بالكفرِ، فقال: [أي كفرهم]؛ لِأَنَّ كُلّ كفرٍ ظلم وَلَيْسَ كُلّ ظلمٍ كفرًا، ولهَذَا قَالَ العُلَماء: إِنَّما نحمدُ اللهَ تَعَالَى أن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ولم يقلِ: والظالمونَ هم الكافرونَ، لو قَالَ: والظالمون هم الكافرون كَانَ كُلُّ ظالمٍ فَهُوَ كافرٌ، ولكِن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن كُلّ كافرٍ فَهُوَ ظالمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ للظُّلم بالكفر هَل عليه دليل؟

نعم عليه دليل؛ لِأَنَّ فِعْلَهم وتكذيبهم لرسولِهم كفرٌ، فهنا تفسيرُ الظلمِ بما هُوَ أخفّ له دليلٌ.

قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كُلّ القصة عَلَى الصَّحيحِ، وَلَيْسَ المشار إليه مجرَّد الإهلاك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَآيَةً﴾ لَعِبْرَة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قُدْرَتَنَا ويَتَّعِظُونَ]، تخصيصُ هَذَا بالقُدرة غيرُ مُسَلَّمٍ، بل المُراد ما هُوَ أعمُّ من عِلم قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يعلمون قدرة الله وحكمته وما جرَى للأممِ، كُلّ هَذَا جائزٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي لا يَدري بماذا يَعتبِر، لكِن الَّذِي يدري هُوَ الَّذِي يعتبر، وَفِي هَذَا مِنَ الحَثّ عَلَى معرفةِ أخبارِ الأممِ والعلمِ بها ما هُوَ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بها يتَّعظ النَّاس، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعة فِي زمنِ الْإِنْسَان يَنبغي أن يتخذَ من حوادثها عِظَةً وعِبرةً، وسيأتي -إن شاء الله- ذِكرُها فِي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿خَاوِيَةً﴾ لِأَنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ أوقعُ فِي النفسِ، فالشَّيْء إذا جاءَ مُجْمَلًا تَتَشَوَّف النفسُ إِلَى بَيانهِ ومَعْرفتِه، فإذا جاء إليها مُبَيَّنًا بَعْد الإبهامِ صادفَ أرضًا يابسةً تَشْرَب الماءَ، لكِن إذا بُيِّن من الأولِ مَرَّ مرَّ الكرامِ، وهَذا دائمًا تَجِدُونه فِي الْقُرْآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦]، ما هُوَ ذلك الأمْر؟ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. عندما تقف عند قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ تجد قوله: (الأَمْر) بـ(أل) ما هَذَا الأَمْر؟ ثُمَّ يأتي قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ فيتبين لك وقعُ هَذَا البَيَان بعدَ الإبهامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ التدميرَ والإتلافَ من أَسْبابِ الظُّلم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء من جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بظالمٍ، ما دام أَنَّهُ لا يُعاقِب إِلَّا بسببِ فعلِ العبدِ، فمعنى ذلك أَنَّهُ مُنْتَفٍ عنه الظُّلم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحذير منَ الظُّلم؛ لأَنَّنا إذا تبَيَّنَّا أنَّ التدميرَ من أَسْبابِ الظلمِ فمعناه أننا نَنْفِر منه ونهرُب منه، ففيه التحذيرُ من ممارسةِ الظلمِ، سواء كَانَ متعديًا أو لازمًا، أي: سواء كنت تظلمُ نفسَكَ وحدَها بالتقصيرِ بواجبِ اللهِ أو بالظلمِ لغيرِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هَذِهِ الحوادثَ الَّتِي يُحْدِثها الله عَزَّوَجَلَّ آياتٍ من آيَاتِهِ تدلُّ عَلَى كمالِ قُدرتِهِ وسُلطانه، وَعَلَى كمالِ عدلِهِ أيضًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة عَلَى قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ، وَعَلَى حِكْمَتِهِ وَأَنَّهُ تَعَالَى لا يفعلُ إِلَّا بمُقتضى للفعلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى مَن ينكِرون الحِكْمَةَ، مثل الجَهْمِيّة، فإنّ الجهمية يَقُولُونَ: إِنَّهُ لا حكمةَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أفعاله، وخالفتهم المعتزِلَة تمامًا، وقالت: أفعاله مقرونةٌ بالحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ مُوجبة، ولهَذَا قَالُوا: يجبُ عليه فِعل الصلاحُ، وبعضهم قَالَ: يَجِب عليه فعل الأَصْلحِ، وَأَمَّا الجهميّة فبالعكس، وهَذَا من المواضعِ الَّتِي اختلفتْ فِيها الجهميّة والمعتزِلة، وإن كانوا يشتركون فِي كثير من الأَشْيَاءِ لكِنهم يختلفون أيضًا فِي أَشْيَاء أخرى، مِنْهَا هَذِهِ المسألة: هل فعل الله لحكمة أو لمجرّد مشيئةٍ؟

فالجهمية يَقُولُونَ: لمجرّد مشيئةٍ، والمعتزِلة يَقُولُونَ: لحكمةٍ، لكِن غلَوا فِي إثباتِ الحِكْمَةِ، حَيْثُ أَوجبوا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعلَ الأَصْلحِ، وقد تقدّم هَذَا فِي العقيدةِ؛ وبَيَّنّا أن الصَّوابَ أَنَّهُ يَجِب عَلَى اللهِ فعل الأَصْلحِ لكِن لا بإيجابنا نحن، ولكِن بمقتضى حكمتِه؛ لِأَنَّ الحِكْمَة تَقتضي هَكَذَا، وَأَمَّا الأشاعرةُ فمثل الجهميّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ لا يَنتفِع بالآيَاتِ إِلَّا أُولوا العلمِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أَمَّا مَن لَيسوا من ذوي العِلم فَإِنَّهُ يَفُوتُهُم شيءٌ كثير، لا يَعتبرون به ولا يَتَّعِظون به؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، و﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ تَشمَل الأمثال المعقولة والأمثالَ المحسوسةَ المشاهَدة، فالله تَعَالَى يَضرِب الأمثال المعقولة ويضرب الأمثال المحسوسة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ...﴾ إلخ [يس:١٣]. هَذِهِ من الأَشْيَاء المشهودة المحسوسة، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ [العنكبوت:٤١]، هَذَا من الأمثال المعقولة.

والحاصل: أن أهل العلمِ هم الَّذِينَ يعقِلون هَذِهِ الآيَاتِ ويَعتبِرون بها ويَنتفِعون بها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة العلم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى العلمِ؛ لِأَنَّهُ إذا ثبتَ فَضلُه فمعنى ذلك أن الله ذَكَره لنا لِنَتَعَلَّم، ولَا شَكَّ أن العلم من أفضل ما أنعمَ الله به عَلَى العبدِ، يعني ما بَعْد الإِسْلامِ نعمةٌ مثل العلمِ، هِيَ أفضل من نعمةِ المالِ وأفضلُ من نعمة قوّة البَدَن، وأفضل من نعمة البنينَ، وما يعادِلها إِلَّا نعمة الإِسْلام فقطْ.

والمقصود العُلَماء الَّذِينَ مَثَّلوا العلمَ، بأن كانوا دعاةً إِلَى الله، وكانوا علماء مِلّة، لا علماء دولة؛ لِأَنَّ العُلَماء منهم علماء مِلة يدعون إِلَى الملة والشَّريعَة، ويَهدون بأمرِ اللهِ، ومنهم علماء دولةٍ يدعون إِلَى ما تريده الدولة، وكما هُوَ معروف أوّل ما ظهرتْ بِدعة الاشتراكيّة أو أول ما ظهر فِسق الاشتراكيّة -والاشتراكية ظهرت من زمنٍ-

صار أناس من أهل العلمِ فِي البلادِ الَّتِي ظهرتْ فيها هَذِهِ البدعة؛ صاروا يدعون إليها ويزعمون أن الْقُرْآن والسنّة دلّا عليها، ويأتون بآيَات تدلّ عَلَى هَذَا، مثل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنتم سواء فِي الرِّزق، والنَّاسُ شركاء فِي ثلاثٍ[1]، وهَكَذَا، وبدؤوا يحرّفون فِي الكِتاب والسنّة؛ لِأَنَّهُم علماء دولة، لا علماء مِلة، وهَذَا كثير أيضًا. وفيه أيضًا مُحَدِّثُون دولة، كغِيَاثِ بنِ إبراهيمَ الذي زاد في الحديث لِأجلِ المَهْدِيّ في حديث: «**لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**»[2] وماذا تريد يا مهدي؟ (أو جَنَاح)[3].

فالحاصل: أن هَذَا بلاء، لكِن المُراد بالعلم الممدوح هُوَ العلم المؤثِّر للعمل والدَّعْوَة، والحقيقة أن مَقام طلبة العلم لَيْسَ مَقام علم فقطْ ويَكُون العلمُ قابعًا فِي صُدُورهم ولم يكنْ هناك دعوة، أنت الْآنَ وارث للأنبياء، «**الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**»[4]، فادع إِلَى الله، ادعُ مثلما دعا الأَنْبِياء إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اعْلَمْ ثُمَّ ادْعُ، لا نَقُول: ادعُ

---

(١) أخرج أبو داود: أبواب الإجارة، باب في منع الماء، رقم (٣٤٧٧) عن رجل من المهاجرين: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلَإِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّارِ». ونحوه في ابن ماجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، رقم (٢٤٧٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، حديث رقم (٢٥٧٤)؛ والنسائي، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم (٣٥٨٥)؛ والترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق، حديث رقم (١٧٠٠)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم (٢٨٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٢٥٦) (٧٤٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

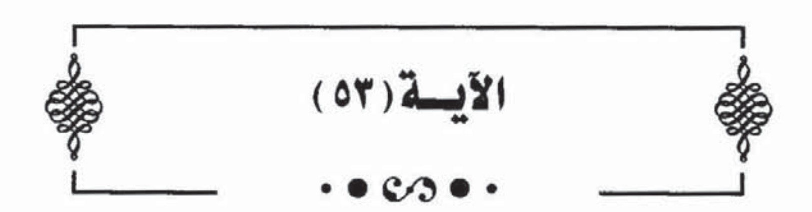
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١٠/ ٣٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

بجهلٍ، فالدعاءُ بالجهلِ ضررٌ عليكَ وَعَلَى الإسْلامِ أيضًا، لكِنِ اعلَمْ وادعُ، ولا تُدَاهِنْ، واعلمْ أنك ما قلتَ كلمةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إِلَّا كَانَ لها تأثيرٌ لا بدَّ.

ونحن نَضْرِبُ دائمًا لكمْ مثلًا بقولِ موسى أمامَ السحرةِ وأمامَ فِرعونَ وجُنُودِهِ وعامّة أتباعِهِ، قَالَ للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فهذه كلمة مثل القنبلة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، ذَهَبَتْ مَعْنَوِيَّاتهم واجتماعهم، وأخيرًا آمنوا بالله، وأَعْلنوا إعلانًا كاملًا بتصميمٍ وعزمٍ، سبحانَ الَّذِي أعطاهم إيّاه فِي هَذِهِ اللحظةِ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فتوعَّدَهُم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الشعراء:٤٩]، فماذا قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، افْعَلْ ما تريدُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

• • ۞ • •



الآية (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].

•••

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بصـالحٍ وهُم أربعةُ آلافٍ ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ].

﴿أَنجَيْنَا﴾ أي: عَصَمْنَا، فالإنجاءُ بمعنى العِصْـمَة، أي أَنْجَيْنَاهم من هَـذِهِ العقوبةِ، ومن هَذَا التدميرِ الَّذِي ذَكَر اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قول المُفَسِّـر [بصالحٍ]، فِيهِ نظرٌ، والصَّواب: آمنوا باللهِ؛ لأجلِ أن يشملَ صالحًا ومَن معه، كمـا قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة هودٍ: ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود:٦٦]، بل نَقُول: إن صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجِب عليه أن يؤمن بنفسه أَنَّهُ رسول، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يؤمنُ ويَشهد لنفسِـهِ بالرسالةِ، يَقُول فِي صلاتِه: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»[1]، وَهُوَ يعني نفسَه، وأحيانًا يقولُ إذا وقعَ الأَمْرُ عَلَى وَفْقِ ما قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الآخرة، حديث رقم (٧٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مثاله ما جاء في صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب الرطب والتمر، رقم (٥٤٤٣) حديث جابر ابن عبد الله، وفي آخره: فخرجت حتى جئت النبي ﷺ فبشرته، فقال: «**أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**».

المهم أن الرَّسُول نفسَه مُلْزَمٌ بأنْ يشهدَ لنفسِهِ بالرسالةِ وبأنه رسول الله يُؤْمِن بما أُوحي إليه، وكذلك غيرُه مِن باب أَوْلَى.

وقول المُفَسِّر: [وهم أربعةُ آلافٍ]، نَقُول: أين الدِّيوان الَّذِي حَصَرَهُمْ، لا دليلَ عليه، والغالبُ أنَّ المُؤْمِنِينَ أقلُّ من ذلكَ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1]، إذ رُفِعَ له سَوَادٌ فظنَّ أَنَّهُ أُمَّتُه، فقَالُوا: هَذَا موسى وقومه.

فالمهمّ أَنَّ تَقديرَهم بأربعةِ آلافٍ، أو بأربعينَ نفرًا، أو بأربعة ملايينَ، أو بأقلَّ أو أكثرَ؛ هَذَا يحتاجُ إِلَى دليلٍ، وَهُوَ أيضًا من فُضُولِ العلمِ الَّذِي لا يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُتْعِبَ نفسَه فِيه؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، الَّذِي فِيهِ فائدةٌ لَا بُدَّ أنْ يَقُصَّه الله علينا.

ونظيرُ هَذَا البحثِ مثلًا فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ:

ما لونُه وما اسمُه وما حَجْمُه؟

والغارُ الَّذِي هم فِيهِ أينَ هُوَ، فِي أيّ مكانٍ؟

كُلّ هَذِهِ مسائلُ جانبيَّة، كذلك أيضًا ما وقع فِي الحديثِ فِي السنَّة (قالَ رجلٌ للنبيِّ ﷺ)، فتجدُ بعضَ الشرَّاح يُعنَى عنايةً تامّةً: مَن الَّذِي قَالَ هَذَا؟ هَذَا فِي الحقيقةِ لَيْسَ له داعٍ، وإنْ كنّا قد نستفيدُ إذا كَانَ فِي ذلك مَنْقَبَةٌ لِهَذَا الرجلِ إذا عُرف به، لكِن هل هَذَا ليس ملزومًا لا بالحُكْم ولا بالدلالة، ولكِنه من فضول العلم. وهَذِهِ المسألة أيضًا مثلها: كم الَّذِينَ مَعَ صالحٍ؛ أربعة آلاف أو أربعة مَلايين؟ لا يَهُمّ، المهمُّ أن كُلَّ

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، حديث رقم (٦١٧٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَنِ اتَّصَفَ بالإِيمانِ فإن الله تَعَالَى أنجاهُ من هَذَا العذابِ العامِّ.

قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ]، ولو أَنَّهُ قَالَ: يَتَّقُونَ المَعاصِيَ أو يَتَّقون اللهَ؛ لكان هَذَا أولى؛ لِأَنَّ الإِيمانَ والتقوى بمعنى الإِيمانِ والعَمَلِ الصالحِ؛ لِأَنَّ العَمَل الصالح عند الإطلاقِ من التقوى، بخلافِ إذا ما قُرِنَ بالتقوى البِرّ، فيَكُون التقوى للمعاصي والبِرّ للطاعات.

من فوائد الآية الكريمة:

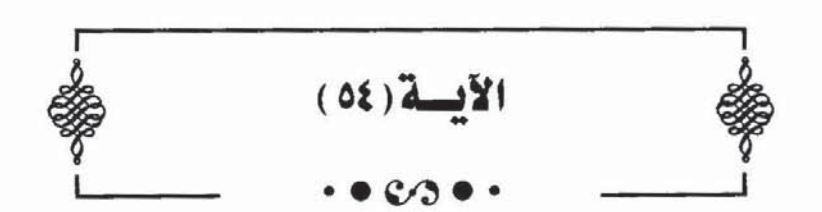
الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ الإِيمانَ والتقوَى من أَسْبابِ النجاةِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حُكْمٌ مُعَلَّق بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّق بوصفٍ دلَّ ذلك عَلَى عِلِّيَّة هَذَا الوصف وتأثيره فِي الحكمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَثُّ عَلَى الإِيمانِ والتقوَى؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقل يَنْبَغِي له أنْ يَسْلُكَ أَسْبابَ النجاةِ، فيَكُون فِي الإخبار عن نَجاتِهِم الحَثّ عَلَى السَّبَب الَّذِي به نَجَوْا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حَيْثُ أهلكَ مَن يَسْتَحِقّ الإهلاكَ، وأَنجى مَن يَسْتَحِقّ الإنجاءَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنّ صالحًا ومن معَه كانوا مُؤْمِنِينَ متَّصفين بهَذَا الوصف -بالإِيمان والتقوى- لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ أُنْجُوا من هَذِهِ العقوبةِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٥٤)

• • ⁂ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤].

• • ⁂ • •

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بـ(اذْكُرْ) مُقَدَّرًا قبلَه]، يعني: واذكرْ يا مُحَمَّد لُوطًا، وإنما ذُكِرَ بَعْد صالحٍ وَهُوَ دائمًا يُذْكَر بعدَ صالحٍ؛ لِأَنَّ مدائنَ صالحٍ وقُرَى قوم لُوطٍ لَيْسَ بَعْضُها بعيدًا من بعضٍ، وليستْ مجهولةً للناسِ فِي عهد النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ) مقدَّرًا قبله ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾]، لِأَنَّ (إذ قال) بدل من لُوطٍ، فَكَأَنَّ التَّقْدير: (واذكر إذ قَالَ لوطٌ لقومِه).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللُّوَاط]، الهمزة هنا للاسْتِفْهامِ الاستنكاريِّ أو الاستعلاميِّ؟

للتوبيخِ والإنكارِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَم، وإنْ شئتَ زِدْ عَلَى ذلك التعجُّب أو التعجيب، يعني كيف أنكم تأتون الفاحشةَ، فهي للتوبيخِ والإنكارِ والتعجُّبِ.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (أل) لاستغراقِ الجنسِ من حَيْثُ المَعْنى، لا من حَيْثُ الأفرادِ، لكِن المَعْنى: أن هَذِهِ أعظمُ فاحشةً من نوعها، وهي أعظم من الزنا؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، فاحشة من الفواحش،

(فاحشة) في هذه الآية نكِرة، وهنا قَالَ: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي أيضًا أعظمُ من نكاحِ ذواتِ المحارِمِ؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:٢٢]، ونِكاحُ ذواتِ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنا؛ لِأَنَّ اللهَ وَصَفَهُ بثلاثِ صفاتٍ: فاحشة ومَقْت وسُوء سَبيل، والزنا وَصَفَه بوصفينِ؛ فاحشة وسوء السبيل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

ولهَذَا فالصَّحيح أن مَن زَنَا بِمَحَارِمِهِ يُقتل، وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا؛ لِأَنَّ هَذَا أعظمُ -والعياذُ باللهِ- مِنَ الزنا، كذلك اللُّوَاط الصَّحيحُ أنَّ فاعِلَه يُقتَل ما دام بالغًا عاقلًا وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يُبْصِر بعضُكم بعضًا انهماكًا فِي المعصية]، يَعْنِي: أخبث من الحَمِير والعياذُ باللهِ، فيرى بعضُهم بعضًا وهم يفعلون ذلك، ولذلك قَالَ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، إذا اجتمعوا -والعياذُ بالله- صارَ يَرْكَب بعضُهم بعضًا كالحَمِير، نسألُ اللهَ السلامةَ.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ البصرِ ما يُبْصَر بالعينِ، وَقِيلَ: إن الإبصارَ بالقلبِ، يعني وأنتم تبصرون خُبْثَها وتَعقِلونه، وكل إِنْسَان له فِطرة سليمة يكره هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ سوف يركب مثله نفس هَذَا المركوب، سيركب غدًا واحدًا، ثُمَّ إن المكانَ هَذَا أيضًا لَيسَ محلًّا لهَذِهِ الشَّهْوةِ؛ لِأَنَّهُ مكان متلوِّث بالأنجاس، وَلَيْسَ محلًّا للشهوة، فَهُوَ خبيثٌ بالفطرةِ وبالحِسّ أيضًا.

ولَكِنَّنَا نَقُول: لو أننا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسّيّ بالعين والإبصار المعنويّ بالقلب لكان ذلك جائزًا، وَفِي الحقيقةِ أنّ بَشاعةَ هَذَا الشَّيْء بالقلبِ أمرٌ

معلومٌ بالفِطرة، وكونهم يفعلونه وهم يشاهد بعضهم بعضًا هَذَا أشدُّ وأعظمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَنبغي إبرازُ الغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أُرْسِلَ الرَّسُولُ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ كلَّهم كافَّة أُرسلوا لتوحيدِ اللهِ، لكِنَّ بعضَهم يبيِّن مَعَ الأَمْر بعبادةِ اللهِ أَنَّهُ أُرسِل لِهَذَا الغرضِ، ولوطٌ هنا بَيَّن اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أرسله لغرضِ انتشالِ قومِه من هَذِهِ الفاحشةِ العظيمةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا بُدَّ أَنَّهُ قَالَ لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، لكِن لَمَّا كانت هَذِهِ الفاحشةُ ظاهرةً فيهم بيَّنها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهُم مؤمنونَ، والرُّسُل طالبوهم أولًا بالإِيمان، وهم إمَّا أَنَّهُم أخطؤوا فِي هَذِهِ العَمَلية مَعَ تحقيق العِبادَة، وليَكُون الأَمْر بعبادة الله من باب الأَمْر بالاستمرار عليها، أو أَنَّهُم يأمرونهم ثُمَّ بَعْد ذلك إذا استقرّ الإيمان فِي نفوسهم نَهَوْهُم عمّا هم عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرُّسُل يُرسَلون إِلَى قومهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ولم يُبْعَثْ أحد إِلَى عمومِ النَّاسِ إِلَّا رسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عِظَم اللُّواط وقُبْحه وَأَنَّهُ فِي قِمَمِ الفواحشِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان وجوبِ الإنكارِ عَلَى مَن أتى بهَذِهِ الفاحشةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ لِأَنَّ الهمزةَ هنا للاسْتِفْهامِ والتوبيخِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ يُنْكَرُ عليه، لكِن بماذا يعاقَب؟

فِي شريعتنا يعاقَب بالقتلِ مُطلَقًا، سواءً كَانَ مُحْصَنًا أم غيرَ محصَنٍ، وهَذَا هُوَ

ما دلّ عليه الحديثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ وصَحَّحَهُ الحاكِمُ وغيرُه من قولِ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُول بِهِ»[1]، وَهُوَ الَّذِي أجمعَ عليه الصحابةُ كما حكاه عنهم شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

لكِنهمُ اخْتَلَفُوا كيفَ يُقتل؛ هل يُقتل بالرجمِ أو بإلقائِهِ من شاهقٍ وإتباعِهِ بالحجارةِ، أو يُقتل بالسيفِ أو يقتل بالإحراقِ بالنَّار، وقد فعلَه أبو بكرٍ وفعله عبد الله بنُ الزُّبَيْر، وفَعَلَه هِشامُ بنُ عبدِ المَلِكِ، واختلفوا فِي هَذَا، فالمهمُّ أَنَّهُم اتفقوا عَلَى قتلِهِ، وتكون الكيفيّة هنا راجعةً إِلَى الإمامِ، إذا رأى أقوى كيفية تردع عن هَذَا العَمَل الخبيثِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُهُ.

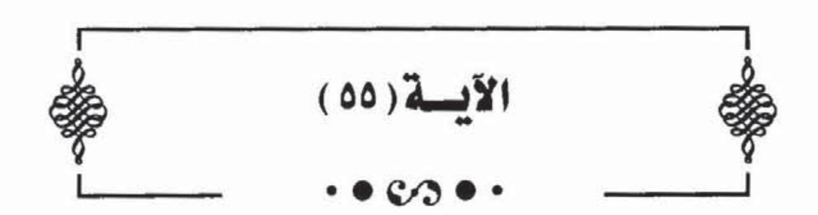
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنّ الفواحشَ تُقبّح بِحَسَبِ ما يُقتَرَن بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فإن هَذِهِ الفاحشةَ مُنْكَرَة، ولَكِنَّهَا إذا كانت عَلَنًا وجَهْرًا يَظْهَرُ النَّاسُ بعضهم أمامَ بعضٍ فيها صارتْ أقبحَ وأعظمَ، ولهَذَا أتى بالجملةِ الحاليّة فِي قولِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

• • ❁ • •

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن يعمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٤٤٦٢)؛ والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، حديث رقم (١٤٥٦)؛ وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) (٨٠٤٧)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥).



الآيـة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥].

•●෴●•

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، ففيها أربع قراءات.

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ هَـذَا تفسيـر لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾، وهنا يُلاحَظ أن الاسْتِفْهامَ هنا لتقريرٍ، لَكِن أُكِّدَ هَذَا الحكم بالجملةِ الَّتِي قُرِئَتْ بالاسْتِفْهامِ؛ أكد بـ(إن) و(اللام): ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وهَذَا كقولِ إخوة يُوسُف ليوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، أي: أَتُقَرِّر أنك يوسف وتؤكِّد ذلك؟ فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، ففي جـوابِهِ لهم إهانة لهم؛ لِأَنَّهُم طلبوا منه أن يؤكِّد لهم أَنَّهُ يوسـفُ فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ فما قَالَ: (إني لأنا يوسف)، بل ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ فحذف التأكيدات استهانةً بهم.

فالحاصل: أن الاسْتِفْهام إذا تلاه التأكيد لا يُخرِجه عن معنى الاسْتِفْهامِ، بل كأنَّ المُسْتَفْهِم يطلب من المُسْتَفْهَم منه تأكيد الجملة، لكِن في هَذِهِ المسألة الاسْتِفْهام للتقرير، يقرر مَعَ التأكيدِ، ولهَذَا قَالَ لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨١].

وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ يَحتمِل أن تكون مصدرًا فِي موضع الحالِ، ويَحتمِل أن تكون مَفْعُولا لأجلِهِ؛ أي لأجلِ الشَّهْوةِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: ففيها إنكار من جهةِ أَنَّهُم يأتون الرِّجال شهوةً وليسوا أهلًا لها، ومن جهة أخرى أَنَّهُم يدعون النِّساء، ولهَذَا قَالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهنّ مَحَلُّ الشَّهْوةِ، فيَكُونون قد أساءوا فيما فَعَلُوا وفيما تَرَكُوا، ولهَذَا قَالَ لهم فِي آيَة أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٦]، وهَذَا أبلغُ، يعني لو أن المسألة ضُيِّقَتْ وما بَقِيَ إِلَّا هَذَا الطريق لكان أهونَ، لكِن هناك طُرُق محلَّلة مُباحة موافِقة للفِطْرة تَدَعُونها وتذهبون إِلَى هَذَا، كالذي يَدَعُ المذكَّاة ويأكل المَيْتَة، وكالذي يَدَعُ البيعَ الصَّحيحَ ويذهب إِلَى الربا، ويقول: إِنَّمَا البيعُ مثلُ الربا.

فالحاصل: أن القبائح تَزداد قبحًا إذا كَانَ لها بدائلُ مِنَ الحسناتِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لو أَنَّهُ اقتصرَ عَلَى هَذَا وقال: أئنكم لتَأْتُون الرِّجال شهوةً بل أنتم قوم تجهلون، حصل التوبيخ واللوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: قُبْح فعل هَؤُلَاءِ، وهَـذَا مَعَ الوجه الأول ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يَكُون قَبُحَ من وجـهٍ آخرَ، هُوَ أَنَّهُم يأتون الرِّجال الَّذِينَ لَيْـسَ لهم حـقّ فِي إتيانهم ويَدَعُون النِّساءَ اللاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الشهوة إِنَّمَا تَصْدُرُ عن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، وإنما هِيَ عن سَفَهٍ فِي الْإِنْسَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ كأنه قَالَ: إتيانكم إياهم شهوة لَيْسَ له محل، ولكِنَّ الَّذِي أوجب ذلك لكم أنكم قوم ذوو جهل، أي: سفه.

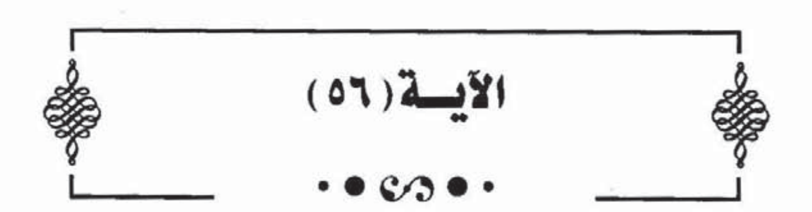
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أن هَذِهِ الشهوة تَصْدُر عَن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا ما رُوي من حَذَرِ بعضِ الأئمَّة من مقاربةِ الصبيَان أو المُردان خوفًا من أن يقعَ فِي أنفسهم شيءٌ؟

فالجواب: كما أنَّ الزِّنَا قبيحٌ فِي الفِعْل، ومعَ ذلك قد تَدْعو النفسُ إليه، فلا يَمْنَع أن النفس الأمّارة بالسُّـوء تدعو إِلَى ما يخالِف مقتضَى الطبيعة، ولهـذَا قَالَ بعض العُلَماء: إن اللُّواط لَيْسَ فِيهِ حدٌّ ولا عقوبةٌ؛ لِأَنَّ النفسَ تَنْفِرُ منه بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، فَهُوَ كشُـرْب البولِ وأكلِ الغائطِ، ولكِن هَذَا لَيْـسَ بصحيحٍ، الصَّحيحُ أن بعضَ النفوسِ السافلة قد تدعو إليه، فالزِّنَا محرَّم لِوَصْفِهِ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ؛ لِأَنَّهُ زنا، ولذلك لو تَزَوَّجها حلَّ له ذلك، أَمَّا هَذَا فَهُوَ محرَّم بمقتضى الشَّريعَة والطبيعةِ، حَتَّى النفس تَنْفِر منه، إِلَّا نفسًا مقلوبًا عليها أَمْرُها.

ولِهَذَا قَالَ لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فهَذِهِ ليستْ شهوةً طبيعيّةً، وحقيقةً كيف أن الْإِنْسَان يذهب يَسْتَعْمِل هَذَا المَحَلّ الَّذِي هُوَ مَحَلّ الخبث والأنتان والأقذار، وربما يَعْلَق به شَيْء من ذلك، ويَدَع المَحَلَّ الطاهِرَ الَّذِي أباحَهُ الله له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان ما عليه هَؤُلَاءِ القوم منَ المَظْهَر الاجتماعيّ الفاسِدِ؛ لِأَنَّهُم إذا كانوا يأتون الرِّجال ما بَقِيَ منهم رجلٌ فِي الحقيقةِ، صاروا كلُّهم بمنزلة النِّسَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَبِرَ الْإِنْسَان ارتفعَ عنْ أن يُفْعلَ له وصار فاعلًا، فهم فِي حالِ الشبابِ مَفْعُول بهم، وَفِي حالِ الكِبَر فاعلونَ، ولِهَذَا يُعْتَبَر هَذَا الانحطاطُ الاجتماعيّ فِي البشرِ من أخسّ الانحطاطاتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الفِعْلة مِنَ السَّفَه العظيم؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأتى بالجملةِ الاسميَّة الدالَّة عَلَى الثُّبُوت والاستمرارِ.



الآية (٥٦)

• • ﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

• • • •

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾: ﴿جَوَابَ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مُقدَّم، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمها مؤخر، وهَذِهِ الجملة للحَصْرِ، يعني ما كَانَ جواب قومه أنْ يَنْقَادُوا، ولا أن يَقِفُوا مَوْقِفًا سَلْبِيًّا من دعوتِه، بحيث يَتَوَقَّفُونَ عن القبولِ وعن المعارضةِ، بل كَانَ جواب قومه -والعياذ بالله- اللجوء إِلَى الْقُوَّة وإلى العنف.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي: قَالَ بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾ الفاعل يعود إِلَى أهل الحِلّ والعَقْدِ فِي القرية.

وقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أتوْا بهَذَا التعبيرِ إشارةً إِلَى أنّ لوطًا لَيْسَ منكم، وإنما هُوَ جُرْثُومَة طارئة حادثة عَلَى محَل، فيجب أنْ يُنَزَّه منها؛ لِأَنَّ لوطًا كما هُوَ معروف أُرْسِل إِلَى أهلِ سَدُوم وَلَيْسَ منهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني الَّذِينَ جاءوا ووَفَدُوا إليكم وليسوا منكم، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يقولوا: منَ القريةِ، بل قَالُوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ للإغراءِ بإخراجِهِ، يعني كأنهم يَقُولُونَ: هَذِهِ قريتكم وهَذَا الرجل جاء جديدًا عليها ويريد أن يُناقِضَكُمْ وأن يقفَ ضِدَّكُم، فأَخْرِجُوه، فالقريةُ لكم ولَيْسَ له.

وسيأتي -إن شاء الله- بَيَان الفائـدةِ فِي هَـذَا أن بعض النَّاس إذا ضاق ذَرعًا بالدُّعاة المصلِحين يَقُول لهم: اخْرُجُوا، هَذِهِ لَيْسَـت بِلادكـم، أو لا تتكلَّمْ فِي هَـذَا المَسْجِدِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مسجدك، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هَـذِهِ الجملةُ تعليل لِما سَبَقَها مِن حُكْمٍ وَهُوَ الأَمْرُ بالإخراجِ، (أخرجوهم) لماذا؟ (لأنهم أناس يَتَطَهَّرُون)، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من أدبار الرِّجال]، فجعلوا عِلَّة العقوبة ما هُوَ من أَسْبابِ رفعِ العقوبةِ؛ فإن التطهُّرَ عن هَـذَا حَسَنٌ يَقتضي المدحَ والثَّناء الجميـلَ عَلَى مَن تطهَّـر منه، وهَـؤُلَاءِ جعلوه بالعكس؛ لِأَنَّهُم -والعياذ بالله- إمَّا زائغونَ يَعرِفون الحَقّ ولم يَعْمَلُوا به، وَإِمَّا ضالُّون أُضِلُّوا عن الحَقّ وعَمِيَ عليهم، نسأل الله العافية. والغالبُ أَنَّهُم زائغونَ؛ لِأَنَّ هَذَا معروفٌ لدى البشرِ أنَّ الطبيعةَ تَنْفِر منه ولا أحدَ يَقْبَلُه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ وأن هَذَا الفِعْل خبيثٌ وهَـؤُلَاءِ يريدون التطهُّر منه، أو أرادوا: يتطهّرون بِزَعْمِهِم، وأن هَذَا الفِعْل لَيْـسَ نَجَسًا لكِن هَؤُلَاءِ يريدون أن يتطهروا منه؟

الأقرب الأخير؛ لِأَنَّهُ هُوَ مُقْتَضَى حالِهِم، فمقُتضَى حالهم أَنَّهُم رأوا هَذَا المنكرَ معروفًا وهَذِهِ الفاحشةَ يسيرةً فتمسكوا بها.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: ﴿أُنَاسٌ﴾ نكِرة، والمنكّر غيرُ معروفٍ، وكل هَذَا لقصدِ التباعُدِ منه، والإغراء بإخراجِهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان عُتُوِّ المكذِّبين لِلُوطٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنهم لم يَقتصِروا عَلَى ردِّ دعوتِهِ، بل اتَّفقوا عَلَى أن يخرجوه من البلد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي عند الدَّعْوَةِ إِلَى الشَّيْءِ أن يَقْرِن الداعي دعوته بما يُغْرِي المدعوّين ويُؤَلِّبهم ويقوِّيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ولم يقولوا: من القريةِ؛ لِأَنَّ قولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، فهَذِهِ تُوجِب الحَمِيَّةَ والعَصَبِيّة حَتَّى يخرجوهم، كأنهم قَالُوا: هَذِهِ القريةُ لكم، أَخرِجوا هَذَا الرجل، وكذلك ففي قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني هَؤُلَاءِ ليسوا منكم؛ فلا وجهَ لِكَوْنِكم تسكتونَ عنهم.

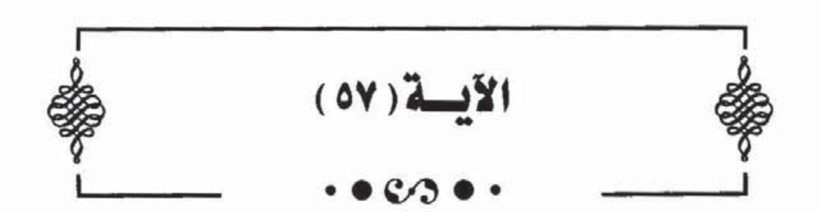
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الحُكْم بالسَّبَب؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ هَذَا سبب قولِهم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن قول البعضِ إذا رَضِيَهُ الباقونَ فهُوَ للجميعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، ومنَ المعلومِ أن هَذَا القَوْلَ لَيْسَ للجميعِ؛ لِأَنَّهُم عندما يَقُولُونَ: (أخرجوا) فبعضهم يخاطب بعضًا، ولكِن الكلمة إذا جاءت من بعضِ القومِ ورَضِيَها الآخرونَ فإنها تُنْسَبُ إليهم.

ولهَذَا يخاطب الله اليهود فِي عهد النَّبيِّ ﷺ بما فعله أسلافهم، وَفِي سورة البقرةِ كثيرٌ من ذلك؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، فموسى الَّذِي أُوتِيَ الكتابَ والفُرقان جاء لأسلافهم وليس لهم.

وكذلك قَالَ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢]، والَّذِينَ اتخذوا العجلَ ليسوا هَؤُلَاءِ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ راضونَ. فِفعل القوم أو فِعل بعضِ القومِ أو القبيلة إذا رَضِيَه الآخرونَ فهُوَ للجميعِ، والعِبرة بالأشرافِ ومَن لهم الكَلِمَة، وإلَّا بعض النَّاس قد يَكْرَه هَذَا الشَّيْءَ ولا يريده.

• • ❁ • •



الآيــة (٥٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

•●●•

لَّمَا عَزَمُوا عَلَى إخراجِهِ أَمَرَهُ الله تَعَالَى أن يخرجَ بأمرِ اللهِ، فإن الملائكةَ أتتْ إليه وأمرتْه أن يسريَ بأهلِهِ إِلَّا امرأَتَه كانت من الغابرينَ، فسرى بأمرِ اللهِ، ولما بعُد عن القريةِ أهلكَ الله تَعَالَى أهلَ القريةِ صباحًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، فأرسلَ اللهُ عليهم حجارةً من سِجِّيل، فجعل عاليَها سافِلَها، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ﴾ والاستثناءُ مُتَّصِل.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ﴾ وَفِي هَـذَا دليلٌ عَلَى أن المَرْأَة من الأهل؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَأهلُها ويَأوِي إليها، وكذلك هِيَ بالنِّسْبَة إليه، فالزوجةُ من أهلِ الْإِنْسَانِ كما أن أقاربَه من أولادِهِ وآبائِهِ هم أيضًا منَ الأهلِ.

قوله: ﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: كَتَبْنَا عليها وقدَّرنا عليها، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين فِي العذاب]، و(الغابر) بمعنى: الباقي، فالمَعْنى أَنَّهَا بَقِيَتْ ولم يَسْرِ بها فكانت -والعياذ بالله- من الهالكين.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ هَذَا هُوَ معنى قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، فإن هَذِهِ الخيانة ليستْ خيانةَ فَرْج وعِرْض، وإنما هِيَ خيانة كُفْر؛ لأنهما أظهرتا أنهما مؤمنتانِ وهما ليستا كذلك، فبهَذَا صارتا خائنتينِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أن الله تَعَالَى كاملُ العدلِ، حَيْثُ أَنْجى لوطًا وأهلَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن أَتَى بأَسْبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كَانَ بين قوم صالحينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان سَبْقِ التَّقْدير للحوادثِ، وأن تقدير الله تَعَالَى سابق عَلَى أفعالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾؛ لِأَنَّ معنى ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها بتقديرنا السابق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المرءَ يُعْذَر بما لا يَعلم، فإنّ لُوطًا كَانَ لا يعلمُ عنِ امرأتِهِ شيئًا أَنَّهَا كافرة، والدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ لا يعلمُ قولُه تَعَالَى فِي سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، وإلّا ما كَانَ لنبيٍّ أنْ يَبقَى تحته امرأة كافرة، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَانَ لا يعلم فَهُوَ معذور.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ لا يُنَجِّي من عذاب الله الاتصالُ بأهلِ الصلاحِ، فلا يَقُول الْإِنْسَان مثلًا: أنا أخي صالح أو وليٌّ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَعصِمني من عذابِ اللهِ؛ فهَذِهِ امرأةُ لُوطٍ لم يَنْفَعْهَا أَنَّهَا امرأة نبيّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم:١٠].

ونوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له ابن كافر قَالَ: إِنَّهُ من أهلي، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لابنته فاطمةَ: «**يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1].

فالمهم في هَذِهِ الفائدة ألّا يَغْتَرَّ الْإِنْسَان بِقُربه من أهلِ الخيرِ والصلاحِ فيقول: إنني سأنجو بهـذَا القُرب؛ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُحابي أحـدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦].

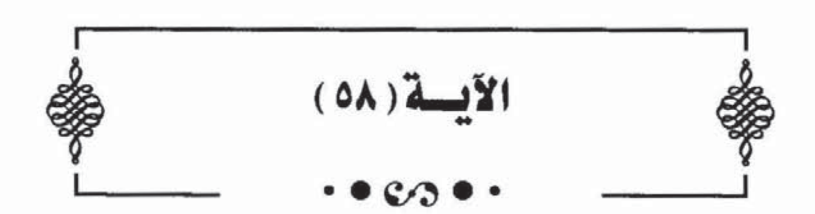
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين هَذِهِ الفائدة والْفَائِدَة السابقة: أن مَن أتى بأَسْبابِ الهلاك هَلَكَ ولو كَانَ مَعَ قوم صالحين؟

فالجواب: الفرق أن الفائدة هنا لمن كان له قُرْبٌ خاصّ، والسابقة يُقصد بها من كَانَ معهم يعني بمجرد الاجتماع والمصاحبة، وامرأة لوط جامعة بين الأَمْرينِ.

• • ۞ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ حديث رقم (٤٤٩٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٥٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:٥٨].

•• ◦ ••

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وَهُوَ حجارةُ السِّجِّيل أَهْلَكَتْهُمْ، ﴿فَسَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهُم].

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن المطرَ لَيْسَ خاصًّا بالماء، بل كُلّ ما حُصِبَ به الْإِنْسَان من فوق يُسَمَّى مطرًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ والمطر الَّذِي أصابهم هُوَ ما قَالَهُ المُفَسِّر [حِجَارة السِّجِّيل]، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آيَة أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، وَفِي آيَـة ثانيـة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤]، هَذِهِ الحجارة أهلكتهم وجعلتْ عاليَ القريةِ سافِلَها؛ بمعنى أَنَّهَا تهدَّمتْ عليهم حَتَّى صار عالِيهَا سافلَها، يعني لِأَنَّهُ إذا انهدمَ البناء صار أعلاه أسفله، هَذَا هُوَ الظَّاهر.

وَأَمَّا ما رُوِيَ من أن جِبـريلَ حَمَلَهم من تُخُوم الْأَرْض السُّفْلَى وَأَنَّهُ صَعِدَ بهم حَتَّى سَمِعَ أهل السَّمَاء نُباح كلابهم ونَهيق حَمِيرهم ثُمَّ قَلَبَها، فإن هَذَا لا دليلَ عليه، لا من كتاب اللهِ ولا من سنّة رسول الله ﷺ. فالأقربُ أن هَذِهِ الحجارة لَمَّا أصابتْ قريتَهم صار عاليها سافلَها، وانهدمَ البناءُ فصار أعلاه أسفله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَسَاءَ﴾ بئس]، إذن ساء فِعْلٌ ماضٍ مجرَّد عن الزمنِ،

وإنما هُوَ لإنشاءِ الذمِّ، مثل: (حَسُنَ) فِي بعضِ الأحيانِ: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النِّساء:٦٩]، فهَـذَا فعل لإنشاء المدح، و(ساء مطر المنذَرين) هَـذَا أيضًا فعل لإنشاءِ الذمِّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهُم]، وقَالَ: [مَطَرُهُم]، لِأَنَّ (ساء) مثل (بِئس) تريدُ فاعلًا، وتريد مبتدأً ومخصوصًا بالذمِّ، وَهُوَ المبتـدأ المحذوف؛ فإذن نَقُول فِي إعرابها: (ساء): فعلٌ ماضٍ، ومَطَر: فاعل، وَهُوَ مضاف إِلَى المنذرينِ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه (مَطَرُهم): (فساءَ مطرُ المنذَرين مَطَرُهم)، وهَذَا المخصوص أحيانًا يتقدم وأحيانًا يأتي بدله اسمٌ منصـوب يُجعَل تمييزًا يَكُونُ بدلَ هَذَا المخصوصِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف الجمع بين قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣]، وقوله فِي سورة هود: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود:٨١]، وقوله: ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]، مَعَ أن الصُّبح طلوعُ الفجرِ كما ذكر ابنُ القَيِّم، والإشراق بَعْد طلوع الشَّمْسِ؟

فالجواب: الصبحُ يشملُ من طلوعِ الفجرِ إِلَى الزوالِ، فيُسَمَّى ضحًى ويسمى صُبْحًا، وقوله: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي: العذاب بدأ فِي زمن الإصباح، واستمرَّ العذاب إِلَى الإشراقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعَذِّب كُلّ إِنْسَانٍ بذنبِه، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فمنهم مَن فعلنا به كذا ومنهم مَن فعلنا به كذا، فهنا يَقُول: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾، ووجه مناسبة العقوبة للجريمةِ أن هَذَا المطرَ

جعل عَالِيَ بلادهم سافلَها، كما أن أولئك سَفُلُوا بأخلاقهم حَتَّى كانوا يستعملون هَذِهِ الفاحشةَ ويَذَرُون ما خلق لهم ربُّهم من أزواجهم، وهَذَا بلَا شَكٍّ انقلابٌ فِي فِطَرِهِم، ولذلك عُوقِبُوا بهَذِهِ الجريمة والعياذ باللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء عَلَى الفِعْل بما يسْتَحِقّه من الثَّناء، حَيْثُ قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهنا نُورِدُ إشكالًا، وَهُوَ أن هَذَا المطرَ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثَّناء عليه بالقُبْح وبالشرّ ألا يُنافي قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]؟

نَقُول: لا ينافيه، والجمع أن هَذَا السوءَ لَيْسَ فِي فعلِ اللهِ ولكِنه فِي مَفْعُولِهِ، فهَذَا المطرُ هُوَ الَّذِي أثنى عليه بالسُّوء ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وَأَمَّا فعل الله فَإِنَّهُ لَيْسَ بشرٍّ، بل هُوَ من كمالِ العدلِ والْقُوَّة والسلطانِ، حَيْثُ عاقب المجرمينَ بما يَسْتَحِقّون، وعقوبةُ المجرِمِ بمـا يَسْتَحِقّ لَا شَكَّ أَنَّهَا ليستْ بظلمٍ وليســتْ بسيِّئة ولا يُثنَى عَلَى فاعلها بالسوء. فتبَيَّنَ بهَذَا أَنَّهُ لا ينافي قولَ الرَّسُول ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِين أَهْلَكَهُمُ اللهُ قد قامتْ عليهم الحُجَّة، لقولِهِ: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فهؤلاء أُنذروا بالعذابِ، فقامت عليهم الحجَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُول فِي الْقُرْآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ما عذَّب اللهُ أُمَّة من الأممِ إِلَّا بعدَ قيامِ الحجَّة عليها، ولولا ذلك لكانتِ الحجَّةُ عَلَى اللهِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥]، فلا أحدَ له حُجَّة عَلَى ربِّه؛ لِأَنَّ الحجّة قد قامت بمـا رَكَّب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي فِطَرِ النَّاس من محبَّة الخير وعبادةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيَّد ذلك الأَنْبِياء والرسُلُ الَّذِينَ أتوا بالبيِّناتِ

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الظَّاهراتِ، فلم يبقَ للإِنْسَانِ حجَّة؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ الباطنيّ والدَّلِيل الظَّاهريّ موجودٌ فيه: الدَّلِيل الباطنيُّ: الفِطْرَة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

والدَّلِيل الخارجِيُّ: الرُّسُلُ الَّذِينَ جاءوا بالكتابِ وبالآيَاتِ البيِّنات، فقد قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»[1]، فلهَذَا نَقُول: إن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، وهم قومُ لُوطٍ، كانوا قد أُنْذِرُوا بالعذابِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

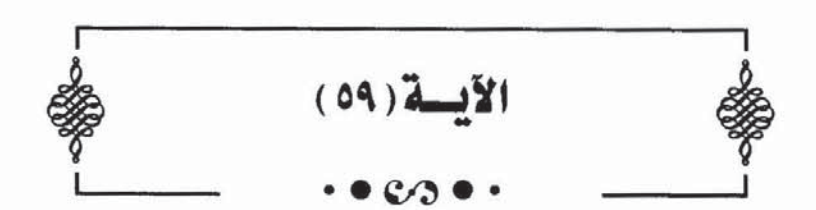
ما الفرق بين المُنْـذِرِين فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، وبين ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآيَة؟

المُنْذِر: مَن أَتَى بالإنذارِ، أو مَن أَنْذَرَ، والمُنْذَر: مَن أُقِيمَتْ عليه الحُجَّة.

•●۞●•

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، حديث رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ...، حديث رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٥٩)

• • ❀ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

• • ❀ • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلِ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى هـلاك كفَّار الأمم الخاليَةِ].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الأَمْرُ للنبيِّ ﷺ أو لكلِّ مَن يمكِن أنْ يُوَجَّه إليه مِن العقلاء.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أطلقَ هنا ما يُحْمَد عليه، فَهُوَ أعمُّ مِمَّا قَالَهُ الْمُفَسِّر، وإنْ كَانَ السياقُ يَقتضِي ما قَالَهُ الْمُفَسِّر لَكِنَّهُ يجبُ أنْ يُؤْخَذ بالعمومِ، ويَكُون من جملةِ ما يُحْمَد عليه إهلاكُ الكفارِ؛ لِأَنَّهُ دالٌّ عَلَى عدلِهِ بأخذِ هَؤُلَاءِ، وَعَلَى فَضْلِهِ بالأَنْبِياء والْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ أخذ أعداءهم.

ولَكِنَّنا نَقُول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هَذَا عامٌّ، يُحْمَد عَلَى كامل أوصافِه وَعَلَى أحاسنِ أفعالِه، فأفعاله كلُّها حُسْنَى، وصفاته كلها كاملة، فيُحمَد عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، ويَكُونُ إهلاكُ كفارِ الأُمَمِ من جملةِ ما يُحمَد عليه، وهَذَا هُوَ السرُّ فِي أنَّ الله تَعَالَى لم يَقُلْ: قُلِ الحمدُ للهِ عَلَى هَذَا، بل قَالَ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ ليَكُونَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى محمودًا عَلَى كُلِّ حالٍ، ومن جملةِ ما يُحمَد عليه إهلاكُ المكذِّبين للرسل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ هم]، هَذَا المَفْعُول قَدَّره المُفَسِّر.

وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ هل هُوَ داخل فِي ضمن المَقُول، يَعْنِي: قلِ: الحمدُ للهِ وقلْ: سلامٌ عَلَى عِبَادِه الَّذِينَ اصطفَى، فيَكُون الْإِنْسَان مأمورًا بالثَّناء بحمدِ الله وبالدعاءِ عَلَى عبادِ اللهِ الَّذِينَ اصطفاهم بالدعاء لهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾، أو هِيَ جملةٌ مُسْتَقِلَّة خبرٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه سَلَّمَ مَنِ اصطفاهُ وأنجاه؟

فِيهِ احتمالٌ للأمرينِ، لكِن أَيُّهما أقربُ إِلَى السياق؟

لا يترجح عندي أحدُ الاحتمالينِ؛ لِأَنَّ لكلٍّ منهما وَجْهًا، فالْإِنْسَان مأمورٌ أن يحمدَ اللهَ ومأمورٌ بأن يُسَلِّمَ عَلَى عبادِ اللهِ.

وكذلك أيضًا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى محمودٌ عَلَى كمالِ صِفاتِه. ثُمَّ إخباره بأنه سَلَّمَ هَؤُلَاءِ هَذَا أيضًا مما يُحْمَد عليه؛ لِأَنَّ زوالَ النِّقَم كجَلْبِ النِّعَم، ويَكُون فِي هَذَا فائدةٌ، وَهي أن العبادَ الَّذِينَ اصطفاهم الله قد أحلَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا ينالهم ما ينالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار، ويَكُون الله تَعَالَى محمودًا عَلَى الأَمْرينِ: عَلَى إهلاك الْكُفَّارِ وَعَلَى تسليمِ عباده الَّذِينَ اصطفى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أي: اختارهم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَخْلُقُ ما يشاء ويختار؛ يختار ما يَخْلُق ويَصْطَفِيه، فمن جملة ما اختارَ من بني آدمَ اختارَ الأَنْبياء؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ [ص:٤٧]، واختار أيضًا المُؤْمِنِينَ، فإن المُؤْمِنِينَ بالنِّسْبَةِ للكفار مُصْطَفَون، والأَنْبياء صفوة الصفوة، والاصطفاءُ كغيرِهِ من الصِّفَاتِ

الَّتِي تكون متفاوتةً بحسَب ما قام به العبدُ من أَسْبابِ الاصطفاءِ، فكلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقومَ بعبادةِ اللهِ وأشدَّ تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَانَ أشدّ اصطفاءً.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿ءَآللَّهُ﴾ بتحقيق الهمزتين]، (أألله) [وإبدال الثَّانِيَة ألفًا]، (آلله) [وتسهيلها وإدخال ألـف بين المسهَّلَة والأُخْرَى وتركها]، التسهيـل فِيهِ صفتان؛ يدخل بينهما ألف، أي بين الهمزة والمسهَّلة، أو بدون ألف؛ فتكون القراءات أربعًا.

ثم قَالَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء والياءِ، أي أهل مكَّة به الآلهة خير لِعَابِدِيها].

قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ خَصَّه الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ بخيريتِهِ لِمَن يعبده، والصَّواب أَنَّهَا خَيْـرِيَّة مُطْلَقَة لِمَن يعبده، وهَذَا يَقتضي الإحسان، ولكمـاله وهَذَا يقتضي الجلالَ والعظمةَ، فهنا لا نَقُول: (آلله) خير لمن يعبده فقط، بل (آلله) خيرٌ فِي كُلّ صفاتِه وَفِي إحسانِه وعطائِه؛ لِأَنَّ الآيَةَ مُطْلَقة، فيجب إطلاقها، وإطلاقها أكملُ مِن تقييدها؛ لِأَنَّهُ مثلًا قد يَكُون هذا خيِّرًا لمن يتعامل معه لَكِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ خيرية مطلقة، يَكُون هَذَا الرجل يتعامل مَعَ شخص وإذا عامله أعطاه فوق ما يستحقّ، لَكِنَّهُ فِي صفاتِهِ الأُخْرَى رَدِيء، ويأتي آخرُ جيِّد وخَيِّرٌ فِي صفاته الأُخْرَى لكِن إذا تعامل معه هَذَا الرجل ربما لا يعطيه ما يستحقّ، فيَكُون الأوَّل خيرًا له من الثاني، ومع ذلك فَهُوَ ناقصٌ.

فقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: خير لِمَن يعبده، هَذَا فِيهِ نظر؛ أولًا: أَنَّهُ تقييد للمطلَق بلا دليلٍ. ثانيًا: أن هَذَا التقييدَ لا يَقتضي الأفضليَّةَ، ولذلك يَجِب أن يُقال: (آلله خير) فِي كُلّ شيءٍ؛ فِي صفاتِه وَفِي ثوابِه وجزائِه لِمَن يَعْبُدُهُ.

قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أم الَّذِي يشركونه مَعَ الله من الأصنام وغيرها، والجواب: «بل اللهُ خير»، ولهَذَا يَنبغي لك إذا قرأتَ مثل هَذَا أن تقولَ: بل الله، وهَذِهِ المعادلةُ لا تَقتضِي المقاربةَ أو المماثلةَ، فَإِنَّهُ قد يُفَاضَلُ بين الشيئينِ مَعَ خلوِّ الطرفِ الثاني منهما، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي مُسْتَقَرِّ النَّار خيرٌ وَلَيْسَ فيها حُسْن مَقيل، بل إنَّهُم يُفَضِّلُون بين أمرين متعاكسين، فيقال مثلًا: الشتاء أشدُّ مِنَ القَيْظِ، وأبلغُ من هَذَا: الشتاءُ أبردُ منَ القَيْظِ، مَعَ أنَّ القَيْظَ لَيْسَ فِيهِ بُرُودَة.

فالحاصل: أن هَذَا ما يَقتضِي المماثَلَةَ أو المساواةَ. ولكِن هل يَقتضِي النقصَ؟

نعم يَقتضِي النقصَ؛ لِأَنَّهُ يُوهِم المشاركةَ إِلَّا فِي مَقامِ التنزُّلِ فلا يَقتضِي النقصَ، يَقُول الشاعر[1]:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ إِذَا ... قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَـى مِـنَ الْعَصَـا

لكِن عند التنزُّل لا يَدُلّ عَلَى النقص، فهَذِهِ الأصنام الَّتِي يُشْرَكُ بها مَعَ الله يريد مِنْهَا عابدوها أنْ تَنْفَعَهُم بجلبِ النفعِ أو دفعِ الضررِ، فنَقُول لهم: أَيُّها خير؛ أصنامكم أم اللهُ؟ من بابِ التنزُّل مَعَ الخَصْمِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَدَّعُون أن في آلهتهم خيرًا، فيقال لهم: آلله خيرٌ أم ما يشركون، يعني عَلَى زَعْمِكُم، وإن كَانَ لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا.

وقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: (أم) هَذِهِ متَّصلة أو مُنْقَطِعة؟ وما الفرق بين المتصلة والمنقطعة لكي نَحْكُمَ عليها؟

(١) قائل هذا البيت هو محمد جواد بن عبد الرضا عواد البغدادي له ديوان بمكتبة آية الله الحكيم بالنجف، هلك عام ١١٦٠هـ.

المتصلة معناها: أن تكون بينَ متعادلينِ، وَأَمَّا المنقطِعة فتكون بين متباينينِ، هَذَا الفرق؛ فالمنقطعة يَكُون الثاني منقطعًا عن الأولِ، فإذا صارتْ بينَ المتعادلينِ فإنها تُسَمَّى مُتَّصِلَةً، وأيضًا فرق آخرُ لفظيٌّ: أنَّ المتصِلة يَسْبِقُها همزةُ الاسْتِفْهامِ: أَزَيْدٌ قائمٌ أمْ عمرٌو، فيذكر فيها المعادل، وتَسْبِقها الهمزةُ تحقيقًا أو تقديرًا.

وَأَمَّا المنقطعة فلا تُذْكَر بين متعادلينِ، ولا يَكُون قبلها همزةٌ، فقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ هَذِهِ قبلها الهمزة وهي أيضًا بين متعادلين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«أَمَّا تُشْرِكُونَ» بالتاءِ والياءِ]، يعني (أمَّا تشركون) أو ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] [أي أهل مكَّة به الآلهة خَيْر لِعَابِدِيها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾]، قدَّر المُفَسِّر: الآلهة خير لِعَابِدِيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوب حَمْدِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ﴾ والأَصْلُ فِي الأَمْرِ الوجوبُ، والله تَعَالَى يُحْمَد عَلَى كمال صفاتِهِ وأفعالِهِ، وهنا الحمدُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى الأَمْرين جميعًا، لَيْسَ عَلَى أفعالِهِ فقطْ، ومن جملة ما يُحمد عليه أَنَّهُ أهلك هَؤُلَاءِ المُنْذَرين الَّذِينَ كذَّبوا الرَّسُول، ولهَذَا تخصيص المُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [على هلاكِ الكفار]، تقدَّم التنبيه عليه وأن هَذَا تخصيصٌ للآيَةِ، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيُحمَد الله تَعَالَى عَلَى كمال صفاته وأفعاله، وحمده واجبٌ شَرعًا وعقلًا؛ لِأَنَّ العقلَ يَقتضي أن يُوصَفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكمال.

والحمد هل هُوَ الثَّناء أو غيرُ الثَّناء؟

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٣٣).

بعض النَّاس يَقُول: الحمدُ هُوَ الثَّناء عَلَى اللهِ بالجميلِ، وَلَيْسَ بصحيح، بل الحمد هُوَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ، ثُمَّ إن كُرِّرَ صار ثناءً، ودليلنا عَلَى هَذَا قولُ الله تَعَالَى فِي الحديث القُدُسي: «قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1] فدلَّ هَذَا عَلَى أن الحمد لَيْسَ الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن إهلاكَ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمـال يَنبغي أنْ يُحْمَدَ عليها، ولا يعذِّب اللهُ إِلَّا مستحِقًّا، فعلى هَذَا إذا أصيبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار بالكوارثِ منَ الزَّلازِلِ والفيضاناتِ والأوبئةِ فما مَوْقِفُنا نحنُ مِن ذلك، هل نترحَّم لهم ونَأوِي لهم؟ لا، لكِن بعض النَّاس الجهّال فِي وقتنا هَذَا تَجِدُهم يَتَأَوَّهُون لهم ويَتَوَجَّعُون لهم ويعطِفون عليهم ويرحمونهم، وهَذَا خلافُ العقلِ وخلافُ النقلِ، بل إننا إذا أوقعَ اللهُ بهم ما يُوقِع من عُقُوباته فإنَّنا نَقُول: الحمد لله، نَحْمَد الله عَلَى ذلك؛ لِأَنَّ إهلاكهم مَصْلَحَة للإسلامِ والمُسلِمينَ، ما من فردٍ يَزيدُ فِي الْكُفَّار إِلَّا ويزدادون به قوَّة عَلَى المُسلِمين.

فإِذَنْ: إهلاكهم نِعْمَة منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، علينا أنْ نَحْمَدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، ولا ينافي هَذَا أن نَعْطِفَ مثلًا عَلَى الصغار منهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم.

مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت وبقي أَيْتامُها وهم كفار فَإِنَّهُ لا مانعَ مِن أن نَتَصَدَّقَ عليهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم ولا جريمة لهم، وربما يَعِيشون فِي الإِسْلامِ فيمـا بَعْد، إِنَّمَـا هَؤُلَاءِ المكذِّبون المجرمون إذا أَهْلَكَهُمُ اللهُ فإن الواجبَ علينا أن

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نحمدَ اللهَ، لا أنْ نَتَرَحَّمَ لهم ونَرِقّ لهم، هَذَا خلافُ ما عليه بعضُ النَّاسِ اليوم الَّذِينَ فَقَدُوا الغَيْرَة الدينية ولم يكن فِي قلوبهم الولاءُ والبَـرَاء؛ لأن كثيرًا من النَّاس فَقَدُوا الولاء والبـراءَ، وبعض النَّاس فقد البـراءَ فقطْ، ومعه الولاءُ لَكِنَّهُ وليٌّ لكلِّ أحدٍ، وبعض النَّاس بريء من كُلّ أحدٍ أيضًا، لا يحب المُسلِمينَ ولا الكفارَ، ولكِن هَذَا نادرٌ، إِنَّمـا الكثير فِي وقتنا هَذَا هُوَ الولاء للجميعِ، وَأَنَّهُ لا يُبْغِضُ أحدًا، فالمسألة عنده إِنْسَانيَّة وليستْ دِينيَّة، وهَذَا خطأٌ وخطرٌ، أيضًا مَعَ كونه خَطَأً فَهُوَ خطرٌ؛ لِأَنَّ أوثقَ عُرَى الإِيمانِ الحبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي الله.

مسألة: لو حَصَلَ لكافرٍ حادثٌ هل يَلْزَمُنا إنقاذه؟

لا يلزمنا أن نُنْقِذَهُ، نعم إن كَانَ مُعاهَدًا فَإِنَّهُ معصومٌ نُنْقِذُه، وإن كَانَ غيرَ معاهَدٍ وَلَيْسَ بيننا وبينه عهدٌ فلا ننقذه، بل إننا نُجْهِز عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ لا يعلمُ هل هُوَ معاهَد أو غير معاهد؟

فالجواب: إذا كَانَ لا يَعْلَمُ فاللهُ أَعْلَمُ، والَّذِينَ فِي بلادنا مَن لَيْسَ بمعاهَدٍ فَهُوَ مستأمَنٌ؛ لِأَنَّ كونَه يأتي بعقدٍ سواء حكوميّ أو غير حكوميّ فَهُوَ مستأمَنٌ، فله حُكْمُ المعاهَدِ، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

أما المعصوم فالعُلَماء يَقُولُونَ: يَجِب أَنْ يُنْقَذَ مِنَ الهَلَكَةِ مُطْلَقًا، ولم يَفْصِلوا بينَ المسلمِ وغيرِ المسلمِ، ولذلك لا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وهَذَا ثابتٌ بالنصِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، وقال تَعَالَى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكما جاء فِي الحديث عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»[١]، فهَذَا كلام أهلِ العلمِ فِي هَذِهِ المسألةِ، والمسألةُ تحتاجُ إِلَى بحثٍ، وعندما نحققها يُنْظَر إنْ كَانَ فِي هَذِهِ المسألةِ خِلافٌ، ويُنْظَر -إن شاء الله- أيّهما أرْجح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أنْ يَتَمَدَّحَ بنفسِه ويدعو النَّاس إِلَى ذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَمَّا غيره فليسَ مِنَ اللائقِ أنَّ الإِنْسَان يقُول للناس: احْمَدُوني وأَثْنُوا عَلَيَّ. ومعلوم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلٌ لِذَلِكَ، ولأن المصلحة لنا، والله تَعَالَى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائعينَ، ولا يَتَضَرَّر بمعصيةِ العاصِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِينَ اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئُوا مِمَّا يُلْصَق بهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن هَذَا السلام يَتَضَمَّنُ سلامتهم مما وُصِفوا به وقُدِح فيهم به، ويتضمّن أيضًا سلامتهم من عقوبةِ اللهِ، فالسلامةُ هنا شاملة للسلامة مِمَّا يَتَعَلَّق بفعل الله كالعقوبة، أو بفعل الخَلْق كالقَدْح.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تَعَالَى يَصْطَفِي مِن عِبَادِهِ ما شاء، يَخْتَارُهم لعبادتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اختار، ومَن يختارُهُم هم الَّذِينَ قاموا بطاعتِه، فمن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه الله، ومَن عصى اللهَ فَهُوَ بعيدٌ منْ الِاصطفاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قيام الأفعالِ الاختياريّة باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن الاصطفاءَ مِنَ الأفعالِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قائمٌ به الأفعال الاختيارية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي تعليق الأحكام بأَسْبابها، فإن السلامةَ هنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١)، عن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معلَّقة عَلَى الاصطفاءِ، وهَكَذَا أحكام الله الكونيَّة والْقَدَرِيَّة كلّها مربوطة بأَسْبابها، وذلك لثبوتِ الحِكْمَةِ فِي أحكامِ اللهِ؛ إذ إنَّ الله لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الثَّناء عَلَى الْمُصْطَفين لسلامتهمْ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنّ ما جاءت به الرُّسُلُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نقصٌ، سواء كَانَ ذلك فِي الأحكام الشَّرْعِيَّة أو فِي الأخبارِ، فما أخبرتْ به الرُّسُلُ فَهُوَ حقّ، لَيْس فِيهِ كذِب، وما أمرتْ به أو نهتْ عنه فَهُوَ عدلٌ، لَيْسَ فِيهِ جَوْر ولا ظُلم؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أول من يدخل فِيهِ الرُّسُلُ؛ ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ فِي سورة الصافَّات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]، فسلَّم عَلَى الرُّسُلِ لسلامةِ ما قالوه منَ النقصِ والعيبِ، وهَكَذَا هنا ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن من قام بما يجبُ عليه منْ الِاجتهاد فأخطأ فلا إثمَ عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإذا اجتهد الْإِنْسَانُ فِي طَلَب الْحَقّ وتحرِّي الْحَقّ وأخطأ فلا إثمَ عليه فِي هَذَا الخطأِ؛ لِأَنَّهُ ما دام مُتحرِّيًا للحقِّ وطالبًا له وفاعلًا لأَسْبابِهِ فَهُوَ منَ العبادِ المصطَفَيْن، فإذا حَصَل عليه خَلَل فَهُوَ سالمٌ مما يَكُون بهَذَا الخطأ، وهَذَا يَشهَدُ له قول الرَّسُولِ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1].

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز المقارنةِ بينَ ما هُوَ خيرٌ مَحْض وما لا خيرَ فيه؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (٦٩١٩)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (١٧١٦)، عن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مراعاةً للخَصْمِ وإقامةً للحجَّة عليه؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، فإن من المعلوم أن الله خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولا مقارنةَ بينه وبينهم، لَكِنَّهُ يُخاطِب قومًا مشركينَ، إن كانتِ القراءةُ بالتاءِ؛ لِأَنَّ فيها قراءتينِ (أَمَّا تشركون) و(أَمَّا يُشْرِكون)، أو يتحدث عن قومٍ مشركينَ، فلهَذَا راعَى أحوالهم فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من أساليبِ المناظَرة إلزامَ الخَصْم بما يُقِرّ به؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا يمكن أَنْ يَقُولُوا: إن آلهتهم خيرٌ أبدًا، ولهَذَا أعقبها بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلخ [النمل:٦٠]، ممَّا هُوَ من أفعال الرُّبُوبِيَّة الَّتِي لا يمكِن لهم أن يَدَّعُوا أن آلهتهم تفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عَدْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي إقامةِ الحُجَّة عَلَى المعانِدِين؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؛ لِأَنَّهُ إذا وصلتِ الحالُ إِلَى هَذَا الأَمْرِ إِلَى أن يَقُول لهم: آللهُ خيرٌ أم أصنامكم، فيَكُون هَذَا من جملةِ ما يُقَال لهم، يَعْنِي: قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وقل أيضًا لهؤُلَاءِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

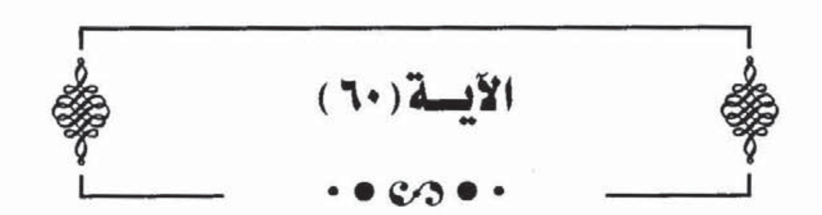
فيَكُون من جملة المقول، وهَذَا فِي غاية ما يَكُون منَ العدلِ وإقامة الحجَّة، وإلَّا فالله قادر عَلَى أن يدعَ هَؤُلَاءِ ويبين الحَقّ ولا حاجة إِلَى مناظرةٍ، ولكِن لإقامة الحجَّةِ عَلَى هَؤُلَاءِ ولكمالِ العدلِ فيما لو عُوقِبوا أن تكون عقوبتهم بَعْد إقامةِ الحجَّة فصار مثل هَذَا الكَلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخَيْرِيَّة المطلَقة فِي كُلّ شيءٍ، خِلافًا لَما مشَى عليه المُفَسّر حَيْثُ قَالَ: [﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لمن يَعْبُدُه]، فالصَّواب: آلله خيرٌ فِي كُلّ شَيْء، خيرية مطلقة فِي صفاته وَفِي أفعاله المتعلقة بعابديه.

الْفَائِدَة الخامِسَة عَشْرَة: بَيَان جواز إلزام الخَصْمِ بما لا يُمْكِنه إنكارُه؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَة عشْرَة: جوازُ المقارنةِ بينَ شَيئينِ لا يَختلِفانِ فِي المَعْنى من أجلِ إقامةِ الحُجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك بأن ما يشركون به مَعَ الله لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ما قَالَ: لا يَقضون بالحقّ، قَالَ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ يعني لَيْسَ لهم أيّ حُكْم وَلَيْسَ لهم أيّ سُلْطَة، إطلاقًا لَيْسَ فيها خير، فهي أحجار وأشجار لا يُنْتَفَع بها.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠].

•●○●•

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الآلهة خيرٌ لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾].

الجواب: بل من خلق السَّماوَات والْأَرْض، فَهُوَ خبر، وقوله: [الآلهة خيرٌ لعابديها]، نَقُول فيه مثل ما تقدَّم فِي قوله: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ]، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر مرَّةً ثانية، وهَذَا واضحٌ، وَعَلَى هَذَا فتكون (أم) مُتَّصِلَةً، والخيريَّة هنا مُطْلَقَة إذا صحَّ تقدير الْمُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ للإضرابِ وليستْ للمقارنةِ، ويَكُون السؤال اسْتِفْهامًا مُطْلَقًا، يعني يَقُول: من الَّذِي خلق السَّماوَات والْأَرْض أإله مَعَ الله؟

فيَكُون قوله: ﴿أَمَّنْ﴾: (أم) هَذِهِ للإضرابِ وليستْ متعلِّقةً بما سبقَ، فيَكُون تقدير الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فيَكُون الاسْتِفْهام هنا لَيْسَ للمعادلة، أَمَّا عَلَى رأي الْمُفَسِّر فجعل الاسْتِفْهام للمعادلة.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: (خلق) بمعنى أَوْجَدَ بتقديرٍ؛ لِأَنَّ الخَلْقَ لَا بُدَّ أن يسبقه تقدير، والإيجاد أعمُّ منه، فقد يوجد الشَّيْء بلا تقديرٍ، ولكِن الخلق لَا بُدَّ فِيهِ من تقديرٍ.

قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، بعضهم يَقُول: السَّماوَات ليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّهُ ما وقع عليها فعل الفاعلِ، إذ هِيَ لم توجد إِلَّا بفعلِ الفاعلِ، وإنما يقالُ: مَفْعُول مطلق وليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّ المَفْعُول به يَقتضي أن يَكُون ما وقع عليه الفِعْل سابقًا عَلَى الفِعْل، وهنا السَّماوَات ليست سابقةً عَلَى خلقه، وَعَلَى هَذَا فقلْ: إنَّهَا مَفْعُول ولا تقلْ: به، فقُلْ: مَفْعُول فقط، لا به ولا فِيهِ ولا معه ولا له؛ لِأَنَّ المفاعيـل خمسةٌ كمـا هُوَ معروفٌ؛ مَفْعُول غيـر معدّى بحـرفٍ، ومَفْعُول معدى بحـرف (الباء) أو بـ(في) أو بـ(اللام) أو بـ(مع).

أَمَّا المَفْعُول المطلَق فيَكُون بمعنى الفِعْل، مثل ضربتُ ضَربًا، ولا يعدَّى بالباء ولا بـ(فِي)، فهَذِهِ المفاعيل.

لكِن هَذَا فِي الحقيقةِ منَ الفلسفةِ الَّتِي لَيْسَ لها معنى؛ لِأَنَّ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معناها أوجدَ السَّمـاوَات، فالمَفْعُول به أو الفِعْل واقـعٌ عَلَى الإيجادِ، وإن كانـتِ السَّماوَات قبلَ الإيجادِ ليستْ موجودةً، فالإيجادُ سابقٌ عَلَى الموجودِ؛ لِأَنَّ به يَحْصُلُ الوجودُ، فلا حاجةَ إِلَى هَذَا التمحُّل، ونَقُول: وأيضًا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَفْعُول به، هم يَقُولُونَ: المَفْعُول به لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ سابقًا عَلَى الفِعْل: (ضربتُ زَيْدًا)، فزيدٌ سابِقٌ عَلَى الضربِ، (أكلتُ الطعامَ)، فالطعامُ سابقٌ عَلَى الأكلِ، (صنعتُ الطعامَ) حوّلته من حال إِلَى حال، أيضًا سابق عَلَى الطعام.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تُذْكَرُ بلفظ الإفرادِ والجمعِ

كثيرًا فِي القُرْآن، والأرض ما ذُكرتْ إلَّا بلفظِ الإفرادِ، إلَّا أن الله قَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وإلَّا فبقيَّة الآيات بل حَتَّى فِي هَذِهِ الآيَة ما ذُكرت إلَّا مفردةً، ولم يقل: (ومنَ الأَرَضين مثلهنّ)، لَكِنَّها وردتْ فِي السنّة مجموعةً ومبيَّن أَنَّهَا سبع.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: (ماء) هل هِيَ مَفْعُول أو مَفْعُول به؟ مَفْعُول به؛ لِأَنَّ الماء موجود.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ اللام للتعليل أو للإباحة، ولَكِنَّهَا للتعليل أبلغ؛ لِأَنَّهَا إذا كانت للتعليل شَمِلَتِ الإباحةَ وشَمِلَتْ ما يَكُونُ به النفعُ من هَـذَا الماء وإنْ لم يلامِسْها.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المُراد بالسَّماء هنا العُلُوّ، والدَّلِيل عَلَى ذلك أنَّ الماءَ هَذَا ينزل منَ السَّحابِ، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن المُرادَ بالسَّماءِ هنا العلوُّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا﴾ فِيهِ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى التكلُّمِ]، الغَيبة فِي قوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾، وهنا قَالَ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾، والالتفاتُ فِيهِ فوائدُ الانتباهِ لِئَلَّا يَنساب معه المخاطَب ويَغْفُلُ عنه، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حَدِيقة، وَهُوَ البُستان المَحُوط]، يعني الَّذِي عليه حائطٌ [﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ حُسْن]، فالبهجة بمعنى الحُسن؛ لِأَنَّ القلب يَبْتَهِجُ بها ويَنْشَرِح

بها الصدرُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ، لا سيما لِعُشَّاق الحدائقِ، وإلّا فبعض النَّاس لا يُهِمُّه سواء كَانَ فِي الحديقة ما يُبْهِج أو لا، لكِن عشّاق الحدائق يجدون لذَّةً عظيمةً فِي مثل هَذِهِ الحدائقِ الَّتِي بها هَذَا النبات العظيم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾: ﴿مَّا كَانَ﴾ بمعنى: مُمْتَنِع غاية الامتناع، وهي نظيرُ قولِه تعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، أي: مُمْتَنِع عليه، فـ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ لكم، وما أمكن لكم أن تُنْبِتُوا شجرها؛ لِعَدَمِ قُدْرَتِكُم عَلَى ذلك، لَيْسَ فِي مَقْدُورِكُم أنْ تُنْبِتُوا هَذَا الشجرَ.

فَإِذَا قَالَ مُجادِلٌ: بل فِي مقدوري، فآتي بنوى التمر وآتي بحبّ وأَحْرُث الْأَرْض وأضعه فيها.

قُلْنَا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، نعم أنت فعلتَ السَّبَب، لكِن هل خلقتَ هَذَا، هل فَلَقْتَ الحَبَّ والنوى؟ أبدًا.

وإذا جادل مجادِلٌ بمثلِ ذلكَ قُلْنَا له مثل ما قَالَ إبراهيمُ ﷺ للذي ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فنَقُول له: إذا كنتَ أنت فعلت هَذَا فهَذِهِ الشَّمْسُ تأتي منَ المَشْرِقِ فأتِ بها من المغربِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَءِلَٰهٌ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ فِي مواضعِهِ السبعةِ]، وأين مواضعه السبعة؟

فِي الآيات الآتية، هَذَا واحد، وننظر هل كلام المُفَسِّر صحيح أم لا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه عَلَى ذلك]، يعني أو انفردَ بشيءٍ منه، فالمعية هنا

تَقتضي -كما قَالَ المُفَسِّر- المُعَاوَنَة إذا كَانَ مصاحبًا له، أو الانفراد ببعض الخلق إذا كَانَ غيرَ مصاحبٍ له، هَذِهِ الحديقة مثلًا فيها نخل ورُمّان وعِنَب، هل مَعَ الله إلهٌ شاركه فِي إيجاد النَّخل والرُّمَّان والعِنَب، أو أوجد النَّخلَ واللهُ أوجدَ الرمانَ والعنبَ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

إِذَنْ: قول المُفَسِّر: [أعانه]، ينبغي أن يُقال: أوِ انفردَ بشيءٍ منها. وقلت ذلك لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هَذَا الانفراد، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هَذِهِ المشاركة عَلَى وجه الشيوع، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، هَذِهِ المعاونة، وإن لم يكن شريكًا، ما عاوَنُوا الله جَلَّ وَعَلَا. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ [سبأ:٢٣]، هَذَا التوسُّط للعابدين إِلَى الله، إذن بأي شَيْء يتعلقون؟ فإذا قَالُوا: إن آلهتهم لا تفعل.

قُلْنَا إِذَنْ: لماذا تعبُدُونها، فكل ما يمكن أن يتعلَّق به المُشْرِكُون بالنِّسبة لأصنامهم نُفِيَ فِي هَذِهِ الآيَة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ انظر بلاغة الْقُرْآن.

فالحاصل: أن قولـه: [﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه]، نَقُـول أيضًا: أوِ انفـردَ بشيءٍ أو شاركَ فِي مُلْكِه، فلا أعانَ اللهَ ولا شاركَهُ ولا انفردَ بشيءٍ مِن مُلْكِهِ، أي: لَيْسَ مَعَه إله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَعُونَةُ تدخلُ فِي المشاركة؟

فالجواب: لا؛ لأنك قد تُعينني مثلًا عَلَى إصلاح شيءٍ فِي بيتي وَلَيْسَ لك فِيهِ شركة، بل كلُّه لي.

وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا فِي قوله تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: [أي لَيْسَ معه إله]،

فالاسْتِفْهامُ إذن إنكاريٌّ للنفي، يعني لَيْسَ مَعَ الله إلهٌ فَعَلَ ذلك، فالمعبودات الَّتِي تعبدونها مَعَ اللهِ لم تفعلْ ذلك.

إِذَنِ: الواجب إفراد اللهِ تَعَالَى بالألوهيَّة، فعليه تكون الحُجَّة قد قامتْ عَلَى هَؤُلَاءِ بما أَقَرُّوا به من الرُّبُوبِيَّة، وكثيرًا ما يَسْتَدِلّ الله تَعَالَى بتوحيد الرُّبُوبِيَّة عَلَى وجودِ توحيد الألوهيّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ توحيد أُلوهيَّة ﴿رَبَّكُمُ﴾ هَذَا رُبُوبِيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يُشْرِكون باللهِ غيرَه]، ﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإضرابِ الانتقاليّ، لا الإبطاليّ، يعني بل هم مُقِرُّونَ بذلك، وَأَنَّهُ لا إله مَعَ الله، ولكِنّهم يَعْدِلون به غيرَه فيشركون، فصار فعلهم هَذَا لَيْسَ عن دليلٍ ولكِن لمجرَّد هوى، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تَعَالَى لا شريكَ له فِي خلق السَّماوَات والأَرْضِ وإنزال المطرِ وإنباتِ النباتِ به، وإنما يعدِلون بالله غيرَه فيشركونه مَعَ اللهِ لمجرَّد أهوائهم، أَمَّا أَنَّهُ عن دليلٍ عقليّ أو فِطريّ أو نقليّ فليسَ كذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ألا تحتمِل أَنَّهُم يَعدِلون عن عبادةِ اللهِ؟

الجواب: تحتملُ، لكِن ما قَرَّرَهُ المُفَسِّر أحسنُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، ولم يقلْ: عن ربِّهم يعدِلون، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ المُراد بالمعادلةِ هنا المساواةُ، أي: يساوون به غيرَه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان انفرادِ اللهِ تَعَالَى فِي خلق السَّماوَات والأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خلق السَّماوَات والأَرْض، يَتَضَمَّن إيجادهما وإيجاد ما فيهما منَ المنافع،

فلا أحدَ يستطيع أن يغيِّر شيئًا من خلق السَّماوَات والْأَرْض، لا من الشَّمْسِ ولا من القمرِ ولا من النجومِ ولا من غيرها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ المخلوقات من منافعِ الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان حكمة الله تَعَالَى فِي إنزالِ المطرِ من فوقُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِأَنَّ نزولَه منَ السَّمَـاء أعمُّ وأقلُّ ضررًا؛ إذ لو كَانَ يخرج من الْأَرْض ما وَصَلَ إِلَى قِمَم الجبالِ إِلَّا وقد أغرقَ ما تحته، فلهَذَا صار ينزِل من فوق ليَكُونَ أكملَ وأعمَّ وأقلَّ ضررًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان رحمةِ الله فِي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لِأَنَّ اللام هنا للتعليلِ، أي: لأجلكم، وهَذَا من رحمتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ غنيٌّ عنَّا ولكِنَّنَا نحنُ مُفْتَقِرُون إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَشْيَاء ينبغي أن تُضافَ إِلَى المسبِّب لا إِلَى السَّبَب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ فأضاف الإنبات إِلَى الله، مَعَ أن النبات يحصُل بالمطرِ، ولكِن المنزِل هُوَ الله، ولهَذَا ينبغي للإِنْسَانِ أن يضيفَ الشَّيْء إِلَى المسبِّب الخالقِ مُشيرًا إِلَى السَّبَب، كما يَقُول العُلَماء عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَدَى اللهُ به منَ الضلالةِ، وأنقذَ به مِنَ الهَلَاكِ، وبصَّر به مِنَ العَمَى، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإضافةُ الشَّيْءِ إِلَى المسبِّب للإشارةِ إِلَى بَيَان السَّبَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأَسْبَاب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ لِأَنَّ الباء للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الحِكْمَة؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبطَ الأَسْبَاب بِمُسَبّباتها، وهَذَا من الحِكْمَة ألا تأتيَ الأُمُور عَلَى وجهِ المصادفاتِ أو بدونِ أَسْبابٍ تَقتضيها، فإثباتُ الأَسْبَاب يَتضمَّن إثبات الحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيه أيضًا التنـزُّه فِي الحدائقِ والابتهاجُ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وأن الْإِنْسَان ما يُلام إذا قَالَ: نريد أن نتفرَّج عَلَى ما أخرجَ الله منَ المَطَرِ من هَذِهِ الحدائقِ والبساتين؛ فَإِنَّهُ لا يُلامُ عَلَى ذلك، لا يُقَال: هَذَا من فضول الأفعالِ؛ فإن النفس إذا لم تُمَرَّنْ عَلَى هَذَا وهَذَا فإنها تَمَلُّ وتكِلُّ ولا تأتي بالأُمُور عَلَى وجهها، والنَّاس أيضًا يختلفون فِي هَذَا؛ فمنهم من يَكُون من ضروريَّات الحياة له أن يَتَنَزَّه أحيانًا، ومنهم من لا يَهتمُّ بذلك، ومنهم من يجعل دَيْدَنَهُ دائمًا هُوَ التنزُّه واللَّهو واللَّعِب ويُعْرِض عمَّا خُلِقَ له بما خُلِقَ له.

فالحاصل أن نَقُول: إن قوله تَعَالَى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فِي سياق الامتنانِ، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ لا مانعَ أن الْإِنْسَان يرتاد هَذِهِ الحدائـقَ لأجل أن يَبْتَهِجَ بها، لكِن بشـرطِ ألا تشغلَه عن ذكر الله وطاعتِه وعمَّا هُوَ أهمُّ من ذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ إِنْسَان لَيْسَ ممَّن يَهْوَى النظرَ إِلَى هَذِهِ النعمِ فهل يُعتبَر منَ الفضولِ اشتغاله بها؟

نعم، منَ الفضول، لكِن لا بأس أن يَشتغل بها، ولو ضيَّع الوقت فِي غير هَذَا قُلْنَا له: لا يَنبغي، لكِن لو أنني أُحبُّ هَذَا الشَّيْء وأبتهِجُ به وأُسَرّ وأُسَلِّي نفسي به؛ لا نَقُول: هَذَا من إضاعة الوقت ما لم يَشْغَلْ عن ذِكْرِ الله، وإذا أراد التفكُّر فِي آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ صار عبادةً.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الخلق لا يمكنهم أن يَخْلُقُوا ولا شجرةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لِأَنَّ (ما كان) بمعنى لا يمكن ولا يَصِحّ، فَهُوَ منَ المستحيل، ونظيرُهُ قوله تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، فتجد الخلق مَعَ قُدْرَتِهِم الصناعيَّة لا يمكن أن يَخْلُقُوا شجرةً، ولا شجرة صغيرة، وإلى الْآنَ وإلى

ما بَعْد الْآنَ لا يُمْكِنُهم ذلك، كما أَنَّهم لا يمكنهم أنْ يُحْيُوا إِنْسَانًا ولا يمكنهم أن يمنعوا خروجَ نفسِهِ عندَ خُرُوجِها.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نجدهم الْآنَ يُعالِجون المرضى المُزْمِنِينَ ثُمَّ يَشْفُونَ، فما الجواب؟

الجواب: نَقُولُ: مثل هَذَا لا يَعْدُو أن يَكُون سببًا، قد يَنْفَع وقد لا ينفع، قد يعارضه مانع حضور الأَجَل، وإذا حضرَ الأجلُ بَطَلَ مَفْعُوله فلا ينفع، نحن لا نُنْكِر الأَسْبَاب ولَكِنَّنَا نُنْكِر أن تكون هَذِهِ الأَسْبَاب موجِبَةً لِمُسَبَّباتها، فلا تُوجِبها؛ لِأَنَّهَا قد تُفِيدُ وقد يوجد مانعٌ، وَلَيْسَ هَذَا خاصًّا بِهَذِهِ المسألةِ، فكُلّ الأَسْبَاب قد يوجدُ فيها مانعٌ أَقوى مِنْهَا فيمنع من نُفُوذِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تحدِّي هَؤُلَاءِ المتَّخِذِين آلهةً مَعَ اللهِ أن يَكُون لآلهتهم شيءٌ من هَذَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فإن هَذَا تحدٍّ عظيمٌ ولا يستطيعون أن يُثْبِتُوا ذلك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إقامة الحُجَّة عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ المشركينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلُون باللهِ غيرَه، وَلَيْسَ المُراد العَدْل الَّذِي هُوَ ضدُّ الظُّلم، إذا كَانَ هَذَا هُوَ المُراد لكان هَؤُلَاءِ مَمْدُوحِينَ بما هم عليه، ولكِن المُراد يَعْدِلون باللهِ غيرَه، ويجعلونه عديلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومُساويًا له.

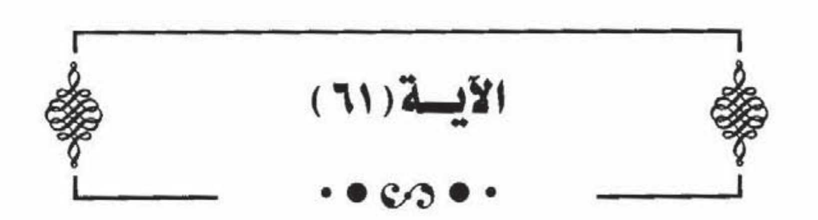
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ما أشرنا إليه كثيرًا من أنَّ الكلمات لَيْسَ لها معنًى داخليٌّ، بل معناها يحدِّده السياق؛ لِأَنَّ كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لو كَانَ لها معنى ذاتيّ لكانت هنا بمعنى: لا يَجُورُونَ؛ لِأَنَّ المفهوم من هَذَا الفِعْل أَنَّهُ العدلَ بمعنى إعطاءِ كُلّ ذي حقٍّ حقَّه، والأَمْر هنا لَيْسَ كذلكَ، بل هَذَا ظُلم أن يعدِلوا باللهِ غيرَه، وبهَذَا التقرير الَّذِي حَرَّرْنَاهُ يَتَبَيَّن رُجحانُ كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ

مَجاز[1]، وهَذَا من المعلومِ.

ومن المعلوم أيضًا أن فِي المسألة ثلاثة أقوال: إثبات المجاز فِي اللُّغة والْقُرْآن، ونفيه فيهما، وإثباته فِي اللُّغة دون الْقُرْآن، والصَّواب: أَنَّهُ لا مجاز لا فِي اللُّغة ولا فِي الْقُرْآن، وأن كُلّ ما ادُّعِيَ أَنَّهُ مجاز فَإِنَّهُ حقيقة فِي موضعِهِ.

• ● ۞ ● •

(١) سبق ذكر المصدر.



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

•●○●•

على تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَقُول: (آلآلهة خيرٌ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قرارًا).

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: ﴿جَعَلَ﴾ فعلٌ ماضٍ يَنْصِب مَفْعُولينِ: الأول: الْأَرْض، والثاني: قرارًا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَرَارًا﴾ لا تَميدُ بأهلها]، لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا، لا سِيَّما وأنها مُرَكَّبَةٌ عَلَى الماءِ، فالماء محيطٌ بها من كُلِّ جانبٍ، ولو أنك وضعتَ كُرَةً فِي ماء فإنها لا تَسْتَقِرّ، بل تَتَقَلَّب وتَتَمَوَّج.

ولكِن الله تَعَالَى جعلَ هَذِهِ الْأَرْض كرةً فِي وسط ماء؛ لِأَنَّ البحار تمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسةِ، ومع هَذَا فإنها مُنْضَبِطَةٌ تمامًا لا تَميد ولا تَتَقَدَّم إِلَى ناحيةٍ ولا تتأخّر عنها ولا تَتَدَحْرَج فِي هَذَا الماء، فجعلها الله تَعَالَى قرارًا، والقرارُ مَوْضِع الاستقرارِ.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تميد بأهلها]، والمَيَدَان معناه الاضطرابُ، ما أحد جعلَ الْأَرْضَ قرارًا إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يستطيعُ أحدٌ أَنْ يقومَ بذلكَ، ولهَذَا إذا جاءتِ الزلازلُ لا يستطيع هَؤُلَاءِ بجميعِ قواهم أَنْ يَمْنَعُوا رَجَّة الْأَرْض، بل ولا يَعْلَمُون متى تكون هَذِهِ إِلَّا إذا ظهرتْ بَوَادِرها ولو خَفِيَّة وتُعْلَم حينئذٍ بالآلاتِ الدقيقةِ.

فإذَنْ: لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا بأهلها إِلَّا خالق الْأَرْض، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿قَرَارًا﴾ استدلّ به مَن يَقُول: إن الْأَرْض تدور ومن يَقُول: إن الْأَرْض لا تدور؛ الَّذِي يَقُول: إن الْأَرْض لا تدورُ يَقُول: لِأَنَّهَا مَعَ الدَّوَرَان ليست بِقَرَارٍ، لو كانت تدورُ لاستدارتْ رُؤُوسُنا. وَالَّذِي يَقُول: إِنَّهَا تدور يَقُول: لولا أن هناك حركة ما نُفِيَ المَيَدَان، فنفيُ الأخصِّ يَقتضي وجودَ الأعمّ، مثلما أنكم استدللتم بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، استدللتم بها عَلَى أَنَّ الله يُرى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ لا يُرى ما صحَّ أن يقولَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ لقالَ: لا تراه. قال تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]، فلولا وجود حركة ما صحَّ نفي المَيَدَان؛ لِأَنَّ ما لا يَتحرَّك لا يُتوَقَّع منه المَيَدَان، وإنما توقّع الميدان لما يَتحرَّك، وَعَلَى هَذَا فنَقُول: إن فِي الآيَاتِ دليلًا عَلَى أن الْأَرْض تدور.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: لا تدور، يَقُولُونَ: إن نفيَ المَيَدَان صحيحٌ يَدُلّ عَلَى حركةٍ، لكِن هل هُوَ يَدُلّ عَلَى حركةٍ موجودةٍ بالفِعْل أو يدلّ على حركةٍ متوقَّعة، بمعنى أَنَّهُ لولا هَذِهِ الجبالِ لكانتْ تَضْطَرب؛ حَيْثُ إِنَّهَا فِي الماء، ولكِن لمّا وُجِدَتْ هَذِهِ الجبالُ أَمْسَكَتْها وكانت لها رواسيَ بمنزلةِ أطنابِ الخيمةِ.

وفِي الحقيقةِ أن هَذَا الأخيرَ ردٌّ واضحٌ عَلَى الأوَّل، وَأَنَّهُ لا يلزم من مجرَّد الحركةِ الدَّورانُ، فنحن نَقُول: نعم الْأَرْض يمكن أن تتحرَّك، ولولا هَذِهِ الجبال لمادَتْ؛ لِأَنَّهَا فِي ماءٍ، فكُرَةٌ فِي ماءٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَرَّك، والماء كما ترونَ تَضْرِبه الرِّيَاح فلَا بُدَّ أن يَكُون فِيهِ أمواجٌ عظيمةٌ مثل الجبالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠]، هَذِهِ الأمواج العظيمة إذا ضَرَبَتِ الْأَرْضَ لولا وجود الجبالِ المُرْسِيَة لمادتْ

عَلَى كُلّ حالٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأمواج ليستْ هيِّنة.

فالحاصل: أن الآيَة لَيْسَ فيها ما يُقَـرِّرُ أن الْأَرْض تدورُ، وفيها ما يقـرِّر أن الْأَرْض لَا شَكَّ أَنَّهَا تَضْطَرِب لولا وجود هَذِهِ الجبال.

ثم تبقى مسألة الدَّوران، ولا دليل عليها من الْقُـرْآن، يَعْنِي: لا دليل يُثْبِتـها ولا دليل يَنفيها، فإذا ثبـتَ ذلك بالأدلَّة البيِّـنة فإنَّنا نُؤْمِن به؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان المؤمن لا ينكر المحسوسَ أبدًا، بل إذا أنكرَ المحسوسَ كَانَ ذلكَ طعنًا فِي فَهْمِه وَفِي تصوُّره، وما دام أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآن ما يَنفي ذلك ولا ما يُثْبِتُه فموقفنا نحنُ الوقوفُ حَتَّى يَتبيَّنَ لنا الأَمْرُ، فمَن زعمَ أن الأَمْرَ قد تبَيَّن له وَهُوَ منَ المُسلِمينَ وقال: أنا أعتقد ذلك لا ننكر عليه؛ لأَنَّنا لَيْسَ عندنا دليل حَتَّى ننكر عليه، وكذلك مَن قَالَ: أنا لا يَتبيَّن لي.

والحمدُ للهِ حَسْبُنا أن نَقُولَ: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، وكونها تدور أو لا تدور هَذَا أمرٌ ما يعنينا، فما يعنينا أنَّ المصالحَ الْآنَ -وللهِ الحمدِ- مُرَتَّبَة عَلَى تعاقُبِ الليلِ والنَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، ومعنى ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيمـا بَيْنَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾]، أنهارًا ظاهرةً عَلَى ظهـرِ الْأَرْضِ وأنهارًا داكنـة فِي جوفِ الْأَرْض؛ فإن الله تَعَالَى أخبر بأن هَذَا المطرَ يَسْلُكُه الله تعَالَى ينابيعَ فِي الْأَرْض، وهَذَا شَيْء مشاهَد، فالَّذِينَ يَحْفِرون الْأَرْض يجدون أن فيها أنهارًا تجري، ويَرَوْنَهَا عيونًا تجري فِي باطنِ الْأَرْضِ وتَصُبّ حَيْثُ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ تَصُبَّ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذِي جَعَلَ خِلالَ الْأَرْضِ هَذِهِ الأنهارَ، ولوِ اجتمعـتِ الأمَّة كلها بجميع قواها وقُدَرِها عَلَى أن تُجريَ نهرًا واحدًا من هَذِهِ الأنهار ما استطاعوا

إِلَى ذلك سبيلًا، فالذي جعلَ هَذِهِ الأنهارَ رحمةً بالعبادِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالًا أثبتَ بها الأَرْض]، ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: صَيَّرَ لها رواسيَ، يَقُول المُفَسِّر: [جبالًا أثبت بها الأَرْض] فواعل جمع فاعل، أي: راسٍ، وَكَأن المُفَسِّر هنا يشير إِلَى أن راسيًا بمعنى مُرْسِي، وفرقٌ بين الراسي والمُرْسِي، الراسي يعني بنفسِه والمُرْسِي لِغَيْرِهِ، هَذِهِ الجبالُ يعبِّر الله عنها في آيَاتٍ عديدة بأَنَّهَا رواسٍ، وقال فِي سورة النازعات: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣٢].

وهل المُراد أرسى الأَرْضَ بها أو أَرْسَى الجبالَ أي أَثْبَتَهَا؟

كِلا المعنيينِ، فإذن هِيَ رواسٍ بِنَفْسِها، وهي أيضًا مُرْسِيَة، ولِهَذَا سمّاها الله أوتادًا: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، بمنزلة أوتاد الخيمة تُمْسِكها وتَضْبِطها، وهَذِهِ الجبال راسية بنفسها، ولذلك عَلَى كثرة العواصفِ والقواصِفِ تجدها ثابتةً لا تتغيّر، فهي راسيةٌ وكذلك أيضًا مُرْسِية لِلْأَرْض، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، فهي راسية مُرْسِيَة.

والَّذِي جعل هَذِهِ الرواسيَ هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فلوِ اجتمعتِ الخلائقُ كلها عَلَى أن تُثْبِت جبلًا من مثل هَذِهِ الجبالِ الكبيرةِ ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا إلهَ مَعَ اللهِ؛ كما يأتي تقريره فِي آخر الآيَةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بينَ العَذْبِ والمِلْحِ، لا يَخْتَلِط أحدهما بالآخَرِ]، ﴿حَاجِزًا﴾ أي: مانعًا، والمُراد بالبحرينِ العذبُ والمِلح.

ثُمَّ كيف يَكُون هَذَا الحاجز؟

بعضهم قَالَ: إِنَّ الحاجزَ هُوَ اليابسُ مِنَ الْأَرْضِ الَّذِي يَحُولُ بينَ البحرِ وبين

النهرِ؛ لِأَنَّ النهر له مَجْرى خَاصّ والبحر له مجرى خاصّ، ولو شاءَ الله تَعَالَى لمَزَجَهُمَا، ولكِن جعل لهَذَا مجاريَهُ وجعل لهَذَا مجاريَهُ.

وبعضهم يَقُول: إِنَّهُ حاجزٌ غير مرئيٍّ، وَلَيْسَ هُوَ اليابسَ، وَإِنَّهُ يوجد فِي نفس البحارِ أنهارٌ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ، ومع ذلك لا تَخْتَلِط فتفسد بالمِلح ويفسد المِلح بها؛ لِأَنَّهُ لو اختلطَ الحلوُ بالمالحِ لفسدَ الهواء وأنتنَ وأوجد احمِرارًا كما نشاهِد الْآنَ فِي المستنقَعَات الَّتِي تأتي من السيولِ إذا مرَّ عليها وقتٌ يتغير بها الجو والهواء ويتولد مِنْهَا أَشْيَاء كثيرة مؤذِيَة ضارَّة، بينما البحار العظيمة لا يؤثِّر فيها هَذَا، بما أودعَ الله تَعَالَى من هَذَا المِلح الَّذِي يقتُل الجراثيمَ ويمنع فسادَ الهواءِ، فلوِ اختلطتْ هَذِهِ بهَذِهِ أفسدَ كُلٌّ منهما الآخَرَ، لَكِنَّهُ جعل بينهما حاجزًا.

فالمهمّ هل هَذَا الحاجزُ أمرٌ محسوسٌ وَهُوَ اليابسُ منَ الْأَرْض الَّذِي يَكُون بين هَذَا وهَذَا، أو هُوَ حاجزٌ غيرُ محسوسٍ، كما يشاهَد فِي الأنهارِ الَّتِي فِي وسط البحارِ؟

لنا أن نَقُولَ بالأَمْرينِ؛ حاجز محسوس وحاجز غير محسوس، وقد أخبرني الشبابُ أَنَّهُم دائمًا إذا جَزَرَ البحر بَعْد امتدادِهِ يَجِدُون فِي الْأَرْض الَّتِي يدخل مِنْهَا الماء عُيُونًا حُلوة جدًّا، وأخبروني أيضًا أَنَّهُم يَسْتَسْقُون من هَذِهِ العيونِ فِي وسطِ البحرِ، فيُنْزِلون أفواهَ القِرَب ويجعلونها عَلَى العينِ حَتَّى تَمْلَأَهَا، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ جعل بين هذينِ البحرينِ -وكلٌّ منهما ماء- حاجزًا ومنعَ اختلاطَ أحدهما بالآخَر.

وبعض النَّاس يَقُولُونَ: إن الحاجز هُوَ ما يوجد فِي مَصَبِّ النهرِ، وهَذَا عندي فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ مَصَبَّ النهر إذا اندفعَ يفرِّق الماء المالِحَ فتجده مثلًا قد صَبَّه إِلَى مسافةٍ حَسَب اندفاع النهرِ، لكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ هَذَا أمر محسوس، أَمَّا الشَّيْء

الَّذِي من آيَاتِ اللهِ وَهُوَ غير محسوس فَهُوَ هَذِهِ الأنهار الَّتِي توجد فِي البحار.

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجواب: لا، لا إلهَ مَعَ اللهِ، والاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ.

قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني الأَمْر واضح وبَيِّن لكِن أكثر هَؤُلَاءِ لا يعلمون، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [توحيده]، هُوَ قصورٌ، والصَّواب أَنَّهُ نقص فِي العلمِ مطلقًا، بما تدلُّ عليه هَذِهِ الآيَات العظيمة من الرَّحْمَة والحِكْمَة والقُدرة والسُّلطان، فتخصيص ذلك بالتَّوحيدِ فِيهِ نظرٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُفهَم منه أن بعضهم يَعْلَم ولكِنه معاند وكابر، ومَن عَلِمَ وجَحَدَ فَهُوَ أشدُّ لومًا وتوبيخًا.

ثُمَّ اعلمْ أن نفيَ العلمِ قد يُراد به نفيُ حقيقةِ العلمِ، بحيث لا يَكُون الْإِنْسَان عالمًا، وقد يُرادُ به نفيُ الانتفاعِ به؛ فإن مَن لا يَنْتَفِع بعِلْمِهِ فَهُوَ كالجاهِلِ، بل هُوَ شرٌّ منه، وَفِي الْقُرْآن أمثلة كثيرة حيثُ يُراد بنفيِ الشَّيْء نفيُ فائدته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، وقال تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، مَعَ أَنَّ نُورَهم قويّ وآذانهم قويَّة السمع، ولكِنهم من أجلِ عدمِ الانتفاعِ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ صاروا كالفاقدينَ لها، فهنا نفيُ العلمِ إنْ كَانَ المُرادُ به نفيَ وجودِ العلمِ فالأَمْرُ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جاهلٌ لا يفكِّر بِهَذِهِ الآيَات ولا يَستدِلّ بها عَلَى حالته أو عَلَى مَن هُوَ آيَة له، وإن كَانَ المُراد بذلك نفي فائدة العلمِ فَهُوَ أيضًا واقع، ودائمًا يُنفَى الشَّيْء بانتفاء فائدته وثمراته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نعمة الله تَعَالَى بجعل الْأَرْض قَرارًا لأهلها، واستدلَّ بها بعضهم عَلَى أن الْأَرْض تدورُ؛ لِأَنَّ كونها قرارًا مَعَ عدمِ الدَّورانِ لا يَتبَيَّنُ فِيهِ تمامُ القُدرةِ والنعمةِ، وإنما يَتبَيَّن ذلك فيما إذا كانت دائرةً، وهَذِهِ الفائدةُ يُناقَش فيها وغيرُ مُسَلَّمَة؛ لأَنَّنا نَقُول: لا يَلْزَم من المَيَدان الدَّوران، وحقيقة أَنَّهَا لو لا أن الله جعلها قرارًا لكانت تَميد بأهلها، وَأَمَّا أَنَّهُ يَلْزَم أن تكون تدور فهَذَا لَيْسَ بلازم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما أنعمَ الله به عَلَى العبادِ مِن هَذِهِ الأنهارِ المُتَخَلِّلة للأرض ظاهرًا وباطنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما أنعمَ الله به فِي هَذِهِ الرواسي الَّتِي هِيَ الجبالُ الَّتِي هِيَ راسيةٌ بنفسها مُرْسِيَة للأرضِ أيضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾ [الرعد:٣]، وَفِي سورة فُصِّلَتْ قَالَ: ﴿رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ [فصلت:١٠].

قَالَ أهل العلم البَيولوجِيُّون: إن كون هَذِهِ الرواسي -أي كون الجبال المُرْسِيَة للأرضِ- من فوقها دون أن تكونَ من أسفل -أي: فِي باطن الْأَرْض- فِيهِ فوائدُ كثيرةٌ وعظيمة؛ فوائد للطقسِ وفوائد للنباتِ وفوائد للمعادِنِ، إِلَى غيرِ ذلكَ ممَّا هُوَ معلومٌ عند أهلِ العلمِ بذلك، يَقُولُونَ: وأنت إذا نظرتَ إِلَى سلاسلِ الجبالِ الَّتِي عَلَى البحارِ عَرَفْتَ بها قَدْرَ هَذِهِ النعمةِ العظيمةِ، لا سيما ما يأتي من الجهاتِ الباردةِ، حَيْثُ هَذِهِ الرواسي تَصُدُّ تلك الرياحَ الباردةَ الَّتِي تضرُّ.

فالمهمُّ أن فيها فوائدَ عظيمةً؛ لِكونها من فوق الْأَرْض، ولكِن هَذَا لم يُذْكَرْ هنا وإنما ذُكِرَ فِي سورة فُصِّلَتْ.

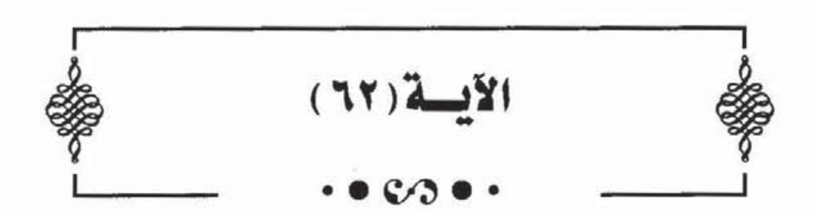
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان قُدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حيث جعل بين البحرينِ حاجزًا، والبحرانِ هما العذبُ والمالِحُ. وهَذَا الحاجزُ هل هُوَ مشهود أو مذكور؟

فِيهِ احتمال، بل إننا نَقُول: عامٌّ، يشمل المشهودَ والمذكورَ، وإن لم يُشهدْ، فإنَّ الأنهارَ هَـذِهِ جعل الله بينها وبين البحار حواجزَ طبيعيةً؛ كالْأَرْض، وحواجز غير معلومة لَكِنَّها مذكورة، فإن فِي جوف البحارِ المالحة أنهارًا عذبة وعيونًا عذبة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدرة الله ومِنَّتِه أيضًا بجعلِ الحاجزِ بين هذين البحرينِ؛ لِأَنَّهُ لو اختلطَ ماء بعضهما ببعض لأفسدَ أحدُهما الآخرَ وضاعتْ منافعهما.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثر الخلقِ لا يعلمون ما فِي هَذِهِ الآيَاتِ مِنَ العِبَر، ثُمَّ إنَّ نفيَ العلمِ كما تقدَّم قد يَكُون نفيًا لأصلِهِ وقد يَكُونُ نفيًا لثمرتِهِ وفائدتِهِ، والأَمْرُ كلُّه واقعٌ، فمِنَ النَّاس مَن لَيْسَ عنده علمٌ أصلًا ولا يفكر فِي هَذِهِ الآيَاتِ، ويرى أَنَّهَا ظواهرُ طبيعيةٌ، وَلَيْسَ للهِ تَعَالَى فيها أيّ شأنٍ، ومنهم مَن يعلم ولكِن لا يَنتفِع.

• • ۞ • •



الآية (٦٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المَكْرُوب الَّذِي مَسَّهُ الضُّرُّ ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾]، عندنا ﴿أَمَّن﴾: (أم) متصلة بـ(من)، وهَذَا عَلَى خلافِ القَاعِدةِ المعروفةِ، فالقاعدة المعروفة: أَنَّك تَفصِل (أم) وحدَها و(مَنْ) وحدها، لكِن كما هُوَ معروف أن الرسمَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الرسم العُثمانيّ، اصطلاح قديم، وفيه فائدة: عَلَى قراءة (أَمَنْ خلقَ السَّماوَات)، لو كانت (أمْ مَن) عَلَى الرسم المعهودِ لم تتناسب القراءتانِ:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ	وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمالًا يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادًا هُوَ الْقُرْآنُ	فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانُ[1]

فالقراءاتُ السبعُ كلُّها مُتَّفِقَة بما دلَّ عليه هَذَا البيتُ، فلو كانت (أمْ مَنْ) فلا تتناسب فِي الرسم مَعَ (أَمَنْ)، ولذلك صارت (أَمَّنْ).

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: (مُضْطَر) هل هِيَ اسْم فاعلٍ أو اسْم مَفْعُول؟

(١) طيبة النشر، البيتان (١٤، ١٥).

اسم مَفْعُول بلَا شَكّ؛ لِأَنَّ معنى مضطر أي ألجأته الضَّرورَةُ، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ اضطرَّ غيرَه، فإذا جعلنا (مضطر) اسْم فاعل صارَ بمعنى مضطرّ لغيرِه، والأَمْرُ ليس كذلك، بل المُراد مَن أصابته الضَّرورَةُ، ولهَذَا تجد فِي القُرْآن: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، اضْطُرِرْت مبنيّ للمَفْعُول، ما قَالَ: إِلّا ما اضْطَرَرتم.

وعلى هَذَا يُقَال أيضًا: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام:١٤٥]، يَعْنِي: ألجأتْه الضَّرورَةُ، وهنا ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ اسْم مَفْعُول، ولا تصحُّ أن تكون اسْم فاعلٍ؛ لِأَنَّ المُراد به من ألجأته الضَّرورَة إِلَى دعاءِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهناك أمثلة كثيرة مِنْهَا (مختار) هل معناه اختارَه غيـرُه أو اختار غيـرَه؟ من حَيْثُ الوضعِ البنائيّ يَصِحّ ويمكن، لكِن السياق يعيِّن، وذلك أن أصل مختار اسْم الفاعلِ منه مُخْتَيِرٌ، واسم المَفْعُول مُخْتَيَرٌ وكلاهما لَا بُدَّ أن نقلبَ الياء ألفًا؛ لِأَنَّهَا متحرِّكة مفتوحٌ ما قبلها، والياء المتحـركة المفتوح ما قبلها يَجِب قلبها ألفًا، وأيضًا (محتاج) لا ندري هل هُوَ محتيج أو النَّاس يَحتاجون إليه، وأيضًا مضطرّ لا ندري هل هُوَ نفسه ألجأته الضَّرورَة أو أَنَّهُ هُوَ يضطرُّ النَّاس.

عَلَى كُلّ حالٍ: الَّذِي يعيِّن هَذِهِ المعانيَ هُوَ السياق.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ما قيَّد بالمُسْلِم، والله تَبَارَكَوَتَعَالَى يجيـب دعوةَ المضطرّ ولو كَانَ كافرًا؛ لِأَنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ[1]، وهاهنا داعيانِ لَا بُدَّ أن يُجابا: المضطر والمظلومُ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، حديث رقم (٧٠١٥)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٢٧٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

حِجَابٌ»[١] لِأَنَّ هَذَا هُوَ مقتضى عدل الله؛ إجابة المظلومِ فِي دعائِه عَلَى الظالمِ، لَيْسَ من أجل محبَّة المظلوم، ولكِن من أجلِ إقامةِ العدلِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، ولهَذَا المظلومُ والمضطرُّ تُجابُ دعوتهما، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فيجيب دعوتهم، مَعَ أَنَّهُ يعلم أَنَّهُم سيكفرون إذا نزلوا، لكِن الضَّرورَة يجيب الله تَعَالَى بها الدَّعْوَة.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الجواب: اللهُ، وهَذِهِ الأصنام لا تجيب دعوة المضطرّ، ولكِن قد يجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سببًا مقارِنًا فيَفْتِن بها العابدَ، ربما يدعو الْإِنْسَان رسول الله ﷺ أن يكشفَ ضُرَّه، ويقدِّر الله تَعَالَى سببًا مقارنًا لهَذَا فيشفى المريضُ فيُفْتَتَن الداعي بأن الَّذِي أجابَ دعوتَه وشفَى مريضَه هُوَ الرَّسُول ﷺ، وهَذَا شَيْء مشاهَدٌ، فمِن المشاهَد أن الله تَعَالَى قد يَفتِن العبدَ، وإلا فنحن نعلمُ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، ونعلم عِلْم الْيَقِينِ ويجب علينا أن نؤمِنَ بذلك؛ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، يَعْنِي: كونك تدعو الرَّسُول لِيَكْشِفَ عنك الضرَّ لا ينفع قطعًا، فإن قُدِّرَ أن أحدًا ابتُلِيَ بمثل هَذَا فنعلم أَنَّهُ بسببٍ آخرَ مقارِنٍ.

والَّذِينَ يُحدِّثوننا أصحاب الخُرافات بمثل هَذَا، يَقُول القائل: ونحن متجهون إِلَى المَدِينَة فِي السنة الماضية أقبلنا عَلَى الرَّسُولِ الحبيب ﷺ... نوافق عَلَى هَذَا، قَالَ: كاشف الغَمّ ومُبْرِئ المرضى، قُلْنَا: لا نُوافِقُك عَلَى هَذَا، قَالَ: لماذا؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، حديث رقم (٢٣١٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قُلْنَا: هَذَا لا يفعله إِلَّا الله، قَالَ: لا، يوجد واحد أُصيب بِبَطْنِه مَرَض بطنٍ -مُبْطُون- وَإِنَّهُ ذهب إِلَى جميع الأطبّاء فلم يُفَدْ، فقال: ما لي إِلَّا أن أتوجَّه إِلَى الحبيب، فتوجه إِلَى الحبيب، فلما بلغَ مشارفَ المَدينَة دعا: يا رسولَ اللهِ أنقِذني. يَقُول: فما دخلَ المَدينَةَ إِلَّا وقدْ بَرِئَ بطنه تمامًا.

هَذِهِ القصة أنا ما أقول: إنَّهَا كذِب، قد تكون صِدقًا، وقد تكون مما تناقله النَّاس وهي لا أصلَ لها، لكِن أقول: إن هَذَا منَ الفِتَنِ العظيمةِ الَّتِي قد يُبْتَلَى بها المَرْءُ، وقد تَقَدَّمَ الَّذِينَ اطَّيَّروا بصالحٍ، وقُلْنَا: إن اللهَ قد يُقَدِّر أَشْيَاءَ بأَسْبابٍ مقارنةٍ لشيءٍ فتُنْسَب إِلَى هَذَا الشَّيْءِ ظاهرًا وليستْ منه لَكِنَّها ابتلاءٌ، فهَذِهِ منْ الِابتلاء الَّذِي يَبتلي اللهُ به مَن يشاء من عِبادِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يدعون الرَّسُولَ قد يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النِّساء:٦٤]، كيف الجواب عن هَذِهِ الآيَة؟

الجواب: الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ ولم يقلْ: (إذا) ظَلَمُوا، فـ(إذ) هَـذِهِ لما مَضَى، وهي تشير إِلَى قضيَّة معيَّنة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْد مَوْتِهِ لا يُمْكِن أنْ يَستغفرَ لأحدٍ، والحمد لله الآيَةُ لَيْسَ فيها دليلٌ، وهَذِهِ القصَّة لو فُرِضَ أن السند صحيح إِلَى هَذَا الرجلِ؛ فمَنْ هَذَا الرجلُ وما مدى أمانته وعدالته، فكلها كذِب موضوع، المهمّ أَنَّهُ لا أحدَ يجيب المضطرَّ إذا دعاه إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هل نَقُول: هَذَا مقيَّد بما إذا دعاه، يَعْنِي: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا لا يزيل الضَّرورَةَ إِلَّا عند الدعاءِ؟

الجواب: لا، لكِن لِأَنَّ الكَلامَ فِي الإجابةِ، ولا إجابة إِلَّا بعدَ دعاءٍ، ولهَذَا إزالةً للتوهُّم قَالَ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهَذَا عامٌّ، أي: كشف السوء عامٌّ فيمَن دعا الله أَنْ يكشِفَه ومَن لم يَدْعُهْ، فالله تَعَالَى يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكشِف السوءَ، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عنه وعن غيرِهِ]، عنه: أي عنِ المضطرّ الَّذِي دعا، وعن غيرِه. ومعنى يَكشِف السُّوءَ: يُزيله، مِن كَشَفَ الغطاءَ إذا أزال الحاجبَ.

وقوله: ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يَشمل السوءَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ، السوء الحسي ظاهر كالمرض والفقرِ وما أشبههما، والسوء المعنويّ كالجهلِ والخبثِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا السوءُ أعظمُ منَ النوعِ الأوَّلِ أيضًا، وَهُوَ شاملٌ للأمرِ، والدَّلِيل عَلَى أن السوء المعنوي داخل فِيهِ قولُ الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فالتكذيبُ مِن السوءِ، بل هُوَ أسوأُ السوءِ والعياذُ بالله، وكشفُ السوءِ شاملٌ لهَذَا وهَذَا، وإن كَانَ بعضُ النَّاس قد يتبادرُ إِلَى ذِهنه أن المُرادَ به السوء الحسيّ، ولكِن الأَمْر أعمّ من ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (فِي)، أي يَخْلُفُ كُلّ قرنٍ القرنَ الَّذِي قَبْلَه]، أي: خلفاء فِي الأَرْض. وتقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الإضافةَ بمعنى (فِي) صحيحٌ، يَدُلّ عليه قولُه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٦٥]، فقوله: ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: يخلف بعضكم بعضًا، أو أن المَعْنى: ميراث الأَرْض بفتحها بالإِسْلام؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يفعلُ ذلك إِلَّا الله، لكِن لمّا كَانَ هَذَا الخطاب عامًّا لجميعِ النَّاسِ لا يَستقيم

الوجهُ الثاني، أي: الَّذِينَ يَخْلُفُونها من بَعْد أهلها بفتحها بالإِسْلام، وهَذَا وإنْ كَانَ يدخل فِي ذلك كما قَالَ موسى لقومِه، ولكِن فِي هَذَا المقام لا يستقيمُ؛ لِأَنَّ الخطاب لعمومِ النَّاسِ، فخلفاء الْأَرْض يعني يَخْلُف بعضهم بعضًا، وهَذَا يتضمَّـن أمرينِ؛ إحياء وإماتة، إحياء الخالقينَ وإماتة المخلوقينَ، والَّذِي يجعل هَذَا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهَذِهِ الأفعال لا نستطيع أن نفعلها لا بالإحياءِ ولا بالإماتةِ.

وهنا تنبيهٌ؛ وَهُوَ أَنّنا إذا قُلْنَا للحاكمِ: إِنَّهُ خليفةُ اللهِ فغير هَذِهِ الآيَة وغير هَذِهِ المسألةِ، فالخليفةُ هنا يعني يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا، لكِنْ إذا قُلْنَا: الإمام خَلِيفة الله فِي الْأَرْضِ فمعناه أَنَّهُ يُنَفِّذ أمرَ اللهِ تَعَالَى فِي أرضِهِ، فلكلِّ مَقامٍ مقالٌ، فيَصِحُّ أنْ نَقُولَ للإمامِ: خليفةُ اللهِ فِي الأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، يعني: عَنَّا.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (في). والإضافة تأتي بمعنى (في) وتأتي بمعنى (اللام) وبمعنى (مِن) وأكثر ما تكون الإضافة بمعنى اللامِ، وتأتي الإضافةُ بمعنى (مِن) إذا كَانَ الأوَّل نوعًا منَ الثاني، مثل: (خاتَمُ حَدِيدٍ)، الحديدُ جِنسٌ وخاتَم نَوْعٌ، (ثوبُ خزٍّ) يعني ثوبًا مِن خزٍّ، وتأتي بمعنى (في) إذا كَانَ الثاني طرفًا للأوَّل؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، بل مكرٌ في الليلِ ومكرٌ فِي النَّهارِ، وهنا ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالْأَرْض ظرف مكان أي: خلفاء فِي الْأَرْض، ومكر الليل ظرف زمان، وكل التَّقْديرات الَّتِي لا يَصِحُّ فيها تقدير (من) ولا (في) فهي بمعنى اللامِ، مثل: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ مَفعُول مُطْلَق لـ(تَذَكَّرون)

المحذوفة، أي: تذكرون تذكرًا قليلًا. و(ما) مصدريّة، وإذا كانت مصدريَّة فما بعدها يُؤَوَّل بمصدرٍ، ويَكُون التَّقْدير: قليلًا تَذَكُّرُكُم، ولا يَصِحُّ أن تكونَ (ما) نافيةً؛ لِأَنَّهُ من المعروفِ أنَّ (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وربما يفسد المَعْنى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ المَعْنى: ما تذكرون قليلًا يَكُون تذكرهم كثيرًا، فلا يَصْلُحُ، وإن كَانَ قد يقال: إذا نُفِيَ تَذَكُّرُهُمُ القليلُ فالكثيرُ من باب أَولى، لكِن الأَصْل فِي الإعرابِ أن نجعلَ (تذكرون) فاعلًا لـ(قليلًا).

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظـون، بالفوقانية والتحتانية]، الفوقانية: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والتحتانية: «يَذَّكَّرُونَ» [وفيه إدغام التاء فِي الذال]، فيَكُون فِي الآيَةِ ثلاث قِراءاتٍ: «تَذَكَّرُونَ۞ تَذَّكَّرُونَ۞ يَذَّكَّرُونَ»[1]، والمُفَسِّـر ما ذكر (تَذَكَّرُونَ) بالتخفيف.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و(ما) زائدة لتقليل القليل]، يعني كأن المُفَسِّر يَقُول: (ما) زائدة، ويَكُون التَّقْدير: وقليلًا تذكرون، وهَذَا وجهٌ أيضًا فِي الإعرابِ، فالْوُجُوهُ ثلاثةٌ: الأَصْل أن تجعل (ما) نافيةً، وما ذكره المُفَسِّر وما ذكرناه متقاربانِ، أنْ تجعلَ: قليلًا تَذَكُّرُكُمْ أو قليلًا تذكرونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يجيبُ دَعْوَةَ المضطرّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن رحمة اللهِ سبقتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ من كمالِ رحمتِهِ إذا عَلِمَ بهَذَا المضطرّ أزالَ ضَرُورَتَهُ عَلَى أيِّ حالٍ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا فرقَ بين أن يَكُون المضطـرُّ مؤمنًا أو كافرًا، يُؤْخَذ من العمومِ وعدمِ التقييدِ؛ لِأَنَّهُ ما قُيِّدَ بأنه مسلم، بل أُطْلِقَ وعُمِّمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إقامة الحُجَّة عَلَى الخَصْم بمـا يَعْتَرِف به؛ لِأَنَّ إجابةَ المضطرّ يُقِرّ بها هَؤُلَاءِ المكذِّبون؛ هم إذا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ وأصابتهم الضرَّاءُ والأمواجُ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِيـنَ له الدينَ، فأجاب دعاءَهم، مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُم سَيُشْـرِكُون إذا خَرَجُوا، وأنَّ إيمانهم هَذَا إيمانُ ضرورةٍ فقطْ، فهم عندَ الضَّرورَةِ ما يَدْعُونَ إِلَّا اللهَ، فإذا كنتم تَعرِفون أنكم لا تدعون إِلَّا اللهَ عند الضَّرورَةِ فكيف تعبدون غيرَه عند السَّعَة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إجابة الله دعاءهم فِي هَذِهِ الضَّـرورَةِ قد تجعل بعض النَّاس يُسْلِمون؟

فالجواب: قد يُسْلِمون وقد يكْفُرون، فالنعمة فِي الحقيقةِ امتحان، إمَّا بالخير أو بالشرّ، وهَذَا بعض النَّاس إذا مَسَّهُمُ الضرُّ دَعَوُا الله، فإذا أُجيبوا بالرَّحْمَةِ إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شمول رحمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكشفِ السوءِ، سواء دعا لذلك أمْ لم يَدْعُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وكم من سوءٍ كَشَفَهُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن خلقِه بدعاءٍ وبغيرِ دعاءٍ، وبضرورةٍ وبغيرِ ضرورةٍ، ولا يكشفه إِلَّا اللهُ.

وقد أوردنا فيما سبق أَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَذَا الطبيبُ يعالِجُ المريضَ فَيَبْرَأُ فيَكُون كاشفًا للسوءِ؟

وأجبنا عن هَذَا: بأن هَذَا فعلٌ للسببِ، وَلَيْسَ كشفًا للسوءِ، بدليل أَنَّهُ قد

يُعالِجُه بما بَرَأ به غيرُه فِي نفسِ المرضِ ولا يَبْرَأ، فالكاشفُ للسُّوء هُوَ الله، وما للعبادِ إلَّا فِعْل الأَسْبَاب فقطْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدْرَةِ الله ونعمته أيضًا بجعلِ هَذِهِ الخَليقةِ خَليفة يَخْلُفُ بعضها بعضًا، وإلا لانقطعتِ الخليقةُ وانقطعَ النسلُ، أو بَقِيَتِ الخليقةُ أزمنةً متطاوِلَةً وتعاقبتْ عليها الأحداثُ وتوالتْ عليها الأُمُور، وحينئذٍ يَكُون فيها سَأَمٌ ومَلَل، فلولا هَذِهِ الخلافةُ وأن بعضهم يَخْلُف بعضًا لَلَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا انقطاع الخليقة؛ لِأَنَّهَا لا تَسْتَمِرّ بدون أن يَخْلُفَ بعضُها بعضًا، وَإِمَّا أن تبقى الخليقة دائمًا وحينئذٍ يَكُونُ التعَبُ والسَّأَمُ والمَلَل، وقد جاء فِي ذلك قول الشاعر[1]:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وقال الشاعر الآخر[2]:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

ففي الحقيقةِ أن أطولَ الزمنِ فِي الْإِنْسَان يُضْعِفُه ويُلْحِقه السَّأَم والمَلَل، ثُمَّ هُوَ لا يزال يتذكر الأحداث الَّتِي تَتَعَاقَبُ وحينئذٍ يَضْجَر ولا يَكُون عنده قرارٌ نفسيّ ولا فكريّ، لذلك كَانَ من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن رحمته أيضًا أن جَعَلَنا خلفاءَ يَخْلُف بعضنا بعضًا، والجنُّ أيضًا يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا؛ لِأَنَّ الجنَّ والإنسَ يموتون، فالآية عامَّة فِي هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ لا يتذكَّر مَعَ وجود ما به التذكُّر؛ لِقَوْلِهِ:

---

(١) معلقة زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت لعوف بن محلم السعدي، الحماسة البصرية (١/ ١٨٨).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والتذكر بمعنى الاتِّعاظ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَذْكُر فينتفع بِذِكْرِه فيقال: اذْكُر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الدعاء من أَسْبابِ رفعِ البلاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا أمرٌ مجرَّب ومشاهَد، ولا سيما الأدعية الَّتِي جاءَتْ بها السنَّة؛ فإنها خيرٌ وبركة ولها ثَمَرَةٌ ظاهرةٌ.

الْفَائِدَة الأُولَى: قُدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يُجِيبُ﴾ يَشْمَل كُلَّ ما تَتَطَلَّبُهُ الضَّرورَةُ مِن قليلٍ أو كثيرٍ، فيَكُون فِي ذلك دليلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى سَبقَتْ غَضَبَهُ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿الْمُضْطَرَّ﴾ يشمل الكافرَ والمؤمنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المضطرَّ مُجابُ الدَّعْوَةِ مُطلَقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ ولم يقيِّده بالمؤمنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن إجابة المضطرّ المتحتِّمة مشروطة بها إذا دعاه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وَأَمَّا إذا لم يَدْعُهُ فقد يزيلُ ضَرورته وقد لا يُزيلها؛ لِأَنَّ المضطرَّ قد لا يَدْعُو الله تَعَالَى استغناءً بها عندَه من الأُمُور المادِّيَّة عن دعاءِ اللهِ تَعالَى، فيَسْتَنْكف عن دعائه، وحينئذٍ لا تُكْشَف ضَرُورَتُه. فالمهمُّ أَنَّ إجابةَ المضطرِّ هنا اشترطَ اللهُ تَعَالَى لها أنْ يَكُونَ المضطرُّ دَاعيًا، فقال: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنَّةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عبادِهِ بِكَشْفِ السوءِ، أي: إزالته عن المُضْطَرِّ وغير المضطرِّ عن الجميعِ، ولهَذَا ما قَالَ: عن المضطرِّ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ﴾ فحذف المتعلّق، والقاعدةُ عند أهل العلمِ: أنّ حذفَ المتعلّق يفيد العمومَ،

فمعنى ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ عن كُلّ أحد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى المرءِ أنْ لا يلتفتَ فِي كَشْفِ السوءِ إِلَّا إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكْشِفُ السوءَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلى هَذَا يَجِبُ عليكَ أنْ لا تُعَلِّقَ هَذَا الأَمْرَ إِلَّا بربِّك الَّذِي هُوَ قادرٌ عَلَى كشفِه، وتعلُّقُك بغيره خِذلانٌ لك، فـ«**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[1].

ولكِن هَذَا الكَلام لا ينافي فعلَ الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ فاعلَ الأَسْبَاب إن كَانَ يَعتقد أنَّ السَّبَب وحدَهُ هُوَ الفاعل بذاتِه فَإِنَّهُ ينافي ما ذَكَرْنَا، وإن كَانَ يعتقد أن السَّبَب هُوَ الفاعل ولكِن بتقديرِ اللهِ فهَذَا من التعلُّقِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُ لا ينافي إذا توكَّلتَ عليه واعتمدتَ عليه أن تفعلَ منَ الأَسْبَاب ما جعله الله سببًا، فالْإِنْسَان يرجو منَ الله تَعَالَى دخولَ الجَنَّة والنجاةَ منَ النَّار، ومع هَذَا يفعلُ أَسْبابَه؛ يرجو من الله تَعَالَى الأولادَ ومع ذلك يَسعى بالأَسْبَاب.

فالمهمّ أنّ فعل السَّبَب إذا لم يَعْتَقِدِ الفاعلُ -فاعل السَّبَب- أن السَّبَب فاعلٌ بذاتِه فَإِنَّهُ لا ينافي التوكُّلَ ولا التعلُّقَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا ينافي كمال التوكُّل أيضًا، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهُوَ سيِّد المتوكِّلين- يَفْعَلُ من الأَسْبَاب ما يُدْفَع به السُّوءُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَان مِنَّـة الله تَعَالَى بجعلِ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ خلفاءَ، يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا. وقد ذكرنا فيما سبقَ الحِكْمَةَ من ذلك؛ وهي: أَنَّهُ إن لم يَخْلُفْ

---

[1] رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة، حديث رقم (٤٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، حديث رقم (٢٠٧٢)؛ وأحمد (٤/ ٣١٠) (١٨٨٠٣)، عن عبد الله بن عكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

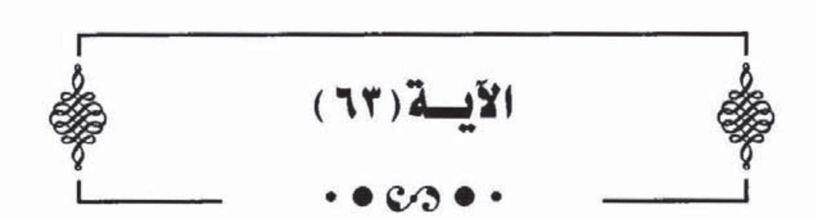
بعضهم بعضًا لَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا استمرار الخَلِيقة الأُولى، وحينئذٍ يَلْحَقُها المللُ والسآمةُ وعدم التجديد، وَإمَّا انقطاع الخَلِيقَة؛ لِأَنَّهُ لا يوجد أحدٌ يَخْلُفُها، فاللهُ تَعَالَى مِن مِنَّتِه أنْ جعلَ النَّاسَ خُلَفَاء.

الآن تجدون الرجلَ إذا طالتْ به الحياةُ لا يُمِلُّه أهلُ سُوقِهِ فقطْ، بل يُمِلُّه أقربُ النَّاسِ إليه، تجدهم يَقُولُونَ: الله يُريحنا بالعافيةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يدعون الله تَعَالَى بالراحةِ؛ لِأَنَّهُ يُقْلِقُهُمْ ويُؤْذِيهم. فهَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال قدرة الله بجعلِ الخلفاءِ، فَهُوَ من رحمةِ اللهِ، وَهُوَ أيضًا من قُدرته؛ لِأَنَّ فِيهِ إحياء وإماتة، إماتة للأَوَّلين وإحياء للآخِرين، وهَذَا من آيَات الله وقدرته. ولهَذَا احتجَّ إبراهيم عَلَى النمرود بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن الإحياءَ والإماتةَ من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدالَّة عَلَى قُدْرَتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ مَهْمَا كَثُرَتِ القرائنُ والبراهينُ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَتَّعِظ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وإنَّ منَ المتَّعِظِين أيضًا مَن قد يَكُون اتِّعاظه قليلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يَتَضَمَّن التذكُّر من واحد والتذكُّر من جماعة، فـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أن الواحدَ مِنَّا قد يتذكَّر لكِن قليلًا إِلَّا مَن عَصَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك أيضًا الفئاتُ منَ النَّاسِ لا يتذكَّر منهم إِلَّا القليل.

•• ۞ ••



الآية (٦٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣].

• • • •

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يُرْشِدُكُم إِلَى مَقَاصِدِكُم]، فالهداية هنا هداية دلالةٍ وتوفيقٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يَكُون عارفًا وفاهمًا ولا يَهتدِي ولا يُوَفَّق، وَهُوَ كما يقولُ العوامُّ: (جِنّيّ)، وإذا كَانَ جِنِّيًّا صار لا يهتدي أبدًا، وَفِي الأسفارِ القديمةِ قبل أن تظهرَ الخطوطُ السودُ كَانَ النَّاس يَتِيهون، فإذا ساروا دارتْ رؤوسهم ولا يَستطيعون الوصولَ إِلَى مَقْصِدِهِمْ.

فبنو إسرائيل تاهوا فِي أَرْضِهِم أربعينَ سنةً، مَعَ أَنَّ المسافةَ نِصف شهرٍ فأقلّ، وهم بَقُوا أربعينَ سنةً تائهينَ ما اهتدوا إِلَى السبيل.

فإِذَنْ: قَوْلُه: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يُرْشِدكم هدايةَ دلالةٍ وتوفيقٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بالنُّجُوم ليلًا وبعلاماتِ الْأَرْض نهارًا]، ولو قَالَ المُفَسِّر: وبالشَّمْسِ نهارًا لكانَ أيضًا أَولى؛ لِأَنَّ علامات الْأَرْض إذا كَانَ البحرُ واسعًا وطويلًا تختفي ولا تظهر ولا تُرى إِلَّا ماء.

فإِذَنْ: أستدِلُّ فِي النَّهار بالشَّمْس، وبعضهم أيضًا يَستدِلّ بالرياحِ، حَتَّى الفقهاء ذكروا أَنَّهُم استدلوا للقبلةِ بالرياحِ؛ لِأَنَّهُم قَالُوا: إن كُلّ ريح بإذن اللهِ لها خاصِّيَّة

معيَّنة، لكِن لا نعرفها نحن، يَعرفها الخُبَرَاءُ.

ثم نحن نعرفها بالبرودة والحرارة، فالشمال باردة، والجنوب حارّة، هَـذِهِ مَعْرِفة لَكِنَّها معرفة سطحيَّة، إِنَّمَا هم يَعْرِفونها بدِقَّة؛ بحَيْثُ إِنَّهُ إذا هَبَّتِ الريحُ قَالُوا: هَذِهِ شماليَّة أو جنوبيَّة أو شرقيَّة أو دَبُور، لكِن نَقُول: العلامات الظَّاهرة هِيَ الشَّمْسُ بكلِّ حالٍ، والقمرُ والنجومُ فِي الليلِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قُدَّام المَطَر]، هَذَا تفسير لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ والمطرُ تفسيرٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّهُ من آثارِ رحمةِ اللهِ، فسُمِّيَ رَحمةً؛ لِأَنَّهُ من آثارها، وبه تَحْصُلُ الرَّحْمَةُ، فلا أحدَ يستطيعُ أن يرسلَ الرياحَ -سواء كانت رِيحًا عقيمةً أم رِيحَ بُشْرَى بين يدي رحمتِه- إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمعِ، والأكثرُ أنَّ الجمعَ يكُون فِي رياحِ الرَّحْمَةِ، والإفرادَ فِي ريحِ العذابِ، إِلَّا إذا وُصِفَت الريحُ المُفْرَدَةُ بما يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا ريحُ خَيرٍ؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

ثم إن الرياحَ بالنِّسْبَة للفُلْك ليست من مصلحةِ أهله؛ لِأَنَّ الرياح إذا اختلفتْ عَلَى الفُلْك لا يمشي، لا سيما الفلك الأوّل؛ فإن الفُلك الأول يَمْشِي بالهواءِ؛ السُّفُن الشراعيَّة، فإذا اختلفتْ عليه الأهويةُ تَعوَّق، ولكِن إذا كانت رِيحًا واحدةً صار ذلك أحسنَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

المهمُّ أن الرياحَ إِنَّمَـا تقالُ فِي الغالـبِ فِي رِياحِ الرَّحْمَةِ، وَفِي الإفـراد فِي ريحِ العذابِ، فهَذَا الغالِبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، وأمثال ذلك.

وقال العُلَماءُ: ومِنَ الحِكمة فِي هَذَا أنَّ الريحَ إذا كَانَ مَهَبُّها واحدًا صارتْ أصلبَ؛ إذ لا شَيْء يُقابِلُها منَ الرياح حَتَّى يَكْسِرَ حِدَّتَها، فلهَذَا كانتْ تأتي دائمًا فِي مَقامِ العذابِ.

قال تَعَالَى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ما الجوابُ؟ لا إلهَ معَه. وكلُّ هَذَا تقرير لألُوهيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي يُنْكِرُها هَؤُلَاءِ المشرِكون.

قوله: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿تَعَـٰلَى﴾ بمعنى: عَلَا بِتَنَـزُّهٍ؛ لِأَنَّ ﴿تَعَـٰلَى﴾ مُشَرَّبَةٌ معنى: تَرَفَّعَ عن هَذَا الشَّيْءِ مَعَ عُلُوِّهِ، فَهُوَ عالٍ بِتَنَزُّهٍ عمَّا يشركون مِن هَذِهِ الأصنامِ الَّتِي يجعلونها مَعَ اللهِ شَرِيكًا فِي العِبادَةِ، أَمَّا فِي الرُّبُوبِيَّة فإنهم يُقِرُّون بأنَّ هَذِهِ الأصنامَ لَيْسَ لها أبدًا شأنٌ فِي الرُّبُوبِيَّة، ولكِنهم -والعياذ بالله- يعبدونها مَعَ اللهِ، ومنهم مَن يصرِّح بأنه يعبدها لِتُقَرِّبَهُ إِلَى اللهِ؛ كما قَالَ الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فهم مُعْتَرِفون بأنَّ عبادتها ليستْ عبادةً مقصودةً لذاتِها؛ بل هِيَ مقصودةٌ لغيرِها لِتُوصِلَهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به غيرَه]، عامٌّ فِي كُلِّ شِرك، وعامٌّ فِي كُلِّ مُشْرَكٍ به، فالله تَعَالَى متعالٍ عن كُلِّ شركٍ وعن كُلِّ مشرِك به مهما عَظُم قَدْرُه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نِعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْقِ بالهدايةِ فِي ظُلُماتِ البَـرِّ والبحرِ والجوِّ؛ لِأَنَّهُ عَلَى قاعدة الفقهاءِ الهواء تابع لِلقَرارِ، إن كنت عَلَى البحرِ فَهُوَ منَ البحرِ، وإن كنت عَلَى البرّ فَهُوَ من ظُلُمات البرِّ، ففيه منة الله عَلَى عباده بالهداية فِي ظلمات البرّ والبحر، وهَذِهِ الهداية بعلاماتٍ وبإلهام؛ بكلا الأَمْرينِ، فقد تكون بالعلاماتِ وَهُوَ الأكثرُ، وقد تكون بالإلهامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ

قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]. وَكَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَعْرِفُ شيئًا، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهَذَا بعضُ العُلَماء يستعمل هَذِهِ الآيَةَ إذا ضاعَ فِي البرِّ أو فِي البلد إذا كَانَ يبحثُ عن بيتِ شخصٍ ولم يهتدِ إليه، فيتلو هَذِهِ الآيَة: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]، وَهُوَ دعاءٌ مناسبٌ.

إِذَنْ: مِنَّة الله عَلَى الهداية فِي ظُلُمات البرّ والبحر، سواءً كَانَ ذلك بالأَسْبَاب المشاهَدة، أو كَانَ ذلك بالإلهامِ، فإنَّ الله تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى العبادِ بهَذَا وبهَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أن يَعتمدَ عَلَى اللهِ فِي الهدايةِ إِلَى الطريقِ الحِسِّيِّ، كما يعتمد عليه فِي الهداية إِلَى الطريقِ المعنويِّ، فكما أنك تقول: (ربِّ اغفِرْ لي وارحمني واهدني) تريد الهداية المعنويَّة، كذلك أيضًا اعتمدْ عَلَى ربِّك فِي الهدايةِ الحِسِّيَّة. ولا تعتمد أيضًا عَلَى الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّهُ كم من أُناسٍ أهل معرفةٍ وَجُودٍ بالدلائلِ ومع ذلك لا يهتدونَ.

وقد حدَّثني رجلٌ أثِق به يَقُول: إِنَّهُ ذهب من عنيزة إِلَى بريدة فِي حاجةٍ قبل أن تظهرَ السيَّارات، حَيْثُ إن أحد التجار فِي عنيزة أعطاهُ كتابًا إِلَى أحدِ التجّار فِي بريدة، وقال له: احرِص عَلَى أن توصِلَه سريعًا، يَقُول: فصليتُ المغربَ خارجَ البلدِ بعنيـزة، وذهبت من طريقٍ يسمى طريق الخلا مختَصَـر، يَقُول: وصلـتُ مَعَ أذانِ الأخيرِ، يعني ساعةً ورُبُعًا تقريبًا، وَهُوَ يسيـرُ عَلَى رِجليه؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جيِّـد ويَرْكُض. يَقُول: وصليتُ فِي المَسْجِد؛ مسجد الساقية الَّذِي فِي بريدة، وانتظرتُه حَتَّى خرج وتبِعته، وقلتُ له: هَذَا خطٌّ من فلان. قَالَ: ادخلْ نَشْرَب القهوة، فقلت له: أريد أن أمشيَ. قَالَ: لا. فلزَّم عليَّ فدخلتُ، فجَعَلوا يصنعون القهوة، فقال: متى خرجتَ من عنيزة؟ قلتُ: خرجت مِنْهَا المغربَ. فقال أخوه: واللهِ أخي هَذَا أجودُ

من ناقتنا الفلانيّة. يَقُول الرجل: لم أجعلْ هَذِهِ الكلمة عَلَى بالي إطلاقًا. يَقُول: شرِبتُ القهوةَ وخرجتُ، وبمجرّد أن خرجتُ لم أهتدِ للطريقِ، وبدأت أبحث ولم أدرِ إلَّا وقد رجعتُ إِلَى الخلا إِلَى آخِرِ الليلِ، ولما تعِبتُ ومَلَلْتُ وجدتُ خِبَاءً وأهله عنده، فقلت لهم: أين الطريق؟ قَالُوا: بجوارِكَ، لَيْسَ بينك وبينه إِلَّا شَيْء يسير. المهم أَنَّهُ بقِيَ إِلَى طلوعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ لما كَانَ النَّهارُ عاد بالليلِ، ولما جاء سقط مَرِيضًا. والكَلام عَلَى أن هَذَا الرجل يهتدي، ومع ذلك ضلَّ الطريق، فلا تقلْ: إني والله عارِفٌ، فهداية اللهِ للطريقِ هَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى العبادِ، سواء فِي البرّ أو فِي البحر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان آيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَـذِهِ الرياحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الرياح مُسَخَّرةٌ مدبَّرة، وليست هِيَ الَّتِي تَهُبُّ بطبيعتها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشَّيْء الواحد قد يَكُون خيرًا وقد يَكُون شرًّا، بِحَسَبِ آثارِه ونتائجه، فالرياحُ هنا يَقُول: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وَعَلَى عادٍ ونحوِهِم عذابٌ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، والكلُّ مِن فِعْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هنا ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [النمل:٦٣]، وهناك ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الذاريات:٤١]، فالكلُّ من فِعْلِه.

وحينئذٍ يَرِدُ علينا إشكالٌ: هل الله تَعَالَى يفعل السُّوءَ؟

السوءُ فِي المَفْعُول، وَأَمَّا بالنِّسْبَة لفعلِ اللهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بسوءٍ؛ لِأَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ، وقد تقدَّم فِي أوَّل الآيات أن انتقامَ اللهِ تَعَالَى من المجرمينَ هُوَ نعمةٌ وكمالٌ يُحْمَد عليه، لمّا ذكر عقوبةَ قوم لوطٍ، قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المطر من رحمة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إطلاق الصِّفة عَلَى آثارها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، فالمطر لَيْسَ رحمة الله ولكِنّه آثارٌ من آثارِ الرَّحْمَةِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُطْلِق الرَّحْمَةَ عَلَى ما كَانَ من آثارها، قَالَ الله تَعَالَى للجنة: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ**»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرياحَ سببٌ لنزولِ الأمطارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وقال تَعَالَى فِي آيَةٍ أخرى صريحة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨]، هَذَا دليل واضح عَلَى أن الرياحَ هِيَ الَّتِي تُثير السحابَ بإذنِ اللهِ تَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيَان تَنزُّهِ اللهِ تَعَالَى عن كُلّ ما يُشْرَك به، وَأَنَّهُ أعلى وأعظمُ من كُلِّ ما يُشرَك به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

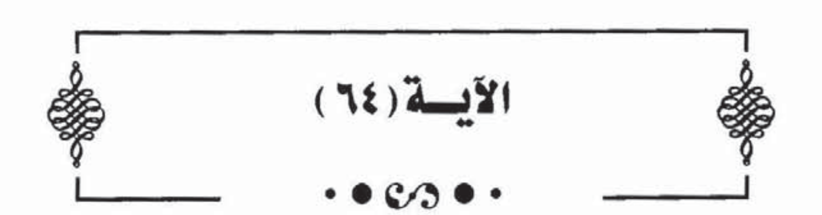
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ لا أحدَ يستطيع أن يفعلَ هَذِهِ الأفعالَ، وهي الهدايةُ ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وإرسال ﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ولِهَذَا قَالَ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك؟ الجواب: لا.

وهل تَشمَل الهداية ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الهدايةَ بالأَسْباب الَّتِي تَوَصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؟

نعم تشمل؛ لِأَنَّ الله أطلق الهدايةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي من الله.

•••

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم (٤٥٦٩)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، وأهلها، حديث رقم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٦٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ فِي الأرحامِ مِن نُطفةٍ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْد الموتِ، وإنْ لم تَعْتَرِفُوا بالإعادة؛ لقيامِ البراهينِ عليها]

قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا﴾ مثلما قُلْنَا فيما سبق: إن أصلها: (أم من)، لَكِنَّها أُدغمت اتِّباعًا للرسمِ العُثمانيّ، ومن فوائد قَرْنِها ألّا تتصادمَ مَعَ القراءةِ الأُخْرَى وهي (أَمَنْ يَبْدَؤُا).

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قَصَّرَ فِي التفسيرِ حَيْثُ قَالَ: [في الأرحامِ مِن نُطفة]، والصَّواب أَنَّهُ أعمُّ من ذلك، فيبدأ الخلقَ فِي الأرحامِ مِن نُطفة هَذَا فردٌ من أفرادِه، وإلّا فقد بدأ خلق الْإِنْسَان من طِينٍ، ثُمَّ جعل نسلَه من سُلالة من ماءٍ مَهِين. أيضًا فإن بعض الأَشْيَاء تَتَوَلَّد ولا تَتَوَالَد ولَيْسَ لها أرحامٌ تكون فيها، وإنما تتولد مما تتولد منه بدون أن يوجدَ لها أرحامٌ، فالصَّواب فِي هَذَا أن يُقَال بالعموم: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أي: يُوجِده ابتداءً فِي الأرحام وغيرِ الأرحام، لا أحد يستطيع أن يفعلَ ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، فلو يجتمعون كلهم -الَّذِينَ

يدعون من دونِ اللهِ- لِيَخْلُقُوا ذُبابًا ما استطاعوا. وأبلغُ من هَذَا ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ هذا الذبابُ الضعيف إذا سلبهم شيئًا فلا يستطيعون أنْ يَرُدُّوه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

إِذَنِ: الَّذِي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ هُوَ الله، وَالَّذِي يعيده هُوَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وإن لم تعترِفوا بالإعادةِ؛ لقِيام البراهين عليها]، لا حاجة لتقديره؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَمَّا ذكر بدء الخلقِ فإن إعادة الخلق بالفطرة والعقل أهونُ من ابتدائِهِ، فَهُوَ إذا تقرَّر أَنَّهُ يبدأ الخلق فَإِنَّهُ من المعلومِ أنه يُعيده؛ بل إعادته أهون، فعلى هَذَا يَكُون الله تَعَالَى قد قَرَّرَ أُلوهِيَّته بهَذَا الفِعْل العظيمِ؛ وَهُوَ بَدْءُ الخَلْقِ وإعادته.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -أي من جهةِ السَّماءِ- بالمطرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنباتِ]، فالرزقُ الَّذِي يأتي من السماءِ هو المطرُ، والذي يأتي منَ الْأَرْض هُوَ النبات؛ هَذَا ما قَالَهُ الْمُفَسِّر.

ويجوز أن نَقُولَ: إنَّ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العُلُوّ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مِنَ النزولِ، ويَكُون هَذَا كقولِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦]، ويَكُون الْمُراد بالسَّماء ما كَانَ من الأشجارِ الرفيعةِ العاليةِ، وبالْأَرْضِ مثل: الزروع والأشجار الممتدَّة عَلَى الْأَرْض الَّتِي لَيْسَ لها ساقٌ. أو نَقُول: إن الآيَة أعمُّ من هَذَا فتشمل المطر؛ لِأَنَّهُ من السَّماء، وتشمل ما أَشَرْنَا إليه مِنَ الثَّمرات منَ الأشجارِ العاليةِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ إليها هَؤُلَاءِ، فتكون فِي السَّماء وتكون فِي الْأَرْض.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجوابُ: لا يَفعل شيئًا مما ذُكِرَ إِلَّا اللهُ، ولا إله معه.

وهَذِهِ الآيَة جمعَ اللهُ فيها بين بدء الخلق والرزق؛ لِأَنَّ المخلوقات تَحتاجُ إِلَى

إمدادٍ وتحتاج إِلَى إعدادٍ، فالإعداد بابتداءِ الخلقِ؛ لأن الله إذا ابتدأ الخلقَ أعدَّ الْإِنْسَان بكلِّ ما هُوَ لازِمٌ له، والإمداد بالرزقِ مِنَ السَّماء والْأَرْض.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتَكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾]

﴿هَاتُوا﴾ هَذِهِ هل هِيَ فعلُ أمرٍ أو اسمُ فِعل أمر؟

هي فِعْلُ أمرٍ؛ والنَّحْوِيُّون مُختلِفون، لكِن الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا فِعلُ أمرٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَلْحَقُه العلامةُ يَكُون فعلَ أمرٍ، وَالَّذِي يبقى عَلَى حالٍ واحدةٍ يَكُون اسمَ فعلِ أمرٍ. فأنت تخاطب واحدا فتقول: صَهْ، وتخاطب اثنينِ فتقول: صَهْ، وتخاطب جماعة فتقول: صَهْ.

إِذَنْ: هِيَ اسمُ فعلِ أمرٍ، لكِن (هات) تُخاطِب واحدًا فتقول: هاتِ، وتخاطب أُنثى فتقول: هاتي، وتخاطب جماعةً فتقول: هاتوا، وتخاطب نساءً فتقول: هاتِينَ. إذن فهي فِعْلُ أمرٍ.

ومعنى ﴿هَاتُوا﴾ يعني أَحْضِروا، و(البُرهانُ) هُوَ الدَّلِيلُ، وخَصَّه بعضهم بالدَّلِيل القاطعِ، وقَالُوا: إن الدَّلِيل إن كَانَ قطعيًّا فِي دلالته فَهُوَ برهانٌ، وإن كَانَ ظَنِّيًّا فَهُوَ دليل وَلَيْسَ ببرهانٍ، ولكِن الظَّاهر من الآيَاتِ الكَرِيمَةِ أن البرهانَ فِي الْقُرْآنِ دليلٌ؛ سواء كَانَ قطعيًّا كما قَالَ أهل المنطِق أم غيرَ قطعيٍّ، فعلى هَذَا يَكُون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ شاملًا للقطعيّ والظَّنِّيِّ؛ لِأَنَّهُم لَيْسَ عندهم لا دليل قطعيّ ولا ظنّيّ.

قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأَمْرِ فِي قوله: ﴿هَاتُوا﴾ المُراد به التحدِّي.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّ مَعِيَ إلهًا فعلَ شيئًا مِمَّا ذُكِرَ].

والجواب: أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يأتوا ببرهانٍ، وجواب (إِنِ) الشرطيَّة محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبله عَلَى رأيِ كثيرٍ من النحْويين، والصَّحيحُ أَنَّهُ فِي مثلِ هَذَا لا يُحتاج إِلَى جوابٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وسَأَلُوه عن وقتِ قيامِ الساعةِ فنَزَلَ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾]، ما ادَّعاه الْمُفَسِّر من أنَّ الآيَةَ لها سببٌ لا صِحَّة له، ولكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انتقلَ من ذِكر الخلق إِلَى ذكر ما يَلْزَمُ للخلقِ وَهُوَ العلمُ، فإن الخلقَ لَا بُدَّ أنْ يَتقَدَّمَهُ علمٌ؛ إذ لا يتمُّ الخلقُ إِلَّا بعلمٍ وقُدرةٍ، فمَن لا عِلْمَ له لا يَخْلُق، ومن لا قُدْرَة له لا يَخْلُق، فالآيَة فيها انتقال من معنًى إِلَى معنًى، وَلَيْسَ لها سببٌ كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان قُدْرَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَدْءِ الخلقِ وإعادتِهِ، ولا أحدَ يستطيعُ بَدْءَ الخلق وإعادته أبدًا إِلَّا الله، وَالَّذِي قَالَ لإبراهيمَ ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، جوابُهُ أنَّ هَذَا يفعلُ السَّبَب، وَأَمَّا أن يُحْيِيَ فيجعل الحياة فِي ميِّت فلا يستطيع، أو يميت فيُخرِج النفس من البدنِ فلا يستطيع، ومع ذلك ما اقتنع؛ فعَدَلَ إبراهيمُ إِلَى أمرٍ لا يمكن أن يجادلَ فيه، ومن المعروفِ أن فِي باب المناظراتِ يُلجأ إِلَى الأظهرِ فالأظهر.

إِذَنْ: قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ واضح أَنَّهَا مختصَّة باللهِ وَأَنَّهُ لا أحد يستطيعه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أن الرزقَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإن قيل: أليس الله تَعَالَى يَقُول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النِّساء:٨]، ويقول تَعَالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النِّساء:٥].

إِذَنْ نَقُول: كيف أنَّ الرزقَ منَ اللهِ ولا أحد يرزق إِلَّا الله؟!

قلنا: ربَّما نَقُول: إنَّ الرزقَ العامّ غير الخاصّ، لكِن حَتَّى الخاص لَيْسَ رزقًا مستقِلًّا، إِنَّمَا هُوَ بالسَّبَب، ولهَذَا الجواب الذي لا يَخْرُجُ عنه شيءٌ أنْ نَقُولَ: إن إضافةَ الرِّزق إلى المخلوقِ من بابِ إضافةِ الشَّيْء إلى سببِهِ، ولهذا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]، فيَكُون هنا إضافة الرزقِ إِلَى العبدِ من بابِ إضافةِ السَّبَب إِلَى مُسَبِّبه.

فهَذِهِ المخلوقات نحن لا نرزقها، والَّذِي يرزقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠]، فهل أنتَ الَّذِي يرزقُ الذرَّ والطيرَ والوحوشَ والسِّباع؟! أبدًا، ما يَرْزُقُها إِلَّا خالِقُها.

كذلك أيضًا أنتَ لا ترزق نفسَكَ، حَتَّى نفسك لا ترزقها، ولهَذَا تجد أَشطرَ النَّاس وأجودهم فِي البيعِ والشراءِ وأذكاهم وأشدَّهم مكرًا وحيلةً تجده أحيانًا من أفقرِ النَّاسِ، وتجد الْإِنْسَان الأبلَهَ الَّذِي لا يُحْسِن أيَّ شيءٍ يَكُون عنده أموالٌ عظيمةٌ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُعطِي فضلَه مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرزق منَ السَّماء بالمطرِ ومنَ الْأَرْضِ بالنباتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أو السَّماء ما علَا من الأشجار، والْأَرْض ما نزل

من الزروع؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يقدِر عَلَى ذلك إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحدِّي المُناظِرِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لا بأسَ للإِنْسَانِ أَنْ يَتَدَرَّجَ مَعَ خَصْمِهِ، وأنْ يَتَحدَّاهُ بما يُقِرّ به، وهَذَا غاية الإنصافِ أن تقولَ لِخَصْمِك: هاتِ الدَّلِيلَ؛ لِأَنَّ هناك حالًا أُخرى ليست إنصافًا؛ وهي أن تقولَ لخصمك: لا أقبلُ منك أبدًا، فأنت إذا قلتَ للخصمِ: هاتِ الدَّلِيلَ إن كنت صادقًا فقد أنصفتَه وتحدَّيْتَه أيضًا، وحينئذٍ يَظهَر عَجْزُه، لكِن لو قلتَ: لو أتيتَ بأيِّ دليلٍ ما قَبِلْتُ؛ فمعناه أنك جعلتَ العلوَّ له، والْآنَ هُوَ ينتصر عليك وأنت تَنْخَذِل أمامَه، مَعَ أنك الْآنَ فِي هَذَا الوصفِ تكون مستكبِرًا.

لكِن لو فُرض أَنَّهُ ظهر عنادُ هَذَا الرجلِ وَأَنَّهُ إِنْسَانٌ يماري ولا يقصد الحقَّ، هل لك أن تقولَ: أنا لا أقبلُ منك، يعني مثلًا افرِض أنك استدللتَ عليه بآيَةٍ من الْقُرْآنِ أو بنصٍّ صريحٍ من السنَّة وصحيح، ثُمَّ جعل يُجادِلُك فِي هَذَا الأَمْرِ، لو قَالَ مثلًا: الربا حلال ومصلحة عظيمة يَنتعِش به الاقتصاد والنَّاس يتحرَّكون، فما الَّذِي يُحرِّمه؟ تقول له: حَرَّمَهُ قوله تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥].

قال: هَذَا الربا الَّذِي فِي الجاهليَّة؛ إذا حلَّ الأجلُ عَلَى الدَّين عَلَى الفقير وَهُوَ فقير قَالَ: نَزيد فِي الأَجَل ونزيد فِي الرِّبا، وَأَمَّا ربا البنوك ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فهَذَا برضا من الطرفينِ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ، وَهُوَ انتعاش للاقتصادِ ومصلحةٌ للبلادِ وتنميةٌ للمال، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فهَذَا يَصْلُحُ أن أقول له: لا أقبلُ منك مهما جئتَ به؛ لِأَنَّهُ مجادِلٌ لا يريد الحقَّ، فالشَّيْء الذي فِيهِ نصٌّ صريح واضح المجادلةُ فِيهِ غيرُ مقبولةٍ.

ولهَذَا لما قَالَ أبو سفيان فِي أُحُد: هل فيكم مُحَمَّدٌ، وفيكم ابنُ أبي قُحَافَة، هل فيكم ابنُ الخَطَّاب؟ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ»؛ إهانةً له، لكِن لَمَّا قَالَ: اعْلُ هُبَل، وصار يُجادِل بالباطلِ لِيُعْلِيَه عَلَى الحَقّ وصار هَذَا فِيهِ تشبيهٌ -لِأَنَّ الشُّبْهَة قائمة فِي هَذَا المكان، فوجه قيام الشبهة أن الانتصارَ كَانَ لهم، فمَن سمِع هَذَا الكَلام قَالَ: صحيح هُبَل الْآنَ اعتلى- فكَانَ من المناسِبِ هنا أن تُزال هَذِهِ الشبهة فيقال: «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1].

أَمَّا قوله الأوّل فرأى النَّبِيّ ﷺ أن مِنَ المصلحةِ أنْ يُهْجَرَ وأن لا يجابَ، وأيضًا أجابه عمر لما قَالَ: «أَمَّا هَؤُلَاءِ فقد كُفِيتُمُوهُمْ»[2]؛ لِأَنَّهُ الْآنَ صارتِ الشُّبهة لِأَنَّهُم إذا لم يتكلموا وقد قَالَ: «أما هَؤُلَاءِ فقد كُفيتموهم»، فتقوم الشبهة أمامَ النَّاسِ ويَقُولُونَ: صحيحٌ، لو هم أحياء لأجابوا، فحينئذٍ صار الجوابُ له مَحَلّ، وَفِي الحقيقة ليست هَذِهِ المسألة شَبيهةً بمسألتنا، وكنتُ أظنُّ أَنَّهَا شَبيهة بها.

إِذَنْ: فِي الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي مقامِ المناظرةِ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُطالِبَ الخَصْمَ بالدَّلِيل؛ لِأَنَّ فِي ذلك فائدتينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إظهار العدلِ والإنصافِ: هاتِ دليلًا نَتَّبِعك، فهَذَا عدلٌ وإنصاف.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب التعبئة، حديث رقم (٨٦٣٥)؛ وأحمد (٤/ ٢٩٣) (١٨٦١٦)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَنْع استنصار الخصمِ؛ لِأَنَّ الخصمَ إذا ما طُلب منه الدَّليل وقلتَ: أبدًا لا نَقْبَل منك سواءً أتيتَ بدليلٍ أو لا لم تأتِ بدليلٍ، فحينئذٍ يَستنصِر ويقول: الْآنَ غلبتُه.

وأما المعانِد ففيه تفصيلٌ؛ فإذا كَانَ ذلك من إهانتِه وعدمِ تأثيرِ شُبهته، فالأَولى تركُ الردّ، وَأَمَّا إذا كَانَ ذلك سببًا لاستنصارِهِ أو سببًا لقوّة تشبيهه فيجب أن يُرَدَّ عليه، فلكلِّ مقام مقالٌ، وإذا عاند فإذا كَانَ لك قوَّة فأَمْسَكْتَه بالحديد والنَّار، وإن لم يكنْ لك قوة فلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ.

ولْيُعْلَمْ أن المِراءَ الَّذِي هُوَ لمجرَّد المغالبة مَنْهِيٌّ عنه، وَأَمَّا الجدالُ فقد أمر الله به؛ فالجدالُ لإثباتِ الحقّ وإبطال الباطلِ مأمورٌ به وجوبًا أو استحبابًا حسَب الحالِ، فالمُرادُ المِراء الَّذِي هُوَ لمجرَّد المعاندةِ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس الآنَ تجده فِي المجلِسِ يختلف مَعَ آخرَ فِي مسألةٍ من المسائلِ ليست مسألة دينيَّة يَجِب تحقيقها، بل مسألة عامَّة، وتجدهم يتعاندون: أنا أقول كذا وأنت تقول كذا، أنا عليَّ حق وأنت عليك حق، فهَذَا لَيْسَ له داعٍ؛ لِأَنَّ هَذَا لا يزيد الأَمْر إِلَّا شدَّةً، وربما يتحزَّب الحاضرون إِلَى حزبينِ، وربما يحدث فِي قلبِ أحدهما عَلَى الآخرِ حِقد وعداوة، فلهَذَا كَانَ من الأحسنِ تركُه.

وأما قوله فِي الحديث: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**»[1]، فليس المُرادُ حقًّا شرعيًّا، مثلًا: أنا أقول لك: فلان وصل إِلَى هَذا البلدِ، وأنت تقول: ما وصل، فالحَقّ مَعَ الصادقِ، هَذَا هُوَ المحِقّ، وَلَيْسَ المَعْنى الحَقّ الَّذِي هُوَ ضدّ الباطلِ الَّذِي هُوَ الشرعُ.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم (٤٨٠٠) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ عندهم بُرهان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ ثمّة برهان لم يكن للتحدي فائدة إطلاقًا، وبهَذَا نَنتقِل إِلَى آيَةٍ أخرى؛ وهي قوله تَعَالَى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، فقد أعلى بعضُ النَّاس صوتَه بهَذِهِ الآيَة حينما قَالُوا: إن الْكُفَّار وصلوا إِلَى القمرِ، وقال: هَذِهِ الآيَة دليلٌ صريح صحيحٌ واضحٌ ظاهر عَلَى أَنَّهُ يمكن الوصول إِلَى القمر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ والسلطانُ: العلمُ، هَكَذَا قال.

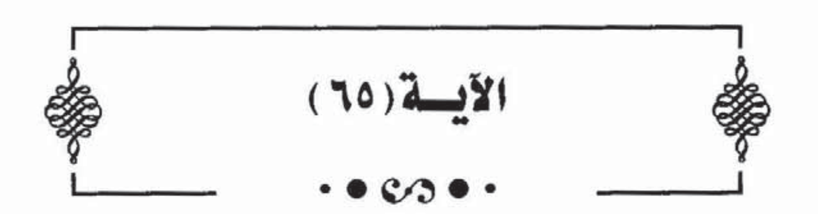
فيقال له: يا غبيُّ، مَن قَالَ لكَ: إن السلطانَ العلمُ، فالسلطان ما به السُّلْطَة، وَهُوَ فِي كُلِّ موضعٍ بحِسَبِهِ، فإذا كنتَ تجادل فِي مسألةٍ علميةٍ فالسلطان العلم، وإذا كنت تريد أن تقطع يد لِصٍّ فالسلطان القدرة عَلَى تنفيذِ قطعِ يدِه وَلَيْسَ العلم، وإذا كنتَ تريد أن تصعدَ مكانًا مرتفعًا فالسلطان الْقُوَّة، فالسلطان فِي كُلِّ مكان هُوَ عبارة عن السلطة عَلَى الشَّيْءِ. فالآن قوله تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، ما معنى السلطان؟ الْقُوَّة والقدرة، ولهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥]، فهل هَؤُلَاءِ أُرسل عليهم شُواظٌ من نار ونُحاس؟! والآيَة ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميعًا، فهل هَؤُلَاءِ نفذوا من أقطار السَّماوَات والْأَرْض؟! هَبْ أَنَّهُم نفذوا من أقطار الْأَرْض لكِن ما نفذوا من أقطار السَّماوَات.

ثُمَّ إِنَّ الآيَة لو كانتْ دالَّة عَلَى ذلك لكان هَذَا التحدي لا معنى له إذا كانوا يستطيعون، لماذا يقال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فالشَّيْءُ المستطاعُ ما يُعْرَض بِمَعْرِض التحدِّي.

ثُمَّ إن الآيَةَ مَسُوقةٌ بين ابتداءِ الخلقِ ثُمَّ الموت ثُمَّ المَوْقِف ثُمَّ الجزاء، وهَذَا يقال لهم فِي الموقف، ذَكَرَ الله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن:٣٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، إِلَى آخره، فذكر جزاء الظالمين وجزاء المُؤْمِنِينَ.

فالحاصل: إنَّ التحديَ فِي مَقام الإمكانِ غير مقبولٍ، ولا يمكن أن يقعَ فِي كلامِ الله ولا فِي كلامِ أيٍّ واحدٍ مِنَ البَشَرِ، كيف تتحدى بما يُستطاع؟!

• • ❁ • •



الآيـة (٦٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة]، الَّتِي فِي السَّماوَات [والنَّاسِ]، الَّذِينَ فِي الْأَرْض، وكذلك الجن ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مَفْعُول (يَعْلَم)، و(مَن) فاعل (يَعْلَم)، و(الغيبَ) مَفْعُول، [أي: ما غاب عنهم]، فيَكُون الغيب عَلَى تقدير المُفَسِّر مصدرًا بمعنى اسْم الفاعلِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [أي ما غاب]، و(غابَ) فِعل ماضٍ له فاعلٌ. والمصدر يأتي بمعنى اسمِ الفاعلِ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ بمعنى عادل، وله أمثلة، كما أن المصدر يأتي بمعنى اسمِ المَفْعُول كثيرًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿ٱللَّهُ﴾ يَعْلَمُه]، جعل (إلا) بمعنى (لكِن) فيَكُون الاستثناءُ منقطِعًا عَلَى رأيِه.

ثُمَّ قدَّر المُفَسِّر (يَعْلَمُه) ليَكُونَ إعرابُ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأً و(يعلمه) خبره، وهَذِهِ الآيَة تحتاج إِلَى مناقشةٍ:

أولًا: لماذا عَدَلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاستثناءِ المتَّصل إِلَى الاستثناء المنقطِع؟

لِأَنَّهُ يَرَى أن الله تَعَالَى لا مكانَ له، فقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هَذِهِ متعلقة بمحذوف تقديره: (استقرّ)، كما هُوَ معروف أن صلة الموصول تُقدَّر

بـ (استقرّ) أو (كَانَ) أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فيقول المُفَسِّـر: إذا قلـتَ: مَنِ استقرَّ فِي السَّماوَات أو مَن كَانَ فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله؛ لَزِمَ أن يَكُون الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيَكُون له مكان، وهَذَا عِنْدَهم مُمْتَنِع، أي: عند المُفَسِّر ومن كَانَ عَلَى عَقِيدَتِهِ، هَذِهِ واحدةٌ.

ثانيًا: نَقُول له: إذا كَانَ الاستثناءُ مُنْقَطِعًا، فالمعروف أن الاستثناءَ المنقطِع إذا سُبِقَ بتامٍّ منفيٍّ يَجِب فِيهِ النصبُ، كما قَالَ ابن مالك فِي الألفيَّةِ[1]:

...وَانْصِـــبْ مَـــا انْقَطَـــعْ وَعَـــنْ تَمِـيمٍ فِيــهِ إِبْـدَالٌ وَقَـعْ

فالمشهورُ عندَ العرب أَنَّهُ إذا كَانَ الاستثناءُ منقطعًا وجبَ فِيهِ النصبُ، وهنا لَيْسَ منصـوبًا، فقال: نحن نجعلُ الجملةَ لا دخلَ لها بالاستثناءِ، ونجعل ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر محذوف؛ لأجل أن لا نخالفَ المشهورَ من كلامِ العربِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن بلسانِ قريشٍ وَلَيْسَ بلسانِ بني تميمٍ.

بعض العُلَماء يَقُول: نحن نتخلَّص ممّا فرّ منه المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ عدمِ إثباتنا المكان لله بأن نَقُول: لا يعلم مَن يُذْكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله، لا نَقُول: ما استقرّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى مذكور فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْضِ، وحينَئِذٍ يزول الإشكال الَّذِي من أجلِه قَطَعَ المُفَسِّر الاستثناءَ.

والخلاصة: أن الاستثناء هنا متَّصل، وأن الله تَعَالَى له مكان، وأن مكانه فِي السَّمَـاء، وقد سأل النَّبِيّ ﷺ الجاريةَ فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» فَقَالَتْ: فِي السَّمَـاءِ[2]،

---

(١) ألفية ابن مالك - الاستثناء (ص:٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كَانَ من إباحة، حديث رقم (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأشار النَّبيّ ﷺ إِلَى السَّماء حينما أشهدَ ربَّه عَلَى إقرار أُمَّتِهِ بإبلاغ رسالتِه، فقال وَهُوَ يخطب فِي عرَفَةَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى السَّمَاءِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[(١)].

فهَذَا دليل عَلَى أن الله فِي السَّماء، ويَكُون الاستثناء في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ متصلًا، ويَكُون ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا من (مَنْ) كما إذا قلتَ: ما قام القوم إِلَّا زيدٌ، فإن الاتباعَ أَولى هنا، وإن كَانَ يجوز النصبُ، فعليه نَقُول: الاستثناء متصل وَلَيْسَ فِيهِ إشكال عَلَى عقيدةِ أهل السنَّة والجماعة، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ ولا إشكال فيه.

ومثل هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، يعني فِي مجموعها، وإن كَانَ هُوَ في السماءِ؛ لأنّ قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لمجموع الاثنينِ، فهُوَ يقين أَنَّهُ لا يخرج عنْ الِاثنينِ، لَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي واحدٍ منهما، بدليلِ العقلِ والنقلِ، كما تقول: فلان أميرٌ فِي مكَّةَ والمَدينَةِ، وإن كَانَ فِي واحدةٍ منهما، فالمَعْنى أن إمارتَه ثابتةٌ فِي مجموعِهما، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ فِي كلا المكانينِ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، فلا يُمْكِن أن يَكُون فِي المَدينَةِ وَفِي مكَّة، بالنِّسْبَةِ لهَذَا الأميرِ، فهنا الألوهية ثابتةٌ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض، وإن كَانَ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّمَاءِ، بل فوق السَّماء، وَلَيْسَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّماء السابعةِ، فهُوَ فوقَها عَلَى العَرْش، وبينَ العَرْش وبينَ السَّماءِ مسافات اللهُ أَعْلَمُ بها، فالمَعْنى (في السَّمَاء) أي فِي هَذِهِ الجهةِ، مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، أي فِي جهتينِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٦٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النَّبيّ ﷺ، حديث رقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمّا قول بعض العُلَماء: إن نور القمرِ يَنعكِس أيضًا عَلَى السَّماوَات ويَكُون له نور من جهةِ الْأَرْض ونور من جهة السَّماء فليس بصحيحٍ، بل المَعْنى (فيهنَّ) أي: فِي جهتينِ، وإن كَانَ القمر فِي الحقيقةِ ما تخلل السَّماء الدُّنْيا حَتَّى كَانَ فِي جهة السَّماء الثَّانِيَة والثَّالثة والرَّابِعة، لكِن الجهة بينهن واحدة.

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يَعْنِي: من فِي السَّماوَات والْأَرْض لا يَعْلَمُون الغيبَ إِلَّا الله، وأين الله؟

في السَّماوَات، أي فِي جهتها، والسَّماء: العُلُوُّ، أو نَقُول: (في) بمعنى (عَلَى)؛ أي عَلَى السَّماء.

يَبقَى عندنا عَلَى رأيِ مَن يقولُ: إنَّهُ لا يجوز للمسلمِ أنْ يعتقدَ أنَّ الله فِي السَّماء؛ لِأَنَّ الله لَيْسَ له مكانٌ، عَلَى زعمهم، كيف نُخَرِّج الآيَة؟

نخرِّج الآيَة عَلَى ثلاثة أوجهٍ: إمَّا أن نجعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلقًا بفعل مناسبٍ، ويَكُون التَّقْدير: (مَن يُذكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلا الله) وَعَلَى هَذَا يَكُون الاستثناء متَّصِلًا، وَهُوَ مرفوعٌ عَلَى البدليَّة، ولا إشكال فيه، يعني لا إشكال فِيهِ من حَيْثُ الإعرابُ، لكِن من حَيْثُ المَعْنى غير مُسَلَّمٍ، هَذَا وجهٌ.

الوجه الثاني: يَقُولُونَ: نجعل الاستثناء منقطعًا، ويَكُون الرفعُ هنا عَلَى لغةِ بني تَميمٍ الَّذِينَ يجوِّزون الإبدالَ ولو كَانَ الاستثناء مُنقطِعًا.

الوجه الثَّالث: أن نجعل الاستثناءَ منقطعًا، ولكِنه لَيْسَ تابعًا لما سبق؛ بل هُوَ مبتدأ وخبره محذوفٌ، وَهُوَ الَّذِي مشَى عليه المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: [لَكِن الله يَعلَمه].

وهَذِهِ التفسيراتُ والتَّقْديراتُ ممَّا حذَّر مِنْهَا النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ:

«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]، وَفِي روايةٍ: «فَقَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَصَابَ»[٢]، فالذي يُفَسِّر الْقُرْآن عَلَى حَسَبِ عَقيدتِهِ، هَذَا الحقيقة أَنَّهُ جانٍ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومتقوِّل عَلَى اللهِ بلا علمٍ؛ لِأَنَّ الواجبَ أن تفسّر الْقُرْآن بما دلَّ عليه، ثُمَّ تجعل عقيدتك تابعةً له.

ولهَذَا يَقُول العُلَماء: استدلَّ ثُمَّ اعتقِدْ، ولا تَعْتَقِدْ ثُمَّ تَسْتَدِلّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي يَعتقِد أوَّلًا ثُمَّ يستدلّ الغالب عليه أَنَّهُ يُخضِع الأدلَّة إِلَى مُعْتَقَدِهِ، كما هُوَ معروفٌ الْآنَ تَجِدون هَذَا فيما يَتَكَلَّم النَّاس فِيهِ فِي العقائد، وتجدونه أيضًا حَتَّى فيما يتكلمون فِيهِ فِي الأحكام، فإن مَن يَنتمي إِلَى مَذْهَب إذا جاءت النصوصُ الدالَّة عَلَى خلاف مَذْهَبِه تجده يَسْلُك فيها أحدَ مسلكينِ: إمَّا إبطالها إن أمكنه، فيقول: هَذَا ضعيف ومردود وَلَيْسَ بمقبولٍ، وإن لم يمكنْه الإبطال سعَى بالتحريفِ لأجلِ أن تطابِقَ مذهبَه، وهَذِهِ عِلَّةٌ قَلَّ مَن يَسْلَم مِنْهَا إِلَّا مَن شاء الله؛ وَهُوَ أن يجعل عقيدته وحُكْمه تابعًا للدليلِ، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلّ مسلمٍ أن يُجْعَلَ تابعًا للدليل؛ لأجلِ أن يَكُونَ تابعًا، والنصوص تكون متبوعةً، أَمَّا أن يعتقد أولًا -سواء كَانَ هَذَا الاعتقاد فيما يتعلق بالعقائد والأُمُور الخبريَّة، أو مما يَتعلَّق بالأحكام العَمَليَّة- ثُمَّ بَعْد ذلك يحاول أن يحرِّفَ النصوص إليها فهَذَا غير مسلَّم ولا يجوز للمرء.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى، كتاب كتابة القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، حديث رقم (٨٠٨٥)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥١)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث رقم (٣٦٥٢)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥٢)، عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ماذا يُجاب عَمَّن قَالَ: إن الإِيمانَ أَوَّلُ مَرَاتِبِه الحَيْرة والشكّ ثُمَّ الاستدلال، إِلَى آخره؟

نُجيبُه بأن هَذَا لا دليلَ عليه؛ فإن النَّبيّ ﷺ دعا النَّاس وهم لَيْسَ عندهم شكٌّ ولا حَيرة، بل جُحُود وإنكار، ثُمَّ انتقلوا منَ الجحود والإنكار إِلَى الإقرار والاعترافِ.

ونَقُول أيضًا: هَذَا الكَلامُ الَّذِي لا دليلَ عليه، هُوَ باطلٌ أيضًا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا شكَّ فقد لا يَتَخَلَّص من هَذَا الشكِّ، والله تَعَالَى ما دعا عبادَهُ إِلَى الشكِّ والحَيرة؛ بل دعاهم إِلَى الإِيمانِ بعدَ الكفرِ مباشرةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن أوَّل مراتبِ الإِيمانِ الحَيرة يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧]، ففي أوّل أمرِه قَالَ: هَذَا ربي، وهَذَا ربي؟

الجواب: قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قالَهُ لإقامةِ الحُجَّة، وتَقَدَّم هَذَا كثيرًا، وذكرنا هَذَا المثالَ؛ وهو إلزامُ الخَصْمِ بما يَعْتَرِف به، فالمَعْنى أنتم تَعْبُدُونَ هذه الكواكبَ والشَّمْسَ والقمرَ، فهَذَا ربِّي، فمثلًا: إذا جَلَسْتَ مَعَ أُناسٍ جِلْسَةَ المُقْنِعِ، وكلٌّ منهم يَقُول: هَذَا ربِّي، وهنا ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، ثُمَّ تَنَقَّلَ بهم. ولهَذَا قَالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، ولم يقل: وتلك أدِلَّتنا أَقْرَرْنا بها إبراهيمَ، فإبراهيمُ ﷺ ما كَانَ فِي قلبِه أدنَى شكٍّ فِي هَذَا الأَمْرِ وأنها آلهةٌ باطلةٌ، لكِن لأجلِ إقامةِ الحُجَّة عَلَى هَؤُلَاءِ.

وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن إبراهيمَ: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]،

وحديث: «نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]، فنَقُول: هل إبراهيم ﷺ شكَّ؟ إبراهيم ﷺ ما شكَّ، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فَهم البعض لكانَ يَقتضي أن إبراهيمَ قد شكَّ، ونحنُ أَولى بالشكِّ منه، ولكِن معنى هَذَا نَفْيُ شكِّ إبراهيمَ، والمَعْنى لو كَانَ إبراهيم ﷺ محَلًّا للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به، ونحن لم نشكَّ؛ لِأَنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَم علمَ الْيَقينِ بأن الله قادرٌ عَلَى إحياء الموتى، وكذلك الصحابة، فلم يقل للصحابةِ: هل أنتم تَشُكُّون؟

إِذَنْ: لو كَانَ هناك شكٌّ لكِنَّا نحنُ أَولى به منه، فإبراهيم والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه ما شَكُّوا، ولكِن المَعْنى أنكم الْآنَ تعلمون ما فِي أنفسكم من الْيَقينِ، فإن إبراهيم كذلك يعلمُ، ولو كَانَ فِي الأَمْرِ مكانٌ للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به من إبراهيم، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فهم السائلِ لكان يَقتضي أن إبراهيم قد شكَّ ونحن أَولى بالشكِّ منه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كفار مَكَّة كغيرهم ﴿أَيَّانَ﴾ وَقْتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، يعني ما يشعرُ أحدٌ متى يُبعَث النَّاس؛ لِأَنَّ علم الساعة إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا أحدَ يشعر متى تكونُ الساعةُ، حَتَّى لو جاءتْ علاماتها وأشراطها فإِنَّنا لا نستطيعُ أن نُحَدِّدها بالتعيينِ ونَقُول: بقِي عليها كذا سنةً، كذا شهرًا، ولو مَعَ وجودِ الأشراطِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقول المُفَسِّر: [وقتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، فِيهِ إشكالٌ من جهةِ النحوِ، والإشكالُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، حديث رقم (٣١٩٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم (١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُوَ أنَّ ﴿أَيَّانَ﴾ هَذِهِ ظرفٌ لَكِنَّها اسْتِفْهاميَّة، و(وقت) ظَرف مجرَّدة منْ الاسْتِفْهامِ، ولِهَذَا تفسير (أيَّان) بـ(وقت) قُصورٌ، ولو قَالَ المُفَسِّر: (متى يُبعثون)، لكان هُوَ المناسِب؛ لِأَنَّ (أيَّان) ظرف وهي متضمِّنة للاسْتِفْهامِ معلَّقة للفعلِ عن العَمَلِ؛ الفِعْل: ﴿يَشْعُرُونَ﴾، فالجملة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فِي محل نصب لـ(يشعرون)، ولو كَانَ التَّقْدير: وقت يبعثون؛ لم يكن فِي الجملةِ تعليقٌ.

فإِذَنِ: المُفَسِّر بتقديرِهِ: [وقت] ضيَّع علينا مسألتينِ:

المسألة الأولى: ما تَضَمَّنَتْهُ ﴿أَيَّانَ﴾ منْ الِاسْتِفْهام.

والمسألة الثَّانِيَة: كون الجملة هنا فِي محَلّ نصبٍ؛ لِأَنَّهَا معلّقة بـ﴿أَيَّانَ﴾، وَعَلَى تقديره تكون ﴿أَيَّانَ﴾ نفسها هِيَ المَفْعُول، هَذَا ما ينبغي التنبُّه له؛ لِأَنَّهُ ينبغي أن يَكُون التفسيرُ اللفظيُّ خاصَّةً مطابقًا للمفسَّر فِي كُلِّ الأحوالِ.

مسألة: مَنِ ادَّعى أَنَّهُ يعلم متى يُبعَث؛ فما الحكمُ؟

هو كافر، فالَّذِي يَقُول: إن القيامة ستكونُ فِي سنةِ ألفٍ وأربعِمائةٍ وأربعَ عَشْرَة، ونشرَ هَذَا فِي صحف لبنانَ عن كاهن، استنتج أَنَّهَا تكون فِي ألف وأربعمائة وأربعَ عَشْرَةَ، يعني ما بَقِيَ إِلَّا اثنتا عَشْرَة سَنَةً، فهَذَا الَّذِي يصدِّقه أو يشكّ فِي خبره، حَتَّى ولو لم يصدِّق بخبره بل يَكُون عنده تردُّد، يُعتبَر كافرًا؛ لِأَنَّهُ يَجِب الجزمُ بتكذيبِ هَؤُلَاءِ، فيجب أنْ نَجزِم بأن هَؤُلَاءِ كاذبونَ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يعلمَ أحدٌ متى تقوم الساعةُ إِلَّا اللهُ.

والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلمُ البشرِ، وجِبريل أعلمُ الملائكةِ، لَمَّا سألَهُ قَالَ: «**مَا المَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1]، فلا أحد يدري متى تقومُ الساعةُ إِلَّا اللهُ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبِيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم

وهَذِهِ الأشراطُ أيضًا علامة عَلَى قُرْبها، لكِن القُرْب نِسبيّ، لا تظنَّ أن القربَ ثلاثونَ سنةً، أربعونَ سنةً، مائةُ سنةٍ، حَدَّثَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصحابَه يومًا منَ الأيام والشَّمْسُ عَلَى رؤوسِ النخلِ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا»[1].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن توجيهَ الخطابِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَقُولَ قولًا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهَذَا القَوْلِ؛ لِأَنَّهُ عبارة عن رسالة خاصة.

والْقُرْآن كلُّه الرَّسُولُ مأمورٌ أن يقوله للناسِ، لكِن إذا خصَّ بعض الآيَاتِ بكلمةِ: (قُلْ) فهذا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ تَعَالَى بهَذَا الأَمْرِ، حَيْثُ أوصاه بتبليغِهِ وَصِيَّةً خاصَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا يعلم أحدٌ الغيبَ إِلَّا اللهُ، فالَّذِي فِي المستقبَل لا يعلمه أحدٌ إِلَّا الله بكلِّ حالٍ، والحاضر أو الماضي قد يُعْلَم، ودعوَى عِلْمِه ليستْ من علمِ الغيبِ. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يُحَيِّرُونَ ويُخْبِرُونَ عمَّا جَرَى عَلَى العبدِ فهَؤُلَاءِ ليسوا ممن يَدَّعُون علمَ الغيبِ؛ لِأَنَّهُ إمَّا ماضٍ أو حاضرٌ وَهُوَ معلومٌ، لكِن قد يَكُون غائبًا عن البشرِ شاهدًا للجنِّ؛ لِأَنَّ الجن يعلمون الشَّيْء البعيدَ ويخبرون مَن يصحبهم من الإنسِ.

الساعة، حديث رقم (٥٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النَّبِيّ ﷺ أصحابه بما هُوَ كائن إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢١٩١)؛ وأحمد (٣/ ٦١) (١١٦٠٤)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَلَى هَذَا فما نُحَدِّث به عن بعضِ النَّاسِ أَنَّهُ إذا جاءهم المريضُ قَالُوا: أنت أصابك كذا وأصابك كذا وأصابك كذا، ويَكُون الأَمْر كما أخبرَ؛ هَذَا لَيْسَ من دعوى الغيبِ، فتصديقه لَيْسَ كفرًا باللهِ. لكِن يَبْقَى النظرُ فِي حالِ هَذَا الرجلِ؛ هل هُوَ مستقيمٌ فإِنَّنا حينئذٍ نَرْكَن إليه ولا حرجَ علينا إذا ذهبنا إليه، أَمَّا إذا كَانَ غير مستقيمٍ بحيث إن الجنَّ لا تَخْدُمُهُ إِلَّا بشركٍ وكفرٍ فَإِنَّهُ لا يجوز لنا أن نذهبَ إليه؛ لما فِي ذلك من الإعانةِ عَلَى الكفرِ.

وقد ذكر شيخ الإِسْلام أنّ الجنّ يخدمون الإنسَ لمصالحهم؛ لمصالح الجنّ، فإذا كانوا كفارًا فإنهم قد يخدمونهم إذا أشركَ الإنسيُّ بالله، وقد تَعْشَقُ امرأةٌ من الجنِّ رجلًا من الإنس وتقول له: أنا أَخْدُمك بشرطِ أنْ يَفْعَلَ بها، أو كذلك رجلٌ من الجنّ يَعشَق امرأةً من الإنس، فيحصل الأَمْر كذلك، فيَكُون الأول شركًا؛ الَّذِي أشرك بالله، والثاني فسوقٌ وزنا، وقد يخدمه لمجرَّد محَبَّته له بدون أيّ سبب؛ فهَذَا لا بأسَ به، وقد يخدمه لله؛ يرى أَنَّهُ عابدٌ وتقيٌّ أو عالم ينفَع النَّاس بعلمه فيخدمه لهَذَا السَّبَب، فما دام أن خِدمة الجنّ للإنس تَتَنَوَّع فإن حكم استخدامِ الإنسِ للجنّ يَكُون بحسَب هَذَا التنوّع، ولا يُقَال: إنَّهُ حرام مطلقًا ولا يُقَال: إنَّهُ جائز مطلقًا، بل عَلَى حَسَبِ الحالِ[1].

وقد بَلَغَنَا أن أحد أهلِ العلمِ كَانَ يُسمَع فِي حَلْقته حركاتٌ بغير مشاهَدةٍ، ويَقُولُونَ: إن الجنّ يحضُرون العلمَ عنده وَإِنَّهُ أحيانًا يَسمعون كلامًا وسؤالًا بدون أن يعلموا بقائِلِه، فهَذَا متواتِرٌ عندنا.

وهَذَا لَيْسَ ببعيدٍ إذا كَانَ الرَّسُول ﷺ حَضَرَه ناس من الجنّ وحضروا الْقُرْآن

---

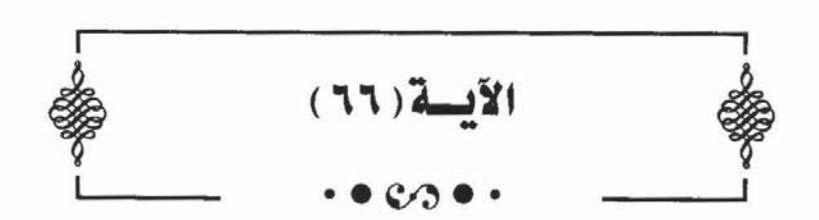
(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧).

وتأدَّبوا، فلمَّا حضروه قَالُوا: أَنصِتوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وأيضًا لمّا سمِعوا الْقُرْآن قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، فورَثَة الأَنْبياء مِن أهلِ العلمِ يمكن أنْ يحضُرَهُمْ أناسٌ من الجنّ يَنتفعون بعلمهم، وَلَيْسَ هَذَا ببعيدٍ، والغالب أن الجنّ لا يُرَى، فالجنّ مثل الملائكةِ، الأَصْل أَنَّهم عالم غيبيّ، لكِن قد يُرَوْنَ.

فإِذَنْ نَقُول: ما كَانَ قد حدثَ من قبلُ أو هُوَ الْآنَ موجودٌ فليسَ من علم الغيبِ، فمَنِ ادَّعى معرفتَه لم يكنْ مكذِّبًا لله ورسولِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إشارة إِلَى أن الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيفيد أن الله فِي العُلُوّ، وقد خرَّج العُلَماء ذلك عَلَى أن ﴿فِى﴾ بمعنى (على) أو أن المُراد بالسَّماوَات الجهاتُ العليا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى فوقَ العَرْش وَلَيْسَ عَلَى نفسِ السَّماء.

••❁••



الآية (٦٦)

• • ✿ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦].

• • ✿ • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ المكذِّبين بيوم القيامةِ عَلَى مراتبَ.

وقد رأيتُ كلامًا للزَّمَخْشَرِيِّ جَيِّدًا فِي هَذِهِ الآيَاتِ[1]، ففي قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ ذكر أن المَعْنى أَنَّهُ بلغ عِلمهم بالآخِرَةِ غايتَه وأُعلموا بها ولم يَنتفعوا، وذكر أن ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ من (الدَّرْك) وَهُوَ الهلاك، يعني أَنَّهُ ضَعُفَ عِلْمُهم فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

فيَكُون بالإضافة إِلَى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ المراتب أربعة: أولًا: نفي الشعور، ثُمَّ ضعف العلم، ثُمَّ الشك، ثُمَّ العمى.

فتكون هَذِهِ الآيَة فيها إضرابات؛ انتقال من الأدنى إِلَى الأعلى، فَإِنَّهُ يَقُول: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ انتقالات، فالأوَّل: نَفْيُ الشعورِ، والثاني: ضعف

---

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

العلمِ، والثَّالثُ: الشكُّ، والرَّابع: العَمَى، يعني عَمَى القلب، والرَّابع أعلاها، يعني لَيْسَ عِنده عِلْم أبدًا، وأيضًا قد يَكُونُ عِنده علمٌ لَكِنَّهُ تَرَكَهُ وتَغَافَلَ عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإِنْسَان الَّذِي لا يريد الحَقّ يَكُون له باعتبارِ قبولِه مَرَاتِب بعضها أشدُّ من بعضٍ، أي أَنَّهُ ينتقل من الأدنى إِلَى الأعلى، ولهَذَا قَالَ أهل العلم: إن المَعاصِيَ بَريد الكفرِ، ومعنى بريد الكفر أَنَّهُ يَنتقل بها الإِنْسَان من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ كما ينتقل البَريد، والبريد هو الساعي بالمكاتِيبِ إِلَى بلادٍ أُخرى، وكانوا فِي الزمن الأول يجعلون الرُّسُلَ بالكتبِ عَلَى مراحلَ، كُلّ بريدٍ فِيهِ مَنْطِقَة، إذا وصل إليها وقفَ وأعطاه الثانيَ، ثُمَّ يسعى الثاني من هَذَا البريدِ رقْم واحد إِلَى البريد رقْم اثنينِ ثُمَّ يقف، ثُمَّ يأخذها من رقم اثنينِ إِلَى رقمِ ثلاثةٍ حَتَّى يُنتهَى إِلَى البلدِ. يفعلون ذلك لِئَلَّا يَشُقَّ عليهم متابعة السير من البلد إِلَى البلد، وهَذَا يَكُون أسرع، ولذلك سُمِّي البريد بريدًا لهَذَا السَّبَب؛ لِأَنَّهُم يجعلون فِي كُلّ مساحةٍ بريدًا منَ الْأَرْض، والبريد كما هُوَ معروف أربعةُ فَراسخَ، والفرسخُ ثلاثةُ أميالٍ، اضْرِب ثلاثةً فِي أربعةٍ باثني عَشَرَ، إذن البريد اثنا عشر ميلًا.

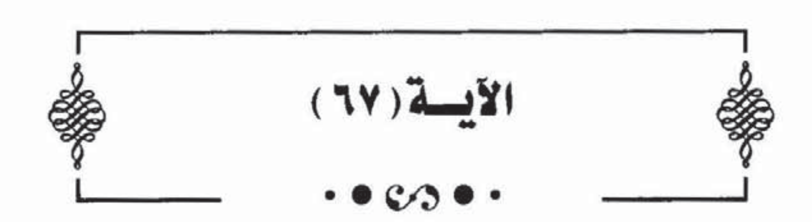
ولذلك كانوا قديمًا يستعملون فِي إيصال الخطاباتِ بسرعةٍ إمَّا البريد كما ذكرنا وَإِمَّا الحمام، فيُربَّى حمامٌ يطير من مَحَلّ إِلَى محل ويعلَّق فِي عُنُقه أو فِي أرجلِه الرسائل، وطبعًا الرسائل ليست كبيـرةً، لكِن قد تكون مثلًا رموزًا وإشاراتٍ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يعرِفها المكتوب إليه.

الشَّاهد: إن الإِنْسَان إذا فعل معصيةً سواء اعتقاديَّة أو عملية فإن الشيطان يتدرَّج به من الأدنى إِلَى الأعلى حَتَّى يصل -والعياذُ بالله- إِلَى الكفرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل الإِيمان باليومِ الآخرِ يزدادون بها بصيرة؛ لِأَنَّ عندهم

يقينًا وعلمًا وطمأنينةً بما أخبر الله به فِي كتابه وَعَلَى لسان رسوله، لكِن هَؤُلَاءِ بالعكس ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ و(مِن) هَذِهِ للابتداء، يَعْنِي: من أجلها صاروا عَمِين، أي: عَمِيَت بصائرهم. وسبب ذلك أَنَّهُم إذا كذَّبوا بها -والعياذ بالله- ازدادوا ضلالًا وظلمًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ ما قَالَ: عنها عَمُون، قال: ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من هَذِهِ الآخِرَة، فبسببِ أَنَّهُم أنكروها ازدادوا عمًى وضلالًا والعياذ بالله.

• • ۞ • •



الآيـة (٦٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:٦٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَلبيس أهلِ الضَّلال للحقِّ بالباطلِ؛ لِأَنَّهُم أنكروا البعث واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنِيهم منَ الحَقِّ شَيئًا، حيث يَقُولُونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُخْرَج، فهَذِهِ الشبهة إِنَّمَا تَنطلي عَلَى الجهّال، أَمَّا عَلَى أهل العلمِ والبصيرة فلا تَنْطَلِي. المهمّ أن نأخذَ من هَـذِهِ الآيَةِ أو من هَـذَا السلوكِ بَيَان أن أهل الباطل يُلَبِّسُون باطلهم بالشُّبُهات الَّتِي يُورِدُونها.

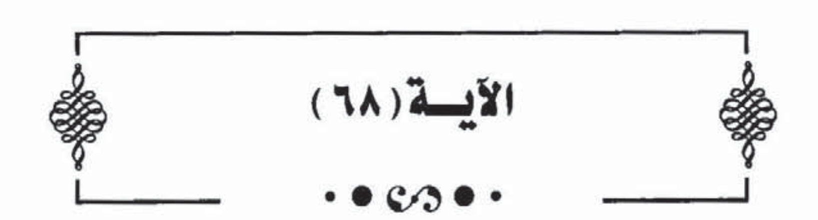
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إنكـارُ هَـؤُلَاءِ للبَعث؛ لِأَنَّ الـهمزةَ فِي قـوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ للإنكار.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمُ احتجُّوا عَلَى تشبيههم هَذَا بأنهم وُعدوا هم وآباؤهم من قبلُ ولم يَرَوْا شيئًا. وهَذَا من التمويهِ وإلا فَهُمْ لم يُوعَدُوا أن يُبعثَ النَّاس اليومَ، بل وُعِدوا أنْ يُبعَثوا يوم القيامةِ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آيَة أخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، فنَقُول لهم فِي ردّ هَذِهِ الشبهة: ما قُلْنَا لكم: إنكم تُبعَثون اليومَ حَتَّى تقولوا: ائتوا بآبائنا، قُلْنَا:

إنكم تُبعَثون يومَ القيامةِ وستُبعَثون، لكِن أهل الباطل يلبِّسون ويشبِّهون عَلَى النَّاس بالشبهات لإقرار باطلهمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأكيدُ إنكارِهِم؛ لِقَوْلِهِم: ﴿أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. يَعْنِي: أتؤكِّدون لنا ذلك والأَمْر بعيدٌ لا يمكِن.

• • ۞ • •



الآيــة (٦٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨].

• • ∞ • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مَن لا يريد الحقّ فَإِنَّهُ لا يَتَبَيَّن له، فالْإِنْسَان الَّذِي لا يريد الْحَقَّ يُحْرَم منه فلا يَتَبَيَّن له؛ لِقَوْلِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨]، فجَعَلُوا أبينَ الأُمُورِ وأصحَّ الأُمُورِ وأوكدَ الأُمُورِ جعلوه أساطيرَ، والأساطيرُ كما هُوَ معروفٌ هِيَ عبارةٌ عن كلامٍ لا أصلَ له غالِبُها أكاذيبُ، فهَذَا القَوْلُ تقدَّم لنا فِي التفسيرِ أَنَّهُ إن كَانَ عن عقيدةٍ فقد لُبِّسَ عليهم الحقُّ، وإن كَانَ عن إنكارٍ فقد جَمعوا بين التكذيبِ بالحق وبين عيبِ الحقّ، يعني جمعوا بين أمرينِ: أَنَّهُم كذبوا وعابوه، وَأَمَّا إذا كَانَ هَذَا عن عقيدةٍ بمعنى أَنَّهُم لا يرون أن هَذَا حقيقة وَأَنَّهُ أساطير فيَكُون هنا قد لُبِّس عليهم الْحَقّ بسبب أَنَّهُم لا يريدونه، ولَا شَكَّ أن من لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يوفَّق له ولا يُيَسَّر له.

وبهَذَا نعرِف أَنَّهُ ينبغي لطالب العِلْم عندما يبحث عن مسألةٍ أَنْ يَبحثَ عنها؛ لأجلِ أن يصلَ إِلَى الحَقّ، لا لأجلِ أَنْ ينصرَ قولَه -ونسأَلُ الله العافية- بمعنى: افرِضْ أنك اختلفتَ أنت وزميلُك فِي مسألةٍ، وأردتَ أن تحقّق ما قلتَ، فأنت عندما تُراجِع وتبحث لا تجعل رائدك أن تنتصرَ لنفسِكَ، فإنك ربما تُحرَم الوصولَ إِلَى الحقِّ، لكِنِ

اجْعَلْ رائدك الوصول إِلَى الحقّ، عسى أن يَكُون معك فتَحْمَد الله تَعَالَى أن يَسَّرَ لك الوصول إليه، وأن جعل بَيَان الحَقّ عَلَى يَدِكَ، أو يَكُون مَعَ خَصْمِكَ فتَحْمَد الله تَعَالَى أنَّ الله تَعَالَى يسَّر لكَ الرجوعَ عن الباطلِ، وهيَّأ لك الوصولَ إِلَى الحقِّ، فأنت عَلَى كُلِّ تقديرٍ فِي نعمةٍ ولكِن لِيَكُنْ رائدك الحقّ. وهَـذِهِ مسألة صعبةٌ جِدًّا عَلَى النفوسِ؛ أن يُراجِعَ الْإِنْسَان فِي مثلِ هَذِهِ الأُمُور لأجل الوصولِ إلى الحقّ، فإن كثيرًا من النَّاس يُراجِع لأجلِ أن ينصرَ قولَه.

افرِضْ أنك تعتقد أن قولك هُوَ الصَّوابُ مائةً فِي المِئَةِ وأنت تراجع لتنصرَ قولَك، فهل هَذَا ينافي النيَّة الصَّحيحة؟

نعم، نَقُولُ: إن كنت تريدُ أن تراجعَ لِتَنْصُرَ قولَكَ لِأَنَّهُ الْحَقّ فهَذَا لا ينافيه؛ لأنك إِنَّمَا تقصِد تقويةَ الحَقّ وإلزام الخَصْم به، وإن كنت تُراجِع بنيّة أن تنصرَ قولَكَ ولو كَانَ هُوَ الحَقَّ فالنيَّة فيها مدخولة.

فالحاصل: أن هَذِهِ مسألةٌ ينبغي للإِنْسَانِ أن يلاحظها، وَهُوَ أن مَن لا يريد الْحَقّ لا يوفَّق له، بل يَلْتَبِس عليه الأَمْرُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَه فِي أبينِ الأُمُورِ وأحقِّها، يَقُولُونَ: إنَّهَا أساطير الأوَّلين. وانظر إِلَى بَيَان السَّبَب فِي قوله تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، يَعْنِي: كلَّا لَيْسَ الْقُرْآن أساطيـرَ الأوَّلينَ، لكِن السَّبَب أَنَّهُم جعلوه أساطيرَ الأوَّلينَ أَنَّهُ ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فعَمُوا عنِ الحَقّ أو تعامَوْا عنه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ قصدُه طلبَ الحَقّ وأحبَّ أن يَكُون هُوَ الحَقَّ، هل فِي هَذَا شَيْء؟

فالجواب: لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحِبُّ أن يصيرَ قوله هُوَ الحقّ يحبّ ذلك لأجلِ أن يَكُونَ إظهار الحقّ عَلَى يدِه، وإن كَانَ قصدُه أن يَكُون قولُه هُوَ الحقّ لأجلِ المغالبةِ فالمسألة فيها دَخَل، وهَذَا مسائلُ النياتِ صَعْب جدًّا عَلَى الْإِنْسَان تحقيقها، حَتَّى قَالَ بعض السلف: إني ما جاهدتُ نفسي عَلَى شيءٍ مُجاهدتها عَلَى الإخلاص، وهَذَا صحيحٌ.

فمِن أصعبِ الأُمُورِ الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لكِن شرط «خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[1] فهَذَا الشرطُ صعبٌ عَلَى كثيرٍ منَ النَّاسِ، وَلَيْسَ كُلّ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فقد سَعِدَ بشفاعةِ الرَّسُولِ ﷺ، أو كَانَ أسعدَ النَّاس بها، بل لَا بُدَّ أن يَكُون خالصًا من قلبِه، وإذا كَانَ خالصًا فثِقْ أَنَّهُ سيكُونُ مُطيعًا لله، ولهَذَا الَّذِينَ يجادلون أحيانًا يَقُولُونَ: كيف تكفِّرون من ترك الصَّلَاة وَهُوَ يَقُول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ويؤمن بالله؟! نَقُول: نعم، لو قالها حقًّا ما تركَ الصَّلَاة، ونَجْزِم جزمًا أَنَّهُ لو كَانَ يعتقد ذلك حقًّا لطلبَ هَذَا الإلهَ؛ لِأَنَّ معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا معبودَ بحقٍّ إِلَّا الله، فأين لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ من رجلٍ لا يعبدُ اللهَ بأعظمِ العباداتِ، ثُمَّ أيضًا لَيْسَ الإِيمان أنك تؤمنُ بأَنَّ اللهَ موجودٌ، وأن هَذَا الكون مخلوقٌ، فهَذَا إيمان حَتَّى الْكُفَّار يؤمنون بهَذَا، فأيّ عاقل لو هُوَ أكفر النَّاس سيؤمن بأن الحوادثَ لَا بُدَّ لها من محدِثٍ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الإيمانَ، فالإيمان أن تؤمنَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بكلِّ ما تَضَمَّنَهُ معنى هَذِهِ الكلمةِ، وقد سبقَ لنا شرحُ الإيمانِ أَنَّهُ يتضمَّن أربعة أمور.

الحاصل: أن فِي هَذَا دليلًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي لا يريدُ الحَقّ لا يُوَفَّق له،

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، حديث رقم (٩٩).

وَأَنَّهُ يُلبَّسُ عليه فيظنّ أن ما جاءت به الرُّسُل من الحقائقِ أساطيرُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِي يطلب الحَقّ هل يصل إليه؟

فالجواب: نعم، إذا سَلَكَ طُرُقَه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا وجدنا شخصًا ضالًّا هل نَجْزِم أَنَّهُ ما طلب الحق؟

فالجواب: لا، لَيْسَ عَلَى كُلّ حالٍ، قد يَكُون هناك أَشْيَاء مَنَعَتْ من هَذَا، عَلَى كُلّ حالٍ نحن نَقُول: إن هَذَا سببٌ، مَن عَمِل صالحًا دخل الجَنَّة، وقد لا يَكُون له ذلك.

فالمهم: أن هَـذِهِ الأَشْيَاء تُذكَـر عَلَى أَنَّهَا أَسْبابٌ، والله يَقُول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القمر:١٧]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، لمّا كَذَّبُوا بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ الله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨-٦٩]، لكِن الْإِنْسَان قد يُحْرَم بأَسْبابٍ تكون خفيَّة عَلَى النَّاس، إِنَّمَـا مَن طَلَبَ الحَقّ بنيَّة وإخلاص فلا بدَّ أن يصل إليه، أَمَّا كون هَـذَا الرجل ما وصل إِلَى الحَقّ ثُمَّ نَقُول: ما طلبه، فلا ندري.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يُشْكِل عَلَى هَذَا قوله ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[1]، فَهُوَ اجتهدَ وطلبَ الحَقّ ولم يَصِلْ إِلَى الحَقِّ؟

فالجواب: أصل الاجتهادِ أَنَّ المجتهِدَ لَا بُدَّ أنْ يَصِلَ إِلَى الحَقِّ، ولا بد أن يَتبيَّن

---

(١) سبق تخريجه.

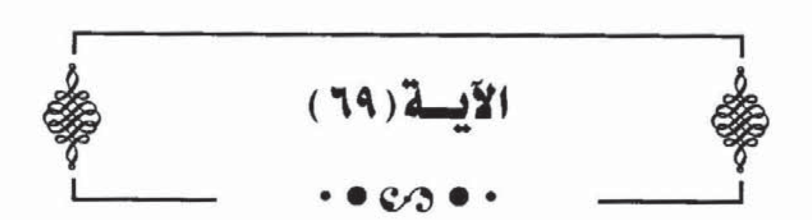
له الحقّ، إِلَّا أَنَّهُ قد يَكُون فِي هَذَا الاجتهادِ سببٌ منَ الأَسْبَابِ منعَ مِنَ الوصولِ إِلَى الحقِّ. وكلُّ مجتهدٍ معه آلةُ الاجتهادِ عَلَى ما يَنبغي.

ونعلم أن الْإِنْسَان المُجتهد إذا سلَك طُرُق الاجْتِهاد فلَا بُدَّ أن يصلَ، وإلا لبقيَ الحَقّ أعمى، لكِن هَذَا المجتهد إذا بذل جهدَه فإنه يصل، وجهده قد لا يَكُون هُوَ السَّبَب الوحيدَ الَّذِي يُوصِل إِلَى الحقّ، يَقُول: هَذَا جَهدي وهَذِهِ طاقتي، لكِن قد يَكُون عنده نقصٌ فِي العلمِ أو نقصٌ فِي الفهمِ، وَأَمَّا نقص السبل فقد يراجع المسألة فِي كتابٍ أو كتابينِ بينما أن هناك كتبًا أخرى تفيده أكثر مما راجع، فيَكُون هَذَا نقصًا فِيهِ، فحينئذٍ يخالفه الصَّوابُ من أجل ذلك، فليس معنى أَنَّهُ اجتهد أَنَّهُ أراد الْحَقَّ فقطْ، بل معناه أَنَّهُ بذلَ ما يستطيعُ مِن جهدٍ.

ولكِن هل بَذْلُ ما يستطيعه من جهدٍ هُوَ الطريقُ المؤدِّي إِلَى الحقِّ؟

الجواب: لا، ثُمَّ إِنَّهُ إنْ طلبَ الحَقّ ومُنِعَ منه فَإِنَّهُ لا يعاقَب عليه، فالشَّيْء الَّذِي يغير اختياره لا يعاقب عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

••۞••



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

•••

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أهميَّة السير فِي الْأَرْض؛ ويُؤْخَذ من أمرِ اللهِ رسولَه أن يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاس.

وَقَدْ قُلْنَا: إن كُلّ حُكْم أو خَبَر يُصَدَّر بـ﴿قُلْ﴾ فَهُوَ دليلٌ عَلَى الاهتمامِ به، كَأَنَّ الله تَعَالَى جعل له عنايةً خاصّةً بالوَصِيَّة بإبلاغِه، وإلّا فجميع الكتاب الرَّسُول ﷺ مأمورٌ بِتَبْلِيغِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكِن كون هَذَا الأَمْر يُصَدَّرُ بـ﴿قُلْ﴾ إذن ففيه عناية خاصَّة بتبليغه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السير فِي الْأَرْض ذو فائدة عظيمةٍ، ولهَذَا أُمِرَ بإبلاغه عَلَى سبيل الخصوص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السائرَ فِي الْأَرْض يَجِب عليه أن يَكُونَ سيره عَلَى سبيلِ التفكُّر والاتِّعاظ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ﴾ والأَمْرُ للوجوبِ، لا سِيّما إذا كَانَ هَذَا المُخَاطَب مُعَانِدًا؛ لِأَنَّ الآيَةَ هنا ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخاطب المعاندين الجاحدينَ، فَإِنَّهُ يَجِب عليه أن يسيرَ وينظرَ؛ لِأَنَّ هَذَا طريقٌ إِلَى هدايتِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عاقبةَ المجرمينَ وَخيمة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ هَذِهِ للتعظيمِ، أي أن عاقبتهم عظيمةُ الوخامةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العِبرة بالعاقبةِ لا بالمبتدَأ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ فإذا رأيتَ هَذَا المجرِمَ قد نُعِّمَ فلا تظنَّ أَنَّهُ عَلَى حقٍّ، بل المعتبَر العاقبة، وستكون عاقبتُه وخيمةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ أيضًا لا تَعْتَبِر الفرد فقط، فإنَّ مِنَ المجرمينَ مَن يبقى فِي تنعيمِه حَتَّى يموتَ، لكِن العِبرة بالكلِّ؛ ولِهَذَا قَالَ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فإن المجرمينَ مهما كانوا لا يمكِن أن يستقرَّ لهم قَرارٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: فِي الوقت الحاضرِ الْآنَ لا نَرى أن المجرمين عُوقِبوا، بل إنَّهُم مُنَعَّمُونَ غاية التنعُّم؟

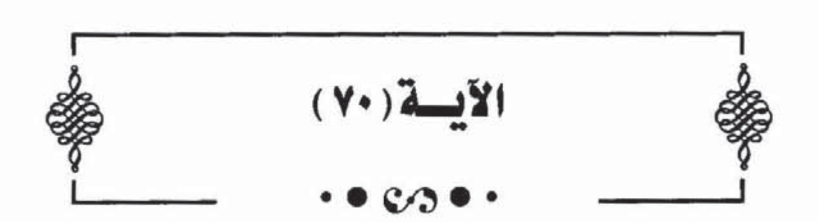
فيقال: إن هَذِهِ الأُمَّة قد عهِد الله إِلَى نبيها ﷺ ألا يُعذِّبَهم بسَنَةٍ عامَّة[1]، ولَكِنَّنا نَرى فِي هَؤُلَاءِ المجرمين مِنْ جَعْلِ البأسِ بينهم وتفرُّقهم، وكذلك أيضًا عدم استقرارهم ما هُوَ عُقُوبة، فإن الَّذِي يَخْرُجُ إِلَى تلك الأُمَمِ يجد أَنَّهُم ليسوا مستقرِّين، حَتَّى إننا نَسمع أَنَّ الْإِنْسَان ما يأمَنُ أن يجعلَ فِي جيبه دراهمَ، وَأَنَّهُ لو وُجِدَ فِي جيبه دراهم قُتِل، ولذلكَ لا يَتعامَلون هناكَ إِلَّا بالأوراقِ؛ أَوْرَاق التحويلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا بِاسمٍ خَاصٍّ نَسِيتُه؛ أوراقٌ يُكتَب فيها أن هَذِهِ تُمَثِّل كذا دولار؛ لِأَنَّهُم لا يمكن أن يَتَعَامَلوا بالدراهمِ حتى لا يُقتل الْإِنْسَان.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩)، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

وحدَّثني إِنْسَانٌ ذَهَبَ إِلَى أمريكا هَـذَا العامَ يَقُول: إنك لا تَأْمَنُ أنْ تَضَعَ ثلاثمائةِ ريالٍ بمخباتك، وهَذَا أعظمُ ما يَكُون منَ العذابِ؛ لِأَنَّ اللهَ يقولُ فِي عُقُوبة القريةِ الآمنةِ المطمئنَّة: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، فهَبْ أن هَؤُلَاءِ لَيْسَ عندهم جوعٌ ولكِن عندهم خوفٌ.

• ● ۞ ● •



الآيـة (٧٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الداعيَ إِلَى اللهِ إذا بَذَلَ ما يَجِب عليه فلا يَنبغي أنْ يحزنَ لمخالفةِ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، والحِكْمَةُ من ذلك: أنَّ حُزْنَ الْإِنْسَان عَلَى مخالفةِ النَّاسِ يُعِيقُه عن الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، ويَسْتَحْسِر من أجلهم؛ لِأَنَّهُ لا يمكن للنفسِ أنْ تَمْتَدَّ وتسير وهي حزينةٌ، ولكِن أنتَ سِرْ عَلَى حَسَبِ ما أُمرتَ؛ إنِ اهتدى النَّاس فلكَ ولهم، وإنْ لم يهتدوا فلكَ وعليهم، ولهَذَا إذا حَزِنَ الإِنْسَان فِي هَذِهِ الأُمُورِ فَإِنَّهُ ييأسُ ويستحسر ولا يَنْشَرِح صدرُه ولا تنبسط نفسُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عناية الله تَعَالَى بالرَّسُول ﷺ بالتسلية والتفريج عنه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وجه ذلك: أنَّ نَهْيَهُ عن أنْ يَكُونَ فِي ضيقٍ معناه أنَّ مكرَهُم لا يَضُرُّهُ، وإن ضاقتْ به نفسُه فإن ذلك لا يضرُّه؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي لا يُهمّك أَمْرُهم ولا تَضِق منه، فإن لدينا ما هُوَ أعظمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هَذَا الأَمْرُ يَكُونُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره؛ فكُلّ من يدعو إِلَى شريعةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّنا نُوجِّه إليه هَذَا الخطابَ، ونَقُول: إذا

رأيتَ النَّاسَ لم يَقْبَلُوا فلا تَحْزَنْ ولا تكنْ فِي ضِيقٍ ممَّا يمكرونَ، وإلَّا فإن أعداء الرُّسُلِ سوفَ يمكرون بالدعاةِ إِلَى دينِ الرُّسُلِ، وسوف يَبُثُّونَ ضِدَّهُمُ الدعاياتِ وسوف يُؤْذُونَهم بالقَوْل ويُسْمِعُونهم ما يَكْرَهُون، وربما يؤذونهم بالفِعْل، والْإِنْسَانُ عليه أن يَصْبِرَ.

والنَّبيّ ﷺ جاء بأبين الأُمُورِ وأُوذِيَ فِي بيته وَفِي بدنه حاضرًا ومسافرًا، إِلَى حدّ أَنَّهُم يأتون بِسَلَى الجزور ويَضَعُونه عليه فِي المَسْجِد الحرامِ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا، يضعونه عليه وَهُوَ ساجدٌ لله، فهل يوجد أبلغ من هَذِهِ أذيَّة؟! يأتون بالقاذورات والعَذِرَات ويُلْقُونها عَلَى عَتَبَةِ بابِهِ[1]، مَعَ أَنَّهُم يُجِيرُونَ أفسقَ النَّاس وأفجرَ النَّاس إذا جاء إِلَى مكَّة، ولا يجيرون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وعندما ذهب الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الطائف لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الله سَخِرُوا به واسْتَهْزَؤُوا به واصطفُّوا صَفَّيْنِ منَ السفهاءِ والغِلمان وغَيرهم وجعلوا يَرْمُون النَّبيَّ ﷺ بالحجارةِ حَتَّى أَدْمَوْا عقِبَهُ، ولا أفاق إِلَّا وَهُوَ فِي قَرْنِ الثَّعَالِبِ، ومعَ ذلك صبرَ، وقد جاءه مَلَكُ الجبالِ يَسْتَأْذِنُهُ أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال: «**بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ**»[2].

إِذَنْ: إذا رأينا هَذَا نعلم أَنَّنا ما أصابنا هَذَا الأذى الَّذِي أصابَ الرَّسُولَ ﷺ إِلَى الْآنَ، ونسألُ اللهَ العافيةَ، ومعَ ذلك تجد الْإِنْسَان منّا يَتَضَجَّر عندما يسمعُ كلمةً

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قَالَ: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم (٣٠٥٩)؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٥).

ويقول مثلًا: أنا لستُ بملزومٍ، دَعنا نُداهِن النَّاس ونمشي مَعَ العالمِ.

وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فأنتَ إذا كنتَ قويًّا فِي الحَقّ فالحقُّ مَنصورٌ، ولا يَلْزَم أن يَكُون نَصْرُه فِي حياتِكَ وَعَلَى يَدِكَ، قد يتأخَّر النصر لكِن تكون أنتَ فاتحةَ خيرٍ لدينِ اللهِ، ولذلك نصرُ الحَقّ لَيْسَ بلازمٍ أنْ يَكُونَ فِي حياةِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ بلازمٍ أن يَكُونَ فِي عصرِهِ، الْآنَ نحن نَفْرَح بانتصارِ الْمُسلمينَ فِي بدرٍ، مَعَ أننا ما ذُقنا طعمَ هَذَا النصرِ مباشرةً، لكِن لِأَنَّهُ الحقّ انتصرَ، ونفرح بأن الله أنجى موسى وأهلَكَ فِرْعَوْنَ، مَعَ أننا لم نَطْعَم هَذَا النصرَ، ولكِنه نصرُ الحقِّ، فالمؤمنُ يفرح بانتصارِ الحَقّ ويرى أَنَّهُ انتصار له فِي أيّ زمانٍ وَفِي أيِّ مكانٍ، إذا كَانَ صادقًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لِأَنَّ العاقبة للمتَّقين، وعاقبة الْمُشْركينَ أسوأُ عاقبةٍ.

• ● ۞ ● •



ﷺ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٧١].

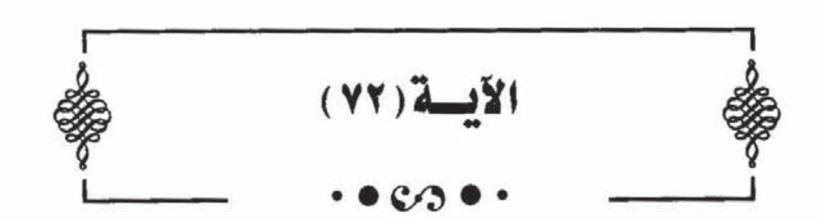
•• ☙ ••

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَفَهِ هَؤُلَاءِ حَيْثُ استعجلوا عذابَ الله، وقَالُوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان عُتُوِّهِم وطُغيانهم؛ لِأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهامَ إن كَانَ عَلَى سبيلِ الاستبعادِ فَهُوَ سَفَه، وإن كَانَ عَلَى سبيلِ السخريَةِ من هَؤُلَاءِ وأنهم يَقُولُونَ: إِنَّ مَا تَعِدُونَنَا كَذِبٌ؛ بدليلِ أَنَّهُ لم يَقَعْ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فَهُوَ دليلٌ أيضًا عَلَى عُتُوِّهِم وطُغيانهم، حَيْثُ تَحَدَّوُا الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ والسلامُ- بهَذِهِ الكيفيَّة. والظَّاهرُ أَنَّهُ من بابِ التحدِّي؛ يَدُلّ عليه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومثل هَذِهِ العبارة تكون للتحدِّي.

•• ۞ ••



الآيــة (٧٢)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢].

• • • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ البلاءَ موكلٌ بالمَنْطِق، وأن الْإِنْسَان إذا استعجلَ الشَّرَّ وقعَ فِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قَالَ ابن عباس- إذا جاءتْ فِي كلامِ اللهِ فهي للوجوبِ[1]؛ لِأَنَّ معناها التوقُّع، وأن هَذَا أمرٌ قد حانَ وَقْتُه؛ إذ إنَّ الترجِّيَ بالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ غيرُ مُمْكِنٍ؛ لِأَنَّ الترجِّيَ طلبُ ما فِيهِ عُسْرٌ، ولا شَيْء عسير عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

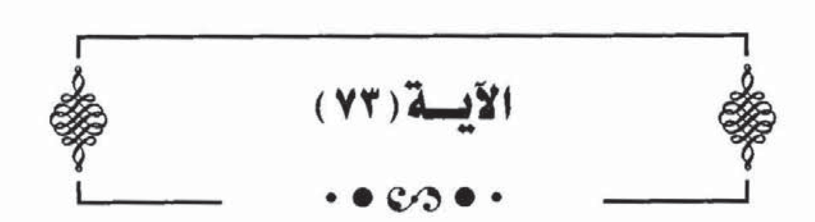
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة حِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ (بعض) دون الجميع، وهَذَا من حِلْم اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَاده، فإنّ هَؤُلَاءِ المكذِّبين لِرُسُلِهِ المنابِذِينَ لهم المتحدِّينَ لهم يُقَال لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وَلَيْسَ هَذَا بأوَّل دليلٍ عَلَى حِلْمِ اللهِ؛ بل له أمثلةٌ كثيرةٌ فِي الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠]، يُحْرِقون أولياءَهُ بالنَّار ويَعْرِض عليهم التوبةَ، فهَذَا من أعظمِ الحِلْمِ؛ لِأَنَّهُ لو رُدَّ الأَمْرُ إِلَى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥).

مراعاةِ العدلِ لأحرقَ اللهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أحرقوا أولياءَهُ، ولا يَعْرِض عليهم التوبةَ، ولكِنَّ حِلْمَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واسعٌ، ورَحْمَته سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

فهنا قَالَ: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ لا كُلّ الَّذِي تَسْتَعْجِلون، ونَقُول: هَذَا فضلٌ، وباب الفضل أبلغُ فِي الكمالِ، فهَذَا فضلٌ لِأَنَّ العدلَ أن يُعَاجِلَهُمْ بالعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم فعلوا الذنبَ، وفاعلُ الذنبِ يُعاقَبُ عليه، بل هَذَا فضلٌ، والفضل أعلى من العدلِ، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُعَامَلَتُه لعبادِهِ دائرةٌ بينَ الفضلِ والعدلِ، وهناك أمرٌ ثالثٌ وَهُوَ الجَوْر؛ فإن المعاملة قد تكونُ جَوْرًا أو عدلًا أو فضلًا. والجورُ مُمْتَنِعٌ فِي حقِّ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والعدلُ والفضلُ حُكْمه بين عِبادِهِ دائرٌ بينهما، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

• • ۞ • •



الآيـة (٧٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان فَضْلِ اللهِ عَلَى عِباده.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ العِبادَ وإنْ تَفَضَّلَ اللهُ عليهم فأكثرُهم لا يَشْكُرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذَمُّ غير الشاكرينَ؛ لِأَنَّ الآياتِ سِيقتْ لهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناء عَلَى الشاكرينَ، وهَذَا يُؤخَذ منه بالتضمُّن، وقد سبقَ لنا مِرارًا معنى الشكرِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مجرَّد قول اللسان: أَشْكُرُ اللهَ.


الآيــة (٧٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤].

• ● ● •

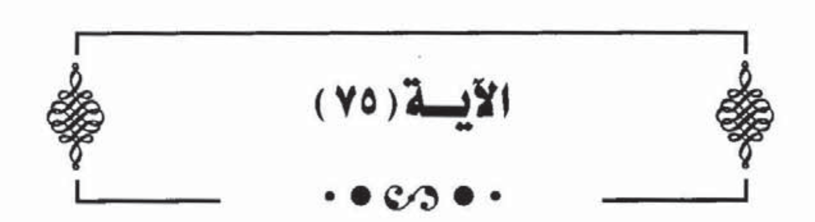
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَعَةِ عِلْم الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وهَذَا دليلٌ عَلَى سَعَة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لا يَخفَى عليه شَيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذير هَـؤُلَاءِ -وغيرهم أيضًا- من أن يُكِنُّوا فِي صدورهم ما لا يرضاه الله؛ لِأَنَّ إخبارَ الله بأنه يَعْلَم ذلك معناه التحذيرُ؛ أن نحذرَ من أنْ نُكِنَّ فِي صُدُورنا ما لا يَرضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن علم الله تَعَالَى بما بَطَنَ كعِلْمِهِ بمـا ظهرَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا فرقَ بين هَذَا وهَذَا عند اللهِ، وإن كَانَ المخلوقُ يَختلِف عنده حُكْمُ الغائبِ والظَّاهرِ، فالغائب لا يعلمه المخلوقُ، والظَّاهرُ يعلمه، وحتى لو علِم الغائبَ بطريقٍ من الطرقِ فإِنَّهُ لا يَستوي مَعَ علمِ الظَّاهرِ؛ أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهما عنده سواءٌ.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٧٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

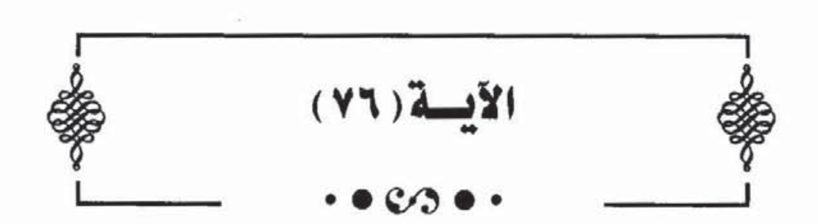
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: كتابةُ اللهِ تَعَالَى كُلّ شيءٍ فِي اللوحِ المحفوظِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويَلْزَم منَ الكتابةِ العِلْم؛ لِأَنَّهُ لا يُكتب المجهولُ.

فإِذَنْ نَقُول: زيادة عَلَى أن الله عَلِمَ ذلك قد كَتَبَهُ فِي اللوحِ المحفوظِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات مرتبتينِ من مراتبِ القضاءِ والقدرِ، وهما: العلم والكتابة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، والْقَدَرِيَّة هم الَّذِينَ يُنْكِرون القَدَر، والْقَدَرِيَّة انقسموا إِلَى قسمينِ: غُلَاة ومُقْتَصِدينَ، فالغُلاة أنكروا حَتَّى العلم والتَّقْدير، وقَالُوا: إن الله لا يَعْلَم ما يعمله العبادُ إِلَّا بعدَ وقوعِه منهم، وَأَمَّا الشَّيْء الباطنُ أو المستقبَل فلا يعلمه، وبالضَّرورَة لم يكتبْه أيضًا، والثَّانِيَة: المقتصدون منهم، قَالُوا: إِنَّ اللهَ عَلِمَ ما الخَلْقُ عاملونَ وكَتَبَهُ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بمشيئتِهِ وخَلْقِهِ، بل المَرْءُ مُسْتَقِلٌّ به.



الآيــة (٧٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الموجودينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنا ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ببَيَان ما ذُكِرَ عَلَى وجهِه الرافعِ للاختلافِ بينَهم لو أَخَذُوا به وأَسْلَمُوا].

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ هَذَا الْقُرْآن يعني المنزَل عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وقرآنٌ إِمَّا مَصْدَر بمعنى اسمِ المَفْعُول، وَإِمَّا بمعنى اسْم فاعلٍ، أَمَّا عَلَى الأوّل (قرآن) مصدر بمعنى المَفْعُول؛ لِأَنَّهُ مَقْرُوء، أي: يُقْرَأ، وَهُوَ أيضًا مقروء من القَرْء بِمَعْنَى الجَمْع، فَهُوَ مجموعٌ وَهُوَ مَتْلُوٌّ، بمعنى الجمع والتلاوة، وَأَمَّا عَلَى أَنَّهُ مصدرٌ فإن (فُعْلان) تأتي مصدرًا؛ مثل الغُفْران والشُّكْران.

فَهُوَ فِي الحقيقةِ مصـدرٌ بمعنى اسْم المَفْعُول، وَإِمَّا مصـدر مُطْلَق كالغفران والشكران، ويَصِحُّ أيضًا أن نجعله بمعنى اسْم الفاعلِ، بمعنى أَنَّهُ جامعٌ لأحكامِ الكتبِ السابقةِ، وهَذَا أيضًا وجهٌ ثالثٌ أن يَكُون الْقُرْآن بمعنى جامِع، وقد ذكرَ اللهُ تَعَالَى أن الْقُرْآن مُهَيمِن عَلَى الكتبِ السابقةِ.

وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القَصُّ بمعنى التحدُّث بالشَّيْءِ، فهَذَا الْقُرْآنُ

يَقُصُّ عَلَى بني إسرائيلَ الموجودينَ فِي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكثرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَختلِفون، وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ أمثلة لهَذَا.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذكور مِنهم والإناث؛ لِأَنَّ الابنَ إذا كَانَ المُرادُ به القَبيلة فَهُوَ شاملٌ للذَّكَر والأنثى، وإذا لم يُرَدْ به القبيلةُ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ مثلًا: هَذَا وقفٌ عَلَى بني مُحَمَّد (مُحَمَّد) شخص، فيَختصّ به الذكورُ، فإذا كَانَ القبيلة كلها تُسمَّى بني مُحَمَّد فَهُوَ للذكورِ والإناثِ.

وذلك مثل بني تَميم؛ إذا كَانَ الْإِنْسَان مُوقفًا عَلَى بني تميمٍ قبل أن يَكُونوا قبيلةً حين وجودِ الجَدّ الَّذِي هُوَ تميمٌ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ، وبعد أن كانوا قبيلةً يَكُون عامًّا للذكورِ وللإناثِ.

إِذَنْ: بنو إسرائيلَ هنا المُرادُ بهم القبيلةُ فيعمّ الذَّكَر والأنثى، وإسرائيل هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، فهم أبناء عمٍّ للعربِ؛ لِأَنَّ العرب أبوهم إسماعيلُ ابنُ إبراهيمَ، وهَؤُلَاءِ أبوهم يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، يعني جَدّهم إِسْحاق الَّذِي هُوَ أخو إسماعيلَ، فهَؤُلَاءِ القوم يُنسبون إِلَى أبيهم، وإسرائيل بمعنى: عبد الله.

وبعض النَّاس اليومَ يَقُولُونَ: كيف نُسمِّي الدولة اليهودية إسرائيلَ، لماذا نسميها بهَذَا، فما الجواب؟

الجواب: أن هَذَا نسبة إِلَى أبيهم، ألسنا نسمِّي العربَ قُرَيْشًا نسبةً إِلَى جدهم قريش، فما نَقُول: بنو قريش، بل نَقُول: قُريش، فهنا تُسَمَّى القبيلة باسم أبيها. وإن كَانَ بلَا شَكّ أنَّ الأنسبَ أنْ تُسَمَّى بما سماها الله به؛ وهو: بنو إسرائيل، عَلَى أننا

أيضًا نشكّ فِي أن هَؤُلَاءِ اليهود الموجودين من بني إسـرائيلَ، لا ندري لعلّهم من أوربَّا أو من غيرها من البلاد الَّتِي ليستْ من بني إسرائيل، لكِن عَلَى كُلّ حالٍ فمثلما العرب الْآنَ يعتبرون العروبةَ بالعربيَّة، فيَقُولُونَ: مَن نطق بالعَربيَّة فَهُوَ عربيّ، وإن كَانَ أصله أعجميًّا، فأولئك أيضًا يَقُولُونَ: مَن نطقَ بالعِبْـرِيَّة فَهُوَ إسـرائيليّ، وإنْ لم يكن من بني إسرائيلَ، ولهَذَا نحن نَجْزِم أن الطائفةَ الْآنَ الَّتِي تُسمَّى اليهود ليستْ كلها من بني إسرائيلَ، بل إِنَّمـا يَنتمون إِلَى هَؤُلَاءِ القومِ باعتبار الجامعِ بينهم وهو اللُّغة.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى﴾ لم يقلْ: كُلّ الذي، بل قَالَ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فمـا الَّذِي يَخْرُج من الأكثرِ؟

يَخرجُ الأقلّ، وذلك أن الْقُرْآن إِنَّما قصَّ عليهم ما فِيهِ مصلحة، أَمَّا ما لا مصلحةَ فِيهِ فَإِنَّهُ لا يَقُصُّه؛ لِأَنَّ الْقُرْآن كما تَعْلَمون هُدًى، وكل ما فِيهِ فَإِنَّهُ له معنًى ومقصود، فالشَّيْء الَّذِي اختلفوا فيه وَالَّذِي لا فائدةَ منه لا يُقَصُّ عليهم، مثلًا اختلفوا فِي لونِ الكلبِ لأصحابِ الكهفِ، فهَذَا لا فائدة فِيهِ فائدة. كذلك اختلفوا فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ من هَذَا النوعِ ما قَصَّها الْقُرْآنُ، مثل البقرة الَّتِي أُمروا بذبحها، فقد اختلفوا مَن هِيَ له، فقيل: إِنَّهَا لإِنْسَانٍ بارّ بابنِه، وَقِيلَ: إِنَّهَا لشيخ كبير، وَقِيلَ أَشْيَاء كثيرة، لكِن هَذَا لا فائدة منه، فأكثر ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مما فِي ذِكره فائدة لهم ولغيرهم يَقُصُّه هَذَا الْقُرْآن ليحكمَ بينهم.

ومن ذلك ما قصَّ عليهم فِي شأنِ عِيسى، فإنَّ عِيسَى كما هُوَ معروفٌ اختلفَ فِيهِ بنو إسرائيلَ، فمِنهم مَن كَذَّبه وأنكرهُ وزَعَمَ أنَّ أُمَّه بَغِيٌّ، ومنهم مَن غَلَا فِيهِ

وقال: إِنَّهُ ابنُ اللهِ أو إِنَّهُ إِلَهٌ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي السَّبْت وغيـر ذلك مِمَّا قصَّ اللهُ علينا فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن قصَّ أكثر الَّذِي هم فِيهِ يختلفونَ، وَأَمَّا ما لا فائدة من قَصِّهِ فتركه.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يَقُصُّ لأجـلِ أنْ يُصَدِّقُوا بالْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ إذا جاء هَذَا الْقُرْآن قاصًّا عليهم ما سبقَ ممَّا فعلوه، والنَّبِيّ ﷺ قد عُلِم بأنه ما درسَ التوراةَ ولا درسَ عَلَى اليهودِ؛ عُلِمَ أن ما جاء به فَهُوَ حقّ، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من كونه يَقُول: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مَعَ أن هَذَا القَصَصَ لبني إسرائيل ولغيرِهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ عندهم من علمِ الكتابِ ما لَيْسَ عند العربِ، فإذا نزل هَذَا الْقُرْآن حاكمًا بينهم ويقصّ عليهم ما كانوا يختلفون فيه، دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ حقّ، فلهَذَا بُيِّنَ لهم لإقامة الحجّة عليهم، واللهُ أَعْلَمُ.

مسألة: القَصص مَصْدَر، والقِصَص جمعُ قِصَّة، ويَصِحّ القَصص بالفتحِ بمعنى قَصّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن كـلام؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقُصُّ﴾ والقصص قولٌ، فالْقُرْآن إذن قولٌ.

ومعلوم أن الْقُرْآن نزلَ منَ الله، فيَكُون قولًا للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما يَدُلّ عَلَى ذلكَ سياقُ الآياتِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [النمل:٧٨]، بهَذَا القَوْلِ الَّذِي قَصَّ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجـوز أن يُخَصَّ طائفةٌ ممن يُخَاطَبون من أجـل إقامةِ الحجّة

عليهم، فإن ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ اعتنَى بهم هنا؛ لِأَنَّ الموضوع فيما يَتَعَلَّق بهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي أن يُعتنى بما هُوَ أهمّ أو بما هُوَ مُهِمّ، ويُترك ما لا فائدةَ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقصّ عليهم جميع ما يختلفون فيه؛ لِأَنَّ ممّا اختلفوا فِيهِ ما لا فائدةَ من ذِكره، أو ما لا داعيَ لِذِكره. وهَذِهِ مسألةٌ يَنبغي للإِنْسَان أن يَعتني بها، بأن يَقتصرَ عَلَى المهمّ أو الأهمّ، وأن يدعَ ما لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ إضاعةٌ للوقتِ وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ، ومن ذلك ما يوجد فِي كثيرٍ من التفاسيرِ؛ يذكرون الخلاف فِي أمور هِيَ فِي الحقيقة واحدة، فتجده مثلًا يذكر الخلافَ عن مجُاهِدٍ ومُقاتِلٍ وعَلْقَمَةَ وابنِ مَسْعُودٍ وابنِ عَبَّاس، والاختلاف بينهم إِنَّمَا هُوَ فِي التعبيرِ فقطْ، فمثلًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ [الإسراء:٢٣]، يَقُول: قَالَ بعضُ العُلَماء: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى وصَّى، وبعضهم يَقُول: بمعنى عَهِد، وبعضهم يَقُول: بمعنى أوجدَ، وبعضهم يَقُول: بمعنى ألزمَ، فهَذَا لا داعيَ له؛ لِأَنَّ كُلّ هَذِهِ الكلمات الأربع تدلّ عَلَى معنًى واحدٍ.

كذلك أيضًا يذكرون الخلافَ فِي ما لا طائلَ تحته، كما ذكروا اختلافهم فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ؛ هُوَ أسود أو أحمر أو أبيض ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي عِدَّة أصحاب الكهف، فإن الله تَعَالَى ذكر الخلافَ وأبطلَ قولينِ وأقرّ الثَّالثَ.

والمهمّ أن الله يَقُول -بعدما ذكر القَوْلين وأبطل الثَّالث-: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف:٢٢]، يَعْنِي: لا تتعمَّق إذا جاء أحد يجادلك فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لا فائدةَ منه، فالشَّيْء الَّذِي لا فائدةَ منه أو فائدته

قليلةٌ ويُضيِّع عليك ما هُوَ أهمّ يَنبغي لك تَجَنُّبُهُ، وهَذَا لَيْتَنَا نَسيرُ عليه فِي حياتنا كلِّها حَتَّى نستوعبَ الوقتَ بما فِيهِ الفائدةُ، لكِن ما أكثرَ الأوقاتَ الَّتِي تَضيعُ علينا، وما أكثرَ الأقوالَ الَّتِي تُقال ونُضِيعُ الوقتَ فيها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إِلَى الخلاف بينَ بني إسرائيلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والاختلاف شرٌّ وليس رحمةً، وَأَمَّا (اختلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ) فموضوعٌ لا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، لكِن لو صحَّ هَذَا الحديثُ مثلًا، أو قاله بعض أهلِ العلمِ من قولِه، فالمَعْنى: أن هَذَا الاختلافَ داخلٌ فِي رحمة الله وَفِي سَعَتِهِ بالنِّسْبَة للمختلِفينَ، أي أَنَّهُم لا يُعَذَّبُون.

وَلَيْسَ المَعْنى أن إيقاعَ الخلافِ بينهم من رحمةِ اللهِ، بل هُوَ من حكمةِ اللهِ، ولكِن رحمة الله وسِعَتْهُم، فلا يُقَال مثلًا: إِنَّهُم معذَّبون بهَذَا الخلافِ، أو إن الواحدَ المصيب منهم له أجرٌ، والباقينَ مَحْرُومُونَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حكم من يَقُول: إذا كَانَ اختلاف العُلَماء رحمةً فلي أن آخذَ ما يناسبني من هَذِهِ الأقوالِ؟

فالجواب: بعض النَّاس يتَّخذ من هَذَا المَعْنى وسيلةً إِلَى جواز الترخُّص، هُوَ يَقُول: اختلافهم رحمةٌ بمعنى أنّ لي أنْ آخذَ بأحدِ الأقوالِ الَّتِي تناسبني، ولكِن لَيْسَ هَكَذَا، فإذا صدرَ من قولِ أهلِ العلمِ فَإِنَّهُ لا يَصِحّ إِلَّا عَلَى الوجهِ الَّذِي قلتُ، إنَّ المَعْنى أن هَذَا الاختلاف داخل تحتَ رحمةِ اللهِ، فلا يُعَذَّبُ أحدٌ عليه.

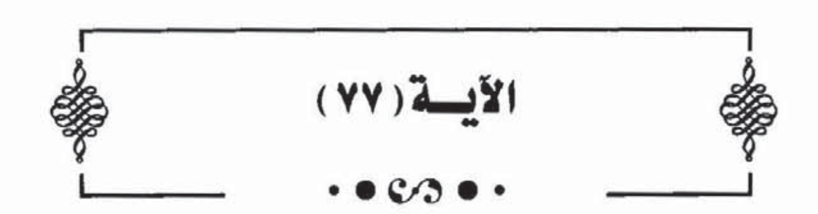
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الاختلاف لَيْسَ بمحمودٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: منذ ظهور الإِسْلامِ إِلَى الْآنَ وظاهرةُ الاختلافِ موجودةٌ،

هل يمكِن أن يَكُون وجودها عَلَى خلافِ المصلحةِ؟

فالجواب: الحِكْمَةُ اقتضتْه؛ لِأَنَّ الصراع بين هَذِهِ الأقوالِ يَتَبَيَّن به الحَقّ أكثر، ولذلك تجد الْإِنْسَان عنـدما يمرّ به قول لا خلافَ فِيهِ لا يتكلَّف الأدلَّة ولا يمرِّن نفسه عليها، فالصراعُ بين المختلفين فِيهِ حكمةٌ، وإلّا لو كانوا عَلَى قولٍ واحدٍ لكانَ أسلمَ بلَا شَكّ، والآيَة صريحةٌ فِي هَذَا.

• • ۞ • •



الآيــة (٧٧)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

• ● ∽ ● •

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الْقُرْآن [﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ هَـذِهِ الجملةُ مؤكَّـدة بـ(إن) و(اللام). والهدى معناه الدلالةُ، فإن الْقُرْآن هدًى، يعني دلالةً، ولكِنه لا يَنتفعُ به إِلَّا المؤمنونَ؛ كما قيَّده به فِي قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سببٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا اهتدى به نالَ رحمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيَكُون رحمة لكِن للمُؤْمِنِينَ، والتقييد بالمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُم المنتفِعون به. وقد ذكرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ هدًى للعالَمِينَ، وَأَنَّهُ هدى للمُؤْمِنِينَ وللمتَّقين، والجمعُ بينهما أَنَّهُ فِي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ وموضعُ دلالةٍ، وَفِي حالة التقييدِ: أَنَّهُ ما انتفعَ به وَوُفِّقَ للاهتداءِ به إِلَّا مَن قُيِّدَ به.

وله هَذِهِ الآيَة من المطلَقِ أو مِن المقيّد؟ من المقيّد بالمُؤْمِنِينَ.

إذًا (هُدًى) هَذَا العلم و(الرَّحْمَة) العَمَل والتَّوفيق؛ لِأَنَّهُ سبب الرَّحْمَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَرتبة الْقُرْآن وفضله، وَأَنَّهُ هدًى ورحمةٌ؛ هُدًى بالدلالةِ ورحمةٌ بالعَمَلِ به.

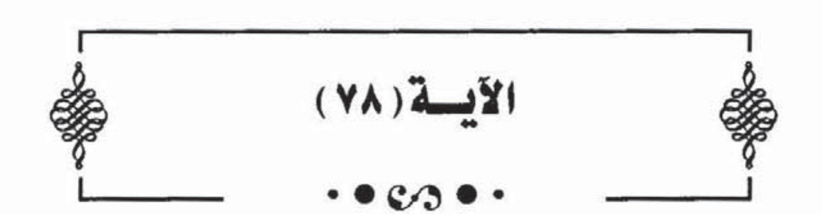
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا ينال هَـذَا الهدى وتلك الرَّحْمَـةَ إِلَّا المؤمنـونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا معارضةَ بينَ هَذِهِ الآيَةِ وبينَ قولِهِ تَعَالَى فِي وصفِ الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، والجمعُ بينهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُخْتَلِف الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليل لهم، فَهُوَ دليل لكلّ النَّاسِ، لكِن هل مَنِ استدلَّ به انتفع به؟ لا، قد يَهتدي به وقد لا يَهتدي، إِنَّمَا هُوَ نفسه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فائدة الإِيمانِ؛ فلو لم يكنْ من فوائدِ الإِيمانِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى؛ وَهُوَ الاهتداء بالْقُرْآن، ونَيل الرَّحْمَةِ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ كلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقوى إيمانًا؛ كَانَ أقوى اهتداءً بالْقُرْآن. وهَذَا مأخوذٌ من قاعدةٍ سَبَقَتْ؛ وَهِيَ أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوصفٍ قَوِيَ ذلكَ الحكمُ بقوَّة ذلك الوصفِ، وضعُف بضعفِ ذلك الوصفِ، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحْمَةُ معلَّقة بوصفِ الإِيمانِ فكلما ازداد هَذَا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحْمَةُ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل:٧٨].

• • ❀ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ كَغَيْرِهِم يومَ القيامةِ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عَدْلِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُم به؛ فلا يمكِّن أحدًا مخالَفتَه كما خالفَ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيا أنبياءَهُ].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل؛ لِأَنَّ السياقَ فيهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمختلِفون يحتاجون إِلَى مَن يَحْكُمُ بينهم أيّهم عَلَى الصَّوابِ، فحُكْمُ اللهِ بينهم فِي الدُّنْيا ويَحْكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، حَكَمَ بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزله فِي الْقُرْآن المستفاد من قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ويحكمُ بينهم يومَ القيامةِ بالحكم العدلِ.

فمن جُملةِ ما قصَّ الله علينا فِي الْقُرْآن القضاءُ بين بني إسرائيلَ، فبنو إسرائيلَ اختلفوا فِي أَشْيَاءَ؛ كاختلافِهِمْ فِي المَسيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغيرِهِ، فحكمَ اللهُ بينهم بالْقُرْآن بأن هَؤُلَاءِ مُصيبونَ وهَؤُلَاءِ مخطِئون، فبيَّن أن اليهودَ أخطأوا والنصارى أخطأوا أيضًا، والمعتدِلون مِنَ النصارى أصابوا، لكِن الحكم الَّذِي يترتَّب عليه الثوابُ والجزاءُ يَكُون يومَ القيامةِ، فهنا الحكمُ فِي الدُّنْيا ما يَتبيَّن به الْحَقّ منَ الباطلِ،

وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ ما يَتَرَتَّب عليه الثوابُ والعقابُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ كغيرِهم يومَ القيامةِ]، لا يَتعيَّن أن يَكُون هَذَا القضاءُ يومَ القيامةِ، بل قد يَكُون فِي الدُّنْيا أيضًا، فإن القضاءَ كما يَكُون يومَ القيامةِ يَكُون أيضًا فِي الدُّنْيا.

وقد قَضَى بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزلهُ فِي كتابِهِ، وبَيَّنَ الَّذِينَ عَلَى حقٍّ والَّذِينَ عَلَى باطلٍ من بني إسرائيلَ، وهَذَا نوعٌ منَ القضاءِ، ويومَ القيامةِ يَقضِي بينهم قضاءً يَتَرَتَّب عليه الثوابُ؛ إمَّا بالعقوبةِ وَإِمَّا بالإحسانِ.

فالحاصل: أن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ لا يَتعيَّن أن يَكُون يوم القيامة كما قيَّده به المُفَسِّر؛ لِأَنَّ القضاءَ كما يَكُون فِي الآخِرَةِ يَكُونُ فِي الدُّنْيا.

وقول المُفَسِّر: [كَغَيْرِهِم] يفيد أن القضاءَ يومَ القيامةِ لَيْسَ بينَ بني إسرائيلَ فقطْ، بل بينهم وبين غيرهم، وهَذَا أمرٌ لَا شَكَّ فِيهِ ولا حاجةَ إِلَى تقديره؛ لِأَنَّهُ ما دام السياق فِي بني إسرائيلَ فإن كلمةَ (كغيرهم) لا يَنبغي أنْ تُقْحَم فِي هَذِهِ الآيَة؛ لأنك إذا أقحمتَ كلمة (كغيرهم) يَكُون كالاعتراضِ عَلَى الْقُرْآن؛ لِأَنَّ معناه أن المَقامَ يَقتضيه ولكِنه لم يبينْ. فنَقُول هنا: لا حاجة إِلَى تقديرِ: (كغيرهم) بل هُوَ يَقضِي بينهم. والآيَة هنا لم تَتَعَرَّض للقضاءِ العامّ، وَأَمَّا القضاء العامّ فَهُوَ مستفادٌ من آيَاتٍ أُخرى.

قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدلِه، وهنا أضاف الحكمَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأمرينِ:

الأَمْرُ الأوّل: أَنَّهُ حكمٌ مُتَضَمِّن للعدلِ.

والأَمْرُ الثاني: أَنَّهُ حكمٌ لا يُعقَّب، بل لَا بُدَّ أن يُنَفَّذ، بخلافِ حُكم غيرِه فَإِنَّهُ

عُرْضَة للخللِ من الناحيتينِ؛ من ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غيرَ عدلٍ، ومن ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غير مُنَفَّذ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عدله، وهَذَا طرفٌ أو جزءٌ مِمَّا يَدُلّ عليه قوله ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾؛ إذ إِنَّهُ يَدُلّ عَلَى الأَمْرينِ اللذينِ ذكرنا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]، وقد تقدَّم فِي شرح الأسماء الحسنى أن العزيز له ثلاثةُ معانٍ، وهي: عِزّة القهر، وعزة القَدْر، وعزة الامتناع؛ لِأَنَّ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه المُمْتَنِع عن كُلّ نقصٍ الَّذِي لا يَلْحَقه نقصٌ، وَأَنَّهُ غالب وَأَنَّهُ ذو قَدْرٍ عظيمٍ.

وغالبًا ما يفسِّر المُفَسِّر وغيره ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بالغالبِ؛ لِأَنَّهُ أظهر معانيه، ولأنه يَكُون أحيانًا فِي سياقٍ يَقتضي أن تكون الغَلَبَة أَخصَّ به من غيرها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُمُ به]، وهَذَان الأَمْران من شروطِ الحُكم؛ لِأَنَّ مَن حَكَمَ بغيرِ علمٍ أصاب حُكْمَه الخللُ، ومن حَكَمَ بغير عزّة أصاب حكمه الخللُ أيضًا:

فالأوّل الَّذِي هُوَ فواتُ العلمِ: يَحصُل به خللُ الحكمِ فِي إصابةِ الصَّوابِ؛ لِأَنَّ مَنْ حَكَمَ بغيرِ علمٍ فإصابته للصوابِ من باب المصادفةِ.

الثاني: إذا فاتت العزّة حَصَلَ الخَلَلُ بالحكمِ، لا من ناحية الصَّوابِ ولكِن من ناحيةِ التنفيذِ، فَإِنَّهُ إذا كَانَ لَيْسَ له عِزّة وحَكَمَ بأمرٍ فقد يخالَف فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّ الضعيف الَّذِي لَيْسَ عنده عِزَّة لا ينفّذ، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليتبينَ الأَمْرانِ، فالحكم يَفتقر إِلَى الوصفينِ جميعًا؛ وهما العزّة والعِلم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُقَدِّمُ العزيزَ عَلَى العليمِ، والعلمُ سابقٌ من حَيْثُ الترتيبُ الحكميُّ؛ إذ إِنَّهُ يَعْلَم ثُمَّ يَحْكُم ثُمَّ يُنَفِّذ؛ لِأَنَّ العزة تتعلَّق بالتنفيذِ، والتنفيذ بعدَ الحكمِ، والعلم يتعلّق بالحكمِ، والحكمُ سابقٌ عَلَى التنفيذِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ فِي أن يقدِّم العزَّة هنا عَلَى العلمِ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ المقامَ هنا يقتضي بَيَان قوّة حُكم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هَذَا الحكم لَا بُدَّ أن يَنْفُذ؛ لِكونِه صادرًا عن عزيزٍ، فَكَانَ من المناسِبِ تقديم العزّة عَلَى العلم.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى عن الملائكة لما قالت امرأةُ إبراهيمَ حينما صكّت وَجْهَها وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩]، قالوا: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠]، فقدّموا الحِكمةَ عَلَى العِلمِ، مَعَ أن العلم سابقٌ؛ إذْ لا حكمةَ إِلَّا بعلمٍ، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا أمرًا خارجًا عنِ العادةِ ومُسْتَغْرَبًا قدَّموا الحِكْمَةَ لِيَتَبَيَّنَ لها أَنَّهُ ما خَرَجَ ذلك عنِ العادةِ إِلَّا لحكمةٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يُمَكِّن أحدًا مخالفته كما خالفَ الكفّار فِي الدُّنْيا أنبياءَه]، الحكم فِي الدُّنْيا -كما قَالَ المُفَسِّر- يخالَفُ، والمُراد الحكمُ الشرعيّ، أَمَّا الحكمُ الكونيّ فلا يمكن أن يُخَالَف؛ لا فِي الدُّنْيا ولا فِي الآخِرَة، فلا أحدَ يَقدِر أن يخالفَ اللهَ، والحكمُ الشَّرْعِيّ يمكِن مخالفتُه فِي الدُّنْيا كما هُوَ كثيرٌ، بل أكثرُ النَّاسِ يُخالِفون الحكمَ الشَّرْعِيّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّ بني آدمَ مِنهم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألفِ كلهم مخالِفون للحكمِ الشَّرْعِيّ، وواحد فِي الألفِ موافِقٌ للحُكم الشَّرْعِيّ، والدَّلِيل حديث آدمَ أن الله يناديه يوم القيامةِ فيقول: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ

تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ وهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ»[1]. هَذَا النصّ.

يقولُ ابنُ القَيِّمِ فِي النونيَّة[2]:

يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـيْسَ يَنَالُهـا فِي الْأَلْـفِ إِلَّا وَاحِـدٌ لَا اثْنَـانِ

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن القَضاء موكولٌ إِلَى اللهِ وحـدَه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كُلّ قضاءٍ لا يَستنِد إِلَى قضاءِ اللهِ فَهُوَ باطلٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ العدلِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ فإن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى العدلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَـذَا الحُكْمَ يَتَضَمَّن الحُكم الشَّرْعِيّ والحكمَ الجزائـيّ، فيقضي بينهم بحُكمه شرعًا فِي الدُّنْيا، وبجزائه عدلًا فِي الآخِرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وهَذِهِ مستفادةٌ من التفسيرِ.

وتقدّم أن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تقتضي أمرينِ: أحدهما: العدل، والثاني: الإصلاح.

يعني ما دامَ حكمًا مضافًا إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد عُلِم أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيمٌ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قِصَّة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣١٧٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النَّار؛ من كُلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، حديث رقم (٢٢٢)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٣٥٤).

فإن هَـذَا الحكمَ لَا بُدَّ أن يَكُون مناسبًا وموافقًا لَمحَلّه. وكلُّ حُكم وافقَ مَحلّه فَهُوَ إصلاح؛ لِأَنَّ هَذَا يتضمَّن العدل والإصلاح.

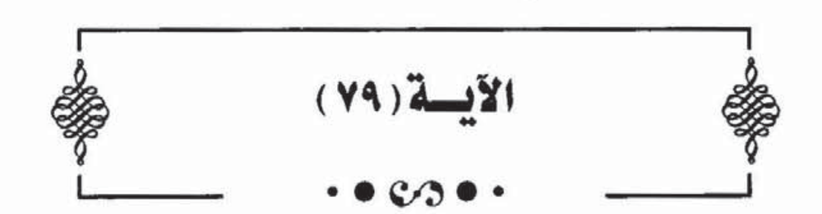
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وصف الله تَعَالَى بالعزّة والعلم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَرْن العزّة مَعَ العلم فِي هَذَا الموضعِ يُستفاد منه فائدة مستقلّة غيـر فائدة العزّة عَلَى حدةٍ والعلم عَلَى حدةٍ، يعني يُستفاد من جمعهما فائدة مكوَّنة منهما، وهي: أن حكمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أن ينفذَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، ولا بد أن يَكُون مطابِقًا وصحيحًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأَنَّنا قُلْنَا فيما سبق: إن من تمامِ الحكمِ العلمُ والعزّة، فالعِلم ليحكمَ بالصَّوابِ، والعزّةُ لينفذَ ما حكمَ به، وإن خلل الحكم يأتي إمَّا منَ الجهلِ وإمَّا من الضعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكم بغير الصَّواب، وَإِمَّا لضعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ.

إِذَنْ: يُؤخَذ من جمع هذين الوصفينِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَقِبَ ذِكْرِ الحكم: تمام حكمِ اللهِ، حَيْثُ كَانَ مبنيًّا عَلَى العزّة والعلمِ، فبالعزّة يَكُون التنفيذُ، وبالعلم يَكُون الصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تقديم الأخصّ مِنَ الأوصافِ عَلَى الأعمِّ، فالأخصُّ معناه الأنسبُ للقضيّة، فهنا قدَّم العزّة عَلَى العلمِ مَعَ أن العلمَ سابقٌ عليها فِي التـرتيبِ الحكميّ؛ ففِي الترتيب الحكميّ العلم أسبقُ؛ لِأَنَّ الإِنْسَان يعلم ثُمَّ يحكم ثُمَّ ينفِّذ. لكِن هنا قدَّم العزَّةَ على العلمِ فِي الذِّكر، وقد تقدّم فِي التفسيرِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٧٩)

• • • •

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

• • • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثِـقْ بِه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الدِّين البَيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الكفَّار].

قوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والأَمْر هنا للوجـوبِ، والتوكُّل نصفُ الدينِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، ولا استعانةَ إِلَّا باعتمادٍ، ولهَذَا يَقُولُونَ: إنَّ الدِّين عِبادةٌ وتَوكُّل؛ عبادةٌ يَفعلُها الْإِنْسَان، وتَوكُّل يَعتمِد به عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هنا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثِقْ به]، وفسَّره غيرُه بأنَّ التوكُّلَ هُوَ الاعتمادُ عَلَى اللهِ مَعَ الثِّقَة، فلا بدَّ مِن اعتمادٍ وثقةٍ، وبهما يَكُون التوكُّل، فقد تَعْتَمِدُ عَلَى غيرِ اللهِ مثلًا لكِن لا تَثِق به، وقد تَعْتَمِد عَلَى إِنْسَانٍ فِي أنْ يشتريَ لك شيئًا، ولكِنَّك مَعَ هَذَا لا تَثِقُ به، وقد تَثِق بالْإِنْسَان فِي أمانتِه ولكِنَّك لا تَعْتَمِد عليه لِضَعْفِه، والأوَّل إمَّا لضعفه أو خيانته، أَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيَجِب عليكَ أنْ تَعْتَمِد عليه واثقًا به، ولا يُمْكِن تحقيقُ التوكُّل إِلَّا بهَذَا.

إِذَن: التوكُّل عَلَى اللهِ: الاعتمادُ عليه مَعَ الثِّقة به، فلا بدَّ منَ الأَمْرينِ؛ من اعتمادٍ وثقةٍ. والأَمْرُ بالتوكّل لا ينافي فِعْلَ الأَسْبابِ الصَّحيحةِ الَّتِي تؤثِّر فِي المُسبَّبات؛ فإن

الرَّسُول ﷺ بلَا شَكّ كَانَ سيّدَ المتوكِّلين، ومع ذلك كَانَ يفعل الأَسْبَاب الَّتِي تحصُلُ بها المنافعُ وتَندَفِع بها المضارُّ؛ كَانَ يأكل ويشرب ويلبس. وَكَانَ أيضًا يتّخذ ما يَقِي مِنَ الضَّرَرِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي أُحُدٍ ظَاهَرَ بينَ دِرْعَيْهِ[1]، يَعْنِي: لَبِسَ دِرْعَيْهِ، كُلّ ذلكَ تقويةً للأَسْبابِ الَّتِي تندفِعُ بها الأضرارُ.

فإِذَن: التوكُّل عَلَى اللهِ لا يَعني أَلَّا تأخذَ بأَسْبابِ النجاحِ، بل خُذْ بالأَسْبَابِ مَعَ الاعتمادِ عَلَى اللهِ تَعَالَى والثِّقة به أنْ يَنْفَعَ بهَذَا السَّبَب.

ولمَّا حَجَّ قومٌ من أهل اليمنِ وَلَيْسَ معهم زادٌ قَالُوا: نحن نحجّ ونحن المتوكّلون؛ فماذا قيل لهم؟ قيل لهم: أنتمُ المتواكِلون[2]، ففرقٌ بين التواكُلِ والتوكّل، فالإِنْسَان الَّذِي يريد أنْ تأتيَه الأُمُورُ بدونِ فِعْلِ أَسْبابها هَذَا متواكِل وَلَيْسَ عنده عقلٌ، والبهائم والحشرات وغيرها تفعل الأَسْبَاب، مَعَ أنّ الَّذِي قامَ بِرِزْقِها وتكفّل به هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، ومع ذلك تجدها تفعل الأَسْبَاب، بل قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[3]، لم يقلْ: تبقى فِي أوكارها ويأتيها رِزْقُها، قَالَ: تغدو، أي: تَذْهَب فِي الصباحِ فِي الغدوِّ خِماصًا،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، حديث رقم (٢٥٩٠)؛ والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب التحصين من الناس، حديث رقم (٨٥٨٣)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السلاح، حديث رقم (٢٨٠٦)؛ وأحمد (٣/ ٤٤٩) (١٥٧٦٠)، عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٨١) (١٢١٥)، موقوفًا عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، حديث رقم (١٤٥١)، موقوفًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين؛ وأحمد (١/ ٣٠) (٢٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعْنِي: جائعةً، وتَرُوحُ فِي آخرِ النَّهار بِطانًا: مَلآنة بُطُونُها.

فالإنْسَان المتوكِّل هُوَ الَّذِي يأخذُ بالأَسْبَاب النافعةِ، أَمَّا الأَسْبَاب الَّتِي لا تنفعُ فإن الأخذَ بها نوعٌ من الشِّرْك، فكُلّ مَن أخذ بسببٍ لَيْسَ بنافعٍ -يعني ما دلَّ عَلَى نفعه الحِسّ ولا الشَّرع- فَإِنَّهُ قد فعَلَ نوعًا منَ الشِّركِ. ولهَذَا التمائمُ والتعوُّذات والتِّوَلَة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ من الأُمُورِ الَّتِي يَزْعُمُون أَنَّهَا تفعل وهي لا تفعل؛ جَعَلَها النَّبِيّ ﷺ منَ الشِّرْكِ؛ لأنَّنا نَقُولُ فِي تقريرِ هَذَا: كُلّ مَنِ اتَّخذ سببًا غيرَ نافعٍ، يعني لا يَدُلّ عَلَى نفعِه شرعٌ ولا حِسٌّ، وإن شئتَ قُلْ: شرع ولا قَدَر؛ فَإِنَّهُ مُشْرِك.

ووجه كونه مشركًا أنه أثبتَ سببًا لم يجعلْه اللهُ سببًا، فكَانَ مُشَارِكًا لله تَعَالَى هنا فِي تقديرِه؛ لِأَنَّ مقدِّر الأَسْبَاب وجاعلَ الأَسْبَابِ سببًا هُوَ اللهُ، فهَذَا إِلَى اللهِ، فأنت إذا قلتَ: هَذا سببٌ، وَهُوَ لَيْسَ بسببٍ؛ فقد أشركتَ مَعَ الله، وجعلتَ نفسَكَ شَريكًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَنِ اتخذ سببًا مُحَرَّمًا مثل الرِّبا، هل يُعَدُّ مِنَ الشِّركِ؟

فالجواب: هَذَا لا يُعدّ مِنَ الشرك؛ لِأَنَّ هَذَا السَّبَب حِسِّيٌّ، فكونه سببًا للرزقِ سببٌ حِسّيّ، لَكِنَّهُ مُحَرَّم شرعًا، فالذي يُرابي اتَّخذ وسيلةً تُحَقِّق له الرِّبْحَ قَدَرًا؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ: أُعطيك عشرةً وتردّها اثني عَشَرَ، فهَذَا سببٌ للربحِ، لَكِنَّهُ سببٌ قدريٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ ما أذِن فِيهِ شرعًا، لكِن إذا وقعَ عَلِمنا أَنَّهُ أذِن فِيهِ قَدَرًا، وهَذَا لَيْسَ بشِركٍ؛ لِأَنَّهُ سببٌ قَدَرِيٌّ، إِنَّمَا هُوَ محرَّم لِأَنَّهُ منهيٌّ عنه شرعًا.

إِذَن: التوكُّل عَلَى اللهِ هُوَ الاعتماد عَلَى الله مَعَ الثقةِ به، لَيْسَ مجرّد الاعتماد، بل مَعَ الثقة، ولا ثِقة إِلَّا برجاءٍ. ثُمَّ إن التوكّل قُلْنَا: لا ينافي فعلَ الأَسْبَاب الَّتِي جعلها الله تَعَالَى سببًا شرعًا أو قَدَرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَصِحُّ أن تقول لفلانٍ منَ النَّاس: أَعتمِد عليك فِي إنجاز هَذَا الأَمْر؟

فالجواب: ليس فيها شيءٌ، بشرطِ أن يَكُونَ حقيقةً ممَّا يُمْكِنُ الاعتمادُ عليه فيه؛ لِأَنَّ الاعتماد على الأَسْبَاب الحقيقيَّة جائزٌ، لكِن مَعَ اعتقادِ أَنَّهُ سببٌ لا أَنَّهُ مستقلّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ قول العوامّ عِندنا: (وَكِّلِ الله)؟

فالجواب: الظَّاهرُ أن معنى (وَكِّلِ الله) عندهم: اعتَمِدْ عَلَى اللهِ، وَلَيْسَ المَعْنى: اجْعَلِ اللهَ وَكِيلًا لكَ، أو معناه أن الله تَعَالَى يَكُون شاهدًا عليك، فليس المقصود أنِّي أنا فِي قِيامي بأمركَ مثل قيام الله تَعَالَى بأمرِكَ، فهم قصدُهم: اعتمد عليَّ الله ووكِّلْه عليَّ شهيدًا؛ لأَنَّنا لو نَظَرْنا إِلَى ظاهرِ اللفظِ فالمَعْنى أني أنا لكَ بمنزلةِ اللهِ، وهم لا يريدون هذا، أو المَعْنى (وَكِّل الله) أيِ: اعتمِدْ عَلَى الله، وكذلك قولهم: (اتكل عليَّ) لَيْسَ فِيهِ شَيْء، وقولهم: (الله وكلك) لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، أي جَعَلَكَ وكيلًا لي بالصيغةِ الَّتِي نطقت بها؛ لِأَنَّهُ الله وكَّله بلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ إذا وقع الأَمْر فَهُوَ بقضاءِ اللهِ، وكذلك قولهم: (اتَّكِلْ عَلَى اللهِ) فهَذِهِ صحيحةٌ وطيِّبةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن]، فسَّر المُفَسِّر الحَقّ بالدينِ، والمبينَ بالبيِّن، وَلَيْسَ هَذَا بجيدٍ؛ لِأَنَّ الدينَ منه حقٌّ ومنه باطلٌ، ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، وهَذَا هُوَ الدين الباطِلُ، فالدينُ الحَقّ يَظْهَر عَلَى الدِّين كلِّه، أي: عَلَى الدينِ الباطلِ. فتفسيرُ المُفَسِّر الحَقَّ بالدينِ قُصُورٌ بلَا شَكّ، بلِ الحَقّ هنا الثابتُ بِصِدْقِ أخباره وعدل أحكامِهِ.

وأَمَّا قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ففسَّره بالبيِّن، وَعَلَى هَذَا جعل (أبان) من اللازِمِ؛ لأَنَّ بان يَبِينُ فَهُوَ بَيِّن، وأبان يُبِينُ فَهُوَ مُبِين. وهل تَصِحّ أن تكونَ بمعنى (مُظْهِر)؟

الجواب: لا، بَيِّن هنا أنسبُ مِن مُظْهِر، فهَذَا الْحَقّ بَيِّنٌ ظاهرٌ.

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تثبيتٌ للرَّسُولِ ﷺ عَلَى أنْ يَبقى عَلَى ما هُوَ عليه مُعتمِدًا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا عَلِم أَنَّهُ عَلَى حقٍّ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ وتَرْسُخُ قدماهُ، وإذا كَانَ شاكًّا أو مُتَرَدِّدًا فَإِنَّهُ لا يثبتُ، فَأَمَرَه أن يعتمدَ عليه، وَبَيَّنَ له أن ما كَانَ عليه مِنْ هَذَا الدِّينِ فَهُوَ حقٌّ بَيِّنٌ ظاهِرٌ.

وإعراض هَـؤُلَاءِ الْمُعْرِضِينَ عنه لا يَقْدَحُ فِي كونِه بَيِّنًا؛ لِأَنَّ البلاءَ لَيْسَ منَ الْقُرْآن؛ فالبلاءُ مِنهم، ولهَذَا أعقبهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

فالحاصل الْآنَ: أن اللهَ أمرَ نبيَّه أنْ يَعتمِدَ عَلَى اللهِ، وبَيَّنَ له الحالَ الَّتِي كَانَ عليها، وأن هَذَا الدينَ حقٌّ بَيِّنٌ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن إعراضَ مَن أعرضَ عنه لَيْسَ لِقُصُورٍ فِي بَيَان هَذَا الدينِ وظهورِه، ولكِن لِقُصُورٍ فِي هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضينَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ هنا بالنِّسْبَةِ إليهم لم يصادِفْ مَحَلًّا، وكما هُوَ معروفٌ أن الأَمْرَ إذا لم يُصادِفْ مَحَلًّا قابلًا لم يَثْبُتْ، حَتَّى إنَّ الْإِنْسَان لَيَقْرَأُ آيَةً عَلَى مريضٍ فَيَشْفَى، ويَقْرَؤها عَلَى مريضٍ آخرَ بنفسِ المرضِ فلا يَشفَى؛ لِأَنَّ المريض الأوّل قابِلٌ مؤمنٌ بتأثيرِهَا والثانيَ لَيْسَ مؤمنًا بتأثيرها فلا تَنْفَعه، فلا بدَّ فِي الأُمُورِ من قابليّةٍ، يعني مَحَلًّا يَقْبَلُ هَذَا الشَّيْء، وإذا لم يَقْبَلْ فلا يُمْكِن أن يُلائِمَه.

وهَذَا كما أَنَّهُ فِي الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة، كذلك أيضًا فِي الأُمُورِ الْقَدَرِيَّة، فلو أَنَّنا زَرَعْنَا قلبًا فِي إِنْسَانٍ، ونفرَ منه الجسمُ فلا يبقَى، بل يموتُ، أو زَرَعْنَا كُلْيَةً فِي إِنْسَانٍ ونفرَ مِنْهَا الجسمُ، فإنها لا تَبْقَى، فتَتَعَفَّن ويموت، فكل شَيْء لَا بُدَّ أن يَكُون المحلُّ قابلًا له، فإنْ لم يقبلْه فلا مكان له.

فهؤلاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا عنِ الْقُرْآن إِعْرَاضُهُمْ لَيْسَ مَعْنَاهُ النَّقْص فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن حقٌّ بَيِّنٌ واضحٌ، لكِن البلاء مِنهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب التوكُّل عَلَى اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والأَصْل فِي الأَمْرِ الوجوبُ، ومعنى التوكُّل سَبَقَ تفسيرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ بالتوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتَيَسَّر الأُمُورُ؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يُكَابِد مِنْ عنادِ بني إسرائيلَ وغيرِهم، فأمر الله بالتوكُّل عليه؛ لِأَنَّ الله ذكرَ فائدةَ التوكُّل فِي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فبالاعتمادِ عَلَى اللهِ تَتَيَسَّر الأُمُورُ، وباعتماد الْإِنْسَان عَلَى نفسِهِ يحصُل الخِذلان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، مَعَ أن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معهم، ومع أَنَّهُم خَيْرُ القرونِ وأفضلُ أهلِ الْأَرْض، فلمّا قَالُوا: «لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»[1] حَصَلَ هَذَا الأَمْر.

فيَتَبَيَّن بهَذَا أنّ مَنِ اعتمدَ عَلَى نفسِهِ فِي حصولِ مَقصودِهِ أو دَفْعِ ضَارِّهِ فَإِنَّهُ يُخْذَلُ، ولهَذَا أمر اللهُ رسوله بالتوكُّل عَلَى الله فِي هَذَا المقام -مَقام النِّزاع وبَيَان الحَقّ لبني إسرائيلَ- وَهُوَ يكابد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسليةُ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(١) رواه أبو عوانة في مسنده (٦٧٥٤)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٣) وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ١١٣)؛ زاد المعاد (٣/ ١١١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ والخامِسَةُ: شَهادة الله تَعَالَى لِمَا جاء به الرَّسُول بأنّه حقّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ ومن هَذِهِ الفائدةِ نَستفيد فائدةً أُخرى، وهي: الترغيبُ فِي سلوكِ طريقِ النَّبيّ ﷺ ما دامَ حقًّا؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقلٍ يَختار الحَقَّ عَلَى الباطلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة النَّبِيّ ﷺ حَيْثُ كَانَ مَسْلَكه الحقّ المُبين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فهَذَا فِيهِ شَهادة منَ الله وتزكيةٌ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ يَتَضَمَّن فضيلةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ الشهادةَ مِنَ اللهِ أَنَّهُ عَلَى الحَقّ المُبين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلّ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ باطلٌ؛ لأنَّنا لو قُلْنَا: إِنَّهُ حقٌّ لَلَزِمَ الجمعُ بين النقيضينِ، فلا يمكن أن يَكُونَ ما كَانَ عليه الرَّسُول حقًّا وهَذَا حقّ، فلا يُمْكِن وَهُوَ يخالفه؛ إذ هَذَا جمْع بين النقيضينِ، فلا يُمْكِن أن يَكُون الشيئانِ المتناقضانِ كُلّ منهما حقّ، فلَا بُدَّ أن أحدهما هُوَ الحق، ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، ويقول تَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ [سبأ:٢٤]، إحداها ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وبهَذَا نعرف أن جميع ما خالف ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ باطل، وَهُوَ فِي النَّار كما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**كُلّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[1].

فإن كانت المخالَفَةُ تامَّةً فَهُوَ باطلٌ كلّه، وإن كانت المخالفة جُزْئِيَّة كَانَ فِيهِ منَ الباطلِ بِقَدْرِ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ظهور أحقيَّة ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ حقّ لَيْس به خَفَاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، حديث رقم (٣٩٩٣)؛ وأحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٢٩)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ بَيَان الحَقّ لا يَلْزَم منه أن يَكُونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإن الخفافيشَ تَعْمَى بِضِيَاء النَّهارِ، فلا يَلْزَم من كونِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الحَقِّ المُبين أن لا يُعْرِض عنه أحدٌ، ولهَذَا أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني لا تظنَّ أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا أَعْرَضوا لأنك عَلَى باطلٍ، بل لعدمِ قابليّة المَحَلِّ، وكما هو معروف أن الشَّيْءَ وإنْ كان تامًّا إذا لم يَجِدْ مَحَلًّا قابلًا لم يَكُنْ له تأثيرٌ، فرجلٌ معه سيفٌ مُصْلَتٌ، وحادٌّ للغايةِ، وأمامه عمودٌ من حديدٍ صُلْب، وَهُوَ يَنْتَخِي[1] ويَقُولُ[2]:

أنـا ابـنُ جَـلَا وَطَـلَّاعُ الثَّنَايَـا ....

ويَضْرِب هَذَا الصُّلب بالسيف يريد أن يقطعَه، فهل ينقطع هَذَا؟

نَقُول: لا، لِعَدَمِ قابليَّة المَحَلّ، فالْآنَ السَّبَب موجودٌ: سيف صارِم، ورجل شجاعٌ، ورجل يعزِّز نفسه ويَتَشَجَّع ويَصِيح بهَذَا العمودِ منَ الحديدِ، وطبعًا إذا صار بهَذِهِ الحالةِ سيَضْرِب بقوّة، ومع ذلك لم يؤثِّر؛ لِأَنَّ المَحَلّ غير قابل.

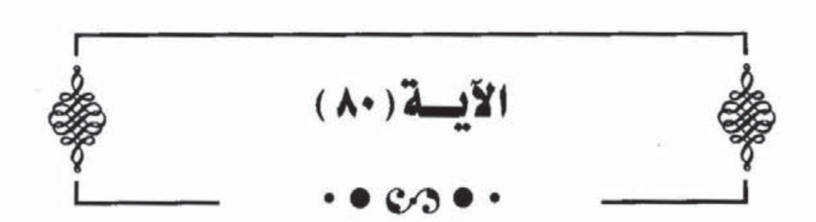
فما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ الحَقّ المُبين، وَهُوَ حقّ مُبين بلَا شَكّ بَيِّن ظاهِر، وعدمُ سماعِ هَؤُلَاءِ له لَيْسَ لِخَلَلٍ فيه، فالسَّبَب تامّ، لكِن الخَلَل فِي المَحَل، فهو غير قابل لهَذَا الحقّ، ولهَذَا ما أحسنَ هَذِهِ الآيَةَ بعدَ الآيَةِ الَّتِي قبلها: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فلا تظنَّ أنّك لستَ عَلَى حقٍّ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ مَوْتَى.

• • ۞ • •

---

(١) أي يفتخر.

(٢) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي، انظر الأصمعيات (ص:١٧).



الآيـة (٨٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الْكُفَّار، ثُمَّ ضَرَبَ أمثالًا لهم بالموتَى وبالصُّمِّ وبالعَمَى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

وهَذَا مَثَل كما قَالَ المُفَسِّر؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ ما خرجَ إِلَى المقابرِ يَدعو أهلَ القبورِ حَتَّى يُقَال له: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنما دعا الأحياءَ.

وبالنِّسْبَةِ لدعاءِ الأحياءِ فإنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى قِسمينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأنَّ إليها فَهُوَ حيٌّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]، لِيَتبَيَّنَ أن المُراد بالحياةِ هنا حياة القلبِ وحياة الإِيمان، لا الحياة الجسديَّة؛ لِأَنَّ مقابلة الشَّيْء بالشَّيْءِ تفيدُ، معناه ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ لَيْسَ حياةَ جسمٍ، لو كانت حياة جسمٍ لقال: ويحقّ القَوْل عَلَى الموتى، ولكِن قَالَ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وبهَذَا عرفنا أن كُلّ حياةٍ فِي مثل هَذَا السياق فالمُراد بها حياةُ القلبِ، لا حياة الجِسْم.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميِّت، والمُراد به هنا ميِّت القلب، أو نَقُول: إن المُراد به ميِّت الجسدِ، ويَكُون هنا تشبيهًا؛ أي: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تدعوهم

ولم يؤمنوا كالموتى، لو أتيتَ إِلَى ميتٍ وقلت: يا فلان، اعبدِ الله وآمِن بالرَّسُول ﷺ واتقِ الله، فإنه لا يَنتفِعُ، كالحَجَر لا ينتفع، ولَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرَّر الحقَّ عَلَى الَّذِينَ أُلْقوا فِي قَلِيبِ بدرٍ وقال لهم: «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»[1]، وقال: «**لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[2] لكِن هَذَا عَلَى سبيلِ التوبيخِ، لا عَلَى سبيل الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مهما كَانَ لا يمكن أنْ يُجيبوا فِي هَذِهِ الحالِ إجابةَ دعوةٍ.

ولِهَذَا فالكافرُ لا يَنتفع انتفاعَ ثوابٍ بما يسمع عند قبرِهِ من تلاوةٍ أو ذِكر، وبه نَعرِف بدعة هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابتدعوا القراءة عَلَى القبورِ، يَظُنُّون أن الميِّت يَنتفع، فنَقُول: لا يمكن أن ينتفعَ انتفاعَ الثوابِ، أَمَّا انتفاع تَخْفِيف عِقاب فهَذَا ربما يَنْفَع، لكِن لما لم يَرِدْ؛ فصار منَ البِدَع، وإلّا فهم يزعمون أن ذلك يخفف العذاب؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ فِي الجريدتين: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[3]، وقَالُوا: إن العِلّة فِي ذلك أَنَّهَا قبل اليُبْسِ تُسَبِّح الله، فيُخَفَّف عنه لكونِهِ يُسَبَّحُ عندَ قَبْرِهِ، ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

إِذَنْ: قوله: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يَحتمِل أن يُراد بالموتى هنا مَوْتَى القلوب، وحينئذٍ فالآيَةُ لَيْسَ فيها تشبيهٌ، أو أَنَّهُم مَوتَى الأجسامِ، فيَكُون هَؤُلَاءِ مُشَبَّهِين بالموتَى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (٣٧٥٧)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، حديث رقم (١٣١٢)؛ ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدَّلِيل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم (٢٩٢)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مَفْعُول أوَّل، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مَفْعُول ثانٍ، وفاعل ﴿تُسْمِعُ﴾ مُسْتَتِر وُجُوبًا، قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يَعْنِي: لا تجعل الصُّمّ الَّذِينَ لا يَسمعون لا تَجْعَلهم يَسْمَعُون دعاءَكَ، والمُرادُ بالدعاءِ الطَّلَب، لَيْسَ دعاء الله، يعني لو دَعَوْتَ أصمّ وقلتَ: يا فلانُ يا فلانُ؛ فإنه لا يسمع.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ هل هُوَ دعاء الله تَعَالَى، يعني أنك إذا دعوتَهم لا يسمعون، أو الدعاء طَلَبهم؟

نَقُول: المُراد طلبهم، فالمُراد: لو دَعَوْتَهم ما سَمِعوك، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، يعني دعوتكم إيَّاه، ودعوته إيَّاكم، فيشمل الأَمْرينِ عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ.

أيضًا إذا كانوا صُمًّا ووَلَّوْا مُدْبِرينَ يَكُون هَذَا أبلغَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا كَانَ مُقابلًا لكَ ربَّما يَفْهَمُ الخِطَابَ بحركاتِ الشفتينِ، لكِن إذا وَلَّى مُدْبِرًا لو تَرْمِي المدافِعَ خَلْفَه لا يَسْمَعُ، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، وهَذَا غاية ما يَكُون مِن بُعْدِ السمع؛ والحقيقةُ أنَّ هَؤُلَاءِ حالُهم كحالِ هَؤُلَاءِ الصُّمِّ المُدْبِرِين؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مُعْرِضون عنِ الحَقّ غير قابلينَ له، فلذلك صار هَذَا التشبيهُ بهم من أبلغِ ما يَكُونُ، فهُم صُمٌّ غيرُ سامعينَ، ومع ذلك غيرُ مُقْبِلِينَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا أقبلَ عليك كما قلتُ رُبَّما يَفْهَم منك بعضَ الشَّيْءِ، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا فليسَ فِيهِ رجاءٌ ولا أَمَل، فقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أقربُ ما يَكُونُ للتمثيلِ والتشبيهِ، يعني شَبَّهَهُم برجلٍ أصمَّ وَلَّى مُدْبِرًا، فكونها تَشبيهًا أقربُ، وإلَّا هنا يجوزُ أنْ نَقُولَ: إنَّهم صُمٌّ وإنَّ السمعَ انتفَى عنهم لانتفاءِ فائدتِهِ، والشَّيْء قد يُنْفَى لانتفاءِ فائدتِهِ كما فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

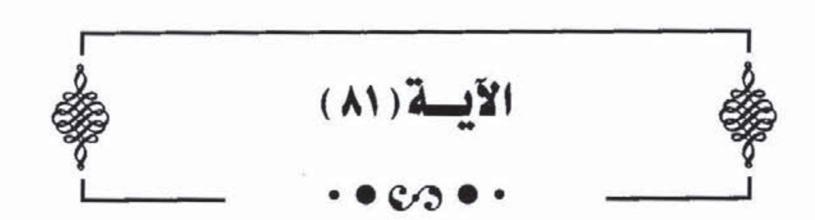
قوله: ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيها قراءتانِ [بتحقيقِ الهمزتينِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾، [وتسهيل الثَّانِيَةِ بينها وبينَ الياءِ]، يعني تُسَهَّلُ الهمزةُ الثَّانِيَةُ حَتَّى تكون بينَ الهمزةِ والياءِ، فتَجْعَلها ليستْ ياءً خالصةً ولا همزةً خالصةً.

قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ التَّوَلِّي هُوَ الإدبارُ، وَعَلَى هَذَا فتكونُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً للعاملِ أو لصاحبِ الحال؟

نَقُول: للعاملِ؛ لِأَنَّ نفسَ التولِّي إدبارٌ، مَثَلُهَا قولُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:١٨٣]، فـ(مُفْسِدِينَ) حالٌ منَ الواوِ، وهي مؤكِّدةٌ للعاملِ؛ لِأَنَّ العُثُوَّ هُوَ الفسادُ.

هنا ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ من الفاعلِ، لكِن ليستْ مؤكِّدة للفاعلِ؛ لِأَنَّ الواو دالَّة عَلَى الجمعِ، فلو جاءتْ بلفظِ: (أجمعينَ) لكانتْ مؤكِّدة للفاعلِ، لكِن جاءتْ بلفظِ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ فهي مؤكِّدة للعاملِ ﴿وَلَّوْاْ﴾. فيَكُون هَذَا فِيهِ تأكيدانِ: التولِّي والإدبار، مَعَ أَنَّ التولِّيَ هُوَ الإدبارُ، لكِن قد يَكُونُ المتولِّي فِيهِ رجاءٌ وأملٌ، يَتَوَلَّى وَهُوَ يَلْتَفِـت بقلبه إليك، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا لا يلتفت؛ أي إدبار جَسَدِيّ وقلبيّ وَهُوَ أصمُّ، فيَكُون هنا فِيهِ ثلاثةُ موانعَ للقبولِ أو للسمـاعِ، وهي: الصَّمَم والتولِّي والإدبارُ.

• ● ۞ ● •



الآية (٨١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١].

• • • •

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ قولُه: ﴿بِهَٰدِى﴾ فِيهِ إشكالٌ من الناحيةِ النحْويَّة، قَالَ: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ (هادي) اسمُ فاعلٍ، واسمُ الفاعلِ يعملُ عملَ الفِعْل، وهنا ما نَصَبَ ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ لِأَنَّهُ مضافٌ إِلَى مَفْعُوله مَعْنًى، وَلَيْسَ كقولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:٢٥١]، لِأَنَّ ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ مضافة إِلَى فاعلها، وهنا مضافة إِلَى مَفْعُولها.

الإشكال الثاني: قوله: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ بالكسرِ، ونحنُ قُلْنَا: إنَّ الاسمَ إذا كَانَ منقوصًا فَإِنَّهُ لا يَظْهَرُ عليه إِلَّا الفتحةُ، وهنا ظهرتِ الكسرةُ عَلَى الياءِ.

إِذَنْ: هَذَا لَيْسَ منقوصًا؛ لِأَنَّ المنقوصَ كُلّ اسمٍ مُعْرَبٌ آخرهُ ياءٌ لازمةٌ مكسورٌ ما قَبْلَها، وهَذِهِ ساكنٌ ما قبلها، إذن لَيْسَ منقوصًا.

قوله: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ جمعُ أَعمَى ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هلْ هِيَ مُتَعَلِّقة بـ(العُمْي) أو بـ(هادي)؟

نَقُول: بـ(هادي) بلَا شَكّ.

وقال بعضهم: متعلِّقة بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، وتكون ﴿عَن﴾ هَذِهِ للمجاوزةِ؛ كقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود:٥٣]، أي أَنَّهُم عُمْيٌ بسببِ ضَلالتهم.

ولكِنَّه لَيْسَ بصحيحٍ، بل ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(هادي)، ويَكُون (هادي) بمعنى صارفٍ؛ لِأَنَّ الهداية تَتَضَمَّنُ أمرينِ: الصَّرْف عنِ الضلالِ، والدلالة عَلَى الحقِّ، فيقول: ما أنتَ بصارفٍ هَؤُلَاءِ عن ضلالتهم إِلَى الحقِّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ سماعَ إفهامٍ وقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مُخْلِصُون للهِ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ].

قوله: [﴿إِن﴾ ما]، أي (إنْ) بمعنى: (ما)، ونحن ذكرنا قَبْلُ أن ﴿إِن﴾ تأتي لعدةِ أمورٍ: فتأتي شرطيَّة، وتأتي نافيةً، وللتَّوكيدِ، وهي المخفَّفَةُ مِنَ الثقيلةِ، وتكون زائدةً، فالزائدة فِي قوله[1]:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

فقوله: (ما إنْ أَنْتُمُ) أي: ما أنتم، ولهَذَا قَالَ ابن مالِكٍ[2]:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ (مَا) دُونَ (إِنْ) ... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ

إعمال (ما) دون (إنْ) يَقْصِد بـ(إنِ) الزائدة، ومَثَّلُوا لها بالبيتِ السابقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الميِّتَ لا يَسْمَع، والمُراد بالميِّت هنا مَيِّت القلبِ، أو الموتى مَوْتَى الأجسامِ عَلَى سبيلِ التمثيلِ. فإذا كَانَ ميِّتَ القلبِ فالأَمْرُ ظاهِرٌ أَنَّهُ لا يَسْمَعُ سماعًا يَنْتَفِع به، وإِلَّا فَهُوَ يَسْمَعُ سماعَ إدراكٍ لَكِنَّهُ لا يَنْتَفِعُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استدلَّ بهَذِهِ الآيَةِ مَن قَالَ: إنَّ الموتى فِي قُبُورِهِم لا يَسْمَعُون.

---

(١) من شواهد الأشباه والنظائر (٣/ ٣٤٠)، وأوضح المسالك (١/ ٢٧٤)، والأشموني (١/ ٢٥٤).
(٢) ألفية ابن مالك - فصل في ما ولا ولات وإن المشبهات بليس (ص:٢٠).

وهَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، مِنهم مَن قَالَ: إنَّ الموتى يَسمعون ولكِن لا يُجيبونَ، ومنهم مَن قَالَ: إنَّهُم لا يَسمعون، وَيَقْبَلُ ما وردتْ به السنَّة من سماعهم لكِنّه يَقْصُرُهُ عَلَى ذلك، فيقول: فيما عَدَا ذلك لا يَسْمَعُ الميتُ، والسنَّة وردتْ بأنَّ الميِّتَ إذا دُفِنَ وتولَّى عنه أصحابُه فَإِنَّهُ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ[1]، والسنَّة وردتْ بما ثبتَ عنِ النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ وقف عَلَى أصحابِ قَليبِ بَدْرٍ من المشركينَ وجعلَ يُؤَنِّبُهُم: «**يَا فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ، يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟**». فقَالُوا: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يَسْمَعُون وأَنَّى يُجِيبُوا وقد جَيَّفُوا؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[2]، فهَذَا الكَلَامُ الْآنَ والمناداةُ كان عندَ الدفنِ أو عند إلقاءِ الميِّت أو تسليمِهِ للآخرةِ، فلا يَقتضي أن يسمعَ كُلّ وقتٍ.

ومن العُلَماءِ مَن قَالَ: إنَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ وقتٍ، كشيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة[3]، ويَستدِلُّون بالحديثِ الَّذِي رواه ابنُ عبدِ البَرِّ وصَحَّحَهُ، وهو: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلامَ**»[4]، فيُصَحِّحُونَ هَذَا الحديثَ، لكِن بعضهم يُضَعِّفه ويقول: إنَّهُ لا يَصِحّ[5]، ولكِنَّ هَذَا الحديثَ لا يَنبغي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم (١٢٧٣)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النّار عليه...، حديث رقم (٢٨٧٠)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٢-٣٦٥).

(٤) الاستذكار لابن عبد البر (١/ ١٨٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. رواه الصيداوي في معجم الشيوخ (٣٣٤)؛ والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٣٧)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: العلل المتناهية (٢/ ٩١١).

أنْ يَكُونَ هُوَ رَكيزةَ مَن يَقُول: إن الموتى يَسمعونَ، بل إنَّنا إذا قُلنا: الموتَى يَسمعونَ، قد نستدلّ بحديثٍ أصحّ مِن هَذَا، وَهُوَ ما ثبتَ عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يزورُ المقبرةَ ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[1]، وتوجيه السلام إليهم فِي الخطابِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ، وإلَّا لكانَ يَقُول: السلامُ عَلَى أهلِ الديارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ولا يَقُول: عليكم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن هَذَا من بابِ قوَّة الاستحضار؟

قُلْنَا: قوَّةُ الاستحضارِ لا تَحتاج إِلَى الدُّنُوِّ، ولهَذَا نحن نَقُول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» وإن كنَّا بَعيدينَ، ولا يُسَنُّ أن نَقُولَ الْآنَ هنا: السلامُ عليكم أهلَ الديارِ منَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى نَحْضُرَ إليهم، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ.

يَبقى عندنا: إذا كانوا يَسمعون، فما هُوَ الجوابُ عن هَذِهِ الآيَةِ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟

نَقُول: المُراد بالسماعِ سماعُ القبولِ إذا كَانَ المقصودُ بالموتى موتى القبورِ، أو السماع الَّذِي تَحْصُلُ به الإجابةُ، وسماعُ الإدراكِ الدنيويِّ هَذَا لا يُمْكِن، يعني لَيْسَ سماعُ الميِّتِ لِما يَتكلَّم به الْإِنْسَان كإدراكِ الحيِّ؛ بل هُوَ سماعٌ لا نعرف كيفيَّته، إِنَّمَا هُوَ سماع لا يمكِن أنْ يُجِيب معه، إِلَّا إذا أرادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إحياءَهُ وتكلّم ونطقَ فهَذَا يُمْكِن، مثل صاحب البقرةِ فإنَّ صاحبَ البقرةِ ضَرَبُوه ببعضها فأحياه اللهُ وتكلَّم ومات، ولكِنَّه لم يَتكَلَّمْ ولم يُجِبْ إِلَّا بعدَ أنْ حَيِيَ حَياةً دنيويَّةً ثُمَّ أماته الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه الدلالة من حديثِ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يُقَال عند دخول القبر والدعاء لأهلها، حديث رقم (٩٧٤)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ»؟

فالجواب: وجهُ الدلالةِ من الحديثِ قوله: «إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ» فكلَّما سلَّم عليه أحدٌ ردَّ الله عليه رُوحه وعرَفه، إذن هُوَ يسمع.

على كُلِّ حالٍ: الموتى لا يَسمعونَ كُلَّ كلامٍ، فمثلًا لو مررتَ أنتَ وصاحبٌ لكَ بجوارِ قبرٍ وأنتما تتكلمانِ لا يَلْزَم من هَذَا أَنَّهُم يسمعونَ، لا يسمعون إِلَّا الخطابَ الموجَّه إليهم، وإن كَانَ ظاهرُ كلامِ الفقهاءِ أَنَّهُم يَسمعون حَتَّى ما لا يُخاطَبون به.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هم يسمعون سلامنا فقطْ، وإذا كلَّمناهم مرةً أخرى لا يسمعون؟

فالجواب: يَسمعون مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ السَّبَب فِي هَذَا السماعِ -الخطاب- خاطبناهم، وما دام الخطابُ إذا سَمِعُوه مرةً سمعوه مرةً أخرى فما المانِع.

وَلَوْ قِيلَ: إن الرُّوح تُنْزَع بَعْد السلام؟

نَقُول: الظَّاهِرُ أَنَّهَا إذا رُدَّت فإنها إذا انتهى السلام لم تَسْمَعْ، فنحن نَقُول: كلَّما خُوطِبوا ردَّ اللهُ عليهم أرواحَهم فسمِعوا.

بَقِيَ أن يُقالَ: هل يَسمعون بدونِ مخاطبةٍ؟

ظاهر كلام الفقهاءِ أيضًا أَنَّهُم يَسمعون، ولِهَذَا قَالُوا: إن الميِّتَ يتأذَّى بفعل المنكَرِ عندَه من قولٍ أو فعلٍ، وَعَلَى رأيِ الفقهاءِ -ولا أدري ما مُسْتَنَدُه- يَسمعون حَتَّى ما لم يُخاطَبُوا به، وعليه أيضًا يَكُون الْإِنْسَان إذا شَرَّفَ القبرَ بالأحجارِ الَّتِي تُلْقَى عليه أو بالكتاباتِ أو بغير ذلك فإن الميتَ يتأذَّى به؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْمُنْكَر، فتشريف القبرِ وتمييزه عَلَى غيرِهِ من القبورِ هَذَا منكَر ولا يجوزُ، فعلى كلامِ الفقهاءِ يتأذَّى الميِّت

بذلكَ، ويَكُون هَذَا الَّذِي أرادَ تشريفَ ميتِه هو فِي الحقيقةِ آذاهُ، وَأَمَّا سَماع الميّتِ صَبَاحَ الجُمُعة فغيرُ صحيحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَن لم يَقْبَلِ الحَقّ فَهُوَ بمنزلةِ الأصمِّ الَّذِي لا يَسْمَعُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجوارحَ والحواسَّ الَّتِي لا يُنْتَفَعُ بها كالمعدومةِ، ووجهُ ذلك: أن هَؤُلَاءِ لهم آذانٌ ولهم سمعٌ، لكِن لَمَّا لم يَنْتَفِعوا به صَاروا صُمًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان شِدَّة إعراض هَؤُلَاءِ عنِ الحقِّ؛ لِأَنَّهُم صُمٌّ مُوَلُّون مُدْبِرون، وهَذَا أبعدُ ما يَكُونُ عنِ السماعِ، فالأصمُّ إذا كَانَ مُقْبِلًا إليكَ قد يَفْهَم منك ما يَفْهَمُه منَ الإشاراتِ والحركاتِ فيَنْتَفِع بذلكَ، ولو كَانَ أصمَّ لكِن إذا ولّى مَعَ الإدبارِ -ولى ببدنه وأدبر بقلبِه أو بالعكسِ- فإن ذلك يَكُونُ أشدَّ استحالة فِي سماعِهِ ممَّا إذا كَانَ أصمَّ مَعَ الإقبالِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَانَ -والعياذُ باللهِ- إذا ولَّى مُدْبِرًا عنِ الشرعِ فَإِنَّهُ قد يُعاقَبُ بالصممِ عن سماعِ الحَقّ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لا يَنتفعُ بموعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهَذَا هُوَ الغالبُ، فالغالبُ أن الْإِنْسَان إذا كَانَ لَيْسَ عنده إقبالٌ عَلَى الحَقّ أن يُحْرَم الحقَّ، حَتَّى لو تكلَّم النَّاس وفعلوا وأقاموا الأدلَّة ما انتفع بذلك.

ونضربُ لكم مثلًا الْآنَ بالمرابين والمُتَحَيِّلِين عَلَى الرِّبا، هم يَسمعون المواعظَ لكِنَّهم مُوَلُّون، ويَرَوْنَ أن ما هم عليه لَا بُدَّ أن يفعلوه، ولذلك ما وُفِّقوا للانتفاع بها، بل بَقُوا عَلَى ضلالهم، والسَّبَب فِي هَذَا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم أيُّ إقبالٍ من الإقبال الَّذِي يَنْفَعُهم.

فلهَذَا نَقُول: إن هَذِهِ الآيَةَ تدلُّ عَلَى أنَّ الإِنْسَانَ إذا ولَّى مدبِرًا عنِ الحَقِّ فإِنَّهُ لا يُوَفَّق لِسَمَاعٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُعْرِضَ عنِ الحَقِّ بِمَنْزِلَةِ الأعمَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَملِك هدايةَ الخلقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ولا يعارِض هَـذَا قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، لِأَنَّ الهدايةَ المثبَتة غيرُ الهدايةِ المَنْفِيَّة، الهداية المثبتة هداية الدلالةِ والعلمِ والبَيَان، فالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معلِّم ومُبَيِّـن ودالٌ للخلقِ عَلَى الحقِّ، وَأَمَّا التَّوفيق لذلك فهُوَ بيدِ الله.

فالجمع بين الهدايةِ المثبَتة للرَّسُول ﷺ والمنفيَّة عنه أن نَقُولَ: ما أُثْبِت للرَّسُول فَهُوَ هدايةُ العلمِ والبَيَان، وما نُفِيَ عنه فَهُوَ هدايةُ التَّوفيقِ والعَمَلِ، فلا يستطيع هَذَا أبدًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هَؤُلَاءِ الجماعة الَّذِينَ أَعرضوا عنِ الحَقّ قد أُقفلتْ عليهم طرقُ الخيرِ، فهم موتى القلوبِ، لم يَنتفعوا بقلوبهم، صُمُّ الآذانِ لم ينتفعوا بآذانِهم، عُمي العيونِ لم يَنتفعوا بعيونهم، والآيَاتُ إِمَّا عقليَّة أو مسموعة أو مرئيَّة، فالعقلية مَحَلُّها القلبُ، وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والمشهودةُ بالعيـنِ وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾، والمسموعةُ بالآذانِ انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، فجميعُ الطرقِ الَّتِي تَحْصُلُ بها الهدايةُ فِي هَؤُلَاءِ كلها -والعياذُ باللهِ- مسدودةٌ مُغْلَقة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الَّذِي يَنتفِع بالآيَاتِ الَّتِي جاء بها الرَّسُول هم المؤمنون بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ كلَّما قوِيَ إيمان الْإِنْسَانِ بآيَاتِ الله قوِي انتفاعه بها؛ لِأَنَّهُ عُلِّقَ عَلَى وصفِ الإِيمانِ بهَذِهِ الآيَات فكلَّما قَوِيَ هَذَا الوصفُ قوي الانتفاعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِيمان يَسْتَلْزِمُ الإِسْلامَ؛ لقولِهِ: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهل الإِسْلام يَستلزم الإِيمانَ؟

لا يَسْتَلْزِمه، قد يَكُون الْإِنْسَان مُسلِمًا وَلَيْسَ بمؤمنٍ، ولهَذَا قيل عند الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن رجلٍ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ. فقال: «**أَوْ مُسْلِمٌ**»[1]. فدلَّ ذلك عَلَى الفرقِ بين الإِيمانِ وبين الإِسْلامِ.

وكثيرٌ منَ المُسلِمين الْآنَ مسلمونَ، ولكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ، وكثير من المُسلِمينَ مُسْتَسْلِمُونَ وليســوا بمسلمينَ، فالمسلمونَ اليومَ إمَّا مُسْتَسْلِم أو مُسْلِم أو مؤمِن، أَقَلُّهُمُ المؤمنُ بلَا شَكّ، والمسلمُ المستسلِم كثيرٌ فِي البلادِ الَّتِي هي غير بلادنا، فأكثرهم مسلم بمعنـى مستسلِم هُوِيَّةً فقطْ، ولهَـذَا يأتِي ناس من البلاد الأُخْرَى ويَقُولُونَ: لا نعرف أن نَتَـوَضَّأ ولا نعرف أنْ نُصَلِّيَ، ولا نعرِف أوقات الصَّـلَاة، ومـع ذلك مكتوبٌ فِي الهُوِيَّة: مسلمٌ.

القسم الثَّالث: المسلمُ غير المؤمن، وهَذَا كثيرٌ فِي بلادنا، فهم مسلمون لكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ؛ والدَّلِيل عَلَى هَذَا أن الأَعْمالَ أو الأخلاق الَّتِي عُلِّقت بالإِيمانِ تَجِدُها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وَكَانَ على الاستسلام أو الخوف من القتل، حديث رقم (٢٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، حديث رقم (١٥٠)، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مفقودةً فِي كثيرٍ من هَؤُلَاءِ «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[١] موجود هَذَا بقِلَّة، «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[٢] انتفاء الغِشّ موجود بقلَّة، «**لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[٣] بقِلَّة، وامشِ عَلَى هَذَا.

المهمّ أنّ الإِيمان بالنِّسْبَةِ للمسلمينَ اليومَ قليلٌ، والإِسْلام كثيرٌ، والاستسلام أكثرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المسلمُ المُسْتَسْلِم يدخل الجَنَّة؟

قُلْنَا: المستسلمُ يدخلُ الجَنَّة لِأَنَّهُ مسلمٌ شَرعًا، لكِن لم يَدْخُلِ الإِيمانُ قلبَه، فمآله إِلَى الجَنَّة، لكِن له معاصٍ، إمَّا يُعَذَّب عليها أو يُعْفَى عنها.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين المسلمِ المستسلِم والمنافِق؟

قُلْنَا: المستسلمُ عنده إيمانٌ، وَأَمَّا المنافِقُ فليسَ عنده إيمانٌ إطلاقًا، فالمنافق قلبه خالٍ من الإيمانِ والعياذُ بالله، فالمستسلم أرفعُ مِنَ المنافقِ؛ لِأَنَّ المستسلم عنده اتجاهٌ للإسلامِ حقيقةً، لكِن لَيْسَ عنده الشَّيْءُ الَّذِي عند المسلمِ الَّذِي يُنَفِّذُ الشرائع، وغالبًا يَكُونُ جاهلًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّلِيل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم (٤٥)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، حديث رقم (١٠١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠)، عن أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم (٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الآيات كثيرةٌ ليستْ واحدةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهي تنقسم إِلَى قسمينِ: آيات كونيَّة وآيات شرعيَّة. فما جاءت به الرُّسُلُ ونزلتْ به الكتب فَهُوَ آياتٌ شرعيَّة، وما كَانَ منَ الحوادثِ فَهُوَ من الآياتِ الكونيّة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هَذِهِ الآياتُ الكونيَّة، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٧]، هَذِهِ الآيات الشَّرْعِيَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجهُ كونِ الآياتِ آياتٍ؟

قُلْنَا: لِأَنَّهَا دالَّةٌ عَلَى الله، فالآياتُ الكونيَّة دالَّة عَلَى الخالقِ مِن حَيْثُ القدرةُ والحِكْمَةُ والسلطانُ إِلَى غيرِ ذلكَ من معاني الرُّبُوبيَّة.

والآيات الشَّرْعِيَّة دالَّة عَلَى مُنَزِّلِهَا من حَيْثُ العدلُ والإصلاحُ؛ لِأَنَّ جميعَ الشرائعِ، ولَيْسَ شريعة الإِسْلام فقطْ الَّتِي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ، كلّها تحاربُ الفسادَ وكلها تقرِّر الصلاحَ، لكِن شريعتنا تمتاز عَلَى غيرها بأنَّها تراعي المصالحَ الْعَامَّة.

• • ❁ • •



الآيـة (٨٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢].

•●○●•

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حقَّ العذابُ أنْ يَنْزِلَ بهم فِي جملةِ الكفّار]، وهَذَا تفسيرٌ منه عَلَى أنّ الضَّميـرَ فِي قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إِلَى كفارِ مكَّة، ولهَذَا احتاج أن يقولَ: [فِي جملة الكفّار]، لأجل التوطِئَة لِمَا بعدَه ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ويجوز أن يَكُون الضَّمير عائدًا إِلَى جميعِ النَّاسِ، أي ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ عَلَى النَّاسِ، ولا يَكُون المُرادُ بالقَوْلِ هنا القَوْل بالعذابِ، بل يجوز أن يَكُون المُراد به القَوْل بانتهاء الدُّنْيا، وتُحمَل الآيَة عَلَى الدابّة الَّتِي تخرج فِي آخِـرِ الزمانِ، وهي من أشراط الساعة.

قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نكَّرَهَا لِأَنَّهَا غيـر معروفةٍ، فكأنها دابَّة منفرِدة فِي نوعها.

قولـه: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هـل هِـيَ متعلِّقـة بـ﴿دَآبَّةً﴾ أو بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾؟

الظَّاهـرُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بـ﴿دَآبَّةً﴾، يَعْنِي: أخرجنا لهم دابَّـةً مِنَ الأَرْض، لا من السَّماء.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا قُلْنَا: إنَّهَا متعلِّقة بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أو بـ﴿دَآبَّةً﴾ هل يَخْتَلِف المَعْنى؟

نعم، يختلف المَعْنى، إذا قَالَ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يمكن أن ينزل مَلَكٌ فِي الْأَرْض، ثُمَّ يخرج مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ ما عُيِّن من أين تكون هَذِهِ الدابَّة، وَأَمَّا إذا قُلْنَا: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فتَتَعَيَّن أن تكون من دوابِّ الْأَرْض.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني تكلِّم النَّاس، والكَلام هنا بمعنى الحديثِ، قَالَ المُفَسِّر: [أي: تكلِّم الموجودين حينَ خُروجها بالعربيَّة]، يجوز أن تكون بالعربيّة أو بغيرها.

عَلَى كُلِّ حالٍ: هِي تُكَلِّمُ النَّاسَ بكلامٍ يَعرِفُونَهُ، فهَذَا هُوَ المتبادر من الكَلامِ، ويمكن أن يقال: إنَّهُم إذا لم يُوقِنوا بآيَاتِ الله يُسَلِّط اللهُ عَليهم السِّباع تأكلهم وتجرحهم، لكِن هَذَا بعيدٌ، وما رأيتُ هَذَا من كلامِ السلفِ، كلُّه من كلام المتأخِّرين.

ويرى بعض المفسِّرين أن المُراد بالكَلامِ هنا الجَرْح، تُكَلِّمُهُمْ يعني تُجَرِّحُهُم، أي: تَخْمِشُهم بأظفارها، قَالُوا: لِأَنَّ الكَلْمَ يأتي بمعنى الجَرْحِ؛ كقولِهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا**»(١).

ولكِنَّ هَذَا القَوْل لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الأَصْل فِي الكَلامِ هُوَ النُّطْقُ، ولا معنى لكونها تُجَرِّح النَّاسَ. لكِن بماذا تكلمهم؟

قَالَ: [مِن جملةِ كلامها عنَّا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾]، إِلَى آخره، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [من جملة كلامها عنَّا] أي أَنَّهَا تقول عن اللهِ، عَلَى لِسانِ الدابَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم (٢٦٤٩)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم (١٨٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يستقيم أن يَكُونَ مِن كـلامِ الدابَّة عن نفسها؛ إذ إنَّ الدابَّة لَيْسَ لها آيَات يَجِـب الإيقان بها، وإنما الآيَاتُ الَّتي يَجِب الإيقانُ بها لله، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عنّا ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أي كفَّار مَكَّة، وَعَلَى قراءةِ فتحِ همزةِ «أَنَّ» تُقدَّر الباءُ بَعْد تكلمهم][1]، أي تكلّمهم بهَذَا الكَلام ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾.

استفدنا من كلام المُفَسِّـر (وَعَلَى قراءة فتح همزة أنَّ) أنَّ الأَصْلَ الَّذِي فسَّره بالكسر (تكلمهم إنَّ النَّاس) فيَكُون هَذَا مبتدأ الكَلام، وَعَلَى قراءة الفتحِ يَكُون عَلَى تقديرِ حرفِ الجرِّ، أي: بأن النَّاس ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ المُرادَ بالنَّاسِ كفَّار مكَّة، هَذَا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ؛ بل إنَّ المُرادَ بالنَّاس الموجودون فِي ذلك الوقت الَّذِينَ وقعَ عليهم القَوْلُ فَأُخرجت لهم الدابَّة تُنْذِرُهم.

وَأَمَّا كونه يقال: إن كفار مَكَّة لا يُوقِنُونَ فلا حاجةَ إِلَى إخبارها عنهم، فإخبار الْقُرْآن عنهم أوكَدُ من إخبارِ هَذِهِ الدابَّة عنهم، فكلام المُفَسِّر هنا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ، وَلَيْسَ بصوابٍ أبدًا، بل هُوَ خطأٌ؛ فهي تكلِّم النَّاس الَّذِينَ وَقَعَ عليهم القَوْلُ حين خُرُوجِها، تُحَذِّرُهُمْ أن النَّاس كانوا بآيَات اللهِ لا يوقنون، هَذَا ما مشى عليه المُفَسِّر وأكثرُ المفسِّـرين عَلَى أن كلام هَذِهِ الدابة: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ولهَذَا احتاج إِلَى تقدير (عنّا).

لكِنَّ ابن كثير استبـعدَ هَذَا القَوْل، وقال[2]: إِنَّهَا تكلمهم وتُحَدِّثُهم بحديـثٍ مُسْتَقِلٍّ ما بُيِّنَ فِي الْقُرْآن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ هَذَا تعليلًا لِقَوْلِهِ:

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ يَعْنِي: فليست الدابَّة هِيَ الَّتِي تقول للناس: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَـذَا القَوْل لا يمكن أن تَنْطِـقَ به الدابَّة؛ إذ إِنَّهُ لا يَصِحُّ أن يَكُون إِلَّا منَ اللهِ. لهَذَا أنكر هَذَا القَوْلَ، مَعَ أَنَّ ابنَ جَرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختاره[1]، لَكِنَّهُ هُوَ عَلَى أنه مُخْتَصَر لابنِ جَريرٍ أنكرَ هَذَا، وقال: إِنَّهَا تُكَلِّمُهُم بكلامٍ لم يُبيِّن، وإن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتحِ أو بالكسرِ، الجملة تعليل لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

وقـوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، معنـى ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ يَقُـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يُؤْمِنُون بالْقُرْآن المشتمِـل عَلَى البعثِ والحسابِ والعقابِ]، وتفسير الإيقان بالإيمـانِ فِيهِ قُصُورٌ لَكِنَّهُ تقريبيٌّ؛ لِأَنَّ الإيقانَ أبلغُ منَ الإيمانِ وأخصُّ منه، فَهُوَ درجةٌ عاليةٌ أعلى منَ الإيمانِ، ولهَذَا قولُكَ: أيقنتُ بكذا، أبلغُ من قولكَ: آمنتُ به.

وهَذِهِ الدابَّة أوَّلًا: نبحثُ فيها هل هِيَ الدابَّة الَّتِي تخرج فِي آخِرِ الزمانِ والَّتي ذكرها النَّبيّ ﷺ من علاماتِ الساعةِ أو دابَّة أخرى؟

يرى بعض العُلَماء أَنَّهَا هِيَ الدابة الَّتِي تكون فِي آخِرِ الزمانِ، ويرى آخرونَ أَنَّهَا دابَّة أُخرى، ولهَذَا جاءت فِي الحديثِ مُعَرَّفَة وجاءت هنا منكَّرَةً، فيقال: دابة واللهُ أَعْلَمُ بها هل هِيَ الَّتِي تكون من أشراط الساعة أو أَنَّهَا دابة مستقلَّة؛ لأنَّنا لو نَعلَمُ أن الحديث بَعْد هَذِهِ الآيَةِ لقُلْنَا: إن الدابَّة فِي الحديث للعهدِ الذِّهْنِيّ، يعني الدابَّة الَّتِي عَرَفْتُمُوهَا وتحدَّث الله عنها، وحينَئِذٍ تكون الدابَّة هنا هِيَ الدابة هناك، ولَكِنَّنَا لا نعلم، ولهَذَا التوقُّف أولى؛ هل هِيَ هي أو غيرها.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ١٤-١٧).

ثانيًا: هَذِهِ الدابَّة مُبْهَمَةٌ من حَيْثُ المكانُ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكِن من أيّ مكان تُخْرَج؟

وَرَدَتْ أحاديثُ لَكِنَّها ضعيفةٌ أَنَّهَا تَخْرُجُ من مكَّة من أَجيادٍ أو منَ الصَّفَا أو من مكان آخرَ[1]، المهم أَنَّهَا تخرج من مَكَّة، ولَكِنَّهَا أحاديث ضعيفة لا يُعتمَد عليها فِي العقيدة.

ثم هل هِيَ تُخْرَج حقيقةً من الْأَرْض فتَنْشَقّ عنها الْأَرْض وتخرج، سواء من مكَّة أو غيرها، أو أن المُراد بالإخراج هنا إبرازها وإظهارها، وأنها دابة كغيرها من الدوابّ، ثُمَّ تَتبيَّن بما يَحْصُلُ لها منَ النُّطق، ويَكُون هَذَا كقول الرَّسُول ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ**»[2]؛ لِأَنَّ السباع فِي آخرِ الزمانِ تكلِّم الإنس؟

هَذَا أيضًا مَحَلُّ تَوَقُّفٍ، ولذلك هَذِهِ الدابة نَكِرة لفظًا ومعنًى، فنحن لا نَعْرِفها تمامًا؛ لِأَنَّهَا ما وُصِفَتْ فِي الْقُرْآنِ أو فِي السنَّة أوصافًا بحيثُ يَجْزِمُ الْإِنْسَان بها.

كذلك هَذِهِ الدابَّة هل هِيَ من جِنْسِ الدوابِّ أو أَنَّهَا دابَّة معيَّنة عَلَى شكل معيَّن؟

تكلَّموا فِي هَذَا كلامًا طويلًا، وكل ما ذَكَرُوا إِنَّمَا هُوَ مأخوذٌ عن بني إسرائيلَ، ولا يمكن أن يُصدَّق، غاية ما هنالك أَنَّهُ يُحَدَّثُ به ولا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب ولا يُعْتَمَد عليه فِي العقيدةِ؛ فذكروا عن آذانِها وذكروا عن عَينها وعن رِجلها أَشْياءَ غريبةً جدًّا.

المهم: أننا نُبْهِمُ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، ولا نُعَيِّن ما لم يُعَيِّنْه الله ورسولُه، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بأنه إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ فسوفَ يُخْرِجُ اللهُ لهم دابَّةً منَ الْأَرْض تُحَدِّثُهُم، وتكون

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٢٨٦)، الفتن لنعيم بن حماد (٢/ ٦٦١-٦٦٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في كلام السباع، حديث رقم (٢١٨١)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذِهِ الدابَّة آيَةً عَلَى أنّ العذاب قد قَرُبَ وُقُوعُه منهم، هَذَا غاية ما يُسْتَدَلُّ عليه من هَذِهِ الآيَةِ.

فإِذَنْ: يَكُون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ لَيْسَ من قول الدابّة عَلَى هَذَا التَّقْدير، بل هُوَ من قولِ اللهِ تعليلًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ يعني يُخْرِجها؛ لِأَنَّ النَّاس كانوا، وعليه فيكُون مطابقة هَذَا التعليلُ للشرطِ فِي قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يَكُون مطابقته مطابقة السَّبَب للمسبّب، إذا كانوا لا يوقنون حينئذٍ وقع عليهم القَوْلُ وحينئذٍ أُخرجتِ الدابَّة.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآيَاتِ هنا الكونيَّة والشَّرْعِيَّة، لكِن الكونيَّة ألم يوقن بها الكفار؟ بلى، لكِنَّهُ إيقانٌ لم يَنْفَعْهُمْ، والشَّيْءُ الَّذِي لا يَنْفَعُ يَصِحُّ أنْ يُنْفَى لعدمِ الانتفاعِ به.

قال: [وبِخُرُوجِها]، بخروج الدابَّة [يَنْقَطِع الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَرِ ولا يؤمن كافرٌ]، لِأَنَّهُ قد وقعَ عليهم القَوْلُ؛ وإذا صحَّ هَذَا التفسير فإنَّ معنى ذلك أن هَذِهِ الدابَّة من أشراط الساعةِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكُون الأَمْر كذلك إِلَّا فِي آخِرِ الزمانِ بعدَ أن يَنزِلَ عيسى ﷺ ويبقى فِي الْأَرْض سبعَ سنينَ، لا يَحْصُل بين اثنينِ عداوةٌ ولا شَحناءُ، ثُمَّ يُرْسِل الله رِيحًا باردةً من قِبَلِ الشامِ فتَقْبِض نفسَ كُلّ مُؤْمِنٍ[1] ويَبْقَى شِرارُ النَّاسِ، فِي خِفَّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّبَاعِ[2].

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث رقم (٢٩٣٧)، عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس...، حديث رقم (٢٩٤٠)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا كَانَ هَذَا الَّذِي فَهِمَهُ الْمُفَسِّـر من هَذِهِ الآيَةِ بهَذَا الأَمْرِ؛ فإنَّ هَذِهِ الدابَّة يَكُونُ خُرُوجها بَعْد عيسى بنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ بَعْد ذلك يَقُول الْمُفَسِّر: إِنَّهُ لا يؤمن كافرٌ ولا يُؤمَر بالمعروفِ ولا يُنهَى عنِ الْمُنكَر.

ولكِن موقفي فِي هَذَا أن أقولَ: اللهُ أَعْلَمُ؛ يعني أن هَـذِهِ المسألةَ من مسائل الغيب الَّتِي يَتَوَقَّف الْإِنْسَان فيها إِلَّا عَلَى ما يفيده ظاهِرُ الْقُرْآن، فنَقُول: إيمانا بهَذَا أن نَقُولَ: إِنَّهُ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاس باستحقاقِ العذابِ أخرجَ اللهُ لهم هَذِهِ الدابَّة الَّتِي تُكلِّمهم ولا نزيد عَلَى هَذَا، ولا نَقُول: يَنقطِع الأَمْر بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَر، ولا نَقُول: إنَّهُ لا يؤمن الكافر؛ لِأَنَّ ذلك أمرٌ يحتاجُ إِلَى توقيفٍ، كما أَوحَى الله إِلَى نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: خُرُوج الدابَّةِ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ، وذلكَ بأنْ كَفَـروا وأَعْرَضوا عن دِينِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأخرج الله لهم هَذِهِ الدابَّةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الدابَّة الَّتِي ذَكَرَ اللهُ مُبْهَمَة، فلا يُعْلَم صِفَتها ولا كيف تَخرج ولا من أينَ تَخرج، وما ذُكر من الآثارِ فِي ذلك فكلُّها ضعيفةٌ لا يُعَوَّل عليها، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بما ذكرَ اللهُ تَعَالَى مُطلَقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ كانتْ هَذِهِ الدابَّةُ تكلِّم النَّاس بكلامٍ يفهمونه، مَعَ أن الحيـواناتِ تَتكلَّم بكلامٍ لا يَفهـمه الإنسُ إِلَّا مَن عَلَّمه الله تَعَالَى مَنْطِقَها، كما فِي قِصَّة سُلَيْمان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الإنذار، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْـذِر النَّاس بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدْهُمُ الآيَاتُ الشَّـرْعِيَّة، وهَذَا كثيـرٌ، كالكسوفِ

والزلازلِ والفيضاناتِ والصواعِقِ والحاصِبِ منَ السَّماءِ بالبَرد أو غيرِه، كُلّ هَذَا إنذارٌ بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدِ الآيَات الشَّرْعِيَّة، وقد قيل[1]:

الْعَبْــدُ يُقْــرَعُ بِالْعَصَــا وَالْحُــرُّ تَكْفِيــهِ الإِشَــارَةُ

فالمؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآيَاتِ العظيمةِ، ولكِن الْمُعْرِض اللئيم لا يَنْفَع فِيهِ إِلَّا العَصَا، إِلَّا الآيَات الكونيَّة الَّتِي تُخْضِعُه بغيرِ إرادته، هَـذَا إذا لم يَكُنْ أيضًا قلبُه ميِّتًا للغاية، فإنْ كان قلبُه ميتًا للغايةِ لم تَنْتَفِ حَتَّى الآيَاتُ الكونيَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قِطعًا من العذاب تَنـزِل من السَّمَـاءِ، ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، وعاد لما رَأَوْهُ عَارِضًا مستقبِلَ أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، وَفِي الوقتِ الحاضر إذا رَأَوْا هَذِهِ العقوباتِ يَقُولُونَ: هَذَا أمر طبيعيٌّ، من فَيَضَانات طبيعيَّة وبراكينَ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ منَ الكَلامِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى موتِ القلوبِ.

فإِذَنْ: نَستفيد من هَذِهِ الآيَةِ: إنذار اللهِ تَعَالَى بالآيَاتِ الكونيَّة كمـا هُوَ عادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِي العلمَ حَتَّى البهائم، هَذِهِ الدابَّة تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ عَلَى أحدِ القَوْلينِ فيها، والقَوْل الثاني: أن هَذَا الكَلام من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الكَلام عَلَى الدابّة انتهى عند قوله: (تكلّمهم)، يعني كأنها مِنهم، ثُمَّ يُعَلِّلُ اللهُ هَذَا الإخراجَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهِ أنَّ عدمَ الْيَقِينِ بآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سببٌ للهلاكِ، وَأَنَّهُ لا يَكفِي الترَدُّد أو الإِيمان الضعيفُ، بل لَا بُدَّ منْ إيقانٍ، فالمترَدِّدُ بما يَجِب الإِيمانُ به

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ١٩).

ليسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لم يُوقِنْ، بل لَا بُدَّ منَ الإيقانِ، وَأَمَّا التردد والشكُّ حَتَّى مَعَ ترجُّحِ ما ذكرَ اللهُ فَإِنَّهُ لا يفيدُ الْإِنْسَانَ، يَعْنِي: لو آمن إِنْسَان لكِن عنده بعضُ الشكِّ فإن ذلك لَيْسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ منَ الْيَقينِ بما يجبُ الإيمان به.

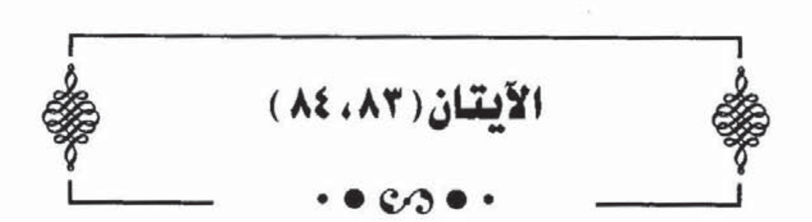
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أصحاب الأَعْرَاف هل يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ عندهم نوعٌ مِنَ الشَّكِّ؟

فالجوابُ: لَيْسَ عندهم نوعٌ منَ الشَّكِّ، لكِن عندهم ضعفٌ فِي الانقيادِ وعدم عِلْم ما أنزلَ الله، وَأَمَّا لو كَانَ عندهم شكٌّ فما صاروا مُؤْمِنِينَ إطلاقًا ولا مسلمينَ أيضًا، فهَذَا نفيُ كمالِ الإيمانِ لا نفيُ أصلِ الإيمانِ، وَأَمَّا مَعَ الشكِّ فإن أصلَ الإيمانِ لم يوجدْ، وَأَمَّا الإيمانُ الاعتقاديُّ إذا لم يوجدْ كاملًا فَإِنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَان، فالإيمان يَكُون مَفقودًا عند الشكِّ فيه، فلَا بُدَّ من الإيمانِ الجازِمِ، ولهَذَا مَن شكَّ فيما وعدَ اللهُ به، ومَن لم يُؤْمِنْ بخبرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فَهُوَ كافرٌ؛ لِأَنَّ خبر اللهِ جَلَّوَعَلَا يَجِب التَّصْديقُ به، ومَن شكَّ فِي واحدٍ مِن أركانِ الإيمانِ الستَّة فَهُوَ كافرٌ أيضًا، لَا بُدَّ أن يؤمنَ، وأيضًا لَا بُدَّ ألا يَكُونَ عنده تردّدٌ فِي هَذَا، ولو كَانَ عنده انحرافٌ وسوءُ تصرُّف فيما يَجِبُ عَمَلُه، مثلًا قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ**»[1]، فيؤمن الْإِنْسَان بالرَّسُول لكِن تَنْقُصُ محَبَّتُه للرَّسُولِ فيكُون هنا انتفى عنه كمال الإيمان، لكِن لو شكَّ أن الرَّسُول حقٌّ أو لَيْسَ بحقٍّ ما صارَ مؤمنًا، فلا بدّ أن يجزِم جَزمًا بأنه رسولُ اللهِ، ثُمَّ هل يُقدِّم محَبَّتَهُ عَلَى محبَّة نفسه وأهله؛ فهَذَا محلُّ الكمالِ والنقصِ.

• • ❁ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم (١٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، حديث رقم (٤٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَالله عَنْهُ.



الآيتان (٨٣، ٨٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٣-٨٤].

• • • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم رؤساؤُهُمُ المتَّبَعُون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إِلَى أَوَّلِهِم ثُمَّ يُساقُونَ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ﴾]، استفدنا من هَذَا التفسير أن (يوم) ظرف، وأنّ عاملَه محذوفٌ، التَّقْدير: (اذْكُرْ يَوْمَ). وهَذَا التركيبُ له نظائرُ فِي القُرْآنِ، ويَكُون تقديره عَلَى هَذَا كما قَدَّرَهُ المُفَسِّر هنا.

وقوله: ﴿نَحْشُرُ﴾ بمعنى نَجْمَع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الأمَّة هِيَ القبيلةُ أو الطائفة الكبيرةُ منَ النَّاسِ، والفوجُ أقلُّ منها، ولهَذَا يقولُ المُفَسِّر: [وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ المتَّبعون].

وقوله: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾: (مِنْ) هَذِهِ لبَيَان الجنسِ؛ أي: فوجًا من المكذِّبين بآيَاتِ اللهِ الكونيَّـة والشَّـرْعِيَّة أو إحداهما. قال: [وهم]، أي: الفوج [رُؤَسَاؤُهُمُ المتَّبَعُونَ].

فهم يُحْشَرون فيُجْمَعُون ثُمَّ بعدَ ذلكَ يُوزَعُونَ، والوَزْعُ بمعنى المنعِ؛ أي: يُحْبَس أَوَّلهم حَتَّى يجتمعَ به آخِرُهم، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَرِدُ آخِرهم إِلَى أَوَّلهم]، أي: يُجْمَع الأَوَّلُ إِلَى الآخِرِ، فيَكُونون زُمرةً واحدةً [ثُمَّ يُساقُونَ]، إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مكانَ الحسابِ ﴿قَالَ﴾ تعَالَى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنبيائي ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾].

المُفَسِّر قَالَ: [أنبيائي]، يُشِير بذلك إِلَى أن مَفْعُول (كَذَّبْتُم) محذوفٌ، وأن ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ حالٌ من أنبيائي، ولكِنَّ هَذَا التَّقْدير لا مَعنى له ولا داعيَ له؛ لِأَنَّ التكذيبَ دائمًا يقع معمولُه مُعَدًّى بالباء: كذب بآيَات الله، ما يقال: كذب أنبياء الله بآيَاتِ الله؛ بل: كذب بآيَاته، والتكذيب هنا مُضَمَّن معنَى الجَحْدِ، فعليه نَقُول: لا حاجةَ إِلَى تقديرِ المُفَسِّر: أَنبيائي، بل نَقُول: ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ جارّ ومجرور متعلِّق بـ(كَذَّبْتُم).

قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ يعني أَنْكَرْتُمُوها وجَحَدْتُمُوها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟﴾ من جِهَة تكْذِيبِكُم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، إِلَى آخِرِه، قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا﴾ انظر إِلَى المُفَسِّر كيف حَلَّها: [مِن جِهَة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، والإحاطةُ بالشَّيْءِ بمعنى إدراكِه من جميعِ الجوانبِ، وأصله مشتَقّ منَ الحائطِ؛ لِأَنَّهُ يحيط بالمكانِ، فمعنى أحاطَ بالشَّيْءِ: أَدْرَكَهُ منْ جميعِ جوانبِهِ.

المُفَسِّر فَسَّرَ هنا الإدراكَ بِقَوْلِهِ: [من جهة تكذيبكم]؛ أي: أَنَّكم كذَّبتم من غيرِ أنْ يَكُونَ لديكم عِلْمٌ بالتكذيبِ؛ كَذَّبْتُم بلا علمٍ، ولكِن يَحتمِل معنًى آخرَ: أنكم كذَّبتم بالآيَاتِ قبلَ أنْ تُدْرِكُوها، فيَكُون هَذَا من البدار بالشَّيْءِ قبل أن يُدْرِكَه، كما قَالَ ابن القيِّم[1]:

إنَّ البِـدَارَ بـردِ شيءٍ لم تُحِـطْ ... عِلـمًا بـه سَـبَبٌ إِلَى الحِرْمَـانِ

---

(١) الكافية الشافية (ص:٣٠٥).

الآن لدينا تفسيرانِ: أحدهما أنَّ قولَه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي مِن جِهَةِ تَكذيبكم، والمَعْنى عَلَى هَذَا أنَّكم كذَّبتم بدونِ عِلمٍ، وَهُوَ الَّذِي مَشَى عليه المُفَسِّر، قَالَ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا﴾ من جِهَة تَكذِيبِكم].

الآن إذا أتاكَ رجلٌ بخبرٍ فقلتَ: كَذَبْتَ، يعني مثلًا قَالَ لك: إنَّ فلانًا رأيته فِي بُرَيْدَةَ -مثلًا- أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ؛ لِأَنَّ فلانًا الَّذِي أخبرتَ به هُوَ موجود عندي فِي تلكَ الساعةِ، فهنا أنتَ قدْ كَذَّبْتَ بعلمٍ وليسَ بغيرِ علمٍ، فإذا قَالَ: رأيتُ فلانًا فِي بريدة أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ وأنا لا أَدري، فقد كَذَّبْتَ بلا علمٍ.

الآن المُفَسِّر يَقُول: [من جِهة تكذيبكم بها]، يعني أنكم كَذَّبْتُم بغيرِ علمٍ. ويوجد رأيٌ آخرُ يَقُول: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ يعني أنكم كَذَّبْتُم بها من غيرِ رؤيةٍ ومن غيرِ تأمُّلٍ، يعني أَنَّكم رَدَدْتُمُوها من أوَّلِ وهلةٍ، فيكُون كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

والفرق بين المعنيينِ ظاهرٌ، والأقربُ المَعْنى الثاني؛ لِأَنَّ قولَه: كَذَّبْتُم بآيَاتي والحالُ أنكم لم تُحِيطوا بها عِلمًا أبلغُ مِن كونهم كَذَّبُوا بعدَ أنْ تَروَّوْا ولكِن لم يَجِدوا لِتكذيبهم دليلًا، فهم كذَّبوا من غيرِ تَروٍّ، بل إنَّهُم فِي الحقيقةِ وخُصوصًا الرؤساء منهم يَعْلَمُون أن ما جاءت به الرُّسُل فَهُوَ الحقّ، ولكِن كذَّبوا بشيءٍ لم يُحيطوا بعلمِه، مِثلما قَالَ الله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩]، بل من أوَّل وهلةٍ، وهَذَا أشدُّ فِي اللَّوم عليهم.

فعليه: الاسْتِفْهامُ فِي قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ يكُون للتوبيخِ واللَّوم؛ لِأَنَّ من كذَّب بالشَّيْء بَعْد دراسته والإحاطة به ثُمَّ يتبين له الكذِب هَذَا لا يُلام عليه، لكِن

مَن كَذَّب لأوَّل مرَّة بدون أن يحيطَ بالشَّيْءِ عِلمًا فَهُوَ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بقابلٍ إطلاقًا للحقِّ.

قال تَعَالَى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّا﴾ فِيهِ إدغامُ (ما) الاسْتِفْهاميَّة]، إدغام (أم) الَّتِي للإضراب -وأصلها حرف عطف بمعنى (بل)- و(ما) الاسْتِفْهاميَّة، أُدغمتْ إحداهما فِي الأُخْرَى. و(ذا) اسْم موصولٌ، أي: ما الَّذِي كنتم، ويجوز أن نجعلَ (ذا) مركبة مَعَ (ما)، وتكون (ماذا) كلها اسْم اسْتِفْهام، ولكِن لَيْسَ فِي كُلِّ مكانٍ يجوز هَذَا وهَذَا، إِنَّمَا فِي مثلِ هَذَا التركيبِ يجوز أن نجعلَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهامٍ، ويجوز أن نجعل (ما) اسمَ اسْتِفْهامٍ و(ذا) اسمًا موصولًا؛ أي: ما الَّذِي كنتم تعملون، وَعَلَى هَذَا التَّقْدير الأخيرِ يَجِب أن نقدِّر ضميرًا فِي قولِهِ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليَكُونَ عائدًا إِلَى الاسم الموصولِ، ويَكُون التَّقْدير: (أماذا كنتم تعملونه)، وَعَلَى الأول لا حاجةَ لذلك ونجعل (ماذا) مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(تعملون).

نظيرها فِي الْقُرْآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيها قراءتانِ[1]: «قلِ العفوُ» و﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ونُعْرِب (ماذا) عَلَى قراءةِ الرفعِ:

(ماذا): ما: اسمُ اسْتِفْهامٍ، وذا: اسمٌ موصولٌ، يَعْنِي: ما الَّذِي ينفقون؟ فيَكُون التَّقْدير: الَّذِي ينفقونه العفوُ، وتكون مرفوعةً والعائد محذوفٌ؛ لأني إذا قلتُ: (ما) اسْم اسْتِفْهام، و(ذا) اسْم موصول؛ صارت (ما) مبتدأً و(الذي) خبره، وكلّ منهما مرفوع. ثم يأتي: (قُلِ العفوُ) لِأَنَّ الجوابَ مطابقٌ للسؤالِ؛ أي: العفوُ الَّذِي يُنفِقون.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٩٦).

أمّا عَلَى قراءةِ النصبِ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فنقُول: عَلَى هَـذِهِ القراءةِ يَجِب أن نُعرِبَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهامٍ مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(يُنفِقون) لأنّنا نَعرِف أن الجواب يَكُونُ مطابقًا للسؤالِ، فإذا كَانَ السؤال منصوبًا كَانَ الجواب منصوبًا، وهَذَا هُوَ الَّذِي يبيِّن لك الفرقَ بين الإعرابين.

وقوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني فِي الدُّنْيا، فيكُون الله تَعَالَى وَبَّخَهُم عَلَى أمرينِ: أمر يَتَعَلَّق بالعقيدةِ، وَهُوَ قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، وأمر يتعلق بالعَمَل وَهُوَ قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ (ماذا كنتم تعملون) هَذِهِ اسْتِفْهامٌ لإنكارِ ما يعملونه، فيكُون فِي هَذَا توبيخ عَلَى العقيدةِ والعَمَلِ، وستأتي -إن شاء الله- فِي هَذَا فائدة مُهِمَّة لمسألةٍ اختلف فيها الأصوليُّون نَبْحَثُها إنْ شاء الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الحشرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ لِأَنَّ هَذَا عَلَى تقديرِ محذوف (اذْكُرْ يوم) لكِن اذْكُرْهُ لمجرَّد العلمِ والعقيدة، وكُلّ شيءٍ فِي الْقُرْآن لَيس يُذْكَر لمجرَّد النظرِ أو لمجرَّدِ أن نَعْلَم به، بل هُوَ يُذكَر للاعتقادِ إنْ كَانَ عقيدةً، وللعملِ إن كَانَ عملًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْشُر مِنَ الأُمم أفواجًا معيَّنة يكُونون أُمَّة لباقيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ لَيس كُلّ الأمم، بل فَوْج، وهَؤُلَاءِ الفوجُ هم أَشَدُّهم عَلَى الرحمنِ عِتِيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]، لأجلِ -والعِياذُ بالله- أن يُخزَوْا خِزيًا أعظمَ؛ لِأَنَّهُم قادةٌ فِي الدُّنْيا فيكُونون قادةً إِلَى النَّارِ فِي الآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم الإمامةِ فِي السوءِ كما أَنَّهَا أيضًا عظيمةٌ فِي الخيرِ، فالإمامة فِي الخيرِ له أجرُ مَنِ اتَّبعَهُ، والإمامةُ فِي الشَّـرّ عليه وِزْر مَنِ اتَّبعه، فالإمامة فِي الخير أو فِي الشَّرّ هِيَ أمرٌ عظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إِلَى الخيرِ، وشرُّ النَّاس مَن دَلَّهم عَلَى الشرّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التكذيب بالآياتِ كفرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الفوجَ يُحشَـرون إِلَى النَّار لِأَنَّهُم يكذِّبون بآيَاتِ اللهِ، والتكذيبُ بآيَاتِ اللهِ سَبَقَ أَنَّهُ يَنقسم إِلَى قسمينِ: تكذيب بالآيَات الشَّرْعِيَّة وبالآيَات الكونيّة، والتكذيبُ بالآيَاتِ الكونيَّة أقلُّ مِنَ التكذيب بالآيَاتِ الشَّرْعِيَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُجْمَعُ أوَّلهم إِلَى آخِـرِهم، وآخـرُهم إِلَى أوَّلِهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ ذلك زيادة فِي خِزْيِهِم وعارِهِم، والعياذُ باللهِ، حَيْثُ يَعرفون أنفسهم ويُعرفون عندَ الخَلق.

الْفَائِدَة السَّادِسَةُ: إثباتُ الكَـلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾، وَأَنَّـهُ بحرف وصوت؛ لِأَنَّ الجملَ الَّتِي هِيَ مَقول القَوْلِ حُروف، وَأَنَّهُ بصوت؛ لِأَنَّهُم لولا أَنَّهُم يَسمعون لم يكن هَذَا فائدة، ولا سماع إِلَّا بصوت.

الْفَائِدَةُ السابعة: توبيخ هَؤُلَاءِ عَلَى تكذيبهم بآيَات الله، وكما هُوَ معروف أن التوبيخَ لا سِيَّما فِي ذلك المقامِ أشدُّ مِن وَقع السِّهام؛ لِأَنَّهُ توبيخ فِي مكانٍ يقع فِيهِ من الندمِ والحسرةِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن التخلُّص ولا التكذيب ولا الرجوع عمَّا كان، وَهَذَا التوبيخُ مِن أعظمِ ما يَكُون منَ العذابِ والعياذُ باللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾.

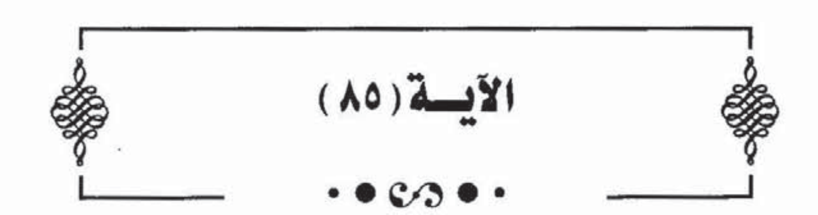
الْفَائِدَةُ الثامنةُ: أَنَّهُ يَزداد قُبح التكذيبِ إذا لم يُحِطِ الْإِنْسَانُ عِلمًا بما كَذَّب به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ وهَذِهِ الجملة محَلُّها من الإعراب حاليَّة، يَعْنِي: والحال

أنكم لم تحيطوا بها علمًا، والجملة إذا صار يَصِحّ قَبْلَها تقديرُ: والحال كذا فهي جملةٌ حاليَّة، ففيها زيادة توبيخٍ لكونهم يكذِّبون من غير أن يُحيطوا عِلمًا بما كذّبوا به ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩].

والمُفَسِّر فسَّر: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ عَلَى وجهٍ آخرَ، يعني: كذَّبتم بلا علم عن وجهِ هَذَا التكذيبِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسعةُ: توبيخُ هَؤُلَاءِ عَلَى عَمَلِهم، فكما وُبِّخوا عَلَى التكذيبِ وُبِّخوا أيضًا عَلَى العَمَل فِي قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

• ● ۞ ● •


الآيــة (٨٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

قَالَ المُفَسِّـر: [﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ حقَّ العذابُ ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي أَشْـرَكُوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حُجَّةَ لهم].

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني قولَ اللهِ بالعذابِ، فإنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يأمرُ بِتَعْـذِيبِهِمْ إذا لم يُجِيبُوا، وهَذَا السؤال كما تقدَّم لَيْسَ سؤال استخبار واستعلام، ولكِنه سؤال توبيخٍ وتقريعٍ، فحينئذٍ يقعُ عليهم القَوْلُ، وهَذَا القَوْل الَّذِي وقعَ عليهم لم يُظْلَموا به ولكِنْ همُ الَّذِينَ ظَلَموا، ولهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بسبب، و(ما) هنا مصدريَّة يَعْنِي أنَّ الفِعْل بعدها يحول إِلَى مصدرٍ، فيَكُون التَّقْدير: بِظُلْمِهِم؛ أي وقع القَوْل عليهم بظلمهم.

وقول المُفَسِّر: [أي أشركوا]، ينبغي أنْ نفسِّر الظلمَ بما هُوَ أعمُّ مِنَ الشركِ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَبَّخَهُمْ عَلَى التكذيبِ وعلى العَمَلِ المنحـرِفِ، فيَكُون الظلمُ الَّذِي حصلَ منهم: التكذيب والجَحْد الَّذِي يَتَضَمَّن الإشراكَ، وكذلك الفُسُوق والعِصيان الَّذِي حصلَ منهم كإيذاءِ الرُّسُلِ وغير ذلك، فالأصحُّ أنْ نجعلَ ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بسببِ ظُلْمِهِم، ومنه الشركُ.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: (الفاء) مُفَرّعة عَلَى قولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي:

بَعْد أن وقعَ عليهم القَوْلُ استحقُّوا العذابَ فلا يستطيعون النُّطْقَ، يَقُول المُفَسِّر: [إذ لا حُجَّة لهم]، وهَذَا فِي آخِرِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُم كانوا فِي أوَّلِ الأَمْرِ يَنطِقون ويُدافِعون.

ولكِنهم إذا رأوْا أنَّ جَوَارِحَهم شَهِدَتْ عليهم حينئذٍ أمسكوا، فلا يستطيعون الآن، وإلّا فإن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فهم يَقُولُونَ: ما أَشركنا، ويَقُولُونَ أيضًا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]، فهم يتكلَّمون ويُدافِعون عن أنفسهم، ولكِنَّ ذلك لا يَنفعهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، فالمهمُّ أَنَّهُم يتكلَّمون، فقوله هنا: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥]، هَذَا يَكُون الجمع بينه وبين الآيات الدالّة عَلَى نطقهم أن للقيامة أحوالًا؛ لِأَنَّ يوم القيامة مِقداره خمسونَ ألفَ سنةٍ، فالأحوالُ تَتَغيَّر، فيَكُون الناطق فِيهِ ساكتًا ويَكُون الساكت فِيهِ ناطقًا، وتَتَقلَّب الأحوال، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧]، لِمَا ترَى، فهم فِي حالٍ لا يَنطِقون، وَفِي حالٍ يَنطِقون ويدافعون.

ولكِنهم مهما قالوا ومهما فعلوا فإن لديهم شهودًا من أنفسهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، فاللِّسان يَنطِق بما قال، واليدُ تَنطِق بما فعلتْ، والرِّجل تَنطِق بما فعلتْ، وأبلغ من ذلك الجلودُ تَشهَد بما لمستْ، فجميعُ ما فِيهِ الإدراكُ والحاسَّةُ يَشهد عَلَى هَؤُلَاءِ بما فَعَلُوا، وحينَئِذٍ لا يَستطيعونَ أنْ يُدافِعوا، ما دام أنَّ هَذِهِ الأَشْيَاء تَشهد عليهم؛ إذن مَن يشهد لهم؟!

الحاصل: أن الأحوال تتغيَّر، فالمتكبِّرون يُحشَرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ

يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بأقدامهم[١]، ولكِنَّهم إذا دَخلوا النَّار يَكُون ضِرْسُ الواحدِ منهم مثل أُحُدٍ[٢]، والعياذُ باللهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أنَّ العذابَ قد حَقَّ عَلَى هَـؤُلَاءِ، أو أن المَعْنى ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أَنَّهُ صَدَقَ القَوْلُ عليهم فلم يَستطيعوا الجوابَ، يعني لَمَّا وُبِّخُوا بالتكذيبِ والعَمَلِ فقال: وقعَ القَوْلُ عليهم؛ أي: ما قيل لهم من هَـذَا التوبيخِ صَدَقَ عليهم فلم يستطيعوا الدفاعَ، بَقِينا فِي قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ وهَذَا الوجهُ لم نَذْكُرْهُ لَكِنَّهُ فتحَ اللهُ به علينا، إنْ كَانَ حقًّا فالحمدُ للهِ وإلَّا فَنَسْتَغْفِر اللهَ.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: أن هَذَا القَوْل الَّذِي وُبِّخوا به صَدَقَ عليهم، ولهَـذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لِأَنَّ مَن وُبِّخ عَلَى أمرٍ لم يقعْ عليه يَستطيع أنْ يَنْطِق فيُدَافِع، لكِن هَؤُلَاءِ ما استطاعوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات السَّبَـب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾؛ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة، وإثبات الأَسْبَاب هُوَ مَذهَب أهلِ السنَّة والجماعة، وأن الأُمُور مَقرونة بأَسْبابها.

يقولُ العَوَامّ: وقد قَالَ الله تَعَالَى: (وجعلنا لكلِّ شيءٍ سببًا)، وهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآن، ولكِنه كقراءة بعضهم لما ذُكِرَ له الأعراب، قَالَ: أَلم تَسْمَعْ قولَ اللهِ تَعَالَى فِي الأعراب: (سُود الوُجُوه إذا لم يُظْلَموا ظَلَمُوا) وهَذَا لَيْسَ من قولِ الله، لكِن أحيانًا

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٥٧)؛ والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، حديث رقم (٢٤٩٢)؛ وأحمد (٢/ ١٧٩) (٦٦٧٧)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النَّار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعَامَّة يَقُولُونَ أَشْيَاءَ يَعتقدونها من الْقُرْآن، فنحنُ نُثْبِت الأَسْبَابَ ولكِن ما نَقُول: إن الله فِي الْقُرْآن ذكرَ أن لكلِّ شَيْء سببًا، إِنَّمَا الْقُرْآن مملوء من إثباتِ الأَسْبَاب.

فهِمنا من هَذَا أن إثبات الأَسْبَاب هُوَ مَذْهَب أهل السنَّة والجماعة، فهل أحد من أهل البِدع يخالفهم فِي ذلك؟

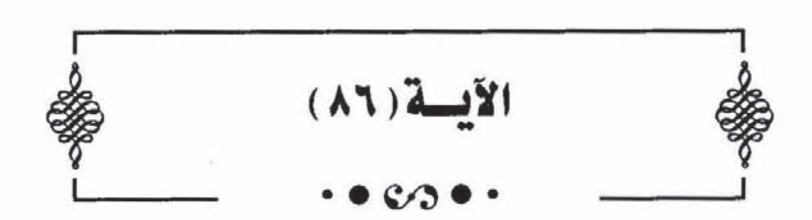
نَقُول: الجَبْرِيَّة والأشاعرةُ لا يُثْبِتُون الأَسْبَاب، ويَقُولُونَ: إن فعلَ اللهِ تَعَالَى لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، والمُعْتَزِلة عَلَى العكسِ مِن هَـؤُلَاءِ يَرَوْنَ أن الأَسْبَاب مُوجبة، وهَـذَا يَقُولُونَ: إن الله يَجِب عليه فِعْل الأَصْلح والصلاح.

والصَّوابُ أن نَقُولَ: إن المعقول والمَنْقُولَ يَدُلّ عَلَى أن الأَسْبَاب مؤثِّرة، ولكِن بأمرِ اللهِ، وكم من سببٍ كَانَ مؤثِّرًا ثُمَّ لم يَنْفَعْ إذا لم يرد الله تَعَالَى أن يمثل هَذَا الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تَعَالَى لا يَظْلِم النَّاس شيئًا، ولكِن النَّاس أنفسهم يظلمون؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، يَعْنِي: فهَذَا الأَمْر الَّذِي نزل بهم سببُ ظُلْمِهم، ولم يَظْلِمْهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للناسِ فِي يومِ القيامةِ أحوالًا، فهم أحوال مختلِفة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لِأَنَّ الله ذكر فِي بعضِ الآيَاتِ أَنَّهُم يَنطِقون ويدافعون، يَقُولُونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ويقول تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النِّسَاء:٤٢]، فأنت الْآنَ لا يمكن أن تجمعَ بين هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا إذا قلتَ: إن النَّاس لهم أحوال، حال يمكنه الكَلام، وحال لا يمكنه فِيهِ الكَلام، وبهَذَا يتآلَفُ الْقُرْآن وَهُوَ مُؤْتَلِف.

• • ۞ • •



الآيــة (٨٦)

ﵟ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦].

• • ● • •

قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الرؤيةُ هنا عِلمية وبَصَرِيَّة أيضًا، لكِنَّ كَوْنَها عِلْمِية أعمّ؛ لِأَنَّ مَن أبصرَ الشَّيْءَ عَلِمه، وَلَيْسَ كُلّ مَن عَلِمَ الشَّيْءَ أَبصره، فالأعمى يَرَى الليل يعني يَعْلَمه، والمُبْصِر يراه بعينِهِ وبَصيرتِهِ.

والهمزةُ فِي قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ للتقرير؛ تقرير هَذه الرؤية الَّتِي لا يُنْكِرها أحدٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ خلقنا]، فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الجَعْلَ هنا بالخلق، فيَكُون متعدِّيًا بمَفْعُول واحدٍ، ويجوز أن يَكُونَ الجَعل هنا بمعنى التصيير، يَعْنِي أَنَّا جَعَلْنا الليلَ مُظْلِمًا لِيَسْكُنُوا فيه، ويدلُّ عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى الَّذِي بعده.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لِيَتَصَرَّفوا فيه]، ويَكُون حُذِفَ من كُلّ جملةٍ ما دَلَّ عليه المذكورُ فِي الجملةِ الأُخْرَى، ويُسمَّى هَذَا فِي علمِ البديعِ بالاحتباكِ، والاحتباكُ أنْ يذكر فِي كُلّ جملةٍ ما حُذِفَ من الأُخْرَى مَعَ التقابُلِ.

هنا نَقُول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ مُظْلِمًا ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الَّذِي حُذِفَ من هَذَا (مُظْلِمًا)، ذكر مقابله: ﴿مُبْصِرًا﴾، وحذف من قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ، وذكر فِي مقابله: ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾، فيَكُون فِي الجملةِ احتباكٌ، وبهَذَا نكون قد

استفدنا المَعْنى مَعَ الاختصارِ، وعَلَى هَذَا التقريرِ الَّذِي ذكرنا يَكُون ﴿جَعَلْنَا﴾ ليس بمعنى (خَلَقْنَا)، بل بمعنى (صَيَّرنا) تَنصِب مَفْعُولينِ، المَفْعُول الأوَّل (الليل) والمَفْعُول الثاني محذوف تقديرُه: مظلمًا.

قوله: ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام هنا للتعليلِ، والسكونُ معناه القرارُ وعدم الحركةِ، ولذلك كَانَ الليلُ محَلَّ السكونِ للخلقِ، ولكِنه بإذنِ اللهِ محَلّ عَمَلٍ لخلقٍ آخرينَ؛ فالهوامّ والسباع لا تعمل إِلَّا فِي الليلِ؛ لِأَنَّهَا تختفي فِي النَّهارِ؛ إمَّا خوفًا من النَّاسِ وَإمَّا رحمةً من الله عَزَّوَجَلَّ بالخلقِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السباع أو هَذِهِ الهوامّ لو كانت تخرج فِي النَّهار لأتعبت النَّاسَ، ولَكِنَّهَا -والحمد لله- لا تظهرُ إِلَّا بالليلِ، فإذا سكنَ النَّاسُ بدأ عَمَلَها بالتناوُب.

وهَذَا من رحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالخلق أن يَكُون هَذَا التبادلُ ليعيشَ النَّاس بسلامٍ، حَتَّى هَذِهِ الحيوانات آمَنُ لها إذا كانت لا تعيش إِلَّا بالليل حَتَّى لا تُعارَض.

فهنا المُراد بالسكونِ الآدميُّون ومَن أشبههم ممَّن سُكُونُهم بالليل، ولهَذَا الْإِنْسَان إذا أرادَ الصحَّة فليكنِ الليلُ سَكَنًا له، ولا سِيَّما أوّل الليل، فإن النَّبيّ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ الحديثَ بَعْدَ العِشَاءِ[1]، وقد ذَكَرُوا أنّ نومَ الليلِ الساعةُ منه تقابلُ ساعاتٍ من النَّهارِ.

وهَذِهِ الثروة السكونيَّة أضعناها الْآنَ بما لا نفعَ فِيهِ، بل بما فِيهِ ضررٌ، فالْآنَ النَّاس يَعكُفون عَلَى مشاهدةِ التلفزيون إِلَى نصفِ الليلِ تقريبًا، بينما فِي الدول الغربيّة

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من السمر بعد العشاء، حديث رقم (٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس وبيان قدر القراءة فيها، حديث رقم (٦٤٧)، عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَعَ الأسفِ الشَّديدِ الكافرة المُلْحِدَة لا يتجاوز التلفزيون الساعة التَّاسعة منَ الليلِ، ففي الساعة التَّاسعة يُغلَق التلفزيون؛ لِأَنَّهُم يَعرفون أن هَذَا ضررٌ عَلَى عمالهم وَعَلَى مُثقَّفِيهم، فهم لا يريدون الضررَ للأُمّة، يَقُولُونَ: إذا أَبقيناه إِلَى ما بَعْد التَّاسعةِ سَهِرَ النَّاس عليه وَكَانَ فِي ذلك إنهاك للعمال وكان فِي ذلك إهمال للطلبة، فلذلك نحن نُغْلِقُه من الساعة التَّاسعة حَتَّى ينام النَّاس وحتى لا نكون قد تَسَبَّبْنَا فِي إرهاقِ النَّاسِ، وحدثني بذلك عدَّة أُناسٍ مِنَ الَّذِيـنَ جاءوا من أُورُبَّا يَقُولُونَ: أبـدًا، لا يمكن أن يتـجاوزَ الساعةَ التَّاسعةَ، لكِن لا أَدري إنْ كَانَ فِي الأَشْيَاء النادرة، لكِن هَـذَا هُوَ برنامجهم.

نحن الْآنَ مَعَ الأسفِ الشَّديدِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يبقى إِلَى ما بَعْد الساعة الثَّانِيَة عشرة نصفَ الليلِ، هَذَا مَعَ ما يَتَطَلَّب من الناحية الاقتصاديَّة: فكم يَستهلك النَّاس من الكهرباء فِي هَذِهِ الساعةِ على تلفزيوناتهم وكذلك أيضًا أنوارهم؛ لِأَنَّ المكان لَا بُدَّ له من نور، فيُستهلك نور، وتُستهلَك كهرباء للتلفزيون، فكم يكلّف العالم؟! وكم تُرهق المُعدات أيضًا؟ هَذَا بقطعِ النظرِ عن المفاسدِ الأُخْرَى البدنيّة، ولكِن العبرة بمن بصَّره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فمثل هَذَا المسئول راعي البيت إذا كانت مثلًا الساعة التَّاسعة يأمر أهله بالنوم ويُغلِقه، أَمَّا الكسرُ فلا، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِهَ الحديثَ بعدَ العشاءِ[1]، فكَوْننا نسهر إِلَى نصفِ الليلِ أحيانًا أو إِلَى أكثر وَلَيْـسَ ليلة طارئة حَتَّى نَقُول: العوارض عوارض، بل هِيَ دائمًا فِي الغالب، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يسهرون إِلَى ما بَعْد نصف الليل أولًا ربَّما لا يقومون لصلاة الفجر، وإذا قاموا نِصْفُهم نُوَّم، يُؤَدُّونَها بكلِّ كُلفةٍ ومَشَقَّة،

---

(١) سبق تخريجه.

أو ينامون فِي نفس المَسْجِد أو فِي نفسِ الصَّلَاة، ثُمَّ إذا رَجعوا إِلَى بيوتهم ينامون إِلَى الظهرِ.

يعني أول النَّهار الَّذِي هُوَ محَلّ البركة ومحَلّ العَمَلِ يُضَيَّع، والليل الَّذِي محَلّ السكون يُضَيَّعُ السكونُ فيه، وهَذَا فِي الحقيقةِ يُعتبَر نقصَ وَعْيٍ فِي المُسلِمين.

يَقُولُونَ عن الكفار؛ حَدَّثني رجل يَقُول: عندهم عطلة السبت والأحد، السبت لأجل اليهودِ والأحدُ لأجلِ النَّصارَى، لكِن يَقُول: إذا صار ليلة الإثنين من غروب الشَّمْس كلٌّ فِي محَلِّه، من أجل أَنَّهُ بمجرد أن يقومَ فِي الصباحِ فإذا هُوَ مباشِرٌ لعملِهِ، فلا يمكن أنْ يتأخَّروا. يَقُول: من الغريب أن العوائل يخرجون يتنزهون فِي هذين اليومينِ في المتنزَّهات لكِن إذا غابت شمس ليلة الإثنين إذا كُلّ إِنْسَان فِي محَلّه يَكُون متهيِّئًا للعمل.

فإذا قَارَنْتَ حال هَؤُلَاءِ بحالِ المُسلِمينَ اليوم مَعَ أنَّ أحوالهم هَذِهِ هِيَ الَّتِي يَجِب أن تكون للمسلمينَ، وجدتَ هَذَا السَّبَبَ الَّذِي جَعَلَنا نتأخَّر وجعلنا فِي هَذَا الذلّ، وجعل كثيرًا من شبابنا لَيسوا مقتنعينَ بأحوالهم، فبعض الشبابِ الْآنَ المنحرِف قد يَكُونُ له عُذر، يَقُول: أنتم تقولونَ: الإِسْلامُ والإِسْلام، أين الإِسْلام! لم نرَ شيئًا! ولكِن نَقُول: الذنبُ ذنبُ مَن يَنتسبون للإسلامِ، لَيْسَ ذنب الإِسْلام، ذنب مَن يَقُولُونَ: نحن أهلُ الإِسْلامِ، وَفِي أهلِ الإِسْلام مَن لا يَعرف أركانَ الإِسْلامِ. والعَجَبُ أن بعض النَّاس المُسلِمين الْآنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُم مسلمون ومكتوب عَلَى هُوِيَّة الواحد منهم أَنَّهُ مُسْلِم، لا يَعرف كيـف يتوضأ ولا كيـف يُصلي، فهَذَا موجودٌ.

إِذَنْ: معنى هَـذَا أن البيئـة لا تَتَوَضَّأ ولا تصـلي، فأين الإِسْـلام من قـومٍ

لا يتوضؤون ولا يصلون! فهَذَا هُوَ الَّذِي أخَّرنا.

ولذلك أنا -والله- أُحِبُّ دائمًا أنْ يَكُونَ لَدَى أهلِ العلمِ تَطَوُّر فِي الحركة والعَمَل والنهوض بالأمة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آيات جمع آيةٍ، وهي تدلُّ عَلَى أن ما ذُكِرَ فِيهِ عِدَّة آيات، منها: إظلام الليل والسكون فيه، وإبصار النَّهار والتصرُّف فيه، فهي أربع آيات، مَعَ ما تَتَضَمَّنَهُ أيضًا من آياتٍ أُخرى تَسْتَلْزِمُها، ولهَذَا جمع فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أين الآيات فِي كون الليل لِيسكنوا فِيهِ والنَّهار مُبصِرًا؟

نَقُول: السكون فِي الليلِ والتصرُّف فِي النَّهار؛ لأَنَّنا قُلْنَا: حذفَ مِن النَّهارِ ما ذكرَ فِي الليلِ، وحذفَ فِي الليلِ ما ذكرَ فِي النَّهارِ، يعني فِي المقابلةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تقرير هَذِهِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وهي جَعْل الليلِ مُظلِمًا للسكنِ، والنَّهارِ مُبْصِرًا للمعيشةِ، وهَذِهِ النعمة كلهم يُقِرُّون بها، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

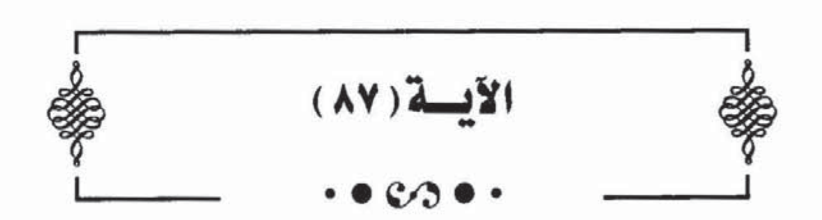
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلال بالشاهدِ عَلَى الغائبِ، فإن هَذَا الليل والنَّهار ما أحد من الخلقِ يستطيع أنْ يُغيِّر فيهما أقلَّ تغييرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١]، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧٢]، فالقادر عَلَى هَذَا التغييرِ قادرٌ عَلَى البعثِ، فالإِنْسَان فِي الليلِ يُتَوَفَّى ثُمَّ يُبْعَثُ فِي النَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠]، فالقادرُ عَلَى هَذَا قادرٌ عَلَى إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان فضلِ اللهِ تَعَالَى فِي جعل الليل والنَّهار عَلَى هَذَا الوصفِ، ظَلَام للسُّكْنَى وإبصار للعملِ، لو كَانَ الدهرُ كلّه ظَلامًا ما عمِل النَّاس، ولو قُدِّر أَنَّهُم رتّبوا أعمالهم لاختلفوا، وكذلك لو كَانَ نهارًا ما سَكَنَ النَّاس، ولو قُدِّرَ أَنَّهُم رَتَّبوا أوقاتهم وجعلوا مثلًا نصفَ الوقتِ سكنًا ونصف الوقت عملًا لم يَتَّفِقُوا فيه، ولكِن من رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ جعلَ الليلَ والنَّهارَ لِيَسْكُنَ النَّاسُ جميعًا ويَرْتَعُوا من فضله جميعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للعاقلِ أن يَعتبرَ بهَذِهِ الآيَاتِ وأن الاعتبار بها من الإيمان، لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الانتفاعَ بالآيَاتِ بِقَدْرِ ما مَعَ الْإِنْسَان من الإيمانِ؛ لِأَنَّهَا رُتِّبَتْ عَلَى وصفٍ، والمرتَّبُ عَلَى وصفٍ يَزيد بزيادته ويَنْقُص بنقصانه.

• • ۞ • •



الآيـة (٨٧)

• • ⁂ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

• • ⁂ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ القرن]، هَذِهِ معطوفةٌ عَلَى قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النمل:٨٣]، فيَكُون من جملةِ المأمورِ بذِكْرِه، يَعْنِي: واذْكُرْ يومَ يُنْفَخُ فِي الصُّور.

والصُّور يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القَرْن]، وَقِـيلَ: إِنَّهُ البُوقُ، ولا تنافِيَ بيـنَ القَوْلينِ؛ لِأَنَّ القرنَ المُعْوَجّ يَكُون مثل البُوق، ولكِن هَذَا القَرْنُ يُوافِقُ القرنَ المعروف بالاسم دون الحقيقةِ، وقد وردَ فِي بعضِ الآثارِ أنَّ سَعَتَهُ كما بينَ السَّماء والْأَرْض[1]، وَهُوَ لَا بُدَّ أن يَكُونَ بهَذِهِ السَّعة والعَظَمَة؛ لِأَنَّ النفخَ فِيهِ يَستلزِم الفَزَع والموتَ، ومثل هَـذَا لو كَانَ صَغيرًا لا يُفْزِع النَّاس ولا يموتون منه كلهم. وأيضًا يُنْفَخ فِيهِ فتَخْرُج منه الأرواحُ كلُّها وتعود إِلَى أَجْسَامها.

إِذَنْ: فَهُوَ قَرْنٌ عظيمٌ ما يَعْلَم قَدْرَه إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قَالَ المُفَسِّـر: [النَّفْخَة الأُولَى من إسرافيلَ]، وتوجد نفخةٌ ثانيةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١/ ٨٤) (١٠).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [من إسرافيلَ] بَيَان للنافِخ، يعني الَّذِي يَنْفُخ هُوَ إسرافيل، ولكِنَّه لا يَنْفُخ بإرادتِهِ هُوَ، بل بإرادةِ اللهِ، وإسرافيلُ هُوَ أَحَدُ حَمَلَة العَرْش، وَهُوَ أحدُ الملائكةِ الثلاثة الَّذِينَ يَسْتَفْتِح بهم النَّبِيُّ ﷺ صلاةَ الليلِ، والثاني جَبرائيلُ، والثَّالث مِيكَائيل[1]، والحِكْمَةُ من ذلكَ أن هَؤُلَاءِ الثلاثة كُلّ مِنهم مُوكَّل بحياةٍ، فجبرائيل موكَّل بالوحي الَّذِي به حياةُ القلـوبِ، وميكائيـلُ بالقَطْر والنباتِ الَّذِي به حَياة الْأَرْض، وإسرافيلُ بالصُّور الَّذِي به حياةُ الأجسادِ، ومناسبةُ الافتتاحِ فِي صلاةِ الليلِ ظاهرةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ قد بُعِثَ الْإِنْسَانُ بعدَ مَوته أو بعدَ وَفاتِه بالنومِ، فهَذِهِ حياةٌ تُناسِب أنْ يَبْتَدِئَ هَذِهِ الصَّلَاة الَّتِي هِيَ بعدَ الحياةِ بِمَن وُكِّلوا بالحياةِ، وطبعًا هَذَا من بابِ التوسُّل؛ لأنك تقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... إلخ».

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَن فِي السَّماوَات ومَن فِي الْأَرْض مِن عُقَلاء وغَيْرِهم، وجاءت (مَن) تَغليبًا؛ لأنَّ العاقلَ أشدُّ فزَعًا من غيرِ العاقلِ؛ لِأَنَّ العاقلَ يَفْزَع للحاضرِ والمستقبَل، وغير العاقل للحاضرِ فقطْ ولا يُهِمُّه المستقبَل، ولهَـذَا لو سَمِعْـتَ صَدمةَ لِصّ فِي البابِ قويَّة وعندك صَبِيّ، كلكم يَفْزَع من هَذِهِ الصدمةِ القويَّة، لكِن الصبي إذا انتهتِ الصدمةُ وَقَفَ ولم يكن فِي قلبه أيّ شَيْء أبدًا، وأنت تفكِّر فِي المستقبل وتخاف، فلهَذَا غلبَ العقلاءُ فِي قولِه: (مَن) فِي جانبِ الفَزَع؛ لِأَنَّ فزَعَهم أعظمُ، يَكُون للحاضرِ والمستقبلِ.

وهنا قَالَ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَفِي آيَةِ الزُّمَر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧٠)، عن عائشة أم المُؤمنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فهل هما نفختانِ، فإذا جمعتَ إِلَى الثَّالثةِ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ صارت ثلاثَ نَفَخَاتٍ، أو أن نفخة الفَزَع والصَّعْق واحدة، وأن النَّاس يَفزعون أوَّلًا ثُمَّ يموتون؛ أي: فزَع يليه الموت؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا نُفِخَ يَكُونُ صوتٌ عظيمٌ مُمْتَدّ، فيَفزعون ثُمَّ يَموتون، مثل الصَّيْحَات الَّتِي يُصاح بالمجرمينَ كالتي أَخَذَتْ ثمودَ؟

هَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، فمنهم مَن يَرَى أنَّ النَّفَخَات ثلاثٌ: نفخةٌ يَفزع النَّاسُ ويَتَأَهَّبُون ويَكُونون عَلَى حَذَر، ثُمَّ أُخرى للصَّعْق فيموتون، ثُمَّ ثالثة للبَعْث.

وَقِيلَ: إنّ نَفْخة الفَزَع بعدَ نَفْخَةِ الصَّعْق والبَعْث، وإنهم يَصْعَقُون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ثُمَّ يُنفخ ثالثة فيَفْزَعون إِلَى الداعي، لكِن هَذَا القَوْل ضعيفٌ، فالمشهورُ القَوْلانِ السابقانِ.

وهل هِيَ ثلاثٌ: فزَع ثُمَّ نفخةٌ أُخْرَى فيها الصَّعْق ثُمَّ نفخةٌ ثالثةٌ فيها البعثُ، أو هما نفختانِ: نفخةٌ فيها فزَع وصَعْقٌ، ونفخةٌ فيها البَعْث؟

الأخيرُ هُوَ الأقربُ؛ لِأَنَّ حديثَ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدُلّ عَلَى هَذَا، فَإِنَّهُ ذكر النفختينِ وذكرَ أن بينهما أربعينَ، قيلَ له: يوم أو شهر أو سَنة؟ قَالَ: أَبَيْتُ[1]. ولم يُبيِّنْ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْلَم؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ منَ الرَّسُولِ ﷺ أربعينَ، ولا يعلمُ هل هِيَ أربعونَ يومًا أو سنة أو شهرًا.

وبعد هَذِهِ النفخةِ الَّتِي هِيَ الفَزَع والصَّعْق يُرْسِل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَطَرًا كأنَّه الطَّلّ، والطَّلُّ معروفٌ، وهُوَ النَّدَى الَّذِي يَنْزِل منَ السَّماءِ عندَ الصَّحْو فِي الليلِ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حديث رقم (٤٦٥١)؛ ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، حديث رقم (٢٩٥٥).

أو أنَّهُ الرذاذ الخفيفُ جِدًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، ثُمَّ تنبُت الأجسامُ بإذنِ الله من هَذَا الماء، تنبت وهي فِي القبورِ، فإذا تكامل نَباتها نُفِخَ فِي الصُّور النفخة الثَّانِيَة، وحِينَئِذٍ تَخْرُجُ الأرواحُ وتعودُ إِلَى أجسامها، فيخرجُ النَّاسُ مِنَ القُبُور، وَلَيْسَ كما يَتوهَّم بعضُ النَّاس أَنَّهُم يَنبُتُون عَلَى قُبُورهم، بل هم يَنْبُتُون فِي القبورِ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق:٤٤].

فمعنى ذلك أَنَّهُم يُخْرَجُون منَ القبورِ وهم مُسْرِعون، فهم أحياء، وهَذَا بعدَ تكامُلِ أجسادهمْ فِي القبورِ، ثُمَّ إن هَذَا أيضًا مُقْتَضَى القِيَاس فِي بَدْءِ الخَلْق؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتكامَل خَلْقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ ويَخْرُج حيًّا، والْأَرْض للإِنْسَانِ مثل بَطْن الأُمِّ له، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكِيم، قَالَ تَعالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، أفعاله دائمًا تكونُ متناسبةً، لَيْسَ فيها تناقُضٌ ولا تنافُرٌ.

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ حَتَّى الملائكة يَفْزَعون، وكذلك يَصْعَقُون: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ يَقُول المُفَسِّر: [خافُوا الخوفَ المُفْضِيَ إِلَى الموتِ؛ كما فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿فَصَعِقَ﴾]، فعلى هَذَا يَكُون رأيُ المُفَسِّر أنهما نفختانِ؛ الأُولَى تَتَضَمَّن الفزعَ والصَّعْق.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والتعبيرُ فِيهِ بالماضي لِتَحقُّقِ وُقُوعِهِ]، فـ(فَزِعَ) فِعلٌ ماضٍ، و(يُنْفَخ) مضارعٌ، وَلَيْسَ الكَلام فِي (يُنْفَخ)؛ لِأَنَّ المضارعَ للمستقبلِ، لكِن قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ولم يقلْ: (فيَفْزَع).

يَقُول المُفَسِّـر: [لِتَحقُّق وقوعه]، والشَّيْء المتحقّق الوقوعِ كالماضي، ولهَذَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فكيف أَتى والله تَعالَى يَقُول:

فلا تَستعجلوه؛ إذنْ ما أَتَى ما دام أَنَّهُ فلا تَسْتَعْجِلُوه، فمعناه أَنَّهُ لم يأتِ، فعبَّر بـ(أتى) لِتَحَقُّقِ الوقوعِ ولِقُرْبِهِ أيضًا، كأنه لِقُرْبِهِ شَيْء حَصَل، فهنا ذكر ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾ بلفظِ المضارعِ لِأَنَّهُ لم يكنْ، وذكر الفزعَ الَّذِي يَتَّصِف به النَّاس بلفظِ الماضي كأنه شيءٌ قد وَقَع بهم.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عَيَّنَ المُفَسِّر هَذَا المُبْهَم فقال: [أي جِبريل ومِيكائيل وإسرافيل ومَلَك المَوْت]، هَؤُلَاءِ أربعةٌ، [وعنِ ابنِ عبَّاس: هُمُ الشُّهَدَاء[1]؛ إذ هم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]]، فيَكُون المستثنَى خمسة، هَكَذَا قَالَ المُفَسِّر، وهَذَا يَحتاجُ إِلَى توقيفٍ وَنَصٍّ، إذا كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَدْرِي، فمَنِ الَّذِي يَدْرِي! أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ أنه: «**أَوَّلُ مَنْ يُفِيقُ، فَيَجِدُ مُوسَى** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **آخِذًا بِقَوَائِمِ العَرْش أَوْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ، يَقُولُ: فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الصُّورِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي**»[2].

إِذَنِ: الرَّسُول لا يَدْرِي مَنِ المُسْتَثْنَى؛ لِأَنَّهُ لم يعلم أنْ يَكُونَ موسى مِمَّنِ استثنى اللهُ، ولو كَانَ عنده علمٌ بهم لعَلِمَ مثلًا أن موسى لَيْسَ منهم أو أَنَّهُ مِنهم، فإذا كَانَ النَّبِيّ ﷺ لم يعلمْ فغيرُه من باب أَوْلَى.

ولِهَذَا الصَّوابُ أَنَّهُ يجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أبهمهُ اللهُ، إِلَّا إذا جَاءنا عنِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فإنَّ الله يقولُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديًّا عند الغضب، حديث رقم (٦٥١٩)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، حديث رقم (٢٣٧٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا إذا ما جاءنا عن المعصوم شيءٌ مِن هَذَا فالواجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، والأَمْـرُ فِي هَذِهِ المسائلِ مِنَ الخُطُورة بمكانٍ، حَتَّى آدم، فلا نَستثني أحدًا أبدًا، إِلَّا مَن شاء الله.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَن الَّذِي شاء الله؟

نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ.

فنَفْهَم أنَّ الله استثنى أحدًا قد يَكُونُ واحدًا وقد يَكُون ألفًا وقد يَكُون ألفينِ وقد يَكُون عَشَرَةَ آلافٍ، فلا ندري، إِلَّا مَن شاء الله.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إسرافيل ألا يَتَعَيَّن أَنَّهُ مِمَّنِ استُثْنِيَ لِأَنَّهُ هُوَ النافِخُ؟

فالجواب: لا، رُبَّما يَنْفُخُ ويَصْعَقُ بمجرَّد النفخ، فلا نَدري، المهمُّ أَنَّهُ لا يوجد شَيْء يمكن أنْ نُعَيِّنَه إِلَّا بدليلٍ عن معصومٍ، وهَذَا يَجِب علينا فِي كُلّ شيءٍ أَبْهَمَهُ الله، فكلُّ شيءٍ أبهمه الله لا يُمْكِن أنْ نُعَيِّنَهُ إِلَّا بدليلٍ عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وخبـرُ ابنِ عَبَّاس -اللهُ أَعْلَمُ- إنْ صَحَّ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ **فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ:** ابنُ عبّاسٍ مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيلياتِ، فيُخْشَى هَذَا أن يَكُونَ مِمَّا أخذه عن بني إسرائيلَ؟

فنَقُول: يَبْعُدُ أنْ يُفَسِّر الْقُرْآن بما أَخَذَهُ عن بني إِسرائيلَ؛ لِأَنَّ الصحابةَ عندهم مِنَ الوَرَعِ ما يَمْنَعُهم من ذلكَ، فإذا جَاءنا -وهَذِهِ نُكْتَة يَجِب أنْ نَتَفَطَّن لها- إذا جاءنا عن ابنِ عبَّاس ونحوه مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيليَّات تفسيرٌ للقرآنِ بهَذَا فَإِنَّهُ قد يُمانع فِي كونه مردودًا؛ لِأَنَّ ابن عباس لا يمكن أن يفسر كلام الله بما أخذه عن بني إسرائيلَ، وقد قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ**

وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا يَقتضي أَنَّنا إذا فَسَّرنا الْقُرْآن بما قالوا فقد صَدَّقْنَاهم، وهَذَا بعيدٌ مِنَ الصحابةِ أن يفعلوه، فالْإِنْسَان يَتَوَقَّف فيما إذا جاء تفسيرُ الآيَةِ عنِ ابنِ عبَّاس وغيره من الصحابةِ الَّذِينَ أخذوا عن بني إسرائيلَ ويَتَوَقَّف فِي رَدِّه، وذلك لِهَذَا الوجهِ الَّذِي ذَكَرنا، وإنْ ذَكَروا شيئًا لا يتعلَّق بالتفسير كالقَصَص الَّتِي ما أشار إليها الْقُرْآن فهَذَا يُمْكِن أن نأخذَه، لكِن قِصَّة مُسْتَقِلَّة ما أشار إليها الْقُرْآن، هَذَا يَكُون عَلَى بابِه، لكِن إذا فَسَّر شيئًا فِي قِصَّة فِي الْقُرْآن فهَذَا نأخذه، أَمَّا إذا جعَلُوه تفسيرًا لشيءٍ معيَّنٍ منَ الْقُرْآن كما فِي هَذِهِ الآيَةِ فالْإِنْسَان يَتَوَقَّف.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينه عِوَض عن المضافِ إليه؛ أي: وكلهم بعدَ إحيائهم يومَ القيامةِ ﴿أَتَوْهُ﴾]، أي: أتوا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿دَاخِرِينَ﴾.

و(كلٌّ) تنوينُه عِوَض عنِ المضافِ إليه، والتَّقْدير: (وكُلُّهم) إذن التنوين عِوَض عنِ اسمٍ؛ عن كَلِمَةٍ، وتنوينُ العِوَض يَقُولُونَ: إِنَّهُ ثلاثةُ أقسامٍ: عِوَض عن جملةٍ، وعِوَض عن كلمةٍ، وعِوَض عن حَرْفٍ، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٤]، نَقُول هنا: التنوين عِوَض عن جملةٍ؛ يَعْنِي: حينَ إذْ بَلَغَتْ، وأيضًا قوله تَعَالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٢-٤]، (ويومئذٍ) عِوَض عن جملةٍ، وهي: ويوم إذ يُغْلَب الرومُ.

والعِوَض عن اسمٍ مثل هَذِهِ الآيَة، فتنوين (كل) و(بعض) عِوَض عن اسمٍ،

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث رقم (٣٦٤٤)؛ وأحمد (٤/ ١٣٦) (١٧٢٦٤)، عن أبي نملة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مثل قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: (وكلهم)، وكما فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]؛ أي: وإنَّ كلهم، وقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١]؛ أي: وإنَّ كلهم.

والعِوَض عن الحرفِ هُوَ الَّذِي يَلْحَق مثل: جَوَارٍ وغَوَاشٍ، فأصلها: جواري وغواشي، فحُذِفَتِ الياءُ وعوِّض عنها التنوين.

وفي الحقيقة مسألة التعويض عن الحرفِ لَيْسَ لها قيمةٌ، لكِن الَّذِي يمكن أن يَتَرَتَّب عليه المَعْنى أو فَهْم المَعْنى هُوَ العوض عن جملةٍ أو اسمٍ.

قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾؛ أي: أَتَوُا الله جَلَّ وَعَلَا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيغةِ الفِعْل واسمِ الفاعلِ]، اسمُ الفاعلِ عَلَى وزنِ فاعلٍ (آتٍ)، وإذا لَحِقَتْه الواوُ تقول: «وَكُلٌّ آتُوهُ»، والفِعْل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾[1].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿دَاخِرِينَ﴾ صَاغِرِينَ]، إعرابها حالٌ، وهي حالٌ مِن مَفْعُول (أَتَوْهُ)، يعني من الهاءِ، فإذا كَانَ فعلًا فواضحٌ أَنَّهَا حال، لكِن (كل آتُوهُ دَاخِرِينَ) كيف تكون حالًا؟ وأين العاملُ فيها؟ اسمُ الفاعلِ؛ لِأَنَّ اسمَ الفاعلِ يعملُ عملَ فعلِهِ.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [صَاغِرِينَ]، الله أكبرُ! فِي ذلكَ الوقتِ حَتَّى الرُّؤَسَاء وحتَّى الملوكُ وحتَّى الأُمَرَاء وحتى الأسياد كلُّهم واحدٌ، كلُّهم يَأْتُونَ فِي حالِ الصَّغار، فَأَعْظَمُ مَلِكٍ فِي الدُّنيا وأعظمُ رئيسٍ فِي الدُّنْيا الَّذِي يَمشي وبين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شِمالِه خَلائِق البَشَرِ؛ يأتي يومَ القيامةِ صاغرًا، ولكِن هَذَا

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

الصَّغار بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالقِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، ثُمَّ قد يَكُون بالنِّسْبَةِ للشخصِ أيضًا، وقد يَكُون بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالِقِ فقطْ، فهم جميعًا بالنِّسْبَةِ لعظمةِ اللهِ صَاغِرُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ النفخِ فِي الصُّورِ، ولم يُعَيِّنِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النافخَ ولكِن جاءتْ به السُّنَّة أَنَّهُ إسرافيلُ أحدُ حَمَلَةِ العَرْشِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا النفخ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ الفَزَع، ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فلو أنَّ قنابلَ قُدِّرَت فِي مكان مَهْما بلغتْ قُوَّتُها تُفْزِع مَن حولها ولَكِنَّهَا لا تُفْزِع أهل الْأَرْض كلّهم، ولا أهل الْأَرْض وأهل السَّماوَات، وهَذَا النفخُ يُفْزِعُ أهلَ السَّماوَات وأهلَ الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيدلُّ ذلك عَلَى عَظَمَةِ هَذِهِ النفخةِ؛ ولذلك قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣]، أكَّدها بواحدةٍ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّهَا عظيمةٌ لا تَحتاج إِلَى إعادةٍ وتكرارٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا يَفْزَعُ جميعُ مَن فِي الْأَرْض ومن فِي السَّماوَات، بل يبقى مَن لا يَفْزَع بمشيئةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهَذَا الْمُبْهَم فِي الآيَةِ الصَّحيحُ أنه ليسَ معلومًا لنا، ولذلك أشكلَ عَلَى رسولِ الله ﷺ هل كَانَ موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّنِ استثنى اللهُ، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ معلومًا للناسِ مَن هم الْمُسْتَثْنَوْنَ، وهَذَا يَرْجِع إِلَى كمالِ رُبُوبِيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمالُ الرُّبُوبِيَّة والسلطانِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك أن العظيمَ إذا أَبْهَمَ ما يَتَصَرَّفُ به دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا مُعارِضَ له، وأنَّ

سُلطانه تامٌّ، يَعْنِي كأنَّه لا أحدَ يَسْأَله مَن هَذَا الَّذِي لا يَفْزَع ومن هَذَا الَّذِي يَفْزَع، وذلك دليل عَلَى كمالِ السلطانِ والعظمةِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وذلك لكمالِ سُلطانِهِ وحِكْمَته.

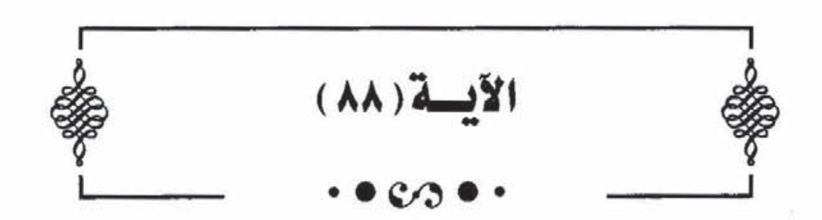
فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: النَّبِيّ ﷺ رأى موسَى مُتَعَلِّقًا بالعَرْش، فهل هَذِهِ النفخةُ متعلقةٌ بأهلِ الْأَرْض فقطْ؟

فالجواب: النفخةُ مُتَعَلِّقة بمَن فِي السَّماوَات وبمن فِي الْأَرْض، والمتعلِّق بالعَرْش هُوَ فِي السَّماوَات، وهَذِهِ النفخة نَفْخَة الفَزَع هِيَ المقدَّمة لنفخةِ الصَّعْقِ، يَفْزَعون ثُمَّ يَصْعَقون، والرَّسُول ﷺ يقُول: لا أدري أَجُوزِيَ بنفخةِ الصُّور أم أَنَّهُ مِمَّن استثنى اللهُ، وموسى ﷺ مات فِي الْأَرْضِ ودُفِنَ فِي الْأَرْضِ، ولا نَدْرِي هل أَنَّهُ يُرْفع أو يَتَعَلَّق بقوائم العَرْش، وإنْ لم يَكُنْ مباشـرًا له، وقد يُدَلَّى إليه شَيْء، لا نَدْرِي، فالمهمُّ أن هَذِهِ أمورٌ غَيْبِيَّة لا نُحِيط بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن كُلّ أحدٍ يأتي يومَ القيامةِ صَاغـرًا ذليلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا فرقَ بينَ الملكِ والمملوكِ، والرئيسِ والمرءوسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ كلٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا التنوين عِوَض عن كلمةٍ، والتَّقْدير: (وكُلّهم)؛ أي: من فِي السَّماوَات ومن فِي الْأَرْض أتوُا اللهَ تَعَالَى داخرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعْـثِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أو (وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ).

• • ❁ • •



الآيــة (٨٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

قوله: (تَرَى) أيُّها الْإِنْسَان، فالخطابُ لَيْسَ خَاصًّا بالنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرؤية له ولِغَيْرِهِ. والجبالُ: مَعروفةٌ، والرؤيةُ هنا بَصَرِيَّة، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُبْصِرها وقتَ النفخةِ].

وقول الْمُفَسِّر: [وقت النفخة] فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ وقتَ النفخةِ لم يكن النَّاس قد قاموا من قُبُورهم، ولَكِنَّهم يَرَوْنَها يومَ القيامةِ بعدَ أن يأتيَ النَّاس إِلَى اللهِ تَعَالَى داخِرينَ.

قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَحْسَبُهَا﴾ تَظُنُّها]، والجملةُ فِي قولِهِ: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ فِي مَوْضِع نصبٍ عَلَى الحالِ؛ لأنَّنا قُلْنَا: إنَّ الرؤيةَ هنا بَصَرِيَّة، والرؤيةُ البصريَّةُ لا تَنْصِب إِلَّا مَفْعُولا واحدًا، ومعنى تَحْسَبُها؛ أي: تَظُنُّها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿جَامِدَةً﴾ واقفةً مكانها لِعِظَمِها]، وقوله: ﴿جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ﴾ استعملَ الجمودَ للوقوفِ بجامعِ الثبوتِ فِي كُلّ منهما؛ لِأَنَّ الجامدَ ثابتٌ، والواقف كذلك ثابت، ولكِن قول الْمُفَسِّر: [واقفة مكانها] فِيهِ نظرٌ، إِنَّمَا ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: واقفة وإنْ كانتْ هِيَ تدورُ، ولهذَا قَالَ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فتبيَّن بهذَا

أَنَّهَا ليستْ واقفةً فِي مكانها، ولَكِنَّهَا تُحْسَبُ واقفةً وهي فِي الحقيقةِ سائرةٌ، ولهَذَا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ المطر إِذَا ضَرَبَتْه الريحُ؛ أي: تسير سَيْرَهُ حَتَّى تقعَ عَلَى الْأَرْضِ فتَسْتَوِي بها مبثوثة ثُمَّ تَصِير كالعِهْنِ ثُمَّ تصير هَبَاءً منثورًا].

قوله: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يَقُول: [الْمَطَر]، وفيه نظرٌ أيضًا، والصَّوابُ أن الْمُرادَ بالسحابِ هَذَا السحابُ المعروفُ، والمَعْنى أَنَّهَا تسيرُ كما يسيرُ السحابُ فِي السُّرعةِ، وهو أبلغُ مِنَ المطرِ الَّذِي فَسَّرَهُ به الْمُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: إنه مثل المطر إذا ضربتْه الريحُ، فالمطرُ إذا ضَرَبَتْهُ الريحُ تَجِده يزولُ عن مكانِهِ، ولكِنَّه فِي الحقيقةِ لَيْسَ كما يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ من الآيَةِ، بل إن الآيَة عَلَى ظاهـرها، والْمُراد بالسحابِ هُوَ السحابُ المعروفُ، فَإِنَّهُ يَمُرُّ بسرعةٍ، ثُمَّ إنَّ مشابهةَ الجبالِ للسحابِ أقربُ من مشابهةِ الجبالِ للمطرِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور:٤٣]، فالصَّوابُ إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا بدونِ تأويلٍ.

وقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ السحابُ معروفٌ أَنَّهُ يمرُّ بسرعةٍ، فهي إذن تُقْتَلَع من مكانها وتكون مثلَ السحابِ هَبَاءً يَطير.

والحاصلُ: أنَّ الْإِنْسَانَ لا يَشْعُرُ بمرورها لَكِنَّها تمرّ.

ثم يَقُول الْمُفَسِّر: إِنَّهُ بعدَ ذلك تَقَع عَلَى الْأَرْض فتَستوي بها مبثوثةً، وما قَالَهُ الْمُفَسِّر مُحتمَل، أَنَّهَا بَعْد صعودها ومرورها مرّ السحابِ تقعُ عَلَى الْأَرْض ثُمَّ تَستوي بها الْأَرْض، ويَحتمِل أَنَّهَا تَبقى طائرةً ثُمَّ تكون هباءً منثورًا، بمعنى أَنَّهَا أولًا تَضْعُفُ حَتَّى تكونَ كالعِهنِ المنفوشِ ثُمَّ بَعْد ذلك تَطيرُ مِنَ الْأَرْض حَتَّى تمرّ مرّ السحابِ مُشَاهَدَةً، لها جِسْم متماثِل، ثُمَّ بَعْد ذلك تكون هباءً منثورًا تتبدد وتتفرَّق، فتكون لها أحوال وتتطوّر، وذلك من عِظَم الأهوالِ يومئـذٍ، فتبقى الْأَرْض بعدما كانـت

مرتفعةً ونازلةً تبقى قاعًا صَفْصَفًا؛ كمـا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله أُضيف إِلَى فاعلِهِ بَعْد حذفِ عاملِهِ؛ أي: صنع الله ذلك صنعًا].

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ المُفَسِّر يَقُول: [مَصْدَر مُؤَكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله]، الجملةُ هِيَ قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وهَذَا الفِعْل من اللهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَها تكونُ عَلَى هَذَا الحالِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾، فأكَّد هَذِهِ الجملة بهَذَا المصدر.

إِذَنْ: إذا كَانَ المصدرُ مُؤَكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ عند النحْويين يجبُ حذفُ عامِلِهِ.

يَقُول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَحَــذْفُ عَامِــلِ المُؤَكِّــدِ امْتَنَـعْ ....

يعني أن المصدرَ إذا كَانَ مؤكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ يجبُ حذفُ عاملِه؛ وذلك لِأَنَّ الجملةَ الَّتِي قبلَه ما دامَ هُوَ مؤكِّدًا لها صارتْ كأنها فِعله، فلا يُجمَع بينَ البدلِ والمبدَلِ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أُضيف إِلَى فاعِله] يعني المَصْدر (صنع) أُضيـف إِلَى اللهِ، واللهُ هُوَ الفاعلُ، والمصدرُ يُضاف تارَةً إِلَى فاعلِهِ، ويضاف تارَةً إِلَى مَفْعُوله، تقول مثلًا: (عَجِبتُ مِن أكلِكَ الطعامَ)، أَكْل مصدر؛ لِأَنَّ الفِعْل أكلَ يأكُل أَكْلًا، فأكل مصدرٌ مُضافٌ إِلَى الكافِ، والكافُ فاعلٌ وليستْ مَفْعُولا، فأنت آكِل ولستَ مأكولًا.

إِذَنْ: فالكافُ فاعل، فَهُوَ مضافٌ إِلَى فاعلٍ، والطعام مَفْعُول به.

---

(١) ألفية ابن مالك- المفعول المطلق (ص:٢٩).

وإضافته إِلَى المَفْعُول تقول مثلًا: عَجِبتُ من أكلِ الطعامِ مِن زيدٍ، وكذا: عَجِبْتُ من طَحْنِ الدقيقِ من زيدٍ، فالدقيقُ مطحونٌ، والطعامُ مأكولٌ، فَهُوَ مضافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ.

فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ فاللهُ تَعَالَى صانِعٌ، فيَكُون هنا مُضافًا إِلَى فاعله.

وقوله: [بَعْد حذف عامله] وُجوبًا وليس جوازًا، فيجبُ حذفُ العاملِ وجوبًا، وإنما وَجَبَ حذفُه لِأَنَّهُ مؤكد للجملةِ قبله، فتكون هَذِهِ الجملة بمنزلةِ العاملِ؛ أي: بمنزلةِ الفِعْل، ولا يُجْمَع بين البدلِ والمُبدَلِ منه، [أي: صنع الله ذلك صنعًا]، وَفِي إضافةِ الصنعِ إِلَى اللهِ هنا تعظيمٌ لهَذَا الأَمْرِ وَأَنَّهُ من الأُمُورِ العظيمةِ الَّتِي هِيَ من صُنع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ﴾ أحكمَ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ صَنعَهُ]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنعَهُ، ومن جملةِ إتقانِهِ أَنَّهُ حينما كانتِ الْأَرْض محتاجةً إِلَى هَذِهِ الجبالِ صارتِ الجبالُ راسيةً ورواسيَ تَرْسُو بها الْأَرْض، وهي أيضًا فِي نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزولُ الحاجةُ إليها، بل تَقتضي الضَّرورَةُ زَوَالها، فتُزال هَذِهِ الجبالُ العظيمةُ، وبهَذَا نعلمُ أن اللهَ تَعَالَى صنعَ الجبالَ حينَ احتاجَ النَّاسُ إليها باقيةً، ولَمَّا زالتِ الضَّرورَةُ إليها أزالها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبهَذَا نعرف الحِكْمَةَ فِي قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، فصار وجودُ الجبالِ إتقانا وزوالها يومَ القيامةِ إتقانًا أيضًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [صَنعَه]، وينبغي ألا يقيّد بقولنا: صنعه؛ لِأَنَّ اللهَ أتقنَ كُلّ شَيْء صنعه وشَرَعَهُ، وَالَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أنْ يقيِّد ذلك بِقَوْلِهِ: صنعه؛ لِأَنَّ السياقَ فِي مَقام الصنعِ، فلهَذَا قَالَ: الَّذِي أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ، ولَكِنَّنَا نَقُول: إن الله تَعَالَى لم يَقُلِ: الَّذِي أتقنَ صُنْعَهُ، ولو كَانَ الله تَعَالَى -واللهُ أَعْلَمُ-

يريدُ أنْ يقيِّدَ الإتقانَ بما صَنَعَ لكانَ كما قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ قال: الَّذِي أتقنَ صُنْعَ، ولكِنه تَعالَى يبيِّن أَنَّهُ أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ أو شَـرَعَه، فما صنعه الله من المخلوقاتِ فَهُوَ متقَنٌ، وما شرعهُ اللهُ تَعالَى منَ الأحكامِ فَهُوَ أيضًا مُتْقَنٌ، لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ، قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سورة تَبارَكَ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤]، وقال تَعالَى فِي الآيَات الشَّرْعِيَّة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء:٨٢]، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ تَبارَك وَفِي آيَة النِّسَاءِ أَنَّهُ مُتقِن لكلِّ ما صنع ومتقِن لكلِّ ما شَرَعَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ[1]]، بما يَفعلون وبما تَفعلون، أَمَّا عَلَى قراءةِ الياءِ فيقول المُفَسِّر: بما يَفعلون، [أي: أعداؤه منَ المعصيةِ وأولياؤه مِنَ الطاعةِ]، ولكِن عَلَى قراءة التاءِ: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فالخطابُ لجميعِ النَّاسِ.

(والخبير) بمعنى ذي الخِبرة، والخبرةُ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، وَعَلَى هَذَا فهي أخصُّ مِنَ العلمِ المطلَقِ، وإذا كَانَ عالمًا بالبواطِنِ فَهُوَ عالمٌ بالظواهرِ أيضًا، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَليمٌ بالظواهرِ وبالبواطنِ.

وما مناسبة قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لَمَّا تحدَّث اللهُ عنه من صُنعه؟ يعني كَانَ مُقتضَى السياقِ ألَّا تُختَم الآيَة بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بل تُختَم بِقَوْلِهِ: (إنه عليم حكيم) أو (إنه عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ) ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهَذَا يَقتضي أن تختم الآيَةُ بما يَدُلّ عَلَى القُدرة والحِكْمَةِ، ولكِنَّها

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

خُتِمَتْ بِما يَدُلّ عَلَى العلمِ والخبرةِ؛ العلمُ بما يفعلُ العبادُ، فما هُوَ الجوابُ عن هَذَا؛ أي: عن العُدُول عن الأول إِلَى الثاني؟

الجواب: -واللهُ أَعْلَمُ- أن الحِكْمَةَ من ذلك هي أن قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جملة مُعْتَرِضة بالنِّسْبَةِ للمعنى، لا بالنِّسْبَة للإعرابِ، وأنَّ المقام يَقتضي الإخبارَ بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم بما يفعلونَ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ هُوَ يومُ الجزاءِ، والجزاء مرتَّب عَلَى العِلم، فلهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]، فيَكُون هنا ذِكْرُ العلمِ بما يَفْعَل النَّاسُ فِي سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إِلَى أنَّ هَذَا اليومَ هُوَ يومُ الجزاءِ الَّذِي يَجِب عَلَى المرءِ أن يعملَ له ويَحتاط له.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم فِي قوله تَعَالَى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أَنَّهَا جملةٌ مُعْتَرِضة، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا أنَّ الْقُرْآن معانيه كلها متناسِقة؟

المُرادُ بِقَوْلِنا: جملةٌ مُعْتَرِضة؛ أي: من حَيْثُ المَعْنى، بمعنى أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا ذكرَ حالَ الجبالِ يومَ القيامةِ بعدَ النفخِ فِي الصُّور ثُمَّ ذكر أن هَذَا من صنعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن ذلك غاية الإتقانِ حَيْثُ كانت ثابتةً، ثُمَّ لمّا زالتِ الحاجةُ إليها أُزيلت؛ خَتَمَ الآيَة بما يَكُون تحذيرًا للناسِ مَن أن يعملوا ما يخالفُ أمرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومعلومٌ أن التناسُقَ فِي الْقُرْآن منه ما هُوَ ظاهرٌ ومنه ما لا يَظْهَر إِلَّا بالتأمُّل، مثلًا قوله تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، مُقتضى السياقِ: فإنك أنـتَ الغفورُ الرحيمُ، ومع ذلك ما كانت بل قَالَ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وعدّة آياتٍ من هَذَا النوعِ، يَتَوَقَّع الْإِنْسَان أن تُختم الآيَة بكذا ثُمَّ تختم بكذا،

فتكون فِي ظاهرِ الأَمْـرِ مخالفةً لِمُقْتَضَى السياقِ، ولكِنَّه عند التأمُّل يَتبَيَّن للمرءِ أن الحِكْمَةَ هي أن تكونَ عَلَى هَذَا الوجهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِظَم هَذِهِ الأهوالِ وارتفاعها، فالشَّيْءُ إذا كَانَ مرتفعًا ولو كَانَ يجري بسرعة فَإِنَّهُ يُظَنُّ أَنَّهُ واقف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا الأَمْرَ الَّذِي حصل لهَذِهِ الجبال هُوَ من صنعِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فالذي جَعَلَها جامدةً فِي الدُّنْيا راسيةً عظيمةً ثقيلةً جعلها فِي الآخِرَة ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وذلك صُنْعٌ من صنعِ اللهِ الَّذِي لا يستطيعُ البشرُ أن يفعلوهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جـواز إضافة الصُّنع إِلَى اللهِ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾. ولكِن لا يُؤْخَذ منه إثبات اسمِ الصانعِ لله، ولكِن يُخْبَـر به عن اللهِ، فيقال: إن الله تَعَالَى صانعُ كُلِّ شيءٍ عَلَى سبيلِ الخبريَّة، وَأَمَّا إثباتُ اسمِ الصانعِ فلا.

عَلَى أَنَّهُ يوجد فِي كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابن تَيْمِيَّةَ وكلامِ ابن القيِّم رَحِمَهُمَااللَّهُ دائمًا كلمة (الصانع)، والظَّاهر أَنَّهُما أرادا بهَذَا مخاطبةَ أهلِ الكَلامِ بمثلِ ما يتكلمون به، كأن يُقال مثلًا: إثبات الصانع يَدُلّ عليه كذا وكذا، مَعَ أننا نَرَى أن الأَولى والأفضل أن لا يُثْبَت حَتَّى بهَذَا اللفظ، بل يقال: إثبات الخالق دلّ عليه كذا وكذا، والخالق جاء فِي الْقُرْآن، وَهُوَ أبلغُ منَ الصانعِ.

إنما عَلَى كُلّ حالٍ الإخبار عن الله بأنه صانعٌ مضافًا إِلَى التعميمِ مثل: صانع كُلّ شَيْء؛ هَذَا جائز لا بأس به، والنَّاس يَقُولُونَ فِي عباراتهم العامِّيَّة: صانع كُلّ

مصنوع، فهَذَا كونه خبرًا صحيحٌ، أَمَّا أن تجعلَه اسمًا من أسماءِ اللهِ فلا؛ لِأَنَّهُ يفرق بين الاسم وبين الخبرِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخبر والاسمِ؟

الخبرُ ضِدّ الاسمِ، يعني الشَّيْء إمَّا أن يُخبَر به عن اللهِ أو يُسمَّى به الله، فالخبر عن الله يجوزُ أنك تُخْبِرُ عن الله تَعَالَى بكل ما ثبت له من فعل، مقيدًا إن كَانَ مقيدًا، ومُطْلَقًا إن كَانَ مطلقًا، وَأَمَّا الاسمُ فلا تُسَمِّ اللهَ إِلَّا بما سَمَّى به نفسَه، ولهَذَا يَصِحُّ أن نَقُولَ عن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إنَّهُ مُدبِّر الأُمُور، مُسَخِّر السَّماوَات والْأَرْض، مذلِّل الإبل لِراكبيها، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكِن كونك تُسَمِّيه بهَذَا الاسم لا يَصِحّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصِّفة أليست مثل الخبر؟

فالإجابة: نعم الصِّفة الَّتِي يَصِحّ إضافتها إِلَى اللهِ تُخْبِـرُ بها عنِ اللهِ لا مانـعَ؛ ضرورةَ أنَّ المشتَقّ دالٌّ عَلَى صِفَتِه، فكُلّ مُشْتَقّ دالٌّ عَلَى صفتِه، ولا يمكِن أن تقولَ عن شيءٍ: إنَّهُ مُشْتَقّ ثُمَّ تنفي الصِّفةَ الَّتِي اشتُقّ منها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذَا الأَمْر الَّذِي يقع للجبالِ يوم القيامة أمرٌ عظيمٌ، وجهُ عظمته: إضافته إِلَى الله، حَيْثُ قَالَ: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ وما أُضيف إِلَى العظيمِ فَهُوَ عظيمٌ، كما أن ما أُضيف إِلَى الحقيرِ فَهُوَ حقيرٌ.

الْفَائِدَتانِ الخَامِسَةُ والسادسةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتْقِن لكلِّ شيءٍ من الأفعالِ والأحكامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ مما صنعَ وشَرَعَ، وَأَمَّا تقييدُ المُفَسِّر له بِقَوْلِهِ: [صَنَعَهُ] ففيه نظرٌ، ولا يُقالُ: إن السياق فِي الكَلامِ عَلَى الصنعِ؛ لأَنَّنا نَقُول: الكَلام عَلَى الصنع لَكِنَّهُ جاء بَعْد ذلك تعميمٌ، لم يقل: أتقن كُلّ ما صنعَ، قَالَ: ﴿كُلَّ شَىۡءٍ﴾.

إِذَنْ: فاللهُ تَعَالَى مُتْقِن لكلِّ ما صنعَ ولكلِّ ما شرعَ.

ويُستنتَج من هَذِهِ الفائدةِ: إثباتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لا إتقانَ إِلَّا بحِكمةٍ، فلا يمكن أنْ يُتقَنَ الشَّيْءِ إِلَّا بعلمٍ منَ المُتْقِن كيف يُتْقِنه، والثاني: بحكمةٍ؛ بحيث يُنْزِل كُلّ شيءٍ منزلتَه، وإلا لفاتَ الإتقانُ، فلا يُتْقِنُ الشَّيْءَ مَن لا يَعْلَمُ كيف يتقنه، فهَذَا لَيْسَ بِمُمْكِنٍ.

ولا يُتْقِنُه وَهُوَ يعلمُ كيف يُتْقِنُه ولكِنه سَفِيهٌ لا يُحْسِن أنْ يَتصَرَّف. أيضًا لا يحصُل الإتقانُ، فلا إتقانَ إلا بعلمٍ وحكمةٍ، فمِن إتقانِ اللهِ نَستنتجُ هَذِهِ الفائدةَ: وهي إثباتُ الحِكْمَةِ والعلمِ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ضرورةَ أنه لا إتقانَ إِلَّا بعلمٍ وحكمةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قطعُ اعتراضِ كُلّ مُعترِضٍ عَلَى ما يَحْدُث فِي الكونِ من تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أَتْقَنَه، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أعلمُ وأحكمُ من عبادِهِ، فأنت متى عَلِمْتَ هَذَا الشَّيْء انقطعَ عنك كُلّ اعتراضٍ، سواءٌ سمِعْتَه من غيرِكَ أو أَوْرَدْتَهُ عَلَى نفسِك.

والإِنْسَان يَعْرِضُ له أحيانًا شُبُهات يُلْقِيها الشيطانُ فِي قلبه؛ كيف كَانَ كذا؟ لم كَانَ كذا؟ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فنَقُول: متى آمنتَ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أتقنَ كُلّ شيءٍ انقطعَ عنك هَذا الاعتراضُ، وأمكنَكَ أن تقطعَ به اعتراضَ غيرِكَ أيضًا. فلو فَرَضْنا أن المطرَ جاءَ فِي غيرِ وَقته وأفسدَ الثِّمار؛ إذا علِمنا أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ وأن هَذَا المطرَ من فِعْلِه ومن صُنْعه، لا يُمْكِنُنا أنْ نَعْتَرِضَ؛ لأنَّنا نعلمُ أَنَّهُ نتيجةُ إتقانٍ مَبْنِيّ عَلَى علمٍ وحكمةٍ، تَتَقَاصَر علومنا وحِكْمَاتُنَا عن إدراكِه. وهَذَا أمرٌ يُفِيدُ الْإِنْسَانَ فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ؛ فِي

الشرعِ أحيانًا تأتي أحكامٌ يَخفى عَلَى المرءِ وَجْهُ التفريق بينها وهي ثابتةٌ عنِ الشرعِ، ولكِنك تقول: الله تَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ.

ومِن ثَمَّ أحـدثَ العُلَمـاءُ أو الفقهاءُ مسائلَ سَمَّوْهَا بالتَّعَبُّـدِيَّاتِ، وهم ما أحدثوها فِي الحقيقةِ، بل هِيَ مسائلُ ثابتةٌ لكِنّهم وَضَعُوا لها هَذَا الاسمَ: (التَّعَبُّدِيّ).

وَلَيْسَ معنى التعبديّ الَّذِي لَيْسَ له حكمة؛ لِأَنَّهُ ما من شيءٍ إِلَّا وله حكمةٌ، ولكِن معناه: الَّذِي تخفى حِكمته علينا، وَلَيْسَ لنا فِيهِ إِلَّا التعبُّد؛ كعددِ الرَّكَعَاتِ فِي الصلواتِ؛ وَكَوْن الصلواتِ خَمسًا؛ وكذلك أَشْيَاء كثيرة فِي الطهارةِ يَخْفَى عَلَى المرءِ حِكْمَتُها؛ وكذلك فِي الحجِّ.

فالمهمُّ أننا متى بَنَيْنَا اعتقادنا عَلَى هَذِهِ المسألةِ، وهي أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ، زالتْ عنّا شُبُهات كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال علم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك بالخبرةِ الَّتِي هِيَ أخصُّ من مُطْلَق العلم؛ لِأَنَّ الخبرةَ كما سبقَ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، مأخوذةٌ من الخَبِير؛ وَهُوَ المُزارِع الَّذِي يَدْفِنُ الحبَّ فِي الْأَرْض فيَخْفَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحذيرُ المرءِ أن يعملَ ما يخالفُ حُكْمَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

فلو أنَّ أباكَ قَالَ لكَ: اذهبْ وافعَلْ ما تريدُ، أنا أعلمُ بمـا تفعلُ، فما الَّذِي يَقتضي هَذَا؟

يقتضي هَذَا التحذيرَ، وأن تحذر من مخالفةِ أبيك، فكيفَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي هُوَ خبير بكل ما نفعلُ.

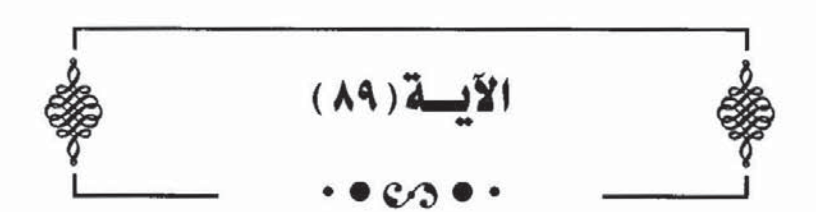
إِذَنْ: فالجملةُ تفيد تحذيرَ المرءِ مِن المخالفةِ، وأنك عندما تُسَوِّل لك نفسُك معصيةً للهِ عَزَّوَجَلَّ فإنك تَعْرِضُ عليها مثل هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد:٤]، وأشباه ذلك من الأَشْيَاءِ الَّتِي يجبُ عَلَى المرءِ إذا همّ بسيئةٍ أن يَستعرضَ هَذِهِ الآيَاتِ حَتَّى تمْنَعَهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ما يَتعَلَّق بالهمِّ المجرَّد فَإِنَّهُ لا يُؤَاخذ به العبدُ؛ لِأَنَّ المقصودَ من قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ التحذيرُ من هَذَا الفِعْل المخالِف، فإذا قُدِّرَ أَنَّهُ همٌّ مجرَّد، فَإِنَّهُ لَيْسَ بفعلٍ، فلا يؤاخَذ عليه العبدُ، وهَذِهِ الفائدةُ بعيدةٌ فِي التصوُّر ولَكِنَّهَا دلَّت عليها السنَّة[1]، وأنَّ مجرَّد الهمِّ لا يؤاخذ به العبدُ حَتَّى يفعلَ، إِلَّا الهمّ بالحسنة فَإِنَّهُ يُكتَب للمرءِ، ولكِنَّه لا يدخل فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّ الآيَة سِيقت للتحذيرِ، والهمُّ بالحسنةِ يُرَغَّب فيه ولا يُحَذَّر منه، فالهمُّ بالسيئةِ لا يعاقَب عليه العبدُ، والهمّ بالحسنةِ يُثاب عليه العبدُ، ومُقتضَى العدل أن يُعاقَب عَلَى السيئةِ وأن يُثابَ عَلَى الحسنةِ، أو أن لا يعاقب عَلَى السيئة ولا يثاب عَلَى الحسنة، ولكِن رحمة الله تَعَالَى اقتضتِ الفضلَ دونَ العدلِ، فصارَ الهمُّ بالسيئةِ لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، والهمّ بالحسنة فِيهِ ثواب.

•• ۞ ••

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦١٢٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، حديث رقم (١٣٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٨٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

••◦••

﴿مَن جَآءَ﴾: (مَن) شرطيَّة، و(جاء) فعلُ الشرطِ، وجملة: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ جوابُ الشرطِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ لم يَقُلْ: مَن فعلَ الحسنةَ، بل قَالَ: مَن جاء بها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يفعلُ الحسنةَ فِي الدُّنْيا ولكِنه لا يأتي بها؛ لوجودِ ما يُسْقِطُها فتزول، ولكِن الشأن كُلّ الشأن فِي أن يأتيَ بها يومَ القيامةِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الظَّاهرُ أن المُرادَ بها الجِنس، وَلَيْسَ المُراد بها العهد، ولكِن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا عَلَى أن المُرادَ بها العهدُ، فقال: [أي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ]، فجعلَ الحسنةَ حسنةً معيَّنة معهودةً وهي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ولكِن الصَّواب بلَا شَكٍّ خلافُ كلامِ المُفَسِّر، وأن المُرادَ بالحسنةِ الجنسُ، فأيّ حسنة يأتي بها الْإِنْسَان فله خيرٌ منها، ولهَذَا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا»، بحسنةٍ: نكِرة تَشْمَل جميع الحسنات.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يومَ القيامةِ]، متعلِّق بـ ﴿جَآءَ﴾ يَعْنِي: من جاءَ يومَ القيامةِ بالحسنةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثوابٌ ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بسببها، وَلَيْسَ

للتفضيل؛ إذ لا فعل خير منها]، هَذَا غريبٌ، اقرأ الآيَة: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يَقُول المُفَسِّر: المُرادُ بالخيرِ هنا الثوابُ، يعني ما يُقابِل الشرَّ، و﴿مِّنۡهَا﴾ ليست (مِن) المتعلِّقة باسمِ التفضيلِ ولَكِنَّهَا للسببيَّة؛ أي: فله ثوابٌ بِسَبَبِها، وهَذَا تحريفٌ ظاهرٌ للقُرْآن، بل ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يَعْنِي: أفضل منها، وذلك بالمضاعفةِ، فأنتَ إذا أعطيتَني ريالًا وقلتُ: سأعطيك خيرًا منه وأعطيتك ريالينِ صار خيرًا منه.

إِذَنْ: قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ أي: أفضل منها، فَهُوَ يأتي بواحدةٍ ويُعطى عَشْرًا إِلَى سبعمائة ضِعف إِلَى أضعافٍ كثيرة.

وأما تعليل المُفَسِّر لمنعِ أن يَكُون المُرادُ بالآيَةِ التَّفضيل بِقَوْلِهِ: [إذ لا فعل خير منها] فنَقُول: نعم، الحسنة حَسَنَة بلَا شَكّ، وهي خيرٌ، لكِن لَيْسَ المُراد هنا: فله فعلٌ خيرٌ مِنها، بل المُراد الثوابُ والجزاءُ، والجزاء لَيْسَ بفعلٍ للعبدِ ولكِنه منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يجزي به العبدَ، فتعليل المُفَسِّر إذن عَلِيلٌ، بل ميِّت لَيْسَ فِيهِ رُوح إطلاقًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المقام هنا مَقام مُقابلةِ حسنةٍ بحسنةٍ منَ العدلِ، وإنما المقامُ مقامُ جزاءٍ مِنَ اللهِ، والله تَعَالَى يجزي العبدَ بخيرٍ مِن فِعله وأفضلَ، وَفِي آيَة أخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، فهل يَصِحّ أن يَكُون معنى قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ أي: عشر بسببها؟! هَذَا يَرُدّ عليه فِي الحقيقةِ، فالآيَةُ الَّتِي أشرنا إليها تفسِّر هَذِهِ الآيَة الَّتِي ذكر الله.

فقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ إذن عشر أمثالها، وَفِي الحديث: «**إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**».

والغريبُ أنّ التفسيرَ الَّذِي نَحَا إليه المُفَسِّر لا يكادُ أحد يَفهمه أبدًا، فكُلّ مَن قرأ الْقُرْآن ولو كَانَ عامِّيًّا يفهم من قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ جزاءً أفضلَ منه وأكثرَ،

ولا يفهم أنَّ المَعْنى فله ثوابٌ بِسببِ هَذِهِ الحسناتِ، أبدًا لا يَفْهَم هَذَا، وإنما يفهم أنَّ الثوابَ أكثرُ وأعظمُ وأفضلُ منَ العَمَلِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ الجاءُونَ بها ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافةِ وكسـرِ الميمِ].

قوله: ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾: (فَزَع) مضافٌ، و(يوم) مضافٌ إليه، و(يوم) مضافٌ و(إذ) مضافٌ إليه، و(إذ) مضافٌ والجملةُ المحذوفةُ مضافةٌ إليها، فيَكُون عندنا ثلاثُ إضافاتٍ.

وقوله: ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ الفزعُ بمعنى الخوفِ، ولكِنه لَيْسَ مجرَّد خوفٍ، بل خوفٌ بقلقٍ وحركةٍ واضطرابٍ، ولهَذَا يقال: فَزِعَ الرجل؛ لَيْسَ مجرَّد أَنَّهُ خافَ، بل تجده قَلِقًا ثُمَّ يحاول مثلما نَقُول فِي اللُّغة العامِّيَّة: (يفز) من الفَزَع، وكلمة فَزَع مفرَد مضافٌ فيَعُمّ كُلّ ما يحصلُ به الفزعُ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ فِيهِ أفزاع؛ عِدَّة أَسْبابٍ للفزعِ، كأخذِ الكتبِ بالشمـالِ أو باليمينِ، وكذلك أيضًا دُنُوّ الشَّمْسِ، وكذلك الميزان، وكذلك الحَوْض المَوْرُود، وكذلك أيضًا يُنَادَى عَلَى الظالمينَ: أهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله[1] ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كُلّ هَذِهِ تُثير المرءَ وتُوجِب الفزعَ، لكِن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأتون بالحسنة آمنون.

قال: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ]، أضافَ الفزعَ إِلَى يوم القيامةِ؛ لِأَنَّهُ فزعٌ لا نظيرَ له فِي الدُّنْيا، وَعَلَى قراءةٍ أخرى يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي أخرى [بالإضافةِ وكسرِ الميمِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وفتحها، وفزع منوَّنًا وفتح الميم[(١)]].

إِذَنْ: فيها قراءتانِ ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ و«مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ» هَاتان القراءتان عَلَى الإضافةِ، والثَّالثة (مِنْ فَزَعٍ) مُنَوَّنًا وفتحِ الميم «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» وهَذِهِ فيها إشكالٌ؛ حَيْثُ إن (يوم) بالفتح مَعَ أَنَّهَا مضافةٌ، فيقتضي عَلَى هَذَا أن تكون مجرورةً، ونُخَرِّج هَذَا عَلَى واحدٍ منْ أمرينِ: إمَّا أن نَجْعَلَهَا مبنيَّةً عَلَى الفتحِ، يَعْنِي: (فَزَع) مضاف ويوم مضاف إليه مبنيّ عَلَى الفتح فِي مَحَلّ جرّ. أو نَقُول: إنَّ (فزع) فِي الأَصْل منونة حذف التنوين تخفيفًا، وَعَلَى هَذَا فتكون (يوم) مَفْعُولا يعني ظرف زمان كما هِيَ، عَلَى قراءةِ التنوينِ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ).

وبالنِّسْبَـة للمعنى أيّهمـا أبلغ: (من فزعِ يومئذٍ آمنون) أو (من فزعٍ يومئذٍ آمنون)؟

الأخير يَدُلّ عَلَى العموم، (فزعِ يومئذٍ) فكُلّ فزع فِي ذلك اليوم هم آمنون منه، وَعَلَى قراءة (فزعٍ يومئذٍ) يعني هم آمنون من فزعٍ فِي ذلك اليوم، فَهُوَ يقتضي أن يَكُون فزعًا واحدًا، إِلَّا إذا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى تقدير (من كُلّ فزعٍ)؛ أي: من كُلّ فزع آمنونَ، فتوافـق القراءة الأُولى الَّتِي هِيَ للإضافةِ، ولكِن القراءة بالإضافةِ أحسـنُ؛ لِأَنَّهَا لا تحتاج إِلَى تأويلٍ.

وقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ آمنـونَ منَ الفزعِ، هل المَعْـنى أَنَّهُم لا يَفزَعـون أو أَنَّهُم يفزعون لكِنَّهم آمنونَ؟

إِذَنْ: هم آمنونَ مِنَ الفزعِ، فيَحتمِل أن يَكُون المَعْنى أَنَّهُم لا يَفزعون إطلاقًا،

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

ويحتمل أَنَّهُم يفزعون ولكِنهم آمنونَ، فيَكُون هَذَا الفزعُ مجرَّد شعورٍ بما يُفزَع منه فقط، وليسوا يخافون منه.

كذلك عَلَى أحدِ التفسيرينِ اللذينِ أَشرنا إليهما فِي قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل:٨٧]، أن هَذَا الفزعَ بَعْد القيامِ؛ لِأَنَّ بعض العُلَماء يرى أن النفخَ يَكُون بالصعقِ والبعثِ، ثُمَّ النفخة الثَّالثة للفزعِ بعدَ البعثِ، ولكِن هَذَا سبقَ أننا قُلْنَا: إِنَّهُ مرجوحٌ، وإن الصَّواب أن الفزعَ هُوَ الَّذِي يَكُون به الصَّعْقُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الحسناتِ يُؤتَى بها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُؤتَى بالحسناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأَعْمال معانٍ وليستْ أجسامًا؟

فيقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ، يُقَلِّبُ هَذِهِ المعانيَ إِلَى أجسامٍ، مثلما قلبَ الموتَ وَهُوَ معنًى إِلَى جسمٍ، وَهُوَ الكبشُ[1]، فالله تَعَالَى عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ. قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأصحابِهِ: «**مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟**». قَالُوا: مَن لا دِرْهَمَ عنده ولا متاع. فقال: «**الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ**»[2].

وأخبرَ ﷺ أن الله تَعَالَى يَقبَلُ الصدقة منَ الكَسْبِ الطيِّب بِعِدْلِ التمرةِ؛ أي:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما يُعادِلها، فيُرَبِّيها كما يُربِّي الْإِنْسَانَ فَلُوَّه حَتَّى تكونَ مثل الجبلِ[1]، وهَذَا أيضًا عمل.

فالمهمّ أننا نَقُول: إن المجيءَ بالأَعْمالِ يومَ القيامةِ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْء قديرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العبرةَ بالمجيءِ بالحسنةِ، لا بعملها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك لِأَنَّ عاملَ الحسنةِ فِي الدُّنْيا قد لا يأتي بها يومَ القيامة، حيثُ يَحْصُلُ ما يُبطِلها، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فقد يعملُ الْإِنْسَان الحسنةَ لكِن يأتي بشيءٍ يُبْطِلها فلا يأتي بها يوم القيامةِ، والمَدارُ عَلَى الإتيانِ بها يومَ القيامةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء أفضلُ من العَمَلِ وأعظمُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الفزعِ فِي يومِ القيامةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَمْنُ مَن جاء بالحسنة من هَذَا الفزع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من جاءَ بالسيئةِ فَإِنَّهُ لا يأمنُ منها، وَهُوَ مأخوذ من مفهومِ قولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ يَعْنِي: أَمَّا مَن جاءَ بالسيئة فَإِنَّهُ لا يأمنُ، ولهَذَا تُكَبّ وُجُوهُهم فِي النَّار.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن يومَ القيامةِ لا يُقاس بأمرِ الدُّنْيا، فهَذِهِ الأفزاعُ العظيمة لا تُفْزِع الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جاءوا بالحسناتِ، وإنْ كانت عظيمةً فِي ذاتها؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الرياء في الصدقة، حديث رقم (١٣٤٤)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

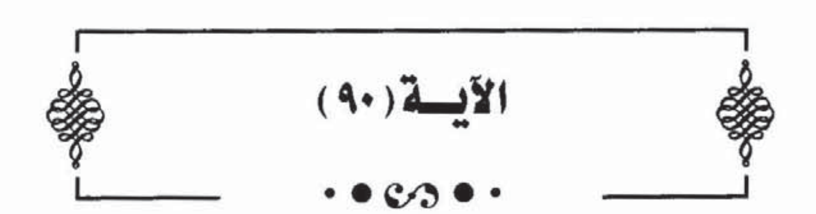
فِي يومِ القيامةِ يخلُق أَشْيَاءَ يَسْتَبْعِدُها العقلُ فِي الدُّنْيا، فالشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخلائقِ قَدْرَ مِيلٍ[1]، ومنَ النَّاسِ من يَكُونُ فِي ظِلٍّ منها، والعرقُ يَصِل عند بعض النَّاس إِلَى كَعبيه وإلى رُكبتيه وإلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُه[2] وهم فِي مكانٍ واحدٍ؛ ممَّا يَتبيَّن به قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن النَّاس فِي هَذَا المكان الواحدِ وَفِي الزمنِ الواحدِ يختلفون هَذَا الاختلافَ المتباينَ.

وفي إضافة الفزعِ إِلَى ذلكَ اليومِ دليلٌ عَلَى شِدَّته ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

• • ۞ • •

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، حديث رقم (٢٨٦٤)، عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تخريج الحديث السابق.



الآية (٩٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

•••

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: الشِّرك]، قوله: [مَن جاء] نَقُولُ فِيهِ كما قُلْنَا فِي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يعملُ السيئةَ ولكِنه لا يأتي بها، وذلك بأنْ يتوبَ مِنْهَا أو تكون له أعمالٌ صالحةٌ تُكَفِّرها أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا مجرَّد المشيئة فالغالب أَنَّهَا تُغفر يوم القيامةِ فيقرّر بذنوبِه ثُمَّ يُقَال له: غفرناها لك.

وقوله: [أي: الشـرك] فِيهِ نظرٌ، وإنمـا حَمَلَه عَلَى ذلك تفسيـرُه الحسنةَ بأنها (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَهُوَ توحيدٌ، فقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركِ، ولكِن الصَّواب أنّ الْمُراد بالسيئةِ هنا الجنسُ، فيشمل كُلّ سيِّئٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ بأن وليتها، وذُكِرَتِ الوجوهُ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الشَّرَف مِنَ الحواسّ، فغيرُها من باب أَوْلَى].

الذي أوجبَ للمؤلِّف أن يحملَ السيِّئ عَلَى الشركِ جوابُ الشرطِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فيقول: إن هَذَا لا يَكُون إِلَّا لِلكَافِرِين، وهَذَا فِيهِ نظرٌ أيضًا؛ لِأَنَّ مَن جاء بالسيئةِ ولو دونَ الشركِ فَإِنَّهُ إن لم يُغْفَرْ له يُكَبّ فِي النَّارِ،

ولكِنَّه يُعاقَب عَلَى حسَب ذُنُوبِه، ثُمَّ بَعْد ذلك يُخْرَج منها، إمَّا بشفاعةٍ وَإمَّا بانتهاءِ جزائِه إذا لم يشفعْ له.

فالحاصل أننا نَقُول: إن قولَه: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يَلزَم منه الخلودُ، بل قد تُكَبّ وُجوههم فِي النَّار ثُمَّ يَنْجُونَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا كانوا عصاةً فإن موضعَ السجودِ لا تأكله النَّارُ، فكيف نَقُولُ: كُبَّتْ وُجُوهُهم فِي النَّار؟

قُلْنَا: إذا كُبّ عَلَى وجهِه أصابتْه النَّارُ إلَّا موضعَ السجودِ، وهَذَا لا يَمنَع أن يُكَبّ عَلَى وجهه وتُحمَى مواضعُ السجودِ مِنَ النَّار.

وقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ جواب الشرط ماضٍ، فَكَانَ مُقتضى الأَمْر أن يَقُول: ومن جاءَ بالسيئةِ كُبَّت؛ لِأَنَّ فعل الشرط إذا كَانَ ماضيًا وجوابه كَانَ ماضيًا أيضًا فلا يحتاج إِلَى الفاء، يَقُولُونَ: إن الفاء هنا تدلّ عَلَى تقدير (قد)، يَعْنِي: (فقد كُبَّت)، وتكون دالَّة عَلَى التحقيقِ لهَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ (قد) للتحقيقِ، ولَكِنَّهَا حُذفتْ لفظًا وأُشيرَ إليها معنًى، فالفاء تشير إِلَى (قد)، وحُذِفَتْ لَفظًا لِأَنَّ (قد) للتحقيق، والمسألة لم تَقَعْ، فَكَانَ فِي تحقيقها بـ(قد) وهي لم تقعْ نوعٌ من التناقضِ، فلذلك حُذفت فِي اللفظِ وأُشير إليها بالمَعْنى بالفاءِ، وكما هُوَ معلومٌ أن جوابَ الشرطِ إذا اقترنَ بـ(قد) فيجب أن يَكُونَ مَقرونًا بالفاءِ.

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ ... وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّنْفِيسِ

سبعةُ مواضعَ إذا كانتْ جوابًا للشرطِ وجبَ اقترانُ الفاءِ بها.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾؛ أي: ما تُجْزَوْنَ، يَعْنِي أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمعنى النفيِ،

والاسْتِفْهامُ بمعنى النفيِ أبلغُ منَ النفيِ المجرَّد؛ لِأَنَّهُ يَدُلّ عَلَى النفيِ وزيادة. فقولنا: ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كنتم تعلمون يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم لا يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانوا يعملون، لكِن قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يَدُلّ عَلَى تقريرِ هَذَا الأَمْرِ، وَأَنَّهُ لا يمكن للإِنْسَانِ أنْ يُجازَى إِلَّا بما كَانَ يعمل، ويَكُون فِيهِ تقريرٌ وتقريعٌ فِي نفسِ الوقتِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ويُقال لهم تَبكيتًا: ﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ منَ الشِّرْك والمَعاصِي]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ جَزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾] فِيهِ صرفٌ للفظِ عن ظاهرِهِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي أن يَكُونَ العَمَلُ هُوَ الجزاءَ نفسَه ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ﴾، ومن المعلوم أن العَمَل لَيْسَ الجزاءَ، بل الجزاء شيءٌ والعَمَل شيءٌ آخرُ. فعندما تستأجرُ إِنْسَانًا يعمل لك، ثُمَّ تعطيه الأجرةَ، فعَمَلُه غيرُ أُجرتِهِ.

والعاملُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَلُه غيرُ جزائِه، فظاهرُ الآيَةِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الإِنْسَان يُجزى بعملِهِ، لذلك احتاج المُفَسِّر أن يقدِّر هَذَا المحذوفَ: إِلَّا جزاء ما كنتم تعملون، لكِن ما فِي الآيَةِ أبلغُ؛ لِأَنَّهُ من بابِ المبالغةِ فِي العدلِ أنْ يجعلَ الجزاء هُوَ العَمَلَ، كأنَّ الجزاءَ نفسَه عَمَلُك مبالغةً فِي العدلِ، فأنت إذا كنتَ تريدُ ثوابًا كثيرًا فاعمَلْ كثيرًا؛ لأن ثوابَك عَمَلُك.

وأما قوله: [﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾]، ففيه أيضًا ركاكة، ما تُجزون إِلَّا جزاءَ العَمَلِ! فمعلوم أن كلمةَ (تُجْزَوْنَ) يُستفاد مِنْهَا الجزاءُ، فلا حاجة إِلَى تقديرٍ.

فالصَّواب إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظاهرها، ويُفهَم أن الَّذِي يُعْطَوْنَه هُوَ الجزاءُ مِن

قولِه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾. والتعبيرُ عن الجزاءِ بالعَمَلِ نفسه مبالغةٌ فِي العدلِ؛ بحيثُ يَكُون جزاؤك عَمَلَكَ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنَ الشِّرك والمَعاصِي]، هَذَا ما ذهبَ إليه جمهورُ أهلِ العلمِ، وَهُوَ الصَّوابُ؛ أن الكافرَ يعاقَب عَلَى أصلِ الكفرِ وَعَلَى المَعاصِي أيضًا الَّتِي عَمِلها، فالمشركُ إذا زَنَا وسَرَقَ وشَرِبَ الخمرَ يُعاقَب عَلَى ذلك، فيعاقَب عَلَى الأَصْلِ والفرعِ، واستدلُّوا لذلك بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٠-٤٦]. فالصدقةُ ليست من الأصول، والصَّوابُ أنَّ الصَّلاةَ مِنَ الأُصُول وأن تاركها يُكَفَّر، لكِن الصَّدَقَة ليستْ مِنَ الأصولِ، حَتَّى الزكاة عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ لا يُكَفَّر تَارِكُها، ومعَ ذلك ذَكَرُوا أَنَّهَا من أَسْبابِ دُخُولِهِمُ النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا فِي الجزاءِ ما صارتْ منَ الأَسْبَاب.

وهَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهُم يعاقَبون عَلَى فروعِ الإِسْلامِ كما يُعاقَبون عَلَى أصولِهِ، وَعَلَى هذا فيعاقبون عَلَى معاصيهم الَّتِي دونَ الشركِ، وهَذَا بلَا شَكّ كمالُ العدلِ؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ المسلمُ يعاقَب عليها فكيف بالكافر؟! هل تكون للمسلمِ نِقْمَة وتكون للكافر نعمة؟! لا، بل أبلغُ من ذلك الكافر يعاقَب حَتَّى عَلَى المباحِ للمؤمنِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]. ففُهِم من قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَنَّهَا لغير المُؤْمِنِينَ ليستْ خالصةً، وأنهم سيُجازون عليها.

وهَذَا أيضًا مُقتضَى النظر؛ إذ كيف يَتَنَعَّمُ الإِنْسَان بنِعَمِ الخالقِ وَهُوَ يَعصي الخالقَ، لَا بُدَّ أن يعاقبَه، يَقُول: أنا أحسنتُ إليكَ، أَطْعَمْتُك وسَقَيْتُك وكَسَوْتُك

وأَسْكَنْتُك وزَوَّجْتُكَ ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، فيعاقَـب عَلَى هَذِهِ النعمةِ لِأَنَّهَا تحتاج إِلَى شكرٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المَدارَ فِي العقابِ عَلَى السيئاتِ هُوَ المجيءُ بها يوم القيامة، لا مجرَّد العَمَل، قد يعمل الْإِنْسَان السيِّئة وتُكفِّر أو يتوب مِنْهَا، ولكِنَّ العبرةَ بالمجيءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عذابِ النَّار؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ والعياذ بالله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان شدَّة العقوبةِ -والعِيَاذُ باللهِ- لهَـؤُلَاءِ، حَيْثُ يُكَبُّون عَلَى وُجُوهِهِم فِي النَّارِ، والوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، وإهانته أعظمُ من إهانةِ غيرِه، فلو أنَّ أحدًا صَفَعَكَ عَلَى خدِّك أو ضَرَبَك فِي رِجْلِك أيُّهما أشدُّ إهانةً؟

الوجهُ أشدُّ، ولهَـذَا كَانَ إكبابهم عَلَى وجوههم فِي النَّار -والعياذُ بالله- أشدَّ وأبلغَ فِي الإهانةِ وفي العذابِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـال عدل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ما ظَلَمْنَاكم، بل أنتم الَّذِينَ ظلمتُم أنفسَكم، فعَمِلْتُم ما استحققتم به هَذَا العذابَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن عذابَ أهلِ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفسيّ وبدنيّ، بَدَنِيٌّ حَيْثُ تُكَبّ وُجوهُهم فِي النَّارِ، نَفْسِيّ حَيْثُ يُوَبَّخُون ويُقْرَعُون ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

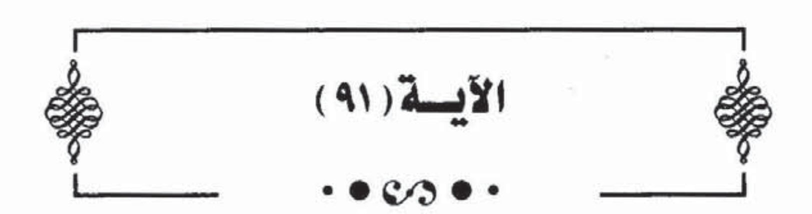
فما ظَنُّك بِمَن يُقَال له مثل هَذَا؟! تجده يَمتلِئ خَجَلًا، ويمتلئ أيضًا ندمًا،

يَقُول: لَيْتَنِي ما عمِلتُ، ليتَ وليتَ، ولكِن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، فإذن يُجْمَع لهم -والعياذ بالله- بين العذاب البدنيّ والعذاب النفسيّ.

وقد ذكر الله تَعَالَى فِي سورةِ المؤمنونَ أَنَّهم يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، وهم لو أُخْرِجُوا مِنْهَا لعادوا لِظُلْمِهِم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، لكِن يَقُولُونَ هَذَا من شِدَّة ما يجدون، فكَانَ الجواب -والعياذ بالله- أعظمَ جوابٍ فِي الإهانةِ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، والعياذ باللهِ هَذَا الجوابُ فِي غايةِ الإهانةِ والصَّغار والذُّلّ، وقد ذُكر أن الله تَعَالَى لا يُكَلِّمُهُم إِلَّا بَعْد مدةٍ طويلةٍ، يكلِّمهم بهَذَا الكَلام الَّذِي لا خيرَ فِيهِ لهم، بل هُوَ تَيْئِيس من كُلّ خيرٍ ومن كُلّ فرجٍ، نسأَلُ اللهَ العافية: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يعني اندحروا وذِلُّوا وتَلْحَقُكُمُ المهانةُ والإهانةُ، ومع ذلك لا تُكَلِّمُوني، فلستم أهلًا لِأَنْ تكلموني، نسأل الله العافية.

فإِذَنْ: يُجمَع لأهل النارِ بين العذابينِ: البدنيّ والنفسيّ.

• • ۞ • •



الآية (٩١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١].

•••

قَالَ المُفَسِّـر: [قُلْ لَهُم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ أي مَكَّة]، المكان الَّذِي قَالَه النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ هُوَ مكَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ والإشارة هنا للقريب ﴿ٱلَّذِى﴾ ولم يقل: (الَّتي) لِأَنَّهَا صِفة لمذكَّر ﴿رَبَّ هَٰذِهِ﴾ ولهَذَا تُعرب (الذي) عَلَى أَنَّهَا اسْم موصول مبنيّ عَلَى السكون فِي محلّ نصب، صفة لربّ، وقصدنا هنا بالذُّكُورِيَّة لَفظًا أم معناها؟ فلا نَقُول: اللَّفْظ مُذَكَّر، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فلا يجوزُ وَصْفُهُ لا بهَذَا ولا بهَذَا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: [جَعلَها حَرَمًا آمِنًا]، جعلها شرعًا حَرَمًا آمنًا.

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ إضافته الرُّبُوبِيَّة إليها تفيدُ الفضلَ، وأن الله تَعَالَى قد اعتنى بها وشـرَّفها، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا يُسفَك فيها دمُ إِنْسَانٍ]، والحديث: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»[1]، وأيها أعمُّ (دم الإِنْسَان) أو (دم) فقط؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم (١٠٤)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إِلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٤)، عن أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(دَم) أعمُّ، ولهَذَا لا يُسفَك فيها دمُ إِنْسَانٍ ولا دَمُ صيدٍ، وَأَمَّا المواشي من الإبلِ والبقرِ والغنمِ وما أَشْبَهَهَا فإن هَذَا دلَّتْ السنَّة عَلَى جوازِه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يُظلَم فيها أحد]، هَذَا لَيْسَ خاصًّا بمكَّة، حَتَّى غير مَكَّة لا يجوز أن يُظلمَ فِيهِ أحدٌ؛ ولذلك ما جاء فِي الحديثِ: لا يُظْلَم فيها أحدٌ؛ بل قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»؛ فليس من خصائصِ مكَّةَ أَلَّا يُظْلَم أحد، صحيح أن الظلم فِي مكَّةَ أعظمُ من غيرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، فقوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ الباء تدلّ عَلَى أن الفِعْل مضمَّن معنى العزيمةِ الصادقةِ، أَمَّا أنَّ الظلم فِي غيره مباح فلا.

مسألة: هل السيئة تُضاعَف فِي مَكَّة؟

الجواب: ما تُضَاعَف السيئة فِي مكَّة؛ تضاعف بالكيفيَّة فقطْ لا الكمّيّة، ولَيْسَ معناه أن السيئة يُجْزَى عنها سيِّئتانِ، وإنّما المَعْنى أَنَّهَا تكون أعظمَ، فكيفيَّة العقوبة تختلِف، قد أضرِبُ هَذَا الإِنْسَان ضربةً واحدةً وأضرب الآخرَ ضربةً واحدةً وتكون هَذِهِ الثَّانِيَة مؤلِمة والأولى غير مُؤْلِمة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يُصَادُ صَيْدُها]، هَذَا صحيح، وغيرها يُصاد.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يُخْتَلَى خَلاها]، صحيحٌ، وغيرها يُختلَى، والمَدِينَة يختلى خلاها، إِنَّمَا يُحرم الشَّيْء الَّذِي بدون حاجةٍ فِي المَدِينَةِ، وَأَمَّا الَّذِي بحاجةٍ فيجوز، وهَذَا الفرق بينها وبين مكَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وذلك مِنَ النِّعم عَلَى قُرَيْشٍ وأهلها فِي رفعِ الله تَعَالَى عن بلادهم العذابَ والفِتَنَ الشائعةَ فِي جميعِ بلادِ العربِ].

إِذَنْ: قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فِيهِ إظهارٌ لفضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ساكني هَذِهِ القرية، حَيْثُ جعلَ الله هَذِهِ القريةَ حَرامًا، فقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حَرَمًا وجعلها حَرَامًا، وما قلناه أعمُّ مِمَّا قَالَ المُفسِّر؛ لِأَنَّ المُفسِّر يقُول: [جعلها حرمًا آمِنًا]، ثُمَّ ذكر الأَشْيَاءَ، فهي حرم وحرام أيضًا، حرمٌ بمعنى أَنَّهَا مُحْتَرَمَةٌ، وحرام بمعنى أَنَّهَا محرَّمة، لهَذَا مَنْ قَصَدَها فَإِنَّهُ يُشْرَع له بإجماعِ أهلِ العلمِ أَلَّا يدخلها إِلَّا مُحْرِمًا، وَفِي وجوبه خلاف معروف.

أيضًا من جملة احترامها أن المُشركينَ لا يقربون المَسْجِد الحرامَ، فيَكُون الحرمُ كلّه محرَّمًا عليهم؛ لِأَنَّ دخولهم الحرمَ مِن قُربان المَسْجِد الحرام، فلهَذَا كَانَ ذلك احترامًا لهَذِهِ البلدةِ، ومع ذلك يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ فَهُوَ ربُّه وخالقه ومالِكه]، الجملةُ الأخيرةُ فيها فائدة عظيمة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يَتَوهَّم مُتَوهِّم أَنَّهُ تختصُّ ربوبيَّته بهَذِهِ البلدةِ؛ فأتى بَعْد ذلك بالتعميم؛ قَالَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾. ونظيرُ هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد:١٠]، قَالَ بعدها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، حتَّى لا يَتوهَّمَ مُتوهِّم أن ذلك الفضلَ خَاصّ بأولئكَ، فبيَّن أن الجزاء للجميعِ، وَهُوَ الجَنَّة، وإِنْ كانوا لا يَسْتَوُونَ، ففي قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ رُبُوبِيَّة اللهِ عامَّة لكلِّ شيءٍ، لكِن ربوبيَّته لهَذِهِ البلدة أخصّ مِن ربوبيَّته العَامَّة.

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الرعد:٣٦].

قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أليست العِبادَة هِيَ الإِسْلام؟

الجواب: بلى، العِبادَة هِيَ الإِسْـلام، لكِن هناك قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، والعِبادَة هِيَ التذلُّل له بالطاعة، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي أن أُحَقِّق هَذِهِ العِبادَة بالاستسلام التامّ لأوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالْإِنْسَان قد يَكُون عابدًا فِي الأَصْل لكِن الانقياد التامّ بجميع مشروعات الإِسْلام يُستفاد من قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي من المنقادِين لحُكْم اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ انقيادًا تامًّا، لا معارضة عندهم ولا استكبار.

وفي قوله: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دليلٌ عَلَى أن هناك مسلمينَ، فهل اليهود والنصارى مسلمونَ؟

الجواب: حين كانتْ شرائعهم قائمةً فهم مسلمونَ، أَمَّا بَعْد أنْ نُسِخَتْ فإنهم إذا لم يَلْتَزِموا بالشَّرِيعَة النَّاسخةِ ولم يَكُونوا مسلمينَ، فالإِسْلام هُوَ الدين عند الله فِي كُلّ زمانٍ ومكانٍ، وبعد بَعثةِ الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا إسلامَ إِلَّا باتباع شريعته، وإِلَّا فأصل الإِسْلام كما هُوَ معروف من الاستسلام وَهُوَ الانقياد، وهَذَا يشمل كُلّ انقياد لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، سواء فِي عصر هَذِهِ الأمة أو قبلها، نوح عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقُول: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، مثلما قيل للرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. وقال عن يعقوب: إِنَّهُ قَالَ لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقالت بِلقِيس: ﴿إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ إعلانِ الرَّسُولِ ﷺ بما ذكر؛ لِأَنَّهُ عَلَى تقدير: (قُل إِنَّما أمرت)، وَهُوَ واجب عليه أن يعلنَ ذلك؛ لأجل أن يَكُون قدوةً فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب العِبادَة عَلَى النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، ولا يُقَال: إن التكاليف تسقطُ عن الأَنْبياء والأولياءِ، بل تجب عَلَى النَّبِيّ ﷺ كما تجب عَلَى غيرِه، ويجب عليه هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يشهد أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّهُ رسولُ الله؛ فهَذَا مُقتضى الإِسْلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُطلان ما ادَّعاه أصحابُ مَن يَزْعُمونَ أَنَّهُم أَوْلِيَاء، حَيْثُ قَالُوا: إن الوليَّ يصل إِلَى درجةٍ يسقُط بها عنه التكليف، وهَذَا موجود عند الصوفيَّة وغيرهم، يَقُولُونَ: هَذِهِ العباداتُ الَّتِي نكلَّف بها وسائلُ إِلَى غايةٍ، والغاية: الْيَقِينُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، فإذا وصل الْإِنْسَان إِلَى الْيَقينِ سقطتْ عنه العِبادَةُ وصار لا يجبُ عليه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا صومٌ ولا حجٌّ، ولا يحرم عليه نِكاح أحدٍ، فيتزوَّج مَن شاء من ذُكُورٍ وإناثٍ، والعياذُ باللهِ، ومن عددٍ صغيرٍ وكبيرٍ.

حَتَّى إِنَّا نسمع عنهم الْآنَ فِي أفريقيا أن الواحد منهم له خمسونَ امرأةً، فتَعَدَّوُا النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأيضًا لا يَتَزَوَّج بعقدٍ، فإذا اشتهى امرأةً أرسلَ إلى أبيها وقال: أريد ابنتك زوجةً لي.

ولا أحد يتمكَّن من أن يُعارِضَهُم؛ لِأَنَّهُم يزعمون أَنَّهُم وصلوا إِلَى غايةٍ لا يحتاجون معها إِلَى تكليف.. فإذا كَانَ الرَّسُول ﷺ أُمر أن يعبدَ الله فغيرُه من باب أَولى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس هَؤُلَاءِ كفارًا؟

فنَقُول: بلى، بل من أكفرِ الْكُفَّارِ والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة مكَّة من وجهينِ: من إضافةِ الرُّبُوبيَّة إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ومن كونه تَعَالَى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ففيه فضيلةُ مكَّة عَلَى سائرِ البلادِ، ولها فضائلُ كثيرةٌ، فلو لم يكن مِنْهَا إِلَّا أنَّ قَصْدها للعبادة من أركانِ الإِسْلامِ لَكَفَى؛ فالحجُّ رُكْن من أركانِ الإِسْلامِ، فليس هناك بلد فِي العالم يَكُونُ القَصْد إليه فرضًا أبدًا ولا سنَّة إِلَّا مَكَّة والمَدينَة والمسجد الأقصى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الَّذِي حرَّم مَكَّة هُوَ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ألا يعارض ذلك ما ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ من قوله: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**»[1]؟

قُلْنَا: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: «حَرَّمَ مَكَّةَ»؛ أي: أَظهرَ تَحريمَها وأبانها، وإلا فالذي حَرَّمَها هُوَ اللهُ، ولهَذَا نَقُول مثلًا: إِنَّ الرَّسُول ﷺ حرم الميتة والخمر والخنزيرَ، يعني أظهر تحريمها وأبانه، وإِنْ كَانَ الَّذِي حرَّمها هُوَ الله، فالمهم أنه لا منافاة بين قولِه تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وقول الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**» والجمعُ بسيطٌ وواضحٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَدينَة حرمها الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالإجابة: نعم، حرَّمها الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كُلّ شيءٍ فَهُوَ مِلْكٌ لله؛ مَكَّة وغيرها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النَّبِيّ ﷺ ومدهم، حديث رقم (٢٠٢٣)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النَّبِيّ ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، حديث رقم (١٣٦٠)، عن عبد الله بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى المُعْتَزِلَة والْقَدَرِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن الْإِنْسَان مُسْتَقِلّ بعَمَلِه، فَإِنَّهُ عَلَى قولهم يَخرج بعض الأَشْيَاء عن مِلْكِ الله، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لمّا قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ فقد يَفهم منه أحد أن رُبُوبِيَّة الله تَعَالَى خاصَّة فِي هَذَا المكانِ، فاحترازًا من هَذَا الفهمِ الخاطئ أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ وهَذَا من بلاغةِ الْقُرْآن.

وهل تدخل مَكَّة فِي قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾؟

هَذِهِ المسألة مختلَف فيها عند الأُصُولِيِّينَ، يعني إذا ذُكِرَ الخاصُّ مَعَ العامِّ فهل التنصيصُ عليه مُخرِج له منَ العُمُوم، فيَكُون ذُكر مرَّةً لكِن نُصَّ عليه لِشَرَفِهِ مثلًا والعناية به، أو أَنَّهُ لا يُخرِجه من العمومِ، فيَكُون ذُكِرَ مرّتينِ؛ مرة بصيغة التخصيص ومرة بصيغة التعميمِ، فما هُوَ المتبادر للذِّهن؟

قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]، الرُّوح هُوَ جِبريل، لكِن يَتبادر إِلَى الذهنِ -فِي ذهني أنا ولا أدري عن غيري- أَنَّهُ إذا ذكر الخاصَّ بَعْد العامِّ أو قبلَه أنَّه ما أُريد دخوله فِي العامّ.

فعندما تقول: جاء الطلبة وعلي، وَهُوَ معروف أَنَّهُ من الطلبةِ، أنت تَفهم أَنَّهُ خرجَ عنهم لَمّا نُصّ عليه، وكفَى بذلك فخرًا أن يُخْرَج من بين العمومِ ويُنصّ عليه فِي الحكم. لكِن أولئك يَقُولُونَ: إنَّهُ ذُكر مرتينِ؛ مرةً بطريق العمومِ ومرةً بطريق الخصوصِ، ولكِن فيما أَظُنّ ويتبادر إِلَيّ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، نعم لو ذكر العموم فِي موضعٍ آخرَ ولم يذكر الخصوصَ فلَا شَكَّ أَنَّهُ داخل فِي العمومِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ بغيرِ ما أنزلَ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ لِأَنَّ من جملةِ الأَشْيَاءِ: الحُكْم بين العبادِ، بل هُوَ من أعظم الأَشْيَاءِ، فإذا كَانَ ذلك لله فلا يجوزُ لأحدٍ أن يستقلَّ به، ومَن أراد أن يستقلَّ به فقد حاول أن يَكُونَ شَرِيكًا لله تَعَالَى فِي ذلك، ونزل نفسه منزلةً لا يسْتَحِقّها.

إِذَنْ: أمر التحليل والتحريم والإيجابِ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ له كُلَّ شيءٍ، وأمر التحسينِ والتقبيحِ الصَّوابُ أنها إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ بعضَ الأَشْيَاءِ لا نعرِف عن حُسنها وقُبحها إِلَّا مِنَ اللهِ، لكِن أيضًا للعقلِ مجالٌ فِي هَذَا، ولذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ما الَّذي بعدها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن العقل يُحسِّن ويقبِّح؛ فإن هَذَا من القبيح.

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ[1]

فالعقلُ يُحسِّنُ ويُقَبِّحُ، لَكِنَّهُ لا يُوجِبُ ويُحرِّم، فالإيجابُ والتحريمُ إِلَى الله، أَمَّا التحسينُ والتقبيحُ فيُحَسِّن ويُقَبِّح، ولهَذَا يحيل الله تَعَالَى أَشْيَاءَ كثيرةً إِلَى العقلِ، فدلَّ ذلك عَلَى أن للعقلِ أن يُحسِّن ويقبِّح، ولكِن مِنَ الأَشْيَاء ما لا يعلَم حُسْنَه وقُبْحَه إِلَّا بطريقِ الشرعِ، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ -مسألة التقبيح والتحسين العقليّ- صار فيها نزاعٌ طويلٌ بين أهل السنّة والجماعةِ وبين أهلِ البدعِ، منهم مَن قَالَ: لا يحسِّن ولا يقبِّح، والغريب أن هَذَا هُوَ المشهورُ من مذهبِ الحنابلةِ، قَالَ الفُتُوحي فِي كتاب (مُخْتَصَر التحرير فِي أُصول الفقهِ): «العقلُ لا يُحسِّن ولا يُقبِّح، ولا يُوجِب ولا يُحرِّم»، نَقُول: أَمَّا قوله: «لا يوجب ولا يُحرِّم» فهَذَا صحيحٌ، وَأَمَّا لا يُحسِّن ولا يُقبِّح فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ويُرْوَى عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨).

«مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ»[(١)].

وربما يشهد لهَذَا قولُ الرَّسُولِ ﷺ: «**الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»[(٢)] لكِن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخَلصتْ نِيَّته هَذَا لا يَطْمَئِنّ للإثم أبدًا، أَمَّا الْإِنْسَان الفاسقُ فالفاسق كما نعرِف أن الزبال لا تُهِمُّهُ الزبالةُ، لكِن العطَّار إذا جلسَ عند الزبالةِ فلا يمكن أن يجلس، فربما أن العقلَ يَستحسِن الزبالةَ إذا كَانَتْ طريقًا للكسبِ، لكِن نفسيَّة الْإِنْسَان لا تَرتاح لها؛ لِأَنَّ رائحتها مُؤْذِيَة، فالنَّاس الْآنَ وقبلَ الْآنَ قد يَسْتَقْبِحُونَ الحَسَنَ ويستحسنون القبيحَ.

فالحاصل: أن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخلصت نيّته وعلِم اللهُ منه حُسْنَ القصدِ يُوَفَّق، وتَجِدُه إذا عمِل السيئةَ ولو أَنَّهُ لا يدري أَنَّها سيئة لا تطيب نفسُه ولا تستقرّ، ولهَذَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**»[(٣)] لكِن هَذَا لا نخاطب به كُلّ النَّاسِ، بل صاحب القلب الصافي والإيمان الخالِصِ، أَمَّا النَّاس المنهمِكون فِي المعصيَة فلا يخاطَبُون بمثله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مأمورٌ بأن يَكُونَ من المُسلمينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) رواه موقوفًا الطيالسي (٢٤٦)؛ والطبراني في الأوسط (٣٦٠٢)؛ والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣). وانظر: المقاصد الحسنة (٩٥٩)؛ نصب الراية (٤/ ١٣٣)؛ الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٨٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣)، عن النواس بن سمعان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨) (١٨٠٣٠)، عن وابصة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِسْلامَ والإِيمانَ شيءٌ واحد؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فلَا شَكَّ أن ما أُمِرَ به هُوَ أعلى الحالاتِ، وَهُوَ الإِيمانُ، ولكِن هَذِهِ المسألة -وهي: هل الإِسْلام هُوَ الإِيمان أو لا- فيها أيضًا عِراك بين أهل السنّة والجماعة أنفسهم، وبينهم وبين الأشاعرةِ، والصَّواب أن يقال: إن الإِسْلام عندَ الإطلاقِ يَشمل الإيمانَ، والإِيمان عندَ الإطلاقِ يشملُ الإِسْلامَ، وَأَمَّا عند التقييدِ وأن يُقْرَنَ بينهما فَإِنَّ الإِيمان يَكُون ما وَقَرَ فِي القلبِ، والإِسْلام ما قامتْ به الجوارح؛ لِأَنَّ الإِسْلام منْ الاستسلام، وَهُوَ عدم المعارضة، بل الموافقة، فالمنافقون الَّذِينَ لا يُظهِرون معارضةً نسميهم مسلمينَ، لكِن لا نسميهم مُؤْمِنِينَ؛ لعدم وجودِ الإِيمانِ فِي قلوبهم.

ومن النَّاس من يَكُون وسطًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، قال: لـمّا يَدْخُلْ، ما قَالَ: لم يَدْخُلْ؛ ليفيد أن الإِيمانَ قريبُ الدخولِ فِي قلوبهم، لَكِنَّهُ لم يدخلْ، إِنَّما هُوَ قريبٌ.

والإِيمان منَ المنافقينَ بعيدٌ، هم يَنفِرون منه، فلو قَرُبَ إليهم نفروا منه، لكِن هَؤُلَاءِ الأعراب لم يدخلِ الإِيمانُ فِي قلوبهم إِلَّا أَنَّهُ قريب ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

إِذَن: الصَّواب فِي هَذِهِ المسألة: أن الإِيمانَ والإِسْلامَ إذا اقترَنا افترَقا، وإذا افترَقَا اجتَمَعَا، فالإِيمان إذا اقترنَ مَعَ الإِسْلامِ فُسِّرَ هَذَا بِهَذَا، وهَذَا بِهَذَا، أَمَّا عند الإطلاقِ فيدخل فيه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أنَّ المنافقينَ مُسلِمون ظاهرًا؛ أي منقادونَ، أليس هَذَا فِيهِ إشكالٌ؟

فالجواب: الرَّسُول أرادَ أن يفسِّر ذلك بالأَعْمالِ الظَّاهرةِ المبنيَّة عَلَى الإخلاصِ، والأَعْمال الظَّاهرة عند المنافقينَ ليستْ مبنيَّةً عَلَى الإخلاصِ، ولهَذَا يأتون ويصلون مَعَ النَّاس، ويذكرون الله تَعَالَى فِي صلاتهم لكِنهم لا يذكرون الله إِلَّا قليلًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يفرِّق بينهم وبين أقاربهم فِي الميراثِ وغيره، فيُوَرِّثُ بعضهم من بعض. وأخذ بهَذَا شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيَّة وقال: إن المنافقَ يَرِثُ من المؤمنِ، والمؤمن يرثُ منَ المنافقِ[1].

وهَذَا الَّذِي قاله صحيح إِلَّا أننا نعارضه فيما إذا عُلِمَ نفاقُه، فَإِنَّهُ إذا عُلم نفاقه لا يجوز أن يورَّث منَ المسلمِ أو يورَّث المسلمُ منه، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الرَّسُول ﷺ يعلمُ المنافقينَ؟

قُلْنَا: فيهم ناسٌ يعلمهم وفيهم ناسٌ لا يعلمهم.

• • ۞ • •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠) و(٧/ ٦١٧).



الآية (٩٢)

• • ○ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩٢].

• • ○ • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ عَلَيْكُم تلاوةَ الدَّعوى إِلَى الإِيمانِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: لِأَجْلِها؛ فإِنَّ ثوابَ اهتدائه له ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإِيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾].

قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ التلاوة تنقسمُ إِلَى قسميـنِ: تلاوة لفظيَّة وتلاوة معنويَّة، فالتلاوةُ الأُولى: قراءة الْقُرْآن، والتلاوةُ الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بمـا جاء به الْقُرْآن، مأخوذة مِن تَلَا الشَّيْءَ يَتلُوه إذا تَبِـعَه وصار تِلْوًا له، فقول الرَّسُـول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يَشمل هَذَا وهَذَا؛ أنْ أَتْلُوَه قراءةً وأن أتلوَه اتباعًا، فَهُوَ مأمورٌ بذلك، يعني كأنه يَقُول: سأتلو الْقُرْآن عليكم تلاوةَ قراءةٍ، وأيضًا سأتلو الْقُرْآن تلاوةَ اتباعٍ، ولا أُبالي بمخالفتكم وإعراضكم، وهَذَا لَيْسَ للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فحسْب؛ بل لكلِّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُول يَجِب عليه أن يتلوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيّةً.

وقد عُلِمَ أن قراءة الفاتحةِ رُكن من أركانِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ من أركانِ الإِسْلَامِ.

ثانيًا: يَجِـب عَلَى المسلمِ أن يتلوَ الْقُرْآن تلاوةً اتباعيةً ولا يبالي بمَن خالفه، ولو أننا راعينا شعورَ النَّاسِ ورَاعينا عصورَ النَّاسِ صارَ الدينُ لَيْسَ دِينًا، بل صار

الدين عادةً، إن تَقَبَّله النَّاس حَسَب عاداتهم صار دينًا، وإن لم يَقبلوه لم يكن دِينًا.

والواجب أن يَكُونَ الدينُ بَعيدًا عن عاداتِ النَّاسِ، بمعنى أن يَكُون الحَكَمُ هُوَ الْقُرْآن والسنّة، لا ما يعتاده النَّاس فيما يَفعلونه من عباداتٍ أو غيرها، خِلافًا لبعضِ النَّاسِ الْآنَ الَّذِينَ يريدونَ أن يُتابعوا النَّاس فيما هم عليه ولو كَانَ باطلًا، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لأَنَّنا لو مَشينا عَلَى هَذَا الأَمْرِ أو عَلَى هَذَا المنهاجِ ما بَقِيَت حياة للإسلام، ويموت منَ الإِسْلامِ جزءٌ فِي هَذَا العصرِ، ثُمَّ يأتي عصرٌ آخرُ فيموت منه جزء آخرُ، وهَكَذَا حَتَّى يَنقضِيَ، ولَكِنَّنَا إذا كنا نعمل بالإِسْلام ونجدِّد حسَب ما يَقتضيه الكتاب والسنّة -لا حسَب آرائنا- صار ذلك هُوَ القيادةَ، وَأَمَّا أن نسكت وندُسّ رُؤوسنا فِي الترابِ ونَقُول: هَكَذَا النَّاس ولا يمكن أن نخالفهم، أو نَتَهَيَّب قول بعض النَّاس: طلعتم علينا بدينٍ جديدٍ، هَذَا الدين ما عرفناه من قبلُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإن هَذَا لا يَنبغي أن يمنعَ الْإِنْسَان عن قولِ الحقّ.

وهَذَا قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة لفظ تقوم به الحجَّة عليكم، وتلاوة اتباع لا أُبالي بمعارضتكم ومخالفتكم، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلّ مسلمٍ فِي كُلّ مكان.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحًّا مُطَاعًا وإِعجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**»[1] هل ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر؟

فالإجابة: قوله: «**عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**» لا ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)؛ وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، حديث رقم (٤٠١٤)، عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المنكرِ لِأَنَّهُ مِن خاصَّتِك، لكِن المَعْنى دَعْهُمْ، أي لا تَهْتَمّ بهم بحيثُ يَشغلونك عما يجبُ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاس يهتم بهَذَا الأَمْر حَتَّى إِنَّهُ ينشغل بالنَّاسِ عن نفسه، فتجده حالَ صلاتِه يشعرُ أَنَّهُ يأمرُ فلانًا ويتصوَّر أَنَّهُ واقفٌ عند دكّانٍ ويقول له: صَلِّ، فهَذَا الَّذِي يُنهى عنه.

وأيضًا قوله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، بعض النَّاس يفهم من هَذِهِ الآيَة أن الْإِنْسَان إذا أصلحَ نفسه لَيْسَ عليه من إصلاحِ غيـرِه، لكِن نَقُول: إن إصلاح غيـرك لا يتمَ إِلَّا بإصلاحِ نفسِكَ، فأنت مأمورٌ بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لكِن إذا ضلوا فإن ضلالهم لا يضرُّك بَعْد أن تقومَ بما يَجِب عليك من الدَّعْوَةِ والأَمْرِ.

لكِن يجـوز مراعاة النَّاس بمعنى تدريجِ النَّاسِ حَـتَّى يَسْلُكُـوا الصـراطَ الصَّحيحَ، فمراعاة الحال يعني بالتدريج لا بأس به، ولهَذَا الَّذِي نرى أن الدعاءَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحِكْمَة يتناولُ هَذَا الأَمْـرَ، وهو: نقل النَّاس إِلَى الإِسْلام مرحلةً مرحلةً، وإن كَانَ بعضُ النَّاس يَقُولُونَ: إنَّ هَذَا فِي أول الدَّعْوَة. صحيح أن الإِسْلامَ تطوّر؛ جاءت الصَّلَاة ثُمَّ الزكاة ثُمَّ الصِّيَام ثُمَّ الحج، وحُرِّمَ الخمرُ عَلَى عدَّة وجوهٍ، فالصِّيَام أوجب عَلَى عدّة وجوه، لكِن نَقُول: كما أن هَذَا فِي أَوَّل الدَّعْوَة هُوَ أيضًا فِي آخرها، وبَعْثُ معاذٍ كان فِي سنةِ عشرٍ منَ الهجرةِ، ومع ذلك يقولُ: «**ادْعُهُمْ أَوَّلَا إِلَى الإِسْلامِ، ثُمَّ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِلَى الزَّكَاةِ**»[1]، فالرَّسُول رتَّب هَذَا، ما قَالَ: ادْعُهُمْ إليها جميعًا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فمثلًا لو رَأَيْنا إِنْسَانًا مُنهمِكًا بفعلِ معصيةٍ، وعرفنا أنّنا لو قُلْنَا له: أَقْلِعْ عنها نِهائيًّا، أَنَّهُ لا يتمكّن، أو أن ينفِر؛ فلا بأس أن نَنْقُلَهُ عنها شيئًا فشيئًا بالتدريج؛ لِأَنَّ هَذَا كمعالجةِ المرضِ، فالمرض لا يُمْكِنُ أنْ تعالجه مرَّةً واحدةً، فلَا بُدَّ من تَنَقُّل من شيءٍ إِلَى شيءٍ، حَتَّى يَتِمَّ استئصالُ هَذَا المرضِ.

فهَذِهِ المسألةُ تعودُ إِلَى حالِ النَّاسِ، وَلَيْسَ معناهُ الاستسلام لحالِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ معنى الاستسلامِ الَّذِي أنكرته قبلُ هُوَ أنْ الْإِنْسَان يَدَعُ النَّاسَ ولا يعارضهم بالحقِّ، أَمَّا هَذَا فلا يدعهم لَكِنَّهُ يُنَقِّلُهم من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ حَتَّى يَسْتَقِيموا. فمثلًا عندما نريدُ أنْ نعملَ عَمَلًا فِي الصَّلَاة لَيْسَ من عادةِ النَّاسِ، فإِنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أن نُمَهِّدَ له بالقَوْلِ أَوَّلًا، ثُمَّ إذا عَلم به النَّاسُ واستقرَّ فِي نُفُوسِهِم نَقَلْنَاهم بعدَ ذلكَ إِلَى الفِعْل، وهَكَذَا أيضًا غير هَذِهِ المسألةِ.

المهمّ أنّ تلاوةَ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ المُعْرِضِين ممَّا أُمِرَ به الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُمِرَتْ به الأمَّة كلُّها أيضًا، وتكون التلاوةُ هنا لفظًا واتِّباعًا، ولكِن الشأن كله فِي أَنْ لا نتخاذلَ أمامَ الأَمْرِ الواقعِ؛ بل يَجِب علينا أن نكونَ عَلَى وجهٍ أقوى وأشدَّ.

مسألة: ما القَوْل في نقلِ الْإِنْسَانِ من معصيةٍ إِلَى معصيةٍ أُخرى أخفَّ منها؟

الجواب: لا يجوزُ إذا كانتْ منَ الجنسِ، فلو فَرَضْنا أن إِنْسَانًا مُبْتَلى بالزِّنا -والعياذُ باللهِ- وقلنا له: يا أخي ما لكَ حَقٌّ، هَذِهِ الشهوةُ الَّتِي عندك تَستطيع أنْ تُخَفِّفَها بالاستمناءِ مَثلًا، فهَذَا منَ الجنسِ، وَلَيْسَ فِيهِ بأسٌ، فالتي من الجنسِ معناها التخفيفُ؛ لأنك لو نَقَلْتَه إِلَى شيءٍ آخرَ فاتجاهُه الأوَّلُ لا يزولُ فِي الغالبِ، لكِن لو أَنَّ واحدًا يَسْرِق ونَقُول: يا أخي اتركِ السَّرِقَة واشْرَبْ خمرًا أحسن لكَ، فهَذَا لا يُمْكِن.

فالتدرُّج طريقٌ، وَلَيْسَ معنى ذلك أنِّي إذا نَقَلْتُه من هَذَا إِلَى أخفَّ أنِّي أُبيح له الأخفَّ؛ لَكِنَّهُ تَدَرُّجٌ، فالتدرُّج هنا لَيْسَ معناه ثُبُوت الحكم عَلَى الدرجةِ الَّتِي نزَّلناه إليها؛ ولكِن معناه أننا نَنْقُلَه من الدرجةِ العُظْمَى إِلَى الأخفِّ، ثُمَّ إِلَى تركها بالكُلِّيَّة، وَأَمَّا قوله تَعَالَى فِي الخمرِ: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]، فنَقُول: طريق الاجتنابِ هَذَا الَّذِي نَقُول.

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تلاوةً لفظيَّةً تقوم بها الحُجَّة عليكم، وتلاوةً عَمَلِيَّةً تَطْبيقِيَّةً يَتبَيَّنُ بها أَنَّني لستُ بمُبَالٍ بمَن يُخالِفُني فِي هَذَا الأَمْرِ.

وقوله: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هُوَ هذا الَّذِي نَزَلَ عليه ﷺ.

وبعد تلاوةِ الْقُرْآنِ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له]، ولكِن عَلَى تفسيرِ الْمُفَسِّر يَكُونُ قوله: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ بمعنى انقادَ؛ لِأَنَّ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ لا يَتَعَدَّى باللام؛ بل يَتَعَدَّى بالباءِ: اهتدى به، لكِنَّه ضُمِّن معنى انقادَ، وتَضْمِينُه معنى الانقيادِ لِيَشْمَلَ هدايةَ العلمِ وهدايةَ التَّوفيقِ.

فالذي يَهتدي وينقاد له قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي لِأَجْلِها، فإنَّ ثوابَ اهتدائِهِ لَهُ]، صحيحٌ، فمَنِ اهتدى بهَذَا الْقُرْآنِ وانقادَ له فالمصلحةُ ليستْ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنه، وليستْ لفلانٍ ولا لفلانٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ نفسٍ لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ، إذن فَهِيَ لنفسِهِ. وإن كَانَ يَنْتَفِع الداعي بذلك أيضًا انتفاعَ الدالِّ، فـ«**إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[1]، لكِن أصل الثوابِ للفاعلِ، فلا يُقال مثلًا: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَدْعُو للناسِ لِيَهْتَدُوا فيَكُون له أجرٌ،

(١) أخرجه الترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله، رقم (٢٦٧٠).

بل قصده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأوَّل هُوَ نَفعُ الخَلْقِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ وإنْ كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْتَفِع باهتدائِهِ، فَهُوَ تبع.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾]، المُفَسِّر قَدَّر [له] فِي قولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، وقدَّر هنا كذلك: [﴿فقُلْ﴾ له]، والسَّبَب أَنَّهُ يُقَدِّر هنا لأجلِ أنْ يرتبطَ الجوابُ بالشرطِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ اهتدى لأيِّ شيءٍ؟ للقرآنِ الَّذِي أَتْلُوه أو بالْقُرْآن الَّذِي أتلـوه، وَفِي قولـه: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ (مَن) شـرطية ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ لا يمكن أنْ يَكُونَ ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ جوابًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ إِلَّا إذا كَانَ فِيهِ ضَميرٌ يعودُ عليه، ولهَذَا قدَّره بِقَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هِيَ الحِكْمَةُ فِي حَذْفِهِ؟

قُلْنَا: الحِكْمَةُ فِي حذفِهِ العمومُ، يعني فقلْ له ولغيرِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، يَعْنِي أنَّ هَذِهِ الجملةَ الَّتِي هِيَ وصفٌ ثابتٌ للرَّسُولِ ﷺ ليستْ خاصَّةً بمَن يَضِلّ، بل مَن يَضِلّ ومَن لا يضلّ؛ يُقَال له: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ المُنْذِرِينَ، ومعنى المنذِر المُخَوِّف، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُخَوِّفِينَ، فليسَ عَلَيَّ إِلَّا التبليغُ].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠﴾: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا يفيد اختصاصَ الرَّسُولِ ﷺ بالإنذارِ، مَعَ أن الله يقولُ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة:١١٩].

قُلْنَا: لكِن لكلِّ سِيَاق ما يُناسبه منَ اللَّفظ، فهنا المُخَاطَبُ قومٌ مُنْكِرُونَ، فكَانَ ذِكْر جانب التخويفِ فِي حَقِّهِم أَوْلَى مِنَ الجمعِ بينه وبين التبشيرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهَذَا قبلَ الأَمْرِ بالقتالِ]، الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَسْلُكُ هَذَا المَسْلَكَ كثيرًا فِي مثلِ هَذِهِ الآيَةِ ويقول: إنَّهُ قبل الأَمْرِ بالقتالِ، وهَذَا يَتَضَمَّن أنْ تكونَ الآيَةُ منسوخةً لا يُعْمَل بها، ولكِن هَذَا قولٌ فِي غايةِ الضعفِ، والصَّواب أنَّ هَذَا يُقَال حَتَّى بعدَ الأَمْرِ بالقتالِ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه الإنذار والتبليغ وَلَيْسَ عليه الهدايةُ، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقرأ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غالبًا أو كثيرًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦][1]، وكيف تكون مثل هَذِهِ الآيات الَّتِي تَتَكَرَّر عَلَى الْمُسلِمينَ فِي جُمُعَاتِهِم منسوخة.

ثم إنَّ دَعْوَى النسخِ لَيْسَتْ بالأَمْرِ الهَيِّن؛ لِأَنَّ معناها إبطال دلالةِ الآيَةِ أو الحديثِ، وهَذَا يَتَضَمَّن الاعتداءَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ، ولهَذَا يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أنْ يَحْتَرِزَ غايةَ الاحترازِ منْ دعوى النسخِ، وإذا عَجَزَ عنِ الجمعِ فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، لكِن الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره كثير منْ أهلِ العلمِ إذا عَجَزُوا عنِ الجمعِ قَالُوا: هَذَا منسوخٌ، وهَذَا مَسْلَكٌ لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَلَيْسَ بِسَديدٍ، وَلَيْسَ بصوابٍ، بل هُوَ خطيرٌ.

وقد ذكرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المنسوخَ فِي الشَّرِيعَةِ لا يَتَجَاوَزُ عَشَرَةَ أحكام[2]، ولو سَلَكْنَا ما سَلَكَه الْمُفَسِّر لكانَ المنسوخُ عشراتِ الأحكامِ أو ربما يَبْلُغُ المِئَة، وَفِي هَذَا خطأٌ عظيمٌ.

فالصَّوابُ أنَّ هَذَا القَوْل: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقال: حَتَّى الْآنَ وحتى

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨).

(٢) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٨٠).

بَعْد الأَمْرِ بالقتالِ، فَهُوَ مُنْذِر لكِن هَذَا الإنذار لا يَقتضِي أَلَّا يقومَ بما يَجِب عليه مِنَ الجهادِ، يَقُول: أنا مُنْذِرٌ فليسَ عليَّ هُدَاكم، وهداكم عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مسألة الأَمْر بالقتالِ فهَذَا شيءٌ يمكِن حَتَّى مَعَ هَذَا القَوْلِ.

فالصَّوابُ فِي هَذِهِ المسألة: أن الآيَةَ مُحْكَمَةٌ، وغيرها من أمثالها مُحْكَم، ولا يَجُوزُ دَعْوَى النسخ فيه؛ لِأَنَّ مِن أهمّ شروطِ النسخِ تَعَذُّر إمكانِ الجمعِ، وإذا أمكنَ الجمعُ فلا نسخَ؛ لِأَنَّ النسخَ -كما تَقَدَّم- هُوَ عبارةٌ عن إبطالِ مدلولِ الآيَةِ أو الحديث، وهَذَا أمرٌ لَيْسَ بالهيِّن، فمعنى نسخ الحديثِ أن يأتِيَ حديثٌ ونَضْرِب عليه!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل من شروطِ النسخِ وجودُ قرينةٍ تدلُّ عليه؟

فالجواب: هَذَا لَيْسَ بشرطٍ، المهمُّ إذا تَعَذَّرَ الجمعُ وعُلِمَ التاريخُ فالمتأخِّر ناسخٌ.

يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ هل هِيَ بالكسرِ أو بالفتحِ؟

الجواب: بالكسرِ؛ لِأَنَّهَا اسمُ فاعلٍ، فَهُوَ منذِر، والنَّاس مُنْذَرُون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب تلاوةِ الْقُرْآنِ بِنَوْعَيْهِ، والنوعانِ هما: اللفظيّ والعَمَليّ، فواجبٌ عَلَى المرءِ أنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيَّةً وعمليَّةً، سواء عن ظهرِ قلبٍ أو نَظَرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلة الْقُرْآن وشَرَفه، حَيْثُ كَانَ مأمورًا بتلاوتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ تحكيمِ الْقُرْآن؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابعَةُ: وجوبُ تبليغِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.



الآية (٩٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوفٌ عَلَى قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فَإِنَّهُ عَلَى تقديرِ (قُلْ) يعني: وقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهَذِهِ الجملةُ للثناءِ عَلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وقد أثنى اللهُ عَلَى نفسِه فِي ابتداءِ الخَلْقِ وَفِي انتهائِهِ وَفِي ابتداءِ إنزالِ الْقُرْآنِ، وَفِي مَقامِ التعظيمِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إنزالِ الْقُرْآنِ وما أَشْبَهَهُ، فهنا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى كمالِ صِفَاتِهِ وبيَان آياتـه، ومنها ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، قال: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ والإراءةُ أبلـغُ منَ البَيان؛ لِأَنَّهُ قد يَكُونُ الشَّيْءُ بَيِّنًا وتُعْمَى عنه الأبصارُ، ولكِن الإراءة أبلغ؛ إذ كُلُّ مَرْئِيٍّ فَهُوَ بَيِّنٌ، وَلَيْسَ كُلُّ بَيِّنٍ مَرْئِيًّا.

والسين فِي قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ تفيد فائدتينِ:

الأُولى: قُرْب هَذَا الأَمْرِ.

الثَّانِيَة: تَحَقُّقُه.

فهي تفيد التحقيقَ والتقريبَ.

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الإراءةُ هنا بَصَـرِيَّة، وهي لما كانتْ مُعَدَّاة بالهمزةِ تَنْصِب مَفْعُولينِ، فالمَفْعُول الأوَّل: الكَافُ، والمَفْعُول الثاني: (آياتِهِ).

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل المُراد بآيَاتِ اللهِ هنا الآيَاتُ الدالَّةُ عَلَى صِدْقِ ما أخبر به فِي الْقُرْآن، فتكون الآيَات الكونيَّة أو هِيَ أشمل من ذلك؟

الظَّاهرُ أَنَّهَا أشملُ من ذلكَ؛ أَنَّهَا تَشْمَلُ الآيَاتِ الدالَّةَ عَلَى صِدْقِ ما وعدَ به رسوله وتوعّد به أولئك، وكذلك أيضًا الآيَاتُ الشَّرْعِيَّة الدالَّةُ عَلَى كمالِ شَريعتِهِ.

وقوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيضًا أبلغُ مِنَ الإراءةِ؛ لأنني قد أُرِي الْإِنْسَانَ شيئًا ولكِن لا يَعْرِفه، وهنا قَالَ: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾. فعندنا بيَان وإراءةٌ ومعرفةٌ؛ أعلاها المعرفة، ثُمَّ الإراءة، ثُمَّ البيَان.

قوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ نتيجة هَذَا أنْ تقومَ عليكم الحُجَّة؛ لِأَنَّهُم إذا أُرُوا الآيَاتِ حَتَّى عَرَفُوها قامتْ عليهم الحُجَّة.

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَرَاهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ القتلَ والسَّبْيَ وضربَ الملائكةِ وُجُوهَهُمْ وأدبارَهُم وعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّارِ]، أعوذُ باللهِ! هَذِهِ من جملةِ الآيَاتِ الَّتِي أراهم إيَّاها، وإلَّا فقد أراهم اللهُ تَعَالَى انشقاقَ القمرِ قبلَ بَدْرٍ، فإنهم طَلَبُوا آيَةً منَ الرَّسُولِ ﷺ فأشارَ إِلَى القمرِ فانفلق فِرْقَتَيْنِ، حَتَّى شاهدوه بأعينهم، فقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، فاسألوا الرُّكبان الَّذِينَ يَقْدَمُونَ مَكَّة هل شَاهَدُوا ذلك أم لا؟ فسألوهم فأَخْبَرُوهم بأنهم شاهدوا ذلك[1].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النَّبيّ ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، حديث رقم (٣٤٣٨)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، حديث رقم (٢٨٠٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر، حديث رقم (٣٢٨٩)؛ مسند أحمد (٤/ ٨١) (١٦٧٩٦)، عن جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ مسند الشاشي (٤٠٤)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقد أنكر قومٌ هَذِهِ الآيَةَ انشقاقَ القمرِ، ومنهم مُحَمَّد رَشِيد رِضا، وأظنُّ شَيْخه كذلك -مُحَمَّد عَبْدُهْ- وهَذَا خطأٌ فاضحٌ والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّ الأحاديثَ فِيهِ مُتَوَاتِرَةٌ، وإشارةُ الْقُرْآنِ إليه ظاهرةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، هم حَرَّفوا الْقُرْآن فقَالُوا: انشقَّ القمرُ، أي: بانَ ضياءُ الحَقّ والنُّور بمـا جاء به الرَّسُول ﷺ، وهَذَا بلَا شَكّ تحريفٌ للقرآنِ وتكذيبٌ بما تواترتْ به السُّنَّة، فالصَّوابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَهُوَ من معتقداتِ أهلِ السنَّة والجماعةِ أنَّ القمرَ انشقَّ.

وقد قالوا: إنَّهُ لوِ انشقَّ لكان أمرًا عالميًّا، وَكَانَ له ذِكْر فِي التاريخِ؛ لِأَنَّهُ أمرٌ عالميٌّ، حَيْثُ إن القمر آيَةٌ أُفُقِيَّة كُلٌّ يُشاهِدُها، وحيـثُ إن هَذِهِ الحالة للقمرِ حالةٌ غريبةٌ خارجةٌ عنِ العادةِ، فالهِمَم تَتوافرُ عَلَى نَقْلِهِ، ولا بدَّ أن تُذْكَر فِي التواريخ كتاريخِ الهِنْدِ والرُّوم والفُرْس ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

فنَقُول: تبًّا لكم أن تجعلوا ما أخبرَ اللهُ به مَوْضِعًا للشَّكِّ لأنَّ هَؤُلَاءِ لم يَذْكُرُوه، بل لَوْ ذَكَرُوا أَنَّهُ لم يَقَعْ لَقُلْنَا: كَذَبْتُمْ وصَدَقَ اللهُ.

وأيضًا الجوابُ عَن هَذَا أن نَقُولَ: لا يَلْزَمُ إذا انشقَّ القمرُ حَتَّى رآهُ أهلُ مكَّة ومَن بِقُرْبِهِم أن يراه النَّاسُ جميعًا؛ لِأَنَّ نصـفَ الكرةِ الْأَرْضيَّة الآخـر لا يُمْكِن أن يَرَوْهُ؛ لِأَنَّهُ غائبٌ عنهم، هَذِهِ واحدةٌ.

كذلك قد يَكُون هذا الأَمْر أتاهم فِي منتصفِ الليلِ أو فِي آخرِ الليلِ أو عندهم غيومٌ مانعةٌ أو مَا أَشْـبَهَ ذَلِـكَ، فموانعُ رُؤْيَتِهِمْ له كثيـرةٌ، ولكِن لا يُهِمُّنَا أن يَـرَوْهُ أو لا يروه، أو يُدَوِّنُوه فِي تواريخهم أو لا يدوِّنوه، وتكذيب الْقُرْآن أو السنَّة المتواترة بمثل هَـذِهِ الأُمُور هَـذَا فِي الحقيقةِ إيغالٌ فِي العقلِ أو فِي العقليَّات كمـا يَقُولُونَ، فالإِنْسَان لا ينبغي أن يَكُونَ عقلانيًّا مَحْضًا، ولا ينبغي أنْ يَكُونَ ظاهريًّا مَحضًا، بل

يجبُ أنْ يَكُونَ عنده عقلٌ يَزِنُ به الأُمُورَ، وإذا بانَتِ الأُمُورُ الشَّرْعِيَّة فَإِنَّهُ لا مجالَ للعقلِ.

إِذَنْ: أراهم الله تَعَالَى آيَاتٍ مِنْهَا انشقاقُ القمرِ، ومنها أيضًا أن النَّبِيّ ﷺ شَهِدَ النَّاسُ كلُّهم أنَّ الحَجَر يُسَلِّم عليه، والشجر يُسلِّم عليه، حَتَّى إِنَّهُ يَقُول: «**كَانَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ**»[1].

وكذلك أيضًا منَ الآيَاتِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، يوم بدر حصلَ فِيهِ منَ الآيَاتِ من قَتْلٍ وسَبْيٍ؛ قَتْل لِرؤساءِ الْكُفَّارِ لَيْسَ لِأَطْرَافِهِم؛ لِصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وقَتْلُ صناديدِ أعداءِ النَّبِيّ ﷺ آيَةٌ له؛ لِأَنَّ ذلك نَصْرٌ له، ولو كَانَ ما قاله باطلًا ما كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيَنْصُرَهُ أبدًا؛ لِأَنَّ اللهَ لا ينصرُ الباطلَ عَلَى الحَقّ نصرًا مُسْتَمِرًّا، ولكِن قد يَكُون للباطلِ صَوْلَةٌ لِيُمَحِّصَ اللهُ المُؤْمِنِينَ، فيَنْتَصِر أهلُ الباطلِ لَكِنَّهُ انتصارٌ مؤقّت.

كذلك أيضًا السبيُ؛ سُبِيَ منهم سبعونَ رَجُلًا وذُهِبَ بهم إِلَى المَدِينَةِ، والمسبيُّون أيضًا مِن أَشْرَافِهِم.

المهم أنَّ وَقْعَة بَدْرٍ أَثْخَنَتْهُم تمامًا، وأذَلَّتْهُم إذلالًا بالِغًا؛ ولهَذَا سمّاه الله تَعَالَى يومَ الفُرْقَان؛ لِأَنَّ اللهَ فَرَّقَ فِيهِ بينَ الحَقّ والباطلِ، وتعلمون أن النَّاس يَنتظرون ماذا سَيَحْصُل، فالعربُ لَمَّا رَأَوْا أنَّ النَّبِيّ ﷺ وأصحابه وَهُمْ قِلَّةٌ ثَلاثُمِائَةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ رجلًا غَلَبُوا حوالي ألف من قُرَيْش كاملو العُدَّة والعددِ كثير، عَرَفُوا أن أمرَ الرَّسُولِ ﷺ سَيَظْهَر.

وكذلك أيضًا الملائكةُ يَضْرِبون وُجُوهَهم وأدبارَهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النَّبِيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٧)، عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهل هَذَا وَرَدَ فِي بدرٍ أو وَرَدَ فِي الْكُفَّارِ مُطْلَقًا؟

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، لكِن فِي بـدرٍ هل ذُكِـرَ أنَّ الملائكـةَ تَضْرِب وجوههم وأدبارَهُم؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، فلَيْسَ فيها أَنَّهُ تُضْرَب الوجوهُ والأدبارُ، وفيها أَنَّهُ يُضْرَب فوقَ الأعناقِ، فتُضْرَب أعناقُهم ويضرب منهم كُلّ بَنَانٍ، يَعْنِي الأيديَ، فهَذَا هُوَ الظاهِرُ.

وأمَّا ما ذهب إليه المُفَسِّـر فلا أعرِفُ فِي ذلك سُنَّةً أيضًا بَيَّنَتْ هَذَا، وإن كَانَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له وِجهةُ نَظَرٍ بأن الملائكةَ تَضْرِب وُجُوهَهم إذا أَقْبَلُوا عَلَى المُسلِمينَ، وتضرب أدبارهم إذا أَدْبَروا عنِ المُسلِمينَ، لكِن ما دامَ أن هَذَا لم يَرِدْ فالأَوْلى الاقتصارُ عَلَى ما وَرَدَ، وَهُوَ أن الله قَالَ لهم: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، لم يقلِ: اضْرِبوا وُجُوهَهم وأدبارهم.

إِلَّا أن يقولَ قائلٌ: إن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، يشمل هَؤُلَاءِ فإنهم منَ الكفارِ، فالملائكة عندَ الوفاةِ يَضْرِبُون وجوههم وأدبارهم، فإنْ أراد المُفَسِّر بهَذَا ما يُشير إليه عُمومُ الآيَةِ فهُوَ مقبولٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّار]، معناه: عَجَّلَهُم الله قبلَ موتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فحصل لهم هَذَا الأَمْرُ وعُجِّلُوا إِلَى النَّارِ.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ]، أي: «عما يَعملون» و﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قراءتانِ سَبْعِيَّتَانِ[1] [وإنما يُمْهِلُهُم لِوَقْتِهِم].

قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هَذِهِ الجملةُ المقصودُ بها التحذيرُ والتسليةُ؛ تحذيرُ هَـؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِيـنَ وتَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وفيها من صفاتِ اللهِ أَنَّهَا صِفَـةٌ من الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّـة، وقـد تَقَدَّمَ أنَّ الصِّفَات السَّلْبِيَّـة تَتَضَمَّن أمرينِ: نَفْيَ الصِّفةِ المذكورةِ، وإثباتَ كمالِ ضِدِّها، فالله تَعَالَى لا يَغْفَلُ لكمالِ عِلْمِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، كاملُ العلمِ وكاملُ المراقبةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢].

• • ۞ • •

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٦).